تحت الأرض وفوق الأرض

غربة اليسار المصرى

obeikan.com

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - يناير ٢٠١١ م

مكتبة الشروق الدولية

١٧ شارع فريد سميكة - مصر الجديدة - أمام نادى الشمس

تليفون وفاكس: ٢٢٤١٥٨١٦ ـ ٢٢٤٠٤٨٦٨

٢٦٤٣٢٤٨٨ ـ ٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

obeikan.com

د. محمد الجوادى

تحت الأرض وفوق الأرض

غربة اليسار المصرى

مكتبة الشروق الدولية

obeikan.com

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الجوادي، محمد.

تحت الأرض وفوق الأرض: غربة اليسار المصري/ محمد الجوادي

ط ١ ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠م.

٤٨٠ص؛ ١٧×٢٤سم.

تدمك 978-977-701-008-5

١ – اليمين واليسار (سياسة)

أ- العنوان. ٣٢٠,٥٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/٥٨٦٨م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-701-008-5

obeikan.com

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
الإهـداء	٧
هذا الكتـاب	٩
فهرس تفصيلى	١٥
• الباب الأول: ذكريات وراء القضبان.. مذكرات ألفريد فرج	٥٧
• الباب الثانى: مجرد ذكريات : مذكرات الدكتور رفعت السعيد، الجزء الأول	٩٩
• الباب الثالث: الجزء الثانى من مذكرات الدكتور رفعت السعيد	١٨٥
• الباب الرابع: مذكرات محمد يوسف الجندى، الجزء الأول	٢٢٥
• الباب الخامس: مذكرات محمد يوسف الجندى، الجزء الثانى	٢٩٥
• الباب السادس: مشيناها خطى: مذكرات الدكتور رءوف عباس	٣٢٧
• الباب السابع: عمر فى العاصفة: مذكرات أحمد عباس صالح	٣٨٧
• الباب الثامن: من ذكريات معتقل سياسى: مذكرات الأستاذ صليب إبراهيم .	٤٥١
• ببليوجرافيا المذكرات التى تناولناها فى هذا الكتاب	٤٦٩
• قائمة ببليوجرافية بالمذكرات التى تناولناها فى مجموعة كتب هذه السلسلة	٤٧٠
• كشاف الأعلام الواردة فى الكتاب	٤٨٣
• كتب للمؤلف	٤٩٧

obeikan.com

obeikan.com

إهـــــداء

إلى الصديق الكريم
الأستاذ سليمان جودة
تحية إعزاز وتقدير

د. محمد الجوادي

obeikan.com

obeikan.com

هذا الكتاب

نتناول فى هذا الكتاب مجموعة منتقاة من مذكرات اليساريين المصريين الذين عانوا أنواعا مختلفة من الاغتراب: اغتراب السجن، واغتراب الوطن، واغتراب الفكر، واغتراب الحالة النفسية، وقد جمع بين كل هذه الأنواع من الاغتراب التى فرضت عليهم سبب واحد هو تمسكهم بالفكر اليسارى.

وقد عاش هؤلاء معظم حياتهم يعانون من هذا الاغتراب شبه الدائم، وأتيحت لهم فترات ابتعدوا فيها عن الشعور بالاغتراب، لكن الاغتراب نفسه فرض نفسه عليهم، فكيف ليسارى مصرى أن يسعد تماما بمعيشته فى جامعة يابانية، أو مؤسسة صحفية تعمل فى لندن، أو فى براج، أو فى استكهولم؟! وكيف له أن يسعد حين يعمل فى شركة من شركات القطاع العام يحاول فى بعض أيامه أن يواصل فهمه اليسارى لكنه يقضى كل الأيام الأخرى فى عمل أقرب إلى الروتينية وإلى اليمينية أيضا؟ بل كيف يمكن له أن يعمل فى محيط علمى لا يؤمن بأحقية فكره فى الوجود من الأساس؟ وكيف لهذا أو ذاك أن يحس بطعم النجاة من السجن والاعتقال بينما هو يرى إمكانية حدوث ذلك قائمة بالليل والنهار؟ وكيف له أن يطمئن إلى تقارير الأجهزة الأمنية أو إلى موقفها على وجه العموم؟

ثم تتضاعف الغربة مرات كثيرة حين يجد اليسارى المصرى نفسه يعانى من انشقاقات اليسار، واتهام بعضهم لبعض بالعمالة للمباحث؟! ولا يقف الأمر فى الانشقاق والاتهام على الجماعات المنشقة بالفعل، لكنه يجد نفسه جاهزا حين يرمى الأستاذ على تلميذه بمثل هذا الاتهام على نحو صريح وعلنى! ولا يجد التلميذ وسيلة

لنفى التهمة عن نفسه، ولا لاسترضاء الأستاذ، وهكذا فقد يجد التلميذ البارز صدر أساتذته من غير اليساريين أكثر حنوا عليه من صدر أستاذه اليسارى.

هذه أمثلة سريعة لما تصدقنا المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب فى تعبيرها عنه تعبيرا يقترب من الحقيقة، ومن الواقع، ويعبر عنها بعبارات جميلة لا تقف عند حدود الجمال فى التعبير، وإنما تتعمد الصدق فى التصوير، والقص، والإفضاء بمكنونات نفوس عذبها الهوى، ولا يزال يعذبها، حتى بعد أن رحلت عن الدنيا الفانية.

***

والحق أن معاناة اليساريين المصريين كانت معاناة فريدة الطابع، وإن لم تكن سيئة الطالع، فقد بدأت بتجاهل بسيط، واشمئزاز أبسط على يد الزعيم سعد زغلول ووزارته الوطنية الأولى، وهو الذى صرح بأن وزارته غير معنية بالمسائل الاجتماعية، وذلك على الرغم مما أخذته جريدة «السياسة» على برنامجه فى الإفراط فى الحديث عن الأمور الداخلية على حساب قضية الاستقلال.

ثم سارت أمور اليسار هينة لينة، وإن لم تكن واعدة، حتى جاءت حملة صدقى باشا على اليسار المصرى فى ١٩٤٦ لتضيف اليساريين إلى قائمة الذين عانوا من بطش صدقى وجبروته، ومن الطريف أن صدقى باشا بطش باليساريين حين كان فى السن التى كفّ فيها عن البطش بخصومه!! وحين تعدى السبعين من عمره، ومنذ ذلك الحين بدأ اليساريون سجلهم «العابر» بالمباحث العامة، و«العامر» بالعنت والعذاب، حتى جاء عهد الثورة وعهد الرئيس جمال عبد الناصر فذاقوا ما ذاقوا مما يعرفه الخاصة والعامة، ومما لم تعرفه جماعة بشرية من مثلهم من قبل، وقضوا زهرة عمرهم فى معتقلات الثورة مغتربين عن الحياة، ثم خرجوا إلى الحياة فوجدوا حقيقة أخرى، فقد زايد عليهم عبد الناصر نفسه فى كل ما نادوا به من صور العدالة الاجتماعية.

ثم جاء عهد الرئيس أنور السادات، الذى زايد على موقفهم من الصراع العربى - الإسرائيلى، واعترف بما كان بعضهم ينادى بالاعتراف به!! وفاوض علنا فيما كان بعضهم يفاوض فيه سرا، لكنهم لم يستوعبوا ولم يكن هو فى ظنه فى حاجة إلى أن يستوعبهم، وهكذا أضاف إلى غربتهم عن نظام الثورة غربة أخرى جعلت بقاءهم فى وطنهم أمرا صعبا على نفوسهم.

وهكذا بقى من بقى مغتربا، واغترب من سافر أو هاجر مغتربا كذلك.

وبدأ عهد الرئيس محمد حسنى مبارك، وقد استقرت الأوضاع بحيث لا تسمح لليسار المصرى إلا بهذا الهامش الضئيل الذى لايزال بعض أصحابه يحرصون عليه، ولايزال بعضهم الآخر ينتقص منه أو يضيفه بإرادته الحرة الواعية.

***

ورغم كل هذا التطور تبقى الذكريات الجميلة عن الآمال المثالية، وعن التطلعات المشروعة، وعن لحظات الكفاح اللذيذ الذى دفع البعض فيها ثروته، أو عمره، أو حريته طواعية وحبا من أجل اليسار وقيم اليسار النبيلة عن طيب خاطر.

***

فى هذا الكتاب إذًا تصوير شيق لنفوس بشرية شاء حظها أن تعيش الأمل. وأن تفقده، وأن تعود إليه، وفيه تصوير شيق أيضا لآمال تحطمت، ولآمال بنيت، ولآمال تبددت!

وفيه قبل كل هذا حوار مع النفس يلومها فى بعض الأحيان، ويفخر بها فى بعض الأحيان الأخرى، ويعجب من شأنها فى كل الأحوال.

فى هذا الكتاب محاولة لفهم الحياة على أساس مادى، وفيه أيضا اعتراف غير مستتر بعجز التفسير المادى عن تفسير الحياة.

وفى هذا الكتاب إعلاء للواقع بما فيه من إعلاء للقيم والتطلع، وفيه إيحاء بالفخر بالانتصار على الزمن بقدر ما فيه من شك فى القدرة على الانتصار على هذا الزمن نفسه.

نرى ألفريد فرج وقد جعل حياته المسرحية تتوحد مع حياته السياسية من خلال رواية قصة كتابته لمسرحيته الشهيرة «حلاق بغداد» فى أثناء سجنه على ذمة قضايا الشيوعيين، وهو يعبر بهذه القصة عن كل ما يريد أن يعبر عنه من شعوره بغربة اليسار المصرى فى العهد الناصرى، ثم انفراجة هذه الغربة إلى حين.

ونرى رفعت السعيد الذى مارس الكتابة الصحفية والتاريخية والسياسية وتفوق فيها جميعا، يروى ذكرياته الطويلة، معبرا بكل ذكاء عن غربته هو نفسه داخل اليسار، على الرغم مما وصل إليه من رياسة حزب اليسار المصرح به من الحكومة، ومعبرا عن غربة التوجه الذى اختطه لنفسه فيما بين التوجهات العالمية لليسار والحركة الشيوعية، وهو ما أدى به إلى الانسحاب مبكرا من وظيفة مرموقة فى مجتمع يسارى دولى كى يمارس أفكاره على نحو ما اقتنع بها بعد ما كونها، وهو يحدثنا حديث المجتهد عن فهمه لأوجه الخلاف بين الفصائل اليسارية المختلفة، وعن سبب انحيازه إلى هذا التوجه أو ذاك من دون أن يسفه الآخرين أو يخونهم، وهو حين يكتب مذكراته وقد بلغ مرحلة النضج يحرمها مما كانت حفية به وقادرة عليه من حماسة الاختلاف لو أنها كتبت فى مرحلة مبكرة حين كان الخلاف هو الطابع المسيطر على الرأى وعلى العلاقات، وهو يحاول بذكاء شديد أن يتجاوز عن الآثار النفسية الرهيبة التى أحدثها موقف ثورة يوليو من اليسار طيلة عهدى عبد الناصر والسادات، لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يتغاضى عما عاناه تاريخ حياته هو نفسه من عذاب نتيجة هذا الموقف المتعسف الذى وقفته الثورة واستمرت فيه طيلة عهدى الرجلين.

نرى محمد يوسف الجندى الذى تنازل عن ثروته للحزب الشيوعى، وقد أصبح يبحث عن العمل فى بلد آخر، ويجاهد من أجل لقمة العيش جهادا لا يلهيه عن إيمانه باليسار، وإن جعله يعانى من اليسار وأهله معاناة متصلة.

نرى رءوف عباس يساريا ينفى عن نفسه الإيجابية، ويصور نفسه واحدا من الأغلبية الصامتة، لكنه مع هذا يخرج عن صمته فينتقد فى عهد عبد الناصر أداء القطاع العام وفساده، وغياب الحرية السياسية، كما ينتقد فى عهود ما بعد عبد الناصر مظاهر أخرى متعددة من الفساد والجهل.

نرى أحمد عباس صالح يروى معاناته مع الثورة منذ أن تعاون معها، وحتى أصبح لفترة طويلة طريدا لبلاده، يعيش خارجها، ويخدم غيرها.

ونرى صليب إبراهيم يعيش تجربة السجن فيخرج منكفئا على نفسه، مكتفيا بالفخر

بمشاركته فى صحافة شركة قطاع عام مشاركات رمزية تروى بعض ذكريات عن زمن ولى . . وظن هو نفسه أنه لن يعود .

وفى كل هذه الأحوال فإننا نسعد بكل ما نقرأ، ونتعاطف مع كل ما نقرأ، ونحاول أن نفهم من كل ما نقرأ، وأن نتدارسه، وأن نطلع أهالينا على مواطن العبرة فيه، وعلى مواطن النقاط الغامضة فى تاريخنا المعاصر الحبيب إلى قلوبنا جميعا .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامى ، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى ، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول. وهو جلّ جلاله الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية . فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل .

د . محمد الجوادى

obeikan.com

فهرس تفصيلى

الباب الأول: ذكريات وراء القضبان.. مذكرات ألفريد فرج

● ألفريد فرج يروى قصة أيامه الأولى فى المعتقل فيختار قصة لا يتنبه إليها إلا مسرحى ممتاز من الطبقة العالية التى يمثلها» يعتز بمسرحية «حلاق بغداد» اعتزازا كبيرا، وهو فى إحدى الفقرات يصف علاقته بها وبنجاحه ● يحدثنا باعتزاز عن اختلاف ردود الفعل تجاه مسرحية «سقوط فرعون» واتجاه معظم النقاد إلى التنديد بالمسرحية، على حين يذكر أربعة فقط من الأعلام دافعوا عن هذه المسرحية، بيد أن كامل الشناوى عبر عن الموقف كله فى عبارة ساخرة ● رأيه الواضح الذى ينتقد فيه ما يسميه «القراءة الرقابية» للأدب، وهو المنهج الذى أوذى هو نفسه بسببه، كما أوذيت به أعمال كثيرة فى عهد الثورة ● يكاد يعطى العذر للنقاد والرقباء الذين «تدرجوا» إلى الانسياق وراء هذا الأسلوب ● يلفت نظرنا إلى بعض المفارقات التى جعلت «سقوط فرعون» تحظى بهذا الحظ النكد، ومن هذا الذى يرويه صاحب المسرحية نكتشف أن أحمد رشدى صالح كان هو الذى أطلق على المسرحية هذا الاسم الذى أعجب به مخرجها حمدى غيث، بدلا من اسمها الأصلى «مأساة إخناتون» ● يعترف بأنه كان فى وسعه أن يغير اسم المسرحية بعدما شاع فى الصحافة البريطانية تسمية عبد الناصر بالفرعون، لكنه رأى مثل هذ التصرف مستحيلا، وكأنما يريد ألفريد فرج أن يقول إنه كان يستحق ما أوذى به هو ومسرحيته ونقادها (!!) كما نكتشف أن هذه المسرحية نفسها كانت صدى مباشرا لإعجاب ألفريد فرج بقصة عادل كامل الشهيرة «ملك من شعاع» ● يتحدث عن أن هذا التوجه فى تناول الأعمال الأدبية لم يكن قاصرا على مصر وحدها، وأنه هو نفسه عانى منه (فى إحدى مسرحياته الأخرى) فى ألمانيا الشرقية، وكأنما يريد ألفريد فرج أن يدين النظم الشمولية فى تعاملها الرقابى مع الأدب والفن من دون أن يقول ذلك صراحة ● تجربته مع السجن وما أحس به فيه من غربة أو اغتراب، وكيف حاول كسر هذه الرتابة والوحشة من خلال استبطان هوايته للمسرح وحبه له ● يتحدث عن شعوره بالغربة فى المعتقل حديثا مختلفا عن أحاديث أقرانه من اليساريين ● يحاول أن ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى يتعاطف بها مع محققيه وسجانيه ويراهم مثله قد تحولوا إلى قشة فى مهب الريح، وهو من أجل

هذا يخرج عن السياق ليستشهد بالحوار الذى دار بين أحد زملائه (د. محمد الخفيف) وقائد المعتقل حول إمكانية صدور أحكام على زملائه دون أن يخطروا بها، ومن ثم يعاملون معاملة الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة دون أن يدرون ● يرى أن النظام الناصرى حقق أوضح صورة لما كان الكاتب التشيكى كافكا يتصوره! ● يشعر بالغربة لسبب آخر تكشف عنه السطور التى يردف بها رواية ما حدث معه فى التحقيق ● يمضى فى تأمله للجوانب العبثية فى تجربة فقدانه هو وزملائه الحرية على مدى سنوت ● يروى قصة الصحيفة التى حملتها الريح إلى المعتقل ذات يوم وقد حملت تصريحا ينفى وجود المعتقلات فى مصر ● ينتقل بعد حوار مسرحى إلى القول بأنهم عاشوا خارج الدنيا والتاريخ فى صندوق محكم ● لا نستطيع أن نروى كل ما خبره أو صوره ألفريد فرج فى المعتقلات من فظائع يشيب لها الولدان على حد تعبير البلاغة التقليدية ● يتحدث عن ذهاب المعتقلين فى «الحجلة» إلى معتقل الواحات، وقد تعمد ألفريد فرج أن يسرب فى حديثه رموزا دالة على شعوره الخفى تجاه هذه المحنة، انظر على سبيل المثال إلى قوله «الأسرى المعتقلين» فى وصف نفسه وزملائه، وما يحفل به هذا المصطلح من دلالة فاضحة على شعور السلطات تجاه أبناء الشعب!! ثم انظر إلى هذا التصوير الدقيق لحالة الشعب نفسه الذى لم يتحمل أن يشهد للحظة واحدة صورة من صور هذه المعاملة القاسية التى كانت السلطة فى مصر تعامل بها أبناءها من الذين اتهمتهم بالشيوعية ● يتصاعد بالدراما الإنسانية إلى ذروة من ذراها التى تعبر عن قسوة البشر على البشر حين لا يأتيهم مَنْ يراهم من البشر إلا لغرض آخر يضيف إلى عذابهم عذابا ومرارة، فها هى زوجة تأتى ومعها المأذون لتحصل على حريتها!! (بالطلاق) من زوجها المعتقل ● يحدث نفسه وكأنه يحدثنا أو يحدثنا وكأنه يحدث نفسه ● ربما نظلم ألفريد فرج إذا ما نحن أهملنا حديثه عن المعتقل من خارجه بعد مضى هذه السنوات، وهو الذى يصور المعتقل تصويرا فلسفيا يستند إلى التاريخ ● لأن ألفريد فرج رجل مسرحى الدم والهوى والمنطق فإنه يجد نفسه مدفوعا إلى أن يبحث عن المفارقات المضحكة كى يسخر بها من جلاديه ● يقص علينا قصة واحد من زملائه الذين صمموا على أن يكسروا هيبة رجال المعتقل وأن يتحملوا العناء والتعذيب من أجل النكتة والضحكة!! حتى إنه كسر كتفيه من أجل أن يكسر هيبة الذين عذبوه!! ● لا يخلو أمر الحياة المرة من بعض ما يخفف قسوتها، ومن الطريف أن ألفريد فرج ينتبه فى ذكاء شديد إلى الدور الذى لعبه الراديو الترانزستور فى القضاء على بعض المشاعر القاتلة فى المعتقل، ويكاد التصوير الذى يقدمه ألفريد فرج يجعلنا نشر أن المعتقل فقد قسوته بسبب اختراع الراديو الترانزستور، وأن المعتقلات قبل هذا الاختراع كانت جحيما نفسيا لا يطاق ● إلى جوار الراديو الترانزستور جاء بصيص أمل فى قيام المعتقلين بدورهم فى محو أمية سجانيهم ● ونحن نرى

ألفريد فرج حريصا على الحديث عن الحيوية التى دبت فى المعتقل حين صدر قرار لوزارة الداخلية بألا تحظى عساكر الشرطة بالترقية بالأشرطة إلا بعد اجتياز امتحان القراءة والكتابة، وهكذا وجدت الوظيفة، فمن الذى سيفتح فصول محو الأمية فى هذه المنافى البعيدة إلا المعتقلون أنفسهم، ويدرسون للجند الحارسين النظام القراءة والكتابة ● يتحدث عن لحظة الإفراج عنه حديثا مختلفا لكنه يشع بتقديم الحرية والإنسانية، ومن وجهة نظر فنان حرم من الحرية ومن المعاملة الإنسانية ومع هذا فإنه لايزال يعجب من هذا الذى حدث له ● وهو يعبر عن عجبه بأن يحاور ضابط أمن الدولة فيما يخاطب به من عبارات بروتوكولية تقليدية لا تهدف إلا لتجاوز اللحظة، لكن ألفريد فرج بما جبل عليه من مهارة مسرحية يرى أن اللحظة أثمن من أن يتم تجاوزها على هذا النحو، وانظر إليه وهو يصف نبرة حديث حسن مصيلحى: «قال: برقة حانية لا تتناسب مع ما وقع» ● يحرص فى ذكاء شديد على أن يتعاطف مع ضباط الشرطة الذين قبضوا عليه، وبعد أن يصف كيف اصطحبوه من «دار الهلال» على السلالم إلى بيته يتطرق إلى تفتيش بيته ● يستغل سياق أحداث مسرحيته فى ذكاء شديد ليبدى نقده المرير لسياسة محمد على باشا فى الفتك بالمماليك، ونحن نرى حديثه عن الطريق الذى صعدت فيه به سيارة البوليس إلى المعتقل وتصويره للطريق على أنه نفق مكشوف سهل مهمة محمد على فى الفتك الغادر بالمماليك بطريقة بشعة ● من الحق أن نقول إن وصف ألفريد فرج لهذه المذبحة فى هاتين الصفحتين يفوق كل ما يستطيعه المؤرخون وكتاب التاريخ من تصوير لبشاعة المذبحة ● يبدى رؤيته التاريخية العميقة فى دهاء بجعل المتلقى يعرف أنه لا يقصد محمد على بذاته، ولكنه يقصد كل الذين اتخذوا محمد على مثلا أعلى، لكنه لا يفعل ذلك بالخروج عن النص، ولا الخروج على الهامش، وإنما هو يفعله فى إطار تصويره الذكى للحظة اعتقاله.. وهكذا يصور لحظة دخوله الزنزانة تصويرا دراميا مؤثرا تختلط فيه الدراما بالتاريخ بالنقد بالحديث المزدهى عن الذات وألم الذات ● يروى قصة حمدى غيث مع النظام الناصرى التى نقلناها عن أحمد عباس صالح فى مذكراته بطريقة أخرى أكثر اختصارا ● إذا ما انتقل بنا ألفريد فرج إلى قصة عرض المسرحية وجدنا حديثا ممتعا إلى أبعد حدود الإمتاع عما دار فى اختيار المخرج للفنانين الذين يقومون ببطولة العرض، وعما دار فى الكواليس من أجل التجهيز لهذا العرض، وعما تكرر من بروفات وتجارب إلى أن نصل إلى لحظة التجلى حين عرضت المسرحية لأول مرة فإذا بالتصفيق ينهال، وإذا بعامل البوفيه نفسه ينبه ألفريد فرج إلى أهمية مسرحيته من حيث أنها التعبير الحى عن رغبة طلعت حرب الذى أسس المسرح لهذا الغرض ● وربما كان من الأمانة أن نشير إلى أن ألفريد فرج نفسه عنى بتصوير شخصية رجل البوفية هذا فى كثير من كتاباته، حتى إنه كتب عن حياته فى كتابه الناس فى الحكايات ●. يحرص

على أن يقدم التعبير عن نجاحه بصورة إحصائية، وهى صورة توضح مكانة ألفريد فرج بين زملائه فى مسرح الستينيات بطريقة رقمية ● إذا كان لابد لنا من فقرة تصور جوهر السياسة فى المسرحية فهى «خطبة الخليفة المتدفقة بالسخط» ● مقطع لا يناقش الحرية فقط، ولكنه يناقش المسئولية أيضا ● يفخر بما كان هذا المقطع يحدثه فى الجماهير من أثر ● يعبر بكل صدق عما كان يشعر به من التوجس والقلق وقد رأى نصه المسرحى وقد تحول بالفعل إلى ما يشبه منشور سياسى مؤثر أصبح له مرددون مقتنعون به فكرا ومضمونا، وقد بدأوا ينفعلون به على طريقة لا تبعد به عن أن يعود إلى المعتقل ● على الرغم من أننا قد نتصور أن ألفريد فرج نجح فى أن يمرر مسرحيته من المناخ الفكرى المتربص، فإن طبيعة الأشياء فى المجتمع الشمولى تعود لتفرض نفسها ● ما لقيته مسرحيته على يد رقابة التليفزيون ● على هذا النحو وصل ألفريد فرج إلى ذروة النجاح، وعلى هذا النحو عبر لنا عما وصل إليه من ذروة النجاح، وعلى هذا النحو أصبحنا نؤمن عن يقين واقتناع بأنه وصل بالفعل إلى ذروة النجاح ● يتحدث عن أبرز النجاحات التى حققتها تجربته فى كتابة مسرحية «حلاق بغداد» ● نأتى إلى القضايا الفنية والأدبية التى قدم ألفريد فرج رأيه فيها متظاهرا (عن صدق) بأن مسرحية «حلاق بغداد» كانت السبب فى صياغة موقفه منها بهذا الوضوح، وربما أراد أن يقنعنا (دون تصريح واضح) أن فترة الاعتقال هى التى أتاحت له هذا التأمل الذى ساعده على أن يصوغ رأيه الفنى على هذا النحو الذكى ● يتحدث عن مكانة مسرحية «حلاق بغداد» فى التيار المنادى باستلهام التراث مبرزا ما يعتقد أنه كان بمثابة جانب التميز فى استلهامه هو نفسه للتراث ● يقارن بين مسرحيتيه الأولى والثانية، مركزا على إيمانه بالمسرح الشعبى ● فى مقابل هذا النجاح الجماهيرى الذى صادفته مسرحية «حلاق بغداد» فإن ألفريد فرج صادف هو وأقرانه غربة قاسية صعبة حين كانوا يستمعون على مقهى الفيشاوى إلى كثير من الأحكام الصادمة لهم تأتى على ألسنة مثقفين يزعمون أن عصر المسرح قد انتهى، وأن المسرح قد مات، ومن الإنصاف لألفريد فرج وأقرانه أن ننقل عنه ما يصور شعورهم بالغربة من مثل هذه الأحكام المتسرعة التى كان يمكن لها أن تؤثر فى عزيمتهم ● ألفريد فرج لا يبخل علينا بما يصور إحساسه هو ورجال المسرح من الغربة فى وسط جماعات المثقفين التى تدعى الفهم بينما هى غير قادرة على الحكم السليم، وهو يروى بطريقة ذكية وطريفة حوارات دارت على مقهى الفيشاوى ● إذا كان لابد لنا من شخصية نبرز ثناء ألفريد فرج عليها فى هذه المسرحية فإنها شخصية الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الوفدى الشهير، الذى كان مغرما بالفن والثقافة، وقد حضر مسرحية «حلاق بغداد» أكثر من مرة، وفى إحدى هذه المرات دار حوار بديع

بينه وبين ألفريد فرج الذى حرص على أن يضمنه فى ذكرياته ● نختم حكاية المسرحية بالحديث عما لقيته بعد هذا من الذيوع والانتشار والتكريم.

***

الباب الثانى: مجرد ذكريات : مذكرات الدكتور رفعت السعيد - الجزء الأول

● التعريف بصاحب المذكرات ، قصة التجربة الحاسمة التى عاشها في مطلع ١٩٥٩ عند اعتقال الشيوعيين حين لم يكن قد قضى فى الحرية إلا أياما معدودة ● صاحب المذكرات يضحى بمشاعر أسرته جميعا من أجل ما يعتقد، وهو الذى لم يخرج من السجن إلا أياما قليلة فى نهاية ١٩٥٨ ، كان فى وسعه أن ينهى تجربة الألم الذى سببه لوالده ولوالدته ولأخوته، لكنه، كان قد قرر من تلقاء نفسه أنه لا يليق به أن يترك الكفاح ولا أن يترك فرصة الهرب ولا حتى فرصة السجن من جديد كيما يدافع أمام نفسه عما تعتقده نفسه ● تتعاقب الأحداث عليه وهو لا يدرى ماذا يفعل، وأى قرار يختار ● يلتقى بكمال عبد الحليم فإذا به لا يرغب فى أن يقيده بقرار معين يصبح ملزما له ● يقرر بكل إيمان أن عليه أن يسرع بأن يترك هذه الحياة الطبيعية إلى حياة الكفاح مهما كلفه الأمر ● يصور الأمر فعلا إيجابيا تمثل فى التباطؤ عن أن يصل إلى بيته فى الموعد الذى حدده البوليس ، يصور دافعه إنسانيا قبل أن يكون تنظيميا ● يجيد تصوير شعوره بالراحة النفسية، حين قرر أن ينهى إلى والدته عن طريق الكتابة أنه عائد إلى عذاب الكفاح!! وهى التى لم تتمكن بعد من الفرحة بعودته من السجن الأول الذى غاب فيه خمس سنوات ● يصور أجواء الحرية خارج إطار السجن والهرب على أنها «الرداء الخارج عنه» ويعبر عن سعادته بخلع هذا الرداء، ويعترف، بمدى قسوته على والدته وأهله ● يقدم صياغة جميلة فى فقرات أدبية عالية القيمة يصف فيها شعوره حين خرج من السجن بعد أول حكم عليه قضاه فيه كاملا، وهو السنوات الخمس، ومن العجيب أنه صادف الحقيقة المؤلمة وهى أن سجنه لا ينتهى إلا مع فجر عصر جديد من الاعتقالات الواسعة المكثفة لليسار المصرى ● يقدم القصة بكل رتوشها وتفصيلاتها مركزا على الجوانب الإنسانية الفارقة فى علاقته بأسرته الصغيرة: والده ووالدته واخواته ● كيف بدأ بالصدفة يستمع إلى خطاب عبد الناصر الشهير الذى كان بمثابة إعلان حرب على الشيوعيين ● يتحدث عن إحساسه بالغربة الذى يتزايد كلما اقترب من أهله الذين كانوا بالطبع بعيدين عن دنياه فى العمل السرى، وفى الشيوعية أيضا ● يجيد التعبير عن لحظات التأمل وما قاده إليه من تعميق الصراع بين الالتزام بما يعتقده وما يجلبه هذا الالتزام من عذاب للأهل ● فى وسط هذا الحديث لا يمانع رفعت السعيد فى وصف صوت عبد الناصر بالحقود ● يعترف أنه كان من الممكن له فى

بداية عهد الثورة أن ينجو من الحكم بخمس سنوات من الأشغال الشاقة، لكنه أضاع هذه الفرصة أو ترك هذه الفرصة تضيع حين أطاع تعليمات المسئول عنه فى التنظيم الشيوعى الذى كان ينتمى إليه ● يقدم القصة على نحو سريع وخاطف، إلا أن دلالاتها كثيرة ومتعددة، وهى دلالات واضحة ومعبرة وليست فى حاجة إلى تعليق!! وقد أجاد صاحب المذكرات تقديمها بما يوحى بما فى دلالاتها من معان ظاهرة، ومعان عميقة أيضا ● أهم هذه الدلالات هو التصوير الجيد الذى يقدمه رفعت السعيد لموقف حركة «حدتو» من ثورة يوليو وكيف كانت معاناتها من عقدة تأييدها المبكر للثورة تدفعها إلى الوقوع فى خطأ الهجوم على الثورة، وما كان هذا يستتبعه من إتاحة الفرصة للثورة نفسها لتتهم «حدتو» بما من شأنه أن يضع أفرادها تحت طائلة العقاب!! وأن يدفع بهم إلى العقاب بالفعل ● صاحب المذكرات ضحية لهذا الموقف المركب على نحو ما نلمس فيما يرويه ● تأتى لحظة الحل أو بالأحرى لحظة التعقيد وخلق المشاكل، وها هو المسئول عنه فى العمل السرى لا يرضى له حرية مقابل المال، بينما غيره عاجز عن المال الواهب للحرية ● يعترف بأنه اتخذ قراره الخاطئ برفض الوسيلة المتاحة التى كانت كفيلة بخروجه من السجن وإراحته من الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات خوفا من أن يتهم بالتخاذل ● يعترف بالخطأ، ربما ليبرر مواقف تالية، يتناول قصة الإفراج عن مجموعة من زملائه السودانيين على يد المحكمة ● المذكرات كلها اغتراب فى اغتراب، وكأنما حياة صاحبها لا تولد إلا الاغتراب ● لكن رفعت السعيد فى ذكاء شديد يبدأ ذكرياته على نحو يصور لنا أنه كان فيما اختاره لنفسه من حياة متفقا مع نفسه، ومع تكوينه، ومع أصوله، ومع بيته، ومع بيئته، بل إنه فى بداية مذكراته يحرص على الفخر بأنه من نسل رجل مات شهيدا وفديا وهو جده لوالدته ● يصور ذكرى جده على نحو ما مضت: قبر ضاع، ثم نصب تذكارى فى عهد الوفد ١٩٣٦، ثم يد همجية فى ١٩٤٦ تدمر النصب ● ثم ها هو رفعت السعيد ينتقم بكفاحه المتصل من كل هذا الظلم على قدر ما يتاح له ● يمضى فى هذا التصوير الجيد لروح البيت التى دفعته إلى هذا الطريق الشاق حين يتحدث باعتزاز ذكى عن إصرار جدته الوطنية الواعية الذكية على زيارته فى المعتقل وتشجيعه على موقفه الذى دفعه إلى هذا الاعتقال ● يخصص فصلا مثيرا بعنوان «الحب غير القضبان» يبعث على الأمل والسعادة والفرح لصاحب المذكرات حين يتحدث فى هذا الفصل بنشوة وبخجل شرقى شديد عن بداية حبه لزوجته الفاضلة التى شاركته الكفاح والسجن ● نراه متمتعا ببراعة فنية مقتدرة تجعله لا يقدم لنا الحديث فى صورة مباشرة، لكنه يقدمه من خلال دهاليز حديث عن معاناة السجن، وكأن هذا الحب زهرة نبتت رغم الأشواك ● وفى الأشواك، وعلى الأشواك، نراه وقد استعذب مبكرا سلطاته المعنوية (!!) فى الشيوعية، فقد كان فى وسعه، حسب تصور البسطاء، أن يعطى شهادة

obeikan.com

تعفى حائزها من دخول الجيش، وذلك طبقا لقاعدة استنتها الثورة عقب قيامها مباشرة ● يحاول بمهارة شديدة أن يلخص عقيدة البسطاء تجاه الحبس والسجن وفقدان الحرية نتيجة للإيمان بمعتقد سياسى ما ● يتحدث عن غربته المبكرة بين زملائه فى رحلة السجن المبكرة وهو الذى قدر له أن يقضى بعض أيامه معهم بينما كان لايزال صبيا يلبس الشورت على عادة أهل ذلك الزمان ● يتحدث عن رؤيته لهؤلاء الزملاء بنضج المفكر الذى خاض التجربة مرة بعد أخرى وأصبح قادرا على تقييم الخطأ والأخطاء فى مراحل النضال اليسارى ● يعود إلى ما تسعفه به ذاكرته عن صورته وصورة هؤلاء البرجوازيين الصغار فى أولى تجارب اعتقاله، وغربته أيضا، وهو الذى يعبر عن نفسه بأنه كان أقرب ما يكون إلى قطة بلا صاحب ● تمضى معه إلى زاوية أخرى ينظر من خلالها إلى تجربته الأليمة، وهى تجربة اعتقاله الأولى، وهو يعيد النظر فيما كان يراه من أحداث عابرة اتضح له فيما بعد ما كانت تدل عليه من حقائق التاريخ التى غيبت عنه، وليس لنا أن نعجب من حديث رفعت السعيد عن أن الانتماءات الصهيونية كانت تحظى بالتدليل (!!) على حين أن الانتماءات اليهودية كانت تحظى بالتعذيب مادامت قد ارتبطت بالشيوعية !! ● وهو يذكر بالاسم الصريح المليونير أوفاديا زعيم الصهيونية فى مصر ● يتحدث بحب وتقدير عن الحيلة الذكية التى لجأ إليها والده لكى يخرجه من السجن كى يؤدى امتحانه ● وهو فى سبيله لقص هذه القصة علينا لا يمانع أن يعثر الرذاذ فى وجه حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وتاريخه كله ● يتحدث عن معاناة الشيوعيين فى سجون عبد الناصر، وفى ظل حكم عبد الناصر، ولا يمكن القول لنا ولا لغيرنا بأن هذا الموضوع يمثل تجنيا على هذه الفترة، ولا على وقائعها، لكنه على النقيض من ذلك يقدم أحكام مفكر ذكى، وسياسى ناضج على أحداث قدر له أن يصطلى بنارها ● لا يبخل علينا فى حديثه عن فترة هروبه بتمرير كثير من أحكامه على فترة بداية الستينيات من حكم الرئيس جمال عبد الناصر، وما حفلت به من عداء لليسار واليساريين، وهو عداء مركب انتهى إلى ما صوره رفعت السعيد على أنه انحطاط سياسى وخلقى ● فى بداية فصل خاص بعنوان «حوارات مستبدة» يلخص رؤيته لمنظومة التعذيب فى عهد عبد الناصر ● صاحب المذكرات لا يفرط فى الحديث عن التعذيب البدنى، لكنه فى ذكاء شديد يكتفى بعبارات صادقة تصور بشاعة هذا التعذيب ● يتحدث عما يسميه الحوارات الناصرية، رامزا للتعذيب الذى لقيه هو وغيره فى سجون الثورة ● حديثه عن الإصابة القاتلة التى خرج بها هو نفسه من إحدى دورات هذا التعذيب ● نراه فى هذا الحديث يحمل نفسه بعض المسئولية عن الإصابة التى لحقت به على هذا النحو الفظيع، ذلك أنه جلب لنفسه هذه القسوة حين سرى عن نفسه بالسخرية من رقة أحد الضباط المكلفين بالتعذيب ● ومع أن للقصة جانبا آخر من انتقامه اللاحق من هذا الضابط، فقد رمت

الأقدار به بعد سنوات ليكون فى متناول يد رفعت السعيد، ولم يجد رفعت السعيد مانعا فى أن يمارس لعبة الانتقام لبعض الوقت، لكنه يوحى لنا أنه بما جبل عليه من إنسانية سرعان ما توقف عن هذه اللعبة • يروي قصة حياته فى المنصورة • عانى من غربة أخرى هى غربته مع الجماهير التى تغيرت سلوكياتها تحت حكم الثورة، وهى غربة قاسية على النفس وعلى العقل أيضا، لأن ما حدث فى نظر الكثيرين كان قاسيا • رفعت السعيد تفوق إلى أبعد الحدود فى تقديم صورة المجتمع المصرى فى بداية عام ١٩٥٩ حيث بدأ فترة هروبه واختفائه بعد أن أتم ما حكم به عليه من قبل، وهو السجن لمدة ٥ سنوات • ثم هو لا يكاد يخرج حتى يفاجأ باعتقالات رأس السنة الشهيرة (١٩٥٨ - ١٩٥٩) • وهو بعد كل هذه السنوات التى انقضت يحاول أن يحلل بعض ما أحس به تجاه هذا المجتمع • نتأمل جهود زعيم صغير قدر له أن يتحمل المسئوليات والتبعات فى فترة باكرة من حياته • نشاركه شعوره بالخوف من المسئولية وحجمها، ذلك أنه حين ألقيت على عاتق رفعت السعيد مسئولية رفاقه فى الجامعة فقد كان لابد له من أن يعبر عن دهشته لوضعه حيث أصبح مسئولا عن قيادة رفاق لم يعرفهم من قبل، وليست له بهم علاقة وثيقة كمثل علاقته برفاق المنصورة • ومن العجيب أن هؤلاء كانوا يعيشون حالة من الحذر الغريب، وكان سببها أنهم هتفوا بحياة الزعيم جمال عبد الناصر الذى تقبل ذلك الهتاف بترفع مرير !! • يحدد موقفه من الرئيس جمال عبد الناصر على نحو واضح وغير ملتبس، وهو موقف يتخطى النقد، كما يتخطى العداوة !! لكنه يقع أسير الاندهاش من اضطرار عبد الناصر إلى هذه المسالك التى دفع الشعب ثمنها • يقدم هذا الموقف الحاسم فى عداواته من خلال قصة على حنيطر، وبكل ما توحى به من الوضع الجديد، وسواء أصحت تفصيلات هذه القصة كلها أم لم تصح، وسواء أكانت حقيقية أم نصف حقيقية، أم لا حقيقية على الإطلاق، فإنها، بلاشك، تصور على نحو دقيق عقيدة رفعت السعيد تجاه عبد الناصر فى ذلك الوقت • لا يقف حديثه عن اغترابه عند حد، بل إن هذا الحديث يسيطر على كل رواياته، وعلى كل رؤاه، حتى إنه حين يذهب إلى سجن ذهب إليه من قبل، فإنه يحس بالغربة لأن السجن قد تغير • يتحدث عن سجن الواحات الذى قدر له أن يذهب إليه مرة أخرى فإذا به يجده شيئا آخر غير السجن السابق الذى عاش فيه، وإذا هو حتى فى السجن يحس بغربة من نوع عجيب يسمح للرومانسية أن تقارن بين سجن وسجن، وبين السجن ونفسه فى وقت غير الوقت • يتحدث عما أحسه أو اكتشفه من خطورة تأثير كل هذه الدعايات على أيديولوجية «حدتو» • ربما نعجب لهذه الغربة التى يصورها رفعت السعيد أو يشير إليها فى ثنايا حديثه عن حياته فيما بعد الإفراج عنه، لكننا سرعان ما نجد الإجابة على عجبنا فيما يرويه عن المناخ الذى عاش فيه فى مدينته المنصورة حين عاد إليها وحاول أن يعيش الحياة التى عاشها من قبل

فى بيته ومع أسرته ● لا تتوقف غربته عند مشاعره الحائرة فى الإجابة على أسئلة الناس عن حياته هو، وإنما هى تتعدى هذا إلى موقفه هو نفسه من تأمله لحياة الناس من حوله، وقد أصبحت هذه الحياة تمضى على غير ما هو منطقى أو ما يسميه رفعت السعيد «النفاق الأيديولوجى المفروض عليهم» ● لا يبخل علينا بما اكتشفته بصيرته من حقيقة موقف ثورة ٢٣ يوليو من التنظيمات الشيوعية، وهو الموقف الذى لخصته عبارات رجل المخابرات عبد الفتاح أبو الفضل التى ذيل بها قرار منع نشر قرار حل التنظيم الشيوعى ● يعبر عن هذا بالسخرية من أن الثورة استكثرت على الشيوعيين أن تنشر لهم قرار حل تنظيمهم ● يوحى إلينا بعناد السياسى القديم، والأيديولوجى المتمرس أنه فى قرارة نفسه لم يشأ أن يستسلم لهذا القرار ● يعبر عن صدمته فى صدور مثل هذا القرار على نحو ما يوحى بجسامة الخسارة التى تمثلت فى هذا الموقف ● يصل فى تصوير تطور علاقة اليسار بعبد الناصر إلى رواية ما حدث فى مرحلة تأسيس التنظيم الطليعى، ومفاوضته اليساريين القدامى على الانضمام إليه ● يروى ما يرويه من شرفة التاريخ فيبدو وقد ارتدى مسوح الحكمة التى لم يقدر لليسار نفسه أن يرتديها فى ذلك الوقت، حقيقة أن نظام عبد الناصر قد وظف عملية تكوين أو تشكيل التنظيم الطليعى نفسها لتكون مصيدة جديدة وحقيقية للشيوعيين، أو بمعنى علمى أدق ليكون مرشحا أو فلترا يضمن فرز الشيوعيين وقدرتهم على الاندماج فى كيان بيروقراطى شاب وفتى من طراز التنظيم الطليعى ● يكاد يصرح بهذه الفكرة، لكنه يفعل ذلك على استحياء، وربما كان هو استحياء الإنسان المفكر الذى وجد نفسه يقع فى المصيدة على الرغم مما كان يتمتع به من بصيرة قادرة على أن تجنبه هذا الوقوع ● نأتى إلى أروع فقرة فى هذه المذكرات، بل فى كل المذكرات التى تحدثت عن معاناة اليسار المصرى، وهى فقرة تنبئ عن جوهر الإيمان الحقيقى المجرد من رطانة النظريات، والمدرك لحقائق الأمور على وجهها الصحيح، لذة الوصول إلى الحقيقة على نحو ما وصل إليها رفعت السعيد نفسه حين يروى تفصيلات طريفة وذكية عن اجتماع محلى هو اجتماع المنطقة الأولى فى الدقهلية الذى رأسه هو نفسه، وإذا بالحكمة تأتى كعادتها على لسان فلاح ذكى بينما المنظرون من أمثال صاحب المذكرات غائبون عن الحكمة!! ● وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن رفعت السعيد الذى قضى سنوات السجن فى تأمل يكشف لنا عما قدر له أن يكونه من فكرة كاملة عن الفساد الذى تخلق على يد الثورة وقراراتها ● يتحدث عما أدركه هو نفسه فى مرحلة مبكرة من الملامح الصارخة المنبئة عن الفساد الإدارى فى ثورة يوليو ١٩٥٢ ● يصور بالقصة التى يرويها جبلا ضخما وكبيرا من الفساد الذى نشأ وترعرع فى عهد الثورة بفضل تدخل الدولة غير المبرر فيما لا تملكه، وفيما لا تجيده، وهو ما حدث على سبيل المثال فى أراضى الإصلاح الزراعى التى تأممت وأصبحت فور تأميمها مرتعا خصبا للفساد ●

وربما أن الجديد فيما يرويه رفعت السعيد هو هذا الفساد الفورى!! إذ أن الصورة الذهنية فى وجداننا لا تكاد تتصور سرعة نشوء الفساد وازدهاره على هذا النحو الذى حدث منذ بداية عهد الثورة ● لا يجد حرجا فى أن يذكر قصة الفساد الذى شهده بالأسماء الصريحة!! ● كان من الذكاء بحيث لخص بهذا الموقف طبيعة الصراع الكامن بين طبقة رجال الأعمال الشرفاء الحقيقيين من طراز والده من ناحية، وبين نظام عبد الناصر من ناحية أخرى ● يقدم معلومات فى غاية الأهمية عن حقيقة موقف طلاب الجامعة فى العام الأول للثورة، الذى كان بمثابة عام حاسم فى تاريخ الحركة الوطنية والطلابية على حد سواء● أن يصور توزع توجهات زملائه ما بين الشيوعيين والإخوان المسلمين، وهو ينجح فى أن يصور الشيوعيين قادرين على الوجود إلى جوار الإخوان، حتى مع دعم الثورة الواضح للإخوان وتحالفها معهم ● يستشهد على صواب ما يرويه بما يذكر أنه حوار دار بين جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين ، يمضى فى تصويره لأحداث ذلك العام وما حفل به من نشاط الشيوعيين ● يثأر لنفسه وللشيوعيين وللطلاب من الدكتور سليمان الطماوى (وهو يذكره بالاسم الصريح) الذى كان يلمح للثورة ورجالها بضرورة اتخاذ قرار قاس ضد هؤلاء الطلبة مانع عنده من أن يصل إلى الإعدام ● يحاول أن يقنعنا أن الشيوعية كانت تتمتع بأرضية كبيرة فى بداية عهد الثورة، وكأنه يحاول أن يقنعنا فى الوقت ذاته بمدى نجاح الثورة فى محاربة الشيوعية حربا لا هوادة فيها، انتهت إلى ما انتهت إليه الحركة الشيوعية المصرية ● وفى هذا الصدد فإن رفعت السعيد لا يفوت فرصة رواية بعض مظاهر ترحيب الجماهير الجامعية بالشيوعية، كما يروى بعض الاستجابات العميقة التى شكلت وجدان مجموعة من الشبان الذين يفخر بهم رفعت السعيد عن جدارة وحب ● يشير بالاسم إلى الشاعر العظيم نجيب سرور الذى تحول على يديه من الفاشية إلى الشيوعية ، يروى قصة تورط مجموعة من تلاميذه أو زملائه التالين فى محاولة لاغتيال الرئيس عبد الناصر ● يتحدث عن الغربة الشديدة التى عانتها حركة «حدتو» مع الرئيس عبد الناصر ونظامه، مقدما ما يعتقده سببا فى هذا الصدام المتأزم بين أصدقاء سابقين ● نأتى إلى ما يجود علينا رفعت السعيد به من فصول ممتعة من قصته مع البطل العظيم يوسف صديق ● يبدأ برواية تفصيلات أول لقاء بينهما، وقد تم اللقاء بناء على رغبة يوسف صديق فى أخذ رأى قائد مسئول فى «حدتو» فى عرض قدمه له الرئيس عبد الناصر بأن يكون سفيرا لمصر فى الهند لتنسيق استفادة مصر من تجربة الهند ● يلتقى بيوسف صديق بناء على طلبه ويستمع إلى حديث القائد الثورى العظيم ويصارحه بأنه لا يستطيع أن يعطيه رأيا فى مسألة معقدة كهذه، لكنه يقترح عليه اقتراحا تصوره حلا لكنه فى واقع الأمر كان السبب فى نكبة جديدة ليوسف صديق وزوجته وحركة «حدتو» نفسها ● لا تفوته الفرصة ليتحدث عن إعجابه العميق

بهذا الالتزام الجاد الذى كان يوسف صديق نموذجا حيا وصادقا له ● لا تخلو المذكرات من كثير من الطرائف التى تصور بروح ذكية بعض مظاهر الحياة العامة التى قدر له أن يعيشها بعد خروجه من السجن ● يجيد وصف وظيفته فى «أخبار اليوم» محاولا وضع هذه الوظيفة فى سياق العمل اليومى فى الأخبار ● وملخصا فى الوقت ذاته طبيعة الصراع المهنى والسياسى الذى يتطلبه وجود وظيفة كوظيفته، ومستعينا فى النهاية بتعبير دقيق لأستاذنا محمد فهمى عبد اللطيف وصفه فيه بأنه ترجمان الثورة رفعت السعيد يصف مهمته بأنها سمجة ورديئة ● يجيد تصوير معاناته هو وخالد محيى الدين من وشايات ومؤامرات محمد حسنين هيكل ● يعبر عن هذه المؤامرات والوشايات بأسلوب مقتدر ينجو فيه من جلد الذات، ومن تضخيمها فى الوقت نفسه، لكنه يظهر بوضوح أنه انتصر فى هذه المعارك بفضل استناده إلى العقل وإلى حكمة التجربة التى أتيحت له بفضل العمل السرى المنظم وما أتيح له من الوصول إلى أعماق النفس البشرية من خلال هذا العمل، ومن خلال السجن ● نراه وهو شاب صغير فى مقتبل حياته الوظيفية قادرا على أن ينتصر على هيكل بكل نفوذه وهيلمانه ومؤامراته، وهو ينتصر لا لشىء إلا لأنه صاحب قضية وصاحب موقف وصاحب قدرة على أن يتحكم فى أعصابه وانفعالاته، على حين كان الخصم الآخر، وهو هيكل، يستند إلى قوته ونفوذه وطباعه السيئة التى لا تتورع عن البعد عن الحقيقة وعن الصدق، ولا تتورع عن اللجوء إلى الخداع، واختلاق المؤامرات، والافتراء على الآخرين من أجل الوصول إلى هدف وقتى ● ينسف بهدوء شديد وبدون ضجة كل مزاعم هيكل حول كفايته الصحفية، وكفاية الأهرام تحت قيادته، كما ينسف أيضا بهدوء أشد مزاعم هيكل عن حرصه على توفير الفرصة المتكافئة لزملائه فى الصحف الأخرى، وهو يجيد تقديم الصورة من خلال تقديم مشاعر زملائه لا مشاعره هو وحده، وإن كان هو نفسه قد اختزن التجربة ودلالتها وأجاد التصرف من خلالها فى أوقات لاحقة ● يتحدث باقتضاب شديد عن محاولات هيكل اختراق مجموعة خالد محيى الدين وتفجيرها من داخلها، وهو ما يدلنا على مدى ما كان هيكل يشعر به من ضعف فى الثقة فى قدراته وقدرات فريقه إلى حد أنه بدأ يخشى صعود وسيطرة فريق كان يسهل وصفه بأنه مبتدئ وغريب إلى حد كبير عن المجتمع الصحفى ● نأتى إلى ما تصفه أدبيات السياسة والتاريخ بأنها واقعة كاشفة للمؤامرة ولأطرافها ولأصابع الذين شاركوا فيها، وهو ما يدلنا على أن التلاعب بالأرقام كان سمة فى العهد الناصرى وما تلاه، وذلك فى ظل انعدام قدرة كبار رجال الدولة على تمحيص ما يقدم لهم على حين أنه صنع خصيصا وصيغ بصياغة كفيلة بدفع الأمور والقرارات الرئاسية إلى اتجاه بذاته ● نصل معه إلى الواقعة التى أعقبها استيلاء هيكل على المؤسسة، وكيف وقع خالد محيى الدين بحسن نية فى الكمين الذى حفره له هيكل كى يدفعه

دفعا إلى الاستقالة ردا لكرامته، ونعجب، وما كان لنا أن نعجب، من أن يكون عبد الناصر نفسه منتظرا على أحر من الجمر لهذه الاستقالة، وكأنما كان مشاركا بقصد فيما فعله هيكل، ذلك أن الباحث المنصف أو القارئ الواعى لما يقدمه رفعت السعيد من رواية للقصة لا يمكن له أن يقتنع أن عبد الناصر كان من السذاجة بحيث يترك لهيكل تدبير كل هذه المؤامرات من دون أن يكون عبد الناصر نفسه هو بطلها الأول، أما هيكل، فى فهم أى متعقل يقرأ الرواية، فقد كان مجرد مخلب قط، أو ممثل مساعد ● لعل هذه الرواية ترينا كيف أن الديمقراطية الحقة ومناقشة فريق أخبار اليوم (شيوعيين وغير شيوعيين) لخالد محيى الدين فى قراره الاحتجاجى على هذه الواقعة كان كفيلا بأن يحرك الأمور فى اتجاه بعيد عن استقالة خالد محيى الدين الاحتجاجية ● ومع هذا فنحن نعرف من نظام عبد الناصر أن خالد كان سيترك منصبه سواء أحتج أم لم يحتج، وربما كانت استقالته الاحتجاجية أكرم له بكثير ● يروى كيف كان عبد الناصر جالسا فى بيته أو مكتبه متعجلا استقالة خالد ● يصور بدقة ما يصفه بأنه بشاعة دخول هيكل إلى أخبار اليوم دخول المتآمر الذى حقق هدف تآمره أخيرا ● هيكل يبدأ فى معاملة رفعت السعيد على نحو لا يختلف كثيرا عن سلوك أفراد الطبقة الدنيا من المديرين على أكثر تقدير ● عرف رفعت السعيد بعض حدود التنكيل الذي سيمارسه محمد حسنين هيكل بعد أقل من أسبوع، لكنه كان يواجه خطوة أخرى فى سبيل التنكيل به على يد ذلك الذى يصور نفسه إلها يعفو ولا يشغل باله بالصغائر، بينما معظم تصرفاته لا تخرج عن دائرة الصغائر ● نصل معه إلى مرحلة لاحقة من مؤامرات هيكل الخبيثة وقد وصلت إلى أقصاها حين لم يعد فى إمكان الصحفى الأوحد أن يترك شابا صغير السن كرفعت السعيد فى موضعه المتواضع من مؤسسة أخبار اليوم ● وهو يفعل هذا بأسوأ صيغة يمكن أن تنتهى بها علاقة إنسان بمحل عمله حيث يطلب منه عدم الحضور مرة ثانية!! ● يصور صورة جميلة تظهر معدن خالد محيى الدين، وهو المعدن الذى جعل رفعت السعيد (ضمن أسباب قليلة أو كثيرة) يرتبط بهذا الرجل طيلة عمره ● محمد حسنين هيكل مع كل هذا لا يكف عن محاولاته للتضييق على اليسار، وإنما يبدأ فى اللجوء إلى الوقيعة بين أكثر الناس إخلاصا بعضهم لبعض ويدبر مؤامرة يحاول أن ينهى بها علاقة رفعت السعيد نفسه بخالد محيى الدين بعدما فشل فى الاستحواذ على رفعت السعيد ● نأتى إلى حيلة جديدة من حيل هيكل فى إفساد الجو أمام قيادات اليسار، وتضييق الخناق عليهم، وخلق المصاعب أمامهم، وهو يفعل كل هذا بدأب شديد، ثم يحاول أن ينكره من خلال مسوح يرتديها تهيئ له أن يصور نفسه ملاكا أو على أقل تقدير بشرا مثاليا يعود إلى الحق عندما يدركه ● يتحدث رفعت السعيد أيضا عن دهاء على أمين ● يشخص مشكلة الأخبار تحت قيادة خالد محيى الدين فيصوغ تشخصيه فى عبارة موجزة ودقيقة إلى أبعد حد، أن فريق خالد محيى الدين لم يكن يدرك حقيقة أن وجودهم فى الأخبار لا يمثل دائرة مستقلة عن

مصر (المتوحدة) التى كانت كلها فى قبضة قوية هى قبضة الرئيس جمال عبد الناصر، الذى كان قادرا على الإلمام بكثير من التفصيلات والصراعات، وكان فى الوقت ذاته حريصا على أن يفرض رأيه وتوجهه فى هذه التفصيلات والصراعات • هذا التشخيص الدقيق الذى يقدمه رفعت السعيد ينطبق على حالات كثيرة مثيلة كان أصحاب البطولة فيها يعجبون من تناقض قرارات الرئيس عبد الناصر مع قرارات أخرى له، أو تناقضها مع توجهاته الواضحة، وما كان لهؤلاء أن يعجبوا لو أنهم فهموا ما فهمه رفعت السعيد، أو لو أنه قد أتيح لهم فى مرحلة مبكرة أن يقرأوا مثل هذا الذى كتبه رفعت السعيد • فى وسط كل هذا الحديث عن العذاب والغربة والألم والكفاح والعمل السرى، لايبخل علينا المؤرخ فى شخصية رفعت السعيد وقلمه بكثير من القصص التى تصور مفارقات الصراع الاجتماعى والسياسى فى عهد الثورة، ولعل أبلغ قصة تصور هذه المفارقات هى قصة البرنس محمود ناموق الذى قدر لرفعت السعيد أن يعرفه فى مستشفى السجن، وأن يستمتع بصحبته، وأن يفيد منه • مع أن رفعت السعيد يقدم القصة بما يضمن لها كل عناصر التشويق، فإن مضمون القصة نفسه لا يخلو من كثير من العظة والاعتبار • يتحدث عن دور النبيل عباس حليم فى تسهيل هروب زملائه المعتقلين • يقدم قصة واحد من المنشقين المهمين فى تاريخ الكنيسة المصرية الحديث، وهو إبراهيم هلال، الأصولى المسيحى الذى ثار على الأنبا يوساب فى واقعة معروفة فى تاريخ الكنيسة المصرية فى العصر الحديث • لا تفارق رفعت السعيد بالطبع هواية التأريخ من وجهة نظر ماركسية تعلى من شأن المتمين والمنظمين، وتحط بكل ما أوتيت من قدرة من شأن «الآخرين»، ولعل فى حديثه عن الدكتور راشد البراوى، وحديثه الآخر عن الضابط مصطفى كمال صدقى ما يصور هذه الخصلة حين يتاح لها أن تسيطر على قلم قادر على تقديمها على نحو يتسم بالدهاء • لا تتوقف المفارقات التى يجيد رفعت السعيد التقاطها عند حد، ومن هذه المفارقات رواية طريفة، بل هى فى غاية الطرافة عن لواء فى مصلحة السجون تعجب من أن يكون هناك شيوعى لا يفهم لدرجة أن يتوقع أن يكون هناك قانون وحقوق إنسان فى مصر بعد كل ما جرى له ولأمثاله من الشيوعيين من تعذيب وتنكيل • حديثه عن المحكمة العسكرية التى قدر لها أن تحاكم الشيوعيين!!.

***

الباب الثالث: الجزء الثانى من مذكرات الدكتور رفعت السعيد

• رفعت السعيد يحكى تجاربه فى ميدان مختلف تماما عن ميادين تجربته فى الجزء الأول، فهو فى هذا الجزء رجل مسئول بكل ما تعنيه الكلمة من معانى، لكنه مع هذه المسئولية يحس بكثير من

الاغتراب، فهو يحس بالاغتراب مع الزملاء فى داخل مصر، ومع الزملاء فى خارج مصر، كما يحس بالاغتراب مع كثير من الأجواء فى داخل المجتمعات الاشتراكية، وفى خارج هذه المجتمعات، بيد أنه يجيد الحديث عن كل هذه الاغترابات وموقفه المبدئى والنهائى منها ● رفعت السعيد يقدم فى حديثه انطباعاته الذكية عن كثير جدا من محطات التيار اليسارى فى القرن العشرين، بيد أنه لا يفرض رؤى ثابتة بقدر ما يفتح المجال واسعا للفهم والتأمل والحوار، وهو يفعل هذا لا عن عجز عن التقييم والتصنيف والتوظيف، لكنه يفعله ليترك لنفسه وعقله الفرصة كى تتأمل الحقائق والنتائج فى بصيرة قادرة على إدراك الحق والصواب ● صاحب المذكرات عانى من أكثر من نمط متقدم من أنماط الاغتراب المركب إن جاز هذا التعبير ● ولنبدأ فى تناول أكثر هذه الغربات أهمية وقسوة وتأثيرا فى فكر صاحبها، وهى غربته حين أصبح مسئولا وممثلا لمصر فى مجلس السلام العالمى متعدد الجنسيات فإذا به فى نشاطه وأدائه يواجه مواجهة قاسية بما كان ممثل الاتحاد السوفييتى فى هذا المجلس يريد أن يمليه على توجهات المجلس فى نشاطه وفى مواقفه، وإذا هو يعانى من كثرة احتكاك ذلك الرجل به وتربصه بتصرفاته وآرائه بل تحرشه بنشاطه، وإذا هو يحس أن القرار الأصوب فى هذه الحالة هو أن يعود أدراجه إلى وطنه وأن يترك هذه المهمة لغيره● يدلنا على نوع آخر من الغربة عاناه فى وطنه حين وجد نفسه وهو محرر فى مجلة «الطليعة» عاجزا عن أن يتوافق مع رئيس تحريرها الأستاذ لطفى الخولى الذى بدأ يأخذ عليه مضيه فى سبيل آخر غير سبيله● نشير إلى أن هذا الخلاف المتصاعد قد وقع حين كان لطفى الخولى يسعى لأن يكون بمثابة الرجل المصرى الأول فى مجلس السلام بديلا عن خالد محيى الدين، بينما كان رفعت السعيد بكل ما أوتى من قدرة يعمل من أجل الحفاظ على مكانة أستاذه خالد محيى الدين، ومكانه فى هذا المجلس● يعتبر خلافه هذا مع لطفى الخولى بمثابة وقوع الواقعة، بينما يعلم أو يعلمنا أنه هو ولطفى الخولى كانا مجردين من إرادة التغيير على نحو ما نرى فى نهاية ما يرويه● يدلنا على نوع آخر من أنواع الغربة التى واجهها فى حياته اليسارية حين كان يفاجأ باستغلال القضايا الإنسانية واليسارية الكبرى استغلالا نفعيا يخلق منها قضايا فرعية صغيرة وضيقة الأفق على نحو ما حدث، وما اكتشفه هو نفسه صدفة من المتاجرة باسم حزب «التجمع» فى بيروت فى أثناء عصر الحرب الأهلية اللبنانية● إذا أتينا إلى موقف اليسار من قضية السلام والصراع العربى-الإسرائيلى وجدنا رفعت السعيد يعبر فى مواضع كثيرة عما كان يشعر به من الغربة تجاه زملائه من اليساريين الذين لم يفهموا خطواته التى خطاها من أجل تواصل الحوار العربى-الإسرائيلى الداعى إلى استخلاص العون للقضية العربية فى صراعها المرير مع إسرائيل والقوى الدولية المؤيدة لها● يحرص على أن يقص علينا قصة يشوش بها باقتدار وهدوء على

مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات، وذلك من خلال الإيحاء الصريح بأنه هو نفسه كان قد عرف أن الاتصالات مع الإسرائيليين كانت قد بدأت قبل المبادرة بكثير، وهو معنى لم ينكره أحد من الرسميين المصريين حتى وإن لم يثبتوه، لكن رفعت السعيد، بما أوتى من قدرة، يسوقه كيما يدلنا على أن القنوات كانت متعددة، وأنه هو نفسه كان يعرف بوجودها منذ فترة وإن لم يصدق● يعترف أنه بسبب غربته مع اليسار المصرى وتوجهاته المتعددة كان قد اضطر فى بعض الأحيان إلى أن ينشر كتاباته باسم مستعار حتى لا يصطدم مع التيار الذى ينتمى إليه● يتحدث عن غربته مع بعض الفصائل الفلسطينية التى لم تكن حريصة على ذلك التقارب الذى بدأ بين حزب التجمع المصرى والرئيس مبارك فى بداية عهده، بينما كانت هذه القوى والفصائل الفلسطينية والعربية لاتزال حريصة على استمرار قطيعة اليسار عن رموز الدولة المصرية● صاحب المذكرات يحرز نجاحا ساحقا فى مواجهة هذه التيارات، ويستخدم بلاغته وقوة حجته وقدرته على الجدل فى مواجهة علنية من أجل الانتصار للخط السياسى الذى سار فيه حزب التجمع منذ ذلك الحين● يدلنا على ألذ أنواع الغربة التى عاشها حين وجد هو وأقرانه من مؤسسى منبر (ثم تنظيم ثم حزب) التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى صعوبة مذهلة فى الحصول على عشرة توقيعات لعشرة من أعضاء مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى من أجل استكمال الإجراءات الخاصة بقيام هذا المنبر، ونحن نرى درجة التشويق فيما يرويه رفعت السعيد عن هذه الوقائع عالية إلى حد مثير، وقبل هذا فإنها تقدم تقييما واضحا لرموز يسارية معروفة من وجهة نظر صاحب المذكرات● يتحدث بوضوح ضد توجهات القطب الناصرى والبرلمانى كمال أحمد وتصرفاته● الحلقة الأخيرة فى المسلسل المشوق المتميز الذى صور به بدقة ومهارة نشأة حزب التجمع حين كان لايزال منبرا، وقد انتهت هذه الحلقة نهاية سعيدة بانضمام قبارى عبد الله إلى الموقعين ليكونوا عشرة، ولينشأ منبر لليسار● نتقل بعد هذا كله إلى طراز آخر من الاغتراب يمثله الاغتراب الذى أحس به صاحب المذكرات أمام القوة التى أصبحت بمثابة المهيمنة بمفردها على مقدرات السياسة الدولية فى عصر أحادية القطب● يتحدث حديثا مختلفا عن الحياة الأمريكية، وهو حديث مختلف فى كل مكوناته، مختلف فى معطياته، ومختلف فى بداياته، ومختلف فى نهاياته، ومختلف أيضا فى موضوعاته● الفرصة تتاح لرفعت السعيد لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية● يفاجأ بما اكتشفه فى نفسه من صعوبة أو استحالة تقبله لحديث الأمريكيين عن ديمقراطيتهم● يحرص على أن يضرب الديمقراطية الأمريكية فى مقتل حين يصفها بأنها ديمقراطية تقوم على التلقى فقط● يجد (بما تمرس به من قدرة على الجدل) أن فرصته لتحقيق الفوز قد حانت، وها هو يلتقط الفرصة (ولا نقول ينتهزها) ويبدأ فى رواية ما فعل وما أمكنه به أن ينتصر على دعاوى

الأمريكيين• يسرع فى روايته ليثبت دلائل نجاحه فى خطواته التى أربك بها الأمريكيين أصحاب ديمقراطية التلقين• لا يهمل الفرصة السانحة فى أحداث مذكراته وسياقها حتى يتحدث عن حقيقة مشاعر الأمريكيين تجاه السوفييت، وما كانت تعنيه حرب الكواكب بالنسبة للأمريكيين• يتطرق إلى نمط آخر من أنماط اللقاءات التى فرض عليه حضورها فى أمريكا، وهو يجيد تقديم صورة مشوهة من تفكير الأمريكيين المتغطرس تجاه مصالح الطبقات العاملة• يروى قصة محاولة جسورة قام بها أو اندفع إليها لاختراق المجتمع الأمريكى، لكنه يشعر فى أثنائها بالغربة، ويشعر بعدها بالعزة حين اكتشف الحقيقة، ومن اللافت للنظر أن هذه الحقيقة تمثل حقيقة مهمة جدا من حقائق صراعنا مع الإسرائيليين ودعاواهم المتعددة من أجل إكساب اعتداءاتهم أبعادا تاريخية أو عقيدية من قبيل الحديث عن القبيلة العبرانية الثالثة عشرة• يعبر عن سعادته أنه استطاع الثأر من الأمريكيين وأنه تركهم فى اللحظة المناسبة دون أن يستمتع ببلادهم على نحو آخر• يحدثنا بصدق شديد عن استمرار غربته مع التوجهات العقلية التى تحكم سياسات العالم وتصرفاته، فيروى فى مواضع عديدة كيف أتيح له أن يلم ببعض المعلومات المبكرة عن توجهات وخطط مستقبلية كان الغربيون (والأمريكيون على وجه التحديد) يعملون من خلالها على إنهاء وجود التوجه السوفييتى فى السياسة الدولية!! وقد جعلته هذه المعرفة محصنا ضد الاندهاش من الأحداث التالية عند وقوعها• يروى كيف أنه عرف مبكرا بما كان يخطط فى الغرب لتداعى الاتحاد السوفييتى وإخفاء نفوذه من على الخريطة العالمية، وهو ينسب هذه المعرفة إلى الصحفى الفرنسى اللامع أريك رولو مشيرا إشارة ذات معنى!! إلى أنه مصرى قديم، وإن كان فرنسى الجنسية• يحدثنا فى بعض فقرات مذكراته بإنصاف شديد عن مجموعة من الذين يرى حقا لهم عليه أن يثنى على سلوكهم، وعلى تاريخهم، وعلى ما تبدى له من صفاتهم الرائعة التى وثقت علاقاتهم به• الأستاذ عبد الرحمن الخميسى فى مقدمة هؤلاء، وهو يحدثنا عن تجربته المبكرة فى معرفته حين قدر له أن يلقاه وجها لوجه من دون أن يعرف أنه (وهو الكاتب الكبير المعروف) شيوعى منظم ومكلف بدور، وقد أكبر رفعت السعيد فى عبد الرحمن الخميسى أن يصبح شيوعيا وهو فى قمة شهرته• يروى لنا ما حصل عليه من أسرار من خلال ثقة الخميسى به وهما فى بغداد بعد أن كان عبد الناصر قد أصبح فى ذمة الله• يلخص حياة يوسف منصور صديق وجهاده من أجل الوطن على نحو غير مسبوق • يروى هذه الحياة على لسان يوسف صديق نفسه، وإن كانت الصياغة تحتمل تدخل رفعت السعيد فيها• الصياغة الموحية التى حرص رفعت السعيد أن يبدأها بأبيات للجواهرى كان يوسف صديق يتمثل بها على الدوام• موقف «حدتو» (١٩٤٨ - ١٩٤٩)، حيث ضربات البوليس توالت، وتلاحقت، لتدمر كثيرا من آليات وممكنات العمل• يحظى خالد محيى

الدين بأروع صور تقدير رفعت السعيد وأبلغ العبارات الدالة على هذا التقدير، وربما لا نجد فى أدبياتنا السياسية كلها مثل هذه العبارات الممتنة من صديق لصديق أكبر منه، أو فلنقل من مريد لشيخه● من بين الأوروبيين جميعا يتحدث الدكتور رفعت السعيد أيضا عن أستاذه الألمانى راتمان حديثا حافلا بالحب والحرارة، لكنه مع هذا لا يخلو من ملامح حديث صاحب المذكرات نفسه عن غربته● ينتقل إلى الحديث عن جوهر موقف راتمان المفكر الماركسى حين وقعت الواقعة وسقط حائط برلين وانتهى الاتحاد السوفيتى.

***

الباب الرابع: مذكرات محمد يوسف الجندى الجزء الأول

● التعريف بصاحب المذكرات ● الجندى يكتب فى مقدمة الجزء الأول من مذكراته ما يعبر به عن مبادئه ● يتحدث عن مقدمات انتمائه إلى الحركة الشيوعية، وإلى منظمة «اسكرا» على وجه التحديد ● لا يذكر الأسباب التى دفعته إلى قبول الانتماء إلى اسكرا دون غيرها من المنظمات الشيوعية الأخرى ● يقدم لهذا الحديث عن الانتماء للشيوعية تقديما سريعا ذاكرا أنه فعل ذلك لأنه لم يكن ليقبل بالحلول الوسط التى كان غيرها يتبناها، وهو يتخذ جمال العطيفى نموذجا لهؤلاء، كما أنه لم يكن بقادر على أن يتقبل رؤية محمد عصفور الدالة على نمط من أنماط تفكير الطبقية ● يقدم ملخصا لبانوراما الحركات الشيوعية التى وجدت فى الفترة التى انضم هو فيها لإحداها ● يتحدث عن نشاطه فى أول خلية شيوعية انضم إليها فيوحى إلينا بخيبة أمله حين رُفض اثنان من مرشحيه الذين حاول تجنيدهم، وحين اكتشف فيما بعد سنوات رداءة موقف زميله صلاح نصار الذى كان قد جنده، وذلك عندما حقق معه صلاح نصار وهو رئيس للنيابة ● يأسف لموقف الدكتور محمد لبيب شقير الذى كان يردد الحديث عن مميزات الملكية ● فى وسط هذا كله فخور بأنه كان هو الذى جند الناقد السينمائى مصطفى درويش ● علاقاته فى إطار الانتماء للشيوعية فى خارج هذه التنظيمات وداخلها ● يوحى عن قصد بأن الحياة والحوارات السياسية كانت متواصلة بين الأقران والزملاء على اختلاف توجهاتهم ● ما يرويه محمد يوسف الجندى عن قصة اعتقاله الأول ● تدل روايته على قدر من السذاجة الطبيعية، كما تدل على المفارقة التى تتمثل فى سعادة الشيوعى بأن يشيع عنه اتهام بعيد عنه، لكنه يراد به تشويه صورته وصورة الشيوعيين، ومع أن هذا الاعتقال لم يدم أكثر من أربعة أيام فإنه مهد لتأكيد انتماء محمد يوسف الجندى إلى الحركة الشيوعية للأبد ● اللحظة الفاصلة التى تخلى فيها محمد يوسف

الجندى عن ثروته من أجل أن يصبح شيوعيا محترفا ● آثر فى لحظة توحد مع الشيوعية أن يتخلى عن كل ممتلكاته حتى يثبت لنفسه إيمانه وانتماءه بالشيوعية دون غيرها ● قرر أن يتنازل عما استطاع التنازل عنه من أمواله وأطيانه الكثيرة وأصبح شيوعيا محترفا ● يتحدث حديثا حماسيا عن إحساسه المبكر حين تخلى عن كل شيء من أجل الشيوعية رغم نصح الناصحين، ومن الطريف أن الثائر الوطنى يوسف حلمى كان واحدا من الناصحين الذين قدر له أن يعتذر عن قبول نصائحهم ● ما يرويه عن مولده ونشأته فى بيت يوسف الجندى معتزا بذاكرته التى تذكر الأحداث الوطنية التى مرت به حين كان عمره أربع سنوات فقط ● نجد فى روايته امتزاجا بالمعتقدات الطبية الشائعة، وحديثا عن طبيب أنقذ حياته، وهو لا يلتفت إلى أن هذا الطبيب بالذات أصبح وزيرا ليوم واحد هو اليوم السابق على قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢● فقرات محمد يوسف الجندى على صغرها تحفل بكثير من ملامح التاريخ الاجتماعى والصحى فى أسرة مصرية ميسورة من أسرات ذلك العهد ● الفقرات تعكس ثقافة صاحبها اللاحقة فيما يتعلق بفترات الحمل والولادة، وصحة الأم، وأسباب العدوى، وفائدة الرضاعة الطبيعية، إلا أن أسلوبه فى تسجيل هذه الأحداث يكاد يكون قريبا من أساليب السيدات المصريات فى روايتها على هذا النمط المبسط، وهو ما يدلنا على مدى ما كان يتمتع به الشعب المصرى من رابطة اجتماعية وثقافية قوية تكاد لا تخرج به عن أن يكون أسرة واحدة مهما كانت انتماءاتها السياسية والعربية والاجتماعية والمذهبية ● حديث محمد يوسف الجندى عن والدته وعلاقات أسرته الاجتماعية ● علاقة والديه بعضهما ببعض، وهو لا يبخل على والده بذكر ما يدل على مشاعره الأبوية الجميلة، لكنه يشير إلى توثق ارتباطه هو واخوته بوالدتهم بأكثر من ارتباطهم بوالدهم الذى كان مشغولا على الدوام ● مع أن محمد يوسف الجندى لم يعش مع والده عمرا كثيرا، إذ توفى والده فى ١٢ ديسمبر ١٩٤١ قبل أن يبلغ التاسعة والأربعين، بينما كان هو على مشارف السنة السادسة عشرة من عمره، إلا أنه يذكر باعتزاز بعض انطباعات والده عنه ● يقدم لنا أكثر من نموذج معبر عن الصداقات العائلة التى تنشأ فى المجتمع نتيجة للجيرة والزمالة فى المدرسة، وكيف تمضى هذه الصداقات مع نهر الحياة ● ما يروى به بدايات صداقة جمال العطيفى وأسرته له ولأسرته ● لا يبخل علينا بما ينبئ بوضوح عن حدود المسموح به والممنوع والمعتاد فى مثل هذه الصداقات فى عقلية رب أسرة كان من زعماء الوفد الكبار ● نقلنا من حديثه مثلين لما كان ممنوعا، ومثلا لما كان معتادا ● يتحدث عن هذه التقاليد بما يشبه الاعتذار أو التبرير، وما كان أغناه عن هذا الاعتذار أو التبرير ● ينبئنا (فى موضع آخر) عن أن هذه التقاليد العائلية المحافظة قد شكلت طباعه، وحكمت تصرفاته فيما بعد ذلك ● صاحب المذكرات ينفرد بذكر رواية مختصرة عن اليوم الذى رشح فيه

والده وزيرا للمعارف فى وزارة النحاس باشا، وهى واقعة معروفة، فإذا هو يضيف إلى ما ذكرته أدبيات التاريخ والمذكرات ما ينفرد به من أن والده لبس ملابس التشريفة ليحلف اليمين، لكنه عاد دون حلف اليمين، وهو يردف هذا بالحديث الصريح عن محاولة القصر استمالة والده ضد الوفد نفسه، وهو يبدى أسفا يسيرا لأن والده لم يحصل على الباشوية مع أقرانه • يشير إلى موقف معروف لوالده حين لم يلتزم بما كان الوفد قد رآه من ضرورة استقالة النواب والشيوخ الوفديين ومقاطعة البرلمان احتجاجا على تزوير الانتخابات، فى عهد محمد محمود، وهو فخور بأن «إيجابية والده» كانت أكثر فائدة للوفد والوطن • يحرص على أن يذكر أن علاقته بالفكر الاشتراكى بدأت بمفارقة طريفة، ذلك أنها بدأت من خلال قراءته كتابا يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها، وليس هذا بالأمر المستغرب فى مثل هذه الانتماءات الفكرية التى تقوم أساسا على الاقتناع لا على مجرد الإيحاء، لكننا نكون ظالمين إذا نحن تغاضينا عن الإشارة بموضوعية المؤلفين اللذين حرصا على ذكر الحقيقة • أما بداية ارتباط محمد يوسف الجندى بالحركة الشيوعية ارتباطا عضويا وتنظيميا فهو لا يصورها إلا بعد أكثر من عشر صفحات من هذا الحديث الباكر حيث يردف أن جمال العطيفى الذى لم يمارس اليسارية بعد ذلك أبدا كان هو الذى دعاه إلى ذلك اللقاء الفارق الذى تحول بعده إلى اليسار • يعترف بالفضل لدار الأبحاث العلمية فى التحول الفكرى الذى حدد خطى حياته وتوجهاته • علي عادة الشيوعيين لا يبخل علينا بمن يريد أن يذكر أنه تعارف بهم فى هذه الفترة الباكرة، وكما تعودنا فى مثل هذه الأدبيات اللاحقة فقد كان هناك آخرون بالطبع، لكن الروايات الانتقائية فى روايات الشيوعيين عن تاريخهم تحرص على أن تنتقى الأسماء التى كان لوجودها واقترانها دلالة • يحدثنا عن إرهاصات أكثر تبكيرا فى علاقته بالحركة الاشتراكية، والفكر الاشتراكى، فنفهم مما يرويه أن الدعاية السوفيتية فى تلك المرحلة كانت قادرة على أن تتيح كثيرا من أدبيات اليسار فى متناول جموع كبيرة من الشباب فى مقتبل أعمارهم • نفهم أن الانتصارات السوفييتية لعبت دورها الإنسانى والفعلى فى إقناع الشباب بعظمة الفكر الذى كان وراء السياسة التى انتصرت قواتها • لعل مثل هذه الدروس الواضحة تقنع أهل الفكر فى بلادنا بجدوى النجاح وآثاره، وأهمية التعويل عليه فى نشر الفكر • يحاول أن يشعرنا أن انتماءه للحركة الشيوعية لم يكن بالأمر المستغرب، وإنما كان أمرا طبيعيا، بيد أن حديثه هذا الذى استخدم له ثلاثة محاور دفعنا إلى إدراك حقيقة أن محمد يوسف الجندى كان يحس بغربته بعدما اعتنق هذا الفكر الشيوعى، وهو لهذا يدافع لنفسه عن إحساسه بالغربة ناسبا توجهاته الفكرية إلى أحاسيسه الوجدانية • لا يفوته أن يروى أن انتماءاته الأولى كانت وفدية فى مقابل ما كان شائعا فى شباب جيله المتحمسين، ومنهم بعض أصدقائه، من الانتماء

إلى مصر الفتاة ● نأتى إلى اللحظة الفارقة التى جعلت محمد يوسف الجندى لا ينام فى ليلتها من الانفعال ● لا ينسى محمد يوسف الجندى أن يعبر عن غربة اليساريين تجاه عائلاتهم وكيف كانت هذه العائلات تضيق وتحتج وتحاول الإقناع بالترغيب والترهيب ● نموذج طريف من نماذج ترهيب الأهل لأبنائهم للبعد عن الحركة الشيوعية، وهو ترهيب طبيعى ومرتب ومستند إلى حقائق● اغتراب الهروب الذى مارسه باقتدار وحنكة ● فقرات سريعة متلاحقة الأنفاس يروى بها محمد يوسف الجندى تجربته مع الهرب من السجن، والعيش هاربا من أعين البوليس بكل ما تحفل به هذه الفقرات من تجارب إنسانية وعاطفية ● أكثر تجارب الهرب والاستخفاء خلودا فى ذاكرته، لما فيها من اختلاط الهرب بالعاطفة، وتعبير العاطفة عن نفسها بصورة رومانسية ● محمد يوسف الجندى يتأمل فى أثر هذا الهرب كله على حياته، ويقدم وجهة نظره فى تحليل ما تكون أو تطور فى صفاته الشخصية التى ترتبت على هذه الحياة ● يتأمل تأثير أدبيات الماركسية المحتمل على تفكيره ● يروى قصة هربه بالسفر إلى الخارج، التى تتوج مراحل هروبه واغترابه فى داخل وطنه ● تطلعنا القصة على كثير من تفصيلات علاقات الشيوعيين المصريين بالشيوعية الدولية، والدور الذى كان البمبوطية المصريون يقومون به، والدور المقابل الذى كان البحارة الفرنسيون يقومون به أيضا ● فى تصويره للحظات الحرج التى عاشها فى قاع المركب يبدو فزعا، لكنه ربما أنه لا يعرف أن الجيل الجديد من شباب مصر الذين يحاولون الهرب من أجل لقمة العيش يعيشون الآن تجارب أكثر صعوبة ومرارة من تجربته هذه ● يعبر عن إحساسه الشديد بالاغتراب فى الأيام الأولى من هجرته فى باريس، إلى درجة أنه يوحى بأن حياته فى السجن كنت أرحم من حياته فى الهجرة ● يبدو أن هذا الإحساس الذى انتاب محمد يوسف الجندى وسيطر عليه قد تضاعف بسبب مقارنته حاله بحال زميله شريف حتاتة، الذى كان قد سبقه إلى فرنسا، فضلا عن أنه كان أكثر منه تأقلما مع المجتمع الغربى بسبب تربيته والدته الإنجليزية وما تعلمه منها على مدى عمره ● تقييمه لتجربته فى السجن الفرنسى : نفاجأ بشعور الغربة ينتابه بشدة حتى إنه يعتبرسجون فرنسا أقسى من سجون مصر مقدما أسبابا لا تبرر مثل هذا الحكم الذى لم يصدر إلا عن شعوره بالغربة ● يتحدث عن خروجه من فرنسا إلى المجر على نحو ميكانيكى لا نشعر فيه بشوق إلى المجر وما فيها، ولا أسف لترك باريس وما فيها، وربما كان عذره فى هذه الميكانيكية أن هذه الفترة ارتبطت بمسئوليته غير المباشرة عن القبض على زميله شريف حتاتة الذى ذهب لمقابلته ولم ينتبه إلى حقيقية بديهية وهى أن محمد يوسف الجندى كان تحت المراقبة ● يلخص تجاربه فى أثناء الفترة التى قضاها فى المجر فى فقرات لاهثة، نحس فيها بما كان يشعر به من غربة على الرغم من وجوده بين مَنْ يشاركونه العقيدة الشيوعية، لكنهم، شأنهم شأن الشيوعيين، كانوا يعبرون عن الانقسام

والاختلاف بصور صارخة، وربما فظة ● حديثه عن واصل فيصل ويوسف فيصل وخالد بكداش يصور المعاناة الحقيقية التي عاشها محمد يوسف الجندي مبكرا وأصبح يتذكرها كلما حدث انقسام مماثل بين مَنْ كانوا شيئا واحدا ● نلاحظ أن الشغل الشاغل الذى ظل يؤرق محمد يوسف الجندى فى المجر كان هو اعتقال زميله شريف حتاتة، وشعوره بالإحساس بالذنب فى مسئوليته عن هذا الاعتقال ● يصدقنا القول بقسوة غربته فى المجر إذا ما قورنت بغربته فى باريس ● يستعيد سعادته وذلك عند لقائه بأهل وطنه، يتحدث عن إحساسه بالشفاء عند رؤيته لهؤلاء ● يصل إلى اكتشاف سبب نفسى فى أمراضه التى مر بها ● يلخص أكثر من تجربة من التجارب التى ارتبط فيها بعلاقة بالجنس الآخر ● شبح عقيدته الشيوعية والإنسانية كان كفيلا بأن يفسد عليه آليات الحب والعاطفة المنطلقة ● ينقطع عن فتاة يهودية كانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار وتدافع عن أمريكا والغرب، لكن حظها معه شاء لها أن تخطىء خطأ كبيرا حين تعاملت بفتور مع صديقه عبد القيوم بسبب لون بشرته ● يتحدث عن تجربة المجر الاشتراكية حديثا موجزا ودقيقا نشعر معه بما كان هو نفسه يعانيه من الاغتراب وهو يعيش هذه التجربة التى لا يجد حرجا فى نقدها بصوت عال، وأن يدلنا على بعض المظاهر الصارخة لنقدها ● نأتى إلى مستويات نادرة من الثقة بالنفس، والشجاعة الأدبية، فنحن نرى محمد يوسف الجندى وهو لا يجد أى غضاضة فى الاعتراف بأنه كان يستخدم الملابس التى تأتيه هدية من أخيه ● شعور محمد يوسف الجندى بالاغتراب حين أتيح له أن يخرج من مهجره المجرى إلى ألمانيا حيث التقى هو وصديقه يوسف حلمى بخالد محيى الدين ثم إلى باريس بعد أن غاب عنها أربع سنوات ● معاناته التنظيمية وهو فى باريس (بل وهو لايزال فى بودابست قبل أن يصل إلى باريس) من خضوعه لقرارات الحزب الشيوعى المصرى الموحد، وهى قرارات جاء على العكس من اقتناعاته، وسرعان ما تفرض الاقتناعات صراعها مع الالتزامات منشئة غربة جديدة لمحمد يوسف الجندى تضاف إلى اغترابابه المتتالية ● الظروف تمضى به فى اتجاه يزيد اغترابه، إذ سرعان ما يختلف هو نفسه مع زعيمه القديم هنرى كورييل، وكان السبب فى اختلافهما هو الموقف من عبد الناصر ● باريس فى هذه المرة لم تكن إلا محطة يعود منها إلى مصر، وقد تم ترتيب عودته عن طريق السودان ● حين يصل محمد يوسف الجندى إلى القاهرة عن طريق السودان فإننا نراه يلهث من العودة إلى وطنه ● يسجل كثيرا من مواقف الرفاق فى هذه الفترة التى شهدت الإفراج عن بعض المعتقلين وبقاء بعضهم (كمال عبد الحليم) مبعدين عن نشاط الحزب بناء على الاتفاقات الشيوعية ● يتحدث عن بعض الصراعات الشيوعية ـ الشيوعية فى هذه الفترة، وعن نجاحه فى إعادة كورييل وكمال عبد الحليم إلى موقع القيادة فى الحزب، كما يتحدث عن نشاط الحزب الشيوعى فى حرب ١٩٥٦ ● تأمل

محمد يوسف الجندى الناضج لقصة زواجه الأول واضطراره هو وزوجه وزملاؤه إلى التآمر من أجل إتمام هذا الزواج على نحو ما تم، مما كاد يتسبب فى كوارث ● الاعتراف الجميل الذى يلقيه على أسماعنا، وهو اعتراف يكاد يغير من عقائدنا عن الزواج بوجه عام، لكننا ينبغى ألا ننسى أن هذا الزواج الواثق تم فى داخل تنظيمات شيوعية ● يتحدث عن اعتقاله (فى مايو ١٩٥٩) بعد بدء اعتقال الشيوعيين بخمسة شهور ● يلخص قرار اتهامه فى هذه القضية ويعرض بعض ما قاله فى المحكمة ● يتحدث عن المفارقة المتمثلة فى أن المعتقلين الذين حصلوا على البراءة (وكان هو نفسه واحدا منهم) كانوا يعاملون بأسوأ من الذين صدرت عليهم أحكام، ومع ذلك فقد خرج هؤلاء وأولئك فى أوقات متقاربة ● يلخص بعض مظاهر التعذيب فى أوردى أبو زعبل تلخيصا تقشعر له النفس، ولسنا بقادرين على أن ننقل مثل هذه الفقرات القاسية، لكننا نجتزئ منها هذه الفقرة التى يتحدث فيها محمد يوسف الجندى عما سبق وفاة شهدى عطية من تعذيب ● نصل إلى مفارقة شديدة تتمثل فى حضور زوج أخته مكلفا من النائب العام للتحقيق فيما تردد عن التعذيب، لكنه لم يستطع أن يتحمل المناظر البشعة، فوضع يده على وجهه وخرج على الفور، وقد حدث هذا دون أن يتعرف عليه محمد يوسف الجندى نفسه ● اللحظات التى شهدت تلقيهم أحكام المجلس العسكرى، وما تلا هذا الحكم من انتقال إلى أبى زعبل إلى سجن الواحات، وهو الانتقال الذى تم عن طريق «الحجلة» الرهيبة على نحو ما نقلنا تصويره عن ألفريد فرج ● يلخص محمد يوسف الجندى فترة بقائه فى سجن الواحات فى عبارات سريعة مع أن هذه الفترة طالت (بالنسبة له) ثلاث سنوات، ومع أن بعض الشيوعيين كانوا هناك منذ ١٩٥٣ و١٩٥٤ ● زوجته كانت لا تستطيع أن تأتى لزيارته وهو فى المعتقل إلا من خلال الزعم بأنها تأتى لزيارة مسجون آخر محكوم عليه (وهو محمد عمارة)، أما ابنه الذى كان قد تعود رؤيته من وراء القضبان فقد أصبح يخطط القضبان على الورق ● يبدو محمد يوسف الجندى ككثيرين من الشيوعيين منخدعا فى نوايا عبد الناصر تجاه الشيوعيين، ومتصورا أن جماعات أخرى كانت تستطيع إجبار عبد الناصر على عدم الإفراج عن الشيوعيين ● يثنى على كثير من زملائه الشيوعيين فى سياق حديثه ● يتحدث عن يوسف حلمى وشجاعته حديثا جميلا ينفرد فيه بما لم يذكره غيره من أن يوسف حلمى بعث إلى عبد الناصر ببرقية شجاعة ينتقص فيها من وطنية الزعيم حيث قال إن مصر بالنسبة لعبد الناصر نفسه تعتبر جهة أجنبية!! ● ثناؤه على زميله اليهودى المصرى الفرنسى يوسف حزان الذى جاء مصر سائحا من فرنسا لكن المباحث لم تسمح له بالبقاء فى مصر ورحلته فى اليوم نفسه إلى فرنسا ● لا يبخل علينا بذكر أواصر المصاهرة التى ربطت عائلته بكثيرين من مشاهير السياسة، وعلى سبيل المثال فإن ابنة عمه تزوجت من ابن عم الرئيس

مبارك، وكان ضابطا يدعى عادل مبارك • وعلى سبيل المثال أيضا فإن عمه الدكتور عبد العزيز تزوج ابنة عطية باشا إسماعيل، ابن خال إسماعيل صدقى عدو الوفد اللدود على حد تعبير محمد يوسف الجندى، لكنه فى (ص ٧٨) يذكر هذه المصاهرة بصيغة أخرى، وهى أن عمه تزوج ابنة منصور باشا إسماعيل، ابن عم إسماعيل صدقى.

* * *

الباب الخامس: مذكرات محمد يوسف الجندى الجزء الثانى

• حديثه عن خروجه من السجن فى ١٩٦٤، بعد غياب طويل عن زوجته وابنه • يتصور أننا سوف نفاجأ حين نجد أن ابنه الذى لم يكن قد بلغ الخامسة قد عرفه • غربته الفكرية فى أثناء عمله فى التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى • نراه مضطرا إلى الاصطدام بقيادات الاتحاد الاشتراكى المحلية، وترينا المذكرات أن وجود اليساريين القدامى من أمثاله فى التنظيم الطليعى كان بمثابة أمر مقلق لقيادات عهد الثورة التقليدية، وذلك بسبب رغبتهم فى السيطرة على التنظيم ورغبتهم فى إخضاع التنظيم للهياكل التى تعودوا عليها فى مثل هذا العمل السياسى، على حين كان اليساريون الذين تربوا على غير هذا الفهم يعانون من سيطرة هذه الروح، ويحاولون تغييرها فيصنفون فى فئة لابد للثورة من أن تتخلص منها ومن آرائها • حقيقة موقفه وموقف زملائه من العمل السياسى فى ظل الثورة • يعترف أنهم كانوا مؤمنين بضرورة استمرارهم فى العمل السياسى الذى بدأوه من قبل، ومع هذا فقد استبعد من التنظيم الطليعى • هذه على ما نعرف أول مذكرات يعترف فيها صاحبها باستبعاده المبكر من مثل هذا التنظيم بعد ممارسة النشاط فيه، لكنه لم يخسر كل شىء بسبب علاقته الجديدة بالثورة، ذلك أنه حقق بعض المكاسب من قبيل أن اسمه قد رفع من قائمة العزل السياسى (!!) وكأن هذا الرفع إنجاز، بينما العزل نفسه جزء من ظلم الثورة له ولأمثاله • الاغتراب السياسى الذى شعر به هو وزملاؤه • يلخص موقف المنظمات الشيوعية من نظام الرئيس عبد الناصر، وهو يدلنا فى بساطة شديدة، وصراحة أشد على أنه هو وزملاءه أصبحوا كالغنائم التى وزعت على مراكز النفوذ والفكر فى نظام عبد الناصر، وعلى سبيل المثال فإنه يذكر أربعة أقطاب اختص كل منهم مجموعة من اليساريين، حتى وإن كان أغلب الأعضاء قد ارتبطوا بأحمد فؤاد • يعترف بمدى صعوبة العمل من خلال الاتحاد الاشتراكى، ويذكر صراحة أن القوى المعادية للاشتراكية داخل السلطة كانت أقوى من مجموعات الشيوعيين السابقين الذين عملوا من خلال التنظيم الطليعى، وأن ميدان هذه القوى لم يكن يقتصر على السلطة، وإنما كانت قوة هؤلاء تمتد إلى داخل التنظيم الطليعى، ونحن نفهم بالطبع ما يجهله محمد يوسف الجندى أو ما

يتجاهله من أن نظام عبد الناصر لم يكن على استعداد على الإطلاق لأن يعطى له ولأقرانه اليد العليا فى تنظيمات السياسة، وإلا كان هذا اعترافا منه بالعجز والفشل، وربما كان السياسيون التقليديون الأكثر وعيا بعبد الناصر وبالتاريخ يعرفون أن مجابهتهم العنيفة لهؤلاء الشيوعيين كفيلة بارتفاع أسهمهم عند عبد الناصر، وعند النظام!! وهذا هو ما حدث بالفعل • الوظائف التى تقلدها بعض الشيوعيين ضمن نظام عبد الناصر فى مرحلته الأخيرة • فقرة لمحمد يوسف الجندى لا تخلو من التشويش والأخطاء التاريخية، وبخاصة فى تعاقب التواريخ والأحداث، وإن لم تخل من كثير من الصواب فى وقائعها، لكن العجيب أن هذه الفقرة تأتى مباشرة عقب حديث محمد يوسف الجندى عن القوى الأخرى التى قد يفهم منها القارئ أنها قوى غير شيوعية، فإذا هى قوى شيوعية على حد ما تعيه ذاكرة القراء العاديين، وإذا بصاحب المذكرات فى نهاية مذكراته يبدو وكأنه المعادل الموضوعى لجماعات التكفير (فى السياق الدينى) • يتحدث عن الشيوعيين الآخرين بأسلوب هو أقرب إلى الحديث عن اللاشيوعيين • يتحدث بحيادية لا يشوبها توتر ولا أسى عن محاولات فاشلة لإلحاقه هو وإبراهيم عبد الحليم بالعمل فى الأهرام، وهو يتعجب من موقف هيكل منه رغم صداقته الوثيقة بأخيه أحمد، ويبدو محمد الجندى من السذاجة بحيث لا يعرف طبيعة مثل هذه الصداقات، ولا طبيعة الانتهازيين • حديثه عن ممارسته العمل الصحفى • نبدأ بحديثه عن الفترة التى مارس فيها الصحافة الحقيقية فى مؤسسة «أخبار اليوم»، وهو يذكر للأستاذ إحسان عبد القدوس فضله، بما جبل عليه من توازن بين الفكر والعمل الصحفى، مما جعله يحرص على أن يساعده على أن يكتسب معرفة حقيقية بالعمل الصحفى كى يكون مفيدا لمؤسسة أخبار اليوم فى عمله الجديد كمراسل لها فى الاتحاد السوفيتى • يلخص التوجهات التى قاده إليها كبار رجال الصحافة القائمين بقيادة وإدارة الإصدارات الصحفية فى ذلك الوقت • يتحدث عن ممارسته للصحافة الحقيقية بعد أن أصبح مندوبا لأخبار اليوم فى الاتحاد السوفيتى • من حسن الحظ أن هذا الحماس للصحافة سرعان ما ظهر فى سلوك محمد يوسف الجندى: وأدائه، مما أعطاه دفعة من الثقة بالنفس فى ذلك المجتمع الجديد • يضرب المثل بنجاحه فى السبق إلى نشر خبر زيارة الزعيم بريجنيف لباريس قبل أن يعلن الخبر رسميا بثمان وأربعين ساعة • حرصه على ذكر مثل صغير للطرائف الموحية بما كان عمله الصحفى يدفعه إليه من حرص على أدائه، وما كان يتسبب فيه من مشكلات طارئة مع البيروقراطية وذوى النفوذ • يتحدث باعتزاز عن عمله فى وكالة أنباء الشرق الأوسط معتبرا هذا العمل بمثابة المدرسة الأولى التى تعلم فيها الصحافة • نوع خفيف من الاغتراب الفكرى يتمثل فى اختلاف وجهات النظر (الأكاديمية)

حول الحركة اليسارية التى شارك محمد يوسف الجندى نفسه فيها ● يتحدث عن مناقشات فكرية دارت بينه وبين بعض المفكرين السوفيت حول الحركة الشيوعية المصرية، فيبدو أنه لا يستكين للمنهج الجاهز، أو الرؤية المسبقة، وكيف له أن يقبل هذا وقد عاش التجربة بنفسه، لكنه لم يكن متحمسا لأن يصوغ الحديث عنها بطريقة مكتوبة، حتى إنه يصل إلى الاعتراف بعدم تحمسه لإتمام الدراسة لدرجة الدكتوراه، على نحو ما كان فاقدا للحماس من قبل تجاه درجة الليسانس ● يعترف أن الطريق كان مفتوحا أمامه لنيل درجة الدكتوراه بعدما استمع أستاذ التاريخ له، وشجعه على تسجيل آرائه ● يتحدث عن اغترابه على مستوى العائلة، وهو يتحدث عن بدء الفتور ثم التوتر فى علاقته بزوجته الأولى التى كانت قد لحقت به فى موسكو ● يتحدث عن الظروف التى دفعته إلى أن يشرع فى زواجه الثانى مقدما المبررات له التى دفعته إلى أن يتم هذا الزواج، وهو لا يتحدث عن حتمية تتويج الحب أو الشبق أو الغرام بالزواج، وإنما هو حريص فى المقام الأول على أن يبدو وكأنه يعتذر لأسرته الأولى عن ارتباطه الثانى، ولهذا نراه يفيض فى شرح مبررات انفصاله عن زوجته الأولى ● يتحدث عن هذه الفكرة بأسلوب آخر يعبر عن شعوره العميق بالاغتراب على الرغم من وجوده فى وطنه، وبين أسرته، وهو يحاول أن يوازن فى أحكامه بين عيوبه هو نفسه وعيوب الطرف الآخر ● يتحدث عن طريقة تعرفه على زوجته الثانية الروسية، نراه حريصا على أن يروى لنا كيف تعرف على أسرتها، وهو يسهب فى ذكر محاسنها، ويعدد المزايا التى كانت تتمتع بها هى وأسرتها ● يتحدث على حياء عن الظروف التى ساعدت على تطور معرفته بزوجته الثانية ● العوائق التى قامت فى سبيل إتمامه زواجه من زوجته الثانية، دون أن يشغل نفسه بعقد المقارنات بين حالتهما وبين الظروف المشابهة فى أية دولة غربية يمكن فيها إتمام مثل هذا الاقتران بسهولة ويسر ● يقدم بعض عبارات المديح المتزن فى وصف سجايا زوجته التى جعلت اقترانه بها يحس بالتوافق الفكرى والنفسى، وكأنما عوضته غربته فى روسيا بهذا الاقتران الجميل ● يتحدث عن حضور زوجته الروسية وابنتهما إلى مصر، وهو يكرر التعبير عن إحساسه بالقهر تجاه تأخر موافقة مباحث أمن الدولة على زواجه ● يفيض فى الحديث عن تفصيلات حياة زوجته الروسية فى القاهرة، وتأقلمها مع الحياة فى القاهرة بكل ما فيها من مصاعب أو اختلافات عن الجو الذى عاشت فيه طيلة حياتها من قبل ● مواجهته الواقع فى موسكو بعدما كان فى ذهنه من توقعات مثالية عن مجتمع موسكو، وهو يلخص ما رآه من أزمات فى بعض المواد التموينية، ومن مظاهر الفساد والبيروقراطية فى الإدارة الحكومية ● مشكلات الحياة الاجتماعية وكثرة الإدمان وما يسببه من مشكلات زوجية ● معاناة المرأة فى

مجتمع الاتحاد السوفيتى ● حديثه عن إيجابيات الحياة فى الاتحاد السوفيتى، على الرغم من انتقاداته لبعض مظاهرها، وهو يعدد مزايا الحياة فى الاتحاد السوفيتى فيتحدث عن التأمين الاجتماعى، والصحى، ورخص الحياة فى المصيف، والمواصلات، والتعليم وكافة الخدمات، وهو يلخص الفارق فى الحياة بين موسكو وغيرها من العواصم الأوروبية فى الدول الرأسمالية ● يبلور رأيه فى عبارة واحدة تبدو موحية على الرغم من أنها تقليدية تماما ● انطباعاته عن زيارته الأولى للولايات المتحدة ● الحس الصادق فى تصوير الفارق الكبير بين نسق الحياة فى الولايات المتحدة والعالم كله، ومع أن بعضا من أنماط الحياة الأمريكية قد قدر له أن يسود حياتنا المصرية الآن مثل عمل التليفزيون بلا انقطاع، فأنت تستطيع أن تتخيل الأثر الذى أحدثته هذه الرحلة على صاحبها الذى عاش فى الاتحاد السوفيتى وفى مصر من قبل حياة يسودها نمط مختلف من الإحساس بالحرية والإنسانية، ووطأة الحكومة، وطبيعة السوق ● يعجب لشرب الأمريكيين للبن فى كل وجبة، كما يعجب لمهاجمة الرئيس الأمريكيين فى تليفزيون بلاده ● يتحدث عن عمله فى هلسنكى (عاصمة فنلندا) وعن انطباعاته عنها ● شعوره بوفرة البضائع، وسهولة الحياة وراحتها، لكنه مع ذلك حريص على الإشارة إلى افتقار هذه الحياة إلى النكهة، وهو يعقد مقارنات متميزة يجعل لموسكو فيها مكان التفوق ● يتحدث عن بعض أوجه أفضلية هلسنكى على موسكو، ذاكرا بكل تواضع (وإن لم يقترن هذا التواضع بالامتنان الواجب لهلسنكى) كيف هيأت له الظروف اليسيرة شراء سيارة انتقل بها إلى موسكو ثم جاء بها إلى مصر ● يتحدث عن الفترة التى عاشها فى براغ فنجده يشعر بالراحة من الاغتراب بعض الشىء، وهو يتحدث عن سهولة اللغة فى تلك المدينة وقربها من اللغة الروسية ● يرى فى العامل اللغوى انتصارا على مشكلات العامل النفسى المتمثل فى العلاقة المتوترة بين الروس والتشيك بسبب أحداث ١٩٦٨ ● تجربة المرض التى اجتازها محمد يوسف الجندى وهو مقيم فى العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ، وكيف مر بمراحل متعددة من المرض بدءا من نزيف المخ، ثم اكتشاف السكر، ثم احتباس البول، ثم عملية البروستاتا، ثم العلاج الطبيعى، ثم العلاج فى مصحة ● مع أنه يحكى تجربته بميكانيكية شديدة فإنه يتحدث بامتنان وتقدير للنظام الطبى ونظام التمريض، وإتاحة العلاج المجانى، مما كان العهد به قائما فى هذه الدول الاشتراكية التى حافظت على البعد الاجتماعى فى سياساتها الخدمية لفترة طويلة.

* * *

● التعريف بصاحب المذكرات ● رءوف عباس يقدم أدق صورة يمكن تقديمها عن الفترة الأولى من عمر القطاع العام المصرى حين لجأت الدولة إلى وضع الشركات الخاصة التى أممتها وضمتها إلى هذا القطاع فى سياق جهازها البيروقراطى الضخم، ودفعت إلى كل شركة من شركات هذا القطاع بعدد من الموظفين الجدد كان منهم على سبيل المثال صاحب المذكرات ● يروى كيف استقبل هذه الوظيفة هو وزملاؤه الذين عينوا معه، وكيف تراوحت ردود أفعال هؤلاء حين وجدوا هذه الوظيفة، وكيف سارت بهم الأمور فيها ● تحت عنوان «مراجع الحسابات» يتحدث عن تجربة «طليعية» لموظف جامعى فى القطاع العام بعد التأميم، ومن المفيد أن نتعمق هذه التجربة التى يندر أن نراها مكتوبة بهذا التفصيل الدقيق، ومن وجهة نظر موضوعية وعلمية وبعيدة عن التعصب لاتجاه ما، فلا هى مؤمنة بالنمط الذى طبقت به الاشتراكية، ولا هى متيمة بالوضع فيما قبل الاشتراكية، وإنما هى وجهة نظر حريصة على تقديم الجانبين ● يلخص موقف هذه الشركة التى آلت إلى القطاع العام ● يلخص على نحو دقيق كيف جاءت به الصدفة هو وزملاءه إلى هذه الشركة، وكيف حسبت مرتباتهم ووظائفهم مع ما فى هذا التلخيص من تصوير جيد للخطوات البيروقراطية التى تتخذها الحكومات فى مثل هذه الإجراءات العمومية التى تحرص على المساواة العامة دون أن تشغل بالها بالتفصيلات الكفيلة بتنظيم أدق وأجدى ● يتحدث عن حسن حظه مقارنة بوضع الآخرين ● يتحدث عن تسكين أصحاب المؤهلات العليا فى وظائف الشركة وأقسامها المختلفة حديثا ساخرا ● يتحدث عن طبيعة وظيفته فى قسم المراجعة المالية حديثاً دقيقاً ومنصفاً وكفيلاً بأن يدلنا على أن الجدية والأمانة وحدهما تكفيان تماما لأن يقوم أى جامعى بوظيفته على نحو أمثل لو كانت الوظيفة بعيدة ظاهرياً عن تخصصه الدقيق ● يتحدث عن بداية الظروف التى هيأت له الاتصال بالحركة العمالية، مما كان له أثر بعيد فى تخصصه الأكاديمى نفسه فيما بعد ● من الإنصاف أن نبدى إعجابنا بأن هذا المؤرخ صور بداية هذه العلاقة على أنها نشأت نتيجة رغبته فى توفير النفقات، حيث أراد أن يفيد من امتياز الوجبات التى كان مطعم الشركة يقدمها للعمال، وقد كان فى وسع هذا المؤرخ العظيم أن يبدأ القصة بداية أخرى، لكنه آثر الأمانة والتواضع اللذين لا يصدران إلا عن ثقة بالنفس ● أصبح مشاركاً وإن لم يكن عضواً مشاركاً، فى هذا النشاط النقابى الذى بدأ يمارس ثورة عمالية على نطاق محلى، وها هو حس المثقف فى رءوف عباس يقود العمال إلى خطوات أكثر ثقة فى ثورتهم المحلية ● تتسارع خطواته إلى الاصطدام مع سلطة الإدارة متمثلة فى رئيس مجلس الإدارة

ومعاونيه ● سرعان ما تتطور الأمور ويتدخل الأمن فى الموضوع ● رءوف عباس يصور تدخل الأمن فى إطار الحفاظ على الأوضاع القائمة، وحماية مكاسب الإدارة لا العمال ● يرحب بالصراع مع الإدارة على حد قوله، ويلقى القفاز فى وجه الإدارة وأجهزة الأمن معاً، ومن حسن حظه أن تأتى الرياح بما يشتهيه، وتتدخل وزارة العمل لمصلحة العمال ● يحكى أنه مضى خطوة أوسع فى طريق عداوته للإدارة فتمكن من خلال موقعه الوظيفى من تسجيل خطأ ارتكبه رئيس مجلس الإدارة نفسه، وهكذا يبدأ معركة كان يعرف أنها غير متكافئة مع رئيس مجلس الإدارة، لكنه يبدأ وكله أمل فى الانتصار ● رءوف عباس يواجه بما يسبب له الإحباط لكنه لا يقع فى قبضة الإحباط ● يواصل حديثه إلينا عما رآه من الفساد، ويحدثنا عن أن هذا الفساد الذى رآه كان، فيما بعد قليل، بمثابة الدافع الذى حال بينه وبين قبول فكرة الانضواء فى تنظيمات السلطة وبخاصة منظمة الشباب الاشتراكى ● نرى رجلا قدر له أن يعمل فى القطاع العام لكنه لا يستسيغ هذا العمل فى ظل ما رآه من فساد، وهو لا ينفر من القطاع العام وحده، لكنه ينفر من كل التنظيمات السياسية للثورة !! ● كان من الطبيعى لشاب نابه مثله أن يتجه إلى إخراج طاقته فى الدراسات العليا، وهو ما حدث بالفعل ● نقرأ بإعجاب ما يسجله من حديث عن اختياره لموضوع رسالته فى الماجستير، ونراه يعترف بأن تجربته التى عاشها فى كفر الزيات كانت بمثابة الزاد الذى جعله يفكر فى موضوع رسالته ● يحدثنا أن أساتذته «الأحباب» كانوا يتوجسون من مثل هذا الموضوع، لكنهم سرعان ما تخلوا عن هذا التوجس ● أتاحت الدراسة العلمية لرءوف عباس أكثر من لقاء بعدد من الشخصيات المتميزة فى محيط الحركة النقابية العمالى والسياسى ● يحدثنا بإفاضة عن تجاربه فى مثل هذه اللقاءات التى كانت جديدة عليه، ويحرص على تقديم ماهو طريف فى هذه اللقاءات ● يحكى قصة لقائه بالأمير عباس حليم على نحو طريف ومؤثر ● لا يبخل علينا بتفصيلات القصة التى دفعته إلى البحث عن الزعيم العمالى محمد حسن عمارة والإفادة من السجلات التى كان يحتفظ بها للحركة العمالية ● من الطريف أن نتأمل طبيعة المفارقة فى رواية الأحداث، فعلى حين صب عباس حليم اللعنات على محمد عمارة لأنه لص سرق جميع أوراق الاتحاد، فإن المؤرخ بحاسته وفهمه يرى لقاء هذا الرجل على أكبر درجة من الأهمية للسبب نفسه، وهو أنه أصبح يملك هذه الأوراق ● كالعادة فى البحث العلمى فإن كل خيط يقود إلى آخر، وهكذا عرف صاحبنا سيد قنديل رئيس نقابة عمال الطباعة، كما عرف النقابيين الماركسيين محمد يوسف المدرك، ومحمود العسكرى، وأحمد طه ● أصبحت وظيفة هذا الباحث العلمى قريبة من ميدان التاريخ الاجتماعى والوطنى ● أصبح مجال بحثه العلمى قريبا من مجال السياسة ● أصبح مسلحا بالوعى السياسى الناشئ من الوعى التاريخى، وها هو

هذا الوعى يحدد موقفه من الثورة حيث نراه يحدثنا عن بعض ما أصابه من الاكتشاف المبكر لأخلاق ممارسة السياسة فى عصر الثورة ● يصف (بسخرية بالغة، وتحسر حقيقى) طريقة تنظيم المظاهرات الطلابية لمصلحة الثورة، وما كان يحيط بهذا التنظيم من تعطيل الدراسة، وإغلاق المكتبة، وتضييع وقت الطلاب، وتعويدهم على الفساد المبكر ● يصف توجهاته السياسية بدقة شديدة، لكنه، فى الواقع، يبدو مشمئزا من الأوضاع أكثر من قابليته للأمانى، ويبدو هذا فى نصه الذى يميل إلى النفى بأكثر من ميله إلى الإثبات ● يصنف نفسه فى النهاية على أنه واحد من الأغلبية الصامتة، وليس هذا بالأمر الغريب على توجه أمثاله فى هذه الحقبة ● يتحدث بألم حقيقى ومتواصل عن معاناته من الجوانب القاسية وغير الإنسانية فى تربية جدته له ● يعجب من أن يكون هذا الذى لقيه فى بداية حياته هو مصيره فى سنوات الطفولة الأولى على الرغم من وجود والديه على قيد الحياة ● رءوف عباس أفاد من خبراته الأكاديمية كأستاذ للتاريخ فى التعبير الدقيق عن هذه الدوافع تعبيراً يكفل تصديق الوقائع المترتبة على الدوافع على الرغم من قسوتها ● يروى رءوف عباس قصة قبوله فى إحدى المدارس الابتدائية ويجعلنا نشعر بمزيج من التعاطف معه من ناحية، ومن احترام النظام السائد فى ذلك الوقت مهما كان قاسيا فى مظهره ● رءوف عباس يقدم فى الكتاب لوحة نفسية نادرة يتحدث فيها فيما يبدو عن مدى قسوة جدته لأبيه عليه، وعن السبب الغريب الذى دفع إلى هذه القسوة، وهو كراهيتها لوالدته التى لم توافق على اختيارها زوجة لابنها، ومع أن مظاهر هذه القسوة لا تحتمل وتدفعنا إلى التعاطف مع مَنْ وقعت عليه وهو صاحب المذكرات، فإننا نرى انتصاره على القسوة أمرا حتميا فى ظل ما نعرفه عنه من إصرار على «التحقق» ● الأوصاف الدقيقة والذكية لبعض الأحوال الاجتماعية التى أجاد الدكتور رءوف عباس تقديمها لمن يريدون كتابة التاريخ الاجتماعى لمصر المعاصرة ● نبدأ بما يرويه رءوف عباس عن المظاهر العميقة والعفوية للوحدة الوطنية حين يقدم تصويراً رائعاً للعلاقة الحميمة بين المسلمين والمسيحيين من سكان عزبة هرميس، التى قدر له أن يقضى فيها فترة طفولته، وهو تصوير ليس بغريب عن الصورة الذهنية التى يعرفها سكان القاهرة ممن قدر لهم أن يحتكوا بأهل هذا الحى، وأن يدركوا عراقة الصلة بين أهله، وتأصل الوحدة الوطنية فى نفوسهم وسلوكهم، وتعمق حب الجيران والوفاء لهم ● يصف النشاط المدرسى فى مدرسته الابتدائية وصفاً دقيقاً يجعلنا نتحسر على ما آل إليه حال التعليم فى مصر، ويجعلنا نبحث أيضاً فى الوسائل التى قد تعيننا على العودة إلى هذا العصر الذهبى الذى كان موجوداً بالفعل قبل أن تقودنا سياسات متعاقبة إلى تفريغ التربية والتعليم من محتواهما ● يتحدث عن سماح والده له بممارسة السياسة ● نرى مظهرا مهما من مظاهر التاريخ الاجتماعى فيما يصور به فى دقة شديدة

وشغف محبب إلى النفس كفاحه من أجل التعليم الجامعى، وهو يروى أن هذا الكفاح كان يلقى معارضة شديدة من والده، لكن هذه المعارضة توقفت عند حدود المعارضة الشفوية ● يروى كيف ساعدته الصدفة والروح العامة فى المجتمع والدولة على تحقيق هدفه فى النجاح فى هذا المسعى النبيل ● حرصه على أن ينسب إلى ثورة ٢٣ يوليو الفضل الكامل فى التوسع فى منح المجانية، مقدما ما لم تقدمه الدولة الناصرية نفسها من أسانيد تؤيد فكرته التى يريد بها أن يصور الدولة على هذا النحو، ومن الحق أن نذكر أن هذه السياسات كانت قد بدأت منذ ما قبل ذلك فى وزارات الوفد، لكن كثيرين من قبيل رءوف عباس والأجيال التالية (حتى وإن كانوا من أساتذة التاريخ) يستسهلون عن حسن نية أن ينسبوها إلى عهد الثورة ● يصور بدقة وإمتاع شديدين ملامح النظام الجامعى فى العصر الذى درس فيه، وما كان يتطلبه من تفرغ الطالب للبحث والعلم من خلال محاور دراسية متعددة وهو نظام كان فى حد ذاته كفيلاً بأن يدفع الطلاب إلى الاجتهاد والالتزام طيلة العام، بعيداً عن اللجوء إلى حيل أخرى لإبعاد الطلاب عن ممارسة السياسة من قبيل نظام التيرم، ولسنا ندرى لماذا لا تعود جامعاتنا إلى الأخذ بمثل هذا النظام القادر على أن يمكن خريجى الجامعة من القدرة على الكتابة والتعبير، وهى القدرة التى يفتقدونها الآن بشدة ● يتحدث عن بعض الآثار الحميدة لهذا النظام، وهو إقبال الطلبة على قاعات مكتبة الكلية وقاعات دار الكتب المصرية نفسها ● لا يفوته أن يتحدث عن حظ طلاب الانتساب من الجدية فى هذا النظام ● يصل رءوف عباس فى ذكائه وإخلاصه إلى أن يصور عن طريق الأرقام مدى نجاح هذا النظام التعليمى الجاد فى تكوين كوادر متميزة أفاد منها الوطن بوضوح ● ننتقل فى المذكرات بين كثير من الآفاق التى نجح أستاذ التاريخ الاجتماعى أن يصور بها طبيعة العصر الذى عاش فيه ● لجأ إلى زوايا عديدة مكنته من أن يقدم لنا صورة نادرة فى صدقها وتعبيرها عن العصر وعن ظروف العصر وشخصيات العصر ● أهم ما فى هذه المذكرات، فى رأيى، ليس هو حديثها عن صاحبها، ولا عمن انتقدهم، وإنما هو حديثها الذكى النبيل عمن رأى فيهم قدرة ومثلاً وقيمة تستحق التنويه ● رءوف عباس قدم لنا أساتذته تقديما جميلا يستعصى على غيره من محبى العلم والثقافة والمنهج الأكاديمى ● يتحدث بحب عن أستاذه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ● يتحدث بالإعزاز نفسه عن أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى الذى جعله قدوة له فى إنسانيته، وأستاذيته، وعمله، وفكره ● حديثه عن أحمد عزت عبد الكريم يحفل بالإعجاب بشخصية وطريقة أدائه، وهو يحدثنا عن نمو إعجاب أستاذه به بطريقة تدريجية كفيلة بأن تعلم الطلاب المجتهدين كيف يستحوذون على حب أساتذتهم، كما أنه يرجع الفضل فى جذبه لانتباه أستاذه الكبير إلى ما علمه له أستاذه الشاب أحمد عبد الرحيم مصطفى من العناية بمادته قبل أن يحضرها على أستاذه فى

المدرج الكبير ● أستاذه الشاب صور للأستاذ الكبير مدى حرص رءوف عباس على التفرغ للدراسة، وهو ينتقل إلى الحديث عن أبوية ذلك الأستاذ الكبير، وهى أبوية من طابع الأبوة الناضجة الحانية المخلصة فى جيله المتميز ● يتحدث عن فضل أستاذه فى حمايته من بطش النظام الناصرى عندما فكر رجال المباحث فى الإيقاع به بسبب لقاءاته بمحمد يوسف المدرك الذى كان واحدا من قيادات الحركة العمالية الدولية، وكان شيوعيا تراقبه أجهزة المباحث العامة ● يجيد تصوير لقاءاته بضباط أمن الدولة المشهورين (أحمد إدريس وحسن المصيلحى) ● يغمرنا بحديثه الممتن لأستاذه وأبوته وإنسانيته ● يتحدث باعتزاز عن المكانة السامقة التى بلغتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى عهد رياسة أستاذه لها ● أما الدكتور محمد أنيس فقد كانت علاقته بصاحب المذكرات علاقة درامية لم تكن صافية تماما، ولا ودودة دائما، وإنما اعتراها ما يعترى العلاقات الدرامية من أحداث تجعل أحد طرفيها مستاء من الطرف الآخر دون أن يغير هذا الاستياء من نفسية الطرف الأصغر المحب لأستاذه ● يعترف لمحمد أنيس بكثير من الفضل فى تكوينه الفكرى، وبخاصة ما تعلمه منه من تحليل وتأصيل للمواقف السياسية بالاستناد إلى العلم بالتاريخ ● يتحدث عن عمله فى قسم «الأبحاث» فى جريدة «الجمهورية» تحت إشراف أستاذه محمد أنيس مقدما إشارات خاطفة إلى ما كانت الرقابة على الصحف تفعله بالأبحاث التى يقدمها المركز ● على غير عادة الكتابات المتاحة يحرص على اتهام فتحى غانم بأنه كان مثله كمثل الرقابة يحذف فقرات مما يكتبه الباحثون، ومن العجيب أنه عمل مع فتحى غانم ولم يؤثر ترك القسم عندما تركه أستاذه محمد أنيس ● خلافه البارز مع أستاذه محمد أنيس ● حرصه على أن يشير إلى أنه صارح أستاذه بموقفه دون أن يشرك طرفا ثالثا، لكن أستاذه أصر على موقفه وعلى وصفه بأنه عميل للمباحث!! ● يعترف لأستاذه محمد أنيس بالفضل فى إتاحة الذيوع النسبى لاسمه من خلال الفرصة التى أتاحها له النشر الصحفى ● يترحم على أستاذه محمد أنيس متمنيا، بعد فوات الأوان، لو كان أنيس قد توفى وهو راض عنه ● يحرص صاحبنا على تكرار ما ذكر أنه ذكره فى كل مناسبة عامة أو خاصة من تأكيد على أنه مدين فى تكوينه العلمى لثلاثة من أعظم أساتذة التاريخ الحديث فى مصر والوطن العربى هم: أحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى، ومحمد أحمد أنيس ● يتحدث عن أستاذه عبد اللطيف أحمد على أستاذ التاريخ القديم حديثا منصفا ● يتحدث بإعجاب وانبهار عن أستاذ التاريخ الفرعونى أحمد فخرى ومدى ما كان يتغلغل فى نفسية ذلك الأستاذ العظيم من حب لتخصصه، ورغبة عارمة فى تحبيب تلاميذه فيه، ونشر الوعى بآثارنا وحضارتنا، ودور مصر القديمة فى الحضارة الإنسانية، فضلا عن دماثة خلقه، ورقة حاشيته ● وإذا كان هناك من مثل لعلاقة متطورة من علاقات

التلميذ بأستاذه فى هذه المذكرات فإنها علاقة رءوف عباس بأستاذه إبراهيم نصحى، الذى قدر له أن يكون سببا فى عدم حصوله على تقدير جيد جدا عند تخرجه، ثم قدر له أن يعرفه بعد تخرجه بسنوات، ثم قدر له أن يعمل تحت رئاسته فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ثم قدر له أيضا أن يخلفه فى رئاسة هذه الجمعية ● فى حديث رءوف عباس عن هذه المراحل تصوير جيد للمراحل نفسها، وتصوير جيد بل متميز لنفسية رءوف عباس وإدراكه للتطور الذى مرت به آراء أستاذه إبراهيم نصحى ● لا تخلو ذكريات رءوف عباس من إشارات ذات معنى إلى آرائه فى بعض المؤرخين الأجانب المتميزين، وهو على سبيل المثال يميل إلى تأييد رأى الدكتور محمد أنيس فى منع دعوة المؤرخ البريطانى برنارد لويس لزيارة مصر بسبب مشايعته للصهيونية ● يجيد تصوير المرحلة الفاصلة بين تخرجه فى الجامعة ودخوله إلى سوق العمل، وهى فترة مهمة من فترات عهد الرئيس عبد الناصر ● نفهم مما يرويه رءوف عباس ومما لم يذكره غيره ما كانت الأحوال الاتصادية قد آلت إليه فى ظل قلة الوظائف والاستثمارات، مع كثرة الخريجين، لكن رءوف عباس مع هذا ينظر إلى الأمر من زاوية ظروفه الخاصة التى لم تكن لتسمح له بتحقيق ما حققه ● صاحب المذكرات يعتز بمشاركته فى بعض الإسهامات البارزة فى الحياة التربوية والجامعية فى بلاده، ونجتزئ من هذه المساهمات بما يحكيه عن نجاحه أو إسهامه فى إنشاء قسم للغة اليابانية فى كلية آداب القاهرة حين كان يقضى بعض الوقت لإجراء الأبحاث العلمية فى اليابان على نحو دقيق ● يحرص على أن يشيد بما يسميه «مكرمة الشيخ سلطان على الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» ● بدأ يواجه مشكلاتها المتمثلة فى نقص التمويل بما اعتقد أنه السبيل إلى حل هذه المشكلة، فإذا به يلقى بعض العون من هنا وهناك، لكن مكرمة الشيخ سلطان القاسمى تأتى لتتوج كل ما قدم للجمعية ● فى مقابل هذا الحديث عن أريحية الشيخ سلطان القاسمى يأتى حديث آخر عن مناورات محمد حسنين هيكل، ووعوده التى لم تتجاوز حدود التلويح، هى سلوكيات ليست جديدة على مَنْ يعرفون تاريخه دون أن ينخدعوا فى الشراك التى لا يكف عن نصبها، والقصة التى يرويها رءوف عباس أبلغ من أن تحتاج إلى أى تعليق ● تقييم هذا المؤرخ المرموق لتجربة الزعيم جمال عبد الناصر ● يتحدث عن نفسه بأن شأنه شأن غيره من السواد الأعظم من الشعب المصرى من الفلاحين والعمال، كان صنيعة ثورة يوليو، ومن أصحاب المصلحة الحقيقية فى نجاح برنامجها، ولكنه لم يكن من «دراويش» الثورة الذين ينخرطون فى «أذكار» المناقب، بل كان ممن ينظرون نظرة نقد إلى الممارسات السياسية، فيقدر ما كان إيجابياً منها ● توجس خيفة على إنجازات الثورة، والاستفتاءات التى حولت هذه الآلية الديمقراطية إلى مهزلة حقيقية ● تعاظم دور الأجهزة الأمنية وتعددها ● كبت كل صوت ناقد

باعتباره معارضاً خارجاً على النظام ● الزج بالفصائل السياسية المعارضة فى المعتقلات، حيث تهدر آدميتهم، وتشرد عائلاتهم ● يبدى رأيه فى صراحة ووضوح منتقدا فهم عبد الناصر للحرية السياسية، وتضحيته بالفرص المتاحة لإشراك الشعب فى المسئولية مكتفيا بشعبيته هو وحده ● رأيه فى أن عبد الناصر كان حذرا من الاعتماد السياسى على الجماهير ● صاحب المذكرات ينصف نفسه فى إحجامه عن ممارسة العمل السياسى على نحو أو آخر بأن يصنف نفسه على أنه كان واحدا من الأغلبية الصامتة، وإن نسب لنفسه بعض الفضل الضئيل فيما كان يفضى به فى محاضراته أو كتاباته أو مشاركته المحدودة فى تأسيس جمعية الوحدة الوطنية.

***

الباب السابع: عمر فى العاصفة: مذكرات أحمد عباس صالح

● التعريف بصاحب المذكرات ● مذكراته عن غربته الطويلة تدلنا على مدى ما يمكن لشرقى مثله أن يحسه فى مرحلة انتقال إلى المجتمع الغربى بكل ما فيه من اختلاف، وبكل ما فيه من مزايا ظل يفتقدها ويتمناها فى المجتمع الذى نشأ فيه ● المذكرات تجيد تصوير شعور الشرقى الناضج وهو يتأمل حياته فى ظل نظم ليبرالية تحفظ حقوق الإنسان، وبخاصة حقه فى العلاج، والعمل، وتحافظ على هذه الحقوق من دون ضجة كبيرة، وتمنح المهاجر الجديد من طبقة أحمد عباس صالح فرصة الأمن الذى افتقده، وقد افتقده بقسوة ● عاش القسوة بسبب هذا الافتقاد، وليس أدل على هذا من الفصل السابع والثلاثين «إعدام صديق» الذى وصف فيه تفصيلات نفسية مذهلة عن تصفية صدام حسين لزملائه الذين قادهم حظهم العاثر فى إحدى المناقشات إلى أن يحبذوا الوحدة مع سوريا، ومع صدق نوايا هؤلاء فى رأى أحمد عباس صالح فإن صدام لم يكن على استعداد لقبول فكرتهم فى إمكان التضحية بمنصبه (مثلا) من أجل قيام دولة عربية قوية على أساس الفكر البعثى ● نستطيع أن نفهم مدى الإعجاب الحقيقى الذى يظهره أحمد عباس صالح ويعبر به عن تجربته فى الحياة فى لندن، وفصلا ثانيا جعل عنوانه يعبر عن هذا الإعجاب: مدينة لها جاذبية خاصة ● يوظف معارفه النظرية التى تمتها قراءاته الأولى فى محاولة فهم مجتمع الإسلاميين فى بريطانيا أو فى لندن على وجه التحديد ● المذكرات تقدم بقدر من التحفظ المصرح (إن جاز هذا التعبير) انطباعات صاحبها المبكرة عن معرفته بميشيل عفلق فى أثناء إقامتهما فى العراق ● وربما كانت هذه المذكرات من أولى الأدبيات التى أطلعتنا على المعاناة التى كان يعيش فيها هذا الرجل الرمز فى الوطن العربى الذى كان يصوره للناس قائدا موجها، بينما هو فى حالة أقرب ما تكون إلى تحديد الإقامة ● المؤلف أجاد التعبير عن مشاعره مع تجارب المرض التى مر بها

وهو فى خارج وطنه فى العراق، وفى ليبيا، وفى بريطانيا، بيد أن هذا التعبير كان فى مجمله تعبيرا آليا ميكانيكيا لا يكاد يقارن بمشاعره الصادقة والدافئة فى مواقف أخرى • يروى تجربة زوجته التى عاشت المرض ثم الشفاء، ثم المرض مرة أخرى، وقد تنقل معها وبها فى معاهد العلم والعلاج التى قدمت لها أفضل ما كان ممكنا من رعاية كانت تستحقها هذه السيدة العظيمة التى شاركته عن حب وإخلاص حياته الحافلة بالصعاب • صاحب المذكرات يبدى اعتزازا لا حدود له بكتابه «اليمين واليسار فى الإسلام»، وهو يكاد يوحى لنا أنه كان يتمنى أن يقدم نفسه لكل مجتمع بهذا الكتاب، على الرغم من اعتزازه بتاريخه الأدبى فى القصة القصيرة، ثم فى العمل الدرامى الإذاعى، والتمثيليات الإذاعية، وما إليها، ثم عمله أيضا فى الكتابة للسينما • ما كان يؤمن به أحمد عباس صالح من فكرة التقدم وضرورتها الملحة أو الحتمية لمجتمعه ووطنه • مع أنه كان بحكم تكوينه الفكرى، والمجتمع الذى بدأ حياته فيه، يظن التلازم حتما بين الحداثة والتقدم والوطنية والعروبة والعدالة الاجتماعية، إلا أن رحلته التى تصورها سطور المذكرات وفقراتها وفصولها تكاد تجعلنا نفقد الأمل فى إمكان تحقيق بعض ذلك التلازم، وربما معظمه • حياة الرجل تطمئننا على أن الأمل فى القيم العليا لا يخذل صاحبه، وأن عدالة السماء تكفل له تعويضا آخر من حيث لا يدرى، وربما من حيث لا يحتسب • صاحب المذكرات لايزال معتزا بالمحطات الفكرية المؤثرة فى حياته الأولى • يذكر أنه هو الذى تولى كتابة استقالة عبد الحكيم عامر الشهيرة فى بداية الستينيات • كيف أتيح له أن يعرف صلاح سالم ونشاطه فى السودان • أحمد عباس صالح يميل إلى المجاهرة بالقول بأن التأميم والتوجه الاشتراكى الذى بدأت عبد الناصر كان ضربة لجماعات المشير عبد الحكيم عامر فى ظل صراع الرجلين على السلطة، ومن العجيب أن يكون هذا هو توصيف واحد من اليساريين لهذه الخطوة الجبارة على طريق التحول الاشتراكى • يعترف أنه ويوسف إدريس وقفا وهما لا يكادان يصدقان عندما سمعا عبد الناصر يعلن أول قرارات التأميم • يفاجئنا بالحديث عن موقف زوجته من مبادرة السلام، وكان كلاهما فى العراق، وهو الموقف الذى نبهه إلى جانب مهم من الحقيقة، وجعله يعيد التفكير فى كثير من المسلمات • يدلنا على أنه فى أثناء غربته كان قد بدأ يواجه الأمر الواقع فى العلاقات الدولية فيما يتعلق بالصراع العربى ـ الإسرائيلى • يفاجئنا بالحديث عن إحباطه حين حضر مؤتمرا دوليًا فى كوبا، ووجد بعض الشيوعيين اليهود يميلون إلى حذف النص على التوصية بإدانة إسرائيل • يحدثنا عن اضطراره هو وزملاؤه المصريون إلى لقاء كبار المسئولين فى الحزب الكوبى، والرئيس الكوبى فيدل كاسترو من أجل المحافظة على زخم «إدانة إسرائيل» • يشير إلى ما لم يشر إليه غيره من ضيق الرئيس الكوبى بهزيمة العرب أمام إسرائيل، ولومه لهم على هذه الهزيمة • يحرص

على أن ينتقد موقف اثنين من اليساريين الأجانب اللذين عرفا على أنهما صديقين للحق العربى والشعوب العربية، وهما الصحفى الفرنسى الشهير إيريك رولو، ورئيس الوزراء السوفيتى السابق بريماكوف ● يصور الملامح التى أثرت فى شخصيته ● يفعل الشىء نفسه فى حديثه عن بعض ملامح تكوينه السياسى، وانظر ،على سبيل المثال، إلى هذه الفقرة التى تصور حيرته بين الانتماءات المختلفة، ولسنا ندرى لماذا لم يحسم اختياره فى اتجاه الوفد إلا أن يكون الأمر رغبة فى التميز، ومع هذا فإننا نسارع إلى التنبيه إلى ما ذكره من أنه لم يكن على استعداد لخيانة الوفد والحديث عن ٤ فبراير بالطريقة التى كان رجال الثورة يحبذونها ● يتحدث باعتزاز عن لحظات وقوعه فى أسر الشيوعية وحبها ● أحمد عباس صالح يؤثر أن يتحدث عن شخصية شبه عمالية مغمورة، لكن فهمها كان سابقا على نشاط المثقفين والمتعلمين ● يتحدث عن اختلاف هذا الزعيم العمالى مع القيادات المركزية، مع أنه كان على الحق حسبما يتصور صاحب هذه المذكرات، ومن العجيب أن أحمد عباس صالح يستطرد من هذا الموقف مباشرة إلى انتقاد الزعيم المؤسس لحركتهم الشيوعية، وإلى الحديث عن نهايته، مضفرا هذا بحديثه هو عن انفصاله عن هذه الحركة منذ ذلك الحين ● روايات أحمد عباس صالح المتناثرة فى مذكراته من الشخصيات السياسية التى قدر له أن يعرفها ● يتحدث عن معرفته المبكرة بفتحى الرملى ● تحفل المذكرات بما لايزال صاحبها يذكره عن بعض نجوم الفن فى الهيئة التى قدر له أن يراهم فيها ● يشير بالطريقة نفسها إلى كثير من ذكرياته عن الأدب والثقافة والصحافة ● يتحدث عن أول لقاء جمعه بمحمد عودة بادئا مرحلة من الصداقة التى استمرت حتى كتابته لمذكراته ● يشير إشارة واضحة إلى دور الأستاذ أنور المعداوى فى مجلة «الرسالة»، وهو الدور الذى لايزال بحاجة إلى تقدير ● يتحدث عن كبار الأدباء الذين عرفهم على مستوى التجمعات الأدبية الحرة ● أروع الذكريات الأدبية لا تأتينا فى هذ الكتاب إلا عندما يتحدث أحمد عباس صالح عن لقائه الأول بالشاعر إبراهيم ناجى، وكيف أحس تجاه هذا الرجل العظيم بانبهار حقيقى لا حدود له، وبتقدير عميق، وبإعجاب شديد بروحه الإنسانية، وبشخصيته الحافلة بالإنسانية والحكمة ● يتحدث عن تطور علاقته بالشاعر إبراهيم ناجى حديثا ممتعا لا يخلو من تصوير جميل للواقع الثقافى فى ذلك العهد الذى شهد نمو مثل هذه العلاقات الراقية، ويكفى أن يصور لنا أن الشاعر اشترى له هدية قيمة لا لشىء إلا لأنه يحب الشعر ● يتحدث عن أستاذية إبراهيم ناجى لطلاب الطب الثلاثة الذين اشتهروا بالأدب بعد ذلك، وهى أستاذية غير مشهورة فى ظل ماوصلوا إليه من شهرة فى عهد كان يحبذ إنكار دور الأساتذة والبدء من الصفر ● أحمد عباس صالح لا يبخل علينا بحديث عن دوره فى إصدار مجلة «الأديب المصرى» تحت قيادة الأستاذ محمد مفيد الشوباشى، لكنه سرعان

ما يتخذ من هذا الحديث مدخلا للحديث عن قراره الذى اتخذه بإكمال دراسته على نحو يتيح له أن يكون صاحب شهادة، وهو يعترف أن توجهه نحو استكمال تعليمه على هذا النحو كان شيئا من العبث، بل إنه يصل إلى وصفه بالمصارعة الطفولية، والمباهاة الساذجة ● حديثه عن جوهر التعليم الذى حظى به ● أحمد عباس صالح يتحدث فى سرعة بالغة عن بعض ملامح تعليمه الذى كان أبرز ما فيه دراسته فى المعهد البريطانى حيث أتقن الإنجليزية ● لا يبخل علينا بأحاديث مطولة عن تجاربه شبه الثرية فى الوظائف التى قدر له أن يعمل بها فى المرحلة الأولى من حياته حيث أتيحت له خبرات تراكمت حتى كونت شخصيته على النحو الذى تطالعنا به المذكرات ● يذكر تجاربه المبكرة فى العمل الحر ● حديث أحمد عباس صالح عن الشخصية المحورية التى أثرت فى تكوينه حين بدأ يعى أثر عناصر التكوين فى صياغة الشخصية، ومن المذهل أن يكون صاحب هذه الشخصية هو الشيخ الأزهرى الشهير محمود أبو العيون ● ينتقل إلى الحديث عن الدور الوظيفى الذى قدر له أن يقوم له إلى جوار الشيخ محمود أبو العيون، وكيف أتيحت له الفرصة المبكرة ليؤدى عملا محوريا فى مجلة ذائعة الصيت هى مجلة «الأزهر» ● ينتقل إلى ذكرياته عن أهم مقال كتبه فى حياته، وهو المقال الذى نال إعجاب الشيخ أبو العيون، حتى إنه تطوع بأن أسنده إلى نفسه كى يعطيه القوة المطلوبة، وهو أيضا المقال الذى كان نواة فيما بعد لأشهر كتب أحمد عباس صالح وهو كتابه «اليمين واليسار فى الإسلام» ● ولست أنكر أن القارئ لمذكرات أحمد عباس صالح يكاد يحس أن فضل الشيخ أبو العيون فى هذا المقال يفوق فضل أحمد عباس صالح نفسه الذى كان من الممكن له أن ينتهى من علاقته بالمقال كأى مقال آخر دون أن يعنى به أو يعى قيمته! ● يجيد تصوير ملامح حياة هذا الشيخ العظيم فى الوظيفة ● حديث أحمد عباس صالح عن الأستاذ عباس محمود العقاد، الذى كان بمثابة صاحب ثانى أكبر تأثير فى تكوينه الفكرى والإنسانى بعد الشيخ محمود أبو العيون ● يلخص علاقته بالأستاذ العقاد فى السنوات العشر الأخيرة من حياته ● يتحدث عن حبه لزوجته حديثا صادقا موحيا باعثا على تقديرها وتقديره أيضا ● انطباعات أحمد عباس صالح عن فترات الغربة ● موقفه الناقد للنظام العراقى فى عهد صدام حسين ● يلخص التعبير عن الإحباط الذى أصابه وأصاب أنداده عندما اكتشفوا حقيقة نظام صدام حسين والطريق الذى يسير إليه هذا النظام ● يلخص موقفه ورأيه من حرب العراق على الكويت فى مواضع متعددة ● حديثه عن العراق لا يخرج عن هذا الإطار الذى يتحدث به شخص عرف طابع الإنسانية والليبرالية وحقوق الإنسان ● حديثه عن أكثر من موقف قدر له أن يشهده، أو أن يلم بأطرافه فى أثناء إقامته فى ذلك الوطن العربى ● يروى ذكرياته اللاحقة عن قصة إعدام مجموعة من خيار المثقفين العراقيين ● يصل إلى ذروة

مشاعره تجاه نظام صدام حسين ● أما حديث أحمد عباس صالح عن الحياة فى لندن فى مواضع عديدة من مذكراته فإنه فى المقابل ينطق بوضوح بالتقدير الحقيقى للحضارة الغربية والإدارة البريطانية ● يتحدث عن الحياة فى الولايات المتحدة بقدر مواز من الإعجاب، ويبدأ هذا الإعجاب من مستوى عال من التقدير عندما يروى فى سعادة الشعور الذى انتابه حين اكتشف سهولة الحصول على الفيزا الأمريكية على الرغم من تخوفه من أن يكون لموقفه السابق من المخابرات الأمريكية وكشفه تمويلها لمجلة «حوار» أثر سلبى ● رواية قصة الدور الذى لعبه زملاؤه الثلاثة عبد الجليل حسن، ونبيل زكى، وجلال السيد فى كشف علاقة مجلة «حوار» بالمخابرات الأمريكية ● يحرص على نفى صحة ماردده لويس عوض مستندا إلى النيويورك تايمز من أن المخابرات المصرية هى التى كشفت هذه العلاقة ● يروى بالتفصيل قصة جائزة مجلة «حوار» التى خصصتها لأعظم كاتب قصة عربى، وكيف اعتذر نجيب محفوظ من قبولها بينما تشبث بها يوسف إدريس، وكيف اختلف هو نفسه مع صديقه يوسف إدريس فى هذا الموقف، مما جعله يتبنى التوجه الذى رفع به اسم يوسف إدريس من مجلس تحرير مجلة «حوار»، وكيف أن يوسف إدريس عاد واعتذر عن قبول الجائزة، وكيف أن كمال رفعت هو الذى روى القصة للرئيس جمال عبد الناصر لتبدأ بعد هذا تفصيلات القصة المشهورة عن اعتذار يوسف إدريس عن الجائزة، وقرار الرئيس عبد الناصر بتعويضه عنها ● ينفرد برواية موقف يوسف إدريس «المضطرب» بين الخجل والمهانة حين دعى إلى مكتب سامى شرف ليناوله ظرف بقيمة الجائزة، مما جعله يفكر فى الاعتذار عن قبول هذا المبلغ ● تطور علاقة أحمد عباس صالح بثورة يوليو، ورأيه فى سياساتها ومسارها ● نرى أحمد عباس صالح يبدى رأيا مبكرا فى ثورة ١٩٥٢، وهو رأى يميل إلى القول القائل بأن حركة الجيش هذه أجهضت ثورة اشتراكية كانت على الأبواب ● لا يكتفى بمثل هذا الحديث فى موضعه، لكنه يعود فيؤكد هذا المعنى بطريقة أخرى ● أحمد عباس صالح يمضى فى إثبات صحة رؤيته هذه من خلال ما تنامى إليه من معلومات وقرارات، وهو على سبيل المثال يروى ما حدث به أستاذ طب بارز لم يشتهر بالعمل بالسياسة فيما بعد ذلك، وهو الدكتور حليم دوس، حين تناقش هو ويوسف إدريس معه عن علاقة ضباط الثورة بالأمريكيين فأخرج لهم الرجل من جيبه كتابه «لعبة الأمم» فى طبعته الإنجليزية قبل أن تحذف بعض صفحاتها فى الترجمة العربية ● يتحدث بشىء من «الفضفضة الممتزجة ببعض التشويش» عن لقاءاته المبكرة مع أنور السادات ورجال الثورة، والدور الذى قدر له أن يؤديه فى مجلة «التحرير» ضمن مجموعة يسارية خلفت مجموعة يسارية أخرى ● ينفرد برواية تفصيلات احتفال الثورة بالزعيم محمد فريد، ودوره هو نفسه فى تنظيم هذا الاحتفال الصحفى، وفى أثناء هذا ينفرد أيضا بحديث منصف عن الدكتور

خليل مذكور الذى قدر له أيضا أن يعرفه، وقدر له أن يهيئ لاحتفال الثورة أن تفيد من تاريخه مع الزعيم محمد فريد ● قصة أزمته «الحاكمة» مع عهد الثورة، وهى أزمة مبكرة صاغت مواقفه كلها فيما بعد، ودفعت بهذا الموقف إلى نهايته الطبيعية فى الاغتراب الآمن بعيدا عن مناخ غير مستقر على نحو ما نرى فى قصة حياته ● الحديث عن الظروف أو الصدفة التى هيأت له أن يقدم فكرة هذا العمل بديلا عن عمل آخر كان قد اقترحه عليه الفنان السيد بدير الذى كان، على حد وصفه، يراهن الثورة على قدراته ● رأى صديقه اليسارى القديم ● رأى والده هو نفسه ● يفاجئنا بما لم يكن هو ولا غيره يتوقعونه من رد فعل قاتل (!!) ● جوهر الأزمة على حسب ما تصورته الثورة، وعلى حسب ماتم «سرده» «سردا» واقعيا على نحو سريع لم يكن أحمد عباس صالح نفسه يتوقعه ● ها هو مجلس قيادة الثورة بكامل أعضائه يتولى التحقيق مع صاحب المذكرات الذى لم يكن يعرف عبد الناصر ولا غيره، وإن كان يعرف صلاح سالم من صوره، كما كان بالطبع يعرف أنور السادات الذى اجتمع أعضاء مجلس الثورة فى مكتبه فى مبنى جريدة «الجمهورية» ● يجيد وصف حالته النفسية التى حضر بها هذه المحاكمة الفريدة التى واجهها على حين فجأة، ومن الحق أن نشير إلى أن تصويره الهادئ لهذه اللحظات يحفل بكل ما هو معجز من الصدق، ودقة التعبير ● يقارن بين خشونة صلاح سالم التى لا نهاية لها، وبين عطف أنور السادات الذى كان مثابة الشىء الوحيد المطمئن فى الساحة الحافلة بالتوتر ● فى خضم هذا قدر له أن يعرف عبد الناصر معرفة أوقفت شعر رأسه على حد تعبيره!! ● يصور السبب الذى جعله ينجو من الاعتقال مع اليساريين ١٩٥٩ ● يتحدث عن صداقته لمحمد أبو نار، وعن صفات ذلك الصديق ومزاياه، ومن الطريف أنه لم يكن وحده، حسب روايته، صاحب هذا الحظ السعيد، لكنه كان واحدا من مجموعة من مشاهير اليسار ● يروى كيف قدر له هو نفسه أن يسهم فى نجاة يوسف إدريس من الاعتقال الذى كان قد تعرض له مع الشيوعيين، وفيما يبدو فإن هناك تعارضا فى الروايتين، وبخاصة فيما يتعلق باسم يوسف إدريس، إلا أن تكون المصادفة تكررت مع اسم يوسف إدريس مرتين، ونحن نعرف بالطبع أن اعتقالات ١٩٥٩ (أو اليوم الأخير من ١٩٥٨) قد جاءت بعد أن استقل السودان فى أول يناير ١٩٥٦ (!!) ونحن نتحفظ على بعض ما فى هذه الرواية! ● إذا كان التصوير الذى أجاده أحمد عباس صالح لكرامة الإنسان غير المستقرة على يد نظام الحكم فى عهد الثورة مردودا عليه بأنه يتحدث عن تجربته هو أو عن تجربة صديق مقرب كيوسف إدريس، فإنه يحدثنا حديثا آخر يدل دلالة قاطعة على مدى ما يلعبه الحظ فى إنقاذ كثيرين من مصائرهم الثورية!! بفضل صدف عابرة، وهو ما يتبدى بوضوح مما يقصه علينا فيما يتعلق بإنقاذ حمدى غيث من التشرد بفضل مسلسل «أبى ذر الغفارى» ● أحمد عباس صالح لا يكف عن رواية كثير

من المواقف الفارقة التى تكشف بوضوح عن طبيعة الشمولية وما يشوبها من القهر والخوف اللذين كانا بمثابة نتيجة طبيعية لهذا النمط من الحكم، ولنقرأ على سبيل المثال ما يتحدث به عن تجربة لطفى واكد، وعن انطباعات ذلك الرجل حين زاره أحمد عباس صالح بعد خروجه من السجن ● يبدو أن أحمد عباس صالح كان مرتاحا إلى تشخيصات يوسف إدريس فى وصف الثورة ● الحديث عن الشخصيات التى قدر لأحمد عباس صالح أن يفيد منها ومن خبرتها، فى أثناء عمله الوظيفى ● السيدة روز اليوسف : يتحدث عنها بحب وتقدير شديدين، منفردا برواية موقف غير مشهور لها مع رجال الثورة ● يثنى على السيدة الفنانة نادية لطفى فى فقرات متعددة من مذكراته، مشيرا باعتزاز إلى صالونها وعلاقاتها الاجتماعية الدافئة ● يتحدث حديثا طريفا عن اثنين من كبار الأطباء المصريين فى لندن، وتأتى طرافة هذا الحديث من أن صاحبه كان مريضا يتعامل مع كبار الأطباء، ومن أنه هو نفسه أصبح أبا لأطباء متميزين يعملون فى الخارج أيضا ● حديثه عن الدكتور مجدى يعقوب ● حديثه عن الدكتور فايز بطرس يحفل بالتقدير، وإن لم يخل من انتقاد إهماله لضبط الوقت فى مواعيده ● يصل نقد صاحب المذكرات له بسبب هذه الجزئية إلى أن يصفه بأنه «هليهلى» ● فقرة مشعة بالدفء يتحدث فيها أحمد عباس صالح عن الأيام الأخيرة فى حياة زميله الأستاذ موسى صبرى ● ينفرد بالحديث الصريح عن النهاية الدرامية لحياة الشاعر الفنان إسماعيل الحبروك، وعن السبب المباشر فى هذه النهاية من وجهة نظره هو ● يتحدث عن الحوار الذى دار بينه وبين صلاح سالم حول مسئولية هذا الأخير عن نهاية حياة إسماعيل الحبروك على هذا النحو المؤسف ● أحمد عباس صالح يتحدث عن الدكتور محمد البهى حديثا مهما، وإن لم يكن متشبعا بالحب ● يتحدث عن الأستاذ إسماعيل مظهر بما هو غير مشهور عنه ● المؤلف يتوقع أن المذكرات لن تحظى بكثير من عناية النقاد والمؤرخين، ذلك أن صاحبها كتبها على هذا النحو الذى يكون به سبحات غير متجانسة من دون أن يخضعها لتجربة واحدة، أو لمسار واحد ● لم يكن واعيا بأهمية التاريخ والمذكرات الشخصية فى ظل اهتمامه بالأدب، وهو ما حدث على سبيل المثال حين فرّط فى جمع مذكرات رشيد عالى الكيلانى فى كتاب، بعدما كان قد تولى كتابتها فى مجلة «صباح الخير».

الباب الثامن: من ذكريات معتقل سياسى: مذكرات الأستاذ صليب إبراهيم

● التعريف بصاحب المذكرات ● المؤلف نجح فى أن يلخص حياته على هذا النحو الذكى الذى أوحى به عنوان مذكراته، وهو عنوان متواضع فى كل كلمة منه، حتى وإن أوحت بعض كلماته بغير التواضع ● لايفتأ صليب إبراهيم يحدثنا فى نعومة وتواضع وسلاسة عن معتقداته فى ثورة يوليو بداية وعهدًا ونهاية، وهو يجاهر بما لايجاهر به غيره من إيمانه بسيطرة الفاشية على فكر

obeikan.com

رجال الثورة ● يدلل على فكرته بما عبر عنه عبد الناصر نفسه فى خطبته يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ فى بورسعيد، عندما شن على الشيوعيين - الذين كانوا يدافعون عن بورسعيد قبل عامين أثناء العدوان الثلاثى أبشع حملة استعان فيها بكل التهم الباطلة والنعوت التى لم يسبق أن صدرت من قائد وطنى فى مصر، ثم لحق به محمد حسنين هيكل الذى أعلن فى مقاله بالأهرام أنه يتوجب على الشيوعيين أن يغلقوا أفواههم ويضعوا عليها أقفالاً من حديد وإلا . . (وكانت بعد ذلك هذه ال . . إلا) ● يتعاطف تعاطفًا غير خفى مع الفلسطينيين الذين زجت بهم الثورة فى المعتقلات مشيرًا إلى تجربته فى مزاملة معين بسيسو، وعبد القادر ياسين، وغيرهم من معتقلى غزة الذين قدر له أن يزاملهم حين امتد النظام الناصرى باعتقالاته إلى الفلسطينيين فى غزة التى كانت واقعة تحت الإدارة المصرية ● صليب إبراهيم يحرص على الإشارة إلى أن معين بسيسو كان يرفض (وهو فى المعتقل) أن يقرأ للمعتقلين قصائده التى أشاد فيها بالتجربة الناصرية قبل أن يقع أسيرًا للاعتقال السياسى الظالم ● يبدى رأيه الواضح فى إعدام خميس والبقرى فى بداية عهد الثورة، وهو يقرن هذا الرأى برأى مماثل فى الإهانة التى حرص العهد الجديد على أن يلحقها بعدلى لملوم كرمز من رموز الإقطاع أو العائلات الكبيرة ● صليب إبراهيم يبدو متأثرًا كل التأثر بالمصير الذى لقيه فرج الله الحلو، سكرتير الحزب اللبنانى، الذى أذيب جسده فى الأحماض ● يرى أن النظام الناصرى لجأ بعد ذلك إلى عملية الإذابة المعنوية والجسدية البطيئة حتى لاتفوح رائحة الجريمة ● نرى صليب إبراهيم حريصًا على أن يضمن مذكراته ذلك النص الذى يعتز به وبالبحث عنه و بعثوره عليه ، وهو نص قصيدة «الشهيد» للشاعر محمد مهدى الجواهرى بكل ما تتضمنه هذه القصيدة من المعانى السامية والقيم الثورية ● ينقل للقارئ صورة من نعى الأسرة الذى نشر فى الأهرام عقب استشهاد شهدى عطية الشافعى متعجبًا ومذهولا ، من غفلة الأهرام عن الانتباه إلى ما تضمنه هذا النعى من دلالات ومن أبيات للشاعر العربى العظيم أبى تمام ● على مدى صفحات الكتاب يجد القارئ نفسه فى مواجهة كاتب وطنى قادر على الحكم على الأمور وعلى التمسك بصواب حكمه على الأمور ، وعلى دفع ثمن هذا الحكم من نفسه وبدنه وعلاقاته، وهو يبدأ سلسلة أحكامه التى ربما تقترب به من الحرص على أن يكون واحدًا من ملاك الحقيقة المطلقة !! منذ الصفحة الأولى للكتاب حين يضع في صدارة كتابه جملتين بتوقيعه ● يقف متحفظًا على علاقة الثورة بالإخوان. يحرص فى كل مناسبة على إدانة الطرفين بما يستحقان وبما لايستحقان كذلك ● يقف مذهولا (دون داع للذهول) أمام تحول بعض رموز اليسار إلى فكر الإسلام السياسى وكأن التحول الفكرى أمر غير وارد على الإطلاق ● يحفل الكتاب بحديث ممتع عن شخصيات قدر له أن يعرفها وأن يزاملها ● أهم هذه الأحاديث هو تعريفه الجميل والوافى

بشخصية صديقه شوقى عبد الحكيم الذى يصفه فى بداية الكتاب بأنه شخصية نادرة مملوءة بالحب والسياسة والثقافة، وقرب نهاية الكتاب يقدم صورته بقدر كبير من التفصيل ● يثنى كثيراً على بعض زملائه فى المعتقل وفى مقدمتهم المحامى يوسف حلمى، وهو يذكر له حبه لسيد درويش ● يثنى كثيراً على الشاعر فؤاد حداد، ويورد له كثيراً من نصوصه ● يثنى على الدكتور حمزة البسيونى، الطبيب الإنسان ● فى فقرات متباعدة يذكر بالثناء كلا من ألفريد فرج، وحسن فؤاد، وعبدالستار الطويلة، ومحمد حمام، وزهدى حافظ، ومهندس الديكور مصطفى كامل ● يحرص أيضا على الإشارة إلى نشاطه الصحفى فى المعتقل من خلال جريدة «عنبر إلى الأبد» التى صدر منها عددان، وهى صحيفة حائط ● يضمن كتابه صوراً للحوارات التى أجراها فى مجلة قام بتحريرها للشركة التى قدر له أن يعمل فيها بعد فترة من خروجه من الاعتقال ● يشير إلى سبقه الصحفى، حين سجل حادثة انتحار فى السجن لمسئول كبير، وأنه بعث بما سجله إلى الكاتب حلمى سلام ، فنشر رسالته فى بريد المصور ، وأبرزها بما يليق بها ● ومع هذا فإنه يعترف بأنه لا يذكر اسم المنتحر! ● الحاسة الصحفية الغالبة على صليب إبراهيم ، تجعله حريصاً على أن يلتقط الأحداث الدرامية فى فترة الاعتقال ، وأن يشير إليها حتى لو كانت إشاراته سريعة ، ومن هذه الحوادث قصة هروب إبراهيم هرارى من الواحات بطائرة إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا ● يروى موقف أحد ضباط السجن المشهورين من رفض القيام بالتوقيع على خروج المعتقلين بعد تجربة سابقة له ● يروى تجربة أسرته الصغيرة فى محاولة معرفة مصيره ، بعد ما أعلن راديو وارسو وفاته فى المعتقل ● التجارب الإنسانية فى الكتاب ثرية بالتعبير الدقيق عن ملامحها حتى إن توارت مع الإحساس بوطأة التعذيب وقسوته ● يعبر عن خوفه من النوم على السرير بعد خروجه من المعتقل ● يثنى الثناء كله على زوجته ، وكفاحها ، ووطنيتها ● يحرص على رواية قصة محاكمة مصطفى طيبة ، الذى حكمت عليه الثورة بالسجن ، لمحاولة قلب النظام الملكى !! ● وهو يجعل عنوان الفصل الذى أورد فيه هذه القصة «طرائف أم عجائب أم غرائب»، وهو يروى القصة بطريقة مؤثرة ● يحرص على أن يثبت انتقاداته لرموز الطغيان الذى عانى منه ، وفى مقدمة هؤلاء ، اللواء إسماعيل همت ضابط مصلحة السجون الشهير ، الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد ؛ فإذا بصليب إبراهيم ينفر منه ويحرص على أن يعبر له عن احتقاره !!

obeikan.com

الباب الأول

ذكريات وراء القضبان

مذكرات ألفريد فرج

obeikan.com

obeikan.com

(١)

نجح الأستاذ ألفريد فرج من خلال مجموعة مقالاته التى جمعت فى كتابه «ذكريات وراء القضبان» فى أن يقدم سيرة من أمهر السير الذاتية فى أدبنا المعاصر، بل لعلها أمهر هذه السير جميعا، فقد تظاهر ألفريد فرج بأنه يقص شيئا وقص قصة شىء آخر معه، وقد بلغ من مهارته أننا لا ندرى أى الشيئين أراد أن يقصه علينا.

بل إننا نكاد نعجب من قدرة هذا الرجل على أن يضفر قصه لهاتين القصتين بآراء أخرى فى موضوعات أخرى فيما يبدو وكأنه استطراد دعت إليه السياقات، بينما الحقيقة أن هذه الآراء التى ألقى بها فى سماحة وسلاسة ليست إلا طلقات مقصودة تعرض كل تفصيلات مذهبه المسرحى كاملة متكاملة حتى إننا لا نبالغ إذا قلنا إننا نحس وكأننا نقرأ فى كتابه الذى بين أيدينا ملامح مذهبه المسرحى كله.

(٢)

تظاهر الأستاذ ألفريد فرج بأنه يقص علينا قصة اعتقاله وحرمانه من الحرية، فإذا نحن أمام هذه القصة من أولها إلى آخرها دون أن نغرق فيها، وإن كنا قد أحسسنا بها وبمفارقاتها وقسوتها، لكن ألفريد فرج قدم فى الوقت ذاته قصة مسرحية «حلاق بغداد» منذ بدأت جنينا إلى أن أصبحت عرضا تكرر عرضه آلاف المرات فى مصر وفى غير مصر، بل إلى أن أصبحت معلما من معالم التاريخ المسرحى المصرى المعاصر (أو العربى) على وجه العموم، أو المسرحى على وجه أكثر عمومية.

وقد نجح ألفريد فرج كذلك فى أن يقدم لنا جوهر الحوارات التى دارت بينه وبين

توفيق الحكيم حول تقنيات المسرح وآلياته، كما نجح فى أن يقدم صورة دقيقة للمونولوجات التى دارت فى عقله حول فن المسرح وما يمكن له أن يقدمه من خلال هذا الفن موظفا خبراته وقراءاته ودراساته على نحو ذكى، وهو نحو ذكى لأنه يضيف قبل أن يقلد، ويلتقط قبل أن ينقد.

ومع هذا كله فإن الكتاب الذى أتيح له النشر على يد نبيل فرج شقيق ألفريد بعد وفاة شقيقه، يقف متواضعا فى شموخ، وقد جمع نبيل فرج هذه المقالات التى نشرت من قبل فى صحيفة محدودة الانتشار على حد وصف نبيل فرج. يقف الكتاب ليقول هذه هى قصة مسرحية «حلاق بغداد»، وهذه هى سيرة تجربة ألفريد فرج مع المسرح الجماهيرى، وهذه هى تجربة ألفريد فرج مع السجون والمعتقلات الناصرية، وهذه هى سيرة ألفريد فرج مع قصة حياته التى أجل وأجمل وأكمل الحديث عنها حتى وقت متأخر من حياته.

وفى هذا الكتاب كثير من المتع الذهنية التى لا يمكن تلخيصها فى عبارات نقدية، ولا عبارات عرضية، ولا عبارات انتقائية، ذلك أن مثل هذا التلخيص أو الانتقاء قد يفقد هذه المواقف المحبوكة مكانتها الأرفع التى تتمتع بها، وهى تحتل موضعا متميزا فى سيرة المعتقل، أو فى سيرة المسرحية، وتصبح هذه المواقف بعيدا عن السيرة أقل بكثير من قيمتها، وهى جزء من البنيان المسرحى الجميل الذى صاغه ألفريد فرج بذكاء شديد.

(٣)

أكاد أجزم أن ألفريد فرج كتب هذه السيرة على الورق دفعة واحدة ومن المرة الأولى، وأنه لم يخضع لمنطق الترتيب وإعادة الترتيب، ولا لمنطق إعادة الكتابة، ولا إعادة الصياغة، لكنى أكاد أجزم أيضا أنه فعل ذلك كله مرات ومرات فى ذهنه ووجدانه قبل أن يتناول الورق ليكتب ما كتب، وليسجل ما سجل.

وقد نجح ألفريد فرج فى أن يدير الحوار الداخلى مع نفسه على نحو كفل له أن يخرج من هذا الحوار برؤية قادرة على تحديد الأولويات، وعلى انتقاء الموضوعات، فإذا هو

لا يحدثنا عن كل شىء، لكنه فى الوقت نفسه يحيطنا علما بكل شىء، كذلك فإنه لا يروى كل الأيام، لكنه يروى كل ما فى الأيام، كذلك فإنه لا ينقل لنا كل النصوص، ولا كل الحوارات، ومع هذا فإنه يدلنا على جوهر ما فى هذه النصوص من خلال الذروة التى وصف موضعها فى ذرا الحوار فإذا نحن حين نبلغها ونتسنمها معه ندرك من عل كيف كان الطريق طويلا وشاقا، وكيف كان الكلام ممتدا، وكيف كان الحوار متواصلًا.

(٤)

وإذا كان لابد لنا من أن نقتطف للقارئ بعض الفقرات التى تصور هذا العمل الجميل، وتضىء لنا دلالاته، فإنى أبدأ بأن أنقل للقارئ هاتين الصفحتين اللتين انتقى بهما ألفريد فرج موقفا مسرحيا فريدا وعرضه على نحو ذكى ينبئ بكل شىء بعد ذلك.

هو يروى قصة أيامه الأولى فى المعتقل فيختار لنا هذه القصة التى لا يتنبه إليها إلا مسرحى ممتاز من الطبقة العالية التى يمثلها ألفريد فرج:

«. . . كان معنا فى القلعة نقابى تجاوز منتصف العمر هو الريس محمود رئيس نقابة من أكبر نقابات مصانع النسيج، وينتمى إليها ثلاثة عشر ألف عامل، فلما اعتقل اجتمع مجلس النقابة وقرر إيفاد ثلاثة من أعضائه لزيارة رئيس النقابة، وبالسجية الريفية أخذوا له «زيارة» عبارة عن ثلاثة غلقان كبيرة مليئة بالدجاج المحمر، والأرز، والفطير المشلتت، ومائة بيضة مسلوقة، وبعض التوابل، والبخور، وداروا فى القاهرة يسألون عن الريس محمود، وبعد أن داخوا ثلاثة أيام علموا أنه معتقل بالقلعة، فداروا يدقون أبوابها الحصنة، وأبى الحراس دخولهم، ولكن مجندا ابن حلال دلهم على ساحة تطل عليها شبابيك أحد عنابر سجن القلعة من ارتفاع حوالى ثلاثين مترا، فوقفوا هناك على مسافة من الجدران الصماء حتى يروا مَنْ هم خلف القضبان ونادوا الريس محمود بأعلى أصواتهم حتى لفتوا نظر الناس اللى فوق، فبادلوهم الصياح ليعرفوا منهم ما يريدون، ونادوا لهم الريس محمود الذى صاح بهم: «إيه اللى جابكم هنا؟ . . ماذا جاء بكم هنا؟»، وصاحوا به: «المجلس وكل الناس تسلم عليك وأتينا بالزيارة ولا يريدون السماح لنا بالدخول».

«فصاح محمود: «زيارة إيه ياناس؟»، فصاحوا به: «أبدا.. شوية فطير وفراخ وبيض وحتتين لحمة.. حاجة بسيطة كده»، فتعالت ضحكات من بعض المعتقلين، بينما صاح محمود: «ياإخواننا ارجعوا تانى بالسلامة، الكلام ده ممنوع هنا، وسلموا على الزملاء ومتشكرين.. اتفضلوا»، ولكن صاح صائحهم: «نمشى إزاى ياريس، إحنا شدينا لك أكبر محامى وقال لنا من حقنا الزيارة».

«صاح محمود: «ارجعوا يازملاء، يا إبراهيم اسمع اللى بقوله لك، ارجع طوالى، مش مصروف لنا هنا لا محامى ولا فراخ ولا بيض ولا زيارة، اعمل معروف اسمع الكلام وارجعوا حالا، اسمع الكلام.. اسمع الكلام».

«ولكن الوقت لم يسعفهم ليسمعوا الكلام، فقد اتصلت إدارة المعتقل بالداخلية، فما رأينا إلا أربع سيارات من شرطة تحيط بالجماعة، وعشرات العساكر والضباط المدججين بالسلاح يتدفقون حولهم، وصوت الضباط الآمر: «عندك وارفع إيديك أنت وهو! ولا حركة! كلبش ياحضرة الضابط».

«فما مضى وقت إلا وشاهدناهم داخلين من الباب وقد تجردوا من نقودهم وأحزمتهم وأربطة الأحذية وغيرها، والأهم من ذلك أنهم تجردوا من غلقان الفطير والفراخ والبيض ورسائل الأهل والأصدقاء، أو ربما أهم من ذلك أيضا تجريدهم من حريتهم وقضائهم فى المعتقل خمس سنوات(!) وكان زملاؤهم المعتقلون يتندرون بهم فيقولون: «المثل يقول الرجل راح فى شربة ماء.. وهؤلاء راحوا فى أكلة فطير سخن وفراخ محمرة وبيض طازج، فيالسخرية القدر!».

«ويضحك مَنْ يضحك والآخرون يضربون كفا بكف، ويسألون: الله اللطف!».

. . . .

. . . .

هل يحتاج ألفريد فرج بعد هذا الذكاء المسرحى العبقرى أن يوظف تقنية أو حوارا أو مدخلا ليحقق إنجازا مسرحيا؟ لا أظن.

(٥)

يعتز ألفريد فرج بمسرحية «حلاق بغداد» اعتزازا كبيرا، وهو فى إحدى الفقرات يصف علاقته بها وبنجاحه بقوله:

«. . . كانت مسرحية حلاق بغداد هى نجاحى الأول مع الجمهور، وكانت هى النجاح الأول لأسلوبى فى استلهام التراث، والعودة إلى الينابيع واختيار حكايات ألف ليلة وليلة لصياغتها فى كلاسيكيات مسرحية عربية أطروحاتها عصرية، وتلمس الأوتار النفسية والاجتماعية لأصحاب المتاعب من المواطنين الصغار فى دنيانا».

. . . .

. . . .

وهو يتحدث قبل هذا عن كتابتها فى السجن وكأنه يقدم تبريرا لخصوصية لحظة الإبداع التى شهدتها هذه المسرحية فيقول:

«ولكن الفن مثل البرعم الصغير الذى يمكن أن يفاجئ التائه فى الصحراء، وفى جوها اللافح بأن يشق له طريقا فى الرمال ينفذ منها إلى ضياء الشمس الملتهبة، ويسقط له ظلا مساحته بضع ملليمترات يخفق له قلب عابر الصحراء بأمل سخى مهما كان صغيرا».

«وهل كانت «حلاق بغداد» إلا ومضة خاطر صغيرة ليست أكبر من هذا البرعم الدقيق، وبسمة غريبة فى جهامة الأحوال والأيام فى المعتقل الرهيب، وبقعة ضوء خاطفة كشفت قناع أبو الفضول «حلاق بغداد» ألف ليلة وليلة بين صخور العناء والقسوة التى كانت أركان بنيان ذلك المعتقل».

(٦)

ويحدثنا ألفريد فرج باعتزاز عن اختلاف ردود الفعل تجاه مسرحية «سقوط فرعون» واتجاه معظم النقاد إلى التنديد بالمسرحية، على حين يذكر أسماء أربعة فقط من الأعلام دافعوا عن هذه المسرحية، بيد أنه فى اعتزازه بأحكام النقاد يبدى سعادة أكبر بتعبير ساخر لكامل الشناوى الذى لخص الموقف كله فى عبارة ساخرة:

«كانت مسرحية «سقوط فرعون» هى المسرحية الأولى التى تعاقد المسرح القومى معى عليها فى عهد عميد المسرح الفنان يوسف وهبى مدير الفرقة، ثم عرضت فى عهد إدارة أحمد حمروش للفرقة فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٧ على مسرح دار الأوبرا».

«وقد أثارت المسرحية جدلا صاخبا بين النقاد فى جميع الصحف المصرية تقريبا خلال شهرى نوفمبر (تشرين الثانى) وديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٧، وكتب عنها حوالى الخمسين مقالا، وهو رقم قياسى لم يتكرر أبدا، وكان معظم النقد ضدها ويميل إلى الأسلوب العنيف فى التنديد بالمسرحية، وإن دافع عنها الشاعر الكبير عبد الرحمن الشرقاوى، والروائى الصديق العزيز فتحى غانم وبلدياتى الإسكندرى، والكاتب الحديث إدوار الخراط، والشاعر صلاح عبد الصبور».

«وكان الهجوم على المسرحية يحمل عناوين ساخنة مثل: «سقوط سقوط فرعون»، و«عشرة أسباب لماذا سقطت سقوط فرعون»، و«سقوط فرعون فوق رءوس الجمهور».

«وفى هذا الجو الصاخب أبدع الفنان المرح كامل الشناوى عبارة على نسق العبارة الشهيرة «نجاح منقطع النظير» فقال لى مداعبا فى جلسته بين المثقفين «نجحت سقوط فرعون نجاحا منقطع الجماهير».

«وهى عبارة صار الوسط الفنى يرددها فى لحظات المرح وصفا للمسرحيات التى أعرض عنها الجمهور».

«ولكن سقوط فرعون لم تكن منقطعة الجماهير فى الواقع، لأن موسم ١٩٥٧ - ١٩٥٨ كان متوسط حضور الجمهور فى كل ليلة من لياليه ٣٣١ مشاهدا، وكان متوسط حضور الجمهور فى سقوط فرعون» ٢٠٩ مشاهد، وهى المسرحية التراجيدية ولغتها اللغة الفصحى، وكانت مسرحيات الموسم الكوميدية هى «زواج الحلاق» لبومارشيه، و«الناس اللى فوق» لنعمان عاشور، و«جمعية قتل الزوجات» ليوسف السباعى، وكانت تتمتع بالإقبال».

«ولكن «سقوط فرعون» لم تبق على المسرح إلا أسبوعين أى اثنتى عشرة حفلة وأوقفت لأسباب رقابية غير مباشرة».

(٧)

وينتهز ألفريد فرج فرصة هذا الحديث ليتحدث بإيجاز شديد عن رأيه الواضح الذى ينتقد فيه ما يسميه «القراءة الرقابية» للأدب، وهو المنهج الذى أوذيت به مسرحيته وأوذى هو نفسه بسببه، كما أوذيت به أعمال كثيرة فى عهد الثورة، وهو يتعاطف مع عجز السلطات (!!) عن قراءة الأدب إلا بمثل هذه الطريقة، بل إنه يكاد يعطى العذر للنقاد والرقباء الذين «تدرجوا» إلى الانسياق وراء هذا الأسلوب:

«. . . لم تكن الأوساط الرسمية تملك الخبرة فى قراءة الأدب، وكان الضباط الجدد يتوهمون فيما يقرأون من القصص والمسرحيات والشعر ما هو أبعد من التفسير القريب للإبداع، ودائما يفترضون ما هو أقرب إلى النقد الخفى، أو الدعوة المستترة للمعارضة، فى ثنايا السياق الأدبى».

«ومن إلحاح هذا المنهج فى قراءة الإبداع الأدبى وتفسيره تدرج عدد من النقاد إلى اتباعه والانسياق وراء نفس الأسلوب السلطوى فى قراءة النصوص، حتى أصبحت «القراءة الرقابية» هى القراءة الشائعة، وأصبح السبق إلى الكشف عن خبايا النص الأدبى والإبداعى المزعوم هو الهدف الذى يسعى إليه الرقباء كما يسعى إليه النقاد، ويغرون القراء والمشاهدين بدخول السباق، وتحول الإبداع إلى لون من ألوان الكلمات المتقاطعة، أو فوازير رمضان والألغاز التى يتعين على الرقباء حلها».

. . . .

. . . .

«ومن عنف ما واجهته «سقوط فرعون» من النقد، وحرارة الدفاع عنها، التفت الرقباء لها مدققين فرأوا فيها ما يقتضى ابتسار عرضها، واختصار حضورها، فانتهى عرضها بعد اثنتى عشرة حفلة فقط، بينما كان التقليد أن يستمر عرض كل مسرحية ستة أسابيع متصلة».

(٨)

ويلفت ألفريد فرج نظرنا إلى بعض المفارقات التى جعلت مسرحية «سقوط فرعون» تحظى بهذا الحظ النكد، ومن هذا الذى يرويه صاحب المسرحية نكتشف أن أحمد رشدى صالح كان هو الذى أطلق على المسرحية هذا الاسم الذى أعجب به مخرجها حمدى غيث، وهكذا وضع بدلا من اسمها الأصلى «مأساة إخناتون».

ويعترف ألفريد فرج بأنه كان فى وسعه أن يغير اسم المسرحية بعدما شاع فى الصحافة البريطانية من تسمية عبد الناصر بالفرعون، لكنه رأى مثل هذ التصرف مستحيلا، وكأنما يريد ألفريد فرج أن يقول إنه كان يستحق ما أوذى به هو ومسرحيته ونقادها (!!) كما نكتشف أن هذه المسرحية نفسها كانت صدى مباشرا لإعجاب ألفريد فرج بقصة عادل كامل الشهيرة «ملك من شعاع»:

«وقد كان اسم المسرحية أحد المآخذ عليها، حيث إن الصحف البريطانية أثناء العدوان كانت تسمى جمال عبد الناصر «فرعون»، كما كانت تسميه «هتلر» مدة العدوان (١٩٥٦)، ولكن هذا كان من المستحيل أن يدفعنى إلى تغيير عنوان مسرحيتى التى تعاقدت عليها واشتهر عنوانها قبل العدوان بشهور (فبراير ١٩٥٦)، وكيف كان يخطر لى إلغاء الاسم المصرى «فرعون» من كتب التاريخ وقصص الأدب حتى لا يلتبس الأمر على الرقيب (؟!)».

«... وقد كان عنوان المسرحية الأصلى قبل فبراير ١٩٥٦ «مأساة إخناتون»، ولكن صديقى الكاتب الكبير أحمد رشدى صالح نصحنى بتغيير العنوان حيث إنه قليل الإثارة والجاذبية، وأهدانى باقتراح عنوان «سقوط فرعون» الذى أعجب به أيضا المخرج الفنان حمدى غيث وفضله، فتم التعاقد بالعنوان الجديد، ولكن نقادا أكثر ذكاء من الرقباء يفكرون بمنهج الرقباء رأوا فى موضوع المسرحية أيضا نقدا للنظام الجديد لثورة يوليو ١٩٥٢».

«وقد كتبت مسرحية «سقوط فرعون» تحت تأثير إعجابى غير المحدود برواية الكاتب المبدع عادل كامل «ملك من شعاع» التى روى فيها سيرة الملك الشاعر الإنسان «إخناتون»، وتحت تأثير كتابى المؤرخين «ويجال» الألمانى، و«بريستد» الأمريكى، فإن هؤلاء رأوا فى سيرة إخناتون ما رأوا».

. . . .

. . . .

«ولكن نقادنا الرقباء ابتدعوا مع «سقوط فرعون» كلمة «الإسقاط» واستعاروها من الأدبيات السيكولوجية حول تفسير الأحلام والكوابيس بدون تدقيق أو تروى، فأغروا السلطة على غير ما تمنوه بتحويل أحلام المبدعين إلى كوابيس وأطياف، وبتحويل خيالهم إلى حياة حافلة بالخوف والأشباح».

(٩)

ويتحدث ألفريد فرج عن أن هذا التوجه فى تناول الأعمال الأدبية بالنقد من أجل الرقابة لم يكن قاصرا على مصر وحدها، وأنه هو نفسه عانى منه (فى إحدى مسرحياته الأخرى) فى ألمانيا الشرقية، وكأنما يريد ألفريد فرج أن يدين النظم الشمولية جميعاً فى تعاملها الرقابى مع الأدب والفن من دون أن يقول ذلك صراحة:

. . . .

. . . .

«وقد كان لذلك كله أثر سلبى عميق على الثقافة عامة، والمسرح بخاصة فى السنوات التالية».

«ولم أكن أعرف أن هذه الظاهرة السلبية لها امتداد عالمى إلا حين ترجم لى أحد المثقفين مسرحية «على جناح التبريزى وتابعه قفة» إلى الألمانية وعرضها على دار نشر ألمانية شرقية فرفضت نشرها، وكانت إحدى الفرق المسرحية قد اهتمت بها، فألح على المترجم ودراماتورج الفرقة أن نلتقى بالرقيب الذى يملك التصريح بالنشر وبالعرض المسرحى، فاستسلمت لإلحاحهم وذهبنا شلة لمقابلة رقيب لم يتجاوز الثلاثين من عمره، بادرنى بقوله:

«. . أريد أن أطرح عليك سؤالا واحدا . . هل تعتقد أن الفكر يسبق الفعل أم أن الفعل يسبق الفكر؟!».

«فى الواقع دهشت جدا، واحترت برهة قبل أن أقول له:

«هيرن «شوك» (هذا كان اسمه) لو كان هذا لغز أبى الهول فى مسرحية «أوديب»، ويتوقف عليه نشر مسرحيتى وعرضها على المسرح فاسمح لى بسؤال مقابل السؤال: هل تتعرض الشيوعية الدولية للخطر من مسرحية تحتمل تفسيرا فلسفيا بعيدا لا يرضى عنه حراس النظرية؟».

«وكان الغضب المكظوم قد انتقل منى إليه فقنعت من الجلسة بالإياب، ولم تنشر المسرحية أو تعرض إلا فى برلين الغربية بعدها من غير سؤال أو فوازير (!)».

(١٠)

ونأتى إلى تجربة ألفريد فرج مع السجن وما أحس به فيه من غربة أو اغتراب، وكيف حاول كسر هذه الرتابة والوحشة من خلال استبطان هوايته للمسرح وحبه له، ثم استظهار هذه الهواية.

ونحن نلاحظ أن ألفريد فرج يتحدث عن شعوره بالغربة فى المعتقل حديثا مختلفا من أحاديث أقرانه من اليساريين، إذ أنه يحاول أن ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى يتعاطف فيها مع محققيه وسجانيه ويراهم مثله قد تحولوا إلى قشة فى مهب الريح، وهو من أجل هذا يخرج عن السياق ليستشهد بالحوار الذى دار بين أحد زملائه (د. محمد الخفيف) وقائد المعتقل حول استحالة صدور أحكام على زملائه دون أن يخطروا بها، ومن ثم يعاملون معاملة الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة دون أن يدرون، ودون أن تدرى سلطات السجون أو المعتقلات.

بل إن ألفريد فرج يرى أن النظام الناصرى قد حقق أوضح صورة لما كان الكاتب التشيكى كافكا يتصوره!!

وهو يشعر بالغربة لسبب آخر تكشف عنه السطور التالية التى يردف بها رواية ما حدث معه فى التحقيق:

«. . . وكان قصر مدة التحقيق، واللامبالاة التى لا يخفيها عضو النيابة، وعيونه النعسانة، كلها صورة للموقف العبثى الذى نحن فيه».

«وقبل أن أغرق فى النوم كانت تملأ نفسى رواية «المحاكمة» للكاتب التشيكى فرانز

كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤)، وهى رواية تصف محاكمة شخص لا يعرف القارئ (أو المتهم) التهمة الموجهة له، ويصدر الحكم عليه مع ذلك، وقد اعتبرت رواية «المحاكمة» التى كتبها كافكا سنة ١٩١٤ صورة النفس الأوروبية الغارقة فى الاغتراب والقلق».

««فتأمل معى مرور الأيام والشهور والسنين فى المعتقل من غير محاكمة أو اتهام محدد أو دفاع أو مزيد من سين وجيم بعد ذلك التحقيق الخاطف بعد منتصف ذلك الليل، ولمدة أربع سنوات بالنسبة لى، وأكثر من السنوات الأربع بالنسبة لغيرى ؟».

«وقد نقل مئات المعتقلين بعد ذلك من القلعة إلى معتقل العزب بالفيوم، ثم إلى أوردى ليمان أبى زعبل حيث ساقتهم قوة الليمان الرهيب إلى تكسير أحجار البازلت مع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، وكان الصديق المثقف الدكتور محمد الخفيف (الذى كلف برئاسة لجنة إعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكى فيما بعد سنة ١٩٧١) قد استثنى من الترحيل إلى أبى زعبل، وأسر إليه قائد معتقل العزب بأن زملاءه، يعنى نحن، نقلوا إلى أبى زعبل للعمل مع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى تكسير البازلت، فدهش الدكتور الخفيف، كما قال لى فيما بعد ونحن نشرب القهوة فى كازينو على شاطئ النيل، وتشكك فى معلومات قائد المعتقل وقال له:

«هذا لا يحدث إلا بصدور أحكام محكمة».

«فصاح به الرجل:

«ومن أدراك.. فربما صدرت ضدهم أحكام غيابية دون إحضارهم أمام القاضى، وهل تظن أن هذا يصعب على الحكومة ؟».

«فهل ترى صورة أوضح من ذلك لما تصوره وكتبه كافكا فى روايته ؟!».

(١١)

وعلى هذا النحو يمضى ألفريد فرج فى تأمله للجوانب العبثية فى تجربة فقدانه هو وزملائه الحرية على مدى سنوت، وهو على عادته فى تكشيف المواقف يروى قصة صفحة الجريدة التى حملها الريح إلى المعتقل ذات يوم وقد حملت تصريحا ينفى وجود المعتقلات فى مصر.

وسرعان ما ينتقل ألفريد فرج بعد حوار مسرحى إلى القول بأنه هو وزملاءه عاشوا خارج الدنيا والتاريخ فى صندوق محكم:

«. . . ولكن صديقا لى قال ذات مرة :

«ألم تلاحظ التراخى وروح اللامبالاة فى جلسة التحقيق؟ وربما كانوا يتعمدون ذلك حتى يعرف المعتقلون أنه حتى المظاهر القانونية وشكل إجراءات العدالة لن تكون محل اهتمام أو مراعاة، وأن الحكومة غير مقيدة بالقانون أو بالإجراءات القانونية».

«قد مر فى المعتقل آلاف من الإخوان المسلمين، ومئات الباشوات وأقطاب العهد الماضى، وألف شخص نسبوا إلى الشيوعية والليبرالية والاشتراكية والديمقراطية من غير اتهام، أو عن غير طريق المحكمة، ومعظمهم من غير تحقيق على الإطلاق، وكانت الصحف ممنوعة بالنسبة للجميع، ولكن المعتقل سمح مرة واحدة بدخول صفحة أولى من جريدة يومية رماها الريح على سبيل الخطأ، أو على سبيل القصد، وكان المانشيت والعنوان الرئيسى فى تلك الصفحة تصريحا رسميا لمسئول كبير «ليس فى مصر معتقلات» (!)».

«قلت لأصحابى: التصريح صادق.. وهذا الذى نحن فيه لا يمكن يكون معتقلا سياسيا، وإنما الأقرب إلى التصور أننا مخطوفون فى القصب بأيدى عصابات المطاريد التى تطلب دية للإفراج عنا».

«وقال صاحبى: الحرب الباردة على أشدها ونحن وقودها !».

«فقلت: وما لى أنا والحرب الباردة، وما لنا كلنا وتلك الحرب.. نحن على الحياد».

«قال صاحبى: الحرب الباردة عالمية.. وهل يستطيع أحد أن يعيش خارج العالم.. لا حياة خارج الدنيا».

«ولكننا نحن عشنا خارج الدنيا، خارج القانون وحقوق الإنسان، داخل السجون، ولكن خارج لوائح السجون، وخارج التاريخ ودنيا الصحافة والإذاعة والأنباء، وخارج مجال الاتصال بالأقارب والمهنة وأهل الحياة، وجربنا تلك الحالة النفسية العجيبة التى يصنعها الانقطاع والعزلة والصمت الإعلامى والشعور بتوقف الزمان».

«فى معتقل الفيوم أحاطت بنا الأسلاك الشائكة، وفى أبى زعبل جبل البازلت الأسود، وفى الواحات سور مرتفع بلون الرمال».

«وفى هذه العلبة المغلقة أو الصندوق المحكم الإقفال لا حياة للنفس أو للذهن إلا فى الذكريات، وفى التأمل الباطنى، والتفكير بأثر رجعى».

(١٢)

ولأننا لا نستطيع أن نروى كل ما خبره أو صوره ألفريد فرج مما فى حياة المعتقلات من فظائع يشيب لها الولدان على حد تعبير البلاغة التقليدية، فسوف نختار بعض أخف هذه التصويرات، وهو حديث ألفريد فرج عن ذهاب المعتقلين فى «الحجلة» إلى معتقل الواحات.

وقد تعمد ألفريد فرج أن يسرب فى حديثه رموزا دالة على شعوره الخفى تجاه هذه المحنة، انظر على سبيل المثال إلى قوله «الأسرى المعتقلين» فى وصف نفسه وزملائه، وما يحفل به هذا المصطلح من معان تدل دلالة فاضحة على شعور السلطات تجاه أبناء الشعب!!

ثم انظر إلى هذا التصوير الدقيق لحالة أبناء الشعب الذين لم يتحملوا أن يشهدوا للحظة واحدة صورة من صور هذه المعاملة القاسية التى كانت السلطة فى مصر تعامل بها أبناءها من الذين اتهمتهم بالشيوعية:

« . . . فلكى نذهب للواحات بعد أبى زعبل تم ربط الطابور كله بجنزير حديدى واحد، وكل نصف متر منه به اثنان من القيود الحديدية «كلبشات» يقيد بها اثنان من الأسرى المعتقلين، حفاة جياعا مكدودين، على عيونهم نظارات محطمة وموصولة بالخيوط المتسخة».

«ذهبنا إلى محطة الجيزة ووقفنا طابورا ننتظر القطار «السياحى» فى منتصف الليل وفى البرد، فلما دخل القطار للمحطة فتح الركاب الشبابيك ينادون باعة السميط والبيض والبيبسى كولا، ولكن صرخات النساء تعالت، وتعالت صيحات الدهشة والتفجع وجلبة إغلاق الشبابيك بعنف مع صيحات الضباط وهم يقتادون الطابور الذى

يشخشخ حديده شخشخة مخيفة إلى عربة البهائم الخالية من الكراسى يجذب بعضنا بعضا بالجنزير، مما أثار ريحا صار يصفر كالغاضب».

«وأنا أناجى النفس أى أديب يمكن أن يرسم صورة الجبل؟! أى أديب أو مخرج فى السينما يستطيع أن يلتقط صورة رحيل الطابور فى الجنزير؟».

«رباه! أنا أتألم وهم يتألمون، ولا شاهد يستطيع أن ينقل الصورة المروعة للتاريخ إلا أن يكون ليو تولستوى صاحب رواية «العبث» نفسه، فأين نحن منه؟ وأين هو منا اليوم ؟!».

«وتمنينا دائما أن تشاهدنا عيون من خارج المعتقل، لماذا لا يخاطر الصحفيون بالتسلل هنا لالتقاط صورة ؟ أليست هذه هى المهنة ؟! أين الصليب الأحمر السويسرى، أو منظمة الأمنستى الدولية ؟! لماذا لا يأتى ليرانا أى إنسان ؟!».

(١٣)

وفى خضم هذا التصوير القاسى يأبى ألفريد فرج إلا أن يتصاعد بالدراما الإنسانية إلى ذروة من ذراها التى تعبر عن قسوة البشر على البشر حين لا يأتيهم مَنْ يراهم من البشر إلا لغرض آخر يضيف إلى عذابهم عذابا ومرارة، فها هى زوجة أحد المعتقلين تأتى ومعها المأذون لتحصل على حريتها!! (بالطلاق) من زوجها المعتقل، ونحن نفهم بالبداهة أن هذا الطلاق لم يكن إلا من أجل حصولها على حرية تتمتع بها، وأن مثل هذا الترتيب لا يتحقق إلا بسطوة طرف آخر سيفيد من هذه الحرية:

«وفجأة أقبلت فى الجبل البازلت لأبى زعبل وتقدمت فى طريقها ببطء على شظايا الفجوة الجبلية التى نعمل فى قاعها، وهو مكان لم نكن نعتقد أن الوصول إليه ممكن بغير الخيل، وتطلعت كل العيون تخترق المسافة، ليرى الجميع الزوجة الحسناء فى أبهى صورة تنزل من جانب السيارة، ومن الجانب الآخر رجل معمم معه دفتر، وتوقف الدق وران الصمت وصاح الضابط الجهم: فلان الفلانى، فقال فلان: أفندم؟ وصاح الضابط بصوت جهورى: اطلع فوق للمأذون، مراتك جاية تطلقها!».

«اقشعرت الأبدان، وما تمنيناه حدث، جاء مَنْ يرى ويسمع ويشهد، ولكن ليته ما جاء ولا رأيناه ولا سمعناه، وهل يبلغ غدر الإنسان هذا المدى ؟!».

(١٤)

وإذا كنا قد اعتذرنا للقارئ ولانزل نعتذر عن عجزنا عن نقل الفقرات التى تصور بشاعة ما تعرض له ألفريد فرج وأقرانه، فإنه هو نفسه قد سبقنا إلى صياغة هذا الاعتذار بطريقة أفضل:

«ما أكتبه هنا أقل القليل، وربما يستطيع غيرى أن يكتب أكثر منى، ولم يكن اليوم يمر دون عنف، فمن حين لآخر يتصيد النقيب الرهيب واحدا ممن يقدر أنه من وجهاء المعتقل أو زعمائه ليصرخ فى وجهه، ثم يدعو زبانيته ليشهروا العصى عليه وتنهال العصى على الرجل، وغرض الحملة امتهانه أمام زملائه وتخويفهم، وتحطيم معنوياتهم بمشاهدة أحد زعمائهم يصرخ من الألم».

(١٥)

وفى سلاسة شديدة يسخر ألفريد فرج من جلاديه بطريقة قاسية، حتى إنه يتحدث عما يسميه «خطأ المعتقل»، معبرا عن أن المعتقلين أخطأوا حين لم يمكنوا معتقليهم من السعادة بإذلالهم !!:

«. . . ولكن هذا كان خطأ المعتقل، المليء بالخطايا، لأن الذين تعرضوا لهذه الدراما كانوا دائما مثالا للثبات والشجاعة، مما كان يحط بهيبة المعتقل وضباطه، ويعرض الصورة الرهيبة للاهتزاز، بما يؤدى إلى عكس الغرض، ويساعد على ثبات الوجدان بين المعتقلين».

«ويودى أن أذكر فى هذا الصدد بكل احترام أسماء هؤلاء الشجعان، لولا أن ذلك من حقهم وحدهم أن يسمحوا به، ولكن اسما واحدا أصبح فى ذمة التاريخ ومن حقى ذكره، وهو الشهيد شهدى عطية الشافعى، الذى رثاه والده فى «الأهرام» ببيت الشعر للمتنبى، (هكذا يقول ألفريد فرج. . بينما البيت لأبى تمام):

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر

«وقد صرعه الشوم، وكان حتى الموت مثالا للشجاعة والثبات».

. . . .

. . . .

ونحن نرى ألفريد فرج يعود ليحدث نفسه وكأنه يحدثنا أو ليحدثنا وكأنه يحدث نفسه فيقول:

«هذا سجن لا يستطيع وصفه أقل من تولستوى صاحب «الحرب والسلام»، و«البعث»، أو ديستوفسكى صاحب «الأخوة كرامازوف».

(١٦)

وربما نظلم ألفريد فرج إذا ما نحن أهملنا حديثه عن المعتقل من خارجه بعد مضى هذه السنوات، وهو الذى يصور المعتقل تصويرا فلسفيا يستند إلى التاريخ حيث يقول:

«. . . أعود لأفكر كيف كان حال أسرى الحروب قبل ميثاق جنيف، وهل نحن أسرى حرب طبقية، أو اجتماعية، أو حرب تاريخية عاد بنا الزمن إليها آلاف السنين (!)».

«وأعود فأتذكر قول الشيوعى العجوز لى فى زنزانة القلعة:

«هذا آخر المعتقلات، لأنه لم تعد معارضة فى الخارج، ولن تخرج المعارضة من الداخل».

«ولكن صديقى الفنان المبدع حسن فؤاد قال لى ونحن فى فريق «الشوانة» نحمل الغلقان الثقيلة:

«يا ألفريد نحن فى معتقل ألمانى! فليس فى مصر موظفون فى الحكومة يعملون بالتعذيب أو غيره بانتظام الساعة، وبدقة وكفاءة مثل هؤلاء الضباط والجنود، إنهم ألمان، وإن كانت أسماؤهم مصرية».

«فإذا أضحكتنى ملاحظة تلفت حولى أطمئن أن أحدا من الزبانية لم يرنى أضحك، فقد كان الضحك فى المعتقل من الأخطار الجسيمة !».

ولأن ألفريد فرج رجل مسرحى الدم والهوى والمنطق فإنه يجد نفسه مدفوعا إلى أن يبحث عن المفارقات المضحكة كى يسخر بها من جلاديه، وها هو يقص علينا قصة واحد من زملائه الذين صمموا على أن يكسروا هيبة رجال المعتقل وأن يتحملوا العناء والتعذيب من أجل النكتة والضحكة !! حتى إنه كسر كتفيه من أجل أن يكسر هيبة الذين عذبوه !! :

«. . . ولكن صديقى الظريف محمد قرر أن يقتحم هذا الحصار الصلب، والنار اللاهبة، والعزم الألمانى، والدقة والطاقة على التنكيل، وإشاعة النكد، والاكتئاب، واليأس، وانقطاع الأمل».

«صديقى المهزار الظريف الشجاع محمد قرر أن يحطم هيبة زبانية التعذيب، وأن يسخر منهم أمام مئات المعتقلين».

«صديقى الظريف محمد خرج فجأة من الطابور الذى يتلقى ضربات عصى الشوم والأحذية الميرى ليقول للنقيب الرهيب قائد المعركة بأسلوب عسكرى:

«أنا متظلم يافندم لأن كتفى اليمين به إصابة قديمة وأخاف عليه من الشوم، فأرجوك أن تصدر أمرا للعساكر بأن يضربونى دائما على الكتف الآخر وهو سليم. . ها هنا أيوه، اضرب هنا، (مشيرا باصبعه للعسكرى» سليم ! اضرب فى السليم !».

«ضحك المعتقلون فى اليوم الوبيل، وفتح النقيب الرهيب عينيه غير مصدق، وصاح بزبانيته:

«اضربوه على الكتفين. . كسروه».

«فكان يتلقى الضربات الموجعة، ويلح فى الإشارة بيده على الكتف السليم وهو يصيح: «هنا هنا. . أيوه. . لا لا. . بلاش ده» (!) فيزداد الضحك منه».

«يومها كان حديث المعتقل كله، وقد وجه له كثيرون اللوم ووصفوا شجاعته بأنها كانت شجاعة مجانية، وأنه استجلب لنفسه ولغيره الأذى بلا طائل أو غرض، ولكنه

كان قد أضحك العنبر كله، وأغرى البعض بتقليده، وملأ صدورا كثيرة بالمرح وطلب الفكاهة، وقال لى بعدها وقد سألته لماذا فعل ذلك وتحمل من أجل النكتة كل ذلك العناء ؟!».

«أن أخاف على المعتقل أن يكتئب ويتجرع المرارة، وأخشى انهيار الضعفاء، وأريد أن أضحكهم بأى شكل، وقد أضحكتهم، ألم أضحكهم ؟ ألم يكسروا كتفىّ الاثنين ؟ ولكنى سأكسر هيبتهم وأكسر الخوف والاكتئاب والجهامة فى هذا المعتقل النكد، ألا تشجعنى على ذلك ؟!».

«وقد فعل، وسرت روح للمرح فى العنبر، لكن معظم المعتقلين كانوا يحبسونها ويخجلون من إطلاقها، ويعتصمون بالجدية».

(١٧)

ولا يخلو أمر الحياة المرة من بعض ما يخفف قسوتها، ومن الطريف أن ألفريد فرج يتنبه فى ذكاء شديد إلى الدور الذى لعبه الراديو الترانزستور فى القضاء على بعض المشاعر القاتلة فى منفى المعتقل، ويكاد التصوير الذى يقدمه ألفريد فرج يجعلنا نشر أن المعتقلات قد فقدت بعض قسوتها إلى الأبد بسبب اختراع الراديو الترانزستور، وأن المعتقلات قبل هذا الاختراع كانت جحيما نفسيا لا يطاق:

« . . . كان الإحساس بالنجاة بالحياة من حصار الموت المتربص، يقابله إحساس بإصرار السلطة على إخراج المعتقلين من التاريخ، ونفيهم فى مجاهل الصحراء، وترحيلهم من الزمن الحاضر إلى الزمن السحيق».

«إن المنفى يصبح بمرور الأيام شعورا بالانفصال والانقطاع والغياب، حتى ينسى المنفى بالتدريج الوجوه خارج المنفى، والحضور السابق على المنفى، وتصبح الحياة فى المنفى مثل حياة أخرى بعد الحياة، وواقعا غير الواقع، وزمانا عقب الزمان».

«انظر حولك بإمعان فلا ترى غير كثبان الرمال وراءها كثبان ورمال صفراء كلها بلون ملابس الحرس والضباط والجدران، وتأمل وجوه الناس الذين يتسرب من بين أصابعهم ماء الحياة، وحرارة الحضور، وقوى الفعل، ونشاط العقل».

«ولكن الغرقى يتمسكون بالحبال، ويحرصون على الطفو والاتصال والحضور والهروب من المنفى إلى الدنيا».

«ساعدتهم على ذلك ضربة معلم تكنولوجية باختراع الترانزستور، وتسرب إلى داخل المعتقل أول جيل من راديو الترانزستور بحجم الكف حتى يسهل إخفاؤه وإفلاته من التفتيش الدورى».

«وقد غير هذا الجهاز الصغير طبيعة المعتقل، ومنه عادت العلاقة بالدنيا، وكل ما يترتب على ذلك من أوضاع نفسية وقتية».

(١٨)

وإلى جوار الراديو الترانزستور جاء بصيص أمل فى قيام المعتقلين بدورهم فى محو أمية سجانيهم، ونحن نرى ألفريد فرج حريصا على الحديث عن الحيوية التى دبت فى المعتقل حين صدر قرار لوزارة الداخلية بألا يحظى عساكر الشرطة بالترقية بالأشرطة إلا بعد اجتياز امتحان القراءة والكتابة، وهكذا وجدت الوظيفة، فمن الذى سيفتح فصول محو الأمية فى هذه المنافى البعيدة إلا المعتقلون أنفسهم، وهاهم يفتحون الفصول ويدرسون لسجانيهم القراءة والكتابة.

. . . .

. . . .

«شملت المعتقل حيوية فنية، وحيوية سياسية، وكان أحد أقطابها الشاعر الرائع فؤاد حداد، الذى شرع ينظم فى الذاكرة ودون ورقة أو قلم حكاية «الشاطر حسن» التى اكتملت بعد أكثر من سنة فى خمسة آلاف بيت للشعر فى الحافظة المدهشة للشاعر الشاب».

(١٩)

ويتحدث ألفريد فرج عن لحظة الإفراج عنه حديثا مختلفا لكنه يشع بتقديم الحرية والإنسانية، من وجهة نظر فنان حرم من الحرية ومن المعاملة الإنسانية ومع هذا فإنه لايزال يعجب من هذا الذى حدث له، وهو يعبر عن عجبه من أن يحرص على

محاورة ضابط أمن الدولة فيما يخاطب به من عبارات بروتوكولية تقليدية لا تهدف إلا لتجاوز اللحظة، لكن ألفريد فرج بما جبل عليه من مهارة مسرحية يرى أن اللحظة أثمن من أن يتم تجاوزها على هذا النحو، وانظر إليه وهو يصف نبرة حديث حسن مصيلحى: (قال: برقة حانية لا تتناسب مع ما وقع . . . إلخ):

. . . .

. . . .

«ولكن فى العمر لحظة قد لا يعنى أى شىء فيها ما قد يعنيه لى فى وقت آخر».

«تلك هى اللحظة التى نادى اسمى فيها ضابط صغير الرتبة، وقال: هات كل متعلقاتك واركب السيارة».

«أهو الإفراج ؟! اليوم ٧ فبراير (شباط) ١٩٦٣ ! وما كانت متعلقاتى ؟ المفاتيح وبعض النقود، وساعة اليد، ورخصة قيادة السيارة، والبطاقة العائلية».

«بكل هذه المتعلقات دخلت وزارة الداخلية وإلى مكتب العميد حسن المصيلحى الذى قال لى: قلمك زى الحديد، وكل رجائى أن تضعه فى خدمة الوطن !».

«كأننا كنا فى المعتقل الرهيب نتعلم منهم حب الوطن !».

«قلت له: فيم يعتقل المرء وفيم يفرج عنه ؟ وما كان أغنانا عن كل ما حدث من مآس وأحزان».

«فقاطعنى بقوله: لا لا لا . . لا أحب أن تخرج وفى نفسك هذه المرارة!».

«فقلت له: لا تحب لى أن أخرج. أم لا تحب أن يكون عندى مرارة ؟!».

«فقال: ألم أقل لك إنك صاحب قلم وفكر قدير أتمنى فقط ألا يقطر مرارة».

«فقلت: أتسمح لى بالذهاب أم ثمة إجراءات أخرى ؟».

«فقال برقة حانية لا تتناسب مع ما وقع: لا شىء أبدا، هل معك أجر التاكسى أم تحب . . .».

«قلت : شكرا معى أجر التاكسى . . . » .

«ونزلت سلم المبنى العتيد إلى شارع نوبار باشا المسمى باسم أول رئيس للوزراء فى مصر ، إلى ميدان لاظوغلى وتمثاله يتوسط الوزارات وعمارات الحكم ، وكان أول وزير فى عهد محمد على باشا» .

«الشمس كانت أبهى من شمس المعتقلات ، والناس تمشى فى الشارع تتجه لمقاصدها فى غير عجلة ، ونسيم جميل ينعش النفس» .

«نحن مازلنا فى الضحى ، فقدرت أن زوجتى فى عملها وأنا لا أستعجل الذهاب للبيت لأجلس وحيدا فى انتظارها ، ورأيت عبر الميدان المقهى الذى كنا نسميه فى الخمسينيات «قهوة المعاشات» فسماه صلاح جاهين «قهوة النشاط» فقصدته» .

«منذ كم سنة لم أذق القهوة السادة ، وكنت من هواتها» .

«قهوة سادة من فضلك» .

«أرشف القهوة وأعجب من رائحتها الفواحة اللذيذة ، والماء البارد الذى لم أتذوقه منذ أربع سنوات» .

(٢٠)

وفى مقابل هذا التعجّب الأميل إلى الاستنكار لما دار فى حوار حسن مصيلحى معه ، فإن ألفريد فرج يحرص فى بداية مذكرات فى ذكاء شديد على أن يتعاطف مع ضباط الشرطة الذين قبضوا عليه ، وبعد أن يصف كيف اصطحبوه من «دار الهلال» على السلالم إلى بيته يتطرق إلى تفتيش بيته فيقول :

. . . .

. . . .

«وصلنا إلى بيتى حيث تم تفتيش صورى قام به المخبران فى حضور الضابطين ، ولكن حيرة المخبرين كادت تجعلهما عصبيين ، حيث لا يعرفان ماذا يبحثان عنه ، فقال الرائد :

«اوعى حد فيكم يلخبط أى حاجة . . مش عايزين فضايح هنا(!) يا أستاذ ألفريد ما عندكش أى كتب شيوعية ناخذها وخلاص؟» .

«فعجبت للسؤال ، وأحسست بما فى نبرته من السأم :

«ما عرفشى أنتم عايزين إيه؟» .

«يعنى لينين . . ستالين . . أو غيره» .

«عندى كتاب أمريكانى بيهاجم لينين وعليه صورته ، وعندى كتاب فيه قصص ومسرحيات مكسيم جوركى الكاتب الروسى» .

«فقاطعنى : آه . . فيلم «الأم» . . هاته» .

«وقد كان فيلم «الأم» الروسى عن رواية مكسيم جوركى قد عرض ليلة واحدة ، ثم صودر بعدها فى سينما أوديون بالقاهرة قبل شهور من هذه الأحداث ، وعبأت الشرطة رجالها حول السينما بشكل ظاهر إلى درجة أن كثيرا من المشاهدين عادوا أدراجهم وخافوا دخول السينما ، وكثيرون غيرهم لم يعبأوا بذلك وغلبهم الفضول لمشاهدة الفيلم المشهور ، ولسان حالهم يقول : ولو» .

«وربما شجعهم على ذلك أن العلاقات المصرية ـ السوفييتية كانت أيامها أكثر من السمن على العسل ، وهذه من عجائب تناقضات السياسة المصرية فى الخمسينيات ، أو ربما كانت خافية عنا» .

«رنت كلمته فى أذنى : فيلم «الأم»؟ وعلمت منها أن الفن والأدب الروسى مدانان ، وعجبت كيف ستصبح القصص والأشعار قرائن أو أدلة تدين القارئ ، فضلا عن الكاتب حتى أن الشرطة تريد أن تقدمها كمضبوطات(!)» .

«وضعت فى أيديهم ثلاثة كتب هى : كتب «لينين» الذى يندد بالرجل وعلى غلافه صورته ، ومسرحية «الحضيض» لمكسيم جوركى ، وكتاب قصص ومسرحيات أنطون تشيكوف الجزء الأول ، وهو المؤلف الذى توفى قبل الثورة البلشفية بأكثر من عشر سنوات» .

«قال الضابط وهو يضع الكتب فى ملف: خلاص.. خلاص رجعوا كل حاجة فى محلها زى ما كانت تمام، بالترتيب».

«وأسرعوا خارجين يستحثوننى على أن أتقدمهم، وهم ينزلون السلم بنشاط المكلف بمهمة يريد أن ينتهى منها ومتجنبين المصعد كالمعتاد، وذاهلين عن أنى لا أملك مثل نشاطهم وأنا ذاهب إلى السجن(!)».

«وفى الشارع وجدنا سائق السيارة البوكس وحوله الجنديان ببندقيتيهما يتشاجرون مع سائق تاكسى اصطدموا بسيارته صدمة خفيفة، وقد أمسكوا بخناقه وهو يصيح:

«يا عالم دى مش عربيتى وصاحبها مش حيسيبنى وأنتم اللى جرحتوها.. يا أفندى.. يا معلم... يريد أن يستشهد بالناس».

«ولكن الأفندى الشاهد فص ملح وذاب، والمعلم احتضن السائق المتظلم وابتعد به عن الضباط والعساكر يهمس له، ربما ينصحه بالسكوت ليتجنب شر الموقف الصعب، والضابط يزعق من بعيد على سبيل التهويش «امسكوه»، والناس تقول: «معلهش سماح النوبة يا بهوات»(!) ويتجمع زحام صغير حولنا من الفضوليين، وفى أذنى طنين من حوار أفلام الحرب الأمريكية التى تطرح موضوع هروب الأسرى من معسكرات الاعتقال النازية، وفيها يقول دائما الضابط الأمريكى:

«أول واجب الضابط الأسير هو الهرب من أسره!».

«والفرصة سانحة فى الزحام وهرج الموقف، ولكنى أعجب من نفسى ومن زملائى المثقفين الذين كانوا معتقلين معى، حيث لم يخطر لهم أبدا حفر الأنفاق، أو ثقب الأسوار، أو مغافلة الحراس للهرب طوال سنوات المعتقل الرهيب، وقد كانت لحظة ادخرتها فى ذاكرتى وأثارت عجبى من نفسى، لحظة أتيحت لى ثغرة للهرب فى الزحام والخناقة فى الساعة الأولى لاعتقالى ولم أنفذ من الثغرة، بل وقفت فى بلاهة وبلادة وفضول أتابع الصورة المثيرة فى الزحام حتى انفض الجمع فوجدونى إلى جانب السيارة، وأمرنى الضابط بالركوب وركبنا كلنا(!)».

(٢١)

ومن الطريف أن ألفريد فرج يستغل سياق أحداث مسرحيته فى ذكاء شديد ليبدى نقده المرير لسياسة محمد على باشا فى الفتك بالمماليك، ونحن نرى حديثه عن الطريق الذى صعدت فيه سيارة البوليس إلى المعتقل وتصويره للطريق على أنه نفق مكشوف سهل مهمة محمد على فى الفتك الغادر بالمماليك بطريقة بشعة ومن الحق أن نقول إن وصف ألفريد فرج لهذه المذبحة فى هاتين الصفحتين يفوق كل ما يستطيعه المؤرخون وكتاب التاريخ من تصوير لبشاعة المذبحة.

ويبدى ألفريد فرج رؤيته التاريخية العميقة فى دهاء بجعل المتلقى يعرف أنه لا يقصد محمد على بذاته، ولكنه يقصد كل الذين اتخذوا محمد على مثلا أعلى، لكنه لا يفعل ذلك بالخروج عن النص، ولا الخروج على الهامش، وإنما هو يفعله فى إطار تصويره الذكى للحظة اعتقاله.. وهكذا يصور لحظة دخوله الزنزانة تصويرا دراميا مؤثرا تختلط فيه الدراما بالتاريخ بالنقد بالحديث المزدهى عن الذات وألم الذات:

«انصرف ضابط المباحث وقال النقيب للعسكرى: خده سبعة وعشرين، فللغرابة شعرت بارتياح غامض من انتهاء الرحلة والوصول إلى سبعة وعشرين، أيا كانت، حين أخذنى العسكرى من كمى لنجتاز بابا ضيقا فإذا أنا وسط زحام نشط حافل بالحركة والحوار والصياح.. أنا بين جمهور غفير من المعتقلين ذقونهم غير حليقة، وفى وسطهم عرفت محمود السعدنى الذى صاح: ألفريد فرج كمان معنا؟ يبقى كملت(!) «سقوط فرعون»، واللى نقدوا سقوط فرعون واللى مدحوا سقوط فرعون هنا(!) ولم يكن ينقصنا غير مؤلف سقوط فرعون(!) مش قلت لكم إن هذا معتقل وسجن مسرحية «سقوط فرعون؟».

«وضحك مَنْ ضحك ورحب بى الكثيرون ترحيبا ربما لم يكن فى محله، ولكن رفقة الصديق فى السجن عزيزة، رغم غرابة ما أقول وتناقضه، حيث لا يتمنى المرء للصديق مثل محنة السجن، إلا أن الصديق فى السجن يخفف الوحشة، والرهبة، والشعور المزعج بالعزلة، والانقطاع والوحدة».

(٢٢)

ويروى ألفريد فرج قصة حمدى غيث مع النظام الناصرى التى نقلناها (فى باب تال من أبواب هذا الكتاب) عن أحمد عباس صالح فى مذكراته بطريقة أخرى أكثر اختصارا فيقول :

«وقد علمت فيما بعد أن الإذاعة كانت شارعة فى إنتاج مسلسل عن الصحابى الكبير أبى ذر الغفارى من تأليف الكاتب أحمد عباس صالح، ومع الفنان المخرج يوسف الحطاب، أسند الدور الرئيسى إلى نجم المسرح محمد الطوخى الذى قام بدور «إخناتون» فى مسرحية «سقوط فرعون»، فإن الفنان الكريم سأل يوسف الحطاب إذا كان فى الإذاعة أمر يمنع حمدى غيث من التمثيل، فأجاب الحطاب أنه لا يوجد مثل هذا الأمر، فطلب إليه تجربة إسناد الدور الرئيسى إلى حمدى غيث، والنظر فيما يحدث بعدها».

«وكان الرئيس جمال عبد الناصر يتابع بانتظام الإنتاج الفنى للإذاعة ثم التليفزيون، وتابع المسلسل وأبدى للدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام إعجابه بأداء حمدى غيث، وسأله لماذا لا نسمعه كثيرا فى الإذاعة (!) فكان هذا مؤشرا لتفتح المؤسسات أبوابها من جديد للفنان حمدى غيث بعد غيابه أكثر من سنة عن الأضواء كلها، وعن مصادر الرزق أيضا !».

(٢٣)

فإذا ما انتقل بنا ألفريد فرج إلى قصة عرض هذه المسرحية التى ألفها فى المعتقل ألفينا حديثا ممتعا إلى أبعد حدود الإمتاع عما دار فى اختيار المخرج للفنانين الذين يقومون ببطولة العرض، وعما دار فى الكواليس من أجل التجهيز لهذا العرض، وعما تكرر من بروفات وتجارب إلى أن نصل إلى لحظة التجلى حين عرضت المسرحية لأول مرة فإذا بالتصفيق ينهال، وإذا بعامل البوفيه نفسه ينبه ألفريد فرج إلى أهمية مسرحيته من حيث إنها التعبير الحى عن رغبة طلعت حرب الذى أسس المسرح لهذا الغرض، وربما كان من الأمانة أن نشير إلى أن ألفريد فرج نفسه عنى بتصوير شخصية رجل البوفية هذا

فى كثير من كتاباته، حتى إنه عقد عن حياته فصولا فى كتابه «الناس فى الحكايات»، وكان مولعا بالفكرة التى بلورها طلعت حرب باشا نفسه حين أسس هذا المسرح، وحين أوصى ببقاء هذا الرجل فى المسرح:

. . . .

. . . .

«شربت فنجان القهوة الرابع حين فتح موظف باب الصالة العازل بالصدفة فسمعت دويا من التصفيق مع قهقهات عالية، فسألت الموظف:

«ما سبب التصفيق ؟».

«قال: الأستاذ عبد المنعم دخل المسرح».

«عجيبة ! قلت لنفسى وحشدت شجاعتى لأفتح الباب العازل للصالة فتحة صغيرة تكفينى للنظر نحو المنصة، فلا أعرف لماذا شعرت أن المنصة تتوهج بالضياء والحرارة، ولماذا شعرت أن الجمهور يتأجج حيوية، فتراجعت بسرعة إلى مقعدى فى البوفيه ألتقط أنفاسى».

«اقترب منى متعهد البوفيه الحاج إبراهيم مطر ودعا لى بالبركة وقال لى: تعرف يا أستاذ إن الباشا (يقصد طلعت حرب) شيد هذا المسرح على الطراز العربى لغرض، وكان غرضه أن تكون مسرحيتك هذه نموذجا للإنتاج على هذا المسرح، كنت أسمعه دائما يقول لزكى عكاشة «الفنان»:

«عايزين مسرحيات عربية قوية من ألف ليلة وليلة تنافس ما تعرضه الأوبرا من مسرحيات باللغات الأجنبية، وتؤسس الفن العربى».

«يا أستاذ ألفريد . . هذه الأعمدة وهذه المقرنصات وهذا الأرابيسك لم يحرص الباشا على بنائها على الطراز العربى من غير غرض . . رحمة الله عليه».

«وكان الحاج إبراهيم مطر متعهد بوفيه مسرح الأزبكية يرقبنى أثناء العرض كل ليلة أقعد فى البوفيه أشرب القهوة، وأصغى لما تهدينى به فتحات الباب أحيانا من علامات

إعجاب الجمهور، فكان يقرب كرسيه ليجلس بجانبى ويمتعنى بحديثه عن مبنى مسرح الأزبكية، وعن طلعت باشا حرب الذى شيده بماله الخاص سنة ١٩٢٠، وأهداه للدولة سنة ١٩٣٥ مشترطا فقط أن يتعهد البوفيه مدى حياته الحاج مطر القهوجى الخاص للباشا».

«قال لى الحاج مطر: لماذا تظن أن الباشا كان حريصا على بناء المسرح بهذا الطراز العربى، وزخرفته بهذه الزخارف العربية الجميلة؟ إنه كان يعارض معمار الأوبرا الإيطالى ويوازنه، وسمعته يقول للفنانين هنا: إذا كانوا هناك يغنون بالألحان الإيطالية، سنغنى هنا بالموسيقى العربية، وإذا كانوا يباهون بآدابهم العالمية، سنباهى بألف ليلة وليلة، ولو عاش طلعت حرب لليوم لأحب مسرحيتك من قلبه! فكانت هذه من أحسن عبارات الثناء التى سمعتها».

(٢٤)

ويحرص ألفريد فرج على أن يقدم التعبير عن نجاحه بصورة إحصائية، وهى صورة توضح مكانة ألفريد فرج بين زملائه فى مسرح الستينيات بطريقة رقمية:

«... ولكن دعنا كما يفعل المعاصرون نحصى النجاح بالأرقام، فـ«حلاق بغداد» كانت من أنجح مسرحيات النهضة فى الستينيات، وعرضت لأول مرة فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٣ مدة ٤٥ ليلة،، حضرها اثنا عشر ألف متفرج، ثم عرضت فى صيف ١٩٦٤ مدة ٢٣ ليلة، وفى موسم ١٩٦٥ مدة إحدى عشرة ليلة، وفى موسم ١٩٦٦ مدة ١٣ ليلة، وفى موسم ١٩٦٧ عشر ليال، فكأنها عرضت بالمسرح القومى مائة ليلة وليلتان، وهو رقم قياسى للمسرح كله فى الستينيات، ولكى تنظر إليه نظرة مقارنة نختار أنجح أربع مسرحيات عرضها المسرح المصرى كله «الخاص والعام» فى الستينيات وترتيبها كالتالى:

«سكة السلامة» للكاتب سعد الدين وهبة، وإخراج سعد أردش عرضت فى خمسة مواسم متتالية مدة ٨٤ ليلة، وشاهدها ٣٦٧٠٨ متفرجين، بمتوسط ٤٣٧ مشاهدا فى الليلة».

«حلاق بغداد» عرضت فى خمسة مواسم مائة ليلة وليتان وشاهدها ٢٧٨٩٣ متفرجا، بمتوسط ٢٧٤ مشاهدا فى كل حفلة».

«عيلة الدوغرى» للكاتب نعمان عاشور، وإخراج عبد الرحيم الزرقانى عرضت فى ستة مواسم متتالية مائة ليلة وثمانى ليال، وشاهدها ٢٩٤١٦ متفرجا، بمتوسط ٢٧٢ متفرجا فى كل حفلة».

«الفرافير» للكاتب يوسف إدريس، وإخراج كرم مطاوع عرضت خمسة مواسم فى ٩٧ حفلة، شاهدها ٧١٥٣١ متفرجا، بمتوسط ٩٣١ مشاهدا فى الحفلة الواحدة».

«وتعتبر هذه المسرحيات أنجح مسرحيات الستينيات فى القطاع الخاص والقطاع العام بطول مدة عرضها، وبعدد المشاهدين لها، وبمتوسط الإقبال عليها فى الليلة الواحدة».

(٢٥)

وإذا كان لابد لنا من فقرة تصور جوهر السياسة فى مسرحية «حلاق بغداد» وتلخص للقارئ الذى لم يشهد المسرحية ولم يقرأها ما وضع المؤلف يده عليه ليصور أزمة العقل فى هذه المسرحية فإننا نختار هذه الفقرة الفاصلة فى مسرحية «حلاق بغداد»:

«. . . طلب الخليفة من الحلاق الشهادة بالحق».

«وقالت له «زينة النساء»: تكلم ولا تخف، لتأخذ العدالة مجراها، ومولاى الخليفة يؤمنك».

«همهم الحلاق بقول: «الخليفة سيقضى فى دقيقة ويمضى، من الذى سيحمينى غدا؟ بعد غد؟ العام القادم؟ أعيش حياتى وسيفه (أى سيف الفساد) مسلط فوق عنقى».

«الخليفة: ما هذا الذى تهذى به، خذ (يرمى له منديله) إليك منديل الأمان، لا يؤذيك أحد وهو فى كمك، تكلم».

«زينة: أمنك الخليفة يا أبا الفضول.. فتكلم».

«القاضى (للوزير جانبا): لعله لا يقتل فى كل يوم قتيلا محتميا بالمنديل».

«الوزير (جانبا): الأمان لهذا المشاغب؟!».

«أبو الفضول (مخاطبا الخليفة): لا تأخذ هذا المنديل منى ثانية.. أبدا».

«الخليفة: لا آخذه منك أبدا».

«أبو الفضول: بربك، وحياة رأسك العالية، وحق إيمانك بالله والعدل، اعط كل رجل من رعيتك منديلا».

«الخليفة: أتعلم كم رجل فى رعيتى ؟».

«أبو الفضول: ما يكونون».

«الخليفة: إن نصف العالم رعيتى».

«أبو الفضول: لكل رجل منديل».

«الخليفة: طلب عجيب ! أأنت تخيف رعيتى ياوزير.. أم من ؟».

....

....

ثم ننتقل إلى خطبة الخليفة المتدفقة بالسخط على رجاله التى كان عبد المنعم إبراهيم يلقيها باقتدار:

«وإذاً.. بينما أحكم بالعدل وبالحق فى قصرى، تنتهك الحقوق فى الشارع، والله إن كل ظلم يقع على أضعف الناس فى رعيتى أحمل وزره أنا يوم القيامة، أؤدى فروض دينى كما أمر الله، فإذا رجال لى فى المغرب ينقضون وضوئى، وإذا رجال لى فى المشرق يبطلون صلاتى وصيامى بما يرتكبون من مظالم على رعيتى باسمى !».

(٢٦)

ويصف ألفريد فرج هذا المقطع السابق بقوله إنه مقطع لا يناقش الحرية فقط، ولكنه يناقش المسئولية أيضا، ثم يفخر بما كان هذا المقطع يحدثه فى الجماهير من أثر:

«وقد كان لهذا المقطع أثر الماس الكهربائى بين الجمهور، أطلق شرارة توهجت بها الصالة فكان التصفيق والضحك ودب الأقدام يضفى على المشهد بعدا جماهيريا ربما

obeikan.com

يتجاوز ما كنت أتصوره، مما دعا الفنان عبد المنعم إبراهيم أن يمسك بالخيط بقوة، ويضيء الصورة بالحركة والنبرة والقناع المسرحى، فكان إذا أخذ المنديل يلوح به للوزير والقاضى والشهبندر فيتمايزون غيظا، ويتباعدون ويحدجون الحلاق بنظرات الوعيد، وهو ينشر المنديل ويطويه متحديا، فإذا أطلق عبارته: «لكل رجل منديل» أشار على الناس فى الصالة والناس فى البلد، فتجيبه الصالة بالحماس والضحك، وبآهات الراحة فى الصدور، والتوقيع على المطلب بالتصفيق».

. . . .

. . . .

(٢٧)

ثم يعبر ألفريد فرج بكل صدق عما كان يشعر به من التوجس والقلق حين رأى نصه المسرحى وقد تحول بالفعل إلى ما يشبه منشور سياسى مؤثر أصبح له مرددون مقتنعون به فكرا ومضمونا، وقد بدأوا ينفعلون به على طريقة لا تبعد به عن أن يعود إلى المعتقل:

«لم يكن ذلك المشهد والحالة المسرحية التى يثيرها تمر علىّ دون أن تثير عندى القلق، فكنت أقول لعبد المنعم إبراهيم فى الكواليس المرة بعد المرة:

«يا منعم.. أرجوك أن تقتصد فى المشهد بعض الشيء، وأن تخفف وقعه قليلا، فلا تلوح بالمنديل ولا تتبادل مع زملائك نظرات وحركات الغضب والزجر والتحدى».

«فكان عبد المنعم يضحك من قولى ويقول: أتظن أنى أستطيع أن أحكم زملائى الثلاثة فى صخب ذلك الانفعال، وهذا النجاح ؟! وهل تحسب فوق ذلك أنك أنت تستطيع أن تحكم أربعة ممثلين وسبعمائة متفرج فى شرار هذا الاتصال المسرحى السخن ؟! يا أخى ده إيه ده !».

«ويستغرق عبد المنعم فى الضحك.. فكنت أضحك من قوله وأقول له:

«انت حتودينا فى داهية والسلام».

«فيقول: إحنا رحنا فى داهية خلاص، ولكن مطلبنا هو مطلب الناس، ولو قلته على المسرح همسا فيستجاوب الجمهور معى بنفس الانفعال».

«فيتدخل إبراهيم الشامى، الذى يمثل دور الخليفة، فى الحديث بهدوئه الذى يكتنز طاقة المرح ويسأل: ماذا يقول الفنان الفيلسوف ؟».

«فأقول له: الفنان الفيلسوف يحب المنديل».

«فيجيب الشامى: خلاص يا منعم، كل يوم تاخد منى منديل !».

(٢٨)

وعلى الرغم من أننا قد نتصور أن ألفريد فرج نجح فى أن يمرر مسرحيته من المناخ الفكرى المتربص، فإن طبيعة الأشياء فى المجتمع الشمولى تعود لتفرض نفسها، وانظر إلى ما لقيته مسرحيته على يد رقابة التليفزيون وأسرها:

«. . . وكانت للتليفزيون رقابته الخاصة التى ترسل للمسرح مذكرة عن المسرحية قبل تصويرها للتليفزيون، وتطلب حذف بعض العبارات حتى تسمح الرقابة بالتصوير».

«وقد أرسلت الرقابة أغرب تقرير رأيته فى حياتى العملية تطلب حذف ستة وعشرين موضعا فى المسرحية (!) بعضها مجرد عبارات أو جمل أو مقاطع حوارية، ولكن أغرب ما فيها البند السادس والعشرون الذى يطلب حذف الفصل الثانى ! يعنى كل حكاية «زينة النساء» التى يجرى فى سياقها الحوار حول منديل الأمان».

«يعنى: طلب منديل الأمان لكل رجل فى الرعية، ممنوع رقابيا تصويره للتليفزيون، وكانت التقاليد المسرحية لاتزال بخير إلى حد ما، يؤيدها قانون حق المؤلف رقم ٣٥٤ الصادر سنة ١٩٥٤، وبالتقاليد، وبنصوص القانون يستطيع المؤلف أن يقول للرقابة لا، فيمتنع التصوير للتليفزيون».

«قلت: لا».

«وكانت عربات التليفزيون العملاقة قد ناورت ودخلت باب المسرح الضيق، ومدت كابلاتها، وتقيم القواعد الخشبية لرفع الكاميرات فى صالة المسرح، فجاءتها التعليمات فى زحمة العمل بالتوقف والعودة إلى التليفزيون بدون تصوير المسرحية».

«لكننا فوجئنا بخطاب رقابى بعد أسبوعين تتنازل فيه الرقابة عن خمسة وعشرين بندا للحذف وتتمسك ببند واحد يطلب حذف الفصل الثانى كله، وهو الفصل الذى يقود السياق إلى مقطع «طلب منديل الأمان».

«قال لى بعض الممثلين: لم لا تقبل؟ المسرحية فى حكايتين، ويريد التليفزيون تصوير واحدة منهما فما المانع؟»

«قلت لهم: إن ترحيب الجمهور بهذا المقطع بالذات يمنعنى من قبول حذفه، وإن دفاع الكتاب عن هذا المقطع بالذات فى سياق المسرحية يمنعنى من قبول حذفه، وأشعر أنى لو قبلت حذفه أكون خائنا لمقاصد الجمهور والكتاب، فضلا عن مقاصدى، والجميع يتوقعون منى فى مثل هذا الموقف الرفض».

«دعانى رقيب التليفزيون لزيارته فى مكتبه وقال لى:

«بالعربى صدرت توجيهات لنا بتصوير المسرحية، و«شخصية عظيمة» تلح فى طلب الفرجة على المسرحية، ونحن يحرجنا أن نقول إن المؤلف لا يريد تصوير المسرحية، ويمنعنا من تصوير المسرحية (!)».

«قلت له: بالعربى أنتم محرجون لأن «الشخصية الرفيعة» التى تتحدث عنها سيسألكم: لماذا لا يريد المؤلف تصوير مسرحيته؟».

«صورت المسرحية للتليفزيون كاملة، وعرضت مرة واحدة فى الستينيات، وانتظرت ٣٥ سنة أخرى لتعرض على الشاشة للمرة الثانية بعد ٣٥ سنة فى برنامج «كنوز مسرحية» للقناة الثانية».

. . . .

. . . .

على هذا النحو وصل ألفريد فرج إلى ذروة النجاح، وعلى هذا عبر لنا عما وصل

إليه من ذروة النجاح، وعلى هذا النحو أصبحنا نؤمن عن يقين واقتناع بأنه وصل بالفعل إلى ذروة النجاح.

(٢٩)

ويتحدث ألفريد فرج باعتزاز عن أبرز النجاحات التى حققتها تجربته فى كتابة مسرحية «حلاق بغداد» من وجهة نظره فيقول:

«وقد كنت أكتب فى النهار وأنا أضحك فيضحك معى عدلى برسوم دون أن يعرف ماذا يضحكنى، أو أضحك فى المساء فيضحك معى الدكتور عبد المنعم عبيد دون أن يعرف ماذا يضحكنى، ولكنه يقول: والله أضحكتنا يا ألفريد فى الأيام الهباب دى (!) فيدعونى قوله إلى تأكيد الفكاهة والمفارقة فى مواقف المسرحية، ولكن دون أن يفلت منى الخيط الرئيسى، وهو الدعوة إلى الديمقراطية، والحريات الشخصية، وسيادة القانون».

. . . .

. . . .

«وقد كتبت المسرحية وليس فى ذهنى غير تسلية زملاء محنتى، وإضحاكهم، والتعبير عن رأى عام ضاغط لتحقيق الديمقراطية».

(٣٠)

ونأتى إلى القضايا الفنية والأدبية التى قدم ألفريد فرج رأيه فيها متظاهرا (عن صدق) بأن مسرحية «حلاق بغداد» كانت السبب فى صياغة موقفه منها بهذا الوضوح، وربما أراد أن يقنعنا (دون تصريح واضح) أن فترة الاعتقال هى التى أتاحت له هذا التأمل الذى ساعده على أن يصوغ رأيه الفنى على هذا النحو الذكى الذى يحتفظ له تاريخ الأدب بالريادة فيه على نحو ما نعرف:

«أول قضية أثارتها المسرحية هى لغة المسرح، قبل حلاق بغداد كان الجدل قائما بين

أنصار الفصحى وأنصار اللهجات العامية، حتى إن توفيق الحكيم اقترح ما سماه «اللغة الثالثة» للمسرح، وشرح ذلك بأنها لغة وسط بين العامية والفصحى».

«وكتب الحكيم مسرحية نموذجا لهذه اللغة الثالثة هى مسرحية «الصفقة» مكتوبة بالعربية، لكنه رأى أن تسكين أواخر الكلمات سيضعها فى مساحة اللهجة العامية».

«ولكن حين أخرجت «الصفقة» فى المسرح القومى سنة ١٩٥٨ قام المخرج وفريق التمثيل بإعادة صياغتها بالعامية الريفية الصريحة».

«وقد كان نقدى لاقتراح أستاذى توفيق الحكيم أن الحل اللغوى المسمى باللغة الثالثة هو حل «معملى» لا يستقيم مع تلقائية التعبير، ومصداقية الشخصيات والمواقف، و«المعملية» فى الفن غير مستحبة».

«وكان الاقتراح الذى طرحته «حلاق بغداد» هو الكتابة بالفصحى مع استثمار كل سماحات الفصحى وجوازاتها التى تقربها من اللهجة العامية، فتتجنب اغتراب المسرح بالتعبير بالفصحى على نحو يفقد به الحوار تلقائيته ومصداقيته، دون أن نعرض الفصحى للحن والخطأ».

(٣١)

ويتحدث ألفريد فرج عن مكانة مسرحية «حلاق بغداد» فى التيار المنادى باستلهام التراث مبرزا ما يعتقد أنه كان بمثابة جانب التميز فى استلهامه هو نفسه للتراث:

«. . . كما كانت «حلاق بغداد» المسرحية الدليل لتيار استلهام التراث فى المسرح، واستلهام التراث ليس ابتكارا لى أو لأبناء جيلى، فقد بدأ المسرح العربى فى القرن التاسع عشر باستلهام «ألف ليلة وليلة»، وكان من عيون مسرحنا فى النصف الأول للقرن العشرين «مجنون ليلى» أحمد شوقى بك، و«شهرزاد» توفيق الحكيم، و«العباسة» عزيز أباظة، و«مضحكك الخليفة» على أحمد باكثير، والقائمة طويلة».

«ولكن تيار استلهام التراث فى جيلنا اختلف بأنه استلهم التراث إطارا لطرح قضايا

عصرية ساخنة، فأكد أولا إنسانية القضايا الاجتماعية والسياسية المطروحة وعمقها التاريخى، وأكد ثانيا المشابهة بين مسرحنا الحديث وبين الحكايات الشعبية والأمثولات التى اشتهر بها الأدب العربى والأدب الشرقى حيث تتضمن دائما المغزى، والحكمة الشرقية».

(٣٢)

وبعد عشر صفحات يعود ألفريد فرج ليؤكد على هذا المعنى مقارنا بين مسرحيتيه الأولى والثانية، ومركزا على إيمانه بالمسرح الشعبى وفكرته وضرورته وحتمية نجاحه:

«ولقد لفت نظرى أن المسرحية اجتذبت العساكر والضباط والأطباء والمهندسين والزراعيين، وهى تختلف فى ذلك عن مسرحيتى السابقة «سقوط فرعون» التى ربما لم تجتذب غير المثقفين».

«تختلف «حلاق بغداد» عن «سقوط فرعون» بأنها مباشرة واجتماعية، ومن حكايات عربية شهيرة، فى حين أن مسرحية «سقوط فرعون» فلسفية من نوع «أهل الكهف» لتوفيق الحكيم، ومن قصص التاريخ المصرى القديم غير المطروق تقريبا فى مناهج التعليم، وفى الأدبيات المتداولة».

«وقد كان هدفى الذى تأملته فى ظلمات أبى زعبل وفى حر الصحراء الغربية هو تأصيل فن المسرح فى الثقافة العربية العصرية، وفى الجمع بين الفكر وجاذبيات الفن، ومخاطبة كل فئات الجمهور».

«كما كان تصورى أن المسرح فى العالم كله يجب أن يكون ظاهرة واحدة تؤكدها وحدة اللغة وظاهرة ممتدة ومتصلة مثل امتداد واتصال الأرض العربية».

«مسرح شعبى هو ما كنت أحلم به».

«مسرح يجمع بين المستوى الرفيع للكلاسيكيات، وبين الجاذبية الشعبية لمسارح الريحانى، وعلى الكسار، والفنان المسرحى الشعبى المتجول محمد المسيرى، على اختلاف لون الإبداع».

وفى مقابل هذا النجاح الجماهيرى الذى صادفته مسرحية «حلاق بغداد» فإن ألفريد فرج صادف هو وأقرانه غربة قاسية صعبة كانوا يستمعون على مقهى الفيشاوى كثيرا من الأحكام الصارمة والصادمة لهم تأتى على ألسنة مثقفين يزعمون أن عصر المسرح قد انتهى، وأن المسرح قد مات، ومن الإنصاف لألفريد فرج وأقرانه أن ننقل عنه ما يصور شعورهم بالغربة من مثل هذه الأحكام المتسرعة التى كان يمكن لها أن تؤثر فى عزيمتهم، لكن هذا لم يحدث لحسن الحظ.

والواقع أن ألفريد فرج لا يبخل علينا بما يصور إحساسه هو ورجال المسرح من الغربة فى وسط جماعات المثقفين التى تدعى الفهم بينما هى غير قادرة على الحكم السليم، وهو يروى بطريقة ذكية وطريفة حوارات دارت على مقهى الفيشاوى:

«. . . ولكن الحوارات لم تكن دائما هادئة، أو متأملة، فإننا كنا نسمع ضيفا من المثقفين يقول مثلا:

«المسرح مات. . قتلته السينما. . وانتظروا حتى يعم العالم التليفزيون. . بعد قليل لن يكون له وجود».

«فيقول حمدى غيث:

«كيف تقول ذلك وفى باريس سبعون دارا مسرحية مفتوحة كل ليلة فى الصيف والشتاء؟».

«وأقول أنا:

«كيف تقول ذلك وإنجلترا هى البلد التى نشأ فيها التليفزيون، وبها مسرح صاخب، وفى أمريكا تليفزيون وسينما هوليوود، ولكن المسرح يبدع طاقات جديدة فى مجال التأليف المسرحى، منها آرثر ميللر، وتنيسى ويليامز؟».

«فيقول الرجل:

«كلام فارغ. . أنا كنت فى فرنسا الشهر الماضى ومررت بإنجلترا، ولم أسمع عن أى

مسرح مفتوح، ولم يذكر لى أى صديق من المقيمين هناك أن فى لندن أو فى باريس أى مسرح مفتوح، وإن كان هناك مسرح فربما فى الجامعة مفتوح لأغراض دراسية، أو فى بعض الجمعيات الثقافية الهاوية، أو ما إلى ذلك.. صدقونى !».

. . . .

. . . .

(٢٤)

ويعد هذا الحوار يلجأ ألفريد فرج إلى لغة التقرير ليقول:

«والغريب أننا نصادف فى بلادنا دائما، وضمن دائرة المثقفين أو أشباههم، أشخاصا غير مختصين، يلقون علينا، حتى لو كنا نحن مختصين، أقوالا قاطعة، جامعة مانعة، بلهجة يقينية مندهشة، وهى لا تعدو أن تكون من فارغ الكلام، ومن المزاعم الباطلة، فتثير فى الجلسة الغضب والحدة فى الكلام، وجلافة الرد والجواب».

. . . .

. . . .

«انظر إلى هذا الزعم أيضا الذى صادفناه كثيرا فى تلك الأيام من بعض المثقفين، أو مَنْ يتتمون إليهم بلهجة اليقين، وبلهجة العارفين».

«المسرح الكوميدى هو فقط الباقى، أما ما عدا ذلك من مسرح تراجيدى، أو تاريخى، أو فلسفى، أو فكرى، أو اجتماعى فقد انتهى وطويت صفحاته، أضحك الناس تدفع لك تذاكر، فهذا أسلوب العصر، انتهى شكسبير وراسين وتشيكوف وغيرهم، ولم يبق إلا الكوميدى».

«ثم يزيد الرجل مؤكدا وموضحا:

«وهذا طبيعى، حيث إن الناس أنهكتهم الحرب وأخطارها ودمارها ومآسيها، ويريدون أن يجدوا واحة للراحة والمرح والضحك فى فن المسرح ترفه عنهم، وتلتئم فيها جراحهم !».

«فيقول حمدى غيث:

«كيف تقول هذا.. وأين هذا من فن جان لوى بارو، وفن جان فيلار، وفنون المسرح الفلسفى الرصين لجان أنوى، وجان بول سارتر، وألبير كامى، وغيرهم من المعاصرين، وهم جميعا يمثلون قمة المسرح الفرنسى؟!».

«وأقول أنا:

«كيف تقول ذلك وأين تضع المسرح الشعرى للشاعر ت. س. إليوت، والمسرح الواقعى الجديد لآرثر ميللر، وتنيسى ويليامز، و«انظر وراءك فى غضب».. مسرحية أوزبورن التى هزت بريطانيا (١٩٥٦)؟!».

«ويصر الرجل على ما يقول.. ويتحول الحوار إلى مباريات فى التسخيف والخلط والتخليط».

«أروى هذه الحوارات الشاذة لكى أصور لكم كثافة الضباب الذى كان يحيط بقضية المسرح، وبالعلوم المسرحية، وبالفكر المسرحى».

(٣٥)

وإذا كان لابد لنا من شخصية نبرز ثناء ألفريد فرج عليها فى حديثه الشيق عن هذه المسرحية فإنها شخصية الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الوفدى الشهير، الذى كان مغرما بالفن والثقافة، وقد حضر مسرحية «حلاق بغداد» أكثر من مرة، وفى إحدى هذه المرات دار هذا الحوار البديع بينه وبين ألفريد فرج الذى حرص على أن يضمنه فى ذكرياته:

«وقد شهد المسرحية أكثر من مرة الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية فى حكومة الوفد الديمقراطية الأخيرة (١٩٥٠ - ١٩٥٢) التى ألغت معاهدة ١٩٣٦، ودعت الشعب لكفاح الاحتلال الإنجليزى، وكان الدكتور صلاح الدين سكرتير مجلس إدارة المسرح القومى عند إنشائه سنة ١٩٣٥، وعضوا بالمجلس سنوات، ومن محبى الفنون عامة، والمسرح خاصة».

«وقد كنت كلما حضر للمسرح مع أفراد أسرته أو مع أصدقائه أحييه وأدعوهم إلى بعض المشروبات، فقال لى صلاح الدين مرة:

«تعرف يا أستاذ ألفريد إننا دائما نقول عن أى عبقرى إنه جاء قبل زمانه.. إلا أنت.. فقد أجمع أصدقائى الذين معى الآن أنك أتيت بعد زمانك.. ولو كنت جئت فى عهدنا الماضى لكان لك شأن لا تتصوره، ولما تعرضت لمحنة أبدا (!)».

«فكانت هذه أيضا من عبارات الثناء التى لا تنسى، والتى أتذكرها دائما للمثقف الوطنى د. محمد صلاح الدين كلما عانيت الضيق، فأتذكر قوله أنى تأخرت عن موعدى، فأسرىّ نفسى بالضحك، وأدعو للدكتور محمد صلاح الدين بالرحمة».

(٣٦)

«وفجأة دق المضيف على كأسه بالملعقة وران الصمت ووقف يقول:

«أصدقائى.. تلقيت هذه اللحظة رسالة (مهمة) تقول إن جمال عبد الناصر قرر منح كاتبنا المسرحى المبدع ألفريد فرج وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى بعد يومين فى القاهرة، وقد قامت وزارة الثقافة الكوبية بكل ما فى وسعها ليصل الكاتب المبدع إلى القاهرة قبل موعد الاحتفال بساعة واحدة، وأرسلت إلى المنتجع طائرة عسكرية لنقله إلى هافانا هذه الساعة، هتف زملائى أهل الفن بكل اللغات هوريه وأوليه وبرافو، وتعالى التصفيق، وكانت دموع تنهمر من عينى وأن أشعر بأيديهم تحملنى فوق الأكتاف لتطوف بى الحديقة التى كنا نتعشى بها، وصيحات تتقاطع: فيفا ناصر.. وفيفا فرج.. وفيفا المسرح (!)».

«وأصر كل وفد أن يحيينى بأغنية شعبية، ويهدينى هدية رمزية، فتناغمت حولى الأغانى برازيلية، ومكسيكية، وفرنسية، وأمريكية على موجة الفرح الاحتفالية».

«ولكن اثنين من الطيارين العسكريين الكوبيين انتزعانى بإصرار من أيدى الفنانين إلى السيارة الجيب.. إلى المطار».

«وفى هافانا كانت الساعة تقارب منتصف الليل حين نزلت من الطائرة فوجدتنى فى

وسط أكثر من عشرة صحفيين وفلاشات آلات التصوير تومض وتكاد أن تبهرنى، وتتقاطع الأسئلة من حولى».

«قلت: إننى أتلقى التكريم عن مسرحية «حلاق بغداد»، وإن المسرحية تنقد غياب الديمقراطية بمصر، وإنها عرضت بمسرح الدولة الذى يتمتع اليوم بالازدهار، وبحرية التعبير».

«ومن هافانا إلى براغ فبرلين فالقاهرة وجدت وزارة الثقافة الكوبية الطريق المتعرج للطيران الذى يوصلنى إلى القاهرة قبل ساعة من احتفال «عيد العلم»، وكانت زوجتى تنتظرنى والمطار كله قد قرأ اسمى فى الصفحة الأولى ونشط لمساعدتى للخروج بسرعة إلى السيارة، إلى قاعة الاحتفالات الكبرى لجامعة القاهرة، إلى المنصة أصافح جمال عبد الناصر وأتسلم جائزتى، والوسام الرفيع».

....

....

هكذا كان ألفريد فرج من الذكاء بحيث صور علاقته بالزعيم فى هذا الإطار.. وهو ذكاء لا نجد خيراً منه ليكون خاتمة لدارستنا لهذه المذكرات الفريدة التى صورت اغتراب يسارى مصرى على نحو مسرحى فريد..

***

obeikan.com

الباب الثانى

مجرد ذكريات: الجزء الأول

مذكرات الدكتور رفعت السعيد

obeikan.com

obeikan.com

(١)

يحتل الدكتور رفعت السعيد مكانة متميزة بين اليساريين المصريين فى جيله، فهو أول مدنى يصل إلى رياسة الحزب اليسارى المصرى الوحيد الذى نشأ بموافقة الدولة، وقد وصل إلى هذه الرئاسة بعد أن عمل طويلا فى صفوف هذا الحزب الذى جمع فصائل مختلفة من اليساريين، وقد عمل من قبل تأسيس الحزب بالقرب من رئيسه الأول خالد محيى الدين بكل ما يمثله ذلك الرجل فى الحياة السياسية فى عهد الثورة! كما أنه ظل لفترة طويلة بمثابة الدينامو المحرك لهذا الحزب، وهو قبل هذا وذاك ذلك الرجل الذى يصدق عليه قول القائل: إنه نشأ يساريا، وعاش يساريا، ولا شىء غير اليسار، ذلك أنه قُبض عليه وحرم من حريته ولما يبلغ السن القانونية للتمييز، وإن كان قد بلغ حكمة هذه السن أضعافا مضاعفة! بوقوعه فى القبض، والاعتقال، والسجن، وفقدان الحرية وما استتبعها.

وقد كان رفعت السعيد أصغر يسارى مصرى يتعرض لفقدان الحرية، وقد ظل فى السجن أعواما متصلة خرج منها إلى الحياة العامة يساريا متسلحا بروح اليسار، وأدبيات اليسار، وشهادة الاعتماد الكبرى فى حياة اليساريين، وهى السجن وما يحمله من دلائل العذاب والاغتراب!!

وقد أتيحت للدكتور رفعت السعيد فرص واسعة وحقيقية للدراسة والعمل والاطلاع والارتحال فى خارج مصر فانتهزها على أفضل صورة ممكنة، وكان من الذكاء بحيث لم يدع فرصة من هذه الفرص تقوده إلى غربة دائمة أو غربة طويلة الأمد، وإنما استغلها بحيث صارت مراحل أساسية ومحورية فى تكوين ذكى طوعه صاحبه الذكى لما يريده من نفسه.

والحق أنه نجح فى رسم مسار حياته كما لم يتح لغيره من أهل اليسار، كما نجح فى قطف ثمار هذه الحياة كما لم يتح لغيره من أهل اليمين. وقد مارس الكتابة، والصحافة، والتأريخ، والجدل، والفكر، والدعوة، والحياة البرلمانية والمعارك السياسة، والعلاقات الدولية، ونجح فى كل أولئك بأقدار متميزة، وقد شهد له بالكفاءة أعداؤه وأنصاره ومحبوه، حتى وإن انتقده بعضهم فى توجه هنا أو هناك أو هنالك!

(٢)

آثر الدكتور رفعت السعيد أن ينشر مذكراته فى خارج مصر، ثم واتته الظروف بسرعة لكى يعيد نشرها (ضمن كتب مكتبة الأسرة) فى فترة قريبة جدا من نشرها لأول مرة.

وقد أتاح هذا النشر الثانى فرصة واسعة للمذكرات كى تُعرف وتُقرأ، لكن بعضا من صحافتنا المهمومة ببعض القضايا التقليدية لم تفوت فرصة حديث المذكرات عن بعض أحداث عهد السادات وشخصياته، فنقلت بكثرة ما رواه رفعت السعيد عن بعض هذه الأحداث من دون أن تعنى بالمذكرات ولا بما فيها من درر دالة على حياة متميزة فى فترة متميزة، وفى مواجهة ظروف فريدة.

(٣)

نبدأ فنقول: إن مذكرات رفعت السعيد فى جزءها الأول تقدم كتابة فنية ذات مستوى رفيع عن ملامح تكوين واحد من أبرز اليساريين المصريين الذين قدر لهم أن يتغذوا على الأفكار الماركسية منذ عرفوا القراءة والتأمل، ومنذ قدر لهم أن يقرروا المصير الذى يختارونه لعقلهم وفكرهم، ومن حق جيل رفعت السعيد أن يفخر بما أتيح له من فرصة نادرة لتحقيق هذا الاختيار المبكر والحفاظ عليه على هذا النحو الدءوب، وهو ما لم يتح بهذه السلاسة للجيل التالى لجيل رفعت السعيد، وهو جيل فرض عليه أن يرضع الشمولية، وأن يهضمها، وأن يتمثلها، وأن يعيد إنتاجها، ومن ثم أن يفرضها على كل فكر يسارى قدر له أن يعتنقه أو أن يدعو إليه.

وقد أحسن الدكتور رفعت السعيد صنعا حين جعل مذكراته تنتهى عند نهاية عبد الناصر تقريبا قبل أن تتاح له رحلة الحياة الأخرى التى عاشها فى عهد السادات، دارسا للتاريخ، وممارسا للسياسة العلنية على نطاق أرفع درجة من ممارساته المبكرة طيلة عهد عبد الناصر الذى فرض عليه سجنا إجباريا دام لأكثر سنوات هذا العهد الناصرى، ثم فرض عليه صراعا جديدا عند القمة لم يكن مستعدا له ولم يكن متصورا أن تاريخه سيقوده إليه من السجن مباشرة!! وربما أن الرجل لم يكن متصورا لفكرة أن يخرج من السجن إلى مثل هذا الصراع، لكنه مع هذا كان قد تأهل للانتصار فى مثل هذا الموقف أو لما هو أكثر منه بفضل التجربة النفسية العميقة التى عاشها فى السجون الناصرية بكل ما كان فيها من حوار على حد وصفه، أو على حد تعبيره الاستعارى.

(٤)

نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بالحديث عن أقسى موقف واجهه صاحب هذه المذكرات حين كان عليه أن يضحى بمشاعر أسرته جميعا من أجل ما يعتقد، وهو الذى لم يخرج من السجن إلا أياما قليلة فى نهاية ١٩٥٨، وكان فى وسعه ساعتها أن ينهى تجربة الألم الذى سببه لوالده ولوالدته ولأخوته، لكنه، كما يصور نفسه بنفسه، كان قد قرر من تلقاء نفسه أنه لا يليق به أن يترك الكفاح ولا أن يترك فرصة الهرب ولا حتى فرصة السجن من جديد كيما يدافع أمام نفسه عما تعتقده نفسه.

وهو يصور حيرته فى ذلك اليوم بعد أن ركب تراموای (٤) من شارع خيرت إلى الفلكى حيث لم يجد الأستاذ مبارك الذى أخذه البوليس فى الفجر، ثم يعود فى الترام (٤) إلى شارع خيرت ومنه إلى شارع الجامع الإسماعيلى حيث بيت رفيقه محمد حجازى فيجد أخاه أحمد واقفا فى ركن قصى وكأنه قد أعد كمينا له لينبهه إلى ما حدث من القبض على محمد، ثم هو يتجه إلى دار الفكر فإذا بالبواب النوبى الأصيل يشخط فيه فى حنان وينبهه إلى الانصراف بسرعة لأن البوليس فى الشقة ينتظر أن يقبض على أى أحد من رفاقه، وهو يتوجه إلى شقة رفيقه فاروق ثابت فوق محل جروبى فى شارع عدلى فيجده لايزال نائما من آثار سهرة رأس السنة، ثم هو يتوجه إلى الموسكى ويلقى رفيقه محمد وزوجته كريمة، وفى وسط كل هذا البحث الحائر والهادف معا يسائل نفسه عن الطريق الصائب فى هذه للحظة الفارقة:

«وبدأت أسأل نفسى : وأنت ماذا ستفعل؟».

«انغرس هذا السؤال فى عمقى ليطرح وبسرعة غريبة مئات أخرى من الأسئلة، أية بكتيريا هذه التى تتكاثر بسرعة سريعة».

«أسئلة من نوع : الحزب وحاجته لجهودى (ولم أكن أعرف بعد مدى اتساع حملة القبض، ومن ثم مدى الحاجة إلىّ) المهمة الموكولة إلىّ : السجناء وعائلاتهم، ها هى عائلات أخرى تضاف إلى تلك المعلقة فى عنقى. ترى كم عددها؟ المراقبة وهل أخضع لها؟ وماذا لو استرخيت فى البيت فأتوا بعد يوم أو يومين ليأخذونى؟ وفى زمن الملاحقة هذه هل يجوز لمسئول أن يبقى فى بيته، ثم يخرج محملا باحتمالات مراقبة بوليسية ليقابل الآخرين ناقلا إليهم جرثومة الوباء البوليسى؟».

«أبى وأمى وأخوتى؟ أقاربى الذين تستعد وفودهم أن تفد من المنصورة للتهنئة، تركوا لنا الأيام الأولى ويستعدون الآن للمجىء. جلال أخى الذى تركته صغيرا جدا ولم أره بعد».

«هذا العبد الناصر لماذا فعلها؟ ولماذا حدد هذا الموعد بالذات الذى يضعنى شخصيا فى مأزق جارح؟ ولماذا اختار التصادم العنيف؟ (ألقى بأكثر من خطاب صارخ العداء، لكن رفاق «حدتو» كانوا مطمئنين، ألم يخاصموا بعض رفاقهم دفاعا عن الدفاع عن عبدالناصر)، والغريب بل والمريب أن حملة القبض طالت رفاق «حدتو» بأكثر مما طالت غيرهم، وفسرها المفسرون منهم فى تمسك بحسن النية الذى كان يغلف كل موقف لحدتو إزاء عبد الناصر، بأن جهاز الأمن يريد الوقيعة بين القوى الوطنية، ناسين حملة عبد الناصر، وناسين قبضته المحكمة والمتحكمة فى كل قرار».

«وتعود صورة أبى المريض، وأمى الخائفة دوما، لتتشابك مع صور رفاقى فى السجن، القدامى منهم والجدد، تتشاجر الصور مع بعضها».

(٥)

وتتعاقب الأحداث على رفعت السعيد وهو لا يدرى ماذا يفعل، وأى قرار يختار، وسرعان ما يلتقى بالشاعر كمال عبد الحليم فإذا به، وهو زعيمه أو رئيسه المسئول عنه

فى التنظيم، لا يرغب فى أن يقيده بقرار معين يصبح ملزما له، لكن رفعت السعيد فى النهاية يقرر بكل إيمان أن عليه أن يسرع بأن يترك هذه الحياة الطبيعية إلى حياة الكفاح مهما كلفه الأمر، وهو يصور الأمر فعلا إيجابيا تمثل فى التباطؤ عن أن يصل إلى بيته فى الموعد الذى حدده البوليس، كما أنه، وهذا هو المهم، يصور دافعه إنسانيا قبل أن يكون تنظيميا، فهو يظن نفسه قادرا على مساعدة الأسر قبل أن يصورها قادرة على قيادة النضال اليسارى فى الوقت الذى اعتقلت فيه القيادات، وهو ينسى فى هذا مساعدة نفسه ومساعدة أسرته هو نفسه:

«. . . فى الطريق تمهلت خطاى بالرغم منى، ليس تعبا، بل شىء آخر، لم تعد بها رغبة أن تسابق الدقائق المتبقية لتكون فى البيت قبل الخامسة، تراخت خطاى أكثر، لست أريد أن ألحق بموعد الخامسة، ثمة نداء مهيب يسيطر على داخلى، ويستدعينى إلى تلك الساحة المتداعية لعلى أستطيع أن أفعل شيئا، لعلى أقدم إسهاما ما، لعلى أمد يدا لهذه الأسر التى لم يتعود أكثرها على هذا النوع من الحياة المستعصية، لعلى أكون مفيدا لأحد».

«عندما دخلت كانت الخامسة إلا ربعا، بتاكسى أستطيع أن أسبق الخامسة وأنتظر الصول كأن شيئا لم يحدث طوال النهار، سأل محمد: عايز تاكسى؟ قلت فى هدوء لم أدر من أين استعرته: لا . . عايز ورقة وقلم، انفرجت أساريره، ألقيت على الورقة بضع كلمات سخيفة وغبية، لكننى لم أجد غيرها، أو لعلى لم أكن فى حالة تسمح باختيار غيرها، فمهما قلت: الكارثة هى الكارثة، وكتبت رسالة لأمى».

(٦)

ويجيد رفعت السعيد تصوير شعوره بالراحة النفسية حين قرر أن ينهى إلى والدته عن طريق الكتابة أنه عائد إلى عذاب الكفاح!! وهى التى لم تتمكن بعد من الفرحة بعودته من السجن الأول الذى غاب فيه خمس سنوات.

ومن المذهل أننا نرى رفعت السعيد يصور أجواء الحرية خارج إطار السجن والهرب على أنها «الرداء الخارج عنه»، ومن المذهل أيضا أن نراه يعبر عن سعادته بخلع هذا

الرداء، ومن المذهل ثالثا أن رفعت السعيد حين يروى هذا كله يعترف، من خلال رواية انفعالات كريمة، بمدى قسوته على والدته وأهله:

«. . . تطوعت كريمة (زوجة رفيقه محمد الزعفرانى) بأن تحمل الرسالة، استرحت لأول مرة منذ تركت السجن، لقد خلعت هذا الرداء الغريب عنى، وعدت كما أحب أن أكون، كل دقيقة تعنى أن قرارى بغير رجعة، فالصول سيبلغ بهروبى من المراقبة، والعقوبة السجن، وبعد السجن المعتقل».

«ثم أتت الخامسة، وانتهى الأمر».

«عادت كريمة متورمة العينين من البكاء، دموعها تسد الطريق أمام الكلمات، قالت كل ما كنت أتوقع وأكثر، الأم فزعت، صاحت: أبوه سيموت من الحزن، الأخوات تعالى صراخهن، سعيد قال: أبلغيه أننى لن أحتمل الحياة فى هذا الجو، سأسافر إلى ألمانيا فورا، امتلأ قلبى وفاض بحزن حقيقى، انغرس الألم عميقا وموجعا، للمرة الأولى صدقت أمى فالحزن يوجع أحيانا وجعا حقيقيا».

«أودعت كل هذه الكومة من الهموم فى قلبى بلا نسيان. احتفظت بها لتلازمنى طويلا، وحتى الآن، فكم قسوت على أسرتى، وعلى نفسى».

(٧)

وفيما قبل هذا يقدم رفعت السعيد صياغة جميلة فى فقرات أدبية عالية القيمة يصف فيها شعوره حين خرج من السجن بعد أول حكم عليه قضاه فيه كاملا، وهو السنوات الخمس، ومن العجيب أنه صادف الحقيقة المؤلمة وهى أن سجنه لا ينتهى إلا مع فجر عصر جديد من الاعتقالات الواسعة المكثفة لليسار المصرى، وهو يقدم القصة بكل رتوشها وتفصيلاتها مركزا على الجوانب الإنسانية الفارقة فى علاقته بأسرته الصغيرة: والده ووالدته وأخواته، وسنقتطف من فقراته المتواصلة بعض ما يصور بصدق شديد غربته فى يوم الإفراج عنه وعودته إلى أهله، وما قدر له أن يستمع إليه من حديث عبد الناصر الهجومى ضد الشيوعيين فى خطابه الذى كان يذاع على الهواء طيلة عودة رفعت السعيد من سجنه إلى أهله، وهنا يصل رفعت السعيد إلى ذروة بلاغية حين يلخص الموقف فى جملة واحدة يقول فيها: «انقبض قلبى الذى لم يفتح بعد»:

obeikan.com

«. . . تراكمت الأيام حتى انتهت، فسنوات السجن مثل خيط، مهما استطال فهو إلى نهاية، ولكنها إذا تآكلت أوصلتني إلى نهاية غير منتهية، فإذا اقتربت أيام السنوات الخمس من نهايتها كان الرثاء يخيم على كل الرفاق. فها هو الجو السياسي يكفهر بغيوم وصواعق، ظل جميلا ومشمسا وربيعيا طوال أعوام ١٩٥٥-١٩٥٨، وطوال هذا الجو الربيعي مع الحكم، أفرج عن المعتقلين (وبقى السجناء فى سجنهم)، وأمضى رفاقنا خارج السجن رحلة عمل نضالى ممتع ومثمر، وعندما يقترب موعد خروجي يكون التصادم».

«مضت السنوات الخمس وزادت يومين فى الإجراءات، طلب الرفاق إلىّ أن أطلب إلى أهلى تدبير مسكن فى حى السيدة، حيث الصول المكلف بمتابعة الخاضعين للرقابة الليلية (يبقون فى منازلهم من الغروب إلى الشروق نفاذا لحكم المحكمة. خمس سنوات سجن، وخمس سنوات مراقبة».

. . . .

. . . .

«كنا فى المساء، تسلمنى أخى سعيد من قسم بوليس السيدة زينب، وكأنه يتسلم طردا من مكتب بريد، وأسرعت بنا السيارة إلى البيت القريب».

(٨)

وها هو رفعت السعيد يروى كيف بدأ بالصدفة يستمع إلى خطاب عبد الناصر الشهير الذى كان بمثابة إعلان حرب على الشيوعيين:

«ليقطع الصمت القابع فى السيارة أدار مفتاح الراديو، كان عبد الناصر يقذف بخطابه الهجومى الشهير مساء ٢٦ ديسمبر ١٩٥٨، وانهمرت جمله الغاضبة تنصب على رءوس «الشيوعيين العملاء». انقبض قلبى الذى لم يفتح بعد، قذف أخى نحوى بنظرة مركبة فيها تحذير، وفيها رثاء، وفيها استعطاف، وربما تأنيب. تشاغلت عن نظرته، فقد كنت مشغولا بالزحام، وأضواء المحلات فى ميدان السيدة زينب الصاخب والممتلئ حيوية».

«أن تكون طليقا، وفى الشارع، وفى المساء. أن تكون كالبشر الآخرين، هذا شىء مبهر، ويملؤك بخدر لذيذ».

. . . .

. . . .

«والشىء الغريب فى السجن أنك ما أن تدخله حتى تشعر وكأنك به منذ ولدت، وما أن تخرج منه حتى تحس وكأنك خلعت عنك كل جراحه وندوبه من زمن بعيد».

. . . .

. . . .

«الأم، الأخوات الثلاث، انغمست فى أحضانهن معا، انهالت قبلات، ودموع، ودعوات أن يهدينى الله (وكأننى عاص)، وأن يمنحنى بعضا من تعقل (وكأننى مجنون). كان الأب راقدا فى فراش المرض، أجرى جراحة، لكن خطأ ما أعاق الجرح عن الالتئام، وكان لابد من البحث عن سبب، ومن الآن فصاعدا سأكتشف أننى، ووجودى فى السجن السبب فى الأمراض والأوجاع. الطبيب قال (وربما كان صائبا): عدم التئام الجرح سببه ضعف عام، وهل من سبب للضعف سواى؟ والأم تعانى من روماتيزم مزمن: «أنا كنت طوال عمرى كويسة متعبتش إلا لما أنت دخلت السجن».

. . . .

. . . .

«وعيناى تتبعان ما طرأ من متغيرات، كل شىء تغير، البنات تغيرن، تزوجن، وأكتشف الفارق فى الكلمات والتصرفات والاهتمامات».

(٩)

ويتحدث رفعت السعيد عن إحساسه بالغربة الذى يتزايد كلما اقترب من أهله الذين كانوا بالطبع بعيدين عن دنياه فى العمل السرى، وفى الشيوعية أيضا:

«وإذ أتقارب أكثر، تتباعد المسافات، حشرت نفسى وسط الجمع الذى احتاط بسرير الأب المريض، عيناه أرسلتا عتابا مريرا، تأوهاته كانت مرسلة نحوى، أو بالدقة

obeikan.com

على موجتى، سهرنا طويلا، ثرثروا تكلموا، قالوا، ضحكوا، تندروا، وأنا أزداد اغترابا، أبتسم، وأضحك، وأرد باقتضاب بإجابات بلهاء، فلست فى هذه الليلة وبالذات مؤهلا لأى فهم أو تفاهم، فقط أريد أن أعتاد، فالفارق واسع بين ثرثرات الزنزانة، وثرثرات الأسرة، والمسافة لا يتم اجتيازها بسهولة، وأكتشف أننى نسيت هذا النوع من الحديث الإنسانى العادى، واعتدت على ما يسميه الناس رطانة أو لغوا سياسيا».

. . . .

. . . .

«الأم جاهرت من الوهلة الأولى بأنها أعدت لى ما أحب من طعام، نسيت أننى نسيت ما اعتدت أن أحب، هى لم تنس، صينية الرقاق، بط محشو بالأرز والبصل، والحلو عاشوراء: «ده مش موسمها، لكن عملتها لأنك بتحبها».

. . . .

. . . .

«ويستطيل الحديث وتروى واحدة من الأخوات كيف أن الأم حرمت عليهم أكل ما أحب طوال فترة غيابى.. آه.. نأتى مرة أخرى للحديث الموجع، والتنهدات، ودموع تنساب لتفسد مذاق الطعام، وغصة تسد حلقى، وتوشك أن تخنق قدرتى على التواجد معهم، فما أصعب هذا الإلحاح الودود والحميم والخانق معا».

(١٠)

ويجيد رفعت السعيد التعبير عن لحظات التأمل وما قاده إليه من تعميق الصراع بين الالتزام بما يعتقده وما يجلبه هذا الالتزام من عذاب للأهل، وفى وسط هذا الحديث لا يمانع رفعت السعيد فى وصف صوت عبد الناصر بالصوت الحقود:

«دخلت غرفتى، تمددت على سريرى، سرير حقيقى، ومرتب، ولحاف، وبطانية، وملاءات، ومخدة، وكل ما نسيت بالاعتياد على البرش الخشن، والبطانية الأكثر خشونة منه. كنت أتوقع أن أنام فورا مستمتعا براحة المكان، ومتخلصا من تعب الأيام السابقة، لكن النوم تمنع، وأبى أن يأتى».

«استعدت كل ما كان، المشاعر الدافقة، والأحضان الدافئة، والدعاء الممزوج بالإلحاح، والحب الممتزج بالتوجع، والرجاء بأن أرحم الجميع فأكف عن الخوض فى هذا الطريق، وتخيلت نفسى وأنا أرجوهم وأتوسل إليهم بأن يرفعوا عن كاهلى عبء محبتهم الدافقة، وحنانهم الكثيف، وإلحاحهم غير المجدى، وإرهاقهم لضميرى، إذ يجعلون من التزامى بما أعتقد عبثا عليهم، وعذابا لهم».

«وفى الصباح الذى انتظرته طويلا تأهبت للخروج، وانسابت نظرات متسائلة فى صمت: إلى أين؟ وكل النظرات، وكل الأسئلة تتجمد فى حدود محدودة، هل ستذهب إليهم؟ إلى رفاقك؟ أم ستنساهم وتتجاهلهم؟».

«كان الراديو مفتوحا، وكان مصمما على إفساد كل شىء، فهو يستعيد للمرة العاشرة (وربما أكثر) خطاب عبد الناصر، ويختار وبإلحاح وتكرار ضاغط هجماته على «الشيوعيين العملاء»، وكنت محتاجا أن أفلت من ذلك كله، من حصار الأعين، والصوت الحقود المتصاعد من الراديو (. . . هكذا يصف رفعت السعيد الرئيس عبد الناصر . . ولسنا نستطيع أن نقول: وله الحق فى ذلك، لكننا نستطيع أن نقول: وله العذر فى ذلك)، وتركت المكان».

«لكن سؤال من أمى لدغنى وأوجعنى بشكل مباشر، ولعلها قالته فى براءة بريئة: هل ستذهب للجامعة؟ وهكذا يكتسب الوجع عمقا حقيقيا، فأنا فى السادسة والعشرين، ولم أزل متعلقا بالسنة الثالثة من كلية الحقوق».

(١١)

ومن الغريب أن يعترف رفعت السعيد أنه كان من الممكن له فى بداية عهد الثورة أن ينجو من الحكم بخمس سنوات من الأشغال الشاقة، لكنه أضاع هذه الفرصة أو ترك هذه الفرصة تضيع حين أطاع تعليمات المسئول عنه فى التنظيم الشيوعى الذى كان ينتمى إليه.

ومع أن رفعت السعيد يقدم القصة على نحو سريع وخاطف، إلا أن دلالاتها كثيرة ومتعددة، وهى دلالات واضحة ومعبرة وليست فى حاجة إلى تعليق!! وقد أجاد

صاحب المذكرات تقديمها بما يوحى بما فى دلالاتها من معان ظاهرة، ومعان عميقة أيضا، لكن أهم هذه الدلالات هو التصوير الجيد الذى يقدمه رفعت السعيد لموقف حركة «حدتو» من ثورة يوليو وكيف كانت معاناتها من عقدة تأييدها المبكر للثورة تدفعها إلى الوقوع فى خطأ الهجوم على الثورة، وما كان يستتبعه هذا من إتاحة الفرصة للثورة نفسها لتتهم «حدتو» بما من شأنه أن يضع أفرادها تحت طائلة العقاب!! وأن يدفع بهم إلى العقاب بالفعل.

وهكذا راح رفعت السعيد نفسه ضحية لهذا الموقف المركب على نحو ما نلمس فيما يرويه:

. . . .

. . . .

«. . . وكنا نقترب من زمن المحاكمة، والقاضى هو المستشار «م.ع» عرف الجميع عنه أنه يتلقى قائمة الأحكام من الأمن، ويجلس فى الجلسات غير منصت، ثم يتلو ما تلقاه من أحكام».

«وطبعا».

«مَنْ يهن يسهل الهوان عليه».

«فإذا كان قادرا على أن يتقبل أوامر من الغير، فلم لا يفعلها لحسابه، واختار من بين الأسماء مَنْ يستطيع أن يدفع، وبلا مقدمات زارت محامية شهيرة تمت له بصلة القرابة أبى لتعرض عليه صفقة غريبة».

«الإفراج بدلا من خمس سنوات سجن أشغال، مقابل خمسة آلاف جنيه، السنة بألف جنيه (وبمعيار هذا الزمان يبدو المبلغ مبالغا فيه)، واشترطت أن يصمت الفتى أثناء المحاكمة فلا ينطق بخير أو بشر (كانت حدتو لم تزل تعانى من عقدة تأييدها لحركة الجيش، فمارس شبابها هواية الدفاع السياسى بمناسبة وبلا مناسبة، يهاجمون الحكم، يفرغون من أعماقهم غضبا غاضبا يتخذ بذاته دليلا لإدانة مَنْ لا دليل قضائى ضده)، حضرت أمى لزيارتى تحمل البشرى وتلح فى القبول، أسرعت هامسا لمسئولى طالبا منه قرارا».

(١٢)

وتأتى لحظة الحل أو بالأحرى لحظة التعقيد وخلق المشاكل، وها هو المسئول عنه فى العمل السرى لا يرضى له حرية مقابل المال، بينما غيره عاجز عن المال الواهب للحرية:

«كان المسئول هو الرفيق سعد رحمى، كان وترا مشدودا بأشد ما يمكن من تشدد، وما أن تتلمسه حتى تنطلق معزوفات الهجوم والإدانة للحكم ولتصرفاته».

«انتفض المسئول لمجرد سماع الفكرة، فإذا كان الأغنياء يفلتون بجلدهم فما حال الفقراء؟ ثم ومَنْ سيدافع عن خط الحزب وسياسته إذا كان الكادر الأساسى فى القضية سيصمت؟».

. . . .

. . . .

وهنا يعقب رفعت السعيد بسرعة فيقول:

«كان مثل هذا الدفاع مجرد تسجيل موقف، بل يوشك إذ أنظر إليه بعينى اليوم أن يكون عملا طائشا، فالجلسات سرية، فإن خاطبت ستخاطب قاضيا لا يختلف فى كثير أو قليل عن رجال الأمن، بل إنه لم يكن ليسمح لنا بالقول ليستدرجنا كى نكتب، فيريح نفسه من الاستماع، ويضمن ألا يسمعنا أحد، ثم ها هو يتلقى دليلا خطيا قدمناه نحن ضد أنفسنا، والغريب أننا من فرط حماسنا كنا نقضى الليل منحنين ونحن (جالسون) القرفصاء، مستخدمين غطاء جردل المياه لنستند إليه فى الكتابة، ثم نتسارع فى بداية الجلسة لنقدم أوراقا لن يقرأها أحد، لكنها تضفى على أحكام سبق وضعها قبل المحاكمة، صفة المشروعية».

. . . .

. . . .

(١٣)

ثم يعترف رفعت السعيد بأنه اتخذ قراره الخاطئ برفض الوسيلة المتاحة التى كانت

كفيلة بخروجه من السجن وإراحته من الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات خوفا من أن يتهم بالتخاذل، وهو يعترف بالخطأ، ربما ليبرر مواقف تالية ! :

«انتفض الوتر المشدود، عزف كل المعزوفات التى تعزف كل يوم، ولم أجد مجالا لنطق، فلو تعلق الأمر بغيرى لقلت حججا كثيرة، أن يفلت واحد، فى زمن تحتاج فيه حدتو إلى أى جهد بالخارج، وعشرات من حجج تمتلك قدرا من المعقولية لمَنْ يمتلك عقلا عاقلا، أو يمكنه أن يتيح لها العقل مساحة من الفعل، لكن الأمر يتعلق بى، وما أسهل أن أتهم بالضعف، والتخاذل وأشياء كثيرة أخرى».

«فتحليت بالصمت المحكم وغير الحكيم، وضاعت الفرصة، وبالفعل كان الحكم كما وعد سيادة المستشار، أو كما توعد».

«خمس سنوات أشغال شاقة».

(١٤)

وبعد أن يتناول رفعت السعيد قصة الإفراج عن مجموعة من زملائه السودانيين على يد المحكمة، يعلق على تصرفه هو وموقف القاضى فيقول :

«على أية حال نفذنا أوامر المسئول، تشددنا فى هجومنا المشدد على القاضى وعلى النظام، ووقعنا، وبرضاء مشغوف فى فخ كتابة دفاعاتنا، مقدمين أدلة خطية ضد أنفسنا، وجدها هو سببا سهلا لإنفاذ الأحكام التى صدرت له، ضد متهمين لم تكن ثمة أدلة جنائية ضدهم».

. . . .

. . . .

(١٥)

ونحن نرى هذا التعقل الواضح (فى الحكم على سلوكيات اليساريين الملتزمين أو المتشددين) يسيطر على تصرفات رفعت السعيد التالية، وعلى سبيل المثال فإنه بعد أن يصل إلى نهاية قصة من قصص الصراع الداخلى مع زملائه اليساريين يلخص موقفه الناقد للأسلوب اليسارى الخاطئ فى ممارسة بعض المعارك فيقول :

«. . . وخضت معركة، بل معركتين، معركة ضد موقعى البيان، ومعركة ضد مَنْ يمارسون معركتهم بأسلوب خاطئ، وغير سياسى، وغير متحضر، بل وغير إنسانى».

«وحملت فراشى . . تاركا الزنزانة الانفرادية، لألقى بنفسى فى بيت النار المشتعلة».

(١٦)

على هذا النحو من التعبير الصادق عن مشاعر الاغتراب تمضى مذكرات رفعت السعيد، حتى كأنما المذكرات كلها اغتراب فى اغتراب، وكأنما حياة صاحبها لا تولد إلا الاغتراب، لكن رفعت السعيد فى ذكاء شديد يبدأ ذكرياته على نحو يصور لنا أنه كان فيما احتفظ لنفسه من حياة متفقا مع نفسه، ومع تكوينه، ومع أصوله، ومع بيته، ومع بيئته، بل إنه فى بداية مذكراته يحرص على الفخر بأنه من نسل رجل مات شهيدا وفديا وهو جده لوالدته، وهو يصور ذكرى جده على نحو ما مضت: قبر ضاع، ثم نصب تذكارى فى عهد الوفد ١٩٣٦، ثم يد همجية فى ١٩٤٦ تدمر النصب، ثم ها هو رفعت السعيد ينتقم بكفاحه المتصل من كل هذا الظلم على قدر ما يتاح له:

«. . . الأم ابنة شهيد، تاجر أقطان اسمه عوض سلامة، كان وفديا متحمسا، وعندما حضر النحاس باشا إلى المنصورة فى زيارته الشهيرة التى انتهت بمأساة وصدام عنيف، خرج عوض أفندى مع آلاف غيره يتحدون حكومة الطاغية صدقى ويعلنون تمسكهم بدستور ١٩٢٣، ويهتفون «يحيا النحاس باشا» «يحيا الدستور»، ثم رصاص وعصى وسناكي وخيول تدهس المشاغبين، ويفقد عوض أفندى ما تبقى من حياته من زمن (يذكر التاريخ المكتوب اسم سينوت حنا كبطل لهذه الواقعة لأن يده أصيبت بطعنة سونكى، فقد كان واحدا من الصفوة، أما عوض أفندى سلامة وعديد مثله من الأفندية فقد أشاح التاريخ بذاكرته عنهم)».

«غاب عوض أفندى عن البيت أياما، ولم يعرف أحد ماذا حدث له، فالبوليس بعد أن فرق المتظاهرين حمل الجرحى إلى السجن، والموتى إلى مقابر مجهولة، وبعد عذاب طويل عثروا على قبره، وتجاسر البعض فوضع على القبر قطعة رخام عليها اسمه وتسبقه كلمة شهيد».

«وأتت حكومة الوفد، وفى عام ١٩٣٦ أقاموا فى متنزه الكنانى القريب من بيتنا، وبجوار كشك الموسيقى الجميل، نصبا تذكاريا من رخام أبيض مشرب بالحمرة، وكثيرا ما كانت الأم تصحبنا فى وقار إلى المتنزه القريب من بيتنا لتصعد أعيننا الصغيرة إلى أعلى ونقرأ «فى سبيل الوطن والحرية استشهدوا»، ثم قائمة بالأسماء من بينها «عوض سلامة».

«وفيما بعد فهمت القيمة والمغزى، وترددت كثيرا أطالع الاسم، أقرأ القائمة، وأراجع الأحرف لأتأكد أنهم نسجوها بدقة وحنان».

«وجاء الطاغية صدقى ليحكم مصر من جديد عام ١٩٤٦، وذات يوم مررت عبر المتنزه لأجد النصب التذكارى وقد أصبح كومة من رخام ممزق، وكأن يدا همجية دمرته بضربة واحدة ولم تعن حتى برفع بقاياه».

. . . .

. . . .

وها هو يصل إلى أن يقول:

«ولعل المرارة التى تراكمت فى صدرى وفمى، كانت أحد بواعث انغماسى فى مظاهرات ١٩٤٦، ومن ثم انغماسى فى السياسة».

(١٧)

ويمضى رفعت السعيد فى هذا التصوير الجيد لروح البيت التى دفعته إلى هذا الطريق الشاق حتى يتحدث باعتزاز ذكى عن إصرار جدته الوطنية الواعية الذكية على زيارته فى المعتقل وتشجيعه على موقفه الذى دفعه إلى هذا الاعتقال، بل إنها تضرب له المثل فى القدوة بزعيم الأمة سعد زغلول باشا:

«. . . وفى هذه الغرفة (الحديث عن غرفة السجن) أقمنا عدة أشهر، كان أبى يحضر لزيارتى، يذهب إلى غرفة رئيس النيابة ويأخذنى عم عبده إليه، يتركون الغرفة لنا، ولا أجد ما أقول، ولا يجد هو ما يقول، سوى: إزيك، عايز حاجة، صحتك كويسة، ثم ينصرف».

«وألحت جدتى أن تزورنى، وبمجهود شديد أقنعوا البيه المأمور، ووافق وهو يتلفت رعبا، كانت الغرفة تضم بعض الضيوف الذين صمموا أن يبقوا كى يتفرجوا على أحد الشيوعيين، ويبدو أن أحدهم قد صدم وصاح: ده عيل صغير، وصدمت أنا أيضا، أما جدتى فلم تجد ما تقول سوى أن صرخت بصوت يلم علينا الدنيا:

«ما تخافشى ياحبيبى، متزعلش، سعد باشا انسجن».

«واعتبر المأمور ذلك تحريضا وأنهى الزيارة سريعا».

(١٨)

وفى وسط كل هذا الحديث الباعث على التعاطف مع صاحبه، والأسى له، يخصص رفعت السعيد فصلا مثيرا بعنوان «الحب عبر القضبان» يبعث على الأمل والسعادة والفرح مع صاحب المذكرات حين يتحدث بنشوة وبخجل شرقى معا عن بداية حبه لزوجته الفاضلة التى شاركته الكفاح والسجن، ونحن نراه متمتعا ببراعة فنية مقتدرة تجعله لا يقدم لنا الحديث فى صورة مباشرة، لكنه يقدمه من خلال دهاليز حديث عن معاناة السجن، وكأن هذا الحب زهرة نبتت رغم الأشواك، وفى الأشواك، وعلى الأشواك:

«كانت البداية بعد يوم أو اثنين من اختفائى فى بيت محمد الزعفرانى، لجنة العائلات، مارى بابادوبلو، قدرى شعراوى.. وليلى، وكانت غيوم كثيفة تحلق دوما فى رأسى، فالمسئول الهارب ليس من حقه أى شىء، لا لعب، ولا إعجاب، ولا حتى التأمل، لكننى امتلكت رغبة للتأمل قاومتها بشدة عنيفة».

«وتوالت لقاءاتنا لنقترب أكثر، فأكثر، وفقط، فالغيوم المستبدة بى تفرض حاجزا مدببا يدمينى كلما حاولت اجتيازه، لكننى بدأت أشعر بأننى أفتعل المقابلات، أفتعل تقاربا منها، وأفتعل أن نكون منفردين، ولكن ذلك كله كان يتم فى إطار من الحماس للعمل، ودون أى انفلات من القالب المحايد الذى يغلف تصرفات وكلمات المسئول».

«وقبض علىّ. كانت أول وخزة شعرت بها عندما استقرت أنفاسى أن موعدها كان فى الغد، ستأتى ولن تجدنى، فهل ستتهمنى بالتقصير؟ حتما ستعرف أننى قبض علىّ، فهم يعرفون التزامى بدقة المواعيد».

«وفى سجن مصر زارتنى كريمة (زوجة محمد الزعفرانى)، همست عبر السلك الفاصل ببعض معلومات عن العمل التنظيمى، ووجدت نفسى أوجهها للاتصال بليلى، وترتيب أمر ما معها، ثم وجدتنى أطلب منها أن تحضرها معها فى الزيارة القادمة».

«ولمحت ابتسامة ماكرة تطفو على وجه كريمة».

«وبعدها بأيام حضرت كريمة ومعها ليلى، وتباعدت كريمة فى مكر مضاعف، ولم أجد ما أقول لكننى أحسست بسعادة غامرة، وأحسست أنها أحست بذلك، كلفتها ببعض الاتصالات المهمة».

. . . .

وسرعان ما تأتى نهاية مؤقتة للسعادة، أو فاصل من إعلانات الألم بتعبيرات التليفزيون:

«وطلبت أن تحضر ثانية، ولم تحضر، هى أيضا تخلفت كما تخلفت. . وأتى نبأ اعتقالها».

(١٩)

ومن أطرف ما فى هذه المذكرات الحافلة بالإنسانية والدراما أن نرى رفعت السعيد وقد استعذب مبكرا سلطاته المعنوية (!!) فى الشيوعية، فقد كان فى وسعه، حسب تصور البسطاء، أن يعطى شهادة تعفى حائزها من دخول الجيش، وذلك طبقا لقاعدة استنتها الثورة عقب قيامها مباشرة:

«. . . وتصبح الشيوعية فى ١٩٤٨ واقعا فعليا هناك، أما فى ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ فهى تصبح ملء السمع والبصر، وتصبح منافسا للجميع، إلى درجة أن الأمن (بعد ثورة يوليو مباشرة) بدأ يتحسب من تجنيد أبناء قرى بأكملها حتى لا تتسرب الشيوعية من جديد إلى صفوف الجيش».

«وذات يوم أتى فلاح مسكين إلى ورشة أبى، وبعد حديث فلاحى ماكر ومغلف بالشكوى من أحواله السيئة، وابنه الذى هو عائل الأسرة الوحيد، بعد دورة كاملة

وماكرة أفصح الفلاح عن مطلبه «أن يعطى البيه الصغير (الذى هو أنا) شهادة لابنه بأنه شيوعى علشان ما يخدوهوش الجهادية».

«وانفجر الأب مرتين، مرة فى الفلاح المسكين، ومرة فى «البيه الصغير».

(٢٠)

يحاول رفعت السعيد بمهارة شديدة أن يلخص عقيدة البسطاء تجاه الحبس والسجن وفقدان الحرية نتيجة للإيمان بمعتقد سياسى ما :

« . . . وإذ أحاول أن أنسى هواجسى، إزاء ذلك المجهول فى غمرة الاحتواء الحميم من ركاب الصندوق معتقلين وجنودا، أنستهم الرحلة الفوارق، ونبتت رياحين إنسانية دفعتهم جميعا للاهتمام بهذا الصبى الصغير، وهو اهتمام كان يؤلمنى تماما كالتجاهل».

«وفيما كنت أحاول أن أبدو مكتسيا بهدوء غير منفعل، لعله كان مزيجا من الخوف، ومحاولة التماسك، هطل علينا كرذاذ حميم فى حر قائظ موال جميل :

«السجن مش عيب مادام القضا اتحكم

«واتسلطن الندل فى ابن الأصل واتحكم».

. . . .

(٢١)

ونقفز إلى حديث رفعت السعيد عن غربته المبكرة بين زملائه فى رحلة السجن المبكرة وهو الذى قدر له أن يقضى بعض أيامه معهم بينما كان لايزال صبيا يلبس الشورت على عادة أهل ذلك الزمان :

« . . . كانوا كثيرين، ينطلقون فى حماس مشتعل، منقسمين إلى حد التشرذم، كل منهم يعتقد أنه يمتلك مطلق الصح، والآخر مطلق الخطأ، يقولون وبأعلى صوت كلاما كبيرا، وعبارات متخمة بالترفع عن كل مَنْ عداهم، يتبادلون التكاذب، يترفعون، يلوكون ألفاظا صعبة الفهم، ويستريحون كلما كانت ألفاظهم أكثر غموضا، وأكثر استعصاء على الفهم».

(٢٢)

وسرعان ما يستطرد رفعت السعيد ليتحدث عن رؤيته لهؤلاء الزملاء بنضج المفكر الذى خاض التجربة مرة بعد أخرى وأصبح قادرا على تقييم الخطأ والأخطاء فى مراحل النضال اليسارى:

«مارسوا هواية الانقسام حتى الثمالة، وبرروها بألفاظ وأقاويل متقنة، تدافعت ثوريتهم كالسيل، لكنها كانت بلا عمق حقيقى، بعد أن كبرت اكتشفت فيهم التعبير الحقيقى للبرجوازى الصغير، وظللت أتذكر دوما محاولات أمين بك أن يشرح لى، وبتبسيط شديد، رؤيته لهؤلاء الرجال فقال: دى نظرية الأستك، تشده جامد ناحية اليسار وأول ما تسيبه يندفع بسرعة نحو اليمين».

«والغريب أن أغلبهم قد فعلها، فبعد أن أنهكوا حزبهم انقساما ونقدا وانتقادا، وبعد أن صرخوا بأعلى صوت بأعلى الشعارات ثورية، فإنهم وما أن أفرج عنهم حتى أخلوا سبيل أنفسهم من النضال، وعادوا أدراجهم متجنبين أى تلامس مع اليسار».

(٢٣)

ويعود رفعت السعيد إلى ما تسعفه به ذاكرته عن صورته وصورة هؤلاء البرجوازيين الصغيرين فى أولى تجارب اعتقاله، وغربته أيضا، وهو الذى يعبر عن نفسه بأنه كان أقرب ما يكون إلى قطة بلا صاحب:

«لكن أحدا من هؤلاء لم يكلف خاطره بأن يهتم بهذا الصبى الذى ألقت به المقادير بين أرجلهم المتصارعة، كانوا يفتقدون روح الأبوة، أنا لست معهم.. (إذاً) لا مبرر للاهتمام بى، ناسين أننى لم أكن أعرف حتى ذلك الحين.. مع مَنْ أنا؟ بل هل أنا مع أحد أصلا؟ وأننى لم أكن بحاجة إلى أكثر من قدر من الرعاية».

«كنت أسير فى هدوء بين أقدامهم كقطة بلا صاحب، لا يلحظها أحد، ولا أحد يكلف خاطره بأن يشعر بوجودها، أو أن يشعر إزاءها بأية مشاعر».

«حتى الآن لا أعرف كيف مضت بى هذه الأشهر الطويلة، ولا كيف أمضيتها، لا أذكر منها شيئا ذا بال، فقط تساقطت هذه الأيام الواحد تلو الآخر، حتى أفرج عنى».

«لكن هذه الأيام علمتنى الكثير».

ونمضى مع رفعت السعيد إلى زاوية أخرى ينظر من خلالها إلى تجربته الأليمة، وهى تجربة اعتقاله الأولى، وهو يعيد النظر فيما كان يراه من أحداث عابرة اتضح له فيما بعد ما كانت تدل عليه من حقائق التاريخ التى غيبت عنه، وليس لنا أن نعجب من حديث رفعت السعيد عن أن الانتماءات الصهيونية كانت تحظى بالتدليل (!!) على حين أن الانتماءات اليهودية كانت تحظى بالتعذيب مادامت قد ارتبطت بالشيوعية !! وهو يذكر بالاسم الصريح المليونير أوفاديا زعيم الصهيونية فى مصر:

«. . . لكن أشياء مثيرة للدهشة لفتت أنظار هذا الصبى فى فترة اعتقاله الأولى».

«كانت منطقة هايكستب منطقة عسكرية، كل السيارات وكل البشر ممنوعون من الخطو نحوها، فالبلد تحارب إسرائيل والمنطقة عسكرية، سيارة وحيدة كانت تحمل تصريحا دائما للمرور هى سيارة الحاخامخانة اليهودية، وهى سيارة نقل ضخمة تحضر كل يوم إلى عنبر المعتقلين الصهاينة تحمل لهم طعاما طازجا، وملابس، وصحفا، وكل ما يحتاجونه».

«ولاحظت حتى وأنا طفل (ربما فى اللفظ مبالغة أو مفارقة، قد كان على أقل تقدير صبيا أو فتى) هذه المفارقة، ولاحظت أيضا أن التصريح منح فقط لمعتقلى عنبر الصهيونية، بينما كان هناك يهود شيوعيون فى عنابر أخرى ولم يحظوا بهذا الاهتمام».

. . . .

. . . .

«وكان قومندان المعتقل ضابط صعيدى اسمه عبد الحفيظ أبو ستيت، كان يعامل المعتقلين بغلظة، متطاولا عليهم دوما، مذكرا البعض منهم بأنهم يأكلون فى المعتقل أفضل مما يأكلون فى بيوتهم، لكن غلظته هذه كانت تتحول إلى أدب جم إذ يتعامل مع أوفاديا سالم المليونير وزعيم الصهيونيين فى مصر، وشاهدت بنفسى (وأنا أتردد على العيادة فى عنبر ١) كيف كان أوفاديا باشا يجلس أنيقا ومترفعا على مكتب القومندان

متحدثا دوما فى التليفون ليدير أعماله المتشعبة، بينما السيد القومندان يتحاشى الدخول إلى غرفته حتى ينهى الباشا الصهيونى إدارة أعماله».

«وبعد الظهر كان أوفاديا باشا يرتدى بدلة أنيقة ثم يركب مع القومندان سيارته وبلا حراسة ليعود معه قرب المساء، وقيل إنه عقد اتفاقا مع أحد كبار الكبار ليمضى نصف اليوم فى بيته».

. . . .

. . . .

«وفيما بعد، وخلال دراستى لتاريخ هذه الفترة وجدت ما يشير إلى أن أوفاديا سالم هو ومَنْ يمثلهم قد دفعوا لرئيس الوزراء رشوة كبيرة لتسهيل إجراءات ترحيل العديد من اليهود المصريين إلى الخارج تمهيدا لإرسالهم إلى إسرائيل، والحجة التى استخدمها رئيس الوزراء كانت تطهير مصر من اليهود».

(٢٥)

ويتحدث رفعت السعيد بحب وتقدير عن الحيلة الذكية التى لجأ إليها والده لكى يخرجه من السجن كى يؤدى امتحانه، وهو فى سبيله لقص هذه القصة علينا لا يمانع أن يعثر بعض الرذاذ فى وجه حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وتاريخه كله:

«. . . كان أشد ما يقلق أبى هو استكمال دراستى، وكان يقلقه أننى فقدت عاما دراسيا فى الاعتقال الأول، وها هو عام آخر يوشك أن يضيع، وعبر شبكة اتصالات تلقى أبى الإشارة بأنه من الممكن الإفراج عنى بسرعة لألحق بامتحان العام الدراسى الحاسم قبل أن يفلت».

«توسط فى الأمر تاجر شديد الثراء، وواسع الاتصالات كان صديقا حميما لأبى اسمه فهمى سيد أحمد، وتوصل إلى تاجر فى الحمزاوى اشتهر بأنه صديق حميم لحافظ باشا عفيفى رئيس الديوان الملكى، وكان حافظ باشا يحرص على أن يمر كل يوم على محل التاجر ويتوقف بسيارة القصر الملكى ليجلس مع الرجل بضع دقائق، لعلها كافية ليعلن للكافة صدق ما يقوله الرجل، وهو أنه حلقة الاتصال، ومنظم الوساطات لدى حافظ باشا».

«أبى وصديقه شدا رحالهما إلى القاهرة، فالحمزاوى، فالتاجر، تكلما كتجار محترفين، وعقدت الصفقة أن يفرج عنى خلال أيام مقابل خمسمائة جنيه (وهو مبلغ كبير بمعايير هذا الزمان)، وبالفعل وبعد يومين أتت سيارة من الشرطة ومعها قرار الإفراج عنى».

«كنا فى مايو ولا يتبقى على امتحان التوجيهية (الثانوية العامة) سوى أربعة أسابيع، ودخلت التحدى مع نفسى، ومع أسرتى، ونجحت».

«دفع أبى الخمسمائة جنيه، وبعدها بأسابيع كانت ثورة يوليو، وكان الإفراج عن جميع المعتقلين».

(٢٦)

ونأتى إلى ما ليس منه بد وهو حديث رفعت السعيد عن معاناة الشيوعيين فى سجون عبد الناصر، وفى ظل حكم عبد الناصر، ولا يمكن لنا ولا لغيرنا القول بأن هذا الموضوع يمثل تجنيا على هذه الفترة، ولا على وقائعها، لكنه على النقيض من ذلك يقدم أحكام مفكر ذكى، وسياسى ناضج على أحداث قدر له أن يصطلى بنارها.

وعلى سبيل المثال فإن رفعت السعيد لا يبخل علينا فى حديثه عن فترة هروبه بتمرير كثير من أحكامه على فترة بداية الستينيات من حكم الرئيس جمال عبد الناصر، وما حفلت به من عداء لليسار واليساريين، وهو عداء مركب انتهى إلى ما صوره رفعت السعيد على أنه انحطاط سياسى وخلقى:

«. . . أجهزة الإعلام كانت تخوض ضدنا معركة وحشية ومتوحشة، خلطت فيها بين معركتها معنا، ومعركتها مع الرفيق خروتشوف، ومعركتها المريرة مع نظام قاسم فى العراق، وجرى عن عمد خلط الأوراق، وجرى التعامل بانحطاط سياسى وخلقى لم تعرف له مصر مثيلا، والأمن كان يواصل هجومه الشرس، وضرباته المليئة بحقد لا حدود لكميته».

(٢٧)

ثم ها هو رفعت السعيد فى بداية فصل خاص بعنوان «حوارات مستبدة» يلخص رؤيته لمنظومة التعذيب فى عهد عبد الناصر ويقول:

«. . . أدمن عبد الناصر حوارا مع خصومه، أيا كانوا، عبر أدوات من التعذيب شبه النازى».

«ولقد تجنبت، وسأظل، الحديث عن هذا الحوار، ليس إشفاقا على عبد الناصر وعلى الناصرية، وإنما ترفعا عن شكاية فات أوانها، ويكفى الإشارة إليها كواحد لما يجب أن تتلقنه الناصرية من دروس، ولقد شعرت دوما بعزوف عن تلك الكتابات التى أمعنت فى الوصف المترهل لما حدث، فبدت وكأنها شكايات تتخذ طابع الاستعداء، وأحيانا الاستجداء».

«لكننى لم أزل أمتلك سؤالا محيرا أتمنى لو أن أحدا يمنحنى متعة التعرف على إجابته:

«لماذا كان ذلك كله؟».

«فالبعض يعذب سجناءه بحثا عن معلومات مختزنة فى أعماقهم، أو استكشافا لنوايا، أو توصلا لاعتراف، لكن عبد الناصر كان يعذب وفقط من أجل متعة تعذيب خصمه، وإذلاله، وتنقيته من أية شوائب للقدرة الجسدية أو النفسية أو العقلية على أن يتواصل مع: لا. . التى قالها أو همس بها أو انتوى أن يهمس بها يوما».

«فهل كان عبد الناصر أو الناصرية بحاجة إلى ذلك بينما كان التفاف الناس حولهما كافيا، وموحيا، وقادرا على القيام بهذه التنقية؟».

«إن وجد أحد من خبراء الناصرية أو أنصارها أو خصومها إجابة ممكنة الفهم، سأكون له ممتنا».

. . . .

. . . .

هكذا يركل (ولا نقول يقذف) رفعت السعيد كرة ثقيلة فى الهواء وهو يعرف أن أحدا لن يلتقفها، وهو يكتفى بهذه الركلة من أجل الفوز بهدفه مضحيا بما كان أمامه من فرصة تحقيق الهدف بالكرة نفسها.

(٢٨)

ولا يفرط رفعت السعيد فى الحديث عن التعذيب البدنى، لكنه فى ذكاء شديد يكتفى بعبارات صادقة تصور بشاعة هذا التعذيب، وذلك حيث يقول:

«... فبعد بضع عشرات أو مئات من الضربات ينفصل الجسد من منطقة الإحساس بالألم، ويبدو وكأنك تلاحق حوارا مع جسد آخر، وتكون منفصلا إلى درجة أنك تشفق عليه، لكن الآلام الحقيقية تأتى فيما بعد عندما يحملون هذا الجسد غير القابل للحركة إلى الصندوق».

(٢٩)

وفى فصل تال يتحدث الدكتور رفعت السعيد عن نقيصة من نقائص الناصرية وهى اعتقال النساء فيقول:

«... وطوال فترات السجن تحاشى السجانون اعتقال النساء، لكن محاولة الافتراس الناصرى للشيوعيين فى مطلع عام ١٩٥٩ لم تترك مجالا لأى عقل، أو أى إحساس إنسانى بالإنسانية».

«وهكذا امتلأ سجن القناطر (نساء) بعديد من المعتقلات، بينما سجن القناطر (رجال) ممتلئ أيضا بالسجناء تحت التحقيق».

(٣٠)

ونأتى إلى أعجب وأصعب وأفظع ما فى حديث رفعت السعيد عما يسميه الحوارات الناصرية، رامزا للتعذيب الذى لقيه هو وغيره فى سجون الثورة، وهو حديثه عن الإصابة القاتلة التى خرج بها هو نفسه من إحدى دورات هذا التعذيب، ونحن نراه فى هذا الحديث يحمل نفسه بعض المسئولية عن الإصابة التى لحقت به على هذا النحو الفظيع، ذلك أنه جلب لنفسه هذه القسوة حين سرى عن نفسه بالسخرية من رقة أحد الضباط المكلفين بالتعذيب، ومع أن للقصة جانبا آخر من انتقامه اللاحق من هذا الضابط، إلا أننا نؤجل هذا الجانب حتى نستوعب، فى سرعة، بعض ما حدث فى ذلك اليوم:

obeikan.com

«. . . وذات يوم تولى الحراسة ضابط شاب رقيق، دقيق الجسم، يتكلم ويصرخ ويشتم مثل كل الآخرين، ولكن فى نعومة مفرطة، اسمه سامى، وأسميناه فى همساتنا سمسم، سمعنى وأنا أفلت همسة إلى جارى فى الطابور «لو فيه ضرب سأختاره كى يضربنى»، لست أدرى كيف التقطت أذناه الهمسة، لمعت عيناه تلقيت منها رسالة تتوعدنى».

«ثم كان حوار ناصرى غير متوقع، ففى اليوم السابق مباشرة لبدء المحاكمة، تفجر الحوار الشرس، بلا مبرر وبلا مقدمات، وبلا منطق، تفتح الصناديق بعنف لتندفع إليها وحوش تحمل العصى والشوم، وأسياخ من الحديد يضربون بوحشية لا تتوافر حتى لدى الوحوش المتوحشة، وحين يتهاوى الجميع يغلق صندوق ليفتح الآخر».

«وفيما نتساقط فى دهشة مندهشة تحت رنين الركلات والضربات، وصدى الشتائم، اندفع باب صندوقنا وأتى المتوحشون، سمسم فى الطليعة عيناه تبحثان عنى، ثم تناولنى أحد المتحاورين، لكن عينيه تابعتانى حتى نلت ما يكفى ويزيد، ثم تناولنى فى حوار خاص، ألصقنى بالحائط، وتراكمت لكماته فوق صفحة الوجه المفتوحة، لكنها وبرغم قساوتها كانت رقيقة بالمقارنة مع مطارق السجان، يبدو أن لمحة ما أو نظرة ما انفلتت رغم أنفى، ويالها من نظرة غبية أبلغته بمدى استهزائى بضرباته، صاح سمسم: ياشاويش جمعة، وأتى الرد الأجش «أفندم»، فقال: «شوف ابن الكلب ده»».

«وتسلم جمعة ابن الكلب، الذى هو أنا، كفه انهمرت على وجهى، دارت الدنيا وأحسست بها تنقلب، لمحت كفه سميكا كمطرقة، أطبقت مطرقة على عنقى، وتحولت الأخرى إلى قبضة تدق فوق عنقى، ولم أشعر بشىء، أفقت بعد ساعات ملقى على بلاط الممر فى انتظار طبيب، الطبيب قال: مفيش حاجة، حاولت أن أقوم، شعرت برقبتى تشتعل بألم لا يمكن لإنسان أن يتوقعه، أو يتخيله، (ولم يزل هذا الألم المؤلم يلازمنى حتى الآن.. كسر فى إحدى الفقرات».

. . . .

. . . .

وفى ذكاء مبرر وصادق ينتقل بنا رفعت السعيد فى الزمان بعيدا إلى ما يصور قسوة وبشاعة ما حدث له حيث يقول:

«. . . نظر طبيب أوروبى فى صورة الأشعة وقال: حادث تصادم عنيف، قلت: ضربة بقبضة يد، قال: مستحيل، إنه تصادم حاد جدا، قبضة الشاويش جمعة لم ترد فى كتب الطب الأوروبية، والحوارات الناصرية خارج إطار تصورهم».

(٣١)

وربما كان من حق القارئ علينا الآن أن نشير إلى الجانب الآخر فى قصة هذا الضابط الغر الذى تسبب لصاحب المذكرات فى هذه العاهة، فقد رمت الأقدار به بعد سنوات ليكون فى متناول يد رفعت السعيد، ولم يجد رفعت السعيد مانعا فى أن يمارس لعبة الانتقام لبعض الوقت، لكنه يوحى لنا أنه بما جبل عليه من إنسانية سرعان ما توقف عن هذه اللعبة.

ولنقرأ هذه الفقرات من قصة حياة رفعت السعيد فى المنصورة بعد خروجه من السجون:

«. . . ومن جديد تبدأ روح المشاغبة القديمة فى استعادة أنفاسها غير متناسية الزمن الجديد، والقبضة الجديدة، واتخذت المشاغبة طابعا فرديا، فواحد من بصاصى رفيقنا (أحمد أركو) أبلغه أن ساكنا جديدا أتى إلى بيتهم هو ضابط فى قوات الأمن منقول من مصلحة السجون، زوجته تشكو لجارتها ما حاق به من ظلم، «قالوا له اضرب ضرب، وبعدين عاقبوه ونقلوه».

«ولم أحتج حتى إلى قليل من الذاكرة، فمن الكلمات الأولى عرفت أنه سامى (سمسم). إنه الوحيد الذى سأظل أذكره دوما، كلما آلمتنى رقبتى، وهى دوما تؤلمنى، وأفسحت لأحمد أركو مساحة من الشغب يبدو أنه بالغ فيها».

«رسائل تهديد إلى بيته، ومكالمات تليفونية تهدده، يخرج من بيته ليجد موتوسيكلا يندفع نحوه بسرعة جنونية ثم يتفاداه فى آخر همسة. . إلخ».

«وتباعدت عن الأمر لعدة أيام، فما كان لى أن أفقد الحذر منسكبا نحو الرفاق القدامى دون حرص».

«وذات صباح استدعاني مكتب المحافظ، دخلت لأجد (سمسم) واقفا، مد يده ليسلم، يدى رفضت بإصرار أن تصافحه رغم إلحاح المحافظ. كان المسكين مفزوعا، ومرتبكا، ويكاد يبكى، ويحكى قصصا خرافية عن محاولة اغتياله، ومحاولة اختطاف ابنه الصغير، والمحافظ يحاول أن يهدئ من مخاوفه، مؤكدا أننا لسنا دعاة عنف، لكن سمسم يستعيد قصة زميله عبد اللطيف رشدى (كان قائد فرقة التعذيب فى ليمان أبى زعبل، ومن هناك وبعد حادث اغتيال شهدى عطية، نقل إلى أمن أسيوط حيث أطلق عليه مجهول دفعة من رشاش.. ليموت)، كل ذلك وأنا مكتف بالصمت. كان الفزع فى عينى سمسم يؤلمنى، وحديثه عن زوجته وابنه يؤلمنى أكثر، وكانت رقبتى هى أيضا تؤلمنى، ولعل موجات من الألم قد تراكمت فى هذه اللحظة بالذات لتذكرنى بكل ما كان، لكننى وبصدق كنت أشعر إزاءه بالرثاء، فالذين حرضوه تخلوا عنه، وتركوه للفزع».

«لاحظ المحافظ أننى لم أنطق، ولم أصافح، ولم أبتسم، فتوجه إلىّ ملحا أن أصافح الرجل الذى علق كل شىء على مصافحة، قد تحمل معنى العفو أو المصالحة».

. . . .

. . . .

وهنا يفكر رفعت السعيد ويصل إلى قرار سريع، ويقرر، وينفذ.

وهو يلخص لنا ما هداه إليه تفكيره وقراره التحليلى فيقول:

«أما المصافحة فلا، وأما الشغب فيجب أن يوقف (هكذا أكدت لنفسى)، ثم اقترحت على المحافظ أن ينقل الضابط، وتساهل المحافظ وقال: اختر أنت.. أنقله إلى أى مركز؟ فقلت وكأنى أملى تعليمات: أحسن ينقل خارج المحافظة، ونقل سمسم خلال أيام، وفقد رفاقنا لذة المشاغبة».

(٣٢)

وإذا كانت غربة السجن وغربة الهروب وغربة العقيدة أمورا مفهومة، فإن رفعت السعيد عانى من غربة أخرى هى غربته مع الجماهير التى تغيرت سلوكياتها تحت حكم

الثورة، وهى غربة قاسية على النفس وعلى العقل أيضا، لأن ما حدث فى نظر الكثيرين كان قاسيا.

والشاهد أن رفعت السعيد تفوق إلى أبعد الحدود فى تقديم صورة المجتمع المصرى فى بداية عام ١٩٥٩ حيث بدأ فترة هروبه واختفائه بعد أن أتم ما حكم به عليه من قبل، وهو السجن لمدة ٥ سنوات، ثم هو لا يكاد يخرج حتى يفاجأ باعتقالات ليلة رأس السنة الشهيرة (١٩٥٨-١٩٥٩)، وهو بعد كل هذه السنوات التى انقضت يحاول أن يحلل بعض ما أحس به تجاه هذا المجتمع فى ذلك الوقت فيقول:

«والناس جميعا تغيروا، كم تجولت فى الشوارع الخلفية للقاهرة أتطلع إلى عيونهم لأكتشف اختفاء ذلك اللمعان الملهم، والذى كان قادرا أن يحفزنى فى الماضي، ويشعرنى أننى بما أفعل لست غريبا عنهم».

«أين ذهب هذا التألق؟ هل اختفى خوفا من القائد؟ أم يقينا به؟».

«ومع ذلك.. وبرغم ذلك لابد من عمل شىء ما».

(٣٣)

ونعود إلى فترة سابقة نتأمل فيها جهود زعيم صغير قدر له أن يتحمل المسئوليات والتبعات فى فترة باكرة من حياته.

ونحن نقرأ له ما يرويه عن تلك الفترة فنشاركه شعوره بالخوف من المسئولية وحجمها، ذلك أنه حين ألقيت على عاتقه مسئولية رفاقه فى الجامعة فقد كان لابد له من أن يعبر عن دهشته لوضعه حيث أصبح مسئولا عن قيادة رفاق لم يعرفهم من قبل، وليست له بهم علاقة وثيقة كمثل علاقته برفاق المنصورة، ومن العجيب أن هؤلاء كانوا يعيشون حالة من الحذر الغريب، وكان سببها أنهم (!!) هتفوا بحياة الزعيم (جمال عبد الناصر) الذى تقبل ذلك الهتاف بترفع مرير !!:

«... الأمر مختلف تماما، أنا مختلف، أحاول أن أبدو أكثر عقلا، وأقل اندفاعا، والرفاق مختلفون، أنا لا أعرفهم، ولا هم يعرفون مَنْ هذا القادم من الغيب ليرتب، ويأمر، وينهى، ويقرر. علاقتى بهم لا تسمح بهذا، وعلاقتهم أيضا».

«وهم تغيروا، فترة الاسترخاء المريح والهتاف الذى يجرى تقبله من الطرف الآخر بترفع مرير بحياة القائد والزعيم ضخ فى عروقهم خدرا من نوع خاص، وحتى فى أحلك الظروف. كانوا يبحثون عن قدر من الحنان يغلفون به كفاحهم ضد الحكم، وهم مختلفون عن رفاق الزمن القديم».

(٣٤)

ويحدد رفعت السعيد موقفه من الرئيس جمال عبد الناصر على نحو واضح وغير ملتبس، وهو موقف يتخطى النقد، كما يتخطى العداوة!! لكنه يقع أسير الاندهاش من اضطرار عبد الناصر إلى هذه المسالك التى دفع الشعب ثمنها، وهو يقدم هذا الموقف الحاسم فى عداواته من خلال قصة رفيقه على حنيطر، وبكل ما توحى به من الوضع الجديد، وسواء أصحت تفصيلات هذه القصة كلها أم لم تصح، وسواء أكانت حقيقية أم نصف حقيقية، أم لا حقيقية على الإطلاق، فإنها، بلاشك، تصور على نحو دقيق عقيدة رفعت السعيد تجاه عبد الناصر فى ذلك الوقت:

«. . . وشاب صغير عنيد يذكرنى بأيام طفولتى اسمه على حنيطر، قابلته فى سجن جناح، أتى محكوما عليه بعامين بتهمة أنه انطلق إلى الشارع فى ذات يوم تأميم القناة ليوزع منشورا أصدره الحزب ليؤيد قرار التأميم، ويهتف بحياة عبد الناصر بطل تأميم القناة (عبارات المنشور كلها تأييد للحاكم، وإشادة به، لكن توزيع منشور هو بذاته جريمة)».

«وكان على حنيطر يمتلك قصة طريفة سكبها فى أذنى ونحن نتباعد عن ضجيج السجن متجهين بمحاذاة السلك الشائك».

«أبوه وهو مدير مكتب بريد كان صديقا حميما وزميلا قديما لعم عبد الناصر حسين والد الرئيس، وكان عم أحمد حنيطر هو ولى أمر الطالب جمال بالقاهرة عندما كان طالبا فى الكلية الحربية، وكان بيت عم أحمد هو مهبط الفتى جمال كل خميس ليمضى الإجازة الأسبوعية. كان يتحاشى السفر لبيت أبيه حيث زوجة الأب، وكانت الست أم على، ولم يكن قد ولد بعد، تطعم وتأوى، وتغسل ملابس الفتى اليتيم الأم، بحنان

يحاول أن يعوضه عما فقد، ثم تخرج الفتى وأصبح ضابطا، وتباعدت السبل، ثم ظهرت صورته فجأة فى الصحف، ثم أصبح رئيسا».

«حاولت الست أم على أن تقنع عم أحمد حنيطر بأن يتصل بجمال لعله يحصل على ترقية، أو قدر من اهتمام، لكن الرجل عنيد، والولد عاق، لم يهتم بأى اتصال منذ تخرج وأصبح ضابطا، فكيف نطلب منه شيئا وقد أصبح رئيسا».

«ومرت الأيام حتى قبضوا على آخر العنقود، والابن الوحيد فى مسلسل بنات تواصل زمنا، وآخر العنقود مجرد شاب فى السابعة عشرة، وقررت أم على أن تضرب بعناد الأب وترفعه متحججة بقلب الأم، وأن جمال طيب ومش حيقول لأ، وبمعجزة حصلت على رقم من الأرقام التى توصل إلى الرئيس».

«دق قلبها عندما دق رنين التليفون، تصورت أنها ستندفع قائلة: إزيك ياجمال، أخبارك إيه؟ ولكن صوتا خشنا وعدوانيا رد عليها، قالت ببساطة: عايزة الرئيس، قوله مدام عمك أحمد حنيطر، هو عارفنى كويس».

«تنقلت المكالمة من صوت إلى صوت، وفى كل مرة يزداد الصوت خشونة وعدوانية، وهى تكرر وبلاملل ذات العبارة، أخيرا جاءها الرد: إذا فيه حاجة ابعتى طلبا مكتوبا على مكتب الرئيس. انهارت بجوار التليفون، وأقسم عم أحمد بالطلاق ألا يرسل أى طلب».

(٣٥)

ولا يقف حديث رفعت السعيد عن اغترابه عند حد، بل إن هذا الحديث يسيطر على كل رواياته، وعلى كل رؤاه، حتى إنه حين يذهب إلى سجن ذهب إليه من قبل، فإنه يحس بالغربة لأن السجن قد تغير، وها هو يتحدث عن سجن الواحات الذى قدر له أن يذهب إليه مرة أخرى فإذا به يجده شيئا آخر غير السجن السابق الذى عاش فيه، وإذا هو حتى فى السجن يحس بغربة من نوع عجيب يسمح للرومانسية أن تقارن بين سجن وسجن، وبين السجن ونفسه فى وقت غير الوقت، وانظر إليه وهو يقول:

«... لكنه ليس ذات المكان الرومانسى القديم جناح، إنه موقع أكثر عزلة، وهو أيضا بلا رومانسية».

«فهنا أسوار سجن حقيقى، وزنازين من حجر وأبواب وقضبان، والأهم من ذلك أن الماء يأتيه عبر مواسير عادية، وليس عبر هذا النبع أبدى الإغراء بالتأمل، وأن الزنازين أحلت محل الخيام المفتوحة دوما حتى فى أمسيات الصحراء الرائعة، وسجن المحاريق نموذج خاص، أسوار لكنها مفتوحة، مرة أخرى تسود نظرية «لا مهرب»، وفتحتها تقتادك إلى مزرعة جميلة بذلنا فيها أنهارا من عرقنا وجهدنا حتى أصبحت خضراء، ترويها بئر صغيرة لكنها تكفى».

«كان اختراع الزراعة حلا حكوميا سعيدا، فهو يرفع عنها عبء إطعام سجنائها، وهو يمنح السجناء الشيوعيين إمكانية أن يسكبوا آخر قطرات جهدهم من أجل التفوق على الصحراء. أربعون فدانا تم استصلاحها ظلت ولفترة طويلة، وحتى بعد إغلاق السجن، نموذجا يتفرج عليه زوار الوادى الجديد، وظلت لأمد طويل تسمى مزرعة الشيوعيين. كان سجناء الإخوان موجودين أيضا فى عنابر مستقلة».

«وما أن تودعنا الشمس متجهة إلى الغروب حتى نعود طوعيا، وكأن خيوطها إذ تنحدر تلقى شباكها علينا، وتجمعنا كل إلى زنزانته، وغلق الأبواب كأى سجن، وإلى الصباح».

. . . .

. . . .

«وكان الزمن فى سجن المحاريق غريبا هو أيضا، عبد الناصر فى أوج مجده السياسى، يصعد ويصعد، وأطروحاته تصعد معه، والصحف التى أصبحت متاحة، وإن متأخرة لأسبوع أو أكثر، تحمل أرقاما ومعلومات ومقالات وتحقيقات عن متغيرات تقلب الواقع المصرى الذى عرفناه، وعايشناه، وأقمنا كل بنائنا الفكرى على أساسه».

«الصحف تتحدث الآن وبحماس عن التأميمات، والاشتراكية والاتحاد السوفييتى الصديق، والزراعة التعاونية، والقطاع العام، ومشاركة العمال فى الأرباح والإدارة، والزيادة المتسارعة للإنتاج، وحقوق المرأة العاملة، وهى تصرخ بالعداء لأمريكا والإمبريالية والصهيونية. . و. . و. . كل ما كنا نقول به، وأحيانا أكثر».

obeikan.com

(٣٦)

ثم يتحدث رفعت السعيد عما أحسه أو اكتشفه من خطورة تأثير الدعايات الناصرية على أيديولوجية «حدتو»:

«. . . المهم بدأت تتكون فى عمق عقل حدتو، وفى وجدانها، حالة من التصديق لكل ما يقال، بل وإقامة أبنية فكرية عالية الطموح على تحليلات مستمدة، أو مبنية وفقط على ما يتدفق عبر هذا الثقب الإعلامى، ناسية أن الواقع الواقعى هو شىء آخر تماما، وأن الجهاز الإدارى الناصرى قد نجح فيما لم ندركه إلا بعد الإفراج عنا بزمن ليس بالقصير، وهو ابتداع أرقام، وإحصاءات ومعطيات، لا تتطابق مع الواقع، وأن الواقع الواقعى كان مختلفا فى كثير من جوانبه ونتائجه عن الخطط والمشروعات والمقالات والخطب التى تتربع على مساحات غير محدودة من الصحف الحكومية، وهى فى هذا الزمان.. الصحف الوحيدة».

. . . .

. . . .

«وعلى النقيض كانت المجموعة الأخرى التى كانت تسمى (الحزب الشيوعى المصرى) ترفض الثقب الإعلامى وكل ما يأتى به، لا تصدقه، ولا أى حرف منه، بل تكذبه تكذيبا غير علمى وغير متوافق مع الواقع، ومن عمق هذا التكذيب الذى استمد بعضه من عدم الرغبة فى إعطاء الخصم (حدتو) أية ميزة تاريخية تؤكد صحة موقفه القديم، أو أية مقدرة استشرافية له، ومن ثم تدين الموقف النقيض الذى هو موقفه».

(٣٧)

وحين يصف رفعت السعيد انتهاء سجنه ورفضه تأييد عبد الناصر وبقائه، من ثم، فى الاعتقال ثم خروجه (ضمن صفقة الإفراج عن الشيوعيين) فإنه يصر على أن يصف خروجه بأنه عودة إلى الغربة:

«ويمتد حبل الأيام فينسج أشهرا وسنين خمسا، وتنتهى فترة السجن، لكن السجناء فى هذه الأيام لا يفرج عنهم».

«فى أشهر سابقة كانوا يرحلون إلى القاهرة حيث يطلب إليهم كتابة أسطر يستنكرون فيها الشيوعية، ويؤيدون الرئيس عبد الناصر، ورفض الجميع، وبعدها أراحوا أنفسهم من عناء الترحيل، وعناء نقاش لا جدوى منه، وتعدلت الخطة، مَنْ يريد أن يكتب، يفعل ذلك عند مأمور السجن، ولم يفعل أحد، وكان نصيبى، لأننى لم أفعلها، بدلة معتقل بيضاء، بدلا من بدلة سجين زرقاء، وفقط».

. . . .

. . . .

«ثم تقع تطورات سياسية، متلاحقة».

«عبد الناصر يصرح لأريك رولو (جريدة الموند) بأنه ينوى الإفراج عن الشيوعيين».

«ثم بدأت حملة إفراج واسعة، ثم أصبحت شاملة».

. . . .

. . . .

«وأعود مرة أخرى إلى الاغتراب».

(٣٨)

وربما نعجب لهذه الغربة التى يصورها رفعت السعيد أو يشير إليها فى ثنايا حديثه عن حياته فيما بعد الإفراج عنه، لكننا سرعان ما نجد الإجابة على عجبنا فيما يرويه عن المناخ الذى عاش فيه فى مدينته المنصورة حين عاد إليها وحاول أن يعيش الحياة التى عاشها من قبل فى بيته ومع أسرته:

«. . . فالأعين تتوجه إلىّ بعشرات من الأسئلة المندهشة، فيم كان ذلك كله؟ غبت أحد عشر عاما كاملة، ذهبت وأنت تقنع الناس، أو تحاول، بأن عبد الناصر ديكتاتور ومعاد للديمقراطية، وعدت بعد كل هذه الرحلة، وأنت تمتدح عبد الناصر وتؤيده، ففيم كان ذلك كله؟».

. . . .

«. . . ويوجعك أكثر أن إجاباتك تتعثر فلا تجد سبيلا لا لإقناع، أو حتى شبه إقناع».

«فإن أفضت فى الحديث عن السجن خنقت الحديث عن تأييدك للرئيس، وإن أفسحت للتأييد مجالا، ففيم كان كل ذلك؟».

(٣٩)

على أن غربة رفعت السعيد فيما بعد الاعتقال لا تتوقف عند مشاعره الحائرة فى الإجابة عن أسئلة الناس عن حياته هو، وإنما هى تتعدى هذا إلى موقفه هو نفسه من تأمله لحياة الناس من حوله، وقد أصبحت هذه الحياة تمضى على غير ما هو منطقى أو ما يسميه رفعت السعيد «النفاق الأيديولوجى المفروض عليهم»:

«. . . والمعركة فى هذه المدينة التجارية هى أن تخفى ثروتك، وتسرى شائعات غريبة عن المخابرات التى تتجسس لدى الجزارين «فلان يشترى كم كيلو من اللحم أسبوعيا»، ربما حدث ذلك مرة، لكنه انتشر بسرعة البرق بحيث اعتاد أبى وأصدقاؤه على أن يشتروا اللحم من أكثر من جزار، ومعركة إخفاء الثروة كانت أكبر هموم تجار المنصورة، ومن هذه النافذة كان عداؤهم لعبد الناصر يطل فى كل لحظة، وكانت نظرات أقاربى تحتوى قدرا من الرفض لهذا الفتى الذى عارض عندما كانوا يؤيدون، ويؤيد عندما أصبحوا يعارضون».

«وبعد يوم أو يومين أراد صاحب هذه الضيعة المسماة بالدقهلية أن يتعرف على الوافدين الجدد، مدير مكتب المحافظ اتصل تليفونيا محددا موعدا . . . «وهات زملاءك معاك».

«وذهبنا . . مجموعة من المفرج عنهم، المحافظ ضابط (إسماعيل فريد) لم يكف عن الحديث عن دوره البارز فى الثورة، وتصميمه على حمايتها، وسكرتير عام المحافظة ضابط (عقيل مظهر) أبدى اشمئزازه عندما تحدثت (فى محاولة لتغيير مجرى الحديث) عن والده وأفكاره المتحررة (إسماعيل مظهر)، واكتفى بأن هز رأسه بحركة لا تعرف منها إن كان موافقا أم محتجا، وعيناه مضبوطتان على اتجاه موجة عينى المحافظ».

(٤٠)

ولا يبخل علينا رفعت السعيد بما اكتشفته بصيرته من حقيقة موقف ثورة ٢٣ يوليو من

التنظيمات الشيوعية، وهو الموقف الذى لخصته عبارات رجل للمخابرات عبد الفتاح أبو الفضل التى ذيل بها قرار منع نشر قرار حل التنظيم الشيوعى، ويعبر رفعت السعيد عن هذا بالسخرية من أن الثورة استكثرت على الشيوعيين أن تنشر لهم قرار حل تنظيمهم:

«. . . وذات يوم تلقيت دعوة ملحة لحضور كونفرنس عاجل لحدتو، سألت الداعى عن الداعى للاجتماع فقال هامسا: استصدار قرار بحل التنظيم».

«ولست أدرى أية حكمة حكيمة هبطت علىّ فرفضت الحضور ورفضت إرسال تأييد للقرار من بعيد، فإذا كان ثمة قرار مسبق بالحل، فلا مبرر لحضورى وتوقيعى عليه».

«ولكى أكون منصفا فأنا لا أزعم أننى كنت ضد الحل، بل كان الحل يتجسد أمام عينى كحالة تفرض نفسها، لكننى ربما بحس من دراسة التاريخ دراسة متأنية، أردت ألا يذكر اسمى ضمن مَنْ اتخذوا القرار».

«وهكذا انفرط العقد».

«تبددت آمال تعلقنا بها، وعلقنا عليها كل حياتنا، وكل مستقبلنا، وعلقنا الكثيرين غيرنا بها، فتحملنا عنهم وزر ما فعلنا بهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر».

«وفى المساء عندما وصل الخبر للجريدة، صدر قرار بمنع النشر (حتى نشر قرار الحل استكثروه عليهم)، وأتى بلاغ عاجل من مكتب عبد الفتاح أبو الفضل (نائب مدير المخابرات السابق ومسئول الرقابة فى الاتحاد الاشتراكى) ليحذر تحت خاتم «سرى جدا» من الاطمئنان لهؤلاء الشيوعيين، فهم وإن حلوا التنظيم فلازالوا يتمسكون بما هو أخطر وهو الفكر الماركسى».

«عرضت الخطاب على خالد محيى الدين رئيس مجلس الإدارة، فهو موجه له بصفته عضوا فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى (كنت قد أصبحت مديرا لمكتبه)، قرأ. . نظر إلىّ. . نظرت إليه. . ولم ينطق أحد منا».

(٤١)

ومع هذا فإن رفعت السعيد يوحى إلينا بعناد السياسى القديم، والأيديولوجى

المتمرس أنه فى قرارة نفسه لم يشأ أن يستسلم لهذا القرار، وهو يعبر عن صدمته فى صدور مثل هذا القرار على نحو ما يوحى بجسامة الخسارة التى تمثلت فى هذا الموقف:

«. . . فى سريرى فى البنسيون أحسست بقطعة حجر تسحق قلبى، وبركام يتهاوى فوق رأسى، وانسابت دموع صامتة موجعة، لعلها أرادت أن تؤكد لى أن قرار الحل ليس نهاية المطاف إلا لمن أراد ذلك، وإن بالإمكان تجاوزه. . وتخطيه. . وهو ما كان فيما بعد».

. . . .

. . . .

وفيما بعد يزيد رفعت السعيد هذه الفكرة وضوحا بعبارات حاسمة يريد أن يبتعد بها عن جوهر المرض، وإن لم ينجح فى أن يبتعد بها عن التشخيص الصائب:

«وإذا تحدثت طويلا عن معاناة فردية فى مواجهة الناس، سأفسح أسطرا لمعاناة من نوع آخر، خرجنا لنجد عبد الناصر فى قمة مجده (إبريل ١٩٦٤)، الجماهير التى اعتدنا التحدث عنها أو باسمها تلتف حوله فى حالة من الوجد الصافى المتوهج، والخصوم الذين حاربناهم يرفضونه، والبرنامج الذى أعددناه يتحقق الكثير منه (لعل هذا التحقق كان شكليا، فما أن تتلامس مع مكوناته حتى تكتشف خواء وفسادا)، وعبد الناصر كأنه يشكو حقا، أو كأنه يوجه الحديث الشاكى نحونا، يتأوه فى كثير من أحاديثه «أنا أبنى اشتراكية بدون اشتراكيين»، وتلهب هذه العبارة خيال الكثيرين منا، فها هى الاشتراكية تريد أن تبنى نفسها على أرض الوطن، فقط هى بحاجة إلينا، لكنك ما أن تضع قدمك عندهم حتى تضيع فى متاهات من التسلط العلوى، والعمل الشكلى، والعيون المتلصصة على كل حركة (وهو ما كان من الصعب اكتشافه عند البدء)».

(٤٢)

ويصل رفعت السعيد فى تصوير تطور علاقة اليسار بعبد الناصر إلى رواية ما حدث فى مرحلة تأسيس التنظيم الطليعى، ومفاوضة اليساريين القدامى على الانضمام إليه، وهو يروى ما يرويه من شرفة التاريخ فيبدو وقد ارتدى مسوح الحكمة التى لم يقدر لليسار نفسه أن يرتديها فى ذلك الوقت.

ومن العجيب أن نقرأ هذا الذى يرويه رفعت السعيد فى سلاسة فنحس به صادقا من دون أن يتنبه إلى حقيقة أن نظام عبد الناصر قد وظف عملية تكوين أو تشكيل التنظيم الطليعى نفسها لتكون مصيدة جديدة وحقيقية للشيوعيين، أو بمعنى علمى أدق ليكون مرشحا أو فلترا يضمن فرز الشيوعيين وقدرتهم على الاندماج فى كيان بيروقراطى شاب أو فتى من طراز التنظيم الطليعى على صورته التى نشأ بها.

ونحن نقرأ ما يرويه رفعت السعيد فنراه يكاد يصرح بهذه الفكرة، لكنه يفعل ذلك على استحياء، وربما كان هو استحياء الإنسان المفكر الذى وجد نفسه يقع فى المصيدة (أو مر فى المرشح) على الرغم مما كان يتمتع به من بصيرة قادرة على أن تجنبه هذا الوقوع:

«. . . وبعد أسبوعين تقريبا زارنى رفيق، حكى ما يجرى فى القاهرة، البعض اندفع إلى مصيدة التنظيم الطليعى (تنظيم سرى أقامه عبد الناصر)، وقبل شرطا أساسيا هو أن يقطع علاقته بحدتو، والبعض يتطلع إلى الطليعى، والبعض ينتظر، كانت خطة القيادة واضحة، فقد قالت منذ زمان السجن بوجود مجموعة اشتراكية فى قمة السلطة، ومن ثم فلا بأس من السعى للتوحد معها، وكان المنضمون للطليعى مجرد طليعة، تستكشف الطريق تمهيدا لدخول الجميع. (فى البداية انساق نحو الطليعى زكى مراد، ومحمد شطا، وشريف حتاتة. . وآخرون ولم يكن فى الأمر ضعفا ولا عيبا، وكان اتساقا مع موقف عام، لكن حدتو هى التى فقدت اتساقها، فلها ساق داخل النظام وساق خارجه، وما كان لأمر كهذا أن يستقيم طويلا».

«والوضع أصبح معقدا، نصفك عند الطرف الآخر. نصفك يبقى معك، يحاول أن يفرض وجوده، أو يفترضه، لكن عقله معلق بالآخر، يسعى كى يتعلق بأذياله، وحتى وإن أراد الاستمرار مستقلا فإنه لا يجد ما يقوله سوى أنه يؤيد الرئيس».

(٤٣)

ونأتى إلى أروع فقرة فى هذه المذكرات، بل فى كل المذكرات التى تحدثت عن معاناة اليسار المصرى، وهى فقرة تنبئ عن جوهر الإيمان الحقيقى المجرد من رطانة

النظريات، والمدرك لحقائق الأمور على وجهها الصحيح، ولست أريد أن أحرم القارئ من لذة الوصول إلى الحقيقة على نحو ما وصل إليها رفعت السعيد نفسه حين يروى تفصيلات طريفة وذكية عن اجتماع محلى هو اجتماع المنطقة الأولى فى الدقهلية الذى رأسه هو نفسه، وإذا بالحكمة تأتى كعادتها على لسان فلاح ذكى بينما المنظرون من أمثال صاحب المذكرات غائبون عن الحكمة !! :

. . . .

. . . .

«وأتذكر اجتماع المنطقة الأولى».

«قررت بناء على طلب من المركز دعوة لجنة منطقة الدقهلية إلى اجتماع، وكان واسعا، حوالى الثلاثين من الكوادر بعضهم سايرنا فى رحلة السجن، والبعض أفلت، وبقى يحاول أن ينبت ذات الأفكار فى تربة تغير مذاقها، وتغيرت قوانين الفعل فيها».

«لكن الجميع كان منفعلا بفعل اللحظة الجميلة، أن نلتقى مرة أخرى على ذات المسار، كرئيس للاجتماع تأملت هذه المجموعة وطاف بخاطرى خيال باهت، بهؤلاء يمكننا أن نبدأ وأن نهز الدنيا (أى دنيا؟ وفى أى اتجاه تهزها؟ ظل هذا السؤال شوكة فى حلقى)، تحدث الجميع بانفعال، والبعض بافتعال ومبالغة؟(فى بعض الأحيان تكون المبالغة علاجا للتردد أو الخوف). العائدون من السجن قدموا تصوراتهم، وتحدثوا عن رفاق وأرقام لم تزل تنتظر مياه الرى القيادية لتعود فتزهر وتنشط، والذين نجوا من السجن تحدثوا عما فعلوا، وعمن بقى، وكيف بقى، وفى خضم الإحساس المزدهر بأننا كثيرون لم نزل، ومستعدون لم نزل، كى نقول ونفعل، لاحظت أن الأكبر سنا فينا لم ينطق منذ تراكمنا مع بعضنا البعض. (عم الحاج سيد، فلاح من إحدى قرى نبروه، من قادة انتفاضة الفلاحين فى بهوت ١٩٥٠، نال أرضا من الإصلاح وانهمك فى مسار العمل التعاونى ليصبح واحدا من قادة التعاون الزراعى)، عم سيد لم ينطق، واستدعيته للحديث».

«كان باردا على غير العادة، تركته زمان وهو يتقد حماسا، إخلاصه بقى كما هو، لكنه اكتسى بمذاق خاص جدا، بهدوء سأل: إيه ده اللى إحنا عاملينه؟»،

obeikan.com

«ـ ده اجتماع».

«ـ اجتماع إيه ؟».

«ـ لجنة المنطقة».

«ـ منطقة إيه ؟».

«ـ منطقة الحزب الشيوعى المصرى «حدتو» بالدقهلية».

«ـ ليه ؟».

«ـ عشان نعيد تنظيم أنفسنا».

«ـ ليه ؟».

«واستمرت أسئلته الموجزة التى تشبه كل منها وخزة إبرة فى مكان موجع، لكنه كان يختزن قدرا كافيا من الحكمة ومن الحب لنا دفعه إلى تقسيط الوخزات قطرة قطرة».

«استمرت. . ليه؟ وأنا أجيب بحرص مَنْ يعرف طبيعة المنزلق».

«ـ ليه ؟».

«ـ لنواصل عملنا الحزبى».

«ـ ليه ؟».

«ـ لنحقق أهدافنا».

«ـ ليه ؟».

«آه. . وقع المحظور. . حاصرنى الماكر بسؤاله الساذج والمتكرر حتى قلت: لنؤيد ونحمى ونواصل منجزات عبد الناصر».

«وابتسم الفلاح الهادئ الماكر، وسأل: ودى تساوى إننا نقعد فى جلسة سرية ولو مسكونا نتسجن كل واحد عشر سنين، عايزين نؤيد، نؤيد علنا، إنما سرى لما نكون حنعارض، وبدأ عم سيد يعدد لنا أبوابا للمعارضة ضد الفساد المتراكم، والتحكم،

وافتقاد الديمقراطية، كان مغروسا حتى عنقه فى الاتحاد الاشتراكى (واحد من قادة المحافظة)، ومغروسا بذات المساحة فى التنظيم التعاونى، ويرى ويعانى كل يوم ما لا نلاحظه نحن من على السطح، أو على صفحات الصحف الخاضعة لعملية تنظيف تجريها رقابة صارمة ومستديمة».

«أحسست أن الرجل يوشك أن يغير مسار الاجتماع بعد أن سكب أمواجا من ماء بارد على حماسنا السابق، وجعلنى شخصيا بحاجة إلى إعادة تفكير فى كل ما نفعل، وبصعوبة نجحت فى إنهاء الاجتماع بأقل قدر من الارتباك، وفيما الرفاق ينصرفون أطبقت أصابع عم سيد على ذراعى، انتزعنى من حفل التوديع المليء بالسلامات ليهمس فى أذنى:

«عايز تتسجن كام سنة كمان علشان تتعلم؟ لسه برضه طايش؟ إذا نفسك تؤيد عبد الناصر روح الاتحاد الاشتراكى، وإذا عايز تعمل «تنظيم سرى حقيقى» يبقى بلاش المظاهرة دى.. كفاية ثلاثة أو أربعة»، ثم قال: «فكر.. وأنا جاهز».

«فكر» أية دعوة هذه؟ سهلة هذه الكلمة، ولكن الأصعب أن تمرق بها عبر تعقيدات الوضع الناصرى، وعبر مواقفنا المعقدة منه».

. . . .

. . . .

على هذا النحو ينبئنا رفعت السعيد بنعومة شديدة أن العمل الوطنى السرى كان قد انتهى، وأن الفضل فى ذلك كان لا للتعذيب وحده، وإنما كان فى المقام الأول لتعقيدات الوضع الناصرى، ومواقف الشيوعيين المعقدة منه!!

(٤٤)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن رفعت السعيد الذى قضى سنوات السجن فى تأمل يكشف لنا عما قدر له أن يكونه من فكرة كاملة عن الفساد الذى تخلق على يد الثورة وقراراتها.

بل إن الدكتور رفعت السعيد يتحدث عما أدركه هو نفسه فى مرحلة مبكرة من

الملامح الصارخة المنبئة عن الفساد الإدارى فى ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وهو يصور بالقصة التى يرويها جبلا ضخما وكبيرا من الفساد الذى نشأ وترعرع فى عهد الثورة بفضل تدخل الدولة غير المبرر فيما لا تملكه، وفيما لا تجيده، وهو ما حدث على سبيل المثال فى أراضى الإصلاح الزراعى التى تأممت وأصبحت فور تأميمها مرتعا خصبا للفساد، وربما أن الجديد فيما يرويه رفعت السعيد هو هذا الفساد الثورى!! إذ أن الخلفية الذهنية فى وجداننا لا تكاد تتصور (وإن لم تنكر) سرعة نشوء الفساد وازدهاره على هذا النحو الذى حدث منذ بداية عهد الثورة.

ومن الطريف أن رفعت السعيد لا يجد حرجا فى أن يذكر قصة الفساد الذى شهده بالأسماء الصريحة !!

ومن الجدير بالذكر أن رفعت السعيد كان من الذكاء بحيث لخص بهذا الموقف طبيعة الصراع الكامن بين طبقة رجال الأعمال الشرفاء الحقيقيين من طراز والده من ناحية، وبين نظام عبد الناصر من ناحية أخرى:

. . . .

. . . .

«. . . عدت ذات يوم فى نهاية عام ١٩٥٢ إلى المنصورة فى إجازة (كنت قد التحقت بكلية حقوق جامعة إبراهيم)، وفيما أجلس إلى أبى فى مكتبه بالورشة نتجاذب الحديث، دخل شخصان، رحب أبى بأحدهما كصديق قديم، وبالآخر فى تحفظ مَنْ يتقابل لأول مرة».

«القديم منهما هو أحد نظار زراعة البدراوى عاشور، وكان أبى وطوال سنوات عديدة متعهدا بإصلاح كل ماكينات ضرب الأرز، ومطاحن وجرارات دائرة البدراوى باشا».

«وكان الإصلاح الزراعى قد أتى، استولى على الأرض وعلى كثير من الماكينات، ومنها مطحن كبير، بعد التحيات والسلامات قال الصديق القديم: «كرنك ماكينة الطحين ماركة (كروسلى) إللى عندنا يساوى كام»، قال الحاج: «ده إذا لقيتوه»،

فالطراز قديم، والكرنك لا يمكن تصنيعه فى مصر، وقد يحتاج الأمر لاستيراده من الخارج».

«فكر أبى قليلا وقال: «هناك ماكينة من ذات الطراز فى المنيا وأصحابها عايزين يبيعوها، ممكن تشتروها وتاخدوا منها الكرنك».

«وبعد محاورات ماكرة أفصح الرجل عن الحقيقة، الكرنك سليم لكن البيه مفتش الإصلاح الزراعى الجالس صامتا طوال الوقت يقترح عمل محضر إنه كسر، ثم فاتورة من الحاج بثمن باهظ جدا، ثم يقسم الثمن على ثلاثة».

«صرخ أبى بشتائم عالية وطرد الاثنين، وفى ثورة الغضب لم نلحظ أن الاثنين انسحبا وانسحب خلفهما صديق قديم لأبى، كان يجلس معنا، ويمتلك ورشة صغيرة جدا فى شارع سيدى عبد القادر اسمه الأسطى محمود شحاتة».

«وما أن اختفى الضيوف حتى انحنى أبى نحوى قائلا: آدى ياسيدى الثورة بتاعتك».

«كان أبى مع الإصلاح الزراعى، لكن هذا الفساد المبكر أفزعه، وأفزعه أن يلتصق الفساد بالشىء الجميل «الإصلاح الزراعى».

«وتمضى الأيام، فقد أبى أهم زبائنه لأنه رفض اللعبة الجديدة مع أكثر من زبون، وتمددت ورشة الأسطى محمود لتتحول إلى منجم ذهب، وتوالت العمارات التى يمتلكها، وظهرت سيارة بويك أمام ورشته الجديدة».

«ويزداد أبى عداء لعبد الناصر».

«ليس غيرة من الأسطى محمود، فقد ظل دوما قادرا على أن يفعل مثله وأكثر، وإنما رفضا لما توالى من فساد، وتعبت كثيرا، دون جدوى، فى مناقشات امتدت حتى آخر الأيام كى أفرق بين «الإصلاح الزراعى» كعدل اجتماعى ضرورى، وبين الفساد الذى ظهر وتكاثر فأفسد مذاق كل شىء».

«لكن أبى ظل رافضا ومؤكدا أن كلهم حرامية، ورغم إصرارى أن بعضا من

الديمقراطية يمكنه أن يقلل من الفساد، لم يقتنع أبى، وظل على عداء لعبد الناصر إلى درجة أنه كان لديه خادم فى المنزل اسمه جمال، فكان يناديه «ياواد ياعبد الناصر ياابن . . . »، واعتاد منه الخادم هذه المناداة الودودة، وحتى رحل أبى كنا دوما على خلاف حول هذا الموضوع، لكن تعاظم ثراء الأسطى محمود كان دوما يفرض حالة من التآكل على ما أطرح من حجج».

(٤٥)

ويقدم رفعت السعيد معلومات فى غاية الأهمية عن حقيقة موقف طلاب الجامعة فى العام الأول للثورة، الذى كان بمثابة عام حاسم فى تاريخ الحركة الوطنية والطلابية على حد سواء، وهو حريص على أن يصور توزع توجهات زملائه ما بين الشيوعيين والإخوان المسلمين، وهو ينجح فى أن يصور الشيوعيين قادرين على الوجود إلى جوار الإخوان، حتى مع دعم الثورة الواضح للإخوان وتحالفها معهم، وهو يستشهد على صواب ما يرويه بما يذكر أنه حوار دار بين جمال عبد الناصر وخالد محيى الدين :

. . . .

. . . .

«وتظل ذكريات هذا العام الملىء بالحيوية عالقة بالذاكرة».

«ذات يوم أتى رفيق فى عجلة من أمره يحمل رسالة من مسئول قسم جامعة فؤاد (القاهرة) علموا بالصدفة أن عبد الناصر سيزور كلية الحقوق، وأن الإخوان قد استعدوا بحشود ضخمة معلنين تأييدهم له، وأنهم سيستعدون لهذه الزيارة بتمشيط جامعة فؤاد من كل خصومهم، جمعنا حوالى مائة طالب من أعضائنا وأعضاء الجبهة لنصل إلى حقوق القاهرة قرب الظهر، فنجد رفاقنا وأصدقاءهم وقد تعرضوا لمذبحة حقيقية، ونجد حسن دوح قائد الطلاب الإخوانيين ممسكا بالميكروفون فى حشد يضم آلاف الطلاب، وعبد الناصر واقف إلى جواره هو وبعض أعضاء مجلس الثورة».

«كان حسن دوح يصرخ متحديا : «يارجل الثورة أعطنا حرية فى العمل، وساعتها سنقول للشيوعية الملحدة اخرجى من بلادنا، ونصيح فيهم : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده».

«توقفنا نستمع، فما من مجال لفعل أو شبه فعل، وانتهت المظاهرة المصنوعة وتفرق الجميع إلا نحن، بينما دخل قادة الثورة إلى مكتب د. مورو رئيس الجامعة، بقوا هناك بعض الوقت يكفى كى نستجمع قوانا، ونستجمع أنفاسنا، وبينما عبد الناصر والضباط يخرجون ليركبوا سياراتهم، وجدونا نسد عليهم الطريق هاتفين، مطالبين بالديمقراطية، وبالدستور، وبكل نقاط الخلاف بيننا وبين حركة الجيش».

«ارتبك عبد الناصر، توقف، تأملنا مليا، لعله تساءل من أين أتوا بعد كل ما كان؟ لم نقف طويلا، فقط أسمعناه صوتنا ورأينا ثم تنحينا (بعد زمن طويل علمت أن خالد محيي الدين كان بين ضباط القيادة الحاضرين، وأنه ركب السيارة مع عبد الناصر الذى التفت إليه قائلا: برضه العيال بتوعكم جدعان)، كان عبد الناصر قد اتفق مع الإخوان ليتظاهر بقوتهم، وليحرج مركز خالد محيى الدين، فجاءت هتافاتنا، غير المخططة، سندا لخالد لم يتوقعه جمال».

(٤٦)

ويمضى رفعت السعيد فى تصويره لأحداث ذلك العام وما حفل به من نشاطه هو وإخوانه الشيوعيين، وهو لا ينسى فى وسط هذا الحديث أن يثأر لنفسه وللشيوعيين وللطلاب من الدكتور سليمان الطماوى (وهو يذكره بالاسم الصريح) الذى كان يلمح للثورة ورجالها بضرورة اتخاذ قرار قاس ضد هؤلاء الطلبة، ولا مانع عنده من أن يصل إلى الإعدام:

. . . .

. . . .

«وكان عملنا فى الكلية نشيطا، بل ومتفجرا، وحتى بعد أن قبض علىّ ظل متماسكا، ونفذ رفاقنا اعتصاما شهيرا فى الكلية خلال أحداث مارس ١٩٥٤، وانتهى بالطبع بحملة اعتقالات واسعة، إلى درجة أننا عندما ذهبنا لنؤدى الامتحان ونحن فى السجن، كان هناك سرادق يضم مئات من المعتقلين، وأتى د. سليمان الطماوى، وكان أيامها واحدا من رجال هيئة التحرير، ليصرخ فى وجهى محملا إياى مسئولية اعتقال كل هذا الحشد».

«وللدكتور سليمان قصة تستحق أن تروى، فبينما كنا نصعد من عملنا فى الكلية، ويتزايد نشاطنا، عقد اجتماع فى مقر هيئة التحرير لمناقشة الوضع فى الكلية، وحضره د. سليمان الطماوى وعدد من الطلاب كان من بينهم صديق لى هو طاهر القاضى، وكان عضوا حديثا فى تنظيمنا، وطلبنا منه أن يستمر فى نشاطه فى هيئة التحرير حتى نعرف ما يجرى هناك، وذات ليلة أتى طاهر القاضى إلى بيتى ليوقظنى فى منتصف الليل عائدا لتوه من الاجتماع، كان منزعجا غاية الانزعاج، فالدكتور الطماوى قدم نصيحته للحكام، قد أعدمتم اثنين من العمال فسكت العمال جميعا، ويحتاج الأمر إلى إعدام اثنين من الطلاب كى يصمت الجميع».

«ولست أدرى كيف أقنعت طاهر بأن يعلن ذلك فى الكلية (وكان عملا يفتقد الحكمة بكل المعايير)، وفى اليوم التالى عقدنا مؤتمرا طلابيا وتحدث طاهر القاضى بما كان (بعدها بفترة قبض عليه متهما بالتآمر لقلب نظام الحكم، وسجن خمس سنوات)».

«وكان بالطبع معنا فى السرادق يؤدى الامتحان».

«وكانت فرصة للدكتور الطماوى كى يتشفى فيه، وفىّ، وفينا جميعا».

(٤٧)

هكذا يحاول الدكتور رفعت السعيد أن يقنعنا أن الشيوعية كانت تتمتع بأرضية كبيرة فى بداية عهد الثورة، وكأنه يحاول أن يقنعنا فى الوقت ذاته بمدى نجاح الثورة فى محاربة الشيوعية حربا لا هوادة فيها، انتهت إلى ما انتهت إليه الحركة الشيوعية المصرية، وفى هذا الصدد فإن رفعت السعيد لا يفوت فرصة رواية بعض مظاهر ترحيب الجماهير الجامعية بالشيوعية، كما يروى بعض الاستجابات العميقة التى شكلت وجدان مجموعة من الشبان الذين يفخر بهم رفعت السعيد عن جدارة وحب، وهو يشير بالاسم إلى الشاعر العظيم نجيب سرور الذى تحول على يديه من الفاشية إلى الشيوعية.

. . . .

«ولعله من المثير للدهشة تلك السرعة التى نما بها عملنا الجامعى، الناس كانت جاهزة تماما للاستماع إلينا، الكثيرون انضموا إلينا بمجرد التلامس، تذكرت حكاية الورق الذى يتشرب الحبر، كنا مثله، نستجمع الكثيرين حولنا بسرعة فائقة».

«لم أزل أذكر كيف جندت طالبا أصبح شاعرا موهوبا فيما بعد، نجيب سرور، أتى إلىّ يحمل فى يده قصيدة صارخة فى دفاعها عن الفاشية، مؤكدا أن شعب مصر لن ينصلح حاله إلا على يد هتلر جديد، طلب أن أنشرها فى مجلة الحائط، رفضت، ناقشته طويلا، لم يبد تفهما كافيا، أمهلته للغد، أعطيته ديوان «إصرار» لكمال عبد الحليم، فى اليوم التالى أتى وهو يقطر انبهارا، سألنى مَنْ هو؟ قلت: إنه واحد من زعمائنا، قال ببساطة: أنا معه حيث يكون، وانضم إلينا».

. . . .

. . . .

(٤٨)

كذلك يروى رفعت السعيد قصة تورط مجموعة من تلاميذه أو زملائه التالين فى محاولة لاغتيال الرئيس عبد الناصر بعد أن قادوا الاعتصامات عام ١٩٥٤، وكانت النتيجة أن قبض عليهم بتهمة الاغتيال:

«ولم أزل أذكر قصة فؤاد قنديل، ويحيى عبد الرشيد، ومحمد توكل، وكيف تركتهم حين سجنت وهم لم يزالوا نبتا غضا، لكنهم ملأوا الكلية ضجيجا، وأسهموا فى قيادة الاعتصام عام ١٩٥٤، وبعدها قبض عليهم بتهمة الشروع فى مؤامرة لاغتيال عبد الناصر (عندما التقينا فى السجن أكدوا لى أن عميلا للمباحث حاول استدراجهم موحيا إليهم أن هذا هو الطريق الوحيد للخلاص من حكومة الضباط، لكن فؤاد شرد بذهنه قليلا وقال: أذكر أن الرفيق مجدى (أنا) قال: إن الماركسيين يجب أن يرفضوا الإرهاب الفردى، ورفضوا، ومع ذلك قبض عليهم، عذبوا فى السجن الحربى تعذيبا يليق بمتهمين بمحاولة اغتيال عبد الناصر، وحاولوا انتزاع أى اعتراف منهم يمكن أن يمنح ماكينة الإرهاب الوحشى مبرر الاستدارة الحاسمة ضد الشيوعيين، وضد حدتو

تحديدا، لكنهم رغم حداثة السن وحداثة التجربة، كانوا رجالا، ثم أكملوا طقوس رجولتهم، إذ وقفوا أمام محكمة الثورة ليقدموا الأدلة على تعذيبهم تعذيبا وحشيا (كان السجناء من الإخوان يعذبون لكنهم أبدا لم يعلنوا ذلك أثناء المحاكمات أملا فى العفو أو تخفيف العقوبة، أو حتى تجنبا لتعذيب أشد)، وحكم على كل منهم بالسجن خمسة عشر عاما أشغالا شاقة، لكن وقفتهم هذه أعادت ملفات قضايا الشيوعية من محكمة الثورة، إلى القضاء العادى، بعد أن كانت قد أرسلت إليهم فعلا».

«ولقد قضى هؤلاء الرفاق فترة سجن صعبة فى ليمان طرة، وحتى عندما أفرج عن الشيوعيين جميعا عام ١٩٦٤ لم يفرج عنهم بحجة أنهم متهمون فى قضية اغتيال، وليس فى قضية شيوعية، وبقوا زمنا حتى تمكنا من الإفراج عنهم».

(٤٩)

ويتحدث رفعت السعيد عن الغربة الشديدة التى عانتها حركة «حدتو» مع الرئيس عبد الناصر ونظامه، مقدما ما يعتقده سببا فى هذا الصدام المتأزم بين أصدقاء سابقين:

«كان صيف ١٩٥٣ ساخنا، وربما أكثر مما يجب».

«فالتصادم بين حدتو وحركة الجيش بلغ مداه، وربما كانت حدته نابعة من أنه تصادم بين أصدقاء سابقين، كل منهما يعرف الآخر جيدا، وربما كان عبد الناصر يتحسب ويخشى من وجود ونفوذ، أو بقايا نفوذ لحدتو فى الجيش (عندما انضم ضباط من حدتو إلى حركة الضباط الأحرار، تصور عبد الناصر أن هذا هو كل رصيد حدتو فى الجيش، واطمأن إلى أنه قد عرفهم حصرا، لكنه فوجئ بعد ليلة الثورة بأن لحدتو ضباطا آخرين، وذوى رتب رفيعة، وفى مواقع حساسة، ولم يكن هو يعرف أية علاقة لهم بحدتو، مثل القائمقام يوسف صديق، ومثل عبد المجيد نعمان ضابط لاسلكى الطائرة الخاصة بالملك، ولم يعرف عبد الناصر أنه شيوعى إلا عندما قبض عليه كواحد من الضباط الموالين للملك، فإذا بحدتو تطلب الإفراج عنه لأنه عضو فيها، وقد أثار ذلك هواجس عديدة ظلت تطارد عبد الناصر لفترة طويلة، فإذا كان بإمكان شيوعى أن يكمن فى طائرة الملك، فلم لا يتمكن غيره من أن يكمن فى أعشاش الحكام الجدد)».

«وربما لأن قيادة حدتو كانت تستشعر بعضا من عقدة الذنب، فقد شاركت، ونظمت، وأسهمت، وأيدت هذا الذى أصبح الآن ديكتاتورية عسكرية».

«والمثير للدهشة أن عبد الناصر قد ركز أكثر هجومه على حدتو دون غيرها من المنظمات الشيوعية التى كانت هى الأخرى تهاجمه، وربما بألفاظ أكثر جسامة مما تفعل حدتو».

«قال إنه يعمل فى سكرتارية مجلس قيادة الثورة، وقدم لى مجموعة بالغة الأهمية من الأخبار الخاصة بمفاوضات الجلاء، وأخبارا أخرى بالغة الأهمية، وبالمصادفة وفيما ندردش ونحن فى طريق العودة، قال: إن عبد الناصر كان سعيدا جدا بعد حملة أغسطس ضد حدتو، وأنه قال لأعضاء المجلس: «هنئوا زكريا، لقد ضرب حدتو فى مقتل».

(٥٠)

ونأتى إلى ما يجود علينا رفعت السعيد به من فصول ممتعة من قصته مع البطل العظيم يوسف صديق، وهو يبدأ برواية تفصيلات أول لقاء بينهما، وقد تم اللقاء بناء على رغبة يوسف صديق فى أخذ رأى قائد مسئول فى «حدتو» فى عرض قدمه له الرئيس عبد الناصر بأن يكون سفيرا لمصر فى الهند لتنسيق استفادة مصر من تجربة الهند.

وها هو رفعت السعيد يلتقى بيوسف صديق بناء على طلبه ويستمع إلى حديث القائد الثورى العظيم ويصارحه بأنه لا يستطيع أن يعطيه رأيا فى مسألة معقدة كهذه، لكنه يقترح عليه اقتراحا تصوره حلا لكنه فى واقع الأمر كان السبب فى نكبة جديدة ليوسف صديق وزوجته وحركة «حدتو» نفسها:

. . . .

. . . .

«وسرعان ما يوضع المسئول المحدود الخبرة (رفعت السعيد يتحدث عن نفسه بهذه الصفات) فى امتحان صعب آخر».

«كان يوسف صديق قد أبعد عن موقعه فى مجلس قيادة الثورة، وبعدها بفترة اتصل بى رفيق من إحدى خلايا كلية الحقوق اسمه محمد حلاوة، وكان على علاقة قرابة بيوسف صديق أو بأحد أصهاره، وقال العبارة ذاتها: «أحد كبار الضباط يريد أن يقابل الرفيق المسئول».

«ورتبنا اللقاء فى فيلا أحد رفاقنا بالعباسية، وفى غرفة الصالون تبدى الفارس الشامخ شخصا أسطوريا، شعيرات بيضاء تكسو فوديه فتمنحه مهابة خاصة».

«كدت أرتجف وأنا أصافحه، لولا نظرة حانية استقرت فى عينيه لتمنحانى القدرة والشجاعة كى أتعامل معه».

«أغلقت باب الصالون، ونهض هو ليقطع الغرفة كأسد محاصر، التفت إلى وسألنى: أنت المسئول؟ قلت له الحكاية.. أنا محاصر مثله، وجدت نفسى فى هذا الوضع، ولا أعرف إن كانت قراراتى صائبة أم لا، أكدت أننى بحاجة إلى استشارة رجل مجرب مثله».

«سألنى: مَنْ الذى دبر وضع المنشورات فى ملفات ضباط القيادة؟ قلت وأنا أرتجف خوفا: أنا، وقلت إننا نحن الذين شاغبنا برش صور نجيب وجمال عبد الناصر بالحبر الأسود، وحكيت له كل ما فعلنا، انتظرت منه لوما، أو تعليقا، لكنه اكتفى بأن احتوانى فى أحضانه فى حنان دافق، كنت متوترا وأوشكت أن أبكى».

(٥١)

وهو يمضى فى روايته لما دار فى لقائه بهذا البطل العظيم:

«وفوجئت به وهو يعاملنى كمسئول حقيقى».

«بدأ من جديد يخطو فى الغرفة بعصبية واضحة، كانت الكلمات المتقنة الصياغة تخرج من فمه كالشعر (فقد كان شاعرا مبدعا) وحكى:

«بعد إبعاده عن مجلس القيادة، وبعد فترة من التجاهل المتباعد، استدعاه جمال (أى جمال عبد الناصر) منذ أيام، تعاتبا طويلا، شكا له جمال من نشاط زوجته علية

(كانت عضوة فى حدتو)، وشكا له من خلافاته مع أعضاء المجلس الآخرين، ثم فجأة بدأ يتحدث عن مشكلاته وطموحاته، وتصوراته للمستقبل، وضيقه بالضغوط الخارجية، وطموحه لأن ينسج نهجا خارجيا مثمرا، وروى له بعض ما سمع عن سياسة نهرو الخارجية التى تتسق، أو تحاول، فى توازن متزن بين أمريكا والاتحاد السوفيتى، وسأله رأيه فى سياسة كهذه (أسميت فيما بعد الحياد الإيجابى)، وهل يمكن أن تحقق شيئا مفيدا لمصر؟ وهل هو شخصيا مستعد لأن يؤيد سياسة كهذه؟ وترى ماذا سيكون رأى «الرفاق» فى سياسة كهذه؟ وما أن أبدى «القائمقام» بادرة موافقة أو تأييد لموقف كهذا، حتى بادره باقتراح أن يتولى منصب السفير فى الهند ليقوم من هناك، من موقع التلامس المباشر، بتقديم المعلومات والخبرة، ونسج العلاقات (ولعل الأمر كان جدا، ولعله كان إغراء سياسيا للفارس الذى يصعب إغراؤه بالمناصب، فيسافر بعيدا عما بقى له من نفوذ وسط الضباط، ويريح ويستريح».

«صمت الفارس، وانتظر القرار، ألم أقل إن الأمر كان أكبر بكثير من طاقة فتى فى العشرين؟ لكننى كنت صريحا، ولم أخف ارتباكى أمام الفارس ذى الملامح الأبوية الطيبة، شكوت له حقيقة المأزق الذى أجد نفسى فيه، وأن ما يطرحه هو أعقد كثيرا من كتابة منشور ساخط، أو كتابة مكثفة على الجدران، أو صبغ صور الرئيس بمكياج أسود».

«ولكننى مع ذلك اقترحت، وقلت إنه ليس حلا بل مهربا».

«الرفاق القياديون فى السجن، فليفرج عبد الناصر عنهم، وليبحث الأمر معهم».

«وافق الفارس بلا نقاش، ولعله لم يكتشف، كما لم أكتشف أنا، أنها كانت مجرد إضافة للمشاغبات المتعددة الأطراف، فها نحن نملى شروطنا الصعبة، ونمليها فى الوقت الخطأ، وبالأسلوب الخطأ، وعن الطريق الخطأ».

«علمت فيما بعد أن عبد الناصر ثار غضبا عندما استمع لرد يوسف صديق، صاح فى وجهه: أنت لسه بتسمع كلام الناس دول، وكان رد الفعل مزيدا من القيود عليه، والقبض على زوجته الرفيقة علية توفيق، لتبقى فى السجن بعضا من الوقت».

(٥٢)

ولا يفوت رفعت السعيد الفرصة ليتحدث عن إعجابه العميق بهذا الالتزام الجاد الذى كان يوسف صديق نموذجا حيا وصادقا له :

«ولم أزل . . وبرغم مضى سنوات عدة ، مندهشا من هذا الرباط السحرى الذى جعل فارسا كيوسف صديق يستمع فى طاعة لما يقوله فتى فى العشرين ، وينفذه دون نقاش» .

(٥٣)

ولا تخلو مذكرات رفعت السعيد من كثير من الطرائف التى تصور بروح ذكية بعض مظاهر الحياة العامة التى قدر له أن يعيشها بعد خروجه من السجن .

ومن طرائف هذه المذكرات إجادة رفعت السعيد وصف وظيفته فى «أخبار اليوم» محاولا وضع هذه الوظيفة فى سياق العمل اليومى فى الأخبار ، وملخصا فى الوقت ذاته طبيعة الصراع المهنى والسياسى الذى يتطلبه وجود وظيفة كوظيفته ، ومستعينا فى النهاية بتعبير دقيق لأستاذنا محمد فهمى عبد اللطيف وصفه فيه فى مهمته تلك بأنه ترجمان الثورة ، ومع هذا فإن رفعت السعيد يصف مهمته بأنها سمجة ورديئة وذلك حيث يقول :

« . . . كان هناك شابان ممتازان ، رفعت طنطاوى ، وحنفى سليمان تلخصت مهمتهما فى مراجعة شرائح من الورق تسمى «السلخ» ، هى كل ما سينشر فى الغد ، وتمتد المراجعة من مراجعة المعلومات والأسماء وتدقيقها إلى مراجعة قواعد اللغة ، وأشهد أنهما كانا بارعين ، ويمتلكان ذاكرة قاموسية فيما يتعلق بالأسماء (المسئولين والوزراء والكتاب والأماكن فى بلدان العالم) والجغرافيا والتاريخ ، أما مهمتى فهى مراجعة المراجعة وتدقيقها سياسيا . كان محررو أخبار اليوم لايزالون يقاومون السياسة الناصرية الجديدة ، ربما بحكم العادة ، عبر استخدام ذات التعبيرات القديمة ، وكان ذلك يغيظ عبد الناصر ويحرجه مع صداقاته الجديدة . فعبارات مثل : عصابات إيوكا القبرصية ، وعصابات فيتنام ، والصين الشيوعية ، ودول الستار الحديدى ، كان من

المتعين إعادة ترجمتها بلغة التوجه الجديد : ثوار إيوكا، وكذلك ثوار فيتنام، والصين الشعبية، والمعسكر الاشتراكى».

. . . .

. . . .

«ولعل الحادث الذى سبق التحاقى بالمؤسسة بيوم أو اثنين كان السبب فى تعيينى سريعا، فقد نشرت «الأخبار» نبأ وصول حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية إلى مطار القاهرة قادما من الخارج، ثم «وكان فى استقباله عدد من كبار الشيوعيين»، وفزع الرجل، وفزع كثيرون غيره، وأجرى تحقيق عاجل واكتشف أن يدا فى المطبعة غيرت «كبار المسئولين» إلى كبار الشيوعيين، وبرغم دقة التحقيق وإلحاحه لم يتم التوصل إلى الفاعل».

. . . .

. . . .

«ولشهر واحد بعد عملى، ظللت أقوم بالمهمة التى أسماها عميد صالة التحرير وأستاذها القدير عم فهمى عبد اللطيف «ترجمان الثورة».

«وهى مهمة سمجة وروتينية، وليس مسموحا فيها بالخطأ، فالخطأ مهما كان تافها يهز سحبا رعدية بصواعق غير محسوبة، والرئيس عبد الناصر لا ينام قبل أن يسرع موتوسيكل خاص إلى بيته بأول نسخ من الطبعة الأولى ليعطى توجيهاته وتصحيحاته للطبعات التالية، والويل لنا إذ يدق التليفون بتعليمات أو ملاحظات التقطتها عين الرئيس الفاحصة».

(٥٤)

ويجيد رفعت السعيد تصوير معاناته هو وخالد محيى الدين من وشايات ومؤامرات محمد حسنين هيكل، والواقع أن رفعت السعيد يعبر عن هذه المؤامرات والوشايات بأسلوب مقتدر ينجو فيه من جلد الذات، ومن تضخيمها فى الوقت نفسه، لكنه يظهر بوضوح أنه انتصر فى هذه المعارك بفضل استناده إلى العقل وإلى حكمة التجربة التى

أتيحت له بفضل العمل السرى المنظم وما أتيح له من الوصول إلى أعماق النفس البشرية من خلال هذا العمل، ومن خلال السجن.

وهكذا نرى رفعت السعيد وهو شاب صغير فى مقتبل حياته الوظيفية قادرا على أن ينتصر على هيكل بكل نفوذه وهيلمانه ومؤامراته، وهو ينتصر لا لشىء إلا لأنه صاحب قضية وصاحب موقف وصاحب قدرة على أن يتحكم فى أعصابه وانفعالاته، على حين كان الخصم الآخر، وهو هيكل، يستند إلى قوته ونفوذه وطباعه السيئة التى لا تتورع عن البعد عن الحقيقة وعن الصدق، ولا تتورع عن اللجوء إلى الخداع، واختلاق المؤامرات، والافتراء على الآخرين من أجل الوصول إلى هدف وقتى.

وربما كان من المفيد أن نبدأ فى تناول ما استعرضه رفعت السعيد من خلال تكنيك الاقتراب بالكاميرا من البعد إلى القرب لنرى ما ترسخ فى وجدانه عن أسلوب هيكل قبل أن تقوده المعركة إلى مواجهة هيكل مباشرة.

ومن الجدير بالذكر أن رفعت السعيد ينسف بهدوء شديد وبدون ضجة كل مزاعم هيكل حول كفايته الصحفية، وكفاية الأهرام تحت قيادته، كما ينسف أيضا بهدوء أشد مزاعم هيكل عن حرصه على توفير الفرصة المتكافئة لزملائه فى الصحف الأخرى، وهو يجيد تقديم الصورة من خلال تقديم مشاعر زملائه لا مشاعره هو وحده، وإن كان هو نفسه قد اختزن التجربة ودلالتها وأجاد التصرف من خلالها فى أوقات لاحقة:

«. . . وكانت ضغوط كثيرة مرئية وغير مرئية تتراكم فوق رءوسنا، والرئيس يبدى على الدوام تململا من ضغوط ووشايات لعله لم يكن يتوقعها، أو لم يكن يتوقع أن تكون بهذه الحدة، وكان هيكل يسهم بالوشاية والإلحاح، مستفزا وبشدة من تصاعد توزيع الأخبار ليزيد بكثير عن توزيع الأهرام، رغم ما كان يحظى به من انفراد خبرى مصدره الرئيس، بل وانفراد يحميه ويصمم عليه الرئيس».

«أذكر يوما أن اندفع الأستاذ جنيدى خلف الله رئيس قسم الشئون العربية مسرعا يطلب مقابلة خالد محيى الدين، كنا حوالى الساعة السابعة مساء، وقال وهو يحاول ترتيب أنفاسه وكلماته، خبر مؤكد، الريس الليلة مسافر للسعودية من ميناء كذا. كانت

السعودية تقف على طرف الخصومة الحاد، وكانت تساند الطرف الذى نحاربه ويحاربنا فى حرب اليمن، أسرعنا إلى غرفة خالد وأسرع باستدعاء رئيس التحرير وكبار المحررين. كان الأستاذ جنيدى واثقا من الخبر ولديه اسم ميناء سعودى غير معروف إلى درجة أننا استعنا بخريطة كى نتعرف عليه، ولديه أيضا اسم القطعة البحرية التى سيستقلها الرئيس، وبسرعة جرى إعداد المانشيت الجديد «الرئيس فى السعودية»، وفيما يعكف موسى صبرى على صياغة الخبر، دق التليفون على مكتب خالد، يمنع نشر خبر رحلة الرئيس، دش بارد أغرق الجميع، وفى غيظ صامت انفض الجمع بعد أن نفض عن نفسه كل حماس».

«وبعد فترة أتت الطبعة الأولى من الأهرام لتزيد الغيظ اشتعالا، وتزيد من موقف خالد حرجا، فالمفترض أنه مقرب من الرئيس، وأنه يستمد من هذا القرب نفوذا كبيرا، كان مانشيت الأهرام «عبد الناصر فى السعودية».

(٥٥)

وهو يحاول أن يصف أو يبلور طبيعة موقف خالد محيى الدين من هذا الاستفزاز الهيكلى فيقول:

«وكان خالد يستشعر حرجا بالغا، ففضلا عن تعرض المؤسسة لمنافسة غير شريفة، فإن مركزه يهتز أمام القمم الصحفية والإدارية فى المؤسسة، وتتوالى وبكثرة أحداث مماثلة، ووصل الأمر أننا نجحنا فى اختراق دفاعات هيكل داخل مؤسسته، وكنا نعرف مانشيت الأهرام، وإذ تأتينا أوامر منع النشر كنت أرد بأن معلوماتنا أن الأهرام سينشر الخبر، ويصمم المتحدث: التعليمات عندى منع النشر».

«كانت هناك خطة آمرة حاسمة بإعطاء الأهرام مساحة للنشر محرمة على الآخرين، لكن الغريب فى الأمر أن توزيع الأخبار كان يتصاعد على الدوام ليتفوق على الأهرام، بما يدفع هيكل لإعطاء الرئيس أرقاما غير صحيحة، لكن ذلك كان يسهل كشفه، وربما كانت هذه الخطة تستهدف مجاملة هيكل، أو إعطاء الأهرام مسحة المتحدث الرسمى، أو حتى إحراج خالد».

(٥٦)

وبعد صفحات يتحدث رفعت السعيد باقتضاب شديد عن محاولات هيكل اختراق مجموعة خالد محيى الدين وتفجيرها من داخلها، وهو ما يدلنا على مدى ما كان هيكل يشعر به من ضعف فى الثقة فى قدراته وقدرات فريقه إلى حد أنه بدأ يخشى صعود وسيطرة فريق يسهل وصفه بأنه مبتدئ وغريب إلى حد كبير عن للمجتمع الصحفى:

«. . . ولم يكن الرفاق داخل المؤسسة أو خارجها يتقنون فن التعامل مع هذا الوضع المعقد، وزاد الأمر تعقيدا أن هيكل أحاط نفسه بمجموعة أخرى من الرفاق الأهراميين، وعن طريقهم حاول اختراق مجموعتنا، وبدأت عملية إغراء البعض بالانحياز لهيكل فى صراعه ضد خالد على أساس أن هيكل هو الصاعد إلى أعلى، وهو الأقرب إلى الرئيس، وهو الذى أصدر مجلة «الطليعة». . . إلخ، وحاول أحدهم معى، استدعانى إلى بيته أنا وأسعد حليم، وتناقش فى التواء. . استعدت دور الفتى الريفى، وتحصنت بأننى لا أفهم إيحاءاته وإيماءاته، ولم يكن قادرا بحكم موقعه فى الأخبار على الإفصاح، خوفا من أن أشى به».

«وفشلت الجلسة فلا أنا ولا أسعد قبلنا الطعم المقدم إلينا، ولم أبلغ خالد بالأمر، فقط بدأت أحتاط وأحاذر وأحصن موقعنا فى المؤسسة من مثل هذا الغزو، وربما كان هذا الرفض الصامت، للعرض الصامت، قد أبلغ لهيكل الذى كان متلهفا على عين له فى قلعة خالد محيى الدين، بل فى مكتبه، وربما كان هذا سر محاولة هيكل لافتراسى بعد إبعاد خالد من المؤسسة».

(٥٧)

ونأتى إلى ما تصفه أدبيات السياسة والتاريخ بأنه واقعة كاشفة للمؤامرة ولأطرافها ولأصابع الذين شاركوا فيها، وهو ما يدلنا على أن التلاعب بالأرقام كان سمة فى العهد الناصرى وما تلاه، وذلك فى ظل انعدام قدرة كبار رجال الدولة على تمحيص ما يقدم لهم على حين أنه صنع خصيصا وصيغ بصياغة كفيلة بدفع الأمور والقرارات الرئاسية إلى اتجاه بذاته:

«. . . اتصل عبد الناصر ليسأل خالد عن الأحوال المادية للمؤسسة، وعندما أجاب خالد: إنها كويسة، رد عبد الناصر بحسم: أنا سامع إنها مش كويسة (كان هيكل قد اخترق جهاز الإدارة الأعلى فى أخبار اليوم ورتب معه أمرا، أو على الأقل هذا ما اعتقدته فى ذلك الحين)، طلب خالد تقريرا سريعا عن الأوضاع المالية للمؤسسة، وبسرعة توحى بالريبة، وكأن المسئولين كانوا يعرفون فأعدوه سلفا، أتى التقرير، فتحت المظروف لأصعق، أرقام الخسائر صاعقة، بدرجة تكفى لصعق كامل التجربة».

«فجأة أحسست بمخالبى توجعنى، لم أعد بعد هذا الفتى الريفى الذى يحاول فقط الإفلات من محاولات اصطياده، آن لهم أن يروا مخالبنا، قلت بصوت عال وأنا أقدم الأوراق لخالد: أنت لست مسئولا، أنت لا تتدخل فى الإدارة، فإذا خسرت المؤسسة فهم المسئولون، وعليهم أن يستقيلوا».

«وكلفت بأن أدعو مجلس المديرين إلى اجتماع عاجل، اصطفوا حول مائدة الاجتماعات وفى صدرها جلس خالد هادئا هدوءا أثارنى، لكنه من خلال هدوئه فجر القنبلة، المؤسسة خاسرة، أنتم المسئولون، وعليكم أن تبرروا ذلك وتحددوا المسئول».

«آن لهم الآن أن يصعقوا، تشابكت نظراتهم وقال كبيرهم د. قاسم فرحات: خسائر إزاى يا أفندم؟ لا يمكن المؤسسة دى تكون خسرانة، من فضلك أشوف الورق كده يا أفندم، وأمسك بالورق وكأنه لم يره من قبل، وبخبرة منقطعة النظير استخرج المبالغ المخبأة: شوف يا أفندم فيه مبالغ كبيرة من حصيلة الإعلانات لم تحصل، ومبالغ من حصيلة التوزيع لم تحصل، وحصيلة اشتراكات لم تثبت، وثمن طباعة للغير لم يحصل»، وصاح بحماس هادئ: إزاى يا جماعة كل المبالغ دى لم تحصل حتى الآن؟».

«وتكشفت اللعبة، فالأمر بسيط للغاية، التباطؤ فى تحصيل المستحقات لعدة أشهر، فتبدو المؤسسة خاسرة ويطير الخبر للرئيس، بينما هى متخمة بالربح».

«وأعدت ميزانية جديدة. . صحيحة ومتخمة بالأرباح، وأرسلت للرئيس ليتأكد من كذب ما سرب إليه من معلومات».

ونصل مع رفعت السعيد إلى الواقعة التى أعقبها استيلاء هيكل على المؤسسة، وكيف وقع خالد محيى الدين بحسن نية فى الكمين الذى حفره له هيكل كى يدفعه دفعا إلى الاستقالة ردا لكرامته، ونعجب، وما كان لنا أن نعجب، من أن يكون عبد الناصر نفسه منتظرا على أحر من الجمر لهذه الاستقالة، وكأنما كان مشاركا بقصد فيما فعله هيكل، ذلك أن الباحث المنصف أو القارئ الواعى لما يقدمه رفعت السعيد من رواية للقصة لا يمكن له أن يقتنع أن عبد الناصر كان من السذاجة بحيث يترك لهيكل تدبير كل هذه المؤامرات من دون أن يكون عبد الناصر نفسه هو بطلها الأول، أما هيكل، فى رأى أى متعقل يقرأ الرواية، فقد كان مجرد مخلب قط، أو ممثل مساعد.

ولعل هذه الرواية ترينا كيف أن الديمقراطية الحقة ومناقشة فريق أخبار اليوم (شيوعيين وغير شيوعيين) لخالد محيى الدين فى قراره الاحتجاجى على هذه الواقعة كان كفيلا بأن يحرك الأمور فى اتجاه بعيد عن استقالة خالد محيى الدين الاحتجاجية، ومع هذا فنحن نعرف من نظام عبد الناصر أن خالد كان سيترك منصبه سواء احتج أم لم يحتج، وربما كانت استقالته الاحتجاجية أكرم له بكثير:

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

«وأصبحت ساحة المؤسسة خالية من مصطفى وعلى أمين، اللذين كان هيكل لا يستطيع مواجهتهما، وتصاعدت مطامعه فى استبعاد خالد، وأن يحل محله فيتولى رئاسة الأخبار والأهرام معا، وفى واحدة من أغرب غرائب الصحافة الناصرية».

«وبدأت سحب كثيرة فى التراكم، ومحاولات اصطياد أى خطأ، وتلويح دائم بأن المشير والجيش غير راضين عن وجود خالد على رأس أخبار اليوم، و هيكل يغذى ذلك كله بحماس متحمس».

«وفجأة أخذت السحب فى الاستعداد كى يهطل المطر».

«وفى جلسة الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى تحدث الرئيس مطولا عن تسابق الصحف فى زيادة عدد صفحاتها بحثا عن توزيع أزيد، خاصة للأعداد الأسبوعية (أهرام الجمعة ـ أخبار السبت ـ جمهورية الخميس)، وشدد الرئيس موجها حديثه لخالد على ضرورة تقليل الصفحات لتوفير ما ينفق من العملة الصعبة على الورق المستورد».

«وفى اجتماع أمانة الصحافة حيث كل رؤساء مجلس الإدارة، ومنهم هيكل . . . وتم التوصل إلى قرار أو بالدقة إلى كمين، اتفق على ألا يزيد عدد الصفحات (على) ثمانى، وتعهد خالد بأن يبدأ هو بأخبار اليوم (السبت) على أن يتلوه الجميع، وتعهد الجميع وفى مقدمتهم هيكل بالالتزام، وفى ديسك تحرير أخبار اليوم كان صراع مرير لتقليص الصفحات، وخرجت أخبار اليوم، رغم أنفها، متجردة من عديد من أبوابها وموضوعاتها، وكانت الحجة قرار الرئيس، وكانت أيضا أن القرار سيسرى على الجميع».

«لكن الجميع يفاجأ بأن عدد الأهرام العادى عاد ليصدر فى ١٦ صفحة».

«صعق كل صحفيى أخبار اليوم، فهى منافسة غير شريفة، أما خالد فقد اعتبرها إهانة لمكانته الشخصية، وكأمين للصحافة فى الاتحاد الاشتراكى، ولمنصبه كرئيس للمؤسسة، وأسرع خالد للتحدث مع الرئيس الذى كان منتظرا هذه المكالمة، كان الكمين معدا، فعبد الناصر رد ببرود وتحدث بعيدا عن الموضوع عن حكيم (عبد الحكيم عامر) الغاضب من بقائه على رأس مؤسسة أخبار اليوم، وأن المشاكسات مع هيكل غير مقبولة».

«قال خالد: إذن أستقيل، وببرود قال عبد الناصر: أوكى».

«واتفقا على أن يرسل استقالته معى».

«وجلس ليكتب استقالة من عدة أسطر».

«وحملت الرسالة إلى عبد الناصر فى بيته».

(٥٩)

ثم يروى رفعت السعيد كيف كان عبد الناصر جالسا فى بيته أو مكتبه متعجلا استقالة خالد :

« . . . كنا بعد ظهر الخميس، عدت إلى بيتى القريب من بيت عبد الناصر، متشاغلا عن الموضوع، معتقدا أن الأمر سيمر عبر بعض الوقت، لكن عبد الناصر كان متعجلا بل متلهفا، فلم تمض سوى بضع ساعات حتى كان الأمر قد رتب تماما».

«قبلت الاستقالة . . تولى هيكل رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم بالإضافة إلى الأهرام، فى واحدة من أغرب نوادر الصحافة الناصرية».

«اتفق على أن يسافر خالد إلى لندن ليستكمل علاج ابنته، ولكيلا يكون مجبرا على استقبال هيكل فى الأخبار، واتفق أيضا على أن يكتب خالد، وباستمرار، مقاله الأسبوعى يوم السبت فى أخبار اليوم».

(٦٠)

ونمضى مع رفعت السعيد حتى نصل إلى تصويره الدقيق لما يصفه بأنه بشاعة دخول هيكل إلى أخبار اليوم دخول المتآمر الذى حقق هدف تآمره أخيرا، وها هو يبدأ فى معاملة رفعت السعيد على نحو لا يختلف كثيرا عن سلوك أفراد الطبقة الدنيا من رؤساء الأقسام أو المديرين على أكثر تقدير :

«يوم الأحد . . أتى هيكل عبر الممر متباهيا والسيجار يتدلى من بين أصابعه، بابتسامة مترفعة صافحنى، تأملنى ببطء سينمائى مفتعل، كأنه يقول مَنْ هذا الذى تكلموا عنه كثيرا، وكأنه يقيس كم يساوى هذا الشخص فى سوق البضاعة الحاضرة».

«اصطحبنى إلى المكتب، بدلا من خالد كان هو، أما أنا فجلست فى ذات مكانى، سأل أسئلة روتينية عدة، طلب أن أختار له سكرتيرة، ثم فاجأنى : مرتبك كام؟ قلت : خمسون جنيها (كان المرتب قد زاد)».

«أبدى إشارات اشمئزاز، أتبعها بانتقاد لاذع لخالد الذى لم يعطنى ما أستحق، ولم أعلق».

«سألنى : هل ترك خالد مقاله؟ قلت : نعم، سأل عن المقال فقلت : فى المطبعة، سأل : راجعته؟ قلت ببرود : مقالات الأستاذ خالد ترسل إلى المطبعة دون مراجعة».

«سأل بهدوء : مَنْ يكتب لخالد مقالاته؟».

«قلت بهدوء : لا أحد . . هو يكتب مقالاته بنفسه وبخطه».

«لم تعجبه الإجابة فطلب أن أعود إلى غرفتى، قلت : أى غرفة، قال : نفس الغرفة».

«بعد عشر دقائق دق التليفون كان هو، قال بلهجة آمر : رفعت، انزل المطبعة واختصر مقال خالد».

«قلت : مقالات الأستاذ خالد لا تختصر، وهو معتاد على أن يكتبها فى ذات المساحة دون زيادة».

«فقال : معلهش، فيه إعلانات، اختصر المقال، قلت : آسف».

«دعانى إلى غرفته وجرى نقاش لعله أراد أن يختبر به مدى علاقتى بخالد، ومدى استعدادى للتنازل عنها».

«ـ أليس الأفضل أن تختصره بنفسك بدلا من أن يختصره غيرك».

«ـ الأفضل ألا يختصر أصلا».

«ـ إذا لم تختصره سأضطر إلى تكليف شخص آخر».

«ـ بالنسبة لى الأفضل ألا يختصر».

«كنا يوم الأحد، والمقال سينشر السبت القادم، ولم يكن قد جُمع بعد، ولم يكن ماكيت الصفحة قد أعد بحيث يعرف هيكل مدى الحاجة للاختصار، لكنه كان يريد، وعلى عجل، أن يختبر مدى استعدادى للتعامل معه على أساس أن أخلع قميص علاقتى بخالد».

«وفى السبت التالى لم ينشر مقال خالد أصلا».

obeikan.com

هكذا عرف رفعت السعيد بعض حدود التنكيل الذى سيمارسه محمد حسنين هيكل بعد أقل من أسبوع، لكنه فى اليوم التالى كان يواجه خطوة أخرى فى سبيل التنكيل به على يد ذلك الذى يصور نفسه إلها يعفو ولا يشغل باله بالصغائر، بينما معظم تصرفاته لا تخرج عن دائرة الصغائر:

«. . . مضى يوم آخر وأنا فى مكتبى، لا أفعل شيئا، يبدو أننى سقطت فى الاختبار، كنت هادئا، وبدأت ألاحظ البريد يمرق عبر الباب الآخر، والداخلون والخارجون يستخدمون بابا آخر، وأنا أستخدم الوقت الخالى فى المذاكرة».

«يوم آخر، ثم دخل «م. س» وقال: إن هناك موعدا مع هيكل، كان يمشى فى الغرفة بخطوات حاسمة يقطعها فى ثلاث أو أربع خطوات، ثم يعود، سألته: لماذا هو قلق؟ قال: أنا أفكر بعمق».

«والتقينا بهيكل معا، وجه هيكل حديثه لـ (م): إيه يا (. . .) ناوى على إيه؟ بدأ (م) فى عرض مشروع طموح لإنشاء بنك للمعلومات فى الأهرام يستجمع البيانات والمعلومات لتكون تحت أيدى الصحفيين والكتاب. استمع هيكل مبتسما، يده متشبثة بالسيجار، وجلسته تكتسى بحالة من الترفع، ثم فجأة قرر أن ينهى استماعه، وباغتنى: وأنت؟ ناوى على إيه؟ قلت: أنا أفضل أن أرجع إلى التحرير».

«قال: يعنى مش عايز تشتغل معى، وبأدب مفتعل بدأت أشرح له أن علاقتى مع الأستاذ خالد كانت علاقة خاصة، وأننى منذ البداية كنت أتحاشى أن أعمل فى موقع كهذا، فأنا لا أصلح لمهنة مدير المكتب».

«هز رأسه فى صمت. . وانصرفنا».

«وفى اليوم التالى كان الأسانسير يتهادى إلى الدور التاسع ليتلقفنى معاون المبنى، كان مسكينا ومؤدبا، وربما حزينا، وهو يبلغنى أن مكتبى نقل من التاسع إلى الرابع، واقتادنى إلى سطح المبنى الملحق حيث غرف خشبية متواضعة ومتهالكة، مكتب إيديال صغير بلا أدراج ويكتسى بمسحة من صدأ قديم، وكرسى عجوز التقطوه من مخزن

المخلفات، لم أشعر بأى غضاضة، لقد اخترت أنا ما أريد، وها هم الرفاق يحتشدون فى الغرف المجاورة، ينزعون من مهامهم، ويحشرون فوق السطح، انتظارا لما سيقرره رئيس مجلس الإدارة الجديد».

«وعانينا، وعانيت أنا بالذات، حالة الإنكار الشرس، والتجاهل المرير ممن كانوا يتملقون ويلاحقون بالتحية، وما هو أكثر من التحية».

....

....

«ولم يكن أمامى أنا سوى الانتظار».

(٦٢)

ونصل مع رفعت السعيد إلى مرحلة لاحقة من مؤامرات هيكل الخبيثة وقد وصلت إلى أقصاها حين لم يعد فى إمكان الصحفى الأوحد أن يترك شابا صغير السن كرفعت السعيد فى موضعه المتواضع من مؤسسة أخبار اليوم، وهو يفعل هذا بأسوأ صيغة يمكن أن تنتهى بها علاقة إنسان بمحل عمله حيث يطلب منه عدم الحضور مرة ثانية!!

....

....

«. . . لكن الأمور كانت قد تجاوزت مثل هذه المسائل الصغيرة، فقد قرر هيكل التخلص منا، أو أغلبنا».

«وفيما كنت أعبر باب المؤسسة فاجأنى رجل الاستعلامات الذى اعتدت مؤخرا على استقباله المتجهم بدلا من ترحيبه المنحنى فى الأيام السابقة، فاجأنى بأن السيد المدير العام ينتظرنى فى مكتبه، طرقت الباب وأنا أتذكر «أوامر سيادتك تنفذ يا أفندم»، كنت واثقا أننى سألقى معاملة مختلفة، كان الرجل حزينا، أو هكذا تصورت، أقسم معتذرا أنه يكن لى حبا وصداقة، ولكن، ثم توقف وناولنى خطابا فى مظروف غير مغلق، فيما كانت عيناى تسرعان عبر الكلمات، كان يقسم ثلاثة بالله العظيم أنه عبد المأمور (كنت أكثر مَنْ يعرف أنه عبد المأمور)، وأنه حرص على أن يسلمنى الخطاب

بنفسه احتراما للعلاقة بيننا، وأن الآخرين سيتسلمون خطاباتهم من شئون العاملين».

«سلمت بذات المودة القديمة، وفيما كنت أخرج تذكرت أنه لم يطلب منى ولو من باب المجاملة أن أجلس، كل شىء تم سريعا، وفى الوضع واقفا».

«بهدوء بدأت أتأمل كلمات الخطاب».

«السيد رفعت السعيد»

«حيث تقرر نقلكم لعمل فى جهة أخرى، نرجوكم عدم الحضور إلى المؤسسة مرة ثانية».

«والتوقيع: محمد حسنين هيكل».

(٦٣)

وسرعان ما ينتقل بنا رفعت السعيد فى هذه اللحظات نفسها كى يصور صورة جميلة تظهر معدن خالد محيى الدين، وهو المعدن الذى جعل رفعت السعيد (ضمن أسباب قليلة أو كثيرة) يرتبط بهذا الرجل طيلة عمره.

. . . .

. . . .

«... ولكى لا أفتح الباب لكلام كثير ناولته (الضمير يعود على خالد محيى الدين) الخطاب، واتسم وجهه الهادئ بسحابة حزن أحزننى أن أراها، الابتسامة الدائمة الإشراق تلاشت، قال كلمات لن أنساها طوال حياتى:

«لا تهتم، ولو اقتضى الأمر سأقتسم معك معاشى».

«الكلمات هزتنى من أعماقى وارتبكت وأنا أقول:

«الفلوس ممكن تيجى من المنصورة، المهم العمل».

«لم يتركنى، صمم أن يأخذنى معه إلى بيته بعد أن اشترى ما كان ينوى شراءه».

«فور دخولنا أمسك بالتليفون، أدار رقما من الذاكرة، ومن الحديث عرفت أن عبد

الناصر على الطرف الآخر، أحسست أن كلمات عبد الناصر باردة، وقاتمة، فقط نقل خالد لى عبارة واحدة من عبارات عبد الناصر: «هو رفعت بتاعك نزل من بطن أمه صحفى، يشوف لنفسه شغلانة تانية، اتصل بسامى يشوف له شغلانة».

«واتصل خالد بسامى شرف، قال سامى: يختار واحدا من ثلاثة اختيارات:

‹ ملحق إعلامى.

‹ وكالة أنباء الشرق الأوسط أ. ش. أ.

‹ المؤسسة المصرية للكتاب.

«تأملت الاقتراحات، قلت فى نفسى «ملحق إعلامى» مستحيل أن يعطوها لى، إذا أ. ش. أ».

«وأسرع خالد ليبلغ سامى شرف باختيارى، وبعدها بأيام جاءنى خطاب التعيين فى مؤسسة الكتاب».

. . . .

. . . .

وفى سخرية شديدة يعقب رفعت السعيد تعقيبا قصيرا يقول فيه:

«لعله أراد أن يعرف رغبتى كى يقدم لى عكسها».

(٦٤)

لكن محمد حسنين هيكل مع كل هذا لا يكف عن محاولاته للتضييق على اليسار، وإنما يبدأ فى اللجوء إلى الوقيعة بين أكثر الناس إخلاصا لبعضهم ويدبر مؤامرة يحاول أن ينهى بها علاقة رفعت السعيد نفسه بخالد محيى الدين بعدما فشل فى الاستحواذ على رفعت السعيد نفسه:

«. . . لكن الأمور لم تمض بيسر، وهيكل لم يكف عن سعيه لافتراس خصمه، أو مَنْ يعتقد أنه خصمه (خالد محيى الدين)».

«عندما وقع (الضمير يعود على محمد حسنين هيكل) خطابات فصلنا من الأخبار سافر على الفور إلى الهند، فيما أعتقد، ولعل غيابه قد شجع بعض الزملاء من أعضاء التنظيم الطليعى بالمؤسسة على إرسال برقية احتجاج إلى عبد الناصر، تحتج على فصلنا، وذلك فى سابقة لم تحدث من قبل، وأثارت لغطا شديدا، وأثارت معه غضبا شديدا لدى البعض، إذ أوحى ذلك بأن لخالد و لنا أصدقاء عديدين فى المؤسسة، وهو ما قلب كل ادعاءات وحسابات هيكل».

«عقدت مجموعة التنظيم الطليعى، وكانت تضم: الأمير العطار - حامد زيدان - إسماعيل يونس - جمال بدوى - سعيد حبيب وأنا، اجتماعها الدورى، وأثير موضوعنا، واقترح البعض أن نرسل برقية احتجاج، واتفقنا على صياغة عاصفة، وفجأة صمم حامد زيدان على أن نذهب معا لنرسل التلغراف، كان الاجتماع فى بيت حامد زيدان بالعجوزة، وتمشينا إلى مكتب تلغراف الزمالك، وأرسل التلغراف أمامنا جميعا، وبمعرفتنا جميعا، وبطبيعة الحال كنت محرجا ولم أشارك فى الحوار، ولكننا ونحن نغادر المكتب التقطنى حامد بعيدا عن الآخرين قائلا: لو لم نرسله مع بعضنا البعض، لما أرسل أصلا».

«وازداد غضب هيكل عقب عودته، فما اعتاد هو، ولا اعتاد النظام على مثل هذه الاحتجاجات، خاصة أنها تأتى من التنظيم الطليعى ضد هيكل بما أشعل حساسيات كامنة، وتصور البعض أننى خلفها، وهذا غير صحيح».

«لكن الأمور كانت تتطور بما هو أعمق وأكثر حدة».

(٦٥)

ونأتى إلى حل العقدة:

«وذات يوم زارنى فى بيتى على غير انتظار خالد محيى الدين، كان وجهه صارما على غير العادة، ما أن جلس حتى سألنى: ماذا حدث بينك وبين هيكل عندما قابلك فى مكتبه؟ (كنت قد تحاشيت محرجا رواية ما حدث، وحتى لا أصور نفسى فى صورة الذى يقدم تضحية من أجل صداقته) حكيت ما حدث بالضبط، لكنه عاد ليقول بالإنجليزية: تذكر جيدا؟».

«قلت: أنا متذكر جيدا، فهذه أشياء لا تنسى، قال مرة ثالثة ورابعة وربما أكثر: «تذكر جيدا»، وأجبت بملل ظاهر: إننى متذكر».

«فقال (الضمير يعود على خالد محيى الدين): هيكل قال لعبد الناصر إنك ألححت عليه أن تعمل كمدير لمكتبه، لكنه رفض لكى لا أشعر بأن أقرب الناس إلى يتخلون عنى».

«لست أدرى من أين واتتنى هذه الفكرة الهادئة، وأنا فى قمة الغليان، أمسكت بالتليفون دون أن أقول شيئا، طلبت «م. س» فقط قلت له: أرجوك تعالى إلى بيتى، وفيما نحن فى الانتظار تحاشينا العودة إلى هذا الموضوع، كنت أستشعر قدرا غير محدود من الغيظ، وأكثر ما كان يغيظنى هو أننى أصبحت أداة فى صراع كبير، وتذكرت القول القديم «الأفيال تتصارع والعشب يتكسر»، وقررت ألا أسمح لأى صراع بأن يكسرنى».

«وصل «م» وعلى الفور قلت له: من فضلك احك ما دار بينى وبين هيكل من حديث».

«وحكى بأمانة وبذاكرة قوية ما كان بالضبط، قاله مرتبا ودقيقا بما يوحى أنه حكاه أكثر من مرة».

«نظرت إلى خالد محيى الدين الذى أشرق وجهه بابتسامة مرتاحة ولم أقل شيئا، هو قال لـ «م»: مستعد تشهد بكده؟ قال: طبعا، وحكينا له الموضوع».

«وعندما غادر «م» منزلى قلت عبارة واحدة لخالد: أنت لم تعرفنى بعد، صمت ولم يجب، لكنه التقط التليفون وأدار ذات الرقم من الذاكرة وعلى الطرف الآخر كان عبد الناصر، حكى له كل ما حدث، ما قلت، وما قاله «م»».

«لسبب ما كان عبد الناصر غير مرتاح، أو هذا ما استقر فى ذاكرتى، وقال: إنه سيطلب إلى السادات أن يحقق فى الأمر».

«وعندما غادرنى خالد محيى الدين فوجئت بـ «م» يعود إلى بيتى، قال بصراحة محمودة إنه اتجه من عندى إلى «ل» وأنه نصحه ألا يشهد، حتى لا يفسد مستقبله

الصحفى بالأهرام، أجبته بهدوء إن الشىء الأهم عندى هو شهادته أمام خالد، أما الشهادات الأخرى فهى لا تعنينى».

«ولم يهتم أحد بالتحقيق، ففيما يبدو أن عبد الناصر كان يعرف الحقيقة، وليس بحاجة إلى تحقيق».

(٦٦)

ونأتى إلى حيلة جديدة من حيل هيكل فى إفساد الجو أمام قيادات اليسار، وتضييق الخناق عليهم، وخلق المصاعب أمامهم، وهو يفعل كل هذا بدأب شديد، ثم يحاول أن ينكره من خلال مسوح يرتديها تهيىء له أن يصور نفسه ملاكا أو على أقل تقدير بشرا مثاليا يعود إلى الحق عندما يدركه:

«. . . فبعد فترة، وفيما أنا فى مكتبى بمجلس السلام (أعيد تشكيل للمجلس باتفاق مع عبد الناصر، وأصبح لنا مقر بالدور التاسع فى مبنى أمانة الاتحاد الاشتراكى)، تلقيت مكالمة من سكرتيرة هيكل فى الأخبار أبلغتنى أن أحضر فورا لمقابلته».

«من جديد آتى إلى هذا المكان، من جديد أمشى فى ردهة الدور التاسع، هذه المرة أمشى حذرا، فلست من سكان المكان، ما أن رأتنى السكرتيرة حتى فتحت باب الغرفة لأدخل إلى هيكل لأجد المديرين جميعا فى اجتماع، سلم الجميع بدرجة محدودة من الحماس، قال هيكل: أنا حاسس إن فيه وضع لازم يتصلح، ولهذا قررت أن تعود لعملك فى الأخبار، وأملى، وكتب المدير العام، ذات المدير العام، : «يعود رفعت السعيد إلى عمله بمؤسسة أخبار اليوم بذات شروط العمل السابقة»، ووقع هو ووقع المديرون كل فيما يخصه».

«واكتملت الإجراءات فى لمح البصر».

«لم أفهم سر هذا الحماس المتعجل، بعدها بساعات فهمت، هيكل ترك الأخبار ليحل محله محمود العالم».

«وعندما أتى محمود ليجدنى قد سبقته بساعات، استشعر أن هيكل ربما أعادنى لأحرجه، وليشاع فى المؤسسة أن محمود كخالد سيعيد الآخرين».

«ولم يمتلك محمود أية رغبة فى الحرج، وكان أول قرار اتخذه هو إلغاء قرار عودتى للمؤسسة».

«وهكذا ومن جديد أتذكر وبألم «الأفيال تتصارع والعشب يتكسر».

«لكن هيكل كان ودودا إلى درجة أنه أصدر فى ذات اليوم قرارا بتعيينى فى الأهرام (فى مجلة الطليعة)، البعض فسرها بسوء نية قائلا: إنها رسالة ساخنة لليسار كله إن لم تكن لصالح هيكل، فهى ضد محمود، لكننى فضلت أن أعتبر الأمر أكثر نقاء من ذلك، وأن الرغبة الحسنة هى الدافع، وأنا على أية حال لم أعد أمثل بالنسبة له سوى شخص مظلوم يتعين رفع الظلم عنه، فضلا عن أن علاقة هيكل بخالد كانت قد تحسنت وعادت إلى صفائها المعتاد والممتد».

(٦٧)

وفى مقابل هذه الأحاديث عن خبث هيكل ومؤامراته يتحدث رفعت السعيد أيضا عن دهاء على أمين فيقول:

«فمثلا استطاع على أمين بدهائه المعروف أن يمرر قصة مسلسلة فى مجلة «هى» التى كان يرأس تحريرها، وكان عنوانها «مصنع الشموع».

«وظلت حلقات القصة تتوالى دون أن يلتفت إليها أحد، أو حتى يهتم بقراءتها، ثم جاء مظروف من مكتب الرئيس وبه حلقات القصة وخطوط حمراء تحت أسطر محددة، وكانت مجرد محاولة الربط بين هذه الأسطر كافية لحل كل الرمز، وبدأت أقرأ الحلقات من بدايتها، ودقات قلبى تسرع لتسبق عينى، وملخص القصة بسيط وواضح، لكنه يزداد وضوحا إذا ما خلصته من الرتوش المتعمدة، وبعض التفاصيل المفتعلة، شقيقان (على ومصطفى أمين) أحزنهما أن القرية مظلمة فى كل مساء فقررا إنشاء مصنع للشموع (أخبار اليوم)، لكن العمدة المستبد (عبد الناصر) لا يحب لأبناء القرية أن يعيشوا فى النور، فأبعد الشقيقين وأتى مكانهما بشيخ الخفر (خالد محيى الدين) ليدير المصنع، وأتى شيخ الخفر ومعه مجموعة من الأجلاف سيئى النية، وقليلى الخبرة، والذين يضمرون شرا للقرية (نحن)، ويوشك المصنع أن يدمر حتى يعود الظلام من جديد».

«ولم نفعل شيئا، فالتعليمات لا تصادم مع مصطفى أمين».

(٦٨)

وبعد هذا كله يشخص رفعت السعيد مشكلة الأخبار تحت قيادة خالد محيى الدين فيصوغ تشخصيه فى عبارة موجزة ودقيقة إلى أبعد حد، أن فريق خالد محيى الدين لم يكن يدرك حقيقة أن وجودهم فى الأخبار لا يمثل دائرة مستقَلة عن مصر (المتوحدة) التى كانت كلها فى قبضة قوية هى قبضة الرئيس جمال عبد الناصر، الذى كان قادرا على الإلمام بكثير من التفصيلات والصراعات، وكان فى الوقت ذاته حريصا على أن يفرض رأيه وتوجهه فى كل هذه التفصيلات والصراعات.

ورأيى أن هذا التشخيص الدقيق الذى يقدمه رفعت السعيد ينطبق على حالات كثيرة مثيلة كان أصحاب البطولة فيها يعجبون من تناقض قرارات الرئيس عبد الناصر مع قرارات أخرى له، أو تناقضها مع توجهاته الواضحة، وما كان لهؤلاء أن يعجبوا لو أنهم فهموا ما فهمه رفعت السعيد، أو لو أنه قد أتيح لهم فى مرحلة مبكرة أن يقرأوا مثل هذا الذى كتبه رفعت السعيد:

«. . . وباختصار كان البعض يرى فقط خالد على قمة أخبار اليوم، لكنه لا يرى عبد الناصر على قمة السلطة».

«وحتى بعض الرفاق العاملين معنا فى الأخبار لم يتقنوا فن التعامل مع هذا الوضع الملغوم بمحاذير قاسية، واستبدت بالبعض منهم منافسات متبادلة، كتلك التى وقعت بين على الشلقانى وسعد التائه، وكل منهما صديق حميم وقديم لخالد، وكلاهما وافد إلى المؤسسة مع خالد، وأراد خالد أن يذيب الخلافات بأسلوبه السمح فدعا كل القادمين معه إلى اجتماع يحاول التوفيق بين القطبين، فأثار التقاء هذا الجمع فى غرفته هواجس وشائعات وأقاويل كنا فى غنى عنها».

(٦٩)

ويستطرد رفعت السعيد إلى الحديث عن تقييمه لشخصية على الشلقانى، ثم لدوره فى هذه الأزمة:

«والحقيقة أن على الشلقانى كان إداريا ممتازا، لكن بعضا من حدة كانت تغلف تصرفاته، ربما كان مبعثها عدم قدرته على التعرف على حقيقة الوضع، وحقيقة المؤسسة، وحقيقة التوازنات».

«أذكر أنه فى فترة كان خالد مسافرا فيها للخارج واصطدم بموسى صبرى، وقرر إيقافه عن العمل، وهلل الرفاق فى المؤسسة وخارجها للضربة الموجهة للخصم الطبقى العتيد، لكننى كنت على الضفة الأخرى، فمعرفتى المحدودة جدا بالتضاريس العلوية تؤكد أن أحدا مهما كان لا يستطيع أن يمس رئيس تحرير دون إذن من الرئيس، ولم يكن الشلقانى يمتلك قناة كهذه، وإن كان يستشعر أن الرئيس لا يحب موسى صبرى، ولكن الأمر يختلف فى حسابات الرئيس، فسواء وافق الإجراء هواه، أو لم يوافقه، فهو خاطئ مادام أنه لم يأذن به، ألححت طالبا من على الشلقانى أن يؤجل الصدام إلى حين عودة خالد، فرفض، حذرته صراحة فرفض، وفيما يبدو، وهذا مجرد تخمين، أنه استشار أحد الرفاق المقربين من هيكل، فأعطى هيكل الضوء الأخضر، ليس فقط ليسوى حسابات قديمة مع موسى صبرى، وإنما ليربك تجربة خالد فى الأخبار، ويوسع مساحة الوقيعة عند الرئيس، وفور عودة خالد عاد موسى صبرى، وصرنا صديقين حميمين، فقد عرف، لا أعرف من أين، أننى دافعت عنه دفاعا مستميتا أوقعنى فى خلاف حاد مع على الشلقانى، ولعله من الضرورى أن أشير إلى أن الرئيس الذى أبلغ خالد شديد غضبه، وضرورة عودة موسى صبرى، ما لبث بعد فترة أن أمر بإبعاد موسى صبرى إلى الجمهورية».

(٧٠)

وفى وسط كل هذا الحديث عن العذاب والغربة والألم والكفاح والعمل السرى، لايبخل علينا المؤرخ فى شخصية رفعت السعيد وقلمه بكثير من القصص التى تصور مفارقات الصراع الاجتماعى والسياسى فى عهد الثورة، ولعل أبلغ قصة تصور هذه المفارقات هى القصة التى انفرد بها رفعت السعيد حتى تبدو وكأنها من اختراعه، وهى قصة البرنس محمود ناموق الذى قدر لرفعت السعيد أن يعرفه فى مستشفى السجن، وأن يستمتع بصحبته، وأن يفيد منه، ومع أن رفعت السعيد يقدم القصة بما يضمن لها كل عناصر التشويق، فإن مضمون القصة نفسه لا يخلو من كثير من العظة والاعتبار:

«. . . البرنس محمود ناموق، شخصية غريبة، آخر بقايا مستحقى العرش فى الأسرة المالكة (ربما نقف هنا لنتساءل على أى أساس حسب رفعت السعيد هؤلاء المستحقين ورتبهم !!)، رجل واسع الثراء، وثرواته منطلقة فى أرجاء عدة من العالم: تركيا، فرنسا، إسبانيا، وقصوره وخدمه وحاشيته كذلك، لكن مقره الرسمى جنيف، يعيش حياة لاهية، لا يتوقف عن إمتاع نفسه، بكل ما يريد، وكل ما تريد».

«فى حديث صحفى لأحد أمراء الأسرة المالكة الهاربين فى الخارج أدلى به لصحفى أجنبى، ردد اسمه باعتباره الوريث الشرعى للعرش المصرى، ودعا الغرب إلى فعل شىء للإطاحة بحكم العسكريين وتنصيب صاحب العرش على عرشه».

«ناموق لم يسمح بالتصريح، ولم يهتم بشجرة العائلة، ولا بمسلسل الوراثة، الرجل مشغول بنفسه وبتدليلها، لكن حكام مصر اعتبروه خطرا داهما».

«بالمصادفة البحتة، وعلى إثر تعطل طائرته وهو فى طريقه إلى موعد غرامى فى تايلاند (كما يبدو مثيرا للدهشة أن يسافر شخص مهما كان مرفها وثريا ومنعما من جنيف إلى تايلاند من أجل موعد غرامى)، واضطرار الطائرة للهبوط فى مطار لم يكن مقررا لها أن تهبط فيه، بهذه المصادفة وحدها وقع البرنس فى يد للمخابرات المصرية».

«وعلى عجل حوكم، ظل مندهشا طوال المحاكمة، وعلى عجل صدر الحكم بسجنه خمسة عشر عاما، وظل مندهشا طوال فترة سجنه».

«والتقيت بالبرنس فى مستشفى السجن حيث أتاحت لى وساطة عائلية إقامة هناك لفترة ليست بالقصيرة، كان ضخما، ومترفعا، ومثقفا ثقافة رفيعة، كم أدهشنى بفيض معلوماته، كان من هؤلاء الذين يعتبرون الثقافة متعة، وأمتع نفسه كثيرا، وطويلا جلسنا معا يحدثنى عن حياته ومغامراته الغرامية، من بينها علاقة حب مع الممثلة جريس كيلى التى أصبحت أميرة موناكو، من أجلها دفع كامل نفقات إنشاء سينما فى السجن، واشترى كل أفلامها لتعرض تقريبا كل يوم، وكان فيض ثقافته الرفيعة فى الفن، والشعر، والأدب، والأديان المقارنة، يتدفق مثيرا انبهارى، كان الآخرون فى المستشفى يفضلون الثرثرة المتجردة من أية جدية، فهموم السجن تكفى، ووجد فى

مستمعا دائما، وأتقنت معه فن الاستماع، واستمتعت فعلا باستماعي إليه، ولعل أكثر ما أبهرني هو دراسته العميقة لتاريخ الفراعنة، وكان يقرأ الخراطيش الهيروغليفية ببراعة أثارت دهشتي ومتعتي في آن واحد».

«كان أكولا يأكل بشراهة مثيرة للدهشة، يقتسم معك أي شيء، إلا الطعام الهائل الكم، الذي يأتيه يوميا من الخارج».

«تولت الأميرة نسل شاه رعايته، أمر بتحويل قدر من أمواله إليها، وأنفقت عليه بسخاء، وكانت تمتلك حظوة واضحة (بررتها الهمسات بأنها على علاقة بأحد قادة الثورة)، وبفضل هذه الحظوة عومل البرنس كبرنس، طعام يومي من الخارج، إقامة دائمة بالمستشفى، حقوق لا يتمتع بها أي سجين، بما فيها حقه في التجول في السجن في أي وقت، وأي مكان، وكان سيل أمواله المتدفق يكفل له إرضاء الجميع».

«وكانت أيام زيارة البرنسيسة له مشهودة، قطعة جميلة من المرمر الوردي، تتدفق جمالا وحيوية وترفعا، كأنها واحدة من آلهة الأوليمب، يصحبها شماشرجي يفسح أمامها الطريق هامسا: «البرنسيسة»، ولم تكن بحاجة إلى مَنْ يفسح لها الطريق، فعطرها الذي يظلل المكان كله، ومشيتها المترفعة كانت كفيلة بذلك».

«وتمضي سنوات دون أن يفارق البرنس بقامته المهيبة، وثقافته الراقية الموسوعية مخيلتي، وأحزن، ولم أزل، إذ أتذكر أنه مات في السجن، دون أن يحقق حلمه الأخير، أن يخرج من السجن بأي ثمن، ليتم رحلته إلى تايلاند، ويحقق لقاءه المنشود بفتاة تايلاندية ضرب لها موعدا غراميا».

(٧١)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن في هذه المذكرات حديث عابر عن دور النبيل عباس حليم في مساعدة المعتقلين على الهرب:

«. . . وقد أسهم في تدبير أدوات الهرب: منشار، ومفكات، وغيرها، النبيل عباس حليم، الذي كان معتقلا معهم، وإن كان يتمتع بمزايا خاصة سخرها لتوفير المعدات المطلوب».

. . . .

. . . .

. . . .

(٧٢)

وعلى نحو ما فعل رفعت السعيد فى قصة هذين الأميرين أو النبيلين يقدم لنا رفعت السعيد قصة معرفته بواحد من المنشقين المهمين فى تاريخ الكنيسة المصرية الحديث، وهو إبراهيم هلال، الأصولى المسيحى الذى ثار على الأنبا يوساب فى واقعة معروفة فى تاريخ الكنيسة المصرية فى العصر الحديث:

«. . . وهناك التقيت بشخصية فريدة، الأستاذ إبراهيم هلال رئيس جمعية الأمة القبطية، وللمرة الأولى والأخيرة ألتقى بمن يمكن تسميته أصولى مسيحى، وكان يعرض أطروحاته بحماس متزن، فهو لا يعرف مدى ومساحة رد الفعل لدينا، لكن أغلب انتقاداته كانت موجهة للبطريرك آنذاك (الأنبا يوساب)، ومعاونه ملك، ولأسلوب الكنيسة فى إدارة نفسها، وفى إدارة حركة مطالبتها بمطالب الأقباط».

«وذات يوم طلبوه للزيارة، حضر صامتا ثم انتحى بى ليحكى لى القصة، زاره إبراهيم المنياوى باشا، أحد أقطاب الأقباط، ليبلغه رسالة من الحكام: هو سيمثل غدا أمام المحكمة، القاضى هو ذات القاضى المستشار م.ع، والترتيبات هى ذات الترتيبات (الإشارة التى يشيرها رفعت السعيد هنا يذكرنا فيها بالقاضى الذى عرض على أسرة رفعت السعيد أن يصدر عليه حكم بالبراءة فى مقابل مادى محدد)، والمساومة هى: أن يذهب للمحكمة ليعلن تأييده للحكومة، وأنه بتحركه فى محاولة اختطاف البطريرك كان يمارس عملا قبطيا صرفا، وأن يعلن تأكيده على حل جماعة الأمة القبطية، وإلا فإن القاضى مكلف بالحكم عليه بالسجن خمس سنوات أشغال شاقة».

«استشارنى، وانتابتنى حيرة، فأنا لم أزل أعانى من قرار المسئول المتشدد، وأعرف معنى تنفيذى لهذا القرار، لكننى لا أستطيع أن أدفعه دفعا إلى التخلى عما يعتقد، راوغته طويلا واعتذرت فى النهاية عن تقديم أية مشورة قلت له: فكر طويلا، وحكم ضميرك، صمت وقال: سأقضى الليل أصلى، وسيمنحنى يسوع القرار الصائب».

«فى الصباح عجلوا وأخذوه قبل أن نلتقى، عاد بعد الظهر، ترافع عن نفسه ودافع عما فعل (كان محاميا) فاجأ الجميع بأن حكى قصة زيارة المنياوى باشا، والمساومة التى عرضها عليه، وأكد أنه سوف يحكم عليه بخمس سنوات أشغال شاقة».

«استمع القاضى فى هدوء، والمحامون فى ذهول، وفى الغد أصدر القاضى الحكم المقرر، لم يتجاسر أن يغيره حتى ولو من قبيل إثبات خطأ المتهم، أو خطأ التهم التى ساقها إليه من أنه يتلقى أوامر من الأمن».

(٧٣)

ولا تفارق رفعت السعيد بالطبع هواية التأريخ من وجهة نظر ماركسية تعلى من شأن المتثمين والمنظمين، وتحط بكل ما أوتيت من قدرة من شأن «الآخرين»، ولعل فى حديثه عن الدكتور راشد البراوى، وحديثه الآخر عن الضابط مصطفى كمال صدقى ما يصور هذه الخصلة حين يتاح لها أن تسيطر على قلم قادر على تقديمها على نحو يتسم بالدهاء:

«وفى زمن آخر ألتقى فى السجن بمرفهين آخرين تسجنهم حكومة الثورة، وتأمر بمعاملتهم معاملة مميزة، د. راشد البراوى، الذى كان أثيرا لدى رجال الثورة، وتصور البعض، أو حاول هو أن يصور للناس أنه المفكر والمدبر لهؤلاء الشبان العسكريين، ما لبث العسكريون أن انقضوا عليه، عبثا حاولت أن أخدش وعاء معلوماته، أو حتى أعرف منه سر هذا الانقضاض، لكن المسكين كان مذعورا، وكان ذعرا مستديما، يخيم عليه فى كل لحظة، وفى كل تصرف، ينسى أى شىء إلا الخوف، لم ينطق بحرف، ولم يتفوه بلفظ، وكان يتصور أن خلف كل حائط ميكروفون للتسجيل، وأن كل رجل هو بالضرورة جاسوس للحكام، وظل هكذا دوما».

. . . .

«وكان هناك الغريمان الشهيران د. يوسف رشاد، ومصطفى كمال صدقى، كان رشاد يتكلم بلا انقطاع، نافورة دائمة من المعلومات المثيرة للدهشة، عن الملك وعن الضباط، وكان يتحدث عنهم بأسمائهم المجردة، وأحيانا بتهكم واضح، ويروى عنهم ما يثير السخرية منهم، دون التحفظ أو خوف، وكان أغلب حديثه منصبا على أنور

السادات، وعلاقتهما المشتركة، ودهشته كيف استطاع «أنور» أن يركب الجوادين معا، وحتى آخر لحظة».

«والعلاقة بين الغريمين الشهيرين تظل حميمة فى الظاهر، ويتبادلان الطعنات من الخلف دوما، أما الأكثر شهرة منهما معا. . ناهد رشاد، فكانت تحضر يوميا تقريبا لتقتسم الوقت المخصص للزيارة بينهما، لكنها قسمة غير عادلة، فلمصطفى النصيب الأكبر دوما».

(٧٤)

ونأتى إلى حديث الدكتور رفعت السعيد عن وقوفه هو وأقرانه أمام المحكمة العسكرية فى الستينيات، وما ارتبط بهذه المحكمة من ملابسات تاريخية طريفة تصل إلى حد المفارقات على نحو ما سنرى، وهو يبدأ حديثه عن هذه المحاكمة بداية ذكية يتعمد فيها أن يقدم رئيس المحكمة تقديمًا يكفل له أن ينقد المحكمة وتشكيلها وأداءها على نحو لا نهائى، وأن يفعل الشىء ذاته فى أحكامها كذلك، بل إنه ينسحب بأحكامه، دون أن يصرح بهذا، على مجمل أداء المحاكمات الشبيهة، وعلى مجمل أداء المشير عبد الحكيم عامر، وجماعاته. . وبالطبع على مجمل أداء الرئيس عبد الناصر وعصره.

ها هو رفعت السعيد يتحدث عن رئيس المحكمة فيصوره لا جاهلا بالقانون فحسب وإنما هو يصوره عاجزًا عن أن يفهم القانون وأصول القضاء وللمحاكمات من باب أولى.

وها هو رفعت السعيد لا يجد حرجًا فى أن يصف هذا القائد العسكرى البارز بأنه كان مسكينًا بمعنى الكلمة:

«. . . ولم يكن الفريق هلال عبد الله هلال قائد سلاح المدفعية، شريرًا، ولا كان طيبًا. وهو مجرد واحد مَن خيوط العنكبوت الناصرى، يؤمر فيطيع، فيجزل له العطاء لقاء طاعته».

وبالنسبة لنا كان مسكينًا. فحتى وهو يتشدد، ويستبد، ويصدر قرارات عسكرية صارمة وآمرة، كنا نعرف أنه مجرد منفذ للأوامر.

«وكان الفريق رغم استبداده لمفترض، وكونه واحدًا من أقرب المقربين للمشير عامر، مسكينًا بمعنى الكلمة».

«فهو جاهل بأولويات القانو ن الذى يفترض أنه سيطبقه، وهو من ذلك الصنف الذى يعتقد أنه قد تجاوز مساحة التعليم».

«ولكنه كان يخفى جهله بتكشيرة مستعصية على الانفراج، ويتجهم يوحى بالجدية، وبأوامر عسكرية آمرة. . . ولا شيء بعد ذلك. وهو لم يكن يعرف طبيعة القضية التى سينغمس فيها. . . تصور أننا مجرد أولاد مشاغبين، ضد الثورة، وينبغى تأديبهم بأحكام رادعة. لكنه فوجىء بمسألة معقدة غاية التعقيد، فالمتهمون يؤيدون حكم عبد الناصر. ومنغمسون فى كأس التأييد حتى الثمالة. لكنهم فقط يختلفون حول مسألة الديمقراطية».

«وزاد الأمر مشاكسة، أن يأتى له المتهمون فى الجلسة الأولى كومة مغلفة بالقطن والشاش والجبائر».

«ولعله أدرك الفخ، فبوليس أمن الدولة خشى أن يتأثر القاضى العسكرى غير المدرب بمقولات التأييد لزعيمه، فدمر المتهمين بأمل أن يذهبوا إليه ساخطين، شاتمين، معارضين. . . ولكن حتى هذا لم يحدث».

«وعلى المنصة اصطف أربعة من قادة الجيش، هو. . . (تركى الملامح، بشرة بيضاء سرعان ما ينسكب عليها لون أحمر صارخ مع كل انفعال. . . وما أكثر ما ينفعل). وضابطان عظيمان آخران؛ واحد من سلاح الطيران، وآخر لا أتذكر من أين أتوا به. . هم جميعًا من حوارىي المشير أتى بهم مكرمة منه، حيث استمرت جلسات محكمتهم بالإسكندرية لعديد من الأشهر حاكموا فيها ثلاث مجموعات ونالوا آلافًا عديدة من الجنيهات كبدل سفر».

«ثم المدعى العام العسكرى، وهو الوحيد اليقظ، المدرك، القادر على التعامل مع ابتكارات المحامين».

«وعندما فوجىء الفريق بمتهميه فى الجلسة الأولى مضروبين بوحشية مدمرة، ارتبك، وتعالى صراخ عائلاتنا، وتراكمت احتجاجات المحامين، ووقف شهدى عطية ليتحدث عما حدث مؤكدًا أننا لم نزل نؤيد الرئيس، وتداخلت الأصوات بصورة مربكة ومرتبكة. وتبدى واضحًا أن «الفريق» فقد السيطرة على السفينة التى يجلس فى

صدرها. وهنا مال المدعى العسكري على أذن عضو اليمين، الأقرب إليه، فمال بدوره على أذن الفريق.. وفتح الله عليه بـ «ترفع الجلسة» ومضى مهرولاً لدرجة أنه خيل إلينا أنه لن يعود».

«وبعد خمس دقائق، كان الفريق جالسًا على منصته من جديد، وقد استعاد كفاءته المفترضة، وبكلمات آمرة كطلقات المدفعية التي يتقن بالطبع إطلاقها قال: «قررت المحكمة تأجيل المحاكمة أسبوعًا، على أن تعقد الجلسات سرية».

«وانفرد بنا العسكريون، بعيدًا عن أية أعين أخرى».

(٧٥)

ويمضي الدكتور رفعت السعيد في سرد أحداث المحكمة والمحاكمة مركزًا على ما يؤيد وجهة نظره القاسية في هذا الأداء الصوري الذي واجه به النظام الناصري جماعات اليساريين الذين كانوا يؤيدونه بينما يرى النظام مصلحة في تأديبهم على هذا النحو:

«وتستمر المحكمة أشهرًا... والقاضي لا يتعلم، وللمحامون وأكثرهم محترف للدفاع في القضايا السياسة يقبضون أموالاً كثيرة، ويترافعون مجرد أده للواجب، دون أي توقع لإمكانية التأثير في القاضي... الذي كان يتركهم يصرخون بينما يبتعد هو بعيدًا بأفكاره، وحتى بنظراته، وزاد من سخافة اللعبة أن القاضي قد أبدى جهلاً مستعصيًا على فهم أوليات القانون».

«أحد المحامين حاول أن يجد ما يقول... فسأل هل الجريمة المنسوبة للمتهمين جنحة أم جناية؟ كان القاضي بعيدًا، فألح المحامي في السؤال حتى استعاده إلى ساحة المحكمة... ونكتشف أنه لا يعرف... هو فقط يعرف أننا متهمون... أما هذه المسائل المستعصية على فهمه فهي صعبة عليه ومن ثم فقد صرخ صرخة آمرة «اسأل المدعى... أو اقرأ الملف.. أنت جاي تمتحني؟».

«وأدركنا جميعًا - متهمين ومحامين - عمق الورطة التي أوقع فيها المشير رجله المفضل».

«لكن الأمر لا يمر بسهولة، فأحد المحامين يكتشف أمراً غاية فى الغرابة والبساطة. نسى الحكام أن يصدروا مرسوماً بتجديد إعلان حالة الطوارئ. . . فظلت مصر لشهر أو شهرين ـ رسمياً وليس واقعياً ـ خالية من ميكروب الطوارئ. تذكروا الأمر بعدها. وجددوا إعلان الحالة. لكن الغريب أن المرسوم الجمهورى الذى أصدره عبد الناصر بتشكيل المحكمة قد صدر خلال فترة الثغرة هذه. والمرسوم يستند إلى حق الرئيس فى حالة الطوارئ فى الأمر بتشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة مدنيين، وبهذا الاكتشاف المثير تلاعب المحامى بالمحكمة. . فقرار تشكيلها باطل. والتصحيح اللاحق غير مجد. ولا مفر من أن تنسحب المحكمة انتظاراً لمرسوم جديد».

«كان الفريق شبه نائم. . امتدت الهمسة المدركة لخطورة ما يقال من المدعى إلى عضو اليمين لتوقظ سيادة الفريق. استيقظ، انتبه، تابع المحامى المتحمس فى اندهاش واضح، لكنه لم يفهم».

«وتطلب الأمر همسة أخرى ممتدة كى يدرك حقيقة الورطة.

ولكن، هل يمكنك أن تحاصر الذئب بحبال المنطق؟»

فجأة انطلقت دفعات من الطلقات من رئيس المحكمة. . . «إيه يا أستاذ، أنت عايز إيه بالضبط؟ عايزنا نقوم نروح بيوتنا. . هو لعب عيال. . مرفوض يا أستاذ».

«حاول المحامى أن ينطق. فإذا بانطلاقة مدفع ثقيل الوطأة تدوى بكلمة واحدة «اسكت».

«وسكت المحامى، خلع روبه التقليدى وخرج من الجلسة ربما احتجاجاً، وربما اعترافاً بأنه لا جدوى، وقبل أن يصل إلى باب القاعة، امتدت يد إلى كتفه فى هدوء وحنان. واصطحبه أحد رجال أمن الدولة إلى المعتقل».

«ولا يحتاج الأمر بعد ذلك أن نصف خريطة الدفاع. . . كانوا يتكلمون «أداء واجب» وتبدى الأمر كمسرحية غير مقنعة الإخراج».

(٧٦)

وبعد أن يصل رفعت السعيد إلى وصف ما حدث على أنه «مسرحية غير مقنعة

obeikan.com

الإخراج» على نحو ما رأينا لتونا يفاجئنا بما فوجئت به المحكمة نفسها من تغير توجه النظام الناصرى واتجاهه بكل قوته إلي الأخذ بالمبادئ التى كان يحاكم عليها رفعت السعيد وأقرانه . . . وهكذا بدأ المحامون فى المشاغبة ، كما بدأ المتهمون يرددون الحديث عن أدوارهم البطولية فى ١٩٥٦ . . . ومع هذا فإن الأحكام الجاهزة كان لابد لها أن تمضى لتحكم على هؤلاء اليساريين بالسجن . . . . كى تزيد إحساسهم بالغربة والاغتراب فى ظل النظام الناصرى الذى أخذ لتوه بالتأميم فى قطاعى البنوك والصحافة :

«لكن القاضى مسكين . ألم أقل من البداية إنه مسكين وسيئ الحظ» .

«فأثناء المحاكمة صدر أول قرارات التأميم . . تأميم الصحافة والبنوك» .

«والتهمة الموجهة إلينا وفق نص المادة ٩٧أ من قانون العقوبات هى : الدعوة للاعتداء على ملكية الغير والمناداة بالتأميم» .

«وتنفس المحامون بعضا من المشاغبة» .

«وأخذوا يدافعون عن التأميم (والاعتداء على ملكية الغير) باعتباره سياسة رسمية مقررة . . . والقاضى مرتبك ، وحتى المدعى العام المدرب حاول أن يسد هذه الثغرة فتحدث طويلاً . . . فزاد الأمر ارتباكًا ، كان يهاجمنا فيبدو وكأنه يهاجم عبد الناصر . ويدافع عن عبد الناصر ، فيبدو وكأنه يدافع عنا . وشعر الفريق بملل وارتباك فأسكته . وسكت» .

«ومضت المحاكمة مرتبكة ، وزاد ارتباكها عندما بدأ المتهمون فى الدفاع عن أنفسهم ، وفى استدعاء شهود النفى ، حيث وقف أبطال معركة بورسعيد (١٩٥٦) ليشهدوا أن بعض المتهمين كانوا أول من اقتحم بورسعيد المحتلة ، ونظموا المقاومة الشعبية فيها» .

«وزاد من ارتباك المسكين أن تعالت نبرة التأييد مستندة إلى حائط التأميمات الجديدة .

«أخيرًا تنفس الفريق الصعداء ، وأنهى المحاكمة» .

«وعدنا مرة أخرى سجوننا وإلى ما كنا عليه، سلبوا منا ملابسنا وأحذيتنا، باختصار عدنا كما كنا. ولم يجرؤ القاضى على أن يواجهنا ليتلو علينا أحكامه وفق نص القانون، فالمتهم الأول فى القضية (شهدى عطية) استشهد فى غمار حوار ناصرى ذى طبيعة نازية جرى فى واحد من أبشع سجون الناصرية أوردى أبو زعبل. وكان الفريق يعرف أننا سنحمله المسئولية، فقد حذرناه المسئولية، فقد حذرناه أكثر مرة، لكنه أكد أن المحكمة تأمر «أن يُعامل المتهمون معاملة حسنة».

«وابتكروا شيئًا غريبًا. أن ينتقل المدعي العسكرى وحده إلى السجن ليبلغ كل متهم بالحكم الصادر ضده. وذات يوم، تعالت صرخات السجانة بانتباهات متعددة ووقف ضابط ينادى علينا واحدًا، واحدًا».

«فالمدعى لم يتجاسر على مواجهتنا مجتمعين... ولكن واحدًا.. واحدًا».

«ونودى عليَّ... صفان من المعسكر يحملون العصى لكنهم لا يستخدمونها: اجرى، كل منهم يأمر، وأجرى فى المجرى بين ضفتى العسكر لأجد نفسى فى غرفة المأمور، والمدعى العسكرى واقف بقامة مستقيمة كأنه فى طابور عرض. نادى الأم، قلت: نعم. قال: خمس سنوات أشغال شاقة. ربما لم أدهش، رغم أن المحامين أكدوا وببساطة شديدة أننى سأنال البراءة. فقد ضبطت فى الشارع، وليس معى أى مضبوطات».

«أنا على الأقل لم أكن أتوقع البراءة.

«وعندما قال: خمس سنوات أشغال شاقة».

«كان يجب أن أقول شيئًا. وأفلتت منى ـ لا أدرى كيف ـ كلمة... متشكر».

«واستدرت لأمضى. لكن المدعى أحس أننى أتهكم عليه، فصاح صارخًا تعال هنا... واستدرت إليه فسأل غاضبًا: متشكر على إيه... أنت بتتريق حضرتك.

تدخل المأمور مستعطفًا: لا يا أفندم، ده أصله مؤدب وابن ناس.

لكن المدعى صرخ: ودوه التأديب.

obeikan.com

وبقيت فى التأديب بعضاً من زمن .

ثم رحلنا إلي المحاريق» .

(٧٧)

ولا تتوقف المفارقات التى يجيد رفعت السعيد التقاطها عند حد ، ومن هذه المفارقات رواية طريفة ، بل هى فى غاية الطرافة عن لواء فى مصلحة السجون تعجب من أن يكون هناك شيوعى لا يفهم لدرجة أن يتوقع أن يكون هناك قانون حقوق إنسان فى مصر بعد كل ما جرى له ولأمثاله من الشيوعيين من تعذيب وتنكيل .

ولنقرأ هذه القصة ذات الدلالات المتعددة :

« . . . وفى اليوم التالى يحملوننا حملا مغلفين بالقطن والشاش إلى المحكمة ، وتكون المهزلة ، فالجلسة الافتتاحية يحضرها الأقارب والصحفيون ، ويحضرها أيضا مندوبان للجنة حقوق الإنسان العالمية ، ولاتحاد الحقوقيين العالمى أرسلهما رفاقنا الباريسيون ، ويفزع الجميع ، يتعالى صراخهم ، الأهل لا يستطيعون التفتيش عمن يخصهم بين أكوام القطن والجبائر المتشابهة ، سيادة الفريق أركان حرب رئيس المحكمة يقطر خجلا وهو يصيح : «ترفع الجلسة» ويسرع خارجا وخلفه بقية الحاشية العسكرية» .

«ونعود للسجن ليتلقى المأمور تأنيبا شديدا ، ويأتى وعلى الفور اللواء محمود صاحب أحد قادة مصلحة السجون ليحاول أن يمحو آثار هذا الحوار غير الملائم ، والذى أتى فى وقت غير ملائم» .

«فتح صاحب باشا الصناديق واحدا بعد الآخر ، وواسانا فى رقة ، معلهش ، أنتم رجالة ، استحملتوا كتير ، استحملوا دى كمان علشان خاطرى ، غلطة ومش حتتكرر» .

«وكان اللواء صاحب معروفا بهدوئه وابتعاده المتعمد عن الحوارات الشرسة ، والتعذيب ، ورفضه له ، ولهذا شعرنا دوما بقدر من الاحترام له ، وكانوا يعرفون ذلك ، فأتوا به ليهدئ من ثائرتنا ، وليعدنا ومن جديد للمحاكمة التى تقرر أن تبدأ سرا بعد أسبوع» .

«كنا نتقبل مواساة اللواء هادئين، فماذا يمكن أن نفعل أو أن نقول؟».

«انتهزت الفرصة وطلبت منه بعض المطالب الصغيرة فوافق على الفور آمرا المأمور بسرعة التنفيذ، لاحظ أننى أقف بصعوبة وسألنى عما بى؟ أشرت إلى رقبتى، تحسسها فى حنان، وقال ضاحكا: العب شوية رياضة، وأمر المأمور أن يترك الصندوق مفتوحا لأتمشى فى الممر».

«وفيما أبدأ أولى خطواتى المحاذرة والتى كانت كل منها تشع بألم خاطف كماس كهربائى صاعق، وجدت اللواء ينفجر كوحش شرس وشتائم بذيئة تتسارع نحو الصندوق التالى، ثم إلى قبضة حديدية لشاويش شرس تقبض على عنق نوبى نحيل لتجره، بينما الباشا يصيح خد الكلب ده على التأديب، فتى نوبى ضئيل كنواة البلح، وأسمر مثلها اسمه سيد حسن عبده».

«وفيما أحاول تجربة المشى من جديد، كان الباشا عائدا، ابتسم فى مودة: شد حيلك».

«تجاسرت وعاتبته، انتحى بى جانبا وسألنى: الولد ده شيوعى معاكم؟».

«قلت: نعم».

«لازم تطردوه».

«ليه؟».

«عشان حمار وابن كلب».

«وأخيرا حكى لى القصة، فتح صندوقهم وأطل عليهم بابتسامته محاولا مواساتهم، لكن الفتى النوبى النزق، صدق الرجل، فقال: إن ما فعلوه فينا مخالف للقانون ولحقوق الإنسان».

«ويمضى الباشا مفسرا سر معاقبته للرفيق، تصور بعد كل اللى جرى لكم لسه بيتكلم عن القانون وعن حقوق الإنسان، حيفهم امتى أن البلد دى ما فيهاش قانون، ده لازم تطردوه من عندكم، عيب يبقى معاكم واحد مبيفهمش».

«ولم أجد ما أجيب به الباشا».

«فقط رجوته ألا يبقيه فى التأديب».

«واستجاب الباشا».

. . . .

. . . .

وعلى مثل هذا النحو الطريف والذكى والمؤلم فى الوقت نفسه تنتهى معظم فقرات هذا الكتاب النادر والحصيف والممتع!

***

obeikan.com

obeikan.com

الباب الثالث

مجرد ذكريات: الجزء الثانى
مذكرات الدكتور رفعت السعيد

obeikan.com

obeikan.com

(١)

هذا هو الجزء الثانى من مذكرات الدكتور السعيد، وهو يحكى فيه عن تجربته فى ميدان مختلف تماما عن ميادين تجربته فى الجزء الأول، فهو فى هذا الجزء رجل مسئول بكل ما تعنيه الكلمة من معانى، لكنه مع هذه المسئولية يحس بكثير من الاغتراب، فهو يحس بالاغتراب مع الزملاء فى داخل مصر، ومع الزملاء فى خارج مصر، كما يحس بالاغتراب مع كثير من الأجواء فى داخل المجتمعات الاشتراكية، وفى خارج هذه المجتمعات، بيد أنه يجيد الحديث عن كل هذه الاغترابات وموقفه المبدئى والنهائى منها.

وهو يقدم فى حديثه انطباعاته الذكية عن كثير جدا من محطات التيار اليسارى فى القرن العشرين، بيد أنه لا يفرض رؤى ثابتة بقدر ما يفتح للمجال واسعا للفهم والتأمل والحوار، وهو يفعل هذا لا عن عجز عن التقييم والتصنيف والتوظيف، لكنه يفعله ليترك لنفسه وعقله الفرصة كى تتأمل الحقائق والنتائج فى ضوء هادئ من بصيرة قادرة على إدراك الحق والصواب.

(٢)

يدلنا الجزء الثانى من مذكرات الدكتور رفعت السعيد على أنه عانى من أكثر من نمط متقدم من أنماط الاغتراب المركب إن جاز هذا التعبير، ولنبدأ فى تناول أكثر هذه الغربات أهمية وقسوة وتأثيرا فى فكر صاحبها، وهى غربته حين أصبح مسئولا وممثلا لمصر فى مجلس السلام العالمى متعدد الجنسيات فإذا به فى نشاطه وأدائه يواجه مواجهة قاسية بما كان ممثل الاتحاد السوفييتى فى هذا المجلس يريد أن يمليه على توجهات هذا

المجلس فى نشاطه وفى مواقفه، وإذا هو يعانى من كثرة احتكاك ذلك الرجل به وتربصه بتصرفاته وآرائه بل تحرشه بنشاطه، وإذا هو يحس أن القرار الأصوب فى هذه الحالة هو أن يعود أدراجه إلى وطنه وأن يترك هذه المهمة لغيره.

ولنقرأ هذه العبارات المعبرة بصدق ودقة ووضوح عما اعترى تفكير صاحبها الدكتور رفعت السعيد فى لحظة حاسمة، وعما وصل إليه من قرار صائب:

. . . .

. . . .

«. . . عدت إلى بيتى منهكا ليس من العمل وإنما من التوتر، واستلقيت على السرير بملابسى عدة ساعات مضت وأنا لا أفكر محاولا تهدئة نفسى. أتيت إلى هنا لأتعلم وقد تعلمت بقدر ما، ونلت قدرا من المعرفة والعلاقات والخبرة، لا حاجة بى إلى منصب أو مال، أو سفريات، نلت ما يكفينى ويزيد من مرارة التجربة، وكنت وبصدق أخشى من تراكم المرارة لتتحول إلى حرب معلنة ضد السوفييت، ومثل هذه الحرب كانت كفيلة بأن تحيل أى إنسان مهما كان صادقا ومخلصا فى توجهاته وثوريته إلى معسكر الثورة المضادة».

«ولم أكن أريد لنفسى مصيرا كهذا».

«كذلك لم أكن أريد لنفسى أن أنكسر، فأعيش منكسرا وفاقدا قيمتى وقدرتى على قول لا».

«نلت ما يكفينى» سيطرت علىّ هذه العبارة، لقد أتيت لأبقى ثلاث سنوات، تسعة أشهر فقط عبأتنى بهذا القدر من المرارة، فكيف سأجد وعاء يكفى لمرارات أكثر، قلت لأرتب نفسى على انسحاب متوازن خلال ثلاثة أشهر، بعد لحظة وجدت شيئا فى داخلى يسأل: لم ثلاثة أشهر؟ يكفى شهر واحد، ومضت كرة الثلج تستدرجنى وتلح علىّ، البلد جميل، كموسيقى ناعمة دائمة. العمل ممتع، وأفق المعرفة لم يزل متسعا، ورحلات إلى أقاصى الأرض، وأماكن لم تكن لتحلم بأن تطلع عليها».

«وتعود كرة الثلج تتدحرج، يكفينى هذه المرارة، أنا فعلا أحب الاتحاد السوفييتى وأقدر جدا الحزب السوفييتى لكننى لو بقيت سأنفجر، سأصعد إلى أعلى جبل لأصرخ بأننى ضدهما، ولن أريد ذلك، لا لنفسى ولا لأصدقائى فى مصر».

«كنت أثق أن مرارتى مشروعة، لكننى كنت أكبحها، وألوم نفسى عليها، وأخاف على نفسى».

«وبقائى فى هلسنكى سيدفع بمرارات أخرى فى حلقى، وأنا لا أريد ذلك، كما أننى لا أريد لنفسى أن تعتاد على الخضوع الذليل دون قدرة على قول الصواب، ولا أريد لضميرى أن يضمر ويتآكل حتى يفنى، وتفنى معه أخلاقياتى، وأصبح مثل بعض مَنْ أرثى لهم».

«كنت فى هذه اللحظة بالذات كراهب يهرب بنفسه من الفتنة ليحفظ إيمانه من التبدد، ويقينه من الهرب».

«كان روميش مسافرا، وكنت أحل محله فى سلطاته، بما يمنحنى إمكانات إدارية ومالية واسعة».

«أمسكت بالتليفون، طلبت المسئول الإدارى فى بيته، قلت: ثمة طارئ ملح لسفرى للقاهرة، احجز لى مكانا على طائرة تغادر غدا، وأرجو أن تبلغ السكرتارية أننى سأقضى إجازتى فى القاهرة».

«لملمت أشيائى بسرعة حاسمة وكأنى أفرض على نفسى ألا تتراجع، وعندما أتى المساء كانت الحقائب مستعدة، وكأنها تستحثنى على الرحيل».

«وفى الصباح كنت فى طريقى إلى القاهرة».

«قلت لنفسى: أنت فى إجازة فكر، تأمل، راجع نفسك، تشاور، ثم قرر».

«عدت إلى البيت، وصخب الحياة، ودفء الأسرة، لكن المرارة المريرة التى لم أستطع أن أبوح بها لأحد ظلت تحاصرنى».

«بعد أيام، وبعد مشاورات مع خالد محيى الدين وأصدقاء آخرين، أرسلت برقية اعتذار عن العودة لأسباب شخصية، مجلسنا يرشح فلانا كى يحل محلى».

(٣)

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على نوع آخر من الغربة عاناه فى وطنه حين يجد نفسه وهو محرر فى مجلة «الطليعة» عاجزا عن أن يتوافق مع رئيس تحريرها الأستاذ لطفى الخولى الذى بدأ يأخذ عليه مضيه فى سبيل آخر غير سبيله.

وربما كان من الضرورى أن نشير (قبل أن ننتقل إلى حديث رفعت السعيد) إلى أن هذا الخلاف المتصاعد قد وقع حين كان لطفى الخولى يسعى لأن يكون بمثابة الرجل المصرى الأول فى مجلس السلام بديلا عن خالد محيى الدين، بينما كان رفعت السعيد بكل ما أوتى من قدرة يعمل من أجل الحفاظ على مكانة أستاذه خالد محيى الدين، ومكانه فى هذا المجلس.

ومن العجيب أن رفعت السعيد يعتبر خلافه هذا مع لطفى الخولى بمثابة وقوع الواقعة، بينما يعلم أو يعلمنا أنه هو ولطفى الخولى كانا مجردين من إرادة التغيير على نحو ما نرى فى نهاية ما يرويه:

«ثم وقعت الواقعة».

. . . .

. . . .

«كان لطفى الخولى أمينا للعلاقات الخارجية فى الاتحاد الاشتراكى، وهو موقع مرموق، خاصة فى نظر عديد من دبلوماسيى البلدان الاشتراكية الذين كانوا يتواصلون مع مصر الرسمية فى أحيان كثيرة عبر قناة العلاقات الخارجية. ففى كل سفارة «اشتراكية» كان هناك مستشار مخصص للاتصال بالاتحاد الاشتراكى باعتباره الحزب الحاكم، وكانوا هم أنفسهم، فى أغلب الأحيان، المكلفين بالاتصال بمجلس السلام، ومن ثم كنت أتصل بهم ليفاجأ لطفى الخولى بهم وهم يرددون ذات الموقف، وذات الحجج التى نرددها فى جلساتنا معه.. أو مع غيره».

«وذات يوم زاره فى مكتبه فى الاتحاد الاشتراكى فودور استفان مستشار السفارة المجرية، وكان صديقا حميما لى، وكنت قد أبلغته رسالة إلى حركة السلام المجرية

شارحا وجهة نظرنا، وتلقى فودور رسالة تطلب منه أن ينقل إلى لطفى الخولى أمل لجنة السلام المجرية فى الحفاظ على دور خالد محيى الدين فى حركة السلام، وكانت الرسالة مشفوعة بحديث كثير عن دور خالد محيى الدين العالمى، وعن تأثير الموقف منه على الموقف من المجلس المصرى للسلام».

«وخلال النقاش أسهب فودور فى تقديم حجج ومعلومات أفصحت عن أن ثمة مصدرا مصريا حدثه عنها، وانتهز لطفى الخولى الفرصة وثار ثورة ساخنة (ذات اللفظ الذى قاله لى فودور) وهدده أنه إذا لم يبلغه باسم «المصرى» الذى حدثه فى الأمر، والذى طلب إلى المجلس المجرى للسلام أن يتدخل، فإنه بصفته أمينا للعلاقات الخارجية سوف يوجه رسالة إلى الحكومة المصرية يبلغها فيها بقطع العلاقات والاتصالات بين الاتحاد الاشتراكى والحزب المجرى».

«وارتعب فودور وأدرك أنه قد وقع فيما يجب ألا يتورط فيه، خاصة أن لطفى استخدم عبارات كبيرة، وأسماء كبيرة كالسادات، وما إلى ذلك، ولو وجه لطفى رسالة كهذه لانتهى فودور نهائيا. حاول الرجل الإفلات، لكن لطفى كان قد أطبق على عنقه، وأمسك به فى مقتل، وأخيرا اعترف فودور بأننى الذى حدثته فى الأمر».

«كان مكتب لطفى فى الدور الثانى من ذات المبنى الكبير للاتحاد الاشتراكى، وكانت مكاتب مجلس السلام فى الدور التاسع، وصعد فودور فورا ليعتذر، وينذرنى، وهو يتصبب عرقا، بأنه أبلغ لطفى بما دار بيننا».

«وأدركت أننى مقبل على معركة كنت أتوقعها منذ البداية».

«فأنا فى نهاية الأمر محرر بالطليعة التى يرأس لطفى تحريرها».

«وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبى بالطليعة لأتسلم رسالة غاضبة من رئيس التحرير تتهمنى بالتقصير فى أداء واجباتى الوظيفية، وتحذرنى، وبألفاظ قاسية، من استمرار هذا التقصير، ورددت على الرسالة برسالة مهذبة، أو حاولت أن تكون كذلك، وإن كانت قاسية، ثم وبناء على نصيحة من إنجى رشدى أخذت الرسالتين إلى الأستاذ هيكل قرأ وأبدى دهشته، ثم حكيت له القصة، ضحك وقال: «لا تهتم فأنا الـ Boss هنا».

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على نوع من أنواع الغربة التى واجهها فى حياته اليسارية حين كان يفاجأ باستغلال القضايا الإنسانية واليسارية الكبرى استغلالا نفعيا يخلق منها قضايا فرعية صغيرة وضيقة الأفق على نحو ما حدث، وما اكتشفه هو نفسه صدفة من المتاجرة باسم حزب «التجمع» فى بيروت فى أثناء عصر الحرب الأهلية اللبنانية :

« . . . ذات يوم كنت فى زيارة لطلال سلمان فى جريدة «السفير».

«اشتكى (أى طلال) طويلا من حاجزنا الذى لم يجد لنفسه مكانا إلا عند مدخل «السفير»، سألت : أى حاجز؟ قال: حاجز حزب التجمع.

- أى تجمع؟

- أنتم.

- نحن؟ صرخت فى فزع مندهش».

«وإذ تملكتنى الدهشة توجهت على الفور عند المنحنى وجدت حاجزا براميله مكتوب عليها «حزب التجمع الوحدوى - مصر»، صعقت، توجهت إلى الشباب الواقفين أمام الحاجز، سألتهم مَنْ هم؟ سألونى مَنْ أنا؟ ذكرت اسمى، البعض سمع عنه، والبعض لم يسمع، فهمت أن مسئولهم أو زعيمهم شخص مصرى اسمه «أبو خالد».

«فى اليوم نفسه كنت عند أبو إياد حكيت له قصة هذا الحاجز قال: إنه تركه إكراما لنا، (ولم أصدقه) وطلبت منه رفع الحاجز، كتب قصاصة من ورق، وفيما نشرب القهوة ونحكى عن أوضاع القضية، أتى رجاله بشباب الحاجز، وبعدهم أتوا بأبو خالد (فيما بعد علمت أنه عمل كنقاش ثم اكتشف أن لعبة السياسة والحواجز والإتاوات وجمع التبرعات باسم التجمع أكثر ربحا، خاصة أن أسهم التجمع كانت عالية فى سماء بيروت وغيرها من المدن العربية بسبب رفضنا لكامب ديفيد، وما نتعرض له من ضغوط ساداتية كنتيجة لهذا الرفض)».

«أتوا بأبو خالد، كان واضحا أنهم أثقلوا عليه بمعاملة قاسية، ارتجف عندما وجد نفسه أمام أبو إياد، سأله: هل تعرف الأستاذ؟ وأشار إلىّ، ولم يعرفنى الرجل، ونال عدة صفعات، لكنه فى النهاية تحدث عن النضال، ورغبته فى مواجهة العدو الصهيونى، قال أبو إياد: أنا أعرف دواء هؤلاء، وأمر بإرسالهم إلى الجنوب حيث المواجهة مع إسرائيل».

«وعلمت فيما بعد أنهم عادوا، وعاد أبو خالد ليعمل نقاشا».

(٥)

فإذا أتينا إلى موقف اليسار من قضية السلام والصراع العربى ـ الإسرائيلى وجدنا رفعت السعيد يعبر فى مواضع كثيرة عما كان يشعر به من الغربة تجاه زملائه من اليساريين الذين لم يفهموا خطواته التى خطاها من أجل تواصل الحوار العربى ـ الإسرائيلى الداعى إلى استخلاص العون للقضية العربية فى صراعها المرير مع إسرائيل والقوى الدولية المؤيدة لها.

وفى ذكاء شديد يحرص الدكتور رفعت السعيد على أن يقص علينا قصة يشوش بها باقتدار وهدوء على مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات، وذلك من خلال الإيحاء الصريح بأنه هو نفسه كان قد عرف أن الاتصالات مع الإسرائيليين كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير، وهو معنى لم ينكره أحد من الرسميين المصريين حتى وإن لم يثبتوه، لكن رفعت السعيد، بما أوتى من قدرة، يسوقه كيما يدلنا على أن القنوات كانت متعددة، وأنه هو نفسه كان يعرف بوجودها منذ فترة وإن لم يصدق:

«. . . ذات يوم وفيما أندفع ظهر السبت إلى مدخل (فندق) الـ «كاساديلا كولتورا» كان ثمة شخص يجلس بهدوء يرتدى قبعة عالية، ويمسك بيده عصا هو ليس بحاجة أن يتكئ عليها (أشياء تلفت انتباهك، كى تتعلق بها وتنسى ما هو مهم من أشياء مثل الشكل والملامح وغيرها)، نظر إلىّ دون اكتراث، وظل جالسا مكانه، فى فترة الاستراحة كان لم يزل مكانه، فقط زاد سيجارا ضخما دخانه يعبث برائحة المكان. سألت دينافورتى (إيطالية عاشت فى مصر طويلا، وكانت مكلفة بالأعمال الإدارية

الخاصة بالمؤتمر) عن هذا الرجل، أجابت بدهشة: إنه ينتظرك. . سأل عنك. . وجلس. . وتصورت أنك تعرفه وتنتظر الانتهاء من الجلسات لتخرجا معا، ذهبت إليه قلت: أنا فلان، قال: أعرف. تصاعد مزيد من الدخان من سيجاره، أحكم القبعة العالية وكأنه يلفت نظرى إلى وجودها، أمسك بالعصا وانتحى بى فى أحد الأركان».

«قال دون أن يمنحنى فرصة المقاطعة: «أنا من إسرائيل. . أرجوك احمل الرسالة التالية إلى الرئيس السادات. . لماذا توقفت الاتصالات؟ نحن جاهزون لمواصلتها». (كانت العبارة متقنة كقذيفة واحدة، تنطلق دفعة واحدة، حيث لا تتيح لك فرصة القول بأنك لست ممثلا للحكومة ولا للرئيس، أو أن تسأل مَنْ أنت؟ أو عن أى اتصال تتحدث؟))».

«قال العبارة وانتهز فرصة ذهولى ومد يده بالسلام وذهب».

«طوال الليل، وطوال رحلة العودة لهلسنكى كنت أستعيد الشكل والملامح والعبارة وأفكر. . لماذا أنا؟ وهل الإسرائيليون سذج إلى هذا الحد؟ إلى درجة أن يتصوروا ببراءة أنني يمكن أن أحمل هذه الرسالة؟ وإذا كانت ثمة اتصالات، فلماذا لم يلجأوا إلى قنواتها؟».

«وخيّل إلىّ أن البعض الذى سمع كثيرا عن مؤتمر يفتش عن سلام عادل عبر عمل وتواصل شعبى، أراد أن يبلغنا، وببساطة، أن العلاقات الرسمية بدأت، وأن السلام الرسمى ممكن، وربما أيضا أنه لا مبرر لكل ما تفعل».

«تكاثرت الاحتمالات ولم تزل تتكاثر برغم فوات الزمان، وثبوت الرؤية، والتأكد من أن العلاقة كانت متواصلة فى ذلك الزمان».

«قال أحد المتحمسين فى صناعتها عندما حكيت له هذه الحكاية، ربما كان طرف إسرائيلى ما قد أراد الضغط علينا بتسريب معلومة عن الاتصالات السرية إليكم».

«المهم وصلت هلسنكى مساء الأحد، صباح الاثنين كنت أشرب القهوة مع السفير المصرى جمال بركات فى مكتبه بالسفارة، حكيت له القصة كما هى، استعادها مرتين، صمت قليلا، ولعله استعاد كل خبرته فى السلك الدبلوماسى ثم وقف بقامته

القصيرة وقال: كصديق أنصحك ألا تدخل نفسك فى عش الدبابير، انس الموضوع وكأنه لم يحدث، وأنا من ناحيتى سأنساه ولن أبلغ القاهرة بشىء».

«ومع تواصل الحوار قلت: إذا أخفيت الموضوع فقد يتهمنى البعض بأننى اتصلت بالأجهزة الإسرائيلية سرا، قال: فى هذا عندك حق، واتفقنا أن يبلغ القاهرة برسالتى».

«وبعد يومين تلقيت مكالمة من خالد محيى الدين.. السادات غاضب جدا (ربما لأنه أحس بتداخل الخطوط، أو أنه لم يفهم باعث الإسرائيليين على مثل هذا الاتصال)، وأن د. حافظ غانم أمين عام الاتحاد الاشتراكى قد أصدر قرارا بفصلى من عضوية الاتحاد بتهمة الاتصال بالعدو الصهيونى (ألغى هذا القرار بعد أيام، فقد كان مجرد إنذار بألا أفعلها مرة أخرى وكأننى فعلتها فى المرة الأولى)».

«ولم أزل أستعيد فى ذاكرتى هذه الواقعة، دون إمساك بحقيقة بواعثها».

(٦)

ويعترف رفعت السعيد أنه بسبب غربته مع اليسار المصرى وتوجهاته المتعددة كان قد اضطر فى بعض الأحيان إلى أن ينشر كتاباته باسم مستعار حتى لا يصطدم مع التيار الذى ينتمى إليه:

«... وأثمرت جلسات السكرتارية كتابا من أحب ما كتبت، قرأه خالد محيى الدين فى واحدة من زياراته لهلسنكى لحضور اجتماعات رئاسة المجلس، أعجب بالكتاب، لكنه تعجب من رغبتى فى نشره، فسوف يثير زوبعة ليس ضدى شخصيا فحسب، ولكن ضد تيار بأسره، وربما ضد المجلس المصرى للسلام أيضا، وهكذا اتفقنا على أن يصدر كتاب «تأملات فى الناصرية» باسم سرى «محمد فريد شهدى» (اسم مركب من «محمد فريد» الزعيم الوطنى الأقرب إلى قلبى، وشهدى عطية الرفيق المحبب إلى قلبى أيضا)، وقد نشرت العديد من المقالات والدراسات فى مجلة «دراسات عربية» بهذا الاسم، ونشرت «دار الطليعة» (بيروت) الكتاب، طبعته مرتين بالاسم السرى، ثم تجاسرت (بعد أن تغير الزمن بعض الشىء) فنشرته باسمى الحقيقى».

(٧)

ويتحدث الدكتور رفعت السعيد عن غربته مع بعض الفصائل الفلسطينية التى لم تكن حريصة على ذلك التقارب الذى بدأ بين حزب التجمع المصرى والرئيس مبارك فى بداية عهده، بينما كانت هذه القوى والفصائل الفلسطينية والعربية لاتزال حريصة على استمرار قطيعة اليسار عن رموز الدولة المصرية :

« . . . كان رحيل السادات بداية لمشكلات جديدة مع البيروتيين الذين كان البعض منهم يتصور أنه يوجه رياح الكون ويحدد اتجاهاتها، فكثير من قادة المنظمات الفلسطينية تصور أن واجبنا تأييد اغتيال السادات (وقد أعلنا إدانتنا للاغتيال كمبدأ، وإدانتنا لسياسات السادات)، وتصور البعض أنها الفرصة لتأكيد سياسته الخاصة بالعنف المسلح، وأنها الفرصة لمواصلتها، حتى يتم إسقاط النظام، والأهم من ذلك كله إسقاط كامب ديفيد».

«فإذ لاحظوا أن الرئيس الجديد قد استقبل زعماء المعارضة، وإذ لاحظوا هدوءا فى لهجتنا، مع إصرارنا على رفض السياسات الساداتية (إلى درجة أننا طالبنا الجماهير بأن تقول «لا» للرئيس المرشح لأنه أعلن التزامه بسياسات سلفه) فقد صبوا هجوما عنيفا علينا امتد من الصحف إلى البيانات، وشارك فيه لبنانيون مثل محسن إبراهيم الذى ألقى خطابا حادا هاجم فيه، وبالاسم، تهادن خالد محيى الدين ورفعت السعيد، لأننا قبلنا مقابلة الرئيس مبارك، وكأنه كان من المفترض أن نرفض».

«وفى إطار هذا المناخ المكهرب وصلت إلى بيروت، وفور وصولى انتشرت شائعات افترشت مساحات كبيرة من صحف كثيرة، إننى قادم للوساطة بين كامب ديفيد المعدلة (مبارك) وبين أبو عمار (وكأن هذه الأطراف كانت تفتقد الصلة فيما بينها)».

«وفى تحد للأقاويل والهجمات ضد حزب التجمع، اقترحت أن أتحدث فى مؤتمر صحفى، وقام الصديق زياد عبد الفتاح مدير وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» بالدعوة للمؤتمر».

«ولاحظت (للأسف) أن أكثر الذين أتوا ودفع بهم إلى المؤتمر ليوجهوا أكثر الأسئلة الهجومية حدة، كانوا من أطراف أو شوائب اليسار المصرى المختلفة، المهاجمون

obeikan.com

الأصليون تستروا، أو تحرجوا (بسبب صداقات قديمة ولابد لها أن تستمر)، أو لم يرغبوا فى مجابهة تفسد المودة الظاهرية مع حزب مصرى هو الأكثر نضالية ضد كامب ديفيد».

(٨)

وها هو رفعت السعيد يحرز نجاحا ساحقا فى مواجهة هذه التيارات، ويستخدم بلاغته وقوة حجته وقدرته على الجدل فى مواجهة علنية من أجل الانتصار للخط السياسى الذى سار فيه حزب التجمع منذ ذلك الحين:

«وانهمرت الأسئلة، أو الهجوم الذى تمت صياغته فى صورة أسئلة تتحول عادة إلى خطب ملتهبة بحماسة غير منضبطة. الإدانات تراكمت بلا حصافة ولا تردد، وقررت أن أستخدم الأسلحة الثقيلة فى مواجهة الأسئلة الثقيلة. كانت ردودى عنيفة وحادة، ومع العنف فى الإجابات ساد الهدوء، فقد شعر السائلون أن هجوما مضادا يمكنه أن يضعهم فى حرج».

«شاب مصرى قال إنه يسأل نيابة عن مجلة «الهدف» (الجبهة الشعبية) تحدث ربع ساعة أو أكثر ليتهمنا أننا كنا دوما متهادنين مع الحكم، خاصة مع السادات، وأن الجماهير المصرية كانت جاهزة لتحرك أكثر حدة لولا أن «القيادة» (التى هى نحن) تخلت عنها وتركتها ضائعة، وكانت إجابتى بسيطة: «وأين كنت أنت وزملاؤك؟ تركتم الجماهير الجاهزة للثورة وأتيتم إلى بيروت خوفا من التصادم حتى بالكلمات أو حتى الهمس بها؟».

«وصمت المسكين.. وصمت كل المصريين.. وساد المؤتمر الصحفى هدوء، فالفلسطينيون لا يريدون توريط أنفسهم».

«لكن تحييد المدفعية المصرية أجبر الآخرين على الحديث، وتحدث شاب من مجلة «الحرية» (الجبهة الديمقراطية) وتحدث بأسلوب نظرى معقد عن دور الفرد، ودور النظام، وبليخانوف ورؤيته لدور الفرد، وانتقادات لينين لها، وخلص من ذلك إلى فكرة تقول: إن النظام العام يملى إرادته على الحاكم، وإن مبارك أراد أو لم يرد هو

مضطر لأن يصبح ساداتا آخر، بالسياسات نفسها، والمنهج نفسه، والأسلوب نفسه».

«وتحدثت باختصار عن الفكرة النظرية التي فهمت خطأ حول دور الفرد، وعن أن له دورا ما، خاصة في دول العالم الثالث، سألته: هل ستالين فعل مثلما فعل لينين؟ الحزب هو الحزب، فلم لم يفرض إرادته على الفرد الآخر؟ ثم ألقيت إليه بقنبلة لم يكن يتوقعها قلت: هل نايف حواتمة مثل ياسر عبد ربه؟ وهل كل منهما مثل الآخر طالما أن الحزب سيملي إرادته الواحدة التي لا تتغير بتغير الأفراد؟».

«وكان زعيما الجبهة الديمقراطية التي تحدث هذا الشاب باسمها يخوضان صراعا مريرا ومكتوما ومتكتما عليه فيما بينهما، وكنت آتيا لتوى من مقابلتين منفصلتين مع كل منهما استمعت فيها إلى اتهامات عديدة متبادلة».

«سقط السؤال فوق رأس الشاب المسكين، ولم يجد إجابة».

«وأيقن الحاضرون أنه ليس من السهل افتراسي، فأصبحت الأسئلة أهدأ، والأسلوب أنقى، ومن ثم كانت الإجابات أكثر هدوءا».

«وبعد هذا المؤتمر الصحفي هدأت بيروت، سواء اللبنانية أو الفلسطينية، وصمتت أصوات الهجوم والتهجم ضد حزب التجمع».

(٩)

ويدلنا الدكتور رفعت السعيد على ألذ أنواع الغربة التي عاشها حين وجد هو وأقرانه من مؤسسي منبر (ثم تنظيم ثم حزب) التجمع الوطني التقدمي الوحدوي صعوبة مذهلة في الحصول على عشرة توقيعات لعشرة من أعضاء مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي من أجل استكمال الإجراءات الخاصة بقيام هذا المنبر، ونحن نرى درجة التشويق فيما يرويه رفعت السعيد عن هذه الوقائع عالية إلى حد مثير، وقبل هذا فإنها تقدم تقييما واضحا لرموز يسارية معروفة من وجهة نظر صاحب المذكرات

. . . .

. . . .

«لم يكن الأمر سهلا».

«فمنذ اللحظة الأولى قفزت صيحات متطرفة تستنكر فكرة العمل فى إطار حزب السلطة (الاتحاد الاشتراكى)، وأخرى تستنكر القبول بشروط برنامجية، لكن التيار الأكثر تعقلا فى اليسار قبل بالفكرة ليس باعتبارها منحة، وإنما كمعركة، نصحح مسارها وأدواتها وتوازناتها عبر الممارسة».

«وحيث تراكمت صيحات اليساريين المتطرفين (العمال الشيوعى، و٨ يناير) فى سلة الرفض للفكرة، تمحورت مجموعة أخرى حول عبد الرحمن الشرقاوى سميت بمجموعة روز اليوسف (صلاح حافظ ـ حسن فؤاد ـ أحمد حمروش)، ومعهم سعد كامل، ومحمود توفيق».

«ولم تكن هذه المجموعة راضية عن تولى خالد محيى الدين رئاسة المنبر، كما لم تكن راضية عن التوجه الذى بدأ فى التبلور عبر المشاورات الأولى، والذى تمثل فى أن المنبر مفتوح لكل القوى اليسارية والتقدمية، أى هذا التوجه الذى عبر عن نفسه بعد أن نضج فى فكرة المنبر المتعدد التيارات. والغريب أن هذه المجموعة، وهى ذات ميل سياسى معتدل للغاية وبعيد تماما عن التشدد، كانت ترى ضرورة أن يقتصر تشكيل منبر اليسار على العناصر الماركسية (ربما لأن ذلك يفسح مكانا للجميع فى القيادة، بينما المنبر المتعدد التيارات يفرض على الماركسيين أن يمثلوا بعدد محدود جدا فى القيادة)».

«لكن مسيرة تأسيس المنبر تواصلت».

«وعقدت الجلسة الأولى للتشاور فى بيت حسين فهمى، وحضرها فيما أذكر: خالد محيى الدين ـ حسين فهمى ـ د. فؤاد مرسى ـ د. إسماعيل صبرى ـ د. إبراهيم سعد الدين ـ لطفى الخولى ـ أبو سيف يوسف وأنا».

«وفى هذا الاجتماع طرحت فكرة المنبر المتعدد التيارات، ولقيت قبولا من الجميع، وتوالت الاجتماعات بعضها فى بيت د. فؤاد مرسى، والأغلب فى بيت حسين فهمى، واتسعت دائرة الاتصالات، وأبلغنا د. إسماعيل صبرى مبتهجا بأن د. يحيى الجمل (قومى عربى) قد وافق على الانضمام إلينا، وقد أشار بدوره بالاتصال بالدكتور

محمد أحمد خلف الله، الذى رحب هو أيضا بالفكرة وقبل الانضمام إلى المنبر، وقام خالد محيى الدين وأنا بزيارة لكمال رفعت، ولطفى واكد فى دار النشر الخاصة بهما، وكان لطفى واكد متحمسا، وكذلك كمال رفعت، لكن كمال رفعت كان يراهن على التأنى حتى يجمع العناصر الناصرية الشابة التى كانت تكثر من الصياح والحركة بأمل أن يصبغ المنبر بصبغة ناصرية. والصبغة الناصرية تعنى عندهم أن يكون رئيسه ناصريا».

«وفيما انهمك البعض فى إعداد مشروع البرنامج ومشروع اللائحة، كان البعض (خالد محيى الدين وأنا) يبذل جهدا مضنيا فى استيفاء شرط التوقيعات العشرة من أعضاء مجلس الأمة، أو اللجنة المركزية».

«وفى البدء كان هناك أربعة توقيعات: خالد محيى الدين - د. فؤاد مرسى - أبو سيف يوسف - لطفى الخولى».

«اتصلت بزكى مراد الذى سافر بالطائرة إلى أسوان ليعود بتوقيعين: عبد الهادى يعقوب، وعبد الستار ميرغنى (أحدهما عضو مجلس أمة، والثانى عضو لجنة مركزية)».

«ويبقى أربعة».

(١٠)

وهنا يأتى حديث رفعت السعيد المنحاز بوضوح ضد توجهات القطب الناصرى والبرلمانى كمال أحمد وتصرفاته:

«. . . وبدأت مساومات مريرة ومضنية مع مجموعة من الشبان الناصريين كان يمثلهم فى التفاوض كمال أحمد، وعدد آخر من الشباب الأصغر سنا كانوا يبالغون فى قوتهم، وكنا نعلم أن لديهم توقيعين فقط، لكننا بحاجة إلى هذين التوقيعين».

«كانت ساقية المناقشات تدور بلا توقف، وتحولت إلى صداع مرهق، الكلام السياسى كثير لكنه فى نهاية الأمر ينحصر فى أن كمال أحمد يشترط أن يكون رئيسا للمنبر، بزعم أن الشارع السياسى لن يقبل زعيما لليسار غير ناصرى (كان يكرر بلا ملل ولا تردد يريد ناصريا ولو كان لوحا من خشب)».

«كان قادة الناصريين المعتمدين فى السجن، وكان كمال رفعت يحاول جهد طاقته أن يحتوى هؤلاء الشبان دون جدوى، بل إن كمال أحمد كان يحرضهم ضده خوفا من أن يصبح كمال رفعت هو المتحدث باسم الناصريين، وبدأ هؤلاء الشبان فى ترويج فكرة أن كمال رفعت اختلف مع عبد الناصر، ومن ثم فهو ليس ناصريا».

«وعندما استطالت الاجتماعات إلى ما لا نهاية، واستطالت الخطب إلى حد الملل، اكتشفنا أن هؤلاء الشبان يحاولون استدراجنا إلى حافة اليوم المحدد للاجتماع المشترك الذى سيعلن إقرار برامج المنابر، معتقدين أننا إن وصلنا إلى الحافة وأصبح الخيار ما بين منبر بزعامة كمال أحمد أو لا منبر على الإطلاق، فإننا سنرضخ لزعامة كمال أحمد».

«ولهذا قررنا أن نواصل اتصالاتنا لتجميع بقية التوقيعات سرا، وأن نمد لهم حبال المناقشة لعلهم يقتنعون».

«وبالفعل وفيما كان النقاش ممتدا معهم ليستعيد ذات الكلمات وذات الحجج، كنت فى غرفة أخرى مجتمعا مع ثلاثة هبطوا علينا من السماء عاملان وفلاح كانوا قد حاولوا تأسيس منبر عندما فتح الباب على مصراعيه، فلما أغلق أتوا إلينا».

«محمد عبد السميع - على طلخان - محمود عيد، والثلاثة أعضاء فى اللجنة المركزية، رحبنا بهم، وقد حاول محمد عبد السميع فى البداية أن يبدو مهتما بمشروع البرنامج مطالبا بإضافات متعلقة بالشريعة، وقد سويت معه الأمر بسهولة، وبعد مناقشات هامشية وقع الثلاثة وأصبح الموقعون تسعة».

(١١)

ونأتى مع رفعت السعيد إلى الحلقة الأخيرة فى المسلسل المشوق المتميز الذى صور به بدقة ومهارة نشأة حزب التجمع حين كان لايزال منبرا، وقد انتهت هذه الحلقة نهاية سعيدة بانضمام قبارى عبد الله إلى الموقعين ليكونوا عشرة، ولينشأ منبر لليسار:

«وبقى واحد».

«وخيل إلىّ أن الأمر قد وجد حلا سعيدا، فهناك أحمد طه (عضو مجلس الأمة) ولابد أنه سيوقع».

«وبساطة اتصلت به تليفونيا لكن إجابته كانت غير مشجعة، أطال فى الحديث، وتحدث عن شكل المنبر وتكوينه، وأخيرا وعندما علم أن لدينا تسعة توقيعات، وعد بأنه إذا توقف الأمر عليه فإنه سيوقع».

«متى ؟».

«أجاب: فى الاجتماع المشترك».

«ولم يكن بالإمكان المغامرة فى أمر كهذا أن تذهب إلى الاجتماع بتسعة توقيعات بأمل أن يوقع لك العاشر فى الاجتماع ذاته، فماذا لو حضر متأخرا، أو لم يحضر أصلا، أو استجد ما جعله يتحفظ ؟».

«وقررنا أن نبحث عن توقيع عاشر».

«كل ذلك والنقاش ممتد، ساخن، وطويل، وممل مع مجموعة الشباب الناصرى، وكلما اقترب الوقت تصوروا أننا سنركع أمامهم ونقبل ما يشترطون، ومن ثم كانوا يزدادون تشددا».

«وتذكرت قبارى عبد الله (عضو مجلس الأمة)، وأسرعت إلى عبد المنعم القصاص الذى كان على علاقة حميمة به، وأتى قبارى، كنت أراه لأول مرة، كان بسيطا وسمحا وصريحا، قال إنه يريد أن يستشير البعض».

«واستعار سيارة ليسرع إلى الزيتون، لم يكن هناك وقت كاف، فقط بضع ساعات على الاجتماع المشترك، وأسرع إلى الزيتون ليستشير صديقا له هو محمد عباس فهمى، وأشار صديقه ألا يوقع».

«ورجع الرجل مهموما».

«لكن الأمر لم يحتج إلى نقاش طويل معه».

«فقط قلت له بوضوح إن توقيعه ضرورى كى يقوم منبر علنى لليسار».

«وساعتها قبل أن يوقع راضيا».

«اكتملت التوقيعات العشرة».

«دخلت إلى ذات الغرفة التى شهدت المباحثات المطولة مع الناصريين، كان خالد محيى الدين يبدو منهكا من فرط ما صبر واحتمل، مررت إليه ورقة صغيرة «قبارى وقع واكتملت التوقيعات العشرة»، عاد الصفاء إلى ابتسامته، وتفاهمت أعيننا أن نواصل النقاش».

«لكن أسلوبنا فى النقاش اختلف قليلا، نحن الآن لسنا بحاجة إلى أن نخضع لشروط غير مقبولة، وفيما النقاش ممتد خرج كمال أحمد، واستدعتنى السكرتيرة لأمر مهم، وكان الأمر المهم أن كمال أحمد يريد أن يتحدث معى منفردا، وسرنا معا عبر الردهة الطويلة فى الدور التاسع من مبنى الاتحاد الاشتراكى (حيث مقر للمجلس المصرى للسلام، وحيث أجرينا أغلب مباحثاتنا واتصالاتنا). اتخذ حديث كمال أحمد مذاقا خاصا، وعبر التفافة طويلة، ومبهمة فى أغلب الأحوال، حاول أن يفهمنى أنه ليس ناصريا بالمعنى المفهوم، لكنه يميل إلى الماركسية، وأنه على علاقة خاصة جدا ببعض الماركسيين فى الإسكندرية، ولعله قد تصور أنه بذلك يمكنه أن ينال منى ما يريد».

«ولم أنطق، استمعت فقط دون تعليق».

«وكانت الساعات الباقية على الاجتماع المشترك قد تآكلت، ولم يتبق سوى بضع دقائق تكفى كى يهبط خالد محيى الدين بالأسانسير ليصل إلى حيث ينعقد الاجتماع المشترك فى المبنى ذاته».

(١٢)

نتنقل بعد هذا كله إلى طراز آخر من الاغتراب يمثله الاغتراب الذى أحس به صاحب المذكرات أمام القوة التى أصبحت بمثابة المهيمنة بمفردها على مقدرات السياسة الدولية فى عصر أحادية القطب !!

ونحن نقرأ لرفعت السعيد حديثا مختلفا عن الحياة الأمريكية، وهو حديث مختلف فى كل مكوناته، مختلف فى معطياته، ومختلف فى بداياته، ومختلف فى نهاياته، ومختلف أيضا فى موضوعاته.

ها هى الفرصة تتاح لرفعت السعيد لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا هو على حد ما يروى لنا يفاجأ بما اكتشفه فى نفسه من صعوبة أو استحالة تقبله لحديث الأمريكيين عن ديمقراطيتهم:

«. . . ومنذ وقوفك على الخط الأصفر الفاصل بينك وبين رجال الجوازات الأمريكى، تجد كل شىء، وكل شخص، وهو يلح بشكل مفتعل، ومنفعل، على الإيحاء لك بأنك فى عالم آخر، فإن لم تتقبل الإيحاء برضاء (ورضا) مستسلم، فإنه يخزك كى تبتلعه مرغما».

«وثمة مرافقان رجل وامرأة، أبيض وسمراء، أو بالدقة سوداء، وتظل هذه السمراء تلح منذ الهمسات الأولى على أنها شىء مختلف، مضطهدة ليس لأنها زنجية، وإنما لأنها يسارية، لأنها كانت على علاقة وثيقة بأنجيلا ديفيز، وقد يكون هذا صحيحا، لكن المفروض والمفترض أن تتقبله بتشكك يستشعر الشوك فى كل كلمة، والشك فى كل تصرف».

«واكتشف أننا مجموعة: فلبينى (صحفى) مالطى (نائب وزير الخارجية) أفغانى (رئيس وكالة الأنباء الأفغانية التابعة للمجاهدين طبعا) وأردنى (سفير)».

«جلسنا فى محاولة للتعارف، انتفض الفلبينى دون توقع، ودون مناسبة ليصرخ فى وجه الأمريكيين: «لماذا تبقون فى بلادنا؟ لا نريدكم ولا نريد قواعدكم»، لم يعلق على حديثه أحد، لكن شيئا ما حدث، فقد كان فى اليوم التالى هادئا . . سعيدا . . ولم يثر قط موضوع القواعد مرة أخرى».

«وهدف الإبهار يبقى متسلطا، فهم يتعمدون أن يتنقلوا بنا كل يوم عدة مرات من قاعة لأخرى، ومن فندق لآخر، رغم أنه بالإمكان مواصلة اللقاءات فى قاعات الفندق الذى نقيم فيه».

(١٣)

ويحرص رفعت السعيد على أن يضرب الديمقراطية الأمريكية فى مقتل حين يصفها بأنها ديمقراطية تقوم على التلقى فقط (!!):

«ومنذ المرة الأولى لاحظت أن الديمقراطية الأمريكية تقوم فقط على أساس التلقى، تعد الندوات إعدادا متقنا، القاعة مغلفة بالإبهار . . المقاعد وثيرة . . مشروبات ومأكولات بلا نهاية . . محاضرون أذكياء يتسللون عبر الموضوعات بكفاءة، ويغلفون كل شيء بخفة دم غير مفتعلة، فتجد نفسك تبتسم، ثم تضحك، وتستمع وتستمتع، وتفهم فى آن واحد، والزمن محسوب بعناية فائقة، فما أن ينتهى آخر المتحدثين حتى تكتشف أن الوقت قد داهمنا، وأننا مضطرون إلى القفز إلى مكان آخر، ولا يبقى أمامك سوى أن تبتلع تساؤلاتك أو تعليقاتك».

«أدركت اللعبة من المرة الأولى، وعندما تكررت أيقنت أنها مقصودة، وقررت أن أشعرهم أننى لست ساذجا إلى هذا الحد، حاولت أن أناقش الموضوع مع المالطى فقال: أنا هنا كى أتعلم. أريد أن أعرفهم جيدا وليس لدىّ ما أقوله، والأردنى قال: أنا سفير ولا أريد تعقيدات قد تدمر مستقبلى».

«واعتمدت على قدرتى على المباغتة، أخذونا إلى قاعة رائعة واصطف على المنصة متحدثون من هيئة المعونة الأمريكية، بعد ساعتين بالضبط لدينا موعد مهم فى الكونجرس، كل منا مع بعض المختصين أو الأعضاء المهتمين بمنطقته».

«مضت ساعة ونحن نسمع، ونستمتع، ونضحك. نتناول نسكافيه أو شاى أو حلويات. ساعة ونصف ساعة ولم يبق سوى وقت قصير، ومتحدث لم يتكلم بعد، مكلف بأن يستهلك كل ما تبقى من وقت، وقبل أن ينطق كنت أتحدث، قلت: لسنا طلبة فى مدرسة ثانوية نستمع ولا نناقش، أنا لدىّ أسئلة وتعليقات».

«قال رئيس المتحدثين (وهو زنجى) بقرف: بعد أن ننتهى من الحديث، قلت: ستنتهون بعد أن ينتهى الوقت».

(١٤)

عند هذا الحد يجد رفعت السعيد (بما تمرس به من قدرة على الجدل) أن فرصته لتحقيق الفوز قد حانت، وها هو يلتقط الفرصة (ولا نقول ينتهزها) ويبدأ فى رواية ما فعل وما أمكنه به أن ينتصر على دعاوى الأمريكيين:

«. . . ولم أتركه يقاطعنى ومضيت قائلا : على أية حال أنا لست مهتما كثيرا بالأرقام التى أوردتموها وتحدثتم عنها، وحتى لم أتابعها (وقعت هذه العبارة عليهم وقع الصاعقة) فقد كنت مشغولا بأمر آخر يقلقنى، ويقلقنا جميعا فى مصر، هل ثمة دور تجسسى تقوم به منظمتكم؟ والذى يدفعنا إلى ذلك الحقل من الشكوك هو إصراركم على التغلغل فى أعمق أعماق المجتمع، تذهبون بأنفسكم إلى القرية والحى، فلماذا؟ (الصاعقة أشعلت نارا فى القاعة، خاصة المنصة، لقد تعمدت أن أقذف بحجر ضخم فى زجاج الحديث حتى أستخدم فرصة الدقيقة التى انتزعتها بأقسى استخدام ممكن».

«ووجم الجميع».

«كان الأردنى ينظر ببسمة ماكرة، والفلبينى ربما يتساءل لماذا لم يطوعونى كما طوعوه؟ لكن سؤالى رغم وضوحه ظل صامتا».

«أما مَنْ على المنصة فقد انحنوا مثل قضاة الأفلام يتهامسون، وأمسك الزنجى بالميكروفون وقال: واضح أن هناك سوء فهم، سواء فى الترتيب أو فى العلاقة، فالمقصود من هذه الندوة أن نشرح نحن دورنا، أما أسئلة سياسية كهذه فيمكن الحديث عنها مع مسئولين آخرين».

«فقلت مقاطعا: أنتم إذن تتعاملون معنا على أساس أننا طلاب فى مدرسة ثانوية، نستمع ونسكت، فإذا كانت هذه هى الديمقراطية الأمريكية فقد عرفتها، لكننى لا أقبل التعامل على أساسها، وأنسحب».

«وتدارك مدير المشروع (المسئول عن رحلتنا) الأمر وقال: يبدو أن ثمة خطأ فى الترتيبات، فالبرنامج مشحون إلى درجة أنه لا يكفى للنقاش، وسنكون سعداء لو أمكننا أن ندير حوارا معكم».

(١٥)

ويسرع رفعت السعيد فى روايته ليثبت دلائل نجاحه فى خطواته التى أربك بها الأمريكيين أصحاب ديمقراطية التلقين:

obeikandl.com

«وابتداء من اليوم دعيت منفردا لإلقاء محاضرات فى جامعة «جورج تاون» ورحبت بذلك، وانفردوا هم بالآخرين».

«لكن الأمر لم يكن كله ساذجا إلى هذا الحد، ففى البنتاجون (حيث يتجمع أكثر الأمريكيين خبرة وذكاء فى اعتقادى) دار حوار عميق وصاخب واستدام بقدر ما استطعنا نحن، وكذلك فى الكونجرس».

(١٦)

ولا يهمل رفعت السعيد الفرصة السانحة فى أحداث مذكراته وسياقها حتى يتحدث عن حقيقة مشاعر الأمريكيين تجاه السوفييت، وما كانت تعنيه حرب الكواكب بالنسبة للأمريكيين:

«وفى ندوة مهمة عقدت فى بوسطن عن «أمريكا فى مرحلة انتقال الرئاسة»، وفى وزارة الخارجية.. فى جلسة طويلة ومنفردة مع المسئول عن ملف مصر، ثم لقاء جماعى صاخب مع مَنْ أسموه مسئول «ملف السلام والتعايش السلمى»، غرفته مغلفة ببوسترات تدعو للسلام، تدهشك بكثرتها وإصرارها، وكأنك جالس فى صالة مقر مجلس السلام العالمى فى هلسنكى، لكن المحتوى مختلف، بدأت أنا الحديث عن مشروع حرب الكواكب، تحدث الرجل بطلاقة مَنْ يتقن الموضوع، ويتقن الحديث عنه، وأكد أن مثل هذا المشروع «وقائى»، وأن أمريكا لا تنوى حال استكماله أن تستخدمه، قلت: تنفقون عشرة مليارات (هو ذكر هذا الرقم) ولا تستخدمونه، وماذا لو لاحقكم السوفييت وصار صراع هناك فى الكواكب؟ قال بهدوء الواثق: هم لا يستطيعون، اقتصاديا، قلت: فإن لم يستطيعوا؟ قال بذات الهدوء: فليركعوا».

«ضحك الأفغانى وقال بإنجليزيته المميزة: دعوهم لنا نحن نركعهم، فرد الأمريكى: لا.. لا، نحن نريد أن نركعهم تماما».

«قلت بملل: والعالم، فقال بهدوء: العالم سيكون أفضل وهم راكعون، واستدرك قائلا: هذه وجهة نظر شخصية، وأعرف أنك ضدها، لكن لا بأس فأنت تحب الحوار (أسلاكهم متصلة جيدا، فقد عرف بموضوع إلحاحى على الحوار)».

(١٧)

ويتطرق رفعت السعيد إلى نمط آخر من أنماط اللقاءات التى فرض عليه حضورها فى أمريكا، وهو يجيد تقديم صورة مشوهة من تفكير الأمريكيين المتغطرس تجاه مصالح الطبقات العاملة:

«لم تكن اللقاءات كلها من هذا الصنف، فعندما زرنا مقر «اتحاد العمال» كان المتحدث ساذجا بصورة أدهشت الجميع، سألته (وكنت مَنْ يسأل فى أغلب الأحيان، فقد كنت كما قال مدير المشروع وهو يودعنى الغلطة الوحيدة): ماذا تفعلون للمتعطلين؟».

«قال: نحن اتحاد للعاملين وعندما يفقد العضو عمله فإنه يفقد عضويته».

«وقلت: وماذا عن الألوف الذين يقيمون فى الشوارع بلا مأوى؟».

«قال: معلوماتى أن هناك (آلافا) من المساكن جاهزة للتأجير».

«قلت: لكنهم لا يملكون الإيجار».

«فأجاب: وهل مطلوب منى أن أوزع عليهم نقودا؟».

«ورويدا رويدا أبدأ فى تفهم العقلية الأمريكية، والفهم الأمريكى».

«ورويدا رويدا أستشعر رغبة عارمة فى الرحيل».

(١٨)

وعلى الجانب الآخر من الشعور بالغربة يروى الدكتور رفعت السعيد قصة محاولة جسورة قام بها أو اندفع إليها لاختراق المجتمع الأمريكى، لكنه يشعر فى أثنائها بالغربة، ويشعر بعدها بالعزة حين اكتشف الحقيقة، ومن اللافت للنظر أن هذه الحقيقة تمثل حقيقة مهمة جدا من حقائق صراعنا مع الإسرائيليين ودعاواهم المتعددة من أجل إكساب اعتداءاتهم أبعادا تاريخية أو عقيدية من قبيل الحديث عن القبيلة العبرانية الثالثة عشرة:

«. . . فيما تمرق السيارة الفارهة فى أحد الشوارع التالية للشارع رقم ١٤ فى واشنطن (منذ اليوم الأول يحذرونك لا تتخطى الشارع ١٤، فالجريمة هناك دائمة ومتكررة، بل ومستمرة وبلا انقطاع، وربما بلا مبرر)، لمحت لافتة مكتوب عليها بالعربية «رابطة العبرانيين المسلمين» طلبت من مرافقتى التوقف، قالت: ممنوع، هذه منطقة خطرة، ألححت وتوقفنا، الباب مفتوح، دخلنا، كلهم زنوج، جلابيات بيضاء، طواقى، مسابح فى الأيدى، قلت: السلام عليكم، ردوا بعربية توحى بأنهم لا يعرفون سوى كلمة أو اثنتين، قدمت نفسى، وبدأت أستمع».

«إنهم مجموعة مريبة، ذات أفكار دينية تمزج فى دهاء بين اليهودية والإسلام، تقوم الفكرة الأساسية على أنهم سلالة القبيلة العبرانية الثالثة عشرة، والمعروفة تاريخيا باسم القبيلة التائهة أو المفقودة، وأن القبيلة تاهت من جموع اليهود المغادرين مصر مع موسى، واتجهت إلى النوبة، ثم اعتنق أبناؤها الإسلام».

«ثم دورة غريبة من شرح التعاليم الدينية، لا هى بالإسلام، ولا هى باليهودية، بين بين، وشوق غريب مصطنع للنوبة: أرض الأجداد، وربما أيضا أرض الميعاد».

«وأستشعر قدرا من الدهشة الممتزجة بشكوك اعتادت أن تقفز خلال زيارتى الأمريكية، وجهت أسئلة فى العقيدة فاكتشفت تلفيقا مفتعلا، ونفاد صبر فى النقاش ربما مبعثه ضعف الحجة، وضعف المنطق، وعندما وصلت بهم إلى مأزق نقاشى انتزعتنى مرافقتى من يدى بعنف معتذرة بأننا على موعد مهم، ولم نكن على موعد، وفى السيارة لامتنى بشدة على نقاش محرج، فى مكان خطر، ومع أناس أشد خطرا من المكان».

. . . .

. . . .

«وبعدها بعدة سنوات تتكشف هذه المحاولة هنا فى أسوان عندما يأتى فوج منهم بحجة دراسة الحضارة النوبية، وبذات الادعاءات المعتقدية، وبهدف الغوص فى العمق النوبى».

obeikan.com

(١٩)

وبعد كل هذا التحفظ الشديد على الأمريكيين، وعلى جوانب مختلفة ومتعددة من تجربتهم التى دعوه للاطلاع عليها، فإن الدكتور رفعت السعيد يعبر عن سعادته أنه استطاع الثأر من الأمريكيين وأنه تركهم فى اللحظة المناسبة دون أن يستمتع ببلادهم على نحو آخر:

«. . . كانت ملاحظات عديدة تتراكم، أكثرها تأثيرا هو الرغبة الملحة فى التأثير فيك تأثيرا مخططا، ومبرمجا، ومعدا من قبل، دون أن يعطيك فرصة لحوار حقيقى، أو يعطيك فرصة لفهم الأوضاع، وتفهمها تفهما موضوعيا».

«وانتظرت حتى انتهت فترة المقابلات، والمناقشات، والندوات، أى ما يسمونه الشق الثقافى من الزيارة، ويتبقى أسبوعان للترفيه، زيارات لأجمل مناطق أمريكا: كاليفورنيا. . لوس أنجلوس. . إلخ».

«كان مسئول المشروع يمن علينا وهو يعلن اختتام الشق الثقافى قائلا: «تابعتم وتعبتم، تستحقون الآن الجائزة، أسبوعين من زيارات ممتعة»، كلمة جائزة أوجعتنى، ربما لأنه نطقها بترفع، ووجدتنى أقول: أنا معتذر، وأكتفى بالشق الثقافى، وأرجو ترتيب عودتى. صعق، وصمت، وقد كان».

«بعد عودتى زارنى المستشار السياسى للسفارة، كان مندهشا، سأل عن ملاحظاتى التى دفعتنى لقطع الرحلة، أجبت بصراحة».

«فى اليوم التالى مباشرة عاد ومعه سيدة من برنامج التبادل الثقافى (المسئول عن سفرى) استمعت. . دونت. . وفيما كانا يغادران قال المستشار السياسى وهو يحاول أن يبدو مازحا: «حاولت أن أصطادك، فإذا بك توجه إلىّ طلقة قاتلة».

«ومادام أرادها أن تبدو كمزاح، فقد ضحكت. . واكتفيت بالضحك».

(٢٠)

ومع هذا كله فإن رفعت السعيد يحدثنا بصدق شديد عن استمرار غربته مع

obeikan.com

التوجهات العقلية التى تحكم سياسات العالم وتصرفاته، فيروى فى مواضع عديدة كيف أتيح له أن يلم ببعض المعلومات المبكرة عن توجهات وخطط مستقبلية كان الغربيون (والأمريكيون على وجه التحديد) يعملون من خلالها، منذ مرحلة مبكرة، على إنهاء وجود التوجه السوفييتى فى السياسة الدولية!! وقد جعلته هذه المعرفة محصنا ضد الاندهاش من الأحداث التالية عند وقوعها.

وعلى سبيل المثال فإنه يروى كيف أنه عرف مبكرا بما كان يخطط فى الغرب لتداعى الاتحاد السوفييتى وإخفاء نفوذه من على الخريطة العالمية، وهو ينسب هذه المعرفة إلى الصحفى الفرنسى اللامع أريك رولو مشيرا إشارة ذات معنى!! إلى أنه مصرى قديم، وإن كان فرنسى الجنسية:

«. . . وتمضى سنوات عديدة، وتبقى ولم تزل قصة راسخة فى ذهنى لا أنساها، ولن أنساها، ولست أعتقد أن صاحبها قد نسيها».

«كان فى المؤتمر (مصرى قديم هاجر إلى فرنسا ليصبح واحدا من ألمع الصحفيين، فى أشهر جريدة فرنسية «الوموند» وليصبح فيما بعد دبلوماسيا بارزا)، وبحكم صداقة قديمة تحادثنا طويلا، وتعاون معى كثيرا فى إنجاح المؤتمر، عندما تخطى دور الصحفى ليلعب دورا مؤثرا لإقناع الإسرائيليين بقول صياغات كانوا يتحسبون من قبولها».

«وطوال انهماكى فى المؤتمر كان يقول: عايزك ضرورى فى حديث طويل، وأخيرا على العشاء جلسنا فى مطعم منعزل».

«وفيما يوشك العشاء على الانتهاء فاجأنى قائلا: سأحكى لك شيئا، أنا لم أصدقه لكنه حدث، عدنى فقط ألا تنطق به لأحد لأن تسربه سيعنى أننى سربته، وسوف يضرنى هذا كثيرا فى عملى الصحفى، وبدأ يحكى دون أن ينتظر أن أعده، فقد كان بحاجة إلى أن يفضى لأحد بهذا السر الكبير، ففى بعض الأحيان يكون السر أكبر من أن تحجزه فى صدرك».

«كان عائدا لتوه من أمريكا، هناك التقى سيسكو (مهندس السياسة الخارجية الأمريكية آنذاك)، تحدث سيسكو طويلا عن رؤية الأمريكيين لعالم جديد خال من

الحرب الباردة . كانت الثقة البالغة والمبالغ فيها تغلف كلماته وتقويماته، وحاول أريك أن يلفت نظره إلى أنه ليس وحده فى هذا العالم، فاقتاده من يده إلى خريطة للعالم معلقة على حائط مكتبه، نجوم حمراء متناثرة فى شتى مساحات الخريطة : آسيا، وأوروبا، وإفريقيا، وكوبا، وكل نجمة تشير إلى بلد اشتراكى (أو يدعى أنه اشتراكى)، أو كما قال سيسكو : تشير إلى منطقة نفوذ للسوفييت».

«فجأة قال سيسكو باعتداد مذهل : سجل فى أجندتك، نحن الآن فى بداية عام ١٩٧٣، وأحفر فى ذاكرتكم هذه المعلومة، بعد عشر سنوات لن تكون هناك نجمة واحدة حمراء على هذه الخريطة».

«إريك حكى الحكاية بلا اكتراث، وأنا تلقيتها بلا اكتراث، ولم أجد ما يبرر أن نتناقش فى مثل هذه «الأكذوبة» أو هذا «الادعاء»، لكنها بقيت مترسبة فى أعماق ذاكرتى، حتى كان الزلزال الذى أطاح بأغلب نجوم الخريطة، فاستعدت الحكاية لتقفز فوقها أسئلة عديدة، هل كان سيسكو جادا؟ وهل كان ثمة مخطط فعلا، مخطط معد ومتقن ومحدد إلى هذا الحد؟ أم أنها المصادفة؟ على أية حال فإن حلم كابوس سيسكو لم يتأخر كثيرا عن الموعد الذى حدده».

(٢١)

وفى خضم هذه الأحاديث المتصلة عن اغترابات متواصلة ومتعاقبة . . يحدثنا رفعت السعيد فى بعض فقرات مذكراته بإنصاف شديد عن مجموعة من الذين يرى حقا لهم عليه أن يثنى على سلوكهم، وعلى تاريخهم، وعلى ما تبدى له من صفاتهم الرائعة التى وثقت علاقاتهم به .

ويأتى الأستاذ عبد الرحمن الخميسى فى مقدمة هؤلاء، وهو يحدثنا عن تجربته المبكرة فى معرفته حين قدر له أن يلقاه وجها لوجه من دون أن يعرف أنه (وهو الكاتب الكبير المعروف) شيوعى منظم ومكلف بدور، وقد أكبر رفعت السعيد فى عبد الرحمن الخميسى أن يصبح شيوعيا وهو فى قمة شهرته !! :

«فى يوم من يوليو ١٩٥٣ تلقيت تعليمات أن أستأجر شقة جديدة، ثم أن أذهب إلى

عنوان فى الظاهر لأصطحب رفيقا هاربا من المعتقل (كان الهارب الرفيق ضياء بدر كسرت ساقه وهو يقفز أثناء عملية الهروب المثير من معتقل روض الفرج، وكان المطلوب أن أكفل له مكانا آمنا)، صعدت فى العمارة الفخمة فى الظاهر وأنا أستعيد كلمة السر التى بموجبها سأتسلم الرفيق الهارب، دققت الجرس، فتح الباب، انسكب علىّ سيل من الدهشة بل الذهول، أمامى عبد الرحمن الخميسى أكبر كتّاب هذا الزمان. أى خطأ وقعت فيه؟ هل أخطأت فى الشقة؟ كنت مرتبكا، وصغير السن، وأبدو حتى أصغر سنا من الحقيقة. تراجعت رأسى المرتبكة لترى رقم الشقة، تأكدت وجمعت أطراف إرادتى وقلت العبارة المتفق عليها «خالى عندكم؟»، لاحظ ارتباكى ولم يغفر لى صغر سنى، فزادنى ارتباكا عندما سأل مبتسما: «خالك مين يا ابنى؟»، سقط قلبى فى أعماقى وأوشكت أن أنسحب جريا، لكنه سحبنى بهدوء إلى الداخل لأجد «خالى» منتظرا فى الصالون».

«ما الذى أتى بهذا الرجل إلى هذا المعترك؟ ضمت «حدتو» كثيرا من المثقفين، لكن الخميسى كان الأكبر والأشهر، الجميع أتوا طلابا أو مبتدئين وكبروا فى صفوفنا، أما هو فقد أصبح شيوعيا وهو فى قمة شهرته».

«فكيف؟ ولماذا؟».

«وبقيت أسئلتى تحيرنى حتى التقينا مرة أخرى».

«فى سجن مصر (فى المكان الذى يحتلها الآن منزل كوبرى السيدة عائشة وما يتلوه من مبان)، كنت الأصغر سنا، وكان (أى: عبد الرحمن الخميسى) الأكثر شهرة، وكانت زنزانته منتدى لمن أراد حديثا طليا، وشجيا وممتعا».

«صمت طويلا، ولم تزل الزنزانة تنتظر منه ما تبقى من أسطورته».

«انفجر بأبيات من الشعر، دوختنى فيما بعد كى أعثر عليها، ظللت أحتفظ بها مكتوبة لفترة، (وهل يمكن لسجين أن يحتفظ بشىء) وضاعت منى، لكن كلماتها الأخيرة كانت مطبوعة فى ذاكرتى، وبها اهتديت إلى القصيدة الكاملة».

علام أضحك يا ويلاه من زمنى وشاطئى فوقه الأهوال ترتطم
لكنها ضحكة البركان قاذفة من قلبى النار أذكى أصلها الألم
إنى أقول لهذا الظلم فى صلف اشرب دمائى واثمل أيها النهم
هيهات تبلغ إذلالى وتخضعنى إنى قوى عتى ثائر برم»

. . . .

. . . .

«وقبضوا عليه، فى السجن استدعوه لمقابلة عبد الناصر، عاد من المقابلة لم يقل لأحد شيئا».

(٢٢)

لكن رفعت السعيد سرعان ما يستطرد ويروى لنا ما حصل عليه من أسرار من خلال ثقة عبد الرحمن الخميسى به حين التقيا فى بغداد بعد أن كان عبد الناصر قد أصبح فى ذمة الله:

«بعدها وفى بغداد عندما التقينا هناك حكى لى:

«بدأ عبد الناصر معاتبا: مبسوط كده، أنت عملتها وقلبت الدنيا ضد الحركة، وتسببت فى إغلاق «المصرى»، وفى حشد الناس ضدنا. سأله الخميسى: لماذا فصلتنى من «المصرى»؟ أجاب عبد الناصر: مش أنا.. السفارة الأمريكية هى التى طلبت، حمل رسالة السفارة الصحفى يوسف صباغ، وألح الأمريكان (ألح الخميسى وهو يحكى أن عبد الناصر لم يكن خاضعا للأمريكيين تماما، لكنها البرجماتية، لم لا يضحى بالخميسى ليرضى الأمريكيين ولو برهة)».

«فى ختام المقابلة التى انتهت عاصفة قال عبد الناصر: أنت كنت عايز تقلب النظام».

«وصاح الخميسى: أنا كنت عايز أعدله، واعتبر عبد الناصر هذه العبارة هجوما لا يغتفر».

«ضحك الخميسى وهو يختتم حكايته «هى جت كده. . أحيانا كلمات ما تصطحب معها ردها بشكل طبيعى»، وسأله عبد الناصر: عايز أى خدمة، فأجاب فى إباء «لا».

«لا» هذه كانت توجعه تماما، فأطفاله الصغار كانوا بلا مورد، وأحيانا بلا طعام، لكن الخميسى كان كما كان دوما «قوى عتى ثائر برم».

(٢٣)

ويلخص رفعت السعيد حياة يوسف منصور صديق وجهاده من أجل الوطن على نحو غير مسبوق، هو يروى هذه الحياة على لسان يوسف صديق نفسه، وإن كانت الصياغة تحتمل تدخل رفعت السعيد فيها، ولنقرأ هذه الصياغة الموحية التى حرص رفعت السعيد أن يبدأها بأبيات للجواهرى كان يوسف صديق يتمثل بها على الدوام:

عدت الضباع عليك عاوية ... ظنا بأنك مأكل جزر

فتذوقتك فقال قائلها ... إن الغضنفر لحمه مر

«هكذا كان يوسف صديق يهدر دوما بأبيات استعارها من «الجواهرى» كلما حاولت يد البطش أن تنال منه، أو تبذل قصارى ما تستطيع كى تدفعه لتراجع. . أو بعض تراجع».

«حكيت لكم حكايتى معه. . لكن حكايته مع الوطن تتألق فى زهو متجدد».

«كان أبوه ضابطا فى الجيش، أدمن معركة الصراع ضد الإنجليز، لكنه رحل ويوسف بعد صغير، فتولى خاله تربيته، الخال (يوزباشى محمد توفيق) هو أيضا ثائر ضد الإنجليز، يستقيل من الجيش احتجاجا على تسلطهم على مقدراته».

«على ذات الطريق يمضى. . يلتحق بالكلية الحربية بحثا عن ثأر أبيه وخاله، وثأر الوطن بأكمله، وفى عام ١٩٣٣ يتخرج ضابطا».

«الضابط الشاب. . شاعر أيضا (إنه ميراث عائلى)، شعره يتفجر حماسة تلهب المشاعر الوطنية لزملائه الضباط إذ يدوى:

إنـا وهـــبنا للجــهاد نفوسا لا نبتغــى رتبـا ولا أطماعا
والمؤمنون المخلصون يزيدهم ظلم الحوادث شدة وصراعا

«كان الجيش يغلى بالوطنية، ويصوغ يوسف غليانه شعرا:

عار الوظيفة أن نضام بها إذا كنا الرجال ولم نكن أتباعا
ونفوس أهل الحق تأبى حرة وكـريمة أن تشـترى وتباعا

. . . .

. . . .

«بدأت (الحديث كما قلت ليوسف صديق) الاتصال بالإخوان المسلمين، لكنى انشققت عليهم لجمودهم العقائدى الذى لا يرضى ما أخذته على نفسى من ثورة، ولم يدم اتصالى بهم أكثر من شهور، ثم اتصلت بالشيوعيين فى النصف الثانى من الأربعينيات، وكنت مقدرا لدور الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية، وكان اتصالى بأحمد حمروش ضابط المدفعية، وقد أعجبنى فى الشيوعية أنها تغرس حب العدل فى النفوس، وتعمل لتحقيق السلام على الأرض، وإقامة المحبة والتعاون بين الناس، فهى لا تفرق بين الناس لأنسابهم، ولا أحسابهم، وإنما تعمل على إلغاء استغلال الإنسان للإنسان، ولم أشعر لحظة أن فى تطبيق هذه المبادئ ما يتعارض مع عقيدتى الدينية، فقد داس الإسلام تيجان الأكاسرة والأباطرة بأقدام الشعوب، وبعد اعتقال عديد من قيادات حدتو وصلت الأمور إلى الحد الذى كنت أكتب فيه المنشورات باليد فى منزلى بثكنات الجيش فى العباسية، وكانت زوجتى (علية توفيق) تشاركنى فى ذلك».

(٢٤)

ثم يصور رفعت السعيد دور يوسف صديق المبكر فى حركة «حدتو» فى ضوء الظروف القاسية فى عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩، حيث توالت ضربات البوليس، وتلاحقت، لتدمر كثيرا من آليات نشاط حدتو:

«. . . ولم يكن من مفر سوى اللجوء إلى الضابط يوسف صديق وزوجته ليقوما بطبع ما هو مطلوب من نشرات ومنشورات، ويقول (أى يوسف صديق): «كنت أتأفف من روتينية العمل ومحدوديته، وطالما سألت «علية» فى ضيق: هى الثورة حتتعمل كده؟ وتبتسم لى مشجعة، وأبادلها الابتسام، ونكمل عملنا فى صبر وإصرار».

«ويبدأ يوسف صديق فى خوض صراع فكرى فى صفوف حدتو، كان يستبطئ حركة الفعل السياسى والتنظيمى، وضعف ما هو متوقع من ثمار، وصعوبة توقع أى تغيير ثورى حاسم عبر مثل هذه الأدوات المحدودة الأثر والتأثير، ويقترح ويلح على ضرورة التحضير لفعل انقلابى عبر الجيش، وكانت حدتو ترفض».

«ويخوض يوسف صديق صراعه الفكرى، وربما لأول مرة فى التاريخ شعرا:

ضعوا الأقلام وامتشقوا الحساما ... فرب السيف قد حمل الوساما
وقولوا للذى يرجو خلاصا ... بتنسيق الكلام كفى كلاما
ومن نادى بغير الجيش يهذى ... وعن نور الحقيقة قد تعامى

«ويفوح العطر الثورى ليوسف صديق ليغمر مساحة واسعة، وتصل نسماته إلى جمال عبد الناصر».

«أذنا جمال عبد الناصر التقطتا أن يوسف صديق يعقد اجتماعات سرية لضباط فى الجيش فى منزله، وأن رجال الحرس الحديدى يراقبونه».

. . . .

. . . .

ربما نتوقف هنا لنذكر القارئ بما يعرفه بالبداهة من أن الفضل فى ذلك لم يكن لأذن جمال عبد الناصر بقدر ما كان لأنور السادات الذى راقب الحرس الحديدى ووظفه لمصلحة مشروع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

. . . .

. . . .

(٢٥)

ونعود إلى ما يرويه رفعت السعيد:

«وأرسل (أى عبد الناصر) إليه (أى إلى يوسف صديق) مَنْ يحذره، ثم أرسل إليه يدعوه للانضمام للضباط الأحرار، الضابط وحيد رمضان، وكان تلميذا ليوسف صديق فى الكلية الحربية، حمل رسالة عبد الناصر إليه، رد يوسف صديق كان سريعا وحاسما».

«والغريب أن عبد الناصر لم يعرف بحقيقة الانتماء التنظيمى والفكرى ليوسف صديق إلا بعد الثورة».

«وخلال لحظات الاستعداد الأخيرة ليوم الثورة كان يوسف كنزا مهما، كان الأعلى رتبة فى كل الضباط الأحرار بعد محمد نجيب (قائمقام)، وفوق هذا كان قائدا للكتيبة الأولى مدافع ماكينة، كتيبة بالعريش، لحسن الحظ صدر قرار بنقلها إلى القاهرة، حضر مع طلائعها للقاهرة، وبهذه الطلائع خاض معركة يوليو».

«عبد الناصر وعامر زاراه فى بيته يوم ٢٠ يوليو وجداه مريضا، صدره ينزف دما، قالا بأسف حزين سنفتقدك، هو تذكر ثأره القديم، وعشقه المتجدد، أكد أنه سيشترك معهم».

«مساء يوم الثورة حقنه الطبيب ليوقف النزيف، وانطلق بقواته».

«فى الطريق قابلهم قائد فرقته اللواء عبد الرحمن مكى، وأصدر له أمرا بالعودة إلى الثكنات. العسكريون لا يعصون أوامر القادة، لكنه ببساطة أشهر مسدسه فى وجه قائده قائلا فى حزم: أنت مقبوض عليك يا سيادة اللواء.. واصطحبه مقبوضا عليه».

«سألته فى حوارى معه: كيف فعلها؟ قال: لو ترددت لحظة لتردد الجميع وضاع كل شىء».

«ثم ألقت قواته القبض على شخصين يتطلعان فى دهشة إلى الطابور المتحرك وأمامه سيارة تحمل «بيرق» لواء، المقبوض عليهما: عبد الناصر وعامر».

ونأتى إلى فقرة ذكية يحصل فيها رفعت السعيد من يوسف صديق على حقيقة موقفه من رجال الثورة الذين غدروا به:

«سألته فى ذات الحوار: ألم تفكر ساعتها فى أن تستبقيهما أسرى، وتقود أنت الحركة؟ أجابنى فى غضب لا يخفى نفسه: نحن يا ابنى ثوريون.. ولسنا أوغادا)».

«أفرج يوسف صديق عن الضابطين، ومنهما علم أن أمر الثورة قد اكتشف، وأن قادة الجيش يتجمعون فى مبنى القيادة العامة لتحريك القوات الموالية للملك، فى ثبات أكد: العجلة دارت، ولا مجال للتراجع، وإن كانوا فى مبنى القيادة فلنذهب إليهم».

«وذهب إليهم، أوقعهم فى مصيدتهم، قبض عليهم جميعا، وعلى مكتب القائد العام جلس يوسف صديق ليدير عملية الاستيلاء على السلطة، بعدها بساعات دخل عبد الناصر، ببساطة تحتاج إلى طاقة ثورية عالية وقف يوسف صديق ليجلسه مكانه، وهنا تكمن المفارقة كلها، فهم لم يحفظوها له، ولا تمسكوا بعهدهم كما تمسك، ولا أخلصوا له كما أخلص، حاولوا تطويعه، لكن «إن الغضنفر لحمه مر».

«تصادموا معه وأثقلوا عليه، ثم طردوه وطاردوه «إن الغضنفر لحمه مر».

«قبضوا على زوجته «علية» وألقوا بها فى السجن، ثبتت كما ثبت، ترفعت كما ترفع».

«إن الغضنفر لحمه مر».

«وكما اعتاد دوما فقد أدار صراعه مع عبد الناصر شعرا».

«ومن السجن الحربى (١٩٥٤) حيث سجن، وكانت زوجته علية هى أيضا فى سجن النساء، كتب قصيدته الشهيرة التى أسماها «فرعون»، موجها كل غضبه ضد عبد الناصر:

ألا أيهذا الدعى اللعين   ألا أيهذا الشقى الحرون

لبست المسوح وضللتنا   ولما حكمت كشفت الفنون

«ويعاتبه على سجن زوجته ورجاله فى الجيش :

أعرضى يباح ويلقى به ... على ناظريك بقاع السجون

وكل رجالى غدرت بهم ... أكل رجالى من المجرمين

«ثم يذكره بليلة يوليو وكيف قبض عليه هو وعبد الحكيم عامر :

وقد كنت يوم الوغى هاربا ... تخاف الظنون وتخشى العيون

فقد كنت مختفيا فى ثياب (م) ... تباعد عنك مثار الظنون

ولما وقعت وعبد الحكيم ... بأسر رجالى وما يعلمون

فأنقذت روحيكما من هلاك ... ورحت بنفسى ألاقى المنون

«وبرغم تسرب هذه القصيدة من السجن الحربى وتوزيعها بكثرة على ضباط الجيش، وربما بسبب ذلك، وبسبب عدم رغبة عبد الناصر فى تصادم مفتوح مع أحد أبطال يوليو، أفرج عنه».

«ويظل يوسف صديق شوكة فى حلقهم، يحترمونه، يقدرونه أحيانا يذكرون له دوره الشجاع والأساس فى إنجاح الثورة، لكنهم قط لم يستطيعوا ابتلاعه».

(٢٧)

أما خالد محيى الدين فيحظى بأروع صور تقدير رفعت السعيد وأبلغ العبارات الدالة على هذا التقدير، وربما لا نجد فى أدبياتنا السياسية كلها مثل هذه العبارات الممتنة من صديق لصديق أكبر منه، أو فلنقل من مريد لشيخه :

«كانت معرفتى بخالد محيى الدين بداية لحياة جديدة، تتراكم فيها دروس خالد محيى الدين فتصبح منهجا وأسلوب حياة».

«وأحاول أن أكون جديرا بالانتساب تلميذا فى مدرسته، بجهد جهيد أحاول دون أن أرتقى، مهما حاولت، إلى مرتبة الأستاذ، مكتفيا بشرف الانتساب إلى الأستاذ».

. . . .

. . . .

«نظر إلىّ غاضبا فى تواضع عندما أصدرت كتابا عزيزا على قلبى «تاريخ الحركة الاشتراكية فى مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٥٢» ورصعته بإهداء (لعله كان إهداء لنفسى أكثر منه إهداء له) يقول: «إلى خالد محيى الدين.. أخا وصديقا وأستاذا».

«قال: أخا وصديقا نعم، أما أستاذا هذه فلا مبرر لها».

«ولعله نسى أنه ظل ولم يزل أستاذا ليس لى وحدى، وإنما لجيل كامل من الرجال، كل منهم يحاول أن يكون بالنسبة له مريدا مؤتما به».

. . . .

. . . .

«ولن أحاول هنا أن أحكى حكايتى معه، لا كلها، ولا حتى بعض منها، فلا هذا ممكن، ولا هو سهل، فكيف لحياة امتدت بلا انقطاع من عام ١٩٦٤ وحتى الآن أن تروى هكذا ببساطة فى صفحات، وكيف لعلاقة تمثل بالنسبة لى الشىء الأكثر أهمية أن تختزل فى أسطر، أو حتى فى علة كتب».

«لن أحاول، فلا هذا ممكن، ولا هو مطلوب، أريد فقط أن أقول إن يدى خالد محيى الدين قد تلقفتا قطعة صلصال خارجة لتوها من السجن، لتعمل وباهتمام على صياغتها، أو بالدقة إعادة صياغتها لتتلاءم مع الحياة، ولتصبح قادرة على تحدى هذه الحياة».

«ذلك النوع من التحدى الصامد والهادئ الثابت والمبتسم الذى أتقن خالد محيى الدين فنونه».

«لن أطيل.. أقول فقط ببساطة: هاكم صفحات كتابى».

«كل جملة كاملة فيه، وكل سطر حسن هو بصمة لخالد محيى الدين، وما هو غير حسن فهو منسوب إلى استعصائى على ما حاول من تصويب وتعليم».

«ومدى الحياة.. وما بعدالحياة سأظل لخالد محيى الدين ممتنا، ومؤتما به».

«وسأظل دوما مستظلا ظليل صداقة راهن الكثيرون على فصمها دون جدوى، فهى فوق كل نوازع الانفصام».

«وسأظل مدى الحياة مستمتعا برحيق أخوة ذات غلاف وثيق، وحنان دافق، وقدرة دائمة على التجدد، والتلاؤم، والفهم المتبادل، حتى دون حديث مباشر».

«إنها علاقة لا تتكرر».

«لأن خالد محيى الدين رجل لا يتكرر».

(٢٨)

ومن بين الأوروبيين جميعا يتحدث الدكتور رفعت السعيد أيضا عن أستاذه الألمانى راتمان حديثا حافلا بالحب والحرارة، لكنه مع هذا لا يخلو من ملامح حديث صاحب المذكرات نفسه عن غربته:

. . . .

. . . .

«على يديه تعلمت فنون الكتابة الأكاديمية، والبحث والدراسة، وبتشجيع منه بدأت هذه الرحلة المضنية لكتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، أشعر دوما أننى مدين له بدين لا يمكن الوفاء به».

«كان عضوا فى اللجنة المركزية للحزب، مستشرقا مرموقا عالميا، صعد فى السلم الأكاديمى حتى أصبح عميدا للجامعة، وهو منصب مرموق جدا».

«كان يتحمس كثيرا عندما يتحدث فى التاريخ، أما عندما يأتى إلى السياسة يتأنى.. يهدأ، ولا يبالغ، إلى درجة أن البعض من رفاقه كانوا يتشككون فى مدى حماسته للماركسية، لكنه كان ماركسيا رائعا».

(٢٩)

وسرعان ما ينتقل رفعت السعيد إلى الحديث عن جوهر موقف راتمان المفكر الماركسى حين وقعت الواقعة وسقط حائط برلين وانتهى الاتحاد السوفيتى:

«وعندما وقع الزلزال كنت حريصا على أن أعرف ماذا فعل».

«زارنى جلود الصديق القديم، ترك وزارة الخارجية، أو بالدقة فُصل، لأنه صمم أن يواصل عضويته فى الحزب، سألته أول ما سألت عن راتمان، قال بحزن: ترك كل شىء، انزوى فى بيته، وحملته رسالة عتاب، كيف تترك رفاقك فى هذا الزمن الصعب؟».

«بعد فترة جاءنى الرد:

«أعترف بالخطأ، لكننى لا أستطيع، وضعى مختلف، كنت مسئولا، كنت عضوا فى القيادة، وكنت مدرسا فأستاذا فعميدا للجامعة، فإذا كانت هناك ثمة خديعة فأنا أكثر من ردد هذه الخدعة، ضميرى غير مرتاح، عيناى لا تتجاسران على الالتقاء بعينى ابنتى، لم أزل عاجزا عن أن أقدم لها إجابة مقنعة، تفسر كل ما كان، وتبرر كل ما قلنا وكل ما فعلنا، فإذا كنت لا أستطيع أن أواجه ابنتى، فكيف تطلب منى أن أواجه الناس، لست منكرا لشىء، فقط أنا لا أستطيع، فاعذرنى».

. . . .

على هذا النحو أنهى رفعت السعيد هذه الفقرة، وقد كان جديرا به أن يختم بهذه الفقرة نفسها الجزء الثانى من مذكراته أو كتابه كله، لكن رفعت السعيد لحسن الحظ كان قادرا على أن يواجه الناس، وأن يقدم لهم أشياء جميلة أخرى، منها هذه المذكرات.

***

obeikan.com

الباب الرابع

مسيرة حياتي
مذكرات محمد يوسف الجندي
الجزء الأول

---

obeikan.com

obeikan.com

(١)

محمد يوسف الجندى واحد من أبرز رموز اليسار المصرى، ظل طيلة حياته على ولاء لليسار منذ ضحى بثروته وباسم عائلته ذى الرنين الوفدى الكبير، وآثر أن يكون جنديا من جنود اليسار، وقد نشط وسجن وهرب وسافر وعاد وظل على مبادئه، وقد أسس دار نشر تولت نشر عدد من الأدبيات اليسارية المهمة، وكان من الطبيعى أن تنشر داره مذكراته، وقد آثر أن ينشرها فى كتابين خصص الأول لما قبل عام ١٩٦٤ وخصص الثانى لما بعد هذا، وهكذا جعل الفاصل بين الكتابين متمثلا فى خروجه من سجون اليسار وذلك على خلاف رفعت السعيد الذى جعل الفاصل هو نهاية عهد عبد الناصر .

كتب محمد يوسف الجندى فى مقدمة الجزء الأول من مذكراته ما يعبر به عن مبادئه :

«وهذه الحياة التى أقدم مسيرتها، والتى عشتها بشكل كامل، كان يوجهها إيمان وانتماء لأفكار وأهداف لم أحد عنها، رغم أنها فى الصغر أخذت شكل الحماس والاندفاع، ومع تقدمى فى السن كانت تزداد نضوجا فى معترك التجارب، وفى خضم الحياة العملية» .

«ورغم أن أفكارى قد تطورت عن شكلها وطريقة التعبير عنها فى مقتبل شبابى، (فإنها) ظلت فى مضمونها لم تتغير، من حيث الإيمان بالعدالة الاجتماعية، والانحياز للجماهير الكادحة المنتجة، ومازلت حتى الآن أقدس العمل المنتج، وأرفض وأعارض الظلم الاجتماعى، ومازلت أؤمن بالعمل لصالح غالبية الناس، وإن تعارضت مع المصالح الأنانية للأقلية المترفة، وأرفض الحياة على حساب الغير باستغلال عملهم،

وتدمير حياتهم، وأقدس الحرية الفردية التى لا تتعارض مع الحرية الاجتماعية، ولا تقوم على حسابها، ولا أفرق بين البشر، بين رجل وامرأة، وأبيض وأسود وأصفر، بين إفريقى وآسيوى وأوروبى وأمريكى، وإن كنت أنتمى إلى العالم الملون».

(٢)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن مقدمات انتمائه إلى الحركة الشيوعية، وإلى منظمة «اسكرا» على وجه التحديد، ومع أنه يروى أن شهدى عطية كان هو الذى ضمه لاسكرا، فإنه لا يذكر الأسباب التى دفعته إلى قبول الانتماء إلى اسكرا دون غيرها من المنظمات الشيوعية الأخرى، ومع هذا فإنه يتحدث عنها فى إطار غيرها، وكأنما كان الأمر أمر داعية ومستجيب للداعية فحسب، أو أمر مجند ومستجيب للتجنيد فحسب، وهو يقدم لهذا الحديث عن الانتماء للشيوعية تقديما سريعا ذاكرا أنه فعل ذلك لأنه لم يكن ليقبل بالحلول الوسط التى كان غيرها يتبناها، وهو يتخذ جمال العطيفى نموذجا لهؤلاء، كما أنه لم يكن بقادر على أن يتقبل رؤية محمد عصفور الدالة على نمط من أنماط تفكير الطبقية، وهو بعد هذا يقدم ملخصا لبانوراما الحركات الشيوعية التى وجدت فى الفترة التى انضم هو فيها لإحداها:

« . . . ومع هذه النشأة كان طبيعيا أن أشعر بحماس وانفعال شديد عندما طلبنى شهدى عطية الشافعى بعد إحدى الأمسيات فى دار الأبحاث العلمية، وحدثنى عن الانضمام إلى منظمة الشرارة «اسكرا»، وكان ذلك فى عام ١٩٤٥، وكنت فى التاسعة عشرة من عمرى، وطلب منى الخروج معه لأنه يود التحدث معى، وسرنا وخرجنا من دار الأبحاث العلمية فى شارع نوبار، وسرنا فى الشوارع المحيطة بالمكان فى السيدة زينب، وأخذ يحدثنى عن وجود تنظيم سرى اسمه «الشرارة»، وأن الدراسة التى كنا نمارسها كانت فى إطار هذا التنظيم، وأننى بعد أن أمضيت فترة الترشيح بنجاح يعرض علىّ الانضمام إلى هذه المنظمة، وهو يريد أن ينبهنى إلى المخاطر التى يمكن أن أتعرض لها من سجن، وملاحقة، وتشريد، واضطهاد من جانب البوليس والسلطات، وأننى يجب أن أفكر كثيرا قبل أن أقرر».

«لم أتردد وقررت القبول على الفور وأنا ممتلئ حماسا، ولم أنم فى تلك الليلة من الانفعال».

. . . .

. . . .

(٣)

وهو يتذكر بداية تجاربه في عالم اليسار المصرى المتشعب:

«أصبحت عضوا فى منظمة اسكرا (الشرارة)، واسكرا كلمة روسية معناها الشرارة، وهى مأخوذة من تاريخ الحركة الشيوعية فى روسيا حين أسس لينين جريدة سماها اسكرا، على أساس أنه من الشرارة ينندلع اللهب (الثورة)، وعرفت أنه توجد فى مصر منظمات شيوعية أخرى، وكلها تعمل تحت الأرض، منها الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى كان يرأسها هنرى كورييل، ويرمز إليها باسم «ح. م»، ومنظمة «الديمقراطية الشعبية» ويرمز إليها باسم «د. ش»، وعرفت أن مؤسسها يدعى جاكو دى كومب، وكان من أعضائها أحمد رشدى صالح الذى أصدر مجلة اسمها «الفجر الجديد»، وكان من أعضائها البارزين أحمد صادق سعد، ويوسف درويش، وهما يهوديان أصلا، ولكنهما أسلما، ثم منظمة «تحرير الشعب» التى أسسها مارسيل إسرائيل، ومن أعضائها أسعد حليم، وسعيد خيال رئيس «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، وكانت هناك منظمات صغيرة أخرى مثل منظمة «القلعة» التى أسسها مصطفى هيكل، والذى كان يسكن القلعة، وكان من أعضائها أحمد درويش، وفؤاد عبد الحليم، وحمدى عبد الجواد، وأحمد الرفاعى، وكانت هناك منظمة صغيرة فى الإسكندرية اسمها «الطليعة»، وكان من أعضائها فؤاد مرسى».

. . . .

. . . .

«ومن الملاحظ (الكلام لمحمد يوسف الجندى) أن مؤسسى أكبر أربع منظمات شيوعية كانوا يهودا، ولم يثر ذلك عندى أو عند غيرى أى تحفظ، ففى ذلك الوقت

وقبل حرب فلسطين كنا نتقبل وجود اليهود فى المجتمع المصرى، وكان لهم دور يتقبله الجميع فى المجتمع، وفى المجالات السياسية والنقابية والاقتصادية».

(٤)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن نشاطه فى أول خلية شيوعية انضم إليها فيوحى إلينا بخيبة أمله حين رُفض اثنان من مرشحيه الذين حاول تجنيدهم، وحين اكتشف فيما بعد سنوات رداءة موقف زميله صلاح نصار الذى كان قد جنده، وذلك عندما حقق معه صلاح نصار وهو رئيس للنيابة، كما أنه يأسف لموقف الدكتور محمد لبيب شقير الذى كان يردد الحديث عن مميزات الملكية، لكنه فى وسط هذا كله فخور بأنه كان هو الذى جند الناقد السينمائى مصطفى درويش:

«. . . كان مسئول أول خلية انضممت إليها يدعى محمد جمال الدين، وكان طالبا فى كلية الطب، وكانت الخلية تضمنى وتضم لطيفة الزيات التى كانت طالبة بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، وكانت تسبقنى بسنة، فبينما كنت فى السنة الثالثة كانت هى فى السنة الرابعة».

«واصلنا الدراسة فى الخلية، وكانت تصلنا نشرة داخلية، ونناقش النشاط وتجنيد مرشحين جدد للتنظيم، وقد اجتهدت فى هذا المجال وكونت عدة مجموعات للمرشحين من طلبة كلية الحقوق أساسا، وأذكر من أوائل هؤلاء المرشحين الذين عملت عهم حوالى خمسة شهور وأتممنا دراسة الكورس النظرى الماركسى، اثنين هما: بهى الدين الرشيدى (الذى أصبح فيما بعد سفيرا فى وزارة الخارجية)، ومحمد فهيم (الذى أصبح بعد ذلك محاميا وعضوا نشيطا فى نقابة المحامين)، وبعد أن أنجزت معهما البرنامج، وشعرت أنهما جديران بالترشيح للتنظيم، اقترحت أن يقبلا كأعضاء، ولكن جاء الرد بالرفض بحجة أنهما عنصران مشكوك فى علاقتهما بالبوليس السياسى، فاضطررت لقطع العلاقة بهما رغم أننى لم أكن مقتنعا بجدية تلك الشكوك، وحزنت لذلك لأننى بذلت معهما جهدا، وكنت أعتبر أننى قمت بإنجاز (مهم) معهما، ولم أستطع مواجهتهما بتلك الشكوك، إلا أنهما أحسا بأن هناك شيئا غير عادى، وأصبحت فى وضع حرج، ولكننى واصلت عمليات التجنيد».

«ومن هؤلاء الذين رشحتهم وقدمتهم للمنظمة مصطفى درويش، الذى عمل بعد ذلك مستشارا فى مجلس الدولة وصار حجة فى السينما، عمل فترة مديرا للرقابة على الأفلام السينمائية، وحسن علام الذى زاملنى فى الدراسة وأصبح بعد ذلك مستشارا، وقمت بتجنيد صلاح نصار الذى فوجئت بعد ذلك عند اعتقالى عام ١٩٥٩ بتهمة تأسيس تنظيم شيوعى بأنه رئيس النيابة الذى يحقق معنا، وكان موقفه فى التحقيق فى غاية الرداءة».

«. . . وقمت فى هذه الفترة بترجمات كثيرة منها كتاب شامل عن الماركسية لكاتب إنجليزى اسمه إميل بيرنز، وكنت أعطى هذه الترجمة لعدد من زملائى الطلبة، ومن بينهم لبيب شقير الذى كان يدرس معى فى نفس السنة، وكنت أشعر بأنه يمكن كسبه، ولكن تفكيرى تغير عندما سألته مرة عن رأيه فى النظام الملكى، فأخذ يردد نفس الكلام عن ميزات الملكية التى ندرسها فى كتب القانون الدستورى».

(٥)

ويواصل محمد يوسف الجندى الحديث عن علاقاته فى إطار الانتماء للشيوعية فى خارج هذه التنظيمات وداخلها فيوحى لنا عن قصد بأن الحياة والحوارات السياسية كانت متواصلة بين الأقران والزملاء على اختلاف توجهاتهم:

«وكان من زملائى فى نفس السن كمال عبد الحليم، وكامل زهيرى، وإبراهيم خلاف (الذى قمت بتجنيده وترشيحه للتنظيم)، وتعرفت أيضا بعز الدين فودة، وإسماعيل صبرى عبد الله، وكانا يسبقانى بسنة، وعرفت أشخاصا من مختلف التنظيمات مثل كمال عبد الحليم (ح. م)، وفؤاد عبد الحليم (القلعة)، وأحمد رشدى صالح (الديمقراطية الشعبية)، وسعيد خيال (تحرير الشعب)، وعناصر كانت تعتبر نفسها تروتسكية مثل عادل أمين، وبعض العناصر كان يشاع عنها أنها تروتسكية مثل إسماعيل صبرى عبد الله، ونهيد أبو زهرة اللذين كانا لا يفترقان، وتعرفت بعناصر من الأحزاب الأخرى مثل محمد كامل (حزب وطنى)، وعبد المحسن حمودة، ومصطفى موسى (الوفد)، وحسان حتحوت (الإخوان المسلمون) وغيرهم».

«وكانت تدور مناقشات مع محمد كامل».

«أما الأصدقاء القدامى فبعد تخرجهم بدأت تفترق السبل، فجمال العطيفى يعمل فى النيابة، أما فتحى غانم فأصبح موظفا فى إحدى الوزارات، وكان مهتما بقراءات عديدة فى الفلسفة، وكان متأثرا بشوبنهاور ونيتشه وغيرهما من منظرى الفاشية، وكانت تدور بينى وبينه مناقشات عديدة نختلف فيها، ولكننى أذكر بعد عدة سنوات وأنا أعمل فى الأقاليم فى العمل السرى، أن التقيت به فى الطريق فحيانى بعاطفة شديدة وتعاطف، وأوصانى بالحذر».

«وكانت هناك أيضا مناقشات مع عز العرب أمين، أما جمال العطيفى فكان همه الأساسى الوصول إلى مركز مرموق فى المجتمع، وكان يعتقد أن النيابة يمكن أن توصله إلى ذلك».

«وكان أحمد رشدى صالح يطلب منى أن أكتب فى مجلة «الفجر الجديد»، وفى إحدى المرات أعطانى مواد لكتابة مقال عن الاحتكارات الدولية، وقد نشر المقال وأثنى رشدى صالح عليه».

(٦)

ونأتى إلى ما يرويه محمد يوسف الجندى عن قصة اعتقاله الأول حيث تدل روايته لها على قدر من السذاجة الطبيعية، كما تدل على المفارقة التى تتمثل فى سعادة الشيوعى بأن يشيع عنه اتهام بعيد عنه، لكنه يراد به تشويه صورته وصورة الشيوعيين، ومع أن هذا الاعتقال لم يدم أكثر من أربعة أيام فإنه مهد لتأكيد انتماء محمد يوسف الجندى إلى الحركة الشيوعية للأبد على نحو ما نرى فى فقرات تالية:

«فى أواخر ١٩٤٥ وأوائل ١٩٤٦ كنت قد كونت مجموعة مرشحين من مصطفى درويش، وكان طالبا فى كلية الحقوق، وطالب آخر فى كلية الهندسة لا أذكر اسمه الآن، وكنا نعقد اجتماعا فى أحد المنازل بالجيزة، وعند انتهاء الاجتماع فى منتصف الليل خرجت مع مصطفى درويش وأسرعنا للعودة إلى منازلنا، وكان مكان الاجتماع قريبا من منزل بهى الدين بركات باشا، وكانت قد انتشرت فى هذه الفترة العمليات الإرهابية، فقد اكتشفت قنبلة فى سينما مترو، وفى أماكن أخرى، وفى إسراعنا للعودة سمعنا صوت سيارة ورأيناها من بعيد وظننا أنها سيارة أتوبيس، وجرينا للحاق بها،

وتوقفت السيارة وظهر أنها سيارة شرطة، ونزل الضابط وسألنا لماذا نجرى؟ فأخبرناه أننا كنا نظن أنها سيارة أتوبيس، فأخذ فى تفتيشنا وأخرج من جيب مصطفى كتاب «البيان الشيوعى» فاقتادنا إلى قسم البوليس».

«وهناك فتشونا ووجدوا معى نوتة صغيرة بها بعض الرموز التى لم يفهموها، وعرضونا فى اليوم التالى على النيابة التى حققت معنا، سألنى المحقق عن الرموز فقلت إنها أسماء أصدقاء فقال: صديقات؟ قلت: نعم، ونشرت الصحف فى اليوم التالى نبأ اعتقال شيوعيين، وأن أحد الشيوعيين فسر الرموز بأنها أسماء صديقات، ولم يستطع وكيل النيابة أن يوجه إلينا أى تهمة محددة، ومع ذلك بقينا فى الحجز لمدة أربعة أيام أفرج عنا بعدها قاضى المعارضة».

«وكانت هذه أول تجربة فى الاعتقال، وكان عمرى عشرين عاما، وكان مصطفى أصغر منى بسنة على ما أعتقد، وكنت أسبقه بسنتين فى الدراسة بكلية الحقوق».

(٧)

ونأتى إلى اللحظة الفاصلة التى تخلى فيها محمد يوسف الجندى عن ثروته من أجل أن يصبح شيوعيا محترفا، ومع أن حسابات الجدوى والربح والخسارة (البسيطة والمنطقية) كانت كفيلة بأن تدل محمد يوسف الجندى على أن بإمكانه أن يحتفظ بأملاكه وإيراده منها، وأن ينفق على نشاطه الشيوعى من هذا الإيراد، فإن الجندى آثر فى لحظة توحد مع الشيوعية أن يتخلى عن كل ممتلكاته حتى يثبت لنفسه إيمانه وانتماءه بالشيوعية دون غيرها، وهكذا فإنه يروى أنه قرر أن يتنازل عما استطاع التنازل عنه من أمواله وأطيانه الكثيرة وأصبح شيوعيا محترفا:

«لم أستمر كثيرا فى دائرة المثقفين وانتقلت إلى دائرة الأقاليم، وكانت دائرة قد أسست حديثا بمسئولية فؤاد عبد الحليم شقيق كمال عبد الحليم، كان طالبا بالسنة الأولى بكلية الآداب، وكان فى عضوية اللجنة حمدى عبد الجواد، وصبحى زغلول، وبهاء فهمى، وكانت مهمة هذه الدائرة النشاط فى الأقاليم فى الوجهين البحرى والقبلى، وكان هذا العمل يتطلب التفرغ، وأن يقود النشاط محترفون، وعرض فى

أول اجتماع اقتراح من القيادة بالاحتراف ودعوة للقادرين بالاحتراف والتبرع بما يملكون، على أن يحصلوا على مرتب بدل احتراف هو ٨ جنيهات (ثمانية) فى الشهر، رفض بهاء فهمى، أما أنا فلم أتردد ووافقت على الفور، وكنت قد بلغت سن الرشد، ففى يناير من هذا العام (١٩٤٧) كنت قد بلغت ٢١ عاما، وكنت أملك بعض الأسهم تركها لى والدى، وكانت الأسرة تملك أرضا زراعية فى السنبلاوين (أبو الصير) على المشاع، وكان نصيبى الشائع فيها ١٦ فدانا قررت التصرف فى هذا كله وتسليمه للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حزب المستقبل)، التى وهبت حياتى كلها لها، وللقضية التى تعمل من أجلها».

«وفى اليوم التالى ذهبت إلى بنك مصر وقمت ببيع الأسهم بحوالى ٤٠٠٠ جنيه، وسلمت المبلغ للحزب، وعرفت بعد ذلك أنه تم شراء مطبعة بالمبلغ، أما بالنسبة للأرض فكان من الضرورى قسمة الأرض حتى يمكننى بيعها، فقمت ببيع ثلاثة أفدنة لأختى، وسلمت المبلغ للحزب، وأخذت أدرس مع القانونيين، ومنهم أحمد فؤاد، الطريق لبيع الفدادين الباقية التى كانت تخصنى».

«وانتقلت للعمل فى الأقاليم، وبدأت بطنطا، أما صبحى زغلول فكان مسئولا عن العمل فى الوجه القبلى، وخصص حمدى عبد الجواد للعمل فى الفلاحين».

(٨)

ويتحدث محمد يوسف الجندى حديثا حماسيا عن إحساسه المبكر حين تخلى عن كل شىء من أجل الشيوعية رغم نصح الناصحين، ومن الطريف أن الثائر الوطنى يوسف حلمى كان واحدا من الناصحين الذين قدر له أن يعتذر عن قبول نصائحهم:

«. . . وبدأت مرحلة جديدة من حياتى، فقد أصبحت ثوريا محترفا، وأحسست بأننى تخليت عن طبيقتى وأصبحت أنتمى إلى الكادحين، أعيش مثلهم، وفى مستواهم، وأصبح لا شىء فى حياتى له قيمة توازى هذا الانتماء، فلا المال يهمنى، ولا ليسانس الحقوق، ولا أى اهتمامات شخصية أخرى، فكلها تخضع لهذا الهدف، ولهذا الانتماء، وكان هذا هو غاية حياتى كلها».

«وتوالت علىّ النصائح من أقاربى ومعارفى، وكان عمى عبد القادر أكثر مَنْ يشغل نفسه بهذا الموضوع، ويكثر من تقديم النصائح لى، وفى محاولاته لإثنائى عن هذا الطريق استعان بأحد تلاميذ والدى، الذى كان يشاركه فى مكتبه للمحاماة، والذى استمر فى العمل به وهو يوسف حلمى، كان يحب والدى حبا جما، فكان يعتبره أستاذه، وألقى كلمة مليئة بالعواطف الحارة فى حفل تأبينه».

«أذكر أنه استعان بيوسف حلمى لإقناعى فقال يوسف حلمى: أنا أعرف أنك مثالى، وأنا أيضا مثالى، وأنا لا أطلب منك أن تترك ما تعتقده، ولكن لكى يكون لدعوتك أثر أكبر يجب أن تنهى دراستك وتحصل أولا على الليسانس».

«ولكن التيار كان قد جرفنى ولم أستطع التوقف، وكنت أخضع كل شىء للعمل الذى كنت أركز عليه، وهو العمل الحزبى».

(٩)

فيما قبل حديثه عن هذه اللحظات الفاصلة فى حياته، يقدم صاحب هذه المذكرات روايته لنشأته بأسلوب تقليدى جميل، ونحن نتأمل فيما يرويه محمد يوسف الجندى عن مولده ونشأته فى بيت يوسف الجندى فنراه معتزا بذاكرته التى تذكر الأحداث الوطنية التى مرت به حين كان عمره أربع سنوات فقط، ونجد فى روايته امتزاجا بالمعتقدات الطبية الشائعة، وحديثا عن طبيب أنقذ حياته، وهو لا يلتفت إلى أن هذا الطبيب بالذات أصبح وزيرا ليوم واحد هو اليوم السابق على قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن الحق أن نشير إلى أن فقرة محمد يوسف الجندى على صغرها تحفل بكثير من ملامح التاريخ الاجتماعى والصحى فى أسرة مصرية ميسورة من أسرات ذلك العهد، ومع أن هذه الفقرات تعكس ثقافة صاحبها اللاحقة فيما يتعلق بفترات الحمل والولادة، وصحة الأم، وأسباب العدوى، وفائدة الرضاعة الطبيعية، إلا أن أسلوبه فى تسجيل هذه الأحداث يكاد يكون قريبا من أساليب السيدات المصريات فى روايتها على هذا النمط المبسط، وهو ما يدلنا على مدى ما كان يتمتع به الشعب المصرى من رابطة اجتماعية وثقافية قوية تكاد لا تخرج به عن أن يكون أسرة واحدة مهما كانت انتماءاتها السياسية والعربية والاجتماعية والمذهبية:

«. . . ولدت فى زفتى فى ١٢ يناير ١٩٢٦، وبعد بضعة شهور انتقلت أسرتنا إلى القاهرة، وكان والدى محاميا رشح نفسه لمجلس النواب فى أول انتخابات عام ١٩٢٤ عن حزب الوفد، وانتخب نائبا، واقتضى عمله بعد ذلك الانتقال إلى القاهرة».

«وسكنا فى حى روض الفرج، ولا أذكر هذه الفترة، ولكننى أتذكر شقتنا التى انتقلنا إليها بعد ذلك فى حدائق القبة، وأذكر المظاهرات ضد حكومة صدقى عام ١٩٣٠ التى كنت أرى جانبا منها من شرفة المنزل، والروايات العديدة عن الاعتقالات فى الشوارع، ووسائل النقل المختلفة، وكنت وقتها فى الرابعة من عمرى، ولكن هذه الأحداث تركت فىّ أثرا عميقا، وكنت أتعاطف مع هذه المظاهرات، ومع أولئك المعتقلين».

«ومازلت أذكر تلك الأحداث مثلها مثل الأحداث الأخرى الشخصية والعائلية».

(١٠)

وهو يعرفنا بأشقائه وشقيقاته بأسلوب أليف ومختصر:

«وكنا ستة من الأبناء، أكبرنا أحمد الذى يكبرنى بعامين بالتمام، وولد فى يناير أيضا ١٤ يناير ١٩٢٤، ولهذا كنا نحتفل بعيد ميلادنا فى يوم واحد هو ١٣ يناير، وبعدى تأتى بنتان هما عايدة وسعاد، ثم ولدان هما حسن الذى ولد عام ١٩٣٠، ثم صلاح الذى ولد فى أواخر عام ١٩٣١».

«وكنت أنا وأحمد الوحيدين اللذين ولدا فى زفتى، وأحمد أمضى سنتين وبضعة شهور فى زفتى، ولهذا يذكر بعض أحداث طفولته هناك، ومنها يوم وفاة جدى (والد أبى)، أما باقى الأخوات والاخوة فقد ولدوا جميعا بالقاهرة، وجاءوا تباعا فجاءت أختى عايدة بعدى بسنة وشهر، وتروى خالاتى أن ذلك سبب انقطاع رضاعتى الطبيعية التى لم تدم فترة كافية، ولهذا نشأت ضعيف البنية، ومرضت فى طفولتى بالالتهاب الرئوى، والنزلة المعوية، وارتفعت حرارتى ارتفاعا كبيرا، وفقدوا الأمل فى بقائى على قيد الحياة، ويروون أن طبيبا اسمه الدكتور سيد شكرى جاء ووضعنى فى الماء والثلج فعادت إلىّ الحياة وشفيت من مرضى، هذه روايات أسمعها ولكننى لا أذكر منها شيئا».

(١١)

وهذا هو حديث محمد يوسف الجندى عن والدته وعلاقات أسرته الاجتماعية :

«وتنحدر أمى من قرية تتبع مركز زفتى اسمها «الدغايدة»، واسم والدتى زكية محمد زهدى، وكان أبوها طبيبا اسمه محمد زهدى من الحزب الوطنى الذى كان يرأسه مصطفى كامل، وقد توفى فى سن مبكرة قبل مولدى، فكنت أسمع عنه كثيرا ولكنى لم أره».

«وكانت أمى تصغر أبى بحوالى سبع سنوات، تزوجا فى زفتى، وعاشا هناك فترة، انتقلا بعدها إلى القاهرة، وقد ولدتنا أمنا نحن الستة فى فترة سبع سنوات، وكان هناك ابن سابع ولكنه لم تكتب له الحياة، كانت مرهقة من كثرة الحمل والولادة، وقد أثر ذلك على صحتها، خصوصا أنها لم تكن تقوم بأى عمل آخر غير البقاء بالمنزل والإشراف على تربية أولادها، ومراعاة احتياجات زوجها، وكانت ربة بيت تقليدية، لا تخرج إلا برفقة زوجها، أو أحد أشقائها».

«وكانت أسرتنا «محافظة» من ناحية العلاقات الاجتماعية مثل أغلب عائلات الطبقة الوسطى فى ذلك الوقت، فلم يكن النساء يختلطن بالرجال، وكان للأزواج حياتهم الخاصة المستقلة عن حياة زوجاتهن، وهناك مجتمع للرجال، ومجتمع آخر للحريم».

«وكانت علاقتنا نحن الأولاد أقوى بأمنا من علاقتنا بأبينا الذى كان دائما فى الخارج مشغولا بالعمل، أو مع أصدقائه، وكان يقضى سهرته فى نادى «رمسيس»، وكانت له حياته المستقلة تماما ويعود إلى المنزل فى وقت متأخر من الليل، وكنا لا نجتمع معا إلا على مائدة الغداء، وكنا نحترمه احتراما شديدا ونخشاه، وعندما نراه نقبل يده، ولكننا كنا نعيش حياتنا الحرة مع أمنا، نلعب، ونمارس شقاوتنا أمامها».

«وقد لعبت خالاتى أيضا دورا فى تربيتنا، وكن قريبات الصلة بنا فى طفولتنا، وكن يساعدن أمى خصوصا فى الفترة التى سبقت زواجهن».

obeikan.com

(١٢)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فلنقرأ هذه الفقرة التي يتحدث فيها محمد يوسف الجندى عن علاقة والديه بعضهما ببعض، وهو لا يبخل على والده بذكر ما يدل على مشاعره الأبوية الجميلة، لكنه يشير إلى توثق ارتباطه هو واخوته بوالدتهم بأكثر من ارتباطهم بوالدهم الذى كان مشغولا على الدوام:

«وكان (الضمير يعود على والده) يعامل والدتى برقة شديدة، ولا أذكر أنهما تشاجرا، أو أنه عنفها إلا مرة واحدة عاد من عمله ولم يكن المنزل قد انتهى تنظيفه وترتيبه بعد، فثار وغضب، ولكنه لم يوجه حديثه مباشرة إلى أمى، ولكنها تأثرت ونزلت دموعها فى صمت، وكثيرا ما كنت أراها حزينة تبكى بهدوء عندما كان أبى يتأخر فى الخارج، ولكنها لا تحدثنا عن أى شيء رغم أننا كنا نتبادل معها الأحاديث فى كل شيء بشكل مفتوح، ولم نكن نخشاها كما كنا نخشى أبى، فنلعب أمامها ونمارس شقاوتنا دون خوف من أى زجر، وهو الأمر الذى لم نكن نفعله أمام أبى، رغم أنه كان يحبنا جدا، ويتلاطف معنا ويداعبنا».

«وأذكر عندما مرضت أختى الصغيرة بالتيفود أنه كان شديد القلق عليها، وكان يحبها جدا، وأذكر أنه كان معى عطوفا وملاطفا، ولم يكن شديدا معى كما كان مع أخى أحمد، وكان هو وباقى الأسرة يستخدمون معنا أسماء التدليل».

وكان يرفض أن يعامل أولاده بشكل مميز، ففى إحدى المرات ذكر الخادم فى حديثه إلى أبى «حمادة بك» إشارة إلى أخى أحمد فعنفه، وقال له: هذا طفل فكيف تقول حمادة بك، وكان أحمد وقتها فى حوالى الرابعة عشرة من عمره».

«كنا أكثر انفتاحا على أمنا نمضى معها أغلب الوقت، وهى التى كانت تعتنى بنا مباشرة ونشعر بحرصها الشديد علينا، وكنا أهم شيء فى حياتها، ولم تكن لها أى متعة أخرى، وما أذكره عنها أنها كانت شديدة الطيبة».

(١٣)

ومع أن محمد يوسف الجندى لم يعش مع والده عمرا كثيرا، إذ توفى والده فى ١٢ ديسمبر ١٩٤١ قبل أن يبلغ التاسعة والأربعين، بينما كان هو على مشارف السنة السادسة عشرة من عمره، إلا أنه يذكر باعتزاز بعض انطباعات والده عنه:

«. . . أما نحن، أنا وأحمد، فكنا نتردد على نادى الشباب ونقوم بنشاط ثقافى، وأذكر وقتها أننى ألقيت محاضرة فى شعبة الإخوان المسلمين عن «الاشتراكية والإسلام»، وكنت قد بدأت أتعرف على الأفكار الاشتراكية، وكان أبى يقول لزواره من أهل زفتى: إن أولادى اشتراكيون، وأذكر أنه كان يقولها بفخر، ولكننى أذكر أنه كان من بين قراءاتنا كتاب لنيتشه «هكذا تكلم زرادشت» فكان أبى يناقش أحمد معترضا على أفكار نيتشه، وكنت فى ذلك الوقت فى بداية الشباب (الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة)».

(١٤)

ويقدم لنا هذا الجزء من مذكرات محمد يوسف الجندى أكثر من نموذج معبر عن طبيعة الصداقات العائلية التى تنشأ فى المجتمع نتيجة للجيرة والزمالة فى المدرسة، وكيف تمضى هذه الصداقات مع نهر الحياة، ونقتطف من هذه الذكريات ما يروى به بدايات صداقة جمال العطيفى وأسرته له ولأسرته:

«. . . فى هذا المنزل بدأت الدراسة الابتدائية فى مدرسة المنيرة الابتدائية، ولا أذكر بالضبط العام الذى بدأنا نسكن فيه فى هذا المنزل، ولكننى أرجح أنه عام ١٩٣٣ أو ١٩٣٤، وكان أخى أحمد أيضا يدرس فى هذه المدرسة، ولكنه كان يسبقنى بسنتين، وكان معه فى نفس السنة جمال العطيفى، الذى كان يسكن فى الشارع الموازى لشارعنا من ناحية أبو الريش وحى المنيرة، ومن هنا نشأت بيننا صداقة استمرت منذ ذلك الوقت، وتكونت أيضا صداقة مع أخويه وأخته التى صادقت أختى، وكنا نلعب معا كل أنواع لعب الأطفال، وكنا فى كل سن نلعب الألعاب التى تناسبها ونضيف إليها من خيالاتنا ألعابا أخرى، ولاشك أن تكويننا ونشأتنا وظروفنا كانت تحدد تلك الألعاب، وكان منزلنا الواسع والحديقة الواسعة التى تحيط به تساعدنا على التفنن فى مختلف الأشكال من الألعاب».

. . . .

. . . .

«وعندما أنهى أخى أحمد وصديقنا جمال المدرسة الابتدائية دخلا مدرستين مختلفتين، فذهب أحمد إلى المدرسة الإبراهيمية فى جاردن سيتى، وهى التى دخلتها أنا أيضا بعد ذلك، أما جمال العطيفى فقد دخل مدرسة الخديو إسماعيل، ومع ذلك فقد بقيت الصداقة، وتعاقب علينا الأصدقاء فى الفترات المختلفة، ولكن بقيت الصداقة مع جمال أطولها وأقواها، وبقيت مع أخى بالذات وثيقة حتى وفاة جمال».

«ومازالت الصداقة حتى الآن قائمة بين شقيقتى، وهى زوجة وأم وجدة، وبين شقيقة جمال العطيفى، وهى أيضا زوجة وأم وجدة، وشقيقتى هى زوجة الدكتور عصمت سيف الدولة، أما شقيقة جمال العطيفى فهى زوجة الدكتور صوفى أبو طالب، ورغم تفرق السبل واختلال السياسات فمازالت الصداقة قائمة بين كل منهما».

(١٥)

لكن محمد يوسف الجندى لا يبخل علينا فى الفترة التالية مباشرة بما ينبئ بوضوح عن حدود المسموح به والممنوع والمعتاد فى مثل هذه الصداقات فى عقلية رب أسرة كان من زعماء الوفد الكبار، وقد نقلنا من حديثه مثلين لما كان ممنوعا، ومثلا لما كان معتادا، وهو يتحدث عن هذه التقاليد بما يشبه الاعتذار أو التبرير، وما كان أغناه عن هذا الاعتذار أو التبرير:

«وكان أبى رجلا شرقيا محافظا، فزوجته لا تظهر على أصدقائه من الرجال، وكذلك باقى النساء فى المنزل (خالاتى وشقيقتاى)، ورغم أن شقيقتىّ كانتا تشتركان معنا فى اللعب، وكان لدينا فى الدور الأسفل حجرة للضيوف وحجرة للمكتب، ثم الحديقة والبدروم، وهى الأماكن التى يمكن للضيوف من الرجال أو الأولاد التواجد فيها، أما الدور العلوى فيمنع صعودهم إليه إلا إذا كانوا من الأقارب القريبين (أعمام أو أولاد العم)، وأذكر أننا دعونا مرة جمال العطيفى وهو طفل للصعود للدور العلوى فغضب أبى غضبا شديدا عندما عرف بذلك».

«وأذكر مرة أننا دعونا جمال العطيفى وصديقا آخر إلى زفتى وأمضينا الليل فى المنزل الصغير الذى كان مكتبا لعمى عوض، والذى كان مستقلا تماما عن منزلنا، إلا أنه غضب أيضا لدعوتنا أصدقاء للمبيت».

«وعندما تزوجت أختى عايلة، وهى أصغر منى بسنة، ولم تكن بلغت بعد السادسة عشرة من عمرها، وقد تقدم محام شاب اسمه أنور وحش، من عائلة وحش ببشلا مركز ميت غمر، يخطبها من والدى، الذى وافق على الخطبة وزوج أختى دون أخذ رأيها، لم يكن هذا أمرا شاذا بالنسبة لوالدى، فقد كانت هذه هى التقاليد بالنسبة للغالبية الساحقة من أسر الطبقة الوسطى فى مصر فى هذه الفترة (الثلاثينيات والأربعينيات)، وقد تغير الأمر كثيرا بعد ذلك، فتغيرت التقاليد وأصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة أكثر حرية وانفتاحا مع خروج المرأة للعمل، ومزاملتها الرجل فى العمل والدراسة».

(١٦)

وهذا مثل آخر ينبئنا به محمد يوسف الجندى (فى موضع آخر) عن أن هذه التقاليد العائلية المحافظة قد شكلت طباعه، وحكمت تصرفاته فيما بعد ذلك:

«... وأذكر فى أول مرة نذهب فيها إلى رأس البر، وكان عمرى وقتها حوالى السادسة أو السابعة، وكان أولاد صبرى أبو علم بنتين، الكبرى سنها مقاربة لسن أحمد، والتالية سنها مقاربة لسنى، وكانت هناك بنت ثالثة أصغر منهما، ثم ولد صغير، ونشأت صداقة بيننا وبين البنات وبين أمهم وأمى، وكنا نحن الأطفال نلعب معا ونمضى طوال الوقت معا، وانجذب أخى أحمد للابنة الكبرى، وانجذبت أنا للابنة الثانية، وكان هذا بالنسبة لى شعورا لم أعهده من قبل».

«وتوالت بعد ذلك سفريات الصيف إلى رأس البر، ثم إلى الإسكندرية فى سيدى بشر حيث كنا نصيف معا».

«ولكننى بعد أن دخلت بعد ذلك فى فترة المراهقة تحولت إلى ولد خجول منطو أتهيب من لقائهن عندما يأتين لزيارتنا».

....

....

ربما جاز لنا هنا أن نتوقف لنشير إلى مفارقة طريفة، وهى أن مقر دار النشر التى كان

محمد يوسف الجندى صاحبها، والتى تولت نشر هذا الكتاب، كان فى شارع محمد صبرى أبو علم، ولسنا ندرى هل كان صاحب المذكرات يتذكر ذكرى هذه الأيام القصيرة فى رأس البر كلما أتى داره فى الصباح أو فى المساء؟

(١٧)

ويكاد محمد يوسف الجندى ينفرد بذكر رواية مختصرة عن اليوم الذى رشح فيه والده وزيرا للمعارف فى وزارة النحاس باشا، وهى واقعة معروفة، فإذا هو يضيف إلى ما ذكرته أدبيات التاريخ والمذكرات ما ينفرد به من أن والده لبس ملابس التشريفة ليحلف اليمين، لكنه عاد دون حلف اليمين، وهو يردف هذا بالحديث الصريح عن محاولة القصر استمالة والده ضد الوفد نفسه، وهو يبدى أسفا يسيرا لأن والده لم يحصل على الباشوية مع أقرانه الثلاثة:

«. . . وأعيد تشكيل الوزارة عام ١٩٣٧، واختار النحاس الوكلاء البرلمانيين الأربعة وزراء فى وزارته، واختير أبى وزيرا للمعارف (وهو اسم وزارة التربية والتعليم فى ذلك الوقت)، ونشرت كل الصحف أسماء المرشحين للوزارة وصورهم بما فيها صورة أبى، واستدعى المرشحون إلى السراى لحلف اليمين، وأذكر ذلك اليوم وكيف لبس أبى ملابس التشريفة (ملابس الردنجوت)، وتوافد المهنئون، وعاد أبى من السراى دون أن يحلف اليمين، وعرفنا بعد ذلك أن الملك فاروق رفض تعيينه وزيرا، وخيم على المنزل جو قاتم، وبدلا من توافد المهنئين توافد المتضامنون، ولم يرد القصر أن يقول الأسباب الحقيقة، ولكن الجميع تأكدوا أن السبب فى ذلك هو دور أبى فى ثورة ١٩١٩ وجمهورية زفتى، فضلا عن أنه كان له موقف ضد الأوقاف الملكية واعترض أكثر من مرة فى البرلمان وصوت ضد المخصصات الملكية».

«وقد أدى موقف السراى إلى أزمة بين القصر والوفد. رفض الوفد موقف السراى وسوى الأمر بعد عدة شهور بأن عاد أبى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية كما كان، وكان ذلك ترضية له وإلغاء لكل الاتهامات والمحاولات لتلويث سمعته».

«وقد حاولت السراى فى فترة لاحقة استرضاءه فعينته عضوا فى مجلس الشيوخ،

obeikan.com

وكان الدستور السارى وقتها يعطى الملك حقا فى تعيين ثلث أعضاء مجلس الشيوخ، وقد اعتاد الملك أن يعين أغلبهم من الحزب الحاكم، لكنه عين أبى من بين مَنْ عينهم، وكانت السراى تحاول دائما إحداث انشقاقات داخل الوفد، وتحاول اللعب على أى خلافات داخلية، كما فعلت بالنسبة لانقسام أحمد ماهر والنقراشى، وكما فعلت بعد ذلك بالنسبة لمكرم عبيد وانقسام الكتلة الوفدية»

. . . .

. . . .

«حصل الوزراء الثلاثة الذين كانوا وكلاء برلمانيين مع أبى على الباشوية، أما أبى فقد كان وكيلا برلمانيا فلم يحصل على أى لقب».

(١٨)

وهو يشير أيضا إلى موقف معروف لوالده حين لم يلتزم بما كان الوفد قد رآه من ضرورة استقالة النواب والشيوخ الوفديين ومقاطعة البرلمان احتجاجا على تزوير الانتخابات، فى عهد محمد محمود، وهو فخور بأن «إيجابية والده» كانت أكثر فائدة للوفد والوطن:

«. . . ولكن أبى ظل على انتمائه لحزب الوفد رغم وجود بعض الخلافات بينه وبين قيادة الوفد التى كانت تريد أن يستقيل كل النواب والشيوخ الوفديين ويقاطعوا البرلمان، وكان لأبى رأى آخر».

«وكانت حكومة الأقلية قد زورت الانتخابات بحيث لم ينجح غير عدد قليل من النواب الوفديين، وكان أبى وعدد قليل من الوفديين يمثلون المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ، وكان محمود بسيونى زعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ، وأبى نائبا لزعيم المعارضة، ولكن الواقع أنه كان الزعيم الفعلى للمعارضة فى مجلس الشيوخ، واستطاع من خلال منبر المعارضة أن يرفع رأى المعارضة ضد الحكومة ويستخدم ذلك لكشف الممارسات الحكومية، وقد اكتسب فى ذلك الموقع احترام الجميع، وأذكر من كلمات أنطون الجميل فى حفل تأبينه بعد وفاته قول إنه لم يكن فى الوزارة وزيرا ولكنه كان الوزير الفعلى، وإنه لم يكن فى المعارضة زعيما لها ولكنه كان الزعيم الفعلى».

(١٩)

ونأتى إلى معرفة محمد يوسف الجندى باليسار فنجده حريصا على أن يذكر أن علاقته بالفكر الاشتراكى بدأت بمفارقة طريفة، ذلك أنها بدأت من خلال قراءته كتابا يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها، وليس هذا بالأمر المستغرب فى مثل هذه الانتماءات الفكرية التى تقوم أساسا على الاقتناع لا على مجرد الإيحاء، لكننا نكون ظالمين إذا نحن تغاضينا عن الإشارة بموضوعية المؤلفين اللذين حرصا على ذكر الحقيقة:

«. . . ومن الغريب أن كتابا فى الاقتصاد السياسى للدكتور عبدالحكيم الرفاعى وزكى عبد المتعال قرأته فى ذلك الوقت، وكان له تأثير علىّ، ورغم أن الكتاب فى مجموعه كان يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها، إلا أنه عندما تعرض لمشروع السنوات الخمس الأولى فى الاتحاد السوفيتى ذكر أن الاتحاد السوفيتى هو البلد الوحيد الذى لم يعان من أزمة ١٩٢٩ التى شملت العالم الرأسمالى، وكان لذلك تأثير كبير علىّ، إذ فكرت أن مثل هذا النظام لابد أن له أفضلية على النظام الرأسمالى».

«وكان انتماؤنا للفكر الاشتراكى لا يرتبط بمذهب معين، لكنه كان انعطافا نحو الكادحين ورفض الاستغلال والظلم الاجتماعى، والرغبة فى تحقيق العدل الاجتماعى، وكنا نؤمن أننا يجب أن نكرس أنفسنا للعمل من أجل هذه الأهداف».

أما بداية ارتباط محمد يوسف الجندى بالحركة الشيوعية ارتباطا عضويا وتنظيميا فهو لا يصورها إلا بعد أكثر من عشر صفحات من هذا الحديث الباكر حيث يردف أن جمال العطيفى الذى لم يمارس اليسارية بعد ذلك أبدا كان هو الذى دعاه إلى ذلك اللقاء الفارق الذى تحول صاحب المذكرات بعده إلى اليسار:

«. . . فى السنة الأولى بكلية الحقوق كنت أهتم بدراستى، وأنهيت امتحاناتى بدرجة جيد، وتخرج أحمد وجمال العطيفى، وفى أحد أيام الصيف أخبرنى جمال العطيفى أن هناك محاضرة لزكى هاشم عن «الملكية الزراعية فى مصر» فى مكان بشارع قصر العينى يدعى «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، فذهبت إلى هناك ولم يذهب جمال، وأجلت المحاضرة ولكننى تعرفت برئيس اللجنة وهو سعيد خيال، الذى اهتم بمجيئى

ودعانى إلى الانتظام فى الحضور إلى اللجنة التى كانت تعقد فيها ندوة أسبوعية، وأعطانى بعض الكتب للقراءة».

(٢٠)

وهو يحدثنا عن تردده على «لجنة نشر الثقافة الحديثة ثم تحوله عنها إلى «دار الأبحاث العلمية».

«انتظمت فى التردد على لجنة نشر الثقافة الحديثة، وتعرفت هناك على أشخاص جدد منهم عبد الرحمن الشرقاوى، ونعمان عاشور، ومصطفى كامل منيب، وأسعد حليم، وأحمد رشدى صالح، وأحمد صادق سعد، وريمون دويك وغيرهم».

«وواظبت على الزيارة الأسبوعية للجنة نشر الثقافة الحديثة، وكانت قريبة من منزلنا، ولم يذهب إلى هناك جمال العطيفى ولو مرة واحدة، رغم أنه هو الذى أرشدنى إليها، واستمر سعيد خيال فى تزويدنا بالكتب، كانت كتبا عن الاشتراكية، وعن الحياة فى الاتحاد السوفيتى، وكانت المحاضرات والندوات كلها تعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية من منطلق يسارى».

«وفى أحد الأيام وفى ندوة من الندوات تعرفت بأنور عبد الملك الذى دعانى إلى دار أخرى تقع فى شارع نوبار اسمها «دار الأبحاث العلمية» جذبتنى بعد ذلك أكثر من لجنة نشر الثقافة الحديثة، فقد كان الحضور أكثر عددا، والتنظيم أفضل، فإلى جانب المحاضرات والندوات الأسبوعية كانت هناك لجان مختلفة: لجنة السياسة الداخلية، ولجنة للسياسة الخارجية، وأخرى للاقتصاد، ولجنة لقضايا التعليم، وأخرى للشباب.. إلخ، وتعرفت هناك على شخصيات أخرى أساتذة ومدرسين ومعيدين وطلبة من الرجال والنساء والفتيات».

(٢١)

وهو لا يلبث أن يعترف بالفضل لدار الأبحاث العلمية فى التحول الفكرى الذى حدد خطى حياته وتوجهاته فيما بعد ذلك، وهو كعادة زملائه الشيوعيين لا يخل علينا بمن يريد أن يذكر أنه تعارف بهم فى هذه الفترة الباكرة، وكما تعودنا فى مثل هذه الأدبيات

اللاحقة فقد كان هناك آخرون بالطبع، لكن الروايات الانتقائية فى روايات الشيوعيين عن تاريخهم تحرص على أن تنتقى الأسماء التى كان لوجودها واقترانها دلالة:

«. . . كانت زيارتى لدار الأبحاث العلمية تمثل نقطة تحول جذرية فى حياتى، فمن خلالها ارتبطت بالحركة الشيوعية، وهو الارتباط الذى حدد مسار حياتى كلها بعد ذلك. عز الدين رفعت يتردد أيضا على دار الأبحاث العلمية، أما أخى أحمد، وكذلك جمال العطيفى، وفتحى غانم وباقى الأصدقاء، فكانت لهم اهتمامات أخرى، خصوصا بعد أن أنهوا دراساتهم الجامعية. فأخى كان مشغولا بالعمل مع عبد الحميد عبد الحق، أما جمال العطيفى فقد عمل فترة فى الإدارة القانونية بإحدى الوزارات، ثم عمل فى النيابة».

«وتعرفت فى دار الأبحاث العلمية بشخصيات جديدة منهم شهدى عطية الشافعى، وعبد المعبود الجبيلى، وكانا يديران بالفعل العمل فى الدار، وكانت معهما مجموعة من المعيدين فى كلية العلوم مثل أحمد شكرى سالم، وعبد الرحمن الناصر، وبعض طلبة كلية العلوم مثل جمال غالى، وفاطمة زكى، وبعض طلبة الآداب مثل لطيفة الزيات. ، وثريا أدهم وغيرهم، وكانوا جميعا فى نشاط وحركة دائمة بهرتنى وجعلتنى أرتبط بهم وأندمج فى هذا الجو، وفى أحد الأيام دعانى أنور عبد الملك لزيارته فى منزله حيث وجدت هناك شهدى عطية الشافعى، وكان يعمل مفتشا للغة الإنجليزية، وظريف عبد الملك، وكان قد تخرج من كلية الحقوق وهو من دفعة أخى أحمد».

«واقترح علينا شهدى أن نلتقى بشكل دورى لدراسة الماركسية، وبدأنا بدراسة الفلسفة الماركسية، ثم الاقتصاد السياسى، ثم تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى، ونظرية الحزب، وغير ذلك من الموضوعات، وفى كل جلسة كان أحدنا يقوم بتلخيص أحد الكتب، وكانت الكتب التى نقرؤها ونلخصها كلها باللغة الإنجليزية لندرة الكتب العربية الماركسية فى ذلك الوقت».

«استمر هذا الوضع لمدة أربعة أشهر، وكانت هذه اللقاءات والقراءات والتلخيصات وترددى على دار الأبحاث العلمية تأخذ الجزء الأكبر من اهتمامى، وأصبحت أهتم بها أكثر من اهتمامى بدراستى الجامعية».

ثم يعاود محمد يوسف الجندى الرجوع إلى ذاكرته ليحدثنا عن إرهاصات أكثر تبكيرا فى علاقته بالحركة الاشتراكية، والفكر الاشتراكى، فنفهم مما يرويه أن الدعاية السوفيتية فى تلك المرحلة كانت قادرة على أن تتيح كثيرا من أدبيات اليسار فى متناول جموع كبيرة من الشباب فى مقتبل أعمارهم، كما نفهم أن الانتصارات السوفييتية لعبت دورها الإنسانى والفعلى فى إقناع الشباب بعظمة الفكر الذى كان وراء السياسة التى انتصرت قواتها، ولعل مثل هذه الدروس الواضحة تقنع أهل الفكر فى بلادنا بجدوى النجاح وآثاره، وأهمية التعويل عليه فى نشر الفكر:

«لم تكن هذه هى اهتماماتى الأولى بالاشتراكية، وقد تحدثت قبل ذلك عن الاهتمامات السابقة، وأضيف أنه فى الماضى كنت أهتم بمطالعة «المجلة الجديدة»، وفى أثناء الحرب وأثناء انتصارات ستالينجراد، وكنت قد قرأت الدستور السوفيتى وبعض الكتب الأخرى عن الاتحاد السوفيتى، وقد أثرت الانتصارات السوفيتية فى ستالينجراد تأثيرا كبيرا علىّ، فانتهزت فرصة علاقة نشأت مع مجلة «الشعلة» الوفدية، التى كان أحمد وجمال العطيفى ينشران بها قصصا، فكتبت إليها مقالا بعنوان «روسيا السوفيتية» أكدت فيه أن انتصارات ستالينجراد هى انتصار للنظام السوفيتى، وأن النظام الاشتراكى هو الذى مكن السوفييت من تحقيق هذا الانتصار، وقد فوجئت بقيام المجلة بنشر مقالتى على صفحتين كاملتين فى مكان بارز أثنى الكثيرون، ومنهم عمى عبد القادر، عليها، وكنت راضيا جدا عن ذلك».

«وقد كانت هذه المقالة تعبر عن تطور فى موقفى من ألمانيا الهتلرية، وقد كنت فى السابق أعتبرها اشتراكية، خصوصا بعد قراءتى كتاب «ألمانيا اليوم».

. . . .

. . . .

على هذا النحو يتحدث محمد يوسف الجندى ثم هو يقول:

«لهذا فإن ذهابى إلى لجنة نشر الثقافة الحديثة، ثم دار الأبحاث العلمية كانت له

مقدمات، ولم يبدأ من لا شيء، ولكننى وجدت أخيرا فى دار الأبحاث العلمية، ثم فى الحركة الشيوعية بعد ذلك الضالة التى كنت أبحث عنها، واستطعت من خلالها أن أحدد انتمائى الحقيقى، وأن أحدد طريقى فى الحياة».

(٢٣)

ولا نزال مع محمد يوسف الجندى وهو يحاول أن يشعرنا أن انتماءه للحركة الشيوعية لم يكن بالأمر المستغرب، وإنما كان أمرا طبيعيا، بيد أن حديثه هذا الذى استخدم له ثلاثة محاور تعرضنا لاثنين منهما وسنعرض للمحور الثالث بعد قليل، يدفعنا إلى إدراك حقيقة أن محمد يوسف الجندى كان يحس بغربته بعدما اعتنق هذا الفكر الشيوعى، وهو لهذا يدافع لنفسه عن إحساسه بالغربة ناسبا توجهاته الفكرية إلى أحاسيسه الوجدانية:

«... وكان ارتباطى بالحركة الشيوعية هو استمرار لجهد وبحث طويل استمر عدة سنوات، كان يحكمه إحساس عميق بضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية، ومراعاة مصالح الغالبية الساحقة الكادحة من الفلاحين والعمال، ورفض الاستغلال، ورفض المجتمع الذى تعيش فيه قلة مترفة على حساب الغالبية الساحقة الكادحة، وهو استمرار للموقف الوطنى الذى يدعو للتحرر من الاستعمار والاحتلال، وهو النضال الذى لا ينفصل عن النضال ضد أعوان الاستعمار الذى كنت أرى أنهم السراى وعملاؤها وحلفاؤها من كبار الملاك والمترفين المستغلين».

....

....

«ولم أجد أى تعارض بين الاشتراكية والإسلام، فقد نشأت مسلما أؤمن بالله، وأواظب على تأدية فرائض الصلاة والصوم، وقرأت حياة محمد والخلفاء الراشدين، وقصص القرآن، وتأثرت بها، وكنت أرى أن مضمون الإسلام هو العدالة الاجتماعية، ولهذا كنت صادقا مع نفسى عندما قدمت محاضرة «التضامن الاجتماعى والإسلام»، ومحاضرة «الاشتراكية والإسلام»، ولم أجد أى تناقض عندما وضعنا برنامج جمعية البعث الاجتماعى، الذى كان البند الأول فيه «إلغاء الملكية الفردية

لوسائل الإنتاج» أن نضيف فى نهايته «الشريعة الإسلامية» بعد نقاش مع أعضاء من الإخوان المسلمين، ولم أجد فى ذلك أى تنازل عن المبادئ».

(٢٤)

ولا يفوت محمد يوسف الجندى أن يروى لنا أن انتماءاته الأولى كانت وفدية فى مقابل ما كان شائعا فى شباب جيله المتحمسين، ومنهم بعض أصدقائه، من الانتماء إلى مصر الفتاة:

«. . . وقد تأثرت بوالدى وبالأسرة التى نشأت فيها، فكنت فى البداية وفديا، مثل والدى، ثم أصبحت اشتراكيا، وأذكر فى شبابنا المبكر أو فى طفولتنا أننى كنت أدافع عن الوفد فى مواجهة جمال العطيفى الذى كان يدافع عن مصر الفتاة التى كان يتعاطف معها».

. . . .

. . . .

«صحيح أنه بعد انضمامى للحركة الشيوعية، وبعد دراستى للماركسية حدث تطور فى مفاهيمى، لكن لم يحدث تغيير فى جوهر انتماءاتى وانحيازى للغالبية الكادحة التى كانت تتحدد وتتعمق وتتطور وتزداد نضجا مع تقدمى فى العمر، ولم أشعر فى أى وقت من فترات عمرى بخيبة أمل فى اختياراتى الفكرية أو السياسة فى خطوطها الأساسية. قد أشعر مع تقدمى فى العمر أننى كنت أكثر اندفاعا ورومانتيكية، ومن المحتمل أننى قد أعدل بعض المسالك العملية فى طريقى وحياتى، لكن ذلك لا يمس الاختيارات الفكرية والسياسية الأساسية».

ونأتى إلى اللحظة الفارقة التى جعلت محمد يوسف الجندى لا ينام فى ليلتها من الانفعال:

«ومع هذه النشأة كان طبيعيا أن أشعر بحماس وانفعال شديد عندما طلبنى شهدى عطية الشافعى بعد إحدى الأمسيات فى دار الأبحاث العلمية وحدثنى عن الانضمام إلى منظمة الشرارة «اسكرا»، وكان ذلك فى عام ١٩٤٥، وكنت فى التاسعة عشرة من

عمرى، وطلب منى الخروج معه لأنه يود التحدث معى، وسرنا وخرجنا من دار الأبحاث العلمية فى شارع نوبار، وسرنا فى الشوارع المحيطة بالمكان فى السيدة زينب، وأخذ يحدثنى عن وجود تنظيم سرى اسمه «الشرارة»، وأن الدراسة التى كنا نمارسها كانت فى إطار هذا التنظيم، وأننى بعد أن أمضيت فترة الترشيح بنجاح يعرض علىّ الانضمام إلى هذه المنظمة، وهو يريد أن ينبهنى إلى المخاطر التى يمكن أن أتعرض لها من سجن، وملاحقة، وتشريد، واضطهاد من جانب البوليس والسلطات، وأننى يجب أن أفكر كثيرا قبل أن أقرر».

«لم أتردد وقررت القبول على الفور وأنا ممتلئ حماسا، ولم أنم فى تلك الليلة من الانفعال».

(٢٥)

وفى خضم هذا كله لا ينسى محمد يوسف الجندى أن يعبر عن غربة اليساريين تجاه عائلاتهم وكيف كانت هذه العائلات تضيق وتحتج وتحاول الإقناع بالترغيب والترهيب، وهذا نموذج طريف من نماذج ترهيب الأهل لأبنائهم للبعد عن الحركة الشيوعية، وهو ترهيب طبيعى ومرتب ومستند إلى حقائق:

«. . . ومن أمثلة ذلك أننى قبل اعتقالى بعدة شهور كنت قد شعرت ببعض الألم فى منطقة الصدر، وكان لى صديق يدرس فى كلية الطب، وكان يتردد معى على دار الأبحاث العلمية، فاستشرته فى هذا الألم فوضع يده على قلبى وقال: إنه القلب، ففزعت فزعا شديدا لعلمى بأن أبى مات من مرض القلب، وكذلك أمى، فأصبت بوهم شديد، وارتفعت دقات قلبى بحيث إنى مرضت بالفعل عدة أيام وأصبحت أرقد طول الوقت ولا أتحرك، فأخذنى أنور وحش زوج أختى إلى أحد أطباء القلب الذى كشف علىّ وطمأننى وسخر من قول صديقى الطالب فى كلية الطب، وقال: إن قلبى سليم تماما، وإن كل شىء سليم، ويبدو أنه قاس ضغط الدم ووجده مرتفعا ١٦٠/ ٨٠ لكنه لم يقل لى شيئا بخصوص ذلك».

«خرجت من عند الطبيب وأنا أشعر أنى معافى تماما، وبعد أن كنت أتحسب فى سيرى أصبحت أقفز درجات السلم، وقد انزاح عن صدرى عبء الوهم الشديد».

«بعد خروجى من الحبس أراد زوج أختى أن يخيفنى فأخبرنى بأن الطبيب وجد ضغط الدم عندى مرتفعا، وأننى يجب أن أراعى ذلك، وأتجنب السجون والمشاق مراعاة لصحتى».

«لم أعر ذلك أى اهتمام فى ذلك الوقت، ولم أخف، فقد كان انخراطى فى العمل السياسى وإيمانى بما أقوم به أقوى من أى اعتبارات أخرى».

(٢٦)

ونأتى إلى اغتراب الهروب الذى مارسه محمد يوسف الجندى باقتدار وحنكة، وهذه فقرات سريعة متلاحقة الأنفاس يروى بها محمد يوسف الجندى تجربته مع الهرب من السجن، والعيش هاربا من أعين البوليس بكل ما تحفل به هذه الفقرات من تجارب إنسانية وعاطفية:

«. . . كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى، وقد خرجت من السجن متطلعا للحياة بكل معنى الحياة، سواء حياة النضال، أو حياة شاب فى مثل عمرى يريد أن يعيش ويحب ويتزوج ويعيش مثل بقية الشباب، وكان خروجى من السجن والهرب منه يعكس أيضا تعلقى بأن أعيش حرا، أفعل ما أريد، ولكننى فوجئت بحياة أخرى قاسية جدا، فليس فى استطاعتى أن أمارس شوقى إلى مواصلة نضالى لاعتبارات الأمن التى تفرض علىّ أن أظل مختفيا، وأن أقلل اتصالاتى وتحركاتى، وأنفذ بدقة التعليمات التنظيمية بهذا الخصوص، ولا أستطيع أن أعيش حياتى كشاب فى مقتبل شبابه، فاتصالاتى محدودة ويجب ألا يعرف أحد بمكان وجودى لأن البوليس يبحث عنى ويطاردنى».

«لم أكن أستطيع الخروج إلى الشارع إلا عندما أنتقل من مخبأ إلى آخر. تنقلت بين اثنى عشر منزلا، وحدثت نوادر وطرائف أثناء اختفائى، فقد كان يوسف إدريس واحدا ممن اختفيت عندهم، وكان يقطن هو وشقيقه فى حجرة بالجيزة لم يكن بها غير سرير وكنبة ومكتب، أما السرير فكنت أنام عليه أنا ويوسف إدريس، أما الكنبة فكان ينام عليها شقيقه. كان يوسف إدريس يدرس فى السنة النهائية بكلية الطب، وفى أحد الأيام شعرت بآلام شديدة فى أذنى ولم يكن فى وسع يوسف إدريس أن يعرضنى على

طبيب فذهب إلى أستاذه فى الأذن والأنف والحنجرة بكلية الطب ووصف له الأعراض التى أعانى منها فوصف له الدواء الذى أحضره لى وعالجنى واختفت الآلام».

«وكنت كلما ألقى يوسف إدريس بعد ذلك يذكرنى بتلك الواقعة».

(٢٧)

وهذه تجربة أخرى أكثر حياة وإثارة، لكن محمد يوسف الجندى يرويها فى تعقل وحياء لا يخفيان كثيرا من ملامحها:

«وفى فترة تولى أحمد طه عملية إخفائى، رتب سكنى عند أحد الأشخاص وزوجته فى الساحل، وكانا يشفقان علىّ، رتبا أن أتنكر فى زى سيدة تلبس الملابس البلدية، وخرجت معهما وذهبنا إلى إحدى دور السينما، وبقيت فترة فى هذا المنزل. كان الرجل وزوجته متعاطفين معى ويحاولان تسهيل مدة اختفائى إلا أنه بعد فترة بدأت الغيرة تنتاب الرجل من بقائى فى المنزل مع زوجته عند خروجه، فأخبرت أحمد طه الذى رتب لى أن أنتقل إلى مكان آخر».

«وقد تأثر الرجل وزوجته عندما نقلنى أحمد طه عند أحد معارفه فى مصر الجديدة، وكان يسكن بمفرده، وأخبرنى أنه كان مصابا بالسرطان. كان أعزب، وكان يكثر التردد عليه بعض الأصدقاء وبعض المومسات، وكان أحيانا يترك إحدى المومسات تنام معى فى حجرتى، ولكنى لم أستطع أبدا التجاوب معها».

«وكان هذا الشخص الذى أقطن معه غريب الأطوار، وكانت له حياة وعلاقات غريبة، ولكنه كان يحترمنى ويحترم عاداتى وظروفى، وقد استفدت فى هذه الفترة أننى بدأت أتعلم إعداد الطعام بنفسى، وهو أمر لم أكن أعرفه من قبل».

«انتقلت أيضا للسكن مع صلاح القلش وتعرفت به وبأخيه كمال القلش، وكان كمال صغير السن فى هذه الفترة، ودارت بينى وبينه مناقشات سياسية كثيرة، وكان صلاح أعزب وعلى علاقة حب بإحدى الفنانات، وأذكر فى أحد الأيام وكان ينتظر زيارة منها فقام بتنظيف المنزل وأعجبت به كثيرا، وهو يمسك «الخيشة» بنفسه ويقوم بتنظيف الشقة بكفاءة شديدة، وأذكر فى هذه الفترة أن صلاح طلب منى أن أكتب

محاضرات مبسطة للتعريف بالاشتراكية، فقمت بكتابتها وفوجئت بعد ذلك أنها سلمت للمنظمة وطبعت فى شكل كورس للتجنيد، فسررت أننى استطعت أن أقوم بعمل مفيد».

«وانتقلت فترة للسكن مع أحمد حمروش، وكان ضابطا فى الجيش، وكان مهتما بالكتابة، وكان يعرض علىّ كثيرا مما يكتبه ليأخذ رأيى فيه».

«وعشت عدة أيام فى بولاق فى حجرة فوق السطوح مع أحد النوبيين، وكانت حجرة فقيرة ليس بها غير سرير وكنبة، ولم يكن بها حمام، غير طشت نقوم بالاستحمام فيه، وكان يذهب إلى عمله فى الصباح، وكنت أبقى فى الحجرة بمفردى، ففوجئت بإحدى الفتيات فى منزل مجاور تحاول التحدث معى بالإشارات، ثم فوجئت بها فى إحدى الأمسيات تأتى وتَطرق الباب وتدخل وتجلس معى، وجاء فى هذا الوقت فؤاد حبشى ووجدنا معا، وبدأ يناوشها ولكنه قرر ضرورة نقلى من ذلك المكان».

(٢٨)

وهذه هى أكثر تجارب الهرب والاستخفاء خلودا فى ذاكرته، لما فيها من اختلاط الهرب بالعاطفة، وتعبير العاطفة عن نفسها بصورة رومانسية:

«وانتقلت إلى منزل فى مصر القديمة لأحد الأرمن، كان يقطن هناك مع أمه وأخته، وكان كمال عبدالحليم يزورنى أحيانا فى هذا المنزل، وبدأ يطلب منى الاستماع إلى أخبار الإذاعات الأجنبية، وإذاعة موسكو بالذات، وأن أكتب الأخبار المهمة لنشرها فى جريدة «الملايين» التى بدأت فى الصدور».

«سررت أنى أصبحت أؤدى عملا مفيدا، وإن كان لم يشبع كل رغباتى فى الحركة، والاتصالات، والعمل النضالى الذى كنت معتادا عليه، وعرفت هناك معلومات عن نشاط حركة السلام ونشاط الصحافة اليسارية فكنت أتحرق شوقا للمشاركة فى العمل، ولكننى لا أستطيع بسبب اختفائى وظروفى الأمنية».

«ظللت فى منزل هذا الأرمنى حوالى شهر، وتكونت بينى وبين أسرته روابط ألفة

وود، وكان أغلب الوقت أمضيه مع أخت مضيفى الأرمنية، وكنت شابا محروما من أى علاقات نسائية بعد فترة السجن، وبدأت تعتمل فى وجدانى بعض العواطف تجاه الفتاة، ولم أتصور أن تكون لى علاقات بالفتاة غير علاقات الزواج، وبعد تردد طويل وبدون أى مقدمات فاجأتها بعرض الزواج».

«وقد فوجئت بهذا العرض ولم تكن تعرف عنى أى شيء إلا أننى هارب من السجن، فرفضت بالطبع وقالت لى ما معناه إن مَنْ يعيشون مثل حياتى لا يجب أن يتزوجوا. كان عرضا رومانسيا من فتى رومانسى بعيد تماما عن الحياة والحسابات الواقعية».

«ويبدو أن الفتاة أخبرت أخاها بهذا العرض، ففى اليوم التالى أخبرنى أخوها أنه أحس ببعض المراقبات من جانب البوليس، وأخبر كمال بذلك، الذى رتب نقلى».

«وفى عشية انتقالى تناولت مع الأسرة طعام العشاء المعتاد، والذى كان يتكون من الجبن والزيتون والشاى، وقد لاحظت تأثر الأم وابنتها وقد سالت الدموع من عيونهما، وقالت لى إنهما اعتادتا على وجودى وسيكون الفراق صعبا».

«وقد كانت الأسرة تعد للسفر إلى أرمينيا السوفيتية مثل كثير من الأرمن الذين هاجروا وكانوا يتوقون إلى هذا اليوم، ولكنهم لم يسافروا، بل علمت بعد ذلك أن الأخ قد اعتقل عام ١٩٥٣ بعد قيام الثورة فى إحدى القضايا الشيوعية، وأنه قدم اعترافا كاملا».

(٢٩)

ونتقل مع محمد يوسف الجندى إلى تجربة أخرى ذات طبيعة لا تقل خصوصية:

«... وقبل الانتقال إلى (مخبئى) الأخير رتب لى لقاء مع اخوتى فى منزل كان أخى قد استأجره فى الجيزة، وكان لقاء عاطفيا، إذ لم أكن قد رأيتهم منذ مدة طويلة، ولاحظت أن أخى صلاح قد كبر، أما أخى حسن فكان قد ترك تقريبا العمل الحزبى، وكان ارتباطى بأختى سعاد هو الأقوى، وقد استمر هذا الارتباط، فقد كانت هى الأكثر حرصا على الحفاظ على الروابط العائلية، خصوصا بعد أن تفرقت بنا السبل، وقد كانت أيضا تتعاطف معى فكريا، وكانت تتفهم أكثر الطريق الذى اخترته».

«والحقيقة أن السجن والإضراب وظروفى الصحية بعد الإضراب قربت كثيرا بينى وبين أخوتى وأسرتى، وأصبحوا ينظرون إلى الطريق الذى اخترته باحترام وتفهم بعد كل الخلافات السابقة، وأصبحوا ينظرون إلى اختيارى على أنه أمر واقع يجب أن يتقبلوه، وأن يساعدونى فى التغلب على المصاعب التى ألاقيها، سواء وافقوا على أفكارى واتجاهاتى أم لم يوافقوا، ولم يتغير هذا الموقف طوال حياتى بعد ذلك، بل ازداد عمقا، وقد تجسد ذلك فى علاقتى بأخى أحمد، فرغم أن اتجاهات كل منا اختلفت فقد استمرت علاقاتنا جيدة تقوم على الحب والاحترام فى كل الظروف».

«انتقلت إلى (مخبئى) الأخير فى الزمالك فى منزل أحد الضباط الأحرار وهو عثمان فوزى وزوجته دويدار، وكانت لهما طفلتان صغيرتان لم تتجاوزا الخامسة أو السادسة، من عمرهما، وقد اعتنيا بى عناية كبيرة، سواء من حيث الراحة أو الغذاء، وكان مستوى المعيشة أفضل كثيرا مما عشته فى المخابئ الأخرى، ولكنى فى هذه الفترة من حياتى كانت متطلباتى قليلة جدا، ولم أكن أشعر بأى ضيق من أى وضع أعيش فيه، وكانت الحياة الجديدة تمثل ترفا بالنسبة لى، وكنت أشعر بالحرج من هذه العناية المبالغ فيها».

(٣٠)

ويتأمل محمد يوسف الجندى فى أثر هذا الهرب كله على حياته، ويقدم وجهة نظره فى تحليل ما تكون أو تطور فى صفاته الشخصية التى ترتبت على هذه الحياة ويقول:

«. . . كان تكوينى وشخصيتى تغلب عليهما الرغبة فى القيام بالأعمال العملية أكثر من الدراسة والبحث، فكانت حياة الاجتماعات والاتصالات والتجنيد تستهوينى وتجذبنى من الناحية المعنوية، وترضينى أكثر من الجلوس مددا طويلة للقيام ببحث أو كتابة مقال أو ترجمة كتاب، وقد يكون لتربيتنا الأولى فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى أثر على ذلك، فقد كان دافعى الداخلى هو تقديم كل شىء، والتضحية بكل شىء من أجل العمل النضالى. احتياجاتى الشخصية هى أقل شىء عندى، وهى فى المرتبة الثانوية، ولم تكن لى احتياجات شخصية كثيرة. كل ما كنت أحتاج إليه هو أن آكل لأعيش وأنام وأسكن وأقوم بمواصلاتى، وألبس فى أقل الحدود. كانت أوضاعى الأسرية تسمح لى بحياة أفضل، لكن المتطلبات المعيشية الأخرى لم تكن تستهوينى».

«طبعا كانت لى كأى شاب احتياجات جنسية وعواطف تجاه الجنس الآخر، لكننى لم أكن أبذل أى جهد لتحقيق ذلك بطريقة طبيعية، وكان تكوينى الأسرى الشخصى وانشغالاتى النضالية تجعلنى لا أولى هذا الموضع الاهتمام الأول، رغم أنه كان يشغل بالى، وقد أعجبت بفتيات كنت أخجل من إقامة علاقات معهن، وكنت ألجأ فى النهاية إلى العروض المباشرة بالزواج دون مقدمات، وقد أعجبت فى دار الأبحاث العلمية بفتاة من سنى كانت تدرس فى كلية الآداب، وفكرت فى التقدم للزواج منها، ولكن خجلى كان يمنعنى، وذات مرة ودون مقدمات عرضت الزواج على لطيفة الزيات، ولم أعرضه بشكل مباشر، ولكن عن طريق أحد أصدقائى، فقالت بلطف إنها مرتبطة، ثم عرض علىّ حمدى عبد الجواد فى مرة أخرى أن يزوجنى فتاة فلاحة من ميت يعيش وذهبت معه إلى القرية وقابلنا الفتاة وأهلها، وكانوا فى غاية الفرح، ولكنها لم تعجبنى شكلا، ولم يهمنى فى ذلك الوقت كونها فلاحة أو أنها فى غير مستواى من الناحية الاجتماعية أو الثقافية».

«وقد أثرت علىّ كثيرا الحياة السرية وحياة الاختفاء، فقوت فىّ الاتجاه الانطوائى، والابتعاد عن الظهور، ومن ناحية أخرى كان لتوجه «حدتو» العملى والنضالى تأثير علىّ، وأصبحت أهمل إلى حد كبير العمل الفكرى والثقافى الذى يحتاج إلى جهد مكتبى كبير».

(٣١)

ثم يتأمل محمد يوسف الجندى تأثير أدبيات الماركسية المحتمل على تفكيره فى هذه الناحية فيقول:

«ويبدو أن بعض الاتجاهات التى تعتبر المثقفين بورجوازيين، وتعطى الأفضلية للعمال أو البروليتاريا، وهو الأمر الذى كان شائعا فى توجهات بعض الحركات الشيوعية فى العالم، وفى بعض ممارسات البلاد الاشتراكية، كان له تأثير أيضا على تكوينى».

«ولولا ذلك لكان فى إمكانى أن أستفيد من فترة الاختفاء فى الاطلاع، والبحث والكتابة، ولكان فى ذلك إشباع معنوى لى، ولكن ذلك لم يتم إلا بشكل ضئيل، فقد

قمت بترجمة بعض أعمال ماو تسى تونغ (الزعيم الصينى) وغيرها، وكنت أكتب الأخبار (المهمة) التى تبثها الإذاعات الأجنبية لجريدة «الملايين»، وقرأت بعض الكتب، ولكنى مع ذلك كنت أحس أننى بعيد ومنعزل عن الكفاح الحقيقى، وكان ذلك يؤثر على معنوياتى، فكانت هذه الحياة تختلف عن الحياة المليئة بالعمل والسفر والاتصالات ومواجهة المخاطر التى كنت أعيشها قبل اعتقالى».

(٣٢)

ونأتى إلى قصة هربه بالسفر إلى الخارج، التى تتوج مراحل هروبه واغترابه فى داخل وطنه، وتطلعنا هذه القصة على كثير من تفصيلات علاقات الشيوعيين المصريين بالشيوعية الدولية، والدور الذى كان البمبوطية المصريون يقومون به، والدور المقابل الذى كان البحارة الفرنسيون يقومون به أيضا، وهو فى تصويره للحظات الحرج التى عاشها فى قاع المركب يبدو فزعا، لكن ربما أنه لا يعرف أن الجيل الجديد من شباب مصر الذين يحاولون الهرب من أجل لقمة العيش يعيشون الآن تجارب أكثر صعوبة ومرارة من تجربته هذه:

«. . . سافرت مع عثمان فوزى بسيارته إلى بورسعيد، وعشت فى شقة أحد الزملاء، ثم انتقلت إلى كابينة على البحر، وجاء كمال للقائى، وكان قد تم الاتفاق مع اثنين من البمبوطية بأن أصعد إلى إحدى البواخر الفرنسية اتفقا مع اثنين من بحارتها الفرنسيين مقابل مبلغ من المال، وفى اليوم المحدد صعدت إلى الباخرة مع ثلاثة آخرين، اثنين من البامبوطية فضلا عن كمال، وأعطى البامبوطى زجاجة من العطور إلى الضابط الذى كان يقف على سلم الصعود وسلمونى إلى أحد البحارة الفرنسيين الذى قام بإنزالى إلى قاع المركب. الثلاثة الآخرون غادروا المركب. كان قاع المركب مكانا مظلما مضاء بلمبة كهربائية، ومليئا بقماش تندات، وكان القاع يقع تحت المكان الذى يسكن فيه البحارة، وكان يتم النزول إليه بسلم صغير يغلق بعد نزولى بحيث يصبح السقف فى مستوى الأرض. لم يكن معى أى حقائب، وكنت ألبس عدة ملابس فوق بعضها، واتفق معى البحار الفرنسى بألا أخرج من هذا المكان لمدة خمسة أيام حتى تتحرك المركب من الإسكندرية، وكان خط سير المركب هو بورسعيد ـ بيروت

ـ حيفا ـ الإسكندرية ثم إيطاليا ـ مرسيليا، وكان علىّ أن أبقى طوال المدة حتى مغادرة الإسكندرية فى قاع المركب، وبعد ذلك يمكن مغادرتها للتجول يوميا نصف ساعة على سطح المركب، وكان يأتينى بطعام فاخر، وكان عندما ينزل إلى يقول لى: مع الصبر تحقق الهدف».

«مكثت فى قاع المركب تنتابنى الأفكار المختلفة والقلق من أن ينكشف أمرى، وقامت المركب ووصلنا إلى بيروت، ثم ذهبنا إلى حيفا ثم الإسكندرية، وأمضت المركب يوما كاملا فى الإسكندرية كنت أثناءها فى غاية القلق أن ينكشف أمرى، ومكثت فى قاع المركب أعد الثوانى والدقائق إلى أن بدأت أسمع أصوات المحركات، ثم بدأت أرتاح عندما أخذت المركب تهتز ثم سارت أخيرا، وأحسست كأن عبئا ثقيلا قد انزاح من على صدرى، وأصبحت فترات نزهتى على سطح المركب تطول قليلا، وكان ذقنى قد طال، وقررت أخيرا أن أذهب إلى الحلاق ليحلق ذقنى».

(٣٣)

ثم هو يتحدث عن خروجه من البحر إلى البر، وكيف رأى فى فرنسا صورا من الرشوة وتصريف الأمور بالمال لم يكن يتصور وجودها على هذا النحو:

«. . . مكثنا فى البحر حوالى اثنى عشر يوما واقتربنا من مرسيليا، وقال لى البحار: إنه عندما تتوقف المركب فى مرسيليا سأبقى فى مكانى عدة ساعات إلى أن يخرج جميع الركاب، وسأخرج معه وإذا سألنى أحد فأنا ابن عمه، وكانت جوازات السفر تجمع من جميع الركاب وتختم ويخرجون بعد ذلك تباعا، ولم يكن معى جواز سفر أو أى أوراق، ولهذا قرر البحار أن أخرج معه بعد فترة من خروج كل الركاب».

«وعندما حان وقت خروجنا دعانى البحار، كنت ألبس ملابسى كلها فوق بعضها من غير معطف، وكان معى قفاز من الجلد أعجب به البحار واستولى عليه».

«نزلت سلم الباخرة مع البحار وهو يوزع تحياته يمينا ويسارا، ولم يستوقفنى أحد، وركبنا سيارة تاكسى، وعند الجمرك استوقفونا وظهر أن البحار لا يهربنى وحدى وإنما يهرب سجائر أيضا، ولكنه حل المشكلة بأن أعطى موظف الجمرك علبة من السجائر

وتركنا نمضى، وكانت هذه أول تجربة لى فى فرنسا، وأدهشنى أن تكون الرشوة بهذا السفور فى هذا البلد المتقدم».

«أوصلنا التاكسى إلى منزل البحار، ثم توجهت إلى محطة السكة الحديد، وهناك اشتريت تذكرة إلى باريس».

(٣٤)

وها هو لقاؤه الأول بباريس يأتى فى ظل انشغاله بخوفه وبحالة هروبه فلا نكاد نحس أن صاحب المذكرات قد دخل إلى مدينة النور:

«كنت أشعر بفرح شديد لوصولى إلى باريس، وأحسست أننى هناك يمكن، بعد فترة طويلة من السجن والهرب، أن أشعر بالحرية والانطلاق والقدرة على العمل، ولكننى كنت واهما كما تبين لى من تجربتى بعد ذلك».

«لقيت شريف حتاتة، الذى جاء إلى باريس قبلى بثلاثة شهور، أمضيت الليل عند الأسرة، وفى اليوم الثانى التقيت يوسف حزان وكنت أعرفه من القاهرة، وعندما رآنى، وكنا فى شهر يناير، قال لى: كيف أمشى من غير معطف؟ قلت له: إننى ألبس ملابس كثيرة، قال: ولكن سيرك هكذا فى هذا الوقت غريب وشاذ فلا أحد يسير بدون معطف فى الشتاء، وقد يشتبه فيك البوليس ويقبض عليك ويسأل عن أوراقك، ولم تكن معى أى أوراق، وذهب معى على الفور لشراء معطف».

(٣٥)

ويعبر محمد يوسف الجندى عن إحساسه الشديد بالأيام الأولى من هجرته فى باريس، إلى درجة أنه يوحى بأن حياته فى السجن كانت أرحم من حياته فى الهجرة، ويبدو أن هذا الإحساس الذى انتاب محمد يوسف الجندى وسيطر عليه قد تضاعف بسبب مقارنته حاله بحال زميله شريف حتاتة، الذى كان قد سبقه إلى فرنسا، فضلا عن أنه كان أكثر منه تأقلما مع المجتمع الغربى بسبب تربية والدته الإنجليزية وما تعلمه منها على مدى عمره:

«وبعد وصولى بقليل، وخصوصا قبل قدوم كورييل، بدأت أحس بوطأة الهجرة،

فبعد الفرحة فى الأيام الأولى، بدأت أحس بأننى فى سجن آخر، فكانت الحياة غريبة عنى وأنا بعيد عن النشاط فى مصر، وأحسست بالانعزال الشديد، وخصوصا أننى لم أكن أستطيع الاندماج مع الحياة الفرنسية لأنه لم تكن لدى أوراق، فكنت أعيش هناك أيضا بشكل غير شرعى».

«وأحيانا كنت أشعر أن الحياة فى السجن مع زملائى كانت تحقق لى إشباعا أكثر من حياة الهجرة، وأحسست بالغربة الشديدة، أما شريف فكان أكثر تأقلما، فتكوينه أوروبى إلى حد ما، فوالدته إنجليزية، وكان يتقن الإنجليزية والفرنسية، وكان يسكن فى غرفة فى شارع فرساى، واشترى آلة كاتبة، وكان يمضى أغلب وقته فى الكتابة، وهو يتسم بالتنظيم الشديد فى وقته وعمله، وقال: إنه تعلم ذلك من والدته الإنجليزية التى قال لى إنها كانت طوال وقتها فى المنزل ترتب وتنظم كل شىء».

(٣٦)

وها نحن نرى محمد يوسف الجندى وهو يعيش تجربة الهرب فى فرنسا بعد أن حكم عليه بالسجن ٥ سنوات، وقد نجح فى الوصول إلى باريس والبقاء فيها، لكن قدره يسوقه إلى الاعتقال.

ويحكى محمد يوسف الجندى قصة اعتقاله فى باريس، فنشعر بالتعاطف معه لأنه ساعد على الإيقاع بنفسه على نحو ما ساعد من قبل على الإيقاع بها فى القاهرة:

«. . . وكانت فرنسا تضم عددا كبيرا من الجزائريين والمغاربة والتونسيين، وتجمعهم روابط مختلفة، وقررت إحدى هذه الروابط عقد اجتماع فى إحدى الصالات الكبيرة للتضامن مع نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى، وأصدر البوليس الفرنسى أمرا بمنع هذا الاجتماع وحاصر البوليس محطات المترو من «محطة اتوال» عند قوس النصر، حتى محط «باسى»، ووقف البوليس عند مخارج كل محطة يستوقف كل مَنْ كان لونه يميل إلى السمرة ويبدو عليه أنه من أبناء المغرب فى شمال إفريقيا، ويسأله عن أوراق إثبات الشخصية، ونزلت من المترو مع أحد الأصدقاء فى محطة «تروكاديرو»، وعند الخروج وجدنا البوليس يحاصر المحطة، وسألنا عن تحقيق

الشخصية، أبرز صديقى هويته فتركوه، أما أنا فلم يكن معى تحقيق شخصية فأركبونى البوكس».

«بقيت فى مركز البوليس أربعة أيام، يحاول رجال التحقيق من المباحث انتزاع أقوال منى، أما أنا فالتزمت الصمت تماما، والسبب فى ذلك نصيحة قدمت لى ولشريف حتاتة قبل اعتقالى بعدم التحدث أمام البوليس أو النيابة، والمطالبة بالعرض فورا على قاضى التحقيقات، وبخلاف الوضع فى مصر فالنيابة فى فرنسا هى سلطة اتهام، أما التحقيق فيقوم به قاضى التحقيق، والسبب فى هذه النصيحة التى قدمها لنا ممثلو هيئة لها علاقة بالحزب الشيوعى الفرنسى واسمها «المعونة الشعبية»، أنه يمكن للبوليس أو النيابة بعد سماع أقوالى أن يطردونى من فرنسا، أو يسلمونى إلى مصر دون العرض على قاضى التحقيق، أما قاضى التحقيق فهو ملزم بمتابعة الإجراءات القانونية وتقديمى إلى المحاكمة».

(٣٧)

وهو يحدثنا بهدوء وثقة عن تجربته مع البوليس الفرنسى:

«وبدأ رجال البوليس يسألوننى عن اسمى، وأوراقى، ومتى جئت إلى فرنسا، وأسباب مجيئى، فكان جوابى الوحيد هو «لن أتكلم إلا أمام قاضى التحقيق»، واستفز أحد المحققين من البوليس فلكمنى فى بطنى وقال لى: «ماذا تظن.. أنت هنا فى فرنسا»، وكنت أظن أن هذه الأساليب لا تستخدم فى فرنسا، فازددت إصرارا على رفض الكلام، وأخذونى فى سيارة وجالوا بى فى عدة أحياء فى باريس لأدلهم على سكنى، ولكننى لم أقل شيئا، وكانت معى بعض الصحف المصرية (الأهرام وغيره)، وجاءوا بشخص يعرف العربية، وحاول بغباء شديد أن يجد فى هذه الصحف أدلة ضدى، وكذلك وجدوا معى جريدة «الأماونيتيه» فحاول أيضا أن يعتبرها دليلا ضدى، ولكننى التزمت الصمت ورفضت الحديث إلا أمام قاضى التحقيق».

على هذا النحو كان محمد يوسف الجندى يتلقى معونات شيوعية على هيئة دفاع جاهز وعلى هيئة نصائح قيمة ساعدته على البقاء فى فرنسا بطريقة كفلت له الانطلاق إلى آفاق أخرى، ومكنته من عدم العودة إلى مصر:

«وبعد أربعة أيام حولت إلى قاضى التحقيق، وأمام مكتبه وجدت المحامى إمبلار الذى وكلته هيئة «المعونة الشعبية» للدفاع عنى، وذلك بجهود زملائنا فى باريس، أبلغنى تحية الزملاء والأسرة، وقال: إن خطته أن أبقى فى السجن إلى أن تنجح مساعى الحزب الشيوعى الفرنسى فى ذهابى إلى أحد البلاد كلاجئ سياسى، ولهذا فهو يرى أن ليس من المصلحة الإسراع فى إنهاء التحقيق والتقدم للمحاكمة، لأنه يتوقع أن تصدر المحكمة ضدى حكما بالغرامة أو بالحبس عدة أيام وعند الإفراج عنى سأقع فى يد البوليس الذى سيصدر ضدى أمرا بالطرد أو التسليم إلى الحكومة المصرية، وقال لى: إن المساعى تتركز الآن على أن أذهب إلى فيينا للعمل فى اتحاد النقابات العالمى، وأن هذا سيحتاج إلى بعض الوقت».

«ودخلت إلى قاضى التحقيق فتكلمت أمامه ورويت له القصة كلها، وهو أننى هارب من مصر من حكم بالسجن خمس سنوات فى قضية رأى «قضية شيوعية»، ولأننى لم أستطع استخراج جواز سفر من مصر فقد دخلت فرنسا خلسة وبدون أوراق، وطلبت منحى حق اللجوء السياسى فى فرنسا، وشكوت له حادثة اعتداء أحد رجال البوليس علىّ بالضرب وهو يحقق معى، وقابل القاضى ذلك باستخفاف، وقال: لو كنت ابن سفير مثلا لما اعتدوا عليك، ولم يعر ذلك اهتماما، وأمر بحبسى إلى حين المحاكمة».

«ونقلت إلى سجن يسمى «لاسانتى» أى «الصحة»، وكانت أول خبرة لى بسجون فرنسا، وسكنت مع مجرمى القانون العام».

(٣٨)

ويحدثنا محمد يوسف الجندى عن تقييمه لتجربته فى السجن الفرنسى فنفاجأ بشعور الغربة يتنابه بشدة حتى إنه يعتبر سجون فرنسا أقسى من سجون مصر مقدما أسبابا لا تبرر مثل هذا الحكم الذى لم يصدر إلا عن شعوره بالغربة:

«كانت فترة السجن فى فرنسا شديدة القسوة، أشد قسوة من السجون فى مصر لعدة أسباب:

«١ - أننى لم أكن أعرف إلى أى شىء سينتهى هذا الحبس».

«٢ - أننى كنت بعيدا عن الوطن».

«٣ - كنت مع مجرمى القانون العام، وهم ليسوا بطيبة مجرمى القانون العام فى مصر، والذين كانوا يحترموننا ويشملوننا برعايتهم ويقدمون لنا المساعدات حينما نكون معهم».

. . . .

. . . .

(٣٩)

وقبل هذا يصور محمد يوسف الجندى بعض مظاهر هذه القسوة فيقول:

«وفى أحد الأيام جاءت خبيرة اجتماعية للتعرف على أحوال النزلاء ومشاكلهم، واستدعونى لمقابلتها، وسألتنى عن تهمتى فقلت لها إنى شيوعى، وإنه حكم عليه بالسجن فى مصر بهذه التهمة، فقالت لى مكذبة ما معناه «العب غيرها، فمصر كلها شيوعية من القمة إلى أخمص قدميها»، وكانت الصحف الفرنسية كلها تبرز فى صفحاتها الأولى أخبار الكفاح المسلح فى القنال، وإلغاء حكومة النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦، والصدام مع قوات الاحتلال البريطانى، وكانت الصحف الموالية للاستعمار لا تفرق بين النضال ضد الاستعمار والشيوعية».

«وبعد شهرين استدعيت للمحاكمة ولم تكن المساعى لسفرى إلى بلد آخر قد نجحت بعد، فطلب المحامى إمبلار التأجيل، وفى مداولته معهم قبل الجلسة تعجبت المحكمة وقالت له: إنه سيفرج عنى، فقال لهم: إنه يخشى أن أقع فى أيدى البوليس فيطردونى، فقالوا: هذا يذكرنا بأيام الاحتلال الألمانى حيث كان للمحامون يطلبون طلبات مماثلة حتى لا يقع المتهمون فى أيدى الجستابو، فقال لهم إمبلار: هذا مع الفارق».

(٤٠)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن خروجه من فرنسا إلى المجر على نحو ميكانيكى لا نشعر فيه بشوق إلى المجر وما فيها، ولا أسف لترك باريس وما فيها، وربما

كان عذره فى هذه الميكانيكية أن هذه الفترة ارتبطت بمسئوليته غير المباشرة عن القبض على زميله شريف حتاتة الذى ذهب لمقابلته ولم ينتبه إلى حقيقية بديهية وهى أن محمد يوسف الجندى كان تحت المراقبة :

« . . . وبعد ثلاثة أشهر لم تنجح المحاولات فى ذهابى إلى فيينا، ولكنى عرفت من المحامى إمبلار أن المجر قبلت ذهابى إليها لاجئا سياسيا، وأننى سأعمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى»

«وحددت جلسة المحاكمة، وكان الحرس يتهامسون حولى بأننى جاسوس، وجاءت المحكمة، لم يترافع إمبلار واكتفى بالقول بأن موكلى حصل على حق اللجوء السياسى فى جمهورية المجر الشعبية، فابتسم القضاة وأصدروا حكمهم بالحبس ١٥ يوما لدخول البلاد بدون أوراق، وكنت قد أمضيت بالفعل ثلاثة أشهر، فأفرج عنى».

«خرجت من السجن، وبدأت إجراءات الإفراج عنى ونقلت إلى إدارة الشرطة وسار معى فى الطريق أحد المفرج عنهم الأتراك يجمع أعقاب السجائر من الطريق طوال سيرنا، وأنهيت إجراءات الإفراج وأصدروا أمرا بطردى من الأراضى الفرنسية وأعطونى مهلة أسبوعا وأعطونى ميعادا آخر لتسلم جواز المرور لأخرج به».

«وخرجت من إدارة الشرطة إلى الحرية، وكان زملائى قد حجزوا غرفة فى أحد الفنادق فى الحى اللاتينى، وأخذت فى ترتيب سفرى إلى بودابست، وذهبت إلى اتحاد الشباب الفرنسى الذى أعطونى تذكرة إلى بودابست، وسألنى أحد المسئولين الشباب هناك إن كان معى نقود مجرية؟ فقلت : لا، فأعطانى بعض الفلسات القليلة».

«وذهبت إلى إدارة الشرطة واستلمت جواز المرور، وكنت قد اتصلت تليفونيا بشريف حتاتة واتفقنا على اللقاء فى إحدى صالات الشاى، وخرجت من إدارة الشرطة وذهبت إلى الموعد، وكانت معه خطيبة أحد الأصدقاء الذين كنت أعرفهم من مصر وهو روبير ستون، وزميل آخر، وكان لقاء حارا، وجلسنا فى صالة الشاى نتحدث عن الذكريات وتجربتى فى السجن، ومشاريعى المقبلة، وتركتهم مودعا،

وقبلتهم، وذهبت إلى الفندق، وبعدها بفترة اتصل بى يوسف حزان وقال لى إن شريف حتاتة قبض عليه بعد أن انتهى لقاؤنا، وظهر أننى كنت مراقبا عند خروجى من إدارة الشرطة، وقد قبض البوليس على الثلاثة ولكنه أفرج عن خطيبة روبير وعن الزميل الآخر بعد أن قدما أوراقهما، أما شريف فقد احتجزوه، عندما عرفت الخبر أصبت بإحباط شديد وانقلب الفرح بالإفراج عنى إلى حزن وإحساس بالبلادة الشديدة بحيث إننى ذهبت إلى الفندق ونمت فى حوالى الساعة الواحدة ظهرا ولم أستيقظ إلا فى صباح اليوم التالى».

«وحدثنى حزان وقال لى: إنه أصبح فى موقف حرج للغاية أمام المسئولين فى مكتب المستعمرات بالحزب الشيوعى الفرنسى، وإنه التقى بليون فاكس، وإيلى مينيون وتعاملوا معه كمتهم، وهاجموه بشدة لهذا الإهمال، وظل يلازمنى الشعور بالإحباط بعد ذلك لفترة حتى بعد وصولى إلى بودابست، وقررت ألا ألتقى بأحد بعد ذلك فى باريس».

(٤١)

ويلخص محمد يوسف الجندى تجاربه فى أثناء الفترة التى قضاها فى المجر فى فقرات لاهثة، نحس فيها بما كان يشعر به من غربة على الرغم من وجوده بين مَنْ يشاركونه العقيدة الشيوعية، لكنهم، شأنهم شأن الشيوعيين، كانوا يعبرون عن الانقسام والاختلاف بصور صارخة، وربما فظة، ولعل نموذج حديثه عن واصل فيصل ويوسف فيصل وخالد بكداش يصور لنا هذه المعاناة الحقيقية التى عاشها محمد يوسف الجندى مبكرا وأصبح يتذكرها كلما حدث انقسام مماثل بين مَنْ كانوا شيئا واحدا:

«. . . وكنت أتصور أن أجد جميع المجريين يحبون الاشتراكية، وأنهم جميعا شيوعيون، وبدأت شيئا فشيئا أرى الحقائق، وأرى السلبيات إلى جانب الإيجابيات، ولم تجعلنى السلبيات أفقد الثقة بالتجربة، ولكننى كنت أحاول أن أجد التبريرات لها».

. . . .

. . . .

«وكان من الطبيعى أن تكون لى علاقات أوثق بالسورى باعتباره عربيا، وكان اسمه مازن، وعرفت بعد ذلك أنه ليس اسمه الحقيقى، وإنما اسمه واصل فيصل، وهو شقيق يوسف فيصل الذى أصبح الآن أمينا عاما للحزب الشيوعى السورى، وأذكر فى ذلك الوقت أن جاءنى مازن بعدة صور لخالد بكداش، وقال: إن أخاه أرسلها له من براغ لأعطيها لزملائى المصريين، وكان يوسف فيصل يعمل وقتها مندوبا للطلبة السوريين فى اتحاد الطلبة العالمى الذى كان مقره فى براغ، ولم أوصل الصور لأحد بالطبع، فلم يكن خالد بكداش يمثل بالنسبة لنا شيئا».

«وقد حكى لنا إبراهيم عبد الحليم مرة أنه كان فى زيارة لبراغ لحضور اجتماع اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة العالمى فالتقى بيوسف فيصل الذى قال له: «ما أخبار الجاسوس الصهيونى هنرى كورييل»؟ فاستفز إبراهيم عبد الحليم وكان سليط اللسان فقال: «وما أخبار الجاسوس الاستعمارى خالد بكداش»؟ ففوجئ يوسف فيصل ولم يستطع مواصلة الحديث».

«أتذكر تلك الأحداث الصغيرة، كلما سمعت اليوم عن الانقسام الذى حدث فى الحزب الشيوعى السورى، والصراع الذى كان بين يوسف فيصل وخالد بكداش».

(٤٢)

لكننا نلاحظ أن الشغل الشاغل الذى ظل يؤرق محمد يوسف الجندى فى المجر كان هو اعتقال زميله شريف حتاتة، وشعوره بالإحساس بالذنب فى مسئوليته عن هذا الاعتقال:

«. . . كان وصولى إلى المجر فى مارس ١٩٥٢، ومنذ وصولى وأنا تحت تأثير اعتقال شريف، وأوصانى زملائى بأن أبذل جهودى للسماح لشريف بالمجىء إلى المجر، أو أى بلد اشتراكى آخر، وقمت ببعض الاتصالات، ولكن دون جدوى، أما المسئولون فى الحزب الشيوعى الفرنسى فرفضوا بذل أى جهد فى هذا الاتجاه، وعرفت بعد ذلك أن شريف أفرج عنه بعد فترة وأعطى فترة لترتيب خروجه من فرنسا وعاد سرا إلى القاهرة، لكنه اعتقل بعد ذلك فى قضية جديدة سنة ١٩٥٣ بعد الثورة وحكم عليه

بالسجن عشر سنوات أمضاها بالكامل، واستمر معى الإحساس بالذنب ولم أستطع التخلص منه، ولم يطغ عليه إلا تطور الأحداث بعد ذلك».

(٤٣)

على أن محمد يوسف الجندى يصدقنا القول بقسوة غربته فى المجر إذا ما قورنت بغربته فى باريس، ولا أظن حديثا إنسانيا قادرا على أن يصور مثل هذا الشعور مثل حديث ذلك المريض الذى يعانى المرض والخوف من الموت، واختلاف التشخيص مرة بعد أخرى من آلام فى الصدر، إلى اشتباه فى مرض القلب، إلى الحمى الروماتيزمية، إلى الآلام الروماتيزمية، إلى زيادة نشاط الغدة الدرقية، والشعور بالشفاء الجزئى، لكنه فى الوقت نفسه ينزعج من فكرة الموت بعيدا عن الوطن:

«. . . كانت فترة الضغوط النفسية علىّ فى آخر فترات عملى فى الاتحاد إلى جانب برودة الشتاء الذى لم أكن مستعدا له، سببا فى مرضى (هكذا يشخص المريض سبب مرضه ثم هو يعود إلى ذكر أسباب أخرى يكشفها كلما تم عرضه على الأطباء)، وكان الجو فى المجر فى الشتاء أكثر قسوة منه فى باريس، وكان من الضرورى أن أستعد له بأحذية دافئة، ومعطف ثقيل، وكنت أظن أن الطريق لمواجهة برد الشتاء هو ملابس داخلية من الصوف التى لم تكن تساعدنى لأن الأماكن المغلقة كانت دافئة فأشعر بالحر الشديد، ثم أخرج إلى الشارع والبرد الشديد بنفس الملابس تقريبا، ولم أكن قد تدربت بعد على التعامل مع هذا الجو، وبدأت أشعر بآلام شديدة فى صدرى، ذهبت إلى الطبيب، وذهبت معى «يودكا» لتساعدنى فى الترجمة، كشف علىّ الطبيب وقال: إنه القلب، وقد سبق أن تحدثت عن عقدة «القلب» الذى مات به أبى وأمى فأصابتنى حالة من الفزع والاكتئاب الشديد، وأحسست أن أيامى قليلة، وكانت فكرة أن أموت بعيدا عن الوطن تزعجنى. ساعدتنى يودكا كثيرا فكانت تذهب معى للفحوص فى المستشفى، وكانت تخفف عنى».

«كانت الرياضة البدنية مادة إجبارية على الطلبة، فحصلت على إذن من الطبيب على عدم القيام بها بسبب مرض القلب، وبدأت الدراسة والانتظام فيها يتعبنى رغم اجتهادى وحماسى فى البداية، وازداد إحساسى بعدم القدرة على العمل والدراسة،

وزاد الطين بلة أنى فى أحد الأيام أحسست بألم وورم فى مفصل يدى اليمنى، ونصحتنى يودكا وأمها أن أذهب إلى طبيب مدفوع الأجر رشحناه لى، فقال لى: إنها حمى روماتيزمية وإننى يجب أن أمكث فى السرير، وكتب بنقلى إلى المستشفى».

«كلفت المدرسة العليا أحد الطلبة بمرافقتى إلى المستشفى حيث أجريت مختلف الفحوص ووضعونى فى أحد العنابر مع الرجال العواجيز الذين تعدوا الستين، وعندما رآنى كبير الأطباء قرر نقلى على الفور إلى عنبر أكثر شبابا، وكان الطبيب المعالج يتكلم إنجليزية ضعيفة، فلم أكن أعرف بالضبط حقيقة مرضى. كان الطبيب الخارجى قد كتب لى أقراصا حمراء ضد الحمى الروماتيزمية، وقد سببت لى طنينا مستمرا فى أذنى، مما زادنى وهما، وبعد قليل أوقفوا فى المستشفى تلك الأقراص خصوصا بعد أن اختفى الورم من يدى، فاختفى الطنين من أذنى وبدأت أشعر ببعض التحسن، وكتبوا لى أقراصا أخرى».

(٤٤)

وهو يحاول أن يرتب ما يذكره عن تاريخه أو تجربته مع المستشفى والأمراض والتشخيصات:

«وبعد أيام قالوا لى إنه ليست عندى حمى روماتيزمية، وإن كان هناك بعض الآلام الروماتيزمية، أما القلب فليس به مرض عضوى، ثم قالوا إن هناك زيادة فى إفرازات الغدة الدرقية، وأنها السبب فى مختلف الأعراض التى أشعر بها، وثارت قضية احتمال إجراء عملية لى، وسألت الطبيب المعالج: متى يجرون العملية؟ فضحك وقال: لماذا تستعجل العملية؟ وأعطونى أدوية تشتمل على اليود، وأدوية أخرى للأعصاب، وأوصوا بأن أذهب فى الصيف إلى المصحة لعلاج الغدة الدرقية والأعصاب».

«كانت تجربتى فى المستشفى جديدة، فلأول مرة أعيش مع مرضى وممرضات لا يتكلمن غير المجرية، فأضطر للتفاهم معهم بالمجرية، وكان على يمينى فى عنبر المستشفى الذى كنت أقيم فيه شاب مجرى حدثنى عن تجاربه عندما وقع فى الأسر فى

الاتحاد السوفيتى، وكيف دخل السجن وعاش مع مسجونين روس يعادون ستالين، وتحدث أيضا عن معيشته فترة فى روسيا بعد الإفراج عنه، وتحدث عن النساء الروسيات وكيف أن لهن صدورا ذات أحكام كبيرة، وتجاربه معهن، وجرت ألفه بينى وبين المرضى الآخرين».

«وفى أيامى الأولى كنت أشعر بحرارة شديدة، وبعرق غزير، فشكوت للطبيب وكانت معه الممرضة، فابتسمت ونزعت عنى الملابس الصوفية الداخلية التى كنت ألبسها، وبعدها لم أعد أشعر بحرارة أو أعرق».

«كانت يودكا (هى صديقة له) تزورنى وتلبى طلباتى فى المستشفى، وكذلك زارنى بعض زملائى وزميلاتى فى الدراسة، وساعدنى هذا الجو على أن تتحسن حالتى، وكتب لى الطبيب بعد حوالى أسبوع بالخروج من المستشفى على أن أستمر فى تناول الأدوية التى كتبوها لى، وأن أذهب فى الصيف إلى المصحة».

(٤٥)

ثم ينتقل محمد يوسف الجندى بنا إلى لحظة كاشفة من لحظات إقامته فى المجر، ومع أنها لحظة خاطفة فإنها جعلته يستعيد سعادته وذلك عند لقائه بأهل وطنه، بل إنه يتحدث عن إحساسه بالشفاء عند رؤيته لهؤلاء:

«... وفى يوم من الأيام جاءتنى زيارة من شخصيات عزيزة من مصر والسودان هم السيدة سيزا نبراوى، والسيدة زوجة يوسف حلمى، وأنور مقار، ومحمد إبراهيم نقد الذى أصبح الآن السكرتير العام للحزب الشيوعى السودانى، كانوا فى جولة بالمجر فاتصلوا بيودكا التى كان رقم تليفونها لدى زملائنا فى فرنسا، وأوصلتهم يودكا إلىّ».

«وعندما رأيتهم أحسست أن كل الأمراض التى أشعر بها ذهبت عنى واختفت، قضوا معى اليوم واقترحوا علىّ أن أذهب معهم إلى مؤتمر فى إحدى المدن المجرية وأعود معهم إلى بودابست، ذهبت إلى الطبيب وطلبت منه الإذن، فوافق على الفور وسمح لى بمغادرة المصحة بشكل نهائى، وقال لى: إننى لا أحتاج إلى علاج آخر فى

المصحة، وإن حالتى جيدة، وإن كان علىّ أن أستمر فى تعاطى الدواء الذى كتبه لى لفترة من الوقت».

. . . .

. . . .

وهو لهذا يصل إلى اكتشاف سبب نفسى فى أمراضه التى مر بها:

«ويبدو أن سببا أساسيا لمرضى كان العزلة والغربة عن الوطن، وعند مجىء هذا الوفد لزيارتى، أحسست بأن قطعة من الوطن جاءت لزيارتى، وأحضروا لى معهم رسالة تشجيع وتقدير من اللجنة المركزية لحدتو، كان لها تأثير السحر علىّ، وساعدت على شفائى الكامل».

«أحسست أن رفاقى فى مصر والسودان مهتمون بى رغم بعدى عنهم، وأنهم يحتاجون إلىّ، وقررت أننى يجب أن أتغلب بل وأقضى بإرادتى على كل الأمراض».

(٤٦)

ويلخص محمد يوسف الجندى أكثر من تجربة من التجارب التى ارتبط فيها بعلاقة بالجنس الآخر فنجد فى أسلوب رواياته للتجربة بعد الأخرى ما يدل على أن شبح عقيدته الشيوعية والإنسانية كان كفيلا بأن يفسد عليه آليات الحب والعاطفة المنطلقة، وهو على سبيل المثال لا يواصل علاقته مع «بالما» بسبب ميلها إلى انتقاد السوفييت والاشتراكية، وحرصها على دعوته إلى الكنيسة:

«. . . تعرفت فى السنة الثانية على فتاة مجرية فى قسم اللغة الألمانية اسمها «بالما»، وترجمتها بالعربية «نخلة»، ولم تكن تعرف غير المجرية، وكانت تدرس الألمانية، ولم أكن أعرف شيئا من الألمانية، فاضطررت للحديث معها بالمجرية فساعدنى ذلك على أن أحرز بعض التقدم فى اللغة، وكانت فتاة تمتلئ حيوية ونشاطا وكثيرة الكلام، وكنا نخرج معا للنزهة فى الغابات المجرية الجميلة، ورغم معرفتى الضئيلة باللغة المجرية فقد تكلمنا فى مواضيع مختلفة بما فيها المواضيع السياسية، فعرفت منها أنها تكره النظام الاشتراكى فى المجر، وتهاجم السوفييت، وتقول إنهم استولوا على أرض من المجر بعد الحرب العالمية الثانية، وكنت أناقشها وأدافع عن الاشتراكية وعن النظام الاشتراكى

فى المجر، وكانت تحب التردد على الكنيسة أيام الآحاد، وتحاول دعوتى إلى هناك تغرينى بالموسيقى الجميلة التى تعزف فى الكنيسة».

«ولم تستمر لقاءاتنا كثيرا، فقد كان هناك عائق اللغة، فضلا عن أننا لم نتفاهم سياسيا».

(٤٧)

وفى هذا الإطار نفسه فإن محمد يوسف الجندى ينقطع عن فتاة أخرى يهودية كانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار وتدافع عن أمريكا والغرب، لكن حظها معه شاء لها أن تخطئ خطأ كبيرا حين تعاملت بفتور مع صديقه عبد القيوم بسبب لون بشرته:

« . . . ثم إننى تعرفت على فتاة يهودية كانت تزاملنى فى دراستى، وكانت تعرف الإنجليزية، وكانت تتودد إلىّ منذ مدة، فكانت تأتينى من وقت لآخر ببعض الفطائر التى تصنعها فى المنزل، ودعتنى لمنزلها الذى كان يقع فى وسط المدينة بجانب مبنى الأوبرا، وكانت أمها مريضة ومتزوجة بغير أبيها الذى تقول إنه توفى فى الحرب، وكان زوج أمها لطيفا معها، ويحسن معاملتها».

«كنت أتردد على منزلها ونذاكر دروسنا معا، ونخرج أحيانا للنزهة، ومرة قالت لى إنه تريد أن تحصل منى على طفل، ولم يكن بيننا أى اتصال جنسى، ولم يدفعنى ذلك إلى أن أقوم بهذا الاتصال، فكنت أشعر أن ذلك يجب أن يقوم على تفاهم كامل، ونية للارتباط، ولم أكن قد قررت ذلك، فضلا عن أننا كنت نختلف فى وجهات النظر السياسية، فكانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار، وتدافع عن أمريكا والغرب، وكنا نتناقش فى ذلك كثيرا، ثم كانت وفاة أمها مما دفعنى إلى أن أحرص على علاقتى بها لمساندتها فى محنتها، وكان زوج أمها يريد ذلك أيضا، إلى أن كانت واقعة جعلتنى أقطع علاقتى بها، فعند مجىء عبد القيوم أردت تعريفه بها باعتباره من أعز أصدقائى، لكنها لم ترغب فى ذلك عندما عرفت بأنه أسود، وكان لقاؤها به فاترا، ولم أستطع أن أتسامح أن يكون لديها مشاعر عنصرية، فقطعت علاقتى بها على الفور، وأبلغتها بذلك وبالسبب».

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن تجربة المجر الاشتراكية حديثا موجزا ودقيقا نشعر معه بما كان هو نفسه يعانيه من الاغتراب وهو يعيش هذه التجربة التى لا يجد حرجا فى نقدها بصوت عال، وأن يدلنا على بعض المظاهر الصارخة لنقدها:

«. . . وكانت المجر تنقل الخبرة السوفييتية نقلا حرفيا، وتقوم أجهزة الإعلام ليل نهار بالدعاية للاتحاد السوفيتى، مما كان يستفز المشاعر الوطنية للمجريين».

«وأذكر فى أحد الأيام أن كنت راكبا الترولللى باس، وكان يجلس فى العربة رجل يتحدث تحت تأثير الخمر، وأخذ يقرأ أسماء الشوارع «شارع مايكوفسكى». . «شارع لينين». . إلخ، ثم يوجه الحديث لباقى الركاب مازحا «يبدو أن أسماء الشوارع أصبحت مجرية أكثر من اللازم»، فينفجر الركاب ضاحكين».

«وكانت المعارضة مكبوتة، ولهذا كانت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة، مثل الالتفاف حول الكنيسة، وكان من المناظر المألوفة أن يرفع المجريون قبعاتهم عندما يمرون بجوار الكنيسة، وكان ذلك تعبيرا عن المقاومة».

«كانت المجر فى الحرب العالمية الثانية متعاونة مع ألمانيا، وكانت لفترة جزءا من الإمبراطورية النمساوية، ولهذا نجد كبار السن فى العادة يعرفون اللغة الألمانية، أما الشباب فيدرسون اللغة الروسية فى المدارس كلغة أجنبية أولى، ولم تنشأ علاقة المجر مع الاتحاد السوفييتى إلا بعد دخول القوات السوفييتية للمجر، وأثر ذلك على سير التطورات السياسية فى المجر، خصصوا فى الفترة الستالينية».

«ولم يكن لدى أدنى شك أنه جرت هناك أى عمليات من القهر أو الضغط، وكنت مؤمنا أن كل شىء تم بطريقة ديمقراطية، وباختيار حر من الجماهير».

«فى مارس ١٩٥٣ نزل علينا موت ستالين كالصاعقة، وقد تأثرت لذلك كثيرا، وسرت فى الجنازة التى سارت فى المجر تأبينا له، وكنا نحب ستالين ولا نفصل بينه وبين حبنا للاشتراكية، وحبنا للاتحاد السوفييتى، وكانت هذه هى مشاعر كل الشيوعيين المصريين، وليس الشيوعيين وحدهم، بل كل القوى الديمقراطية والتقدمية، وأذكر أن خالد محمد خالد كتب فى ذلك رثاء ختمه بقوله:

«طبت حيا وميتا يا رفيق».

«أما كمال عبد الحليم فكتب قصيدة رثاء كان يختمها بأبيات معناها:

«إذا كان لينين قد أعطانا بعض أجزاء الحياة، فإن ستالين قد أعطانا كل أجزاء الحياة».

. . . .

ومع هذا فإن محمد يوسف الجندى بعد فوات الأوان يستدرك ويقول:

«لم يخفف ذلك من اقتناعى بالنظام الاشتراكى، ولكننى بدأت أتبين صورة أكثر واقعية للمشاكل التى يعيشها النظام الاشتراكى فى هذه الفترة، وأن بناء الاشتراكية ليس بالأمر السهل، وأنه من الخطأ نقل ما يطبق فى الاتحاد السوفييتى دون دراسة الظروف المحلية واستعداد الناس».

(٤٩)

ونأتى إلى مستويات نادرة من الثقة بالنفس، والشجاعة الأدبية، فنحن نرى محمد يوسف الجندى وهو لا يجد أى غضاضة فى الاعتراف بأنه كان يستخدم الملابس التى تأتيه هدية من أخيه:

«كان أخى أحمد يرسل لى من وقت لآخر بعض بدله، وقد اعتدت على ذلك لفترة طويلة، وكان حجمه مثل حجمى، فلم أكن أحتاج لتفصيل أو شراء أى بدل، وأذكر أننى لم أشتر حتى بلغت سن الستين أى بدلة، ولكننى كنت أستعمل ما يهديه لى أخى، وأذكر مرة أننى كنت فى زيارة لأحد أقارب الفتاة اليهودية التى كنت أعرفها، فسألنى أحد الشباب: «هل تعطينى هذه البدلة الرأسمالية وتأخذ بدلتى الاشتراكية؟»، وحدث أكثر من مرة أن سرقت بعض بدلى فى بيت الطلبة».

(٥٠)

ثم نأتى إلى فقرات سريعة تصور شعور محمد يوسف الجندى بالاغتراب حين أتيح له أن يخرج من مهجره المجرى إلى ألمانيا حيث التقى هو وصديقه يوسف حلمى بخالد محيى الدين ثم إلى باريس بعد أن غاب عنها أربع سنوات:

«قطع القطار تشيكوسلوفاكيا . . . ثم انطلق القطار شمالا إلى ألمانيا ، ثم وصل إلى برلين حيث نزلت» .

«وكان فى انتظارى يوسف حلمى ومعه إحدى معارفه من الألمانيات» .

«وكان يوسف حلمى قد دبر خروجه من مصر عام ١٩٥٤ ، وعاش فى فرنسا بجواز سفر مزور ، وكان يحتاج للسفر من فرنسا من وقت لآخر عندما يحين ميعاد انتهاء مدة إقامته ، وقد التقى بى وقدم لى جوازا» .

«وقد سرنى أن أحصل على جواز أتنقل به داخل فرنسا وخارجها عند اللزوم ، ففى المرة الأولى لم تكن معى أية أوراق ، مما أدى إلى اعتقالى بعد ذلك ثم طردى» .

«لم يكن سور برلين قد بنى بعد ، وكان من السهل الانتقال بالمترو بين شرق برلين وغربها ، رغم أن ذلك كان يتم تحت رقابة شديدة من بوليس ألمانيا الشرقية . ركبنا المترو من برلين الشرقية وانتقلنا إلى برلين الغربية ، حيث كانت تقطن صديقة يوسف حلمى الألمانية ، ومن هناك اشترينا تذكرتى طائرة إلى جنيف لى وليوسف حلمى» .

«كان هناك فرق كبير بين برلين الشرقية والغربية ، فبينما كان يسود برلين الشرقية جو من التقشف الشديد ، كانت برلين الغربية مليئة بالأضواء والبضائع التى تملأ المحلات ، وكان الغرب يحرص على : أن يحولها إلى لوحة إعلانات لجذب سكان ألمانيا الشرقية والدعاية ضد نظامهم» .

«ركبنا الطائرة إلى زيورخ ، ومنها أخذنا الطائرة إلى جنيف ، وبينما كنا فى الطائرة وكلانا بجواز سفر مزور قال لى يوسف حلمى : ألا تشعر بالاغتباط وأنت تخدع كل هذه الحكومات؟! وضحكنا» .

(٥١)

وها هو يلتقى بالأحبة القدامى وعلى رأسهم خالد محيى الدين نفسه الذى ظل على علاقة باليساريين حتى بعد أن نفاه عبد الناصر بعيداً عنهم :

«فى محطة جنيف كان ينتظرنا خالد محيى الدين ، الذى دعانا لتمضية الليلة عنده ،

وكان خالد فى فترة نفيه إلى سويسرا بعد أن اختلف مع زملائه فى مجلس قيادة الثورة، وكان يسكن مع زوجته فى أحد المنازل بمدينة بجنيف، وقد رحب بنا خالد وزوجته وأكرم ضيافتنا وحدثنا عن حياته فى سويسرا، وكيف أنه لا يستطيع التأقلم معها، وعن شوقه للعودة إلى الوطن».

«وفى الصباح ركبنا معه سيارته التى قادها بنفسه وذهبنا إلى الحدود السويسرية ـ الفرنسية، وتوجهنا إلى إحدى القرى الفرنسية الواقعة على حدود جنيف، والتى اعتاد السويسريون أن يذهبوا إليها لشراء بعض حاجياتهم، وعندما عبرنا الحدود لم يسألنا حرس الحدود عن جوازات السفر، وسألونا فقط إن كان كل شىء على ما يرام، قلنا: نعم، ودخلنا القرية الفرنسية حيث تركنا خالد محيى الدين، وركبنا القطار إلى باريس».

«عدت إلى باريس ثانية بعد غياب أربع سنوات، وبعد أن طردنى البوليس الفرنسى منها، ولكن فى هذه المرة كان معى جواز سفر».

«وقد روى لى أخى أنه ذهب إلى باريس عدة مرات بعد طردى، فكان البوليس الفرسى يستدعيه لتشابه الأسماء، ولا يطلق سراحه إلا بعد أن يثبت له أنه شخص آخر غيرى».

«كان يوسف حلمى يسكن فى منزل فى منطقة فى ضواحى باريس اسمها «مالاكوف»، وكان منزلا مستقلا مكونا من حجرتين ومطبخ ودورة مياه وحديقة. دعانى للسكن معه».

. . . .

. . . .

«وفى أحد الأيام جاء فاروق ثابت لزيارتنا من القاهرة ولم أكن أعرفه من قبل، ولكنه كانت تربطه علاقة نسب بزوجة يوسف حلمى، وقد ساعد يوسف حلمى فى هروبه وخروجه من مصر، أمضى معنا عدة أيام واتفقت معه على أن يستقبلنى فى القاهرة عند حضورى ويتولى أمور إقامتى وأمانى».

obeikan.com

«بعد حضوري إلى باريس بدأت الإعداد للعودة، وكان ذلك يحتاج إلى بعض الاستعدادات استمرت لمدة عام».

(٥٢)

ويتحدث محمد يوسف الجندي عن معاناته التنظيمية وهو في باريس (بل وهو لايزال في بودابست قبل أن يصل إلى باريس) من خضوعه لقرارات الحزب الشيوعي المصري الموحد، وهي قرارات جاء على العكس من اقتناعاته، وسرعان ما تفرض الاقتناعات صراعها مع الالتزامات منشئة غربة جديدة لمحمد يوسف الجندي تضاف إلى اغتراباته المتتالية:

«. . . وعندما كنت في بودابست تلقيت رسالة من رفاقي تخطرني بتحقيق الوحدة بين منظمتنا «حدتو» وأربع منظمات أخرى صغيرة هي: «حدتو ت. ث»، و«النجم الأحمر»، و«طليعة الشيوعيين»، و«نواة الحزب الشيوعي المصري»، وأنني اخترت عضوا في اللجنة المركزية للحزب الجديد الذي سمي «الحزب الشيوعي المصري الموحد»، وكان التنظيم الأكبر هو حدتو، ولكن الوحدة تمت في ظروف كانت حدتو تتخلى فيها عن موقفها الذي اتخذته بعد قيام ثورة يوليو بتأييدها، وانتقلت في ١٩٥٣ إلى الدعوة للإطاحة بالدكتاتورية العسكرية، وهو نفس ما كانت تدعو إليه المنظمات الصغيرة الأخرى، وتمت الوحدة في ظروف سياسية تمثل هزيمة لخط حدتو في تأييد الثورة، وكان من تنازلات حدتو لإتمام الوحدة وقف عضوية يونس (هنري كورييل) في اللجنة المركزية والحزب إلى أن يغير الحزب الشيوعي الفرنسي موقفه منه».

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

«في هذه الظروف وصلت إلى باريس، وكنت العضو القيادي الوحيد في مجموعة باريس التي كانت تسمى حركيا «مجموعة روما»، وكان يونس (أي هنري كورييل)

موقوفا، وكان من الطبيعى أن أكون مسئولا عن المجموعة، وأصبحت فى وضع حرج، فكان علىّ أن أنفذ القرار الحزبى بوقف يونس رغم عدم اقناعى بسلامته، ووسط مجموعة تعتبر يونس قائدا وموجها لها».

و«وجدنا حلا لذلك بأن يقتصر يونس على العمل الديمقراطى وذلك فى مجالين، الأول هو التضامن مع المسجونين السياسيين، والثانى قضية السلام بين العرب وإسرائيل، وقد قام فى هذين المجالين بعمل كبير، وساعدته فى ذلك جويس بلاو، فجرى الاتصال بالكثير من القوى من مختلف الاتجاهات فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية للمطالبة بالإفراج عن المسجونين والمعتقلين الشيوعيين، وجُمعت من أجلهم الأموال والأدوات التى أرسلت لهم فى السجون، وقام أيضا بعمل كبير فى الاتصال بالقوى التقدمية والديمقراطية فى إسرائيل للدعوة للسلام بين العرب وإسرائيل على أساس قيام دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الإسرائيلية».

(٥٣)

على هذا النحو تصور محمد يوسف الجندى أنه حل الإشكالية التى وقع فيها، لكن الظروف تمضى به فى اتجاه يزيد اغترابه، إذ سرعان ما يختلف هو نفسه مع زعيمه القديم هنرى كورييل، وكان السبب فى اختلافهما هو الموقف من عبد الناصر:

«وزاد من حرج الموقف وتوتره أننى اختلفت سياسيا مع يونس حول الموقف من النظام الحاكم فى مصر، فمنذ باندونج بدأت أعتقد بضرورة تغيير موقف المعارضة من عبد الناصر إلى تأييده، وكتبت هذا الرأى إلى زملائنا فى مصر، وكان زملاؤنا المعتقلون فى الواحات الخارجة قد بدأوا يتخذون نفس الموقف، ولم يتغير الموقف الرسمى للحزب فى الخارج إلا بعد ذلك، أما يونس فكان يرى ضرورة الاستمرار فى معارضة «الدكتاتورية العسكرية»، ودارت بيننا مناقشات كثيرة، وخلافات ساعدت فى خلق جو من التوتر».

(٥٤)

على أن باريس فى هذه المرة لم تكن (بالنسبة لمحمد يوسف الجندى) إلا محطة يعود منها إلى مصر، وقد تم ترتيب عودته عن طريق السودان، وحين يصل محمد يوسف

الجندى إلى القاهرة عن طريق السودان فإننا نراه يلهث من العودة إلى وطنه، ألا ترى إليه وهو يتحدث إلى زوج أخته الذى لم يره من قبل، لكنه مع هذا حريص على أن يسجل كثيرا من مواقف الرفاق فى هذه الفترة التى شهدت الإفراج عن بعض المعتقلين وبقاء بعضهم (كمال عبد الحليم) مبعدين عن نشاط الحزب بناء على الاتفاقات الشيوعية:

«وصلت إلى محطة مصر ولم أجد فاروق (أى فاروق ثابت) فى انتظارى، فماذا أفعل؟ القاهرة فى حالة إضراب، والمواصلات متوقفة، ذهبت إلى مقهى المحطة واتصلت برقم منزلنا فى قصر العينى، لكن الرقم تغير، كنت أراسل أختى سعاد باسم مستعار هو «يحيى السمالوطى»، وكنت أعرف أنها تزوجت من محام اسمه عصمت سيف الدولة، فبحثت عن اسمه فى دليل التليفون ووجدت رقمه وأدرت الرقم فردت علىّ «الشغالة»، سألت عن الست فسألتنى عن اسمى قلت يحيى السمالوطى، فنادت على عصمت، لم أكن أعرفه ولم أكن رأيته من قبل، قلت له إننى فى مقهى محطة مصر، قال سأحضر حالا، وبعد قليل وصل، وتعرف علىّ، وذهبنا معا إلى منزله ومنزل أختى».

«كانت مفاجأة شديدة لأختى، لكنها استقبلتنى بفرح، واتفقنا ألا تخطر أحدا بوجودى باستثناء إخوتى، واتفقنا بناء على رأى أختى عايدة ألا تخطر زوجها أنور وحش الذى كان يعمل وقتها رئيسا للنيابة».

«اتصلت بفاروق ثابت وظهر أنه لم يحضر إلى المحطة لأنه كان فى الإسكندرية، وعن طريقه اتصلت بالحزب فدبر لى لقاء مع محمود أمين العالم، ورتب لى لقاء مع كمال عبد الحليم الذى كان مبعدا وفقا لشروط الوحدة، وكان المعتقلون قد أفرج عنهم عام ١٩٥٥، ومنهم إبراهيم عبد الحليم الذى أسس «دار الفكر»، وكان كمال وغيره من المثقفين المرموقين مثل فؤاد حداد، وصلاح جاهين، وحسن فؤاد، وعبد الرحمن الشرقاوى يتعاونون معه تعاونا وثيقا فى عمل دار الفكر».

«وقام كمال عبد الحليم بالاشتراك مع عبد القادر التلمسانى وغيره بتأسيس «أفلام

النور» التى نجحت فى عرض فيلم «الأم» لماكسيم جوركى بسينما أوديون، ولكن عملها لم ينجح بعد ذلك (ربما نقطع تواصل حديث محمد يوسف الجندى لنذكر أن ألفريد فرج فى مذكراته التى تناولناها فى هذا الكتاب يقول: إن هذا الفيلم عرض ليوم واحد فقط)، وقد قمت بترجمة سيناريو الأم من الروسية إلى العربية، وذهبت إلى معامل أنيس عبيد وصدرت الترجمة فى كتاب عن دار الفكر، وجاء فيه أن الترجمة قام بها كمال عبد الحليم، واستأت من ذلك، فقال لى إبراهيم عبد الحليم إنه لا يمكن وضع اسمى بسبب وضعى الخاص».

(٥٥)

ثم يتحدث محمد يوسف الجندى عن بعض الصراعات الشيوعية ـ الشيوعية فى هذه الفترة، وعن نجاحه فى إعادة كوربيل وكمال عبد الحليم إلى موقع القيادة فى الحزب، كما يتحدث عن نشاط الحزب الشيوعى فى حرب ١٩٥٦:

«كان هناك صراع واضح بين دار الفكر وبين الحزب، وكان نشاط دار الفكر وكمال عبد الحليم بين المثقفين واسعا، وكان تأثيرهم أكبر».

«بدأت أحضر اجتماعات اللجنة المركزية، وانتخبت عضوا فى المكتب السياسى والسكرتارية المركزية، وتعرفت برفاق جدد لم أكن أعرفهم من قبل».

«ورغم أننى كنت مختلفا مع يونس (أى هنرى كوربيل) فى الموقف السياسى من عبد الناصر عندما كنت فى الخارج، فإننى كنت مقتنعا بظلم الموقف المتخذ منه فى شروط الوحدة، ولهذا خضت معركة لإلغاء هذا القرار ونجحت فى ذلك، واتخذ قرار بالأغلبية بإلغائه، وعاد عضوا فى قيادة الحزب الشيوعى الموحد، وخضت معركة أيضا لعودة كمال إلى قيادة الحزب، وكانت معركة أسهل، وقد عاد معه إبراهيم عبد الحليم الذى لعب دورا (مهما) فى قيادة دار الفكر».

«كان الجو السياسى مشحونا، وكانت التهديدات فى الغرب تتصاعد ضد عبد الناصر بعد تأميم القناة، وقد وقف الحزب الشيوعى الموحد بثبات مع عبد الناصر فى معركته ضد الاستعمار».

«وفى أكتوبر ١٩٥٦ كان العدوان الثلاثى، وركز الحزب كل نشاطه لخدمة المعركة،

obeikan.com

وسافر عدد من القياديين مثل أحمد الرفاعى، وسعد رحمى، وعبد المنعم شتلة إلى بورسعيد، ذهبوا إلى هناك بالاتفاق مع عدد من الضباط مثل كمال رفعت وغيره».

«وعمل الشيوعيون داخل بورسعيد أثناء الاحتلال البريطانى والفرنسى، ونظموا المقاومة وأصدروا مجلة «الانتصار»، وكان لهم دور بطولى».

«وذلك فى الوقت الذى تخاذل فيه المحافظ وغيره من كبار الموظفين الإداريين، ورغم أننى كنت أعيش فى السرية فقد تطوعت للتدريب على إطلاق النار فى أحد معسكرات التدريب التى أنشئت فى القاهرة، واجتزت الامتحان بدرجة ممتاز».

«وفى أثناء الحرب قللت من درجة اختفائى واستأجرت حجرة بسطوح إحدى العمارات بالجيزة، ثم انتقلت إلى شقة بإحدى العمارات بالجيزة سكنت فيها فترة مع فاروق ثابت».

(٥٦)

ونأتى إلى تأمل محمد يوسف الجندى الناضج لقصة زواجه الأول واضطراره هو وزوجه وزملاؤه إلى التآمر من أجل إتمام هذا الزواج على نحو ما تم، مما كاد يتسبب فى كوارث على حد اعترافه هو:

«. . . فى هذه الظروف كان علىّ أن أبحث عن رفيقة تقبل أن تشاركنى هذه الحياة».

«وتحدثت فى هذا الأمر مع أحد الزملاء الذى قال لى إنه تعرف على فتاة فى المقاومة الشعبية اسمها ليلى يرشحها لأتزوج منها، وطلب منى أن يتحدث معها أولا، تحدث معها فقبلت ونظم لقاء بيننا فى منزله».

«قالت إن والدها قاس وشديد، ولا يجب أن أطلعه على اسمى الحقيقى ووضعى، فهى لا تأمن له، وكان لابد من التآمر».

«اتفقنا أن أتقدم له باسم محمد يوسف أحمد، وأننى حائز على ليسانس الحقوق، وأننى أعمل فى مؤسسة «أفلام النور».

«أخبرت إخوتى بهذا المشروع فرحبوا، فقد كانوا يشفقون علىّ من استمرار تلك الحياة الجدبة، وكانوا يريدون أن توجد بجانبى إنسانة تسهل لى تلك الحياة».

«وكان لابد أن أقدم أحد أقاربى، واتفقت مع خالتى ومع أخى حسن، ومع فاروق ثابت على أنه ابن خالتى».

«وزارنى والد ليلى فى موسسة أفلام النور، ولكنه لم يكتف بذلك، بل ذهب إلى كلية الحقوق وبحث فى السجلات عن اسمى بين المتخرجين عام ١٩٤٧ فلم يجد، وأخذ الشك يتسرب إليه».

«ومع ذلك فقد عقد القران فى منزله بالحلمية، وحضر معى شاهدان هما صلاح جاهين، وسيد مكاوى، وكانا يعرفان بوضعى، طلب منى المأذون تقديم بطاقتى الشخصية، ولم يكن معى بطاقة، وتصدى سيد مكاوى فورا للدفاع عنى وقال: إنه يعمل فى الإذاعة، ولا يملك بطاقة شخصية».

«كان اليوم هو ٨ يناير ١٩٥٨».

. . . .

. . . .

«. . . فى هذه الظروف الحزبية بالإضافة إلى ظروفى الشخصية غير الطبيعية عقد قرانى على ليلى عويس، وكانت تعمل مدرسة للغة الإنجليزية فى إحدى المدارس الإعدادية، واستأجرنا شقة فى روكسى بمصر الجديدة، واتفقنا فى اليوم التالى للزواج على أن نسافر لقضاء شهر العسل فى الفيوم».

(٥٧)

ثم نأتى إلى هذا الاعتراف الجميل الذى يلقيه محمد يوسف الجندى على أسماعنا، وهو اعتراف يكاد يغير من عقائدنا عن الزواج بوجه عام، لكننا ينبغى ألا ننسى أن هذا الزواج الواثق تم فى داخل تنظيمات شيوعية:

«هكذا تم الزواج، لم يكن زواجا عن حب، ولكن عن إحساس منى بأننى أريد أن

أحيا حياة طبيعية بعد سنوات السجن والمنفى، والرغبة فى وجود إنسانة إلى جانبى، ولم أكن أتصور أن أقيم علاقة ثابتة مع امرأة دون زواج، ولم تكن ظروفى أو طبيعتى تسمح لى بأن أقيم علاقات عابرة».

«ولم تتزوجنى ليلى أيضا عن حب، فقد كانت تعتبر الزواج تخلصا لها من سطوة أبيها وقسوته، وكانت إنسانة تميل إلى التحرر، وترفض القيود، بل لقد قالت هذا المعنى لإحدى صديقاتها الصحفيات فى روز اليوسف، وقالته بحضورى، لكننا حاولنا أن يكون زواجا ناجحا، وكنت جادا فى ذلك، وأخذت تتكون عندى العاطفة نحو زوجتى بعد الزواج».

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن اعتقاله (فى مايو ١٩٥٩) بعد بدء اعتقال الشيوعيين بخمسة شهور فيقول:

«. . . وإذا كانت حملة الاعتقالات فى يناير قد شملت كادر الصف الأول، فقد شملت حملة مارس ١٩٥٩ دائرة أوسع بما فى ذلك بعض العناصر اليسارية غير المرتبطة تنظيميا بالحركة الشيوعية مثل لويس عوض، الذى كان وكيلا لوزارة الثقافة، وعبد الرازق حسن، وحسن فؤاد وغيرهم. اعتقل فاروق ثابت فى حملة مارس، وأصبح العمل أكثر صعوبة».

«وفى ١٢ مايو ١٩٥٩ كنت أسير مع محمد على الخياط على كورنيش النيل عندما شعرت فجأة بأذرع تقبض على كتفى من الخلف، وقبضوا علينا وأخذونا إلى وزارة الداخلية وعرضونى على حسن طلعت، وعندما رأنى تناول سماعة التليفون وتحدث مع شخص آخر لم أعرف مَنْ هو، قال: «مسكنا محمد يوسف الجندى»، ثم رد: «الله يبارك فيك».

«وأخذونى إلى سجن القلعة، وحبست حبسا انفراديا، وأخذت فى اليوم التالى إلى النيابة وبدأ صلاح نصار يحقق معى، وكان وجهه معروفا لى، وحاول أن يبدو ودودا، ولكنه كان من أسوأ المحققين فى أسلوبه فى التحقيق، وفى الأسئلة التى قام بتوجيهها

والتى لم تكن تتسم بالموضوعية، وبعد الإفراج عنى التقيت بأحد الأشخاص فى الإسكندرية الذى ذكرنى بأنه كان فى إحدى مجموعات التنظيم فى كلية الحقوق وأنه كان معنا صلاح نصار».

«حاول صلاح نصار أن يقول على لسان زوجتى أقوالا غير صحيحة، ويحاول إيهامى بأنها قالت اعترافات ضدى، ثم عرفت أنها اعتقلت وواجهونى بها، وتأكدت بعد ذلك من كذبه ومن استخدامه لأسلوب رخيص فى التحقيق معى، وعرفت بعد ذلك أن زوجتى حجزت يوما كاملا فى القسم، وأنهم اعتقلوها من بيت والدها الذى كانت تقيم فيه، واقتادوها إلى منزلنا فى شارع إسماعيل أباظة، وقالت لى: إن رجال المباحث والمخبرين احتلوا المنزل بعض الوقت، وإنها اكتشفت بعد ذلك سرقة إسورة ذهبية كانت هى الشبكة التى كنت قدمتها لها عند الزواج».

«أفرج عن زوجتى بعد ذلك، ولكنى تألمت جدا لاعتقالها، وتلقيت منها بعد ذلك خطابا عن طريق أحد الحراس أرضانى بعض الشىء».

(٥٨)

ويلخص محمد يوسف الجندى قرار اتهامه فى هذه القضية ويعرض بعض ما قاله فى المحكمة:

«أصدرت النيابة قرار اتهام فى قضيتين عرفت الأولى باسم قضية الحزب الشيوعى المصرى، وكانت تضم ٦٤ متهما من أبرزهم د. فؤاد مرسى، ود. إسماعيل صبرى عبد الله، وأبو سيف يوسف، ومحمود أمين العالم، أما القضية الثانية فكانت تعرف باسم قضية حدتو، وكان المتهم الأول فيها شهدى عطية الشافعى، وكنت المتهم السادس فى هذه القضية، وكان من بين المتهمين مبارك عبده فضل، وإبراهيم عبد الحليم، وكمال عبد الحليم (وكان هاربا لم يقبض عليه)، ومصطفى بهيج نصار، وعادل حسين وغيرهم».

«وفى البداية نقل المتهمين فى قضية الحزب الشيوعى المصرى إلى الإسكندرية استعدادا للمحاكمة أمام المجلس العسكرى الذى شكل خصيصا لذلك برئاسة اللواء هلال عبد الله هلال».

. . . .

. . . .

«. . . وتحدثت عن مصير مَنْ كانوا يحاكموننا ويحققون معنا فى ذلك الوقت مثل حسين طنطاوى، ومحمد كامل القاويش».

«وفى رد سمير ناجى ممثل النيابة علىّ، فقد دافع عن هؤلاء وقال إنهم لم يأكلوا على مائدة الأجنبى كما فعلت على حد زعمه، وكان المصيلحى فى شهادته قد أشار إلى أننى بعد هربى من السجن ذهبت إلى المجر وعشت فيها فترة، ودافع عنى جمال العطيفى وكان دفاعه جيدا بشهادة جميع زملائى».

«وقد اختلف دفاعنا عن دفاع المجموعة الأخرى «الحزب الشيوعى المصرى» فى أنه لم يعترف أحد منا بعضوية الحزب الشيوعى، فقد حرصنا على ألا نقدم للمحكمة الحجة القانونية لإدانتنا، ولكننا دافعنا عن شيوعيتنا، وعن مبادئنا وأفكارنا».

«تركت المحكمة لنا حرية الكلام والدفاع عن أنفسنا، واستمرت المحاكمة عدة أيام، وكانت الأحكام جاهزة، وهى لم تصدر فورا، ولكنها أعلنت لنا فى السجن بعد عدة أسابيع، وكنا وقتها قد نقلنا إلى سجن القناطر بعد مذبحة أوردى أبو زعبل، وكانت أقسى الأحكام على شهدى عطية، وإبراهيم عبد الحليم بالأشغال الشاقة عشر سنوات، وصدرت الأحكام على كثير من زملائنا فى القضية بالأشغال الشاقة أو السجن عدة سنوات».

(٥٩)

وهو يتحدث عن المفارقة المتمثلة فى أن المعتقلين الذين حصلوا على البراءة (وكان هو نفسه واحدا منهم) كانوا يعاملون بأسوأ من الذين صدرت عليهم أحكام، ومع ذلك فقد خرج هؤلاء وأولئك فى أوقات متقاربة:

«أما أنا فقد صدر الحكم ببراءتى من التهمة، وقد تساوى الأمر بين مَنْ صدرت ضدهم أحكام، وبين مَنْ صدر الحكم ببراءتهم، فقد تحول الجميع إلى معتقلين وخرجوا فى نفس الوقت تقريبا، فالمعتقلون أفرج عنهم فى أبريل ١٩٦٤، أما المحكوم عليهم فقد تم الإفراج عنهم فى مايو».

«وكانت معاملة المحكوم عليهم فى السجن أفضل من المعتقلين، فكانوا على عكس المعتقلين يسمح لهم بالزيارات، وتطبق عليهم لائحة السجن، ولهذا قدمت فى السجن طلبا بتطبيق الحكم الصادر علىّ عام ١٩٤٩ حتى أستفيد من تطبيق لائحة السجن علىّ فلم يردوا على طلبي، وظهر بعد ذلك أن ملف القضية قد ضاع».

(٦٠)

ويلخص محمد يوسف الجندى بعض مظاهر التعذيب فى أوردى أبو زعبل تلخيصا تقشعر له النفس، ولسنا بقادرين على أن ننقل مثل هذه الفقرات القاسية، لكننا نجتزئ منها هذه الفقرة التى يتحدث فيها محمد يوسف الجندى عما سبق وفاة شهدى عطية من تعذيب:

«. . . ووصلت إلى الميدان الذى كانت به منصة يجلس عليها اللواء همت المعروف عنه فى مصلحة السجون تنظيم عمليات التعذيب، وجلس إلى جانبه الحلوانى مأمور سجن الحضرة بالإسكندرية وغيره من ضباط السجون وضباط مباحث أمن الدولة، ولم أكن أستطيع تبين الوجوه من شدة الضرب».

«وفى الميدان الذى كان يحتشد بالجنود والضباط كان هناك كاتب يسجل الأسماء وحلاق، وكانت عملية التسجيل وحلاقة الرأس تتم مع الضرب الشديد على كل أجزاء الجسم التى كانت تصحبها الأوامر بأن نخلع كل ملابسنا ونصبح عارين كما ولدتنا أمهاتنا، ثم يسلم كل منا بورشا وبطانية، ونؤمر بأن نستلقى على ظهرنا ونضع كل هذه الأشياء (البورش والبطانية) على بطننا ونسحل إلى داخل السجن، وعند بوابة السجن يستقبلنا أحد الضباط بالضرب المميت، ثم تستكمل المسيرة بهذه الطريقة».

«وعند باب العنبر يستقبلنا أحد الصولات اسمه مطاوع وينهال على كل منا بالضرب ويقول: «قول أنا مرة». . «قول أنا مش شيوعى»، ثم يطلب منا أن نقف ووجهنا إلى الحائط وبقينا كذلك فترة وكلنا مصاب بجروح مختلفة، ثم أغلق العنبر ولاحظنا غياب خمسة من زملائنا هم: شهدى عطية، ومبارك عبده فضل، ومحمد عباس فهمى، وجمال غالى، ونور الدين سليمان، ونظرنا إلى بعضنا البعض، ورأيت إبراهيم عبد الحليم ورأسه يعلوه ما يشبه الأهرامات من أثر الضرب، وبدأنا نتحادث وضحكنا على منظر رأس إبراهيم، وبدأ يضحك معنا».

«وكان يجلس جانبى بهيج نصار، وكان معنا عادل حسين فى نفس العنبر».

«بعد التمام فى المغرب سمعنا نداءات من العنبر المجاور، وبدأنا نسمع أخبارا غير مؤكدة عن طريقة تعذيب زميلنا شهدى عطية، وكيف أنه استقبل استقبالا خاصا، وكان يضرب ويرمى فى الترعة، ثم يعاد ضربه من جديد، وأنهم يشكون فى أنه قتل».

....

....

«... وقتل من التعذيب الدكتور فريد حداد عند استقبال مجموعته».

....

ربما نتوقف هنا لنسأل التاريخ عن وفاة فريد حداد التى لم تنل من الأهمية ما نالته وفاة شهدى عطية الشافعى.

....

(٦١)

ونصل إلى مفارقة شديدة تتمثل فى حضور زوج أخته مكلفا من النائب العام للتحقيق فيما تردد عن التعذيب، لكنه لم يستطع أن يتحمل المناظر البشعة، فوضع يده على وجهه وخرج على الفور، وقد حدث هذا دون أن يتعرف عليه محمد يوسف الجندى نفسه:

«عرفنا بعد ذلك أن أربعة من زملائنا فى العيادة بين الحياة والموت وهم: مبارك عبده فاضل، وجمال غالى، ومحمد عباس فهمى، ونور الدين سليمان، فقد أصيبوا بصدمة عصبية».

«وفى اليوم التالى جاء الطبيب مع الممرض، وكان الطبيب متعاونا مع إدارة السجن، وبعد يومين فتحت أبواب العنبر ودخل شخص يسأل: مَنْ كان مع شهدى عطية فى السيارة؟ فهمنا أن ما تردد عن قتله صحيح، وانهار بعضنا فى البكاء وأخذنا

نكشف عن ظهورنا، ورأى السائل مناظر بشعة فوضع يده على وجهه وخرج على الفور، لم أستطع تبين ملامح هذا الشخص، إذ أننى فقدت نظارتى أثناء التعذيب، ولكننى بعد الإفراج عنى عرفت أنه أنور وحش زوج أختى، وأنه كان رئيس نيابة المنطقة، وأنه جاء للتحقيق بتكليف من النائب العام».

(٦٢)

ثم يتحدث محمد يوسف الجندى عن اللحظات التى شهدت تلقيهم أحكام المجلس العسكرى، وما تلا هذا الحكم من انتقال إلى أبى زعبل إلى سجن الواحات، وهو الانتقال الذى تم عن طريق «الحجلة» الرهيبة على نحو ما نقلنا تصويره عن ألفريد فرج:

«وفى سجن القناطر وفى أحد الأيام استدعينا فردا فردا إلى إدارة السجن، وأبلغنا بأحكام المجلس العسكرى، أما أنا فقد أبلغت مع نور سليمان وعدد قليل آخر لا أذكره بالحكم بالبراءة، ونقل من صدر ضدهم الحكم بالعقوبة إلى سجن الواحات الخارجة، . أما نحن (أصحاب البراءة) فقد نقلنا إلى أوردى أبو زعبل انتظارا للبت فى أمرنا (الاعتقال أو الإفراج)».

«بقينا أياما فى أبو زعبل، وكان ذلك فى صيف ١٩٦١، وسمعنا وقتها عن القرارات التى سميت «القرارات الاشتراكية» واعتبرناها تأكيدا لخطنا، وأحدثت هذه القرارات ارتباكا شديدا لدى للمجموعة الأخرى، وبدأ عدد منهم يتبنى موقفنا ومنهم محمود أمين العالم، ود. عبد العظيم أنيس، وغيرهما، وأعلنوا فيما بعد انضمامهم إلينا».

«انتظرنا عدة أيام فى أوردى أبو زعبل، وصدر قرار باعتقالنا ونقلنا إلى سجن الواحات الخارجة كمعتقلين، وكانت طريقة النقل هى ربطنا جميعا فى حجلات، وكان الطريق طويلا من أبو زعبل إلى الواحات الخارجة».

«وكانت المباحث العامة قد بدأت أسلوب اللقاء مع مَنْ يصدر حكم ببراءتهم وتطلب منهم استنكار الشيوعية وكتابة تعهد بعدم الاشتغال بالعمل السياسى، فمن يقبل يفرج عنه ومن يرفض يعتقل، و لكن حتى هذا لم يجرب معنا، فقد صدر قرار اعتقالنا ونفذ الاعتقال دون أن نلتقى بأحد».

(٦٣)

ويلخص محمد يوسف الجندى ذكرياته عن فترة بقائه فى سجن الواحات فى عبارات سريعة مع أن هذه الفترة طالت (بالنسبة له) ثلاث سنوات، ومع أن بعض الشيوعيين كانوا هناك منذ ١٩٥٣ و١٩٥٤ :

«أمضيت فى الواحات الخارجة ثلاث سنوات كاملة».

«وقد التقيت هناك بزملائنا من المسجونين الموجودين منذ الخمسينيات (منذ الأحكام التى صدرت ضدهم بالأشغال الشاقة والسجن فى عامى ١٩٥٣، ١٩٥٤، وكانت هناك أحكام تصل إلى عشر سنوات). التقينا هناك بزملاء أعزاء مثل زكى مراد، ومحمد شطا، ومحمد خليل قاسم، وصلاح حافظ، وسيد سليمان الرفاعى، ود. شريف حتاتة، وعبد الجابر خلاف، وحليم طوسون وغيرهم».

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

«. . . وكان من حق المسجونين أن يحصلوا على بعض المشتريات من الكنتين، وكانوا يقتسمونها مع المعتقلين الذين كانوا محرومين من التعامل مع الكانتين، وكانوا محرومين أيضا من الزيارات، لكن أسرهم كانت تحصل على زيارات باسم المسجونين».

. . . .

. . . .

(٦٤)

ويصيبنا بمحمد يوسف الجندى بالألم الشديد حين نرى أن زوجته كانت لا تستطيع أن تأتى لزيارته وهو فى المعتقل إلا من خلال الزعم بأنها تأتى لزيارة مسجون آخر محكوم عليه (وهو محمد عمارة)، أما ابنه الذى كان قد تعود رؤيته من وراء القضبان فقد أصبح يخطط القضبان على الورق :

«وأذكر أن زوجتى جاءت لزيارتى عدة مرات باسم محمد عمارة الذى كان مسجونا معنا، وكانت تأتى إليه مع خطيبته، فأعرف منه أخبارها وأخبار ولدى يوسف الذى كان قد بلغ الثانية من عمره، وكان يزورنى فى سجن مصر واعتاد أن يرانى من وراء القضبان، مما أثر عليه بعد ذلك وأصبح بعد ذلك يخطط على الورق رسم القبضان».

. . . .

. . . .

«كنا نتألم لسجننا، ولعمليات التعذيب التى مورست ضدنا، وللشهداء الذين سقطوا، ولكننا كنا نرى أن أمامنا أهدافا أكبر من ذواتنا وآلامنا، وأن علينا أن نبذل الجهد الأكبر فى التغلب على توجهات النظام اليمينية، وأن نساند بكل قوة الدعوة إلى وحدة كل القوى الاشتراكية ضد القوى الرجعية واليمينية».

(٦٥)

ويبدو محمد يوسف الجندى ككثيرين من الشيوعيين منخدعا فى نوايا عبد الناصر تجاه الشيوعيين، ومتصورا أن جماعات أخرى كانت تستطيع إجبار عبد الناصر على عدم الإفراج عن الشيوعيين:

«وفى أواخر عام ١٩٦٣ وصلنا ونحن فى السجن حديث جمال عبد الناصر مع إريك رولو الصحفى الفرنسى فى جريدة «الموند»، والذى وعد فيه جمال عبد الناصر بالإفراج عن الشيوعيين قبل نهاية العام، وانتهى العام ولم يفرج عنا، وتبينا أن هناك قوى تريد لنا أن نبقى فى السجن وتقاوم الإفراج عنا، ولم نيأس، ولم تتغير مواقفنا، بل استمرت دراستنا وتحليلاتنا وتأكدت ثقتنا فى ضرورة وحدة جميع القوى الاشتراكية بمختلف اتجاهاتها، وتحت قيادة جمال عبد الناصر».

«وسمعنا ونحن فى السجن عن تكوين تنظيم طليعى داخل الاتحاد الاشتراكى، وسمعنا بأن بعض زملائنا عند الإفراج عنهم اختيروا لعضوية هذا التنظيم الطليعى».

«بدأ الإفراج عنا، نحن المعتقلين فى أبريل ١٩٦٤، أما المسجونون فقد تم الإفراج عنهم فى مايو من نفس العام، وقيل إن الإفراج عنا كان مرتبطا بالزيارة التى كان

خروشوف ينوى القيام بها إلى مصر، وأعتقد أن قرار الإفراج قد اتخذ قبل ذلك، بدليل حديث عبد الناصر مع إريك رولو ووعده بذلك، وأنه سيتم قبل نهاية ١٩٦٣، ولكنه لم يتم فى هذا الموعد، وأعتقد أنه اختير موعد زيارة خروشوف لتحقيق هذا الوعد قبله بقليل، كجزء من الإعداد لهذه الزيارة».

«وكان خروشوف قد تحدث أكثر من مرة فى عام ١٩٥٩ عن المعتقلين الشيوعيين فى مصر، وأبدى تعاطفه معهم».

(٦٦)

ثم نأتى إلى تعبير بسيط لرجل مجاهد يخرج إلى الحرية بعد عذاب استمر خمسة عشر عاما فى السجن، وما هو أصعب من السجن:

«رحلت مع باقى المعتقلين الشيوعيين إلى السجن الحربى فى القاهرة، وهكذا كانت تبدأ إجراءات الإفراج».

«أمضيت هناك ليلة ونودى علىّ وخرجت إلى الحرية لأول مرة بعد خمس سنوات».

«وللمرة الأولى بعد أكثر من خمسة عشر عاما من السجن والهرب والمنفى ودخول البلاد سرا والعيش متخفيا وهاربا ومطاردا، أتوقع القبض علىّ فى أى لحظة».

«أكثر من خمسة عشر عاما لم أعش فيها حياة طبيعية، فأحمل أسماء مختلفة فى مصر، وفى مختلف البلاد».

«وحتى فى المجر حيث كنت أعيش حياة طبيعية، فقد كنت أشعر بالغربة الشديدة، ومع ذلك فلقد استطعت أن أحصل على شهادة جامعية من المعهد العالى للغات الأجنبية من جامعة بوادابست، وتعلمت اللغة الروسية وحصلت على دبلوم فى الترجمة منها».

«وبقيت علىّ مهمة أن أحصل على ليسانس الحقوق الذى لم أنه امتحاناتى فيه منذ عام ١٩٤٧».

ويثنى محمد يوسف الجندى ثناءات عطرة على كثير من زملائه الشيوعيين فى سياق حديثه.

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن يوسف حلمى وشجاعته حديثا جميلا ينفرد فيه بما لم يذكره غيره من أن يوسف حلمى بعث إلى عبد الناصر ببرقية شجاعة يتقص فيها من وطنية الزعيم حيث قال له مصر بالنسبة لعبد الناصر نفسه تعتبر جهة أجنبية!!:

«أما يوسف حلمى فقد أصبح بعد ذلك عضوا قياديا فى الحزب الوطنى هو وفتحى رضوان، ثم أصبح سكرتيرا عاما لحركة السلام فى الخمسينيات، وأصدر جريدة «الميدان»، ثم اختلف مع قيادة الثورة سنة ١٩٥٣ حول قضية الحريات وحل الأحزاب، فاعتقل وسجن فترة، وقد حدث فى تلك الفترة أن ألقى عبد الناصر خطابا اتهم فيه المعتقلين الشيوعيين بأنهم يعملون لجهات جنبية، فاستفز يوسف حلمى وبعث له برقية جاء فيها ما معناه أن الجهة الأجنبية التى نعمل لها هى مصر، وهى أجنبية بالنسبة لك، وكان يوسف حلمى يشتعل وطنية ويعارض توجهات الحكم فى ذلك الوقت، سواء فى محاولات التقارب مع أمريكا، أو تقييد الحريات العامة، وقد سافر سرا بعد الإفراج عنه إلى الخارج عدة سنوات، ولم يعد إلى مصر إلا فى عام ١٩٥٦ عندما تغيرت سياسة عبد الناصر، وفى فترة وجود يوسف حلمى فى الخارج التقينا وكانت لنا مغامرات مشتركة».

وفى موضع آخر يتحدث عنه ويقول:

«وكان يوسف حلمى إنسانا مرحا، ويحب أغانى سيد درويش بالذات، وكان يدافع دائما عن تراث سيد درويش وكون جمعية لهذا الغرض فى مصر، وكان رجلا وطنيا وديمقراطيا، اصطدم مع جمال عبد الناصر عندما بدأ المفاضات مع الإنجليز وتقرب من الأمريكان، وعندما حل الأحزاب وألغى الدستور والحياة النيابية، وكان فى منفاه يكتب الرسائل لجمال عبد الناصر ينتقد فيها سياسته، ومنها رسائل تتعلق بالحريات الديمقراطية، وأخرى بالسلام بين مصر وإسرائيل الذى كان يوسف حلمى

وهو السكرتير العام لحركة السلام المصرية يؤمن بضرورة تحقيقه والتفرغ للنضال وتوجيه الطاقات من أجل تحرير البلاد من الاستعمار وتنميتها».

«وقد دعا إلى مؤتمر دولى تشترك فيه مصر والدول العربية، فضلا عن الدول الخمس الكبرى لبحث قضية السلام بين إسرائيل والبلاد العربية، وقد نشرت آراؤه فى بعض الصحف الإسرائيلية».

(٦٨)

وهذا هو ثناؤه على زميله اليهودى المصرى الفرنسى يوسف حزان الذى جاء مصر سائحا من فرنسا لكن قوات المباحث لم تسمح له بالبقاء فى مصر ورحلته فى اليوم نفسه إلى فرنسا:

«... كان يتمتع بالجنسية الفرنسية، ولكنه ولد وعاش وتعلم فى مصر، وكان يعتبر نفسه مصريا، وهو يتكلم ويقرأ العربية كأحد أبنائها، وقد طرد من مصر عام ١٩٤٨ فجاء إلى فرنسا وانضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى، إلى أن صدر قرار من مجموعة حدتو بالخارج بالانسحاب من الحزب وتكوين مجموعة خاصة بالحزب المصرى فى الخارج، فاستقال من الحزب لأنه اعتبر نفسه منتميا إلى الشيوعيين المصريين، وهو شديد الحب لمصر والمصريين، ويعانى معاناة كبيرة لأنه لا يستطيع العودة إلى مصر، وقد جاء إلى مصر فى السبعينيات مع مجموعة سياحية، وجاء مرة أخرى بعد ذلك، ولكنه بعد وصوله إلى الفندق جاءت قوات المباحث التى أبلغته بأنه ممنوع من دخول الأراضى المصرية، وجرت مناقشة بينه وبين الضابط الذى أبلغه بذلك، فاعتذر له باحتمال وجود خطأ أو تشابه أسماء، ورحل فى نفس اليوم إلى فرنسا، ومازال يعيش فى فرنسا، ويعتبر محطا للقاء المصريين من مختلف الاتجاهات، الذين يعتبرونه صديقا، وله أصدقاء كثيرون من الفلسطينيين، وقد منحه ياسر عرفات هو وهنرى كورييل وساما لمساعداتهما العديدة للقضية الفلسطينية، وإلى جانب المصريين فهو مازال مستمرا فى مساعدة الشيوعيين السودانيين بكل الوسائل، استمرار للقضية التى كرس كورييل حياته لها».

ومن الطريف أن محمد يوسف الجندى لا يبخل علينا بذكر أواصر المصاهرة التى ربطت عائلته بكثيرين من مشاهير السياسة، وعلى سبيل المثال فإن ابنة عمه تزوجت من ابن عم الرئيس مبارك، وكان ضابطا يدعى عادل مبارك.

وعلى سبيل المثال أيضا فإن عمه الدكتور عبد العزيز تزوج ابنة عطية باشا إسماعيل، ابن خال إسماعيل صدقى عدو الوفد اللدود على حد تعبير محمد يوسف الجندى، لكنه فى (ص ٧٨) يذكر هذه المصاهرة بصيغة أخرى، وهى أن عمه تزوج ابنة منصور باشا إسماعيل، ابن عم إسماعيل صدقى.

. . . .

وهكذا تجمعت فى هذه المذكرات كل صور الحياة المصرية التى عاشها قطب من أقطاب اليسار فى عصر لم يرحب بالتحول حتى وإن تظاهر به.

***

obeikan.com

الباب الخامس

مسيرة حياتى
مذكرات محمد يوسف الجندى
الجزء الأول

---

obeikan.com

obeikan.com

(١)

سنحاول، فى هذا الباب، التركيز على بعض الجوانب الإنسانية فى هذه المذكرات لأنها جوانب حية وحقيقية وقادرة على إرشادنا إلى كل ما هو نبيل وجميل فى تجربة اليسار المصرى، وليس معنى هذا أننا لا نؤمن بما فى المذكرات من حديث سياسى، ومن حديث عن السياسة، لكننا نعرف أن مثل هذا الحديث متاح بكثرة ووفرة فى أدبيات الحركة اليسارية، وأنه لا يمثل تجربة شخصية بقدر ما يمثل تجربة توجه وتاريخ هذا التوجه فى العمل الجاد.

والواقع أن محمد يوسف الجندى كان يصل إلى درجات تقترب من ذرا التعبير الأدبى حين كان يترك سياق الأحداث العامة ليتحدث عن سياق الأحداث الخاصة فى حياته، كما أنه كان يصل إلى قدرة عالية على الفهم والنقد فيما يتعلق بهذه التجربة الثرية.

(٢)

هذا هو حديث محمد يوسف الجندى عن خروجه من السجن فى ١٩٦٤، بعد غياب طويل عن زوجته وابنه، ونفاجأ، أو هو يتصور أننا سوف نفاجأ، حين نجد أن ابنه الذى لم يكن قد بلغ الخامسة قد عرفه:

«. . . خرجت إلى الشارع واستوقفت سيارة تاكسى من أمام السجن الحربى فى مصر الجديدة، وطلبت منه التوجه إلى شارع إسماعيل أباظة المتفرع من شارع قصر العينى، صعدت إلى شقتى فى المنزل رقم ١٢ أ بالدور الخامس، ضغطت جرس الباب، فتح يوسف، ولم يكن قد بلغ الخامسة بعد، وعرفنى وأخذته بين أحضانى، كانت زوجتى ليلى ترقد فى سريرها تعانى من «حصوة» فى الكلية، فوجئت بدخولى ورحبت بى».

«كنت مشتاقا بعد هذه الغيبة الطويلة، والحقيقة أننا لم نعش معا إلا سنة تقريبا، فقد تزوجنا فى ٨ يناير ١٩٥٨، وكانت الحملة ضد الشيوعيين، واتفقنا أن تعيش فى منزل والدها، ولم نكن نلتقى إلا فى فترات متباعدة، وبعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة».

«كنت مشتاقا أن أحيا حياة طبيعية، فى أسرة، مع زوجتى وابنى، وهو الأمر الذى افتقدته كثيرا، فحتى بعد زواجنا والفترة القصيرة التى عشناها معا، كان علىّ أن أعيش متخفيا، وباسم آخر».

«والتقيت باخوتى لأول مرة منذ فترة طويلة بشكل علنى، وقد عانوا، خصوصا أختى سعاد، فترة السجن والإضراب عن الطعام، والهرب، والتعذيب، وفرحوا أخيرا بخروجى، وأبدى الجميع استعدادهم لمساعدتى، وكان أخى أحمد يساعد زوجتى أثناء اعتقالى، لكنها كانت تشكو لى دائما فى خطاباتها إلىّ فى السجن من أن المساعدة لا تكفيها، وقد تضايق اخوتى أن بعض النقود التى كانت تأخذها من أخى أحمد لترسلها لى كأمانات فى السجن كانت لا ترسلها لى لحاجتها إليها فى المعيشة، وقد أزعجنى كثيرا الشعور بحاجتها للمال، ولكننى كنت أجد حرجا فى طلب المساعدة من أخى».

«ها قد خرجت أخيرا، وعلىّ أن أدبر حياتى، وكنت أمتلك ١٣ فدانا من الأرض الزراعية فى منطقة أبو الصير فى السنبلاوين، بعت منها ثلاثة أفدنة إلى أختى عايدة بعد بلوغى سن الرشد بقليل، وأعطيت ثمنها إلى الحزب (يقصد الحزب الشيوعى الذى كان ينتمى إليه)، وحاولت بيع الباقى فلم أنجح إلى أن قبض علىّ عام ١٩٤٩، وكان إيراد هذه الأفدنة لا يكفى وحده للإنفاق على حياتى اليومية، وكنت قد تركت أمورى المالية لأخى أحمد طوال فترة سجنى وهربى، وقد حدد لى مبلغا شهريا ٣٠ جنيها إلى أن أدبر أمورى، وقد توقفت عن أخذ هذا المبلغ منه بعد أن أسست «مكتب يوليو للترجمة والنشر والتوزيع»، وبدأ يدر عائدا كنت أحصل منه على هذه الجنيهات الثلاثين شهريا».

(٣)

ونتقل مع محمد يوسف الجندى من غربة إلى غربة حتى نصل إلى غربته الفكرية فى أثناء عمله فى التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى، فنراه مضطرا إلى الاصطدام

بقيادات الاتحاد الاشتراكي المحلية، وترينا المذكرات أن وجود اليساريين القدامى من أمثاله في التنظيم الطليعي كان بمثابة أمر مقلق لقيادات عهد الثورة التقليدية، وذلك بسبب رغبتهم في السيطرة على التنظيم ورغبتهم في إخضاع التنظيم للهياكل التي تعودوا عليها في مثل هذا العمل السياسي، على حين كان اليساريون الذين تربوا على غير هذا الفهم يعانون من سيطرة هذه الروح، ويحاولون تغييرها فيصنفون في فئة لابد للثورة من أن تتخلص منها ومن آرائها.

. . . .

. . . .

«. . . وكلفت بالعمل في الوجه البحري، وتكونت لجنة للأقاليم، وأصبحنا نتسلم النشرات السرية التي يصدرها التنظيم الطليعي».

«وفي عملنا في الوجه البحري كنا نصطدم بقيادات الاتحاد الاشتراكي في مختلف المحافظات الذين كانوا يقفون ضد مصالح الجماهير، وكنا نكتب إلى قيادة التنظيم بمواقفنا وآرائنا وانتقاداتنا لهذه القيادات، وكنا نشك أن بعض هذه القيادات قد تكون موجودة أيضا في التنظيم الطليعي، بل وفي قيادته».

«وأبدينا رأينا في تركيب التنظيم الطليعي واعتماده على فروع متعددة، وطالبنا بتوحيد التنظيم على أساس جغرافي، وكنا نطالب بقبول عضوية باقي أعضاء «حدتو» في التنظيم الطليعي».

«وأبلغنا بقرار بتوحيد التنظيم وطلب منا أن ننتظر حتى يتم الاتصال بنا، وقد تم الاتصال بالبعض بالفعل، ولكن الغالبية لم يتم الاتصال بها، ومنهم زكي مراد وأنا».

(٤)

وبعد عشر صفحات من مثل هذا الحديث يواجهنا محمد يوسف الجندي بحقيقة موقفه وموقف زملائه من العمل السياسي في ظل الثورة، وهو يعترف أنهم كانوا مؤمنين بضرورة استمرارهم في العمل السياسي الذي بدأوه من قبل، ومع هذا فقد استبعد من التنظيم الطليعي، وهذه على ما نعرف أول مذكرات يعترف فيها صاحبها

باستبعاده المبكر من مثل هذا التنظيم بعد ممارسة النشاط فيه، لكنه لم يخسر كل شيء بسبب علاقته الجديدة بالثورة، ذلك أنه حقق بعض المكاسب من قبيل أن اسمه قد رفع من قائمة العزل السياسى (!!) وكأن هذا الرفع إنجاز، بينما العزل نفسه جزء من ظلم الثورة له ولأمثاله:

. . . .

. . . .

«كنا نرى مع عدد من رفاقنا أن الارتباط يجب أن يستمر، وإن لم يتخذ شكل حزب، ولم نفكر أبدا أن قرار حل الحزب يعنى أن نوقف نشاطنا السياسى الاشتراكى».

«استبعدت من التنظيم الطليعى مع أغلب رفاقنا، ولكن رفع العزل السياسى عنا، ومن الطريف أن قرار رفع العزل الذى نشر بالجريدة الرسمية نص عند ذكر اسمى بأننى مدير مكتب يوليو للترجمة الشيوعى».

«وأصبحت عضوا فى الاتحاد الاشتراكى فى عام ١٩٦٥، تقرر تشغيل الشيوعيين الذين أفرج عنهم، ودعيت مع عدد من زملائنا لمقابلة عبد القادر حاتم، ووزعنا على أعمال مختلفة، وعينت مع صنع الله إبراهيم للعمل فى وكالة أنباء الشرق الأوسط، وكانت هذه أول مرة أعمل فيها فى عمل رسمى».

(٥)

وفى خضم كل هذا يعبر صاحب هذه المذكرات عن الاغتراب السياسى الذى شعر به هو وزملاؤه، وهو يلخص موقف المنظمات الشيوعية من نظام الرئيس عبد الناصر، وهو يدلنا فى بساطة شديدة، وصراحة أشد على أنه هو وزملاءه أصبحوا كالغنائم التى وزعت على مراكز النفوذ والفكر فى نظام عبد الناصر، وعلى سبيل المثال فإنه يذكر أربعة أقطاب اختص كل منهم مجموعة من اليساريين، حتى وإن كان أغلب الأعضاء قد ارتبطوا بأحمد فؤاد:

«. . . كنا صادقين عندما قبلنا العمل داخل التنظيم الطليعى الذى أسسه جمال عبد

الناصر داخل الاتحاد الاشتراكى، الذى أشار إليه فى الميثاق باسم الجهاز السياسى، وكان كثيرون ممن اختيروا فى التنظيم، وأنا منهم، معزولين سياسيا، ولم يكونوا قد قُبلوا بعد أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى».

و«كان التنظيم الطليعى فى بداية تكوينه يضم مجموعات بقيادة أشخاص مقربين لجمال عبد الناصر، وقد ارتبط أغلب أعضاء «حدتو» الذين قبلوا بمجموعة أحمد فؤاد، وارتبط البعض الآخر بمجموعة خالد محيى الدين مثل رفعت السعيد، وارتبط البعض الآخر بمجموعة مجدى حسنين، مثل أحمد الرفاعى، وارتبط محمود العالم وحسن فؤاد بمجموعة سامى شرف».

(٦)

ويعترف محمد يوسف الجندى بمدى صعوبة العمل من خلال الاتحاد الاشتراكى، ويذكر صراحة أن القوى المعادية للاشتراكية داخل السلطة كانت أقوى من مجموعات الشيوعيين السابقين الذين عملوا من خلال التنظيم الطليعى، وأن ميدان هذه القوى لم يكن يقتصر على السلطة، وإنما كانت قوة هؤلاء تمتد إلى داخل التنظيم الطليعى.

ونحن نفهم بالطبع ما كان محمد يوسف الجندى يجهله أو ما يتجاهله من أن نظام عبد الناصر لم يكن على استعداد على الإطلاق لأن يعطى له ولأقرانه اليد العليا فى تنظيمات السياسة، وإلا كان هذا اعترافا منه بالعجز والفشل، وربما كان السياسيون التقليديون الأكثر وعيا بعبد الناصر وبالتاريخ يعرفون أن مجابهتهم العنيفة لهؤلاء الشيوعيين كفيلة بارتفاع أسهمهم عند عبد الناصر، وعند النظام!! وهذا هو ما حدث بالفعل:

«وعندما قررنا الانضمام إلى التنظيم الطليعى لم يكن فى نيتنا أبدا التخلى عن مبادئنا وأفكارنا، ففى داخل التنظيم كنا ندافع عن آرائنا ومواقفنا، وكنا نناضل ضد العناصر التى كنا نعتقد أنها تعمل ضد مصالح الكادحين الذين كنا نعبر عن مصالحهم، وكنت أعمل فى الأقاليم ودخلنا فى معركة ضد أمين محافظة الغربية فى الاتحاد الاشتراكى الذى نعتقد أنه كان أيضا عضوا فى التنظيم الطليعى، وكنا نستفيد من خبرتنا السابقة فى العمل فى الأقاليم».

«وكنا نجوب المدن والقرى وندافع عن مواقفنا التى كانت تتفق مع المواقف التى كان يعلنها جمال عبد الناصر فى خطبه، وفى الميثاق وغيره من المطبوعات، وكنا نعتبر أن هناك قوى فى السلطة تعادى الاشتراكية، وتعادى الشيوعيين علينا أن نكشفها ونقف ضدها، لكن هذه القوى كانت أقوى منا داخل السلطة وتنظيماتها، ومنها التنظيم الطليعى».

(٧)

وتأتى بعد هذا فقرة يتحدث فيها عن صور الوظائف التى تقلدها بعض الشيوعيين ضمن نظام عبد الناصر فى مرحلته الأخيرة، وهى فقرة لا تخلو من التشويش والأخطاء التاريخية، وبخاصة فى تعاقب التواريخ والأحداث، وإن لم تخل من كثير من الصواب فى وقائعها، لكن العجيب أن هذه الفقرة تأتى مباشرة عقب حديث محمد يوسف الجندى عن القوى الأخرى التى قد يفهم منها القارئ أنها قوى غير شيوعية، فإذا هى قوى شيوعية على حد ما تعيه ذاكرة القراء العاديين، وإذا بصاحب المذكرات فى نهاية مذكراته يبدو وكأنه المعادل الموضوعى لجماعات التكفير (فى السياق الدينى) فيتحدث عن الشيوعيين الآخرين بأسلوب هو أقرب إلى الحديث عن اللاشيوعيين:

« . . . وقد حافظ جمال عبد الناصر على علاقاته بهذه القوى وشغلت مواقع (مهمة) رغم أننا لم نكن نشغل أى مواقع، بل كما سبق أن ذكرت كنا معزولين عن الاتحاد الاشتراكى، وبعد ذلك شغل بعض زملائنا بعض المواقع مثل محمود أمين العالم الذى أصبح رئيسا لدار النشر الحكومية الأساسية التى أصبحت تسمى بعد ذلك «الهيئة المصرية العامة للكتاب»، ثم أصبح بعد ذلك رئيسا لمؤسسة أخبار اليوم».

«وكانت بعض العناصر من المجموعة الأخرى التى كانت تقف ضد عبد الناصر أثناء وجودها فى السجن مثل إسماعيل صبرى، وفؤاد مرسى التى ارتبطت بمحمد حسنين هيكل شغلت أيضا مواقع (مهمة)».

« وعندما صدر قرار بإعادة الشيوعيين فى الصحف المختلفة، وكان لطفى الخولى قريبا من حسنين هيكل فكلف بتأسيس مجلة «الطليعة» فى إطار مؤسسة الأهرام،

وجمع فيها عددا من الشيوعيين المصريين، وقد اختار أغلب العناصر من المجموعة الأخرى، ولم يعمل معه من مجموعتنا إلا رفعت السعيد».

(٨)

وهو يتحدث بحيادية لا يشوبها توتر ولا أسى عن محاولات فاشلة لإلحاقه هو وإبراهيم عبد الحليم بالعمل فى الأهرام، وهو يتعجب من موقف هيكل منه رغم صداقته الوثيقة بأخيه أحمد، ويبدو محمد الجندى من السذاجة بحيث لا يعرف طبيعة مثل هذه الصداقات، ولا طبيعة الانتهازيين والمظهريين:

«وقد حاول سامى شرف أن يعمل إبراهيم عبد الحليم فى الأهرام، وحدد له موعدا مع محمد حسنين هيكل الذى لم يقبل عمله هناك، وكذلك الأمر بالنسبة لى، فقد حاول ذلك جمال العطيفى الذى كان يحاول مساعدتى ويبذل فى ذلك جهدا، لكنه فشل ولم يقبل هيكل عملى فى الأهرام رغم علاقة الصداقة الوثيقة التى كانت تربط بينه وبين أخى أحمد».

«وأذكر أننى التقيت بلطفى الخولى بناء على اقتراح من عصمت سيف الدولة لكى أعمل فى الطليعة، لكنه أفهمنى أن مثل ذلك القرار لابد أن يوافق عليه هيكل الذى قد يقبل التعاون مع عناصر كانت له علاقة بها ويأسرها مثل محمد سيد أحمد، ونبيل الهلالى، ولكنه لن يقبلنى».

(٩)

وننتقل إلى حديث محمد يوسف الجندى عن ممارسته العمل الصحفى من دون أن نخضع للترتيب الزمنى مفضلين أن نبدأ بحديثه عن الفترة التى مارس فيها الصحافة الحقيقية فى مؤسسة «أخبار اليوم».

وهو يذكر للأستاذ إحسان عبد القدوس فضله، بما جبل عليه من توازن بين الفكر والعمل الصحفى، مما جعله يحرص على أن يساعده على أن يكتسب معرفة حقيقية بالعمل الصحفى كى يكون مفيدا لمؤسسة أخبار اليوم فى عمله الجديد كمراسل لها فى الاتحاد السوفيتى، وهو يلخص التوجهات التى قاده إليها كبار رجال الصحافة القائمين

بقيادة وإدارة الإصدارات الصحفية فى ذلك الوقت، ويتحدث عن ممارسته للصحافة الحقيقية بعد أن أصبح مندوبا لأخبار اليوم فى الاتحاد السوفيتى :

« . . . أصبح العمل الصحفى أكثر إثارة من عمل الترجمة الذى كنت أقوم به طول الوقت، وقمت بزيارة إلى القاهرة وقابلت إحسان عبد القدوس وقال لى : إننى يجب أن أتعلم الصحافة، وانتقد بعض التقارير والأخبار التى أرسلها، وقال : إننى سياسى ولست صحفيا بعد، ورتب لى لقاءات مع مسئولى المجلات والصحف والأقسام التى تتبع أخبار اليوم، فقابلت موسى صبرى، ومحسن محمد اللذين طلبا منى أن أهتم بكل الأخبار وليس بالأخبار السياسية وحدها، وأن أهتم بأخبار المصريين فى الاتحاد السوفيتى، والتقيت بأنيس منصور وكان مسئولا عن آخر ساعة، وطلب منى أخبار الناس العاديين، والأخبار الطبية، وقابلت سعيد سنبل، وإبراهيم سعدة، ومحمد تبارك الذى طلب منى ألا أرسل أخبارا أكاديمية، وإنما الأخبار البسيطة والمثيرة».

(١٠)

ومن حسن الحظ أن هذا الحماس للصحافة سرعان ما ظهر فى سلوك محمد يوسف الجندى : وأدائه، مما أعطاه دفعة من الثقة بالنفس فى ذلك المجتمع الجديد، وهو يضرب المثل بنجاحه فى السبق إلى نشر خبر زيارة الزعيم بريجنيف لباريس قبل أن يعلن الخبر رسميا بثمان وأربعين ساعة :

« . . . وقد نشرت أخبار اليوم يوم ٢٣ يونيو خبرا بعنوان «٤٨ ساعة بعد أخبار اليوم»، جاء فيه : «انفردت أخبار اليوم يوم السبت الماضى بنشر خبر زيارة بريجينيف لباريس، بعد انتهاء زيارته لواشنطن. استطاع مراسل أخبار اليوم فى موسكو أن يسبق جميع الصحف العالمية ووكالات الأنباء بهذا الخبر الذى لم يذع رسميا إلا بعد ٤٨ ساعة من نشره فى أخبار اليوم».

«وقد سررت من نشر هذه الملاحظة، وكانت أخبار اليوم فى يوم السبت ١٦ يونيو قد نشرت الخبر الرئيسى فى صفحتها الأولى نقلا عن محمد الجندى ووكالات الأنباء بالعنوان التالى :

«لماذا قدم بريجنيف موعد زيارته لأمريكا . . الزعيم السوفيتي يزور باريس بعد واشنطن»، وكانت الصحيفة بعد أن أوردت الأخبار الجارية قد نقلت ما أرسلته من أن «الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف قدم موعد زيارته لواشنطن إلى يوم السبت بدلا من يوم الاثنين (بعد غد) حتى يتمكن من السفر يوم ٢٥ يونيو إلى باريس لمدة يومين يجرى خلالهما مباحثات مع الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو ويعود إلى موسكو يوم ٢٧ يونيو».

«وهكذا كان عملي الصحفي يتطلب مني أن أتعقب الأخبار وتفاصيلها من مختلف المصادر، وكنت أعرف أن أى سبق للجريدة يعتبر عملا (مهما)، وقد بدأت تعلم صياغة الأخبار وتعقبها من عملي في وكالة أنباء الشرق الأوسط، ثم كان عملي في أخبار اليوم هو مدرستي الثانية».

. . . .

«وقد ساعدني إحسان عبد القدوس كثيرا، وساعدتني أيضا اللقاءات التي نظمها لي مع كبار المسئولين في المؤسسة».

. . . .

ربما تجدر الإشارة هنا إلى أن أحمد الجندي شقيق صاحب المذكرات كان زوجًا لأخت الأستاذ إحسان عبد القدوس.

(١١)

ومع كل هذا فإن محمد يوسف الجندي حريص على ذكر مثل صغير للطرائف الموحية بما كان عمله الصحفي يدفعه إليه من حرص على أدائه، وما كان يتسبب فيه من مشكلات طارئة مع البيروقراطية وذوى النفوذ:

«. . . أثناء زيارة لجمال عبد الناصر لموسكو، وكان الوفد المرافق له مقيما في فندق سوفيتسكايا في الطريق المسمى «لييننجراد سكايا»، وكنت أذهب إلى هناك لمعرفة الأخبار، وفي إحدى المرات كان عليّ أن أبعث برسالة إلى الجريدة، ولا أذكر الآن إن

كانت للمصور أو للأخبار، وكنت أريد أن تنشر فى الوقت المناسب، فأخذت إحدى السيارات التى خصصتها وزارة الخارجية للوفد، واتفقت مع السائق أن يأخذنى إلى المطار، وجريت إلى الباب المؤدى إلى الطائرة، ومن العجيب أنه لم يمنعنى أحد، وتوجهت إلى الطائرة المصرية وأعطيت المضيف مظروفا موجها إلى الجريدة، ثم خرجت كما أتيت وعدت إلى الفندق، وكانت مغامرة».

«وعندما عدت وجدت بعض الموظفين المرافقين لجمال عبد الناصر يوبخوننى لأننى أخذت السيارة المخصصة لوفد رئاسة الجمهورية، ولم تقنعهم الأسباب التى ذكرتها لهم، فقد كانوا فى حاجة للسيارة للمشتريات، وبعد وقت عادت السيارة بهم محملة بالبضائع».

«أخذت أنوع المادة التى أرسلها، وكان أغلبها ينشر فى مختلف صحف ومجلات أخبار اليوم (الأخبار - أخبار اليوم - آخر ساعة). كانت هناك مواد أساسية، وأخرى ثقافية، وأخبار علمية وطبية، وبعض الأخبار الخفيفة والطرائف، وكنت أجد متعة فى نشر ما أرسله، وبدأت تتم اتصالات من القاهرة، اتصل بى مرة كمال عبد الرءوف وطلب إلى جانب الأخبار أن أكتب موضوعات ومقالات، فكتبت عن زيارة الوفد الليبى وغيرها من الموضوعات كانت تنشر بالكامل، وكان يثنى عليها».

(١٢)

وفيما قبل هذا يتحدث محمد يوسف الجندى باعتزاز عن عمله فى وكالة أنباء الشرق الأوسط معتبرا هذا العمل بمثابة المدرسة الأولى التى تعلم فيها الصحافة :

«عينت مع صنع الله فى قسم مراقبة الأخبار، وكان آخر مرتب لى فى الوكالة ٤٥ جنيها، ظللت أجمع بين عملى فى الوكالة وعملى فى الدار، وساعدنى ذلك فى تحسين وضعى المالى، وتعرفت بمجتمع مختلف، ومارست العمل الصحفى بشكل منتظم، ولأول مرة أجرب الخضوع لرؤساء فى العمل، والتدرج الوظيفى، ودخلت انتخابات الاتحاد الاشتراكى فى الوكالة، ولكننى لم أنجح، وكان ذلك درسا لى، وهو أن الخطاب الانتخابى فى مجتمع الوكالة يختلف عنه بين الرفاق الذين عملت معهم حتى الآن فى العمل السرى».

«كانت الوكالة هى المدرسة الأولى لى فى العمل الصحفى. صحيح أننى عملت فى بودابست فى مجلة اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى، وذلك فى عام ١٩٥٣، ولكننى أعتقد أن المدرسة الحقيقية كانت فى «أ. ش. أ».

«وفى عام ١٩٦٩ قدمت طلبا لنقابة الصحفيين لقبولى عضوا، قبلت عضوا عاملا ولم أمر بمرحلة التمرين».

(١٣)

ونأتى إلى نوع خفيف من الاغتراب الفكرى يتمثل فى اختلاف وجهات النظر (الأكاديمية) حول الحركة اليسارية التى شارك محمد يوسف الجندى نفسه فيها، ونحن نراه يتحدث عن مناقشات فكرية دارت بينه وبين بعض المفكرين السوفيت حول الحركة الشيوعية المصرية، فيبدو أنه لا يستكين للمنهج الجاهز، أو الرؤية المسبقة، وكيف له أن يقبل هذا وقد عاش التجربة بنفسه، لكنه لم يكن متحمسا لأن يصوغ الحديث عنها بطريقة مكتوبة، حتى إنه يصل إلى الاعتراف بعدم تحمسه لإتمام الدراسة لدرجة الدكتوراه، على نحو ما كان فاقدا للحماس من قبل تجاه درجة الليسانس، وهو يعترف أن الطريق كان مفتوحا أمامه لنيل درجة الدكتوراه بعدما استمع أستاذ التاريخ له، وشجعه على تسجيل آرائه بكل ما تعنيه من مكاسب فى بلاد كمصر حتى فى العمل السياسى، لكنه تقاعس عن تحقيق مثل هذا الإنجاز:

«... وقلت إنه رغم الانقسامات والصراعات التى أضعفت دور الشيوعيين بلاشك، إلا أنه وجد دائما داخل الحركة تيار ثورى هو الذى حدد الخطوط الأساسية لدور الشيوعيين فى الحركة الوطنية، والسياسة المصرية، وتيار انتهازى كان يمثل عقبة أمام هذا الدور».

«وهذا المفهوم هو الذى قدمته فى دراسة لى عن تاريخ الحركة الشيوعية فى الأربعينيات».

....

....

ربما نتوقف هنا لنسأل عن مصير هذه الدراسة، وعن رأى أصحاب أدبيات الحركة اليسارية فيها:

. . . .

. . . .

«وقد قدمت هذه الدراسة لعدد كبير ينتمون للحزب والجامعة ومعهد الاستشراق، فلقيت تقديرا كبيرا، واقترح علىّ سيرانيان أستاذ التاريخ فى معهد الاستشراق أن أقدم الدراسة للحصول على درجة الدكتوراه، ولكننى لم أهتم بذلك، خصوصا أن الأمر كان يحتاج لإعطاء بعض الوقت والتفرغ لهذا الموضوع».

«ولم أجد أن الحصول على درجة الدكتوراه يستحق ذلك، ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت فى هذا التقدير، مع ملاحظة أن هذه الدرجات لها تقييم كبير فى بلادنا، وتساعد فى حل أمور أخرى كثيرة، بما فى ذلك العمل السياسى».

«وكانت هذه ثانى مرة أتخذ فيها هذا الموقف من الدرجات العلمية، المرة الأولى عندما كان علىّ أن أحصل على الليسانس عام ١٩٤٧، فقد كان تركيزى على الكفاح العملى يجعلنى أعطى أهمية ضئيلة للحصول على الليسانس واجتياز الامتحان الذى لم أؤده وأحصل على ليسانس الحقوق إلا بعد ذلك فى عام ١٩٦٥، والمرة الثانية كانت فى عدم اهتمامى بعرض سيرانيان».

(١٤)

ونأتى إلى الحديث عن اغتراب محمد يوسف الجندى على مستوى العائلة، وهو يتحدث عن بدء الفتور ثم التوتر فى علاقته بزوجته الأولى التى كانت قد لحقت به فى موسكو:

«. . . وصلت الأسرة فى سبتمبر، وذهبت لاستقبالهم فى مطار شيريميتفا، وكنت فى غاية القلق، وانتابنى شعور غريب، فمن شدة رغبتى فى لقائهم كنت أخشى أن يحدث شىء للطائرة فلا يصلوا، وعندما وصلوا قابلتهم بفرحة شديدة. كانت نادية قد كبرت وأصبح سنها ثمانية شهور، ويوسف حوالى (عشر) سنوات، وكنت فى غاية الشوق إليهما وإلى زوجتى، وكنت أخطط لإقامة سعيدة معهم، وكنت أخطط، كما قلت فى السابق، أن تساعدنى زوجتى، وأن تكسر فترة الوحدة التى عشتها قبل وصولهم».

«رتبنا ليوسف دخول المدرسة العربية الملحقة بالسفارة، أما نادية فقد رتبنا لها أن تلتحق بالحضانة لمدة خمسة أيام، و(نتسلمها) فى آخر الأسبوع».

«تعلم يوسف اللغة الروسية بسرعة، وكذلك نادية التى كانت تعيش مع الأطفال الروس، وكانت أول كلمات تنطقها باللغة الروسية، واستطاعت ليلى بعد ذلك أن تتعلم بعض الكلمات الروسية تتفاهم بها».

«كانت علاقتنا فى مصر بعد خروجى من السجن قد بدأت تتوتر، وبدا أن طباعنا وطريقة معيشتنا وطموحاتنا تختلف، ولم أنجح ولم تنجح فى تحقيق التوافق أو تقارب الأهداف. لم يعد يربطنا التعاون أو الترابط الأسرى، ومع ذلك كان هناك رباط وثيق بيننا هو يوسف ونادية».

«وكانت نادية تنمو أمام عينى. كنت أحبها حبا شديدا. كنت أتابع نموها، وأعمل بالمنزل وأتابع شئونها كلها، وأنتظر بفارغ الصبر حضورها آخر الأسبوع من بيت الحضانة».

(١٥)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن الظروف التى دفعته إلى أن يشرع فى زواجه الثانى مقدما المبررات له التى دفعته إلى أن يتم هذا الزواج، وهو لا يتحدث عن حتمية تتويج الحب أو الشبق أو الغرام بالزواج، وإنما هو حريص فى المقام الأول على أن يبدو وكأنه يعتذر لأسرته الأولى عن ارتباطه الثانى، ولهذا نراه يفيض فى شرح مبررات انفصاله عن زوجته الأولى:

«... سبق أن تحدثت عن الظروف غير العادية التى تم فيها زواجى الأول، والحياة السرية، وانقطاعى الطويل عن الحياة الإنسانية، والعلاقات البشرية العادية بسبب ظروف السجن، والهرب، والهجرة، والعودة السرية التى استمرت ما يقرب من عشر سنوات، وتحدثت أيضا عن ظروف زوجتى الأولى التى كانت تريد الهرب من قسوة أبيها والاستقلال عنه، وتحدثت عن الطريقة التى تزوجت بها، وإخفاء شخصيتى الحقيقية ووضعى عن أبيها وأسرتها، وكان ذلك بتوصية من ليلى زوجتى الأولى، وعندما عرف وضعى واسمى رحب بالزواج، رغم أنه تم فى البداية بشكل تآمرى».

«وبعد زواجنا لم نعش بشكل طبيعى، فقد كنت أحيا حياة شبه سرية بسبب الحكم الصادر ضدى بخمس سنوات، واستمر هذا الوضع لمدة سنة كاملة ثم أصبحت حياة اختفاء كامل بعد حملة يناير ١٩٥٩، فاتفقنا من أجل الأمان أن تترك المنزل وتعيش فى منزل والدها، ولا نلتقى إلا مرة فى الأسبوع بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة، ثم اعتقلت فى ١٢ مايو ١٩٥٩، وبقيت فى المعتقل خمس سنوات، وكانت فى هذه الفترة تعمل مدرسة فى مدرسة إعدادية، وكانت تكتب لى عن الظروف المعيشية والاقتصادية الصعبة، وكونت صداقات مع بعض زوجات المعتقلين مثل زوجة عبد الستار الطويلة، وتصادق يوسف مع ابنه الذى كان فى مثل سنه، ومع خطيبة محمد عمارة الذى كان محكوما عليه بالسجن، وكان معى فى الواحات، فكانت تأتى معها لزيارته وتعرف أخبارى، ولم يكن لى، باعتبارى معتقلا، حق الزيارة، بخلاف محمد الذى كان مسجونا، وكنت أعرف من محمد عمارة أخبارها وأخبار يوسف، وكان لها أصدقاء مثل صلاح جاهين، وسيد مكاوى، وسيد حجاب وغيرهم».

«ورغم الظروف غير العادية التى تزوجنا فيها وعشناها معا، فقد أحسست فى المعتقل بأن لى زوجة وأسرة أفتقدها وأحبها، وأريد الخروج من السجن لبناء حياة أسرية طبيعية لم أتمتع بها بعد، وكانت تراودنى الأحلام والآمال بقيام هذه الأسرة».

«وبعد الإفراج عنى بدأت لأول مرة بعد أكثر من خمسة عشر عاما أحاول الحياة بشكل طبيعى باسمى الحقيقى، وعلاقات علنية بالمجتمع والناس، وبدأت أرتب حياتى الجديدة».

(١٦)

ثم يعاود محمد يوسف الجندى الحديث عن هذه الفكرة بأسلوب آخر يعبر عن شعوره العميق بالاغتراب على الرغم من وجوده فى وطنه، وبين أسرته، وهو يحاول أن يوازن فى أحكامه بين عيوبه هو نفسه وعيوب الطرف الآخر:

«. . . كنت متشوقا لحياة أسرية هادئة يسودها التعاون، وأن أشترك مع زوجتى فى بناء هذا الأسرة من جميع النواحى، وصدمت بأن ما أملت فيه لم يتحقق».

«هذا لا يعنى أننى أخلو من السلبيات، وأنه لا مسئولية علىّ فى فشلنا للحفاظ على هذه الأسرة، خصوصا بعد أن رزقنا فى يناير ١٩٦٩ بابنة جميلة ووديعة سميناها «نادية»، ولكننا لم نستطع رغم المحاولات الإبقاء على استمرار تلك الأسرة، مع ما يترتب على ذلك من آثار سلبية على الأبناء».

«بعد مولد نادية بأسبوع سافرت إلى موسكو وانتظرت حتى سبتمبر لمجيء الأسرة، وكنت أنتظر وصولها، وتوقعت فى موسكو أن نعيش حياة فيها نوع من التعاون والاستقرار، ونعالج السلبيات التى كنت أعانيها فى مصر».

(١٧)

وحين يتحدث محمد يوسف الجندى عن طريقة تعرفه على زوجته الثانية الروسية، نراه حريصا على أن يروى لنا كيف تعرف على أسرتها، وهو يسهب فى ذكر محاسنها، ويعدد المزايا التى كانت تتمتع بها هى وأسرتها:

«. . . وتعرفنا بعدد من المبعوثين، وبعدد من الروسيات، تميزت من بينهن فتاة أنهت الجامعة وأصبحت مهندسة كيماوية، وكانت فتاة شديدة الحيوية والنشاط. كانت شديدة الحب للأطفال، وتعلقت بها نادية ابنتى التى كانت فى البداية لا تتكلم إلا الروسية التى تعلمتها فى دار الحضانة، وزرنا أسرتها وتعرفنا على أبيها وأمها وأخيها، وعرفنا معها المسارح، والباليه الروسى، وعلمتنا التزحلق على الجليد، وأصبحنا نحب الشتاء الروسى، وموسكو جميلة فى الشتاء رغم أن درجة الحرارة تصل إلى ٣٠ تحت الصفر وأقل من ذلك، وأحيانا تصل إلى ٤٠ تحت الصفر».

«وأصبحنا أصدقاء لهذه الفتاة ولأسرتها، نزورها وتزورنا، وكان تسكن فى حى يدعى «اسماعيلوفا» تحيطه الغابات، وكانت تقطن فى الدور الخامس فى شقة من ثلاث حجرات ومطبخ وحمام، أو حجرتان وصالة حسب العرف المصرى، وتقول إنها فى طفولتها كانت تسكن فى شقة أخرى مع عدد من الأسر الأخرى، وكانت مدينة موسكو مغلقة على سكانها، ولا يسجل بها قاطنون جدد إلا مَنْ يتزوجون من أهلها، أو يعملون بها، وكان سكان موسكو حوالى ١٠ ملايين نسمة، وحجمها أكبر من

القاهرة، ولولا هذه القيود المفروضة على المسجلين بموسكو لضاقت بسكانها، وكانت هناك عملية بناء مستمرة فى موسكو وضواحيها، ولكل أسرة تاريخ معين، وشروط معينة لتنتقل إلى شقة مستقلة فى ارتباط ببناء مساكن جديدة، وبهذه الطريقة قضوا على أزمة السكن، فلا أحد بلا سكن، ولا أحد ينام على الأرصفة كما نجد فى البلاد الأخرى حتى أكثرها تقدما مثل لندن، وباريس، ونيويورك وغيرها».

«كان كل أفراد أسرة نادية أو ناديجدا يعملون، الأب والأم يعملان فى المصانع، والأخ يعمل سائقا، ونادية تعمل فى إحدى المؤسسات، وكانت الوحيدة فى الأسرة التى حصلت على شهادة جامعية، والروس يطلقون على مَنْ تسمى «ناديجدا» اسم نادية، وينطقونه بشكل مختلف بعض الشيء عنا، فيطيلون نطق المقطع الأول «ناد» ويخطفون المقطع الثانى، وبفضل هذه الفتاة تعرفنا جيدا على موسكو وحياتها الثقافية (المسارح ـ الباليهات ـ المتاحف . . إلخ)، وتعرفنا على جمالها الطبيعى (غاباتها ـ أنهارها ـ بحيراتها . . إلخ).

«وكانت الأسرة رغم بساطتها ومحدودية دخلها شديدة الكرم، إذا ذهبنا لزيارتها أفرغوا الثلاجة وقدموا كل ما عندهم، ويكونون سعداء بوجودنا، ويأكلون ويشربون معنا وهم يلقون كلمات التحية والترحيب والتمنيات الطيبة على عادة الروس».

. . . .

. . . .

(١٨)

ويتحدث محمد يوسف الجندى فى حياء عن الظروف التى ساعدت على تطور معرفته بزوجته الثانية:

«توثقت العلاقات بينى وبين نادية، وطلبت منى أن أساعدها فى تعلم اللغة الفرنسية، وكانت تأتى إلينا أسبوعيا فى مواعيد منتظمة، أما علاقتى بليلى فأخذت تزداد فتورا، ووصلنا إلى وضع توقفت فيه علاقاتنا، وسافرت إلى مصر وتركت لى نادية، وكانت فى الرابعة من عمرها، ويوسف كان فى الثالثة عشرة من عمره».

«وأثناء وجود ليلى (أى زوجته الأولى) فى القاهرة مرضت ابنتى نادية بالأنفلونزا وارتفعت حرارتها إلى الأربعين، فاستعنت بالصديقة الروسية نادية فلم تتركها وقدمت لها كل أنواع العلاج الشعبى الذى يتقنه الروس، واستمرت ثلاثة أيام إلى أن شفيت تماما».

(١٩)

ويقدم محمد يوسف الجندى حديثا مجملا عن العوائق التى قامت فى سبيل إتمامه زواجه من زوجته الثانية، دون أن يشغل نفسه بعقد المقارنات بين حالتهما وبين الظروف المشابهة فى أية دولة غربية يمكن فيها إتمام مثل هذا الاقتران بسهولة ويسر:

«. . . كل هذه العوامل جعلتنى أفترق عن زوجتى الأولى ليلى وأرتبط بنادية الروسية، واتخذت الخطوات للارتباط بها بالزواج، وهو الأمر الذى لاقيت فى سبيله صعوبات كثيرة، سواء من البيروقراطية السوفيتية، أو أجهزة الأمن المصرية، فالإدارة السوفيتية كانت تتطلب للموافقة على الزواج موافقة دولة الزوج، أى المباحث العامة التى كانت ترفض الموافقة، وتوصلت فى وزارة الخارجية إلى معرفة التأشيرة التى برروا بها رفضهم «أن المصريين الذين كانوا متزوجين من مصريات وكان لهم منهن أولاد لا يسمح لهم بالزواج من بنات الكتلة الشرقية خاصة، حفاظا على روابط الأسرة!».

«ولكن كل هذه العراقيل، سواء من البيروقراطية السوفيتية، أو تعنت أجهزة المباحث لم تمنعنا من الزواج الفعلى، ولم تستطع هذه العراقيل غير المفهومة وغير الإنسانية أن تقف فى طريقه، وأثمر هذا الزواج الابنة «أناستاسيا» فى ٤ فبراير ١٩٧٤».

«واحتاج التغلب على العقبات البيروقراطية والبوليسية إلى حوالى تسع سنوات حتى أمكن لزوجتى نادية وابنتى أناستاسيا أن تحصلا على تأشيرة للحضور إلى مصر».

(٢٠)

ثم يقدم محمد يوسف الجندى بعض عبارات المديح المتزن فى وصف سجايا زوجته الثانية التى جعلت اقترانه بها يحس بالتوافق الفكرى والنفسى، وكأنما عوضته غربته فى روسيا بهذا الاقتران الجميل:

«. . . وقد وجدت هذه الإنسانة بزواجى الثانى، فنحن نلتقى تماما فى فهمنا للحياة، وتحديد أهدافنا منها، ونحن لا نبحث عن المادة والغنى، ورغم أنها لا تشتغل بالسياسة ولا تهتم بها إلا أنها يمكن أن تعيش وتتكيف فى أى ظروف، وهى تحب الناس، وتحب مساعدتهم حسب قدراتها فى غير إسراف، وهى حريصة على بيتها، وتعمل على جعله مكانا مريحا جميلا، مدبرة وتستطيع توفير الحياة الكريمة بأى مبلغ مهما كان قليلا، وتتفهم الظروف المادية الصعبة التى نعيشها، وتقدر وتتفهم التزاماتى العامة التى تأخذ الجزء الأكبر من دخلنا الضئيل أصلا».

«وهى مع ذلك ليست مستكينة، بل تجد حلولا لكثير من المشاكل الحياتية».

«وهى تحب العمل، وتعمل طول اليوم، إذا طلبتها لعمل معين خارج المنزل قامت به على أحسن وجه، وقد جربتها فى أثناء المعارض فكان إنتاجها يساوى عددا من العاملين مجتمعين من حيث السرعة والإتقان».

«ليست لها متطلبات خاصة إلا أن يكون بيتها وزوجها وابنتها فى أحسن حال، وهى تعمل فى البيت مادمت لا أطلبها للعمل فى الخارج، ومع ذلك فيومها كله عمل مستمر، وتحل المشاكل المعيشية بأقل التكاليف، وقد أكبرت فيها موقفها من أمها التى تعدت الثمانين، فرغم أنها تعيش بعيدة عنها فى موسكو، فهى تفكر فيها وتعمل على مساعدتها، وتشعر بالتزامها تجاهها، وتعمل على حل مشاكلها وهى بعيدة عنها، حاولت مرات إقناعها لكى تعيش معنا فكانت الأم ترفض لأنها تريد أن تموت فى وطنها».

«كل هذا وغيره من الصفات الجميلة قوى من روابطنا وحبنا، كل يوم أكثر من اليوم الذى سبقه».

(٢١)

ثم يتحدث محمد يوسف الجندى عن حضور زوجته الروسية وابنتهما إلى مصر، وهو يكرر التعبير عن إحساسه بالقهر تجاه تأخر موافقة مباحث أمن الدولة على زواجه، كما يكرر الانتقاد والتعجب من كل ما كان يمثله هذا من تعقيد إجراءات قدوم زوجته إلى مصر، ومن تأخير لم شمل أسرته الجديدة (!):

«. . . بعد عشر سنوات من الزواج نجحت زوجتى نادية وابنتى أناستاسيا فى الحضور إلى مصر من موسكو، وقد تطلب ذلك جهودا مضنية تخللتها اعتقالات وسجن أعوام ١٩٧٧، و١٩٧٩، و١٩٨١، وكانت التعقيدات التى تعترض تحقيق ذلك تأتى من مباحث أمن الدولة فى مصر، ومن الإجراءات البيروقراطية فى الاتحاد السوفيتى».

«وكانت زوجتى تراسلنى فى هذه الفترة وتبعث إلىّ بصور ابنتى وأخبارها وتطورها، والمشاكل التى تواجههما بعيدا عن الزوج والأب، وكيف حرصت على الاهتمام بتربيتها وقد أدخلتها دار الحضانة، ثم روضة أطفال، ثم المدرسة الداخلية، وكانت تأخذها فى نهاية الجمعة حتى صباح الاثنين وترسلها فى الصيف إلى مخيمات الأطفال، أو تذهب معها إلى أحد المصايف السوفيتية التى كان يمتلئ بها الاتحاد السوفيتى، وأدخلتها مدرسة تتعلم فيها اللغة الإنجليزية كلغة إضافية، وكانت تبعث لى بكل أخبارها، وبالتطور الذى تمر به فى مراحل عمرها، وكانت زوجتى تعمل فى إحدى المؤسسات السوفيتية».

(٢٢)

ويمضى صاحب المذكرات فى هذا الحديث الكاشف عن دور البيروقراطية فى حياة المواطنين الشخصية.

«. . . وكان اسم زوجتى قبل الزواج ناديجدا ميخائيلوفنا كورونكوفا، فغيرت اسم العائلة إلى الجندى فأصبح اسمها ناديجدا ميخايلوفنا الجندى، ويطلق الروس عادة اسم نادية اختصارا على مَنْ يسمون ناديجدا، رغم أنهم ينطقونه بطريقة مختلفة فيركزون على المقطع الأول، ولهذا لم يكن اسمها غريبا علينا هنا فى مصر».

«وحسب إجراءات الجوازات السوفيتية يتمتع السوفيت بباسبور داخلى، وهو يوازى البطاقة الشخصية عندنا، وجواز سفر خارجى يمكنها من السفر إلى البلاد المدونة عليه، ولم يكن من السهل لأى شخص الحصول على جواز سفر خارجى إلا إذا كان مسافرا لسبب معلوم، ولم يكن ليعطى للكافة، ومنذ عام ١٩٧٨ حصلت نادية على جواز سفر خارجى للحاق بأبى ابنتها، أما إجراءات الزواج الرسمى فكانت

معقدة، فكانت الأنظمة البيروقراطية فى الاتحاد السوفيتى تتطلب الحصول على موافقة بلد الزوج، وكنت قد عقدت زواجا إسلاميا فى جامع موسكو، ولكن هذا لا يكفى، فلا يعترف إلا بالزواج المدنى أمام موثق الزواج، وموافقة بلد الزوج تعنى موافقة مباحث أمن الدولة، وكانت هنا المشكلة».

(٢٣)

ويفيض محمد يوسف الجندى فى الحديث عن تفصيلات حياة زوجته الروسية فى القاهرة، وتأقلمها مع الحياة فى القاهرة بكل ما فيها من مصاعب أو اختلافات عن الجو الذى عاشت فيه طيلة حياتها من قبل:

«وصلت نادية وأناستاسيا إلى القاهرة فى يناير ١٩٨٣، وقدتهما إلى الشقة التمليك التى كنت قد استلمتها حديثا فى مدينة نصر، وكنت قد انتقلت إلى هذه الشقة عام ١٩٨٢، وكان علىّ أن أفرشها، وكانت عندى ثلاجة إيديال اشتريتها بعد الانفصال عن زوجتى الأولى، وساعدنى أخى أحمد فى شراء غرفة نوم، واستبدلت بعض الأثاث المستعمل من شحاتة هارون مقابل سجادتين صينيتين كنت قد اشتريتهما من موسكو، واشتريت من أختى عايدة أثاث مطبخ كانت تريد التخلص منه، وهكذا جاءت نادية وأناستاسيا على أثاث متواضع، كان علينا أن نستكمله بالتدريج، وكنت قد أعددت لهما عند حضورهما دجاجة وأرزا، وبدأت نادية تتولى أمور المنزل، سواء من حيث إعداد الطعام، أو تنظيف المنزل، وفوجئت أنها تمتلك كفاءات كبيرة فى هذا المجال، ولم ألاحظ ذلك فى بيتها فى موسكو حيث كانت تعمل طول اليوم، وكانت أمها تتولى هذه المهمة».

«يضاف إلى ذلك أنها لم تكن تعرف كلمة واحدة باللغة العربية، لكنها كانت تحرص على النزول لشراء احتياجاتنا اليومية، وتستخدم فى ذلك الإشارة، وهناك جمعية تعاونية أمام المنزل وأرادت أن تشترى لحما ووجدت طابورا أمام الجمعية فوقفت فى الطابور انتظارا لدورها فجاءها العامل فى المحل وسألها عما تريد فأشارت له إلى اللحم فأحضر لها ما تريده، فلم ير من قبل سيدة أجنبية تقف فى الطابور».

«وبدأت هى وأناستاسيا تحاولان تعلم اللغة العربية، وأحضرنا كراسة تدونان فيها الكلمات وجمل المحادثة الضرورية».

«وعند حضورها صدمتها قلة الأماكن الخضراء فى الشوارع بالمقارنة مع الاتحاد السوفيتى، وصدمتها أيضا القمامة أمام المنازل، وفى الشوارع، لكنها أخذت تتأقلم شيئا فشيئا».

. . . .

. . . .

(٢٤)

نأتى أخيراً إلى حديث صاحب المذكرات عن غربة الوطن، حيث يتحدث محمد يوسف الجندى عن مواجهته الواقع فى موسكو بعدما كان فى ذهنه من توقعات مثالية عن مجتمع موسكو، وهو يلخص ما رآه من أزمات فى بعض المواد التموينية، ومن مظاهر الفساد والبيروقراطية فى الإدارة الحكومية، ثم يتحدث عن بعض مشكلات الحياة الاجتماعية وكثرة الإدمان وما يسببه من مشكلات زوجية:

«. . . كانت لدى فكرة مثالية عن الاتحاد السوفيتى، وكنت قد عشت فى المجر من قبل ورأيت الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية للنظام هناك، وكنت أتصور الاتحاد السوفيتى فى مستوى أفضل من المجر، لكن بعض الأشياء الصغيرة أثارت دهشتى».

«فمثلا فى الأيام الأولى أردت شراء «بشكير»، فكان علىّ أن أبحث فى جميع المحلات، وكان الرد: لا يوجد، أو لا يتواجد، وسألت بعد ذلك بعض الأصدقاء فقيل لى إن هذا يحدث كثيرا، إذ تختفى سلعة ما من السوق ثم تتواجد بعد فترة، وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك، وعجبت أن يخلو هذا البلد الكبير العظيم، الدولة العظمى الثانية فى العالم من بشكير، ومع ذلك لم يكن هناك بيت يخلو منه، والحقيقة أنه كان ينزل إلى الأسواق فى فترات مختلفة مثل باقى السلع فيتخاطفه الناس».

«ثم بدأت أصطدم بعد ذلك بالكثير من مظاهر البيروقراطية والفساد (الرشوة)، وكان لدينا موظف إدارى فى دار التقدم إذا أعطيته الهدايا، وهى فى العادة زجاجات من الكحوليات، فإنه يحل كل المشاكل المستعصية، وبدون ذلك يتكاسل ولا يفعل شيئا، وسمعت بعد ذلك من الطلبة الذين يدرسون هناك أن زجاجات الفودكا أو الويسكى هى الطريقة السحرية لحل كل مشاكلهم مع موظفى وزارة التربية والتعليم».

«ومن المظاهر السلبية التى رأيتها، العدد الكبير من السكارى فى الشوارع، وفى المواصلات، وسمعت أن بعضهم ينام فى الشوارع، ويتجمد فى كثير من الأحيان من برد الشتاء القارس».

«وكنت أسمع عن المشكلات الأسرية الكثيرة التى يسببها إدمان الخمر عند الرجال الذين يذهب بعضهم إلى العمل فى الصباح وهم سكارى، وفضلا عن أن ذلك كان يؤدى إلى فشل كثير من الزيجات، فإنه كان يؤثر أيضا بالسلب على الإنتاج».

«وأحيانا عندما أقف فى الطوابير أمام المحال لشراء حاجياتى ألاحظ اثنين من الرجال يتفقان على شراء زجاجة فودكا مناصفة».

(٢٥)

ويتحدث محمد يوسف الجندى بالقدر ذاته من النقد الخفيف عن معاناة المرأة فى مجتمع الاتحاد السوفيتى:

«وأحيانا قليلة كنت أجد امرأة أو أكثر فى حالة سكر، ولكنها كانت حالات نادرة بالمقارنة بالرجال».

«ومن الملاحظات الطريفة التى لاحظتها، وهو الانطباع بأن النساء هن وحدهن اللاتى يعملن. ففى المحال، وفى الإدارات المختلفة، وفى وسائل النقل، وفى تنظيف الشوارع أجد النساء يعملن، ونادرا ما أجد الرجال، وكان يقال لى إن الرجال فى المصانع، وفى الأعمال الصعبة، أما الخدمات فتقوم بها النساء فى الغالب، لكننى وجدت نساء يقمن بأعمال صعبة مثل عمليات البناء».

«ومن السلبيات أيضا أننى كنت أجد بعض الأماكن الطبيعية الجميلة تكاد تخلو تقريبا من الخدمات، فلا توجد مثلا كازينوهات، أو مقاه على الشاطئ، أو فى الغابات لخدمة الزائرين، والسبب أن الدولة كانت تقوم بكل شىء، ولم تكن إمكانيات الدولة ولا أولوياتها تتسع لمثل هذه المشاكل الصغيرة (المهمة)».

obeikan.com

(٢٦)

ومن الجدير بالذكر أن محمد يوسف الجندى كان حريصا على أن يسجل باعتزاز إيجابيات الحياة فى الاتحاد السوفيتى، على الرغم من انتقاداته لبعض مظاهرها، وهو يعدد مزايا الحياة فى الاتحاد السوفيتى فيتحدث عن التأمين الاجتماعى، والصحى، ورخص الحياة فى المصيف، والمواصلات، والتعليم وكافة الخدمات، وهو يلخص الفارق فى الحياة بين موسكو وغيرها من العواصم الأوروبية فى الدول الرأسمالية:

«ورغم هذه السلبيات فقد كنت متأكدا أن النظام هناك أفضل من النظام عندنا، وأفضل أيضا من البلاد الرأسمالية الأخرى، وكنت قد عشت فى باريس، وزرت لندن وغيرهما من العواصم الرأسمالية. كانت الميزة الأساسية التى كان يشعر بها الإنسان فى موسكو وفى البلاد الاشتراكية الأخرى، هى الشعور بالأمان، فعند المرض هناك علاج مجانى وعام وجيد، وهو الأمر الذى كنت أفتقده فى بلادنا حيث الطب تجارة، وقد يشكو المواطن السوفيتى العادى أنه لا يستطيع مغادرة البلاد عندما يريد، ولكنه يجد العمل دائما، ويضمن معاشه عندما يبلغ الستين للرجال، أو الخامسة والخمسين للنساء، ويجد دائما مأوى بسعر رمزى ولا يهدد أبدا بأن ينام فى الشارع، ويستطيع أن يمضى إجازته فى مكان جميل على الشاطئ، أو فى الجبال بين الخضرة والغابات الجميلة بسعر رخيص. المواصلات لا تكلفه إلا أجرا زهيدا. بيوت الحضانة ورياض الأطفال منتشرة فى كل مكان، ويستطيع بسهولة أن يبعث بأطفاله إليها ويأخذهم آخر اليوم أو آخر الأسبوع، وهذا ما فعلناه مع نادية ابنتى، حيث كانت تمكث طوال الأسبوع مع الأطفال فى بيت الحضانة ونأخذها فى آخر الأسبوع، وأرسلنا يوسف فى الصيف إلى مخيم للرواد خارج موسكو فعاد بانطباعات رائعة، وكون صداقات، وتعلم التحدث باللغة الروسية، وذهب مرة أخرى إلى مخيم أرتيك مع محمد ابن أختى، الذى حضر إليه من القاهرة بدعوة منا، ومازالت لديهما أجمل الانطباعات عن هذا المخيم».

(٢٧)

وينظر محمد يوسف الجندى إلى الأمور الحياتية نظرة منصفة للتجربة السوفيتية:

«كانت أسعار الحاجيات الأساسية رخيصة للغاية: المواصلات ٥ كوبيك.. السكن بأجر رمزى.. الكتب بأقل الأسعار، وكذلك الأسطوانات، فكنت تستطيع شراء

أسطوانة لبيتهوفن أو باخ أو تشايكوفسكى أو غيرهم من كبار الموسيقيين العالميين بأرخص الأثمان. التذكرة فى مسرح البولشوى، حيث تقدم أرقى الباليهات العالمية، سعرها فى مقدور أى شخص، وكذلك الحال فى غيره من المسارح».

«تتحدث الصحف عندنا كثيرا عن الطوابير أمام المحال، ورغم الجانب السلبى لهذه الطوابير إلا أنها تعكس من ناحية أخرى ارتفاع القدرة الشرائية لدى الجماهير، فلم تكن السلع حكرا على مَنْ يقدر على الشراء. كان الكثير يشكو بأن بعض سلع الترف الموجودة فى الغرب غير موجودة فى موسكو أو غيرها من المدن السوفيتية، ولكن المواد والحاجيات الأساسية كانت موجودة دائما، وبأرخص الأسعار، وكان أى عامل يستطيع شراءها، وكانت مساحة السلع التى تتوافر تتزايد باستمرار بما فى ذلك سلع تنافس مثيلاتها الغربية مثل أجهزة الراديو، والسيارات والأدوات الكهربائية وغيرها من السلع».

. . . .

. . . .

وهو فى نهاية الأمر يبلور رأيه هذا فى عبارة واحدة تبدو موحية على الرغم من أنها تقليدية تماما:

«لم تكن تجد فى موسكو أو غيرها من الأماكن فى الاتحاد السوفيتى تلك الفروق الشاسعة فى مستوى المعيشة».

(٢٨)

وتدلنا انطباعات محمد يوسف الجندى عن زيارته الأولى للولايات المتحدة على الحس الصادق فى تصوير الفارق الكبير بين نسق الحياة فى الولايات المتحدة والعالم كله، ومع أن بعضا من أنماط الحياة الأمريكية قد قدر له أن يسود حياتنا المصرية الآن مثل عمل التليفزيون بلا انقطاع، فأنت تستطيع أن تتخيل الأثر الذى أحدثته هذه الحياة على صاحبها الذى عاش فى الاتحاد السوفيتى وفى مصر من قبل حياة يسودها نمط مختلف من الإحساس بالحرية والإنسانية، ووطأة الحكومة، وطبيعة السوق، وهو يعجب

لشرب الأمريكيين للبن فى كل وجبة، كما يعجب لمهاجمة الرئيس الأمريكيين فى تليفزيون بلاده:

«... استلمت مفتاح حجرتى فى الفندق، وظللت لفترة طويلة أشاهد التليفزيون الذى يعمل بلا انقطاع، وكان البرنامج يدور حول نيكسون والووترجيت والانتقادات المستمرة، وكان أمرا لم أعتده أن يهاجم رئيس الدولة فى التليفزيون. نمت فى ساعة متأخرة، وفى الصباح نزلت إلى حمام السباحة حيث قمت برياضتى المعتادة، ونزلت إلى الحمام حيث سبحت بعض الوقت ثم أخذت دشا ولبست ملابسى ونزلت لتناول الإفطار، وكانت المائدة مفتوحة أختار منها ما أريد، وبعد الإفطار قمت باتصالات تليفونية».

....

....

«... واشتريت بعض الحاجيات البسيطة، وبعض الهدايا. اشتريت لنفسى قميصين بأكمام قصيرة، القميص بدولار واحد، مازلت أستعملهما حتى الآن رغم مضى أكثر من عشرين عاما على شرائهما».

«كنت أتناول طعامى فى مطاعم الخدمة الذاتية، وعجبت أن كثيرا من الأمريكيين يتناولون اللبن كشراب مع الغداء أو العشاء».

....

....

«أعجبتنى واشنطن ووجدتها مدينة خفيفة الظل».

(٢٩)

أما حديث محمد يوسف الجندى عن عمله فى هلسنكى (عاصمة فنلندا) وعن انطباعاته عنها فيحفل بما يسارع به من إثبات شعوره بوفرة البضائع، وسهولة الحياة وراحتها، لكنه مع ذلك حريص على الإشارة إلى افتقار هذه الحياة إلى النكهة، وهو يعقد مقارنات متميزة يجعل لموسكو فيها مكان التفوق:

«. . . كان العمل روتينيا، وكنت أذهب للمكتب فى الصباح فى وسط البلد وأمضى الوقت فى العمل حتى الخامسة بعد الظهر، وكنت أمضى الوقت بعد العمل فى المنزل، أو أذهب إلى مكان قريب أمارس الساونا والسباحة، وأحيانا أذهب إلى السينما أو أتجول فى المدينة، وعلى خلاف الوضع فى موسكو كانت المحال مليئة بالبضائع من كل الأنواع، وفى عودتى إلى المنزل كنت أشترى كل ما كنت أريده من أنواع الطعام الذى لم أكن أجده فى موسكو، وأذكر فى زيارة لعبد الملك خليل أن طلب منى أن نذهب إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام الجنسية التى كانت تمتلئ بها دور السينما، وهى من الأفلام التى لم تكن تتوافر لنا رؤيتها سواء فى الاتحاد السوفيتى، أو مصر، وفى أثناء مشاهدة الفيلم تحدث معى ساخرا للمقارنة بين الحياة فى فنلندا والحياة فى الاتحاد السوفيتى، وكان يرى أن الحياة فى فنلندا أفضل بكثير، فمستوى المعيشة أفضل، والتقدم أفضل».

«وكانت الحياة فى هلسنكى سهلة ومريحة، وكل شىء متوافر، لكنها كانت تفتقر إلى «نكهة» و«حياة» أتمتع بها فى موسكو، والحياة بين الروس، ففى موسكو تشعر بالناس، وبنبض الحياة، وبالمشاعر الإنسانية التى كانت هلسنكى تفتقر إليها، وفى هلسنكى كنت أحس أننى معزول عن العالم، وهو الأمر الذى لم أشعر به أبدا فى موسكو، ففيها كنت على ارتباط بالحياة السياسية والثقافية، وكنت أحس فيها أننى قريب من مصر، ولم تنقطع عنى أخبارهم، ولم يكن ذلك يرجع فقط إلى معرفتى باللغة، ولكن إلى أن المجتمع فى موسكو كان أكثر ثراء من جميع النواحى».

«وفى مرة وحيدة فى أثناء عملى فى هلسنكى عقد مؤتمر دولى، وجاء وفد من مصر اشترك فيه أحمد بهاء الدين، وتحسين بشير، وبخلاف ذلك لم أكن ألقى مصريين أو عربا خلاف مَنْ كانوا يعملون معى فى المجلس».

(٣٠)

ثم يعود محمد يوسف الجندى إلى الحديث عن بعض أوجه أفضلية هلسنكى على موسكو، ذاكرا بكل تواضع (وإن لم يقترن هذا التواضع بالامتنان الواجب لهلسنكى) كيف هيأت له الظروف اليسيرة شراء سيارة انتقل بها إلى موسكو ثم جاء بها إلى مصر !!:

«ومع ذلك فمن الناحية المادية كان وضعى أفضل كثيرا مما كنت فيه فى موسكو، بحيث إننى فى مدة عملى التى لم تكن تزيد على ثلاثة شهور استطعت ادخار مبلغ استطعت منه شراء سيارة مستعملة عند عودتى إلى موسكو، وذلك حين وجدت فى البريد عرضا من أحد الدبلوماسيين الآسيويين يعرض فيه بيع سيارة بمبلغ كنت قد استطعت ادخاره فى تلك الفترة، وكانت سيارة فولكس «حمراء»، ولم أكن فى حاجة إلى سيارة فى موسكو، ولكن زوجتى كانت تلح علىّ دائما بأن أشترى سيارة، ولم أكن قد تعلمت قيادة السيارات، فاتفقت مع سائق روسى يعمل عند أحد الدبلوماسيين فى السفارة المصرية لتعليمى القيادة، وعند سفرى إلى القاهرة كان هو الذى قاد السيارة إلى مرسيليا وقام بإجراءات شحنها إلى الإسكندرية».

(٣١)

ونأتى إلى حديث محمد يوسف الجندى عن الفترة التى عاشها فى براغ فنجده يشعر بالراحة من الاغتراب بعض الشىء، وهو يتحدث عن سهولة اللغة فى تلك المدينة وقربها من اللغة الروسية، وهو يرى فى العامل اللغوى انتصارا على مشكلات العامل النفسى المتمثل فى العلاقة المتوترة بين الروس والتشيك بسبب أحداث ١٩٦٨:

«... كانت الظروف فى براغ ملائمة لزوجتى لأنها كانت قريبة من موسكو وتستطيع الاتصال بوالدتها بسهولة أكبر، فضلا عن أنها لم تكن تشعر بالغربة لأنها فى المجلة كانت تلتقى بالعديد من الروس الذين يعملون هناك وتصادقت عليهم».

«ورغم أن التشيك لم يكونوا يحبون الروس (بسبب التدخل الذى قام به حلف وارسو عام ١٩٦٨ أثناء ما عرف «ربيع براغ» الذى قاده دوبتشيك قائد الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى ذلك الوقت)، فإن لغتهم قريبة من اللغة الروسية التى لم يكن من الصعب التعامل بها فى المحلات التجارية».

«وأمكننا أن نحضر ابنتنا أناستاسيا من موسكو إلى براغ لوجود مدرسة روسية هناك، بعد أن أنهت السنة الدراسية فى موسكو فى يونيو، وذهبت إلى موسكو والتقيت بابنتى وسافرنا بالقطار إلى براغ، وفى محطة براغ كانت زوجتى تنتظرها،

فعندما نزلت من القطار جرت إليها فى انفعال وتعثرت ووقعت على الأرض وقامت وتعانقتا فى شوق. كنا قد انتقلنا للسكن فى حى يسمى «بوهنيتسا»، أدخلنا ابنتى المدرسة الروسية وكونت هناك صداقات مع طالبات روس وتشيك».

«كانت الحياة سهلة فى براغ. كانت تأتى للمنزل فى الثامنة إلا الربع صباحا سيارة مكيروباص تابعة للمجلة تنقلنى إلى العمل، وكانت زوجتى تساعدنى عند الضرورة فى الأعمال الإدارية، وكانت تساعدنى فى تحرير المواد التى أحتاج لكتابتها باللغة الروسية».

(٣٢)

وسوف نكون مقصرين فى حق القارئ والتجارب الإنسانية إذا ما أهملنا الحديث عن تجربة المرض التى اجتازها محمد يوسف الجندى وهو مقيم فى العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ، وكيف مر بمراحل متعددة من المرض بدءا من نزيف المخ، ثم اكتشاف السكر، ثم احتباس البول، ثم عملية البروستاتا، ثم العلاج الطبيعى، ثم العلاج فى مصحة، ومع أنه يحكى تجربته بمكانيكية شديدة فإنه يتحدث بامتنان وتقدير للنظام الطبى ونظام التمريض، وإتاحة العلاج المجانى، مما كان العهد به قائما فى هذه الدول الاشتراكية التى حافظت على البعد الاجتماعى فى سياساتها الخدمية لفترة طويلة:

«. . . وسافرت إلى القاهرة أكثر من مرة، وفى المرة الأخيرة، وكان فاروق ثابت يوصلنى بسيارته إلى المطار، صدمتنا سيارة مسرعة من الخلف وارتطم رأسى بمقدمة السيارة، ويبدو أننى أصبت بغيبوبة للحظة ثم شعرت بألم فى بطنى، وواصلت السفر إلى براغ وأنا متعب، وفى اليوم الثانى ذهبت للطبيب الذى حولنى للمستشفى ومررت بعدد من الفحوص، وعند خروجى من المستشفى قال الطبيب إننى أصبت بارتجاج فى المخ ويجب أن أحذر القراءة الكثيرة، أو الإفراط فى مشاهدة التليفزيون، أو الإجهاد فى العمل الفكرى لفترة من الوقت، ويبدو أننى لم أستطع مراعاة ذلك، فاستمر عملى، وبعد حوالى شهر شعرت بصداع مستمر فى رأسى وأخذت الحالة تسوء، وكان يسكن فى نفس المنزل فى الطابق العلوى أحد الزملاء الفلسطينيين من الأردن فى

المجلة، وهو طبيب، كشف عليّ واتصل بالمستشفى الذى أرسل سيارة إسعاف أخذتنى إلى هناك، وبعد الفحوص أخبرنى الطبيب أن هناك نزيفا فى المخ، وأنه يجب إجراء عملية جراحية فورية».

«فى اليوم الثانى قامت إحدى الممرضات بحلاقة شعرى، وقام أحد كبار أطباء المخ بإجراء العملية. بعد إجراء العملية كنت فى غرفة الإنعاش وعندما أفقت من البنج سألت الممرضة التى كانت تسهر إلى جانبى: لماذا لم تجر العملية؟ قالت: إن العملية أجريت».

«جاءت زوجتى لزيارتى. بقيت بعض الوقت فى غرفة الإنعاش وقال الطبيب إنهم اكتشفوا أن السكر مرتفع، وأخذت الممرضات يحقننى بالأنسولين ومنعوا عنى السكريات التى أعشقها، ثم نقلت من الإنعاش إلى غرفة مع أحد الفلسطينيين، وبدأت أشعر باحتباس فى البول، وقال الطبيب إنه نتيجة تضخم فى البروستاتا، وكنت أعانى من التضخم منذ فترة، ولكن لم أعان من احتباس البول إلا بعد العملية، فقد وضعوا لى قسطرة للبول قبل العملية ونزعتها الممرضة بعد العملية، ويبدو أنها نزعتها دون استشارة الطبيب، فقد سمعته بعد ذلك يتشاجر معها ويعنفها، وبعد ذلك أصبحت أتبول بصعوبة، ففى الليل كنت أذهب إلى دورة المياه كل ١٠ دقائق أو ١٥ دقيقة، وينزل قليل من البول».

«فى الصباح شكوت للطبيب الذى استدعى إخصائى المسالك البولية الذى قال إنه سيبذل محاولات باستعمال بعض الأدوية إن لم تنجح فسيضطر لإجراء عملية جراحية لاستئصال الجزء المتضخم من البروستاتا، وأجرى لى أشعة فوق صوتية تبين منها تضخم البروستاتا، وقال لى بعدها: إنه من الضرورى إجراء عملية جراحية، سألته إن كان ممكنا عملها بالليزر؟ فقال: إنه لابد من قطع الجزء المتضخم، وقال: إنه لا يستطيع إجراءها فورا لأننى خارج من عملية جراحية فى المخ، ويجب أن ننتظر حوالى شهر أو أكثر، وأنه من الضرورى تركيب القسطرة مرة أخرى، وهو الأمر الذى لم أكن أحبه».

«بعد العملية الأولى كانت تأتى لى إحدى الممرضات لتقوم معى ببعض التمرينات الرياضية الملائمة، وكان ذلك يتم يوميا حتى بعد أن قمت بعملية البروستاتا، ثم توقفت بحجة أن الطبيب أمر بوقف هذه التمرينات بعد العملية، ولكننى ما أن شعرت بأننى

أستطيع القيام من سريرى حتى أخذت أنزل إلى الحديقة وأقوم بالتمرينات التى اعتدت القيام بها يوميا، ولم أتوقف عنها أبدا».

«وفى المستشفى كانوا يحرصون على نظافة المرضى، فالاستحمام يومى، فكانت الممرضة تأتى لغسيلى كل يوم حتى بعد العملية مباشرة، وكان التمريض جيدا فإذا ضغطت على الجرس بجانبى تأتى الممرضة فورا».

«مكثت فى المستشفى حوالى ثلاثة شهور، وعند خروجى من المستشفى أوصانى الطبيب أن أقلل من البروتين الحيوانى، ومن السكريات، ورغم حقن الأنسولين التى أعطيت لى بعد العملية الأولى فقد انخفض السكر فى الدم، ولم أحتج إلى أى أدوية للسكر بعد ذلك، وكان يرتفع أحيانا إذا لم أراع التقليل من السكريات ثم يعود طبيعيا إذا امتنعت أو قللت منها، وقللت من اللحوم والأسماك ولم أعد أتناولها إلا مرتين فى الأسبوع، وأمارس الرياضة يوميا وأحاول أن أحيا حياة صحية، وبذلك أحافظ على قدرة لا بأس بها على العمل».

«وبناء على توصية الطبيب لم أذهب إلى العمل مباشرة، بل رتبت الذهاب إلى مصحة تدعى «مارياتسكى لازنى» تعتمد على الأساليب الطبيعية فى العلاج (الجو ـ المياه المعدنية ـ الحمامات المعدنية ـ التدليك ـ الرياضة ـ الغذاء . . إلخ)».

«عدت إلى العمل وكنت قد فقدت من وزنى ١٠ كيلوجرامات».

«بقيت فى المصحة ٢٤ يوما، وكان ذلك فى شهر يوليو ١٩٨٩، وفى سبتمبر كانت إجازتى السنوية، واخترنا مع زوجتى أن نمضيها فى كوبا بدعوة من الحزب الشيوعى الكوبى».

. . . .

هكذا تنقل محمد يوسف الجندى في ربوع العالم . لكنه ظل فى كل أحواله مغتربًا تحت الأرض . . . وفوق الأرض.

* * *

الباب السادس

«مشيناها خطى»
مذكرات الدكتور رءوف عباس

obeikan.com

(١)

أثار هذا الكتاب حين صدر مجموعة من ردود الأفعال الحادة والمتباينة، وقد تعلقت ردود الأفعال هذه بأقل أجزاء الكتاب أهمية لتاريخنا الاجتماعى والسياسى، وابتعد المعنيون بأمور أنفسهم عن الحديث عما فى الكتاب من جزئيات تمثل أهمية خاصة لتاريخنا المعاصر، مع ما كان ينبغى عليهم من توجيه الاهتمام لمثل هذه الأحكام الدقيقة على كثير من مظاهر التاريخ المعاصر التى أصدرها صاحب المذكرات الذى هو فى المقام الأول أستاذ للتاريخ.

وعلى سبيل المثال فقد قدم الدكتور رءوف عباس أدق صورة يمكن تقديمها عن الفترة الأولى من عمر القطاع العام المصرى حين لجأت الدولة إلى وضع الشركات الخاصة التى أممتها وضمتها إلى هذا القطاع فى سياق جهازها البيروقراطى الضخم، ودفعت إلى كل شركة من شركات هذا القطاع بعدد من الموظفين الجدد كان منهم على سبيل المثال صاحب المذكرات، وهو يروى كيف استقبل هذه الوظيفة هو وزملاؤه الذين عينوا معه، وكيف تراوحت ردود أفعال هؤلاء حين وجدوا هذه الوظيفة، وكيف سارت بهم الأمور فيها.

ومن الطريف أن يقدم الدكتور رءوف عباس فصلاً من أهم فصول مذكراته تحت عنوان «مراجع الحسابات»، وهو يتحدث فى هذا الفصل عن تجربة «طليعية» لموظف جامعى فى القطاع العام بعد التأميم، ومن المفيد أن نتعمق هذه التجربة التى يندر أن نراها مكتوبة بهذا التفصيل الدقيق، ومن وجهة نظر موضوعية وعلمية وبعيدة عن التعصب لاتجاه ما، فلا هى مؤمنة بالنمط الذى طبقت به الاشتراكية، ولا هى متيمة

بالوضع فيما قبل الاشتراكية، وإنما هى وجهة نظر حريصة على تقديم الجانبين، ونبدأ بما يلخص به موقف هذه الشركة التى آلت إلى القطاع العام:

« . . . الشركة المالية والصناعية المصرية كانت شركة مساهمة يملك قسطًا كبيرًا من أسهمها بعض الرأسماليين من أمثال أمين يحيى (الذى كان رئيسًا لمجلس الإدارة قبل التأميم)، والبدراوى، وسراج الدين وغيرهم، وكان مديرها العام الدكتور محمد شفيق حنظور يحمل درجة الدكتوراه فى الزراعة، اقترب من السبعين، أصبح رئيس مجلس الإدارة بعد التأميم، وتخصصت الشركة فى إنتاج حامض الكبريتيك بمختلف درجاته، وإنتاج سماد السوبرفوسفات، وكانت تستورد الكبريت الخام من الخارج، أما الفوسفات فيأتى من المناجم التابعة لها بمنطقة «السباعية» غرب أسيوط، ورغم وجود المصانع بكفر الزيات كان المركز الرئيسى للشركة بالإسكندرية، وكانت مكاتب الإدارة بكفر الزيات تضم قسم الحسابات، وقسم المراجعة، وقسم المخازن والتوريدات، وقسم المشتريات».

«أما عدد العمال فبلغ ١٥٠٠ عامل، استفاد نحو ١٢٥٠ عاملا منهم بالقانون الذى جعل الحد الأدنى للأجر اليومى للعامل خمسة وعشرين قرشًا، فارتفعت أجورهم من ثمانية قروش إلى ٢٥ قرشًا، وشملتهم مظلة التأمينات الاجتماعية، أما الإداريون فانقسموا إلى قسمين: فئة الموظفين ذوى الرواتب الشهرية، وكانت فئة متميزة يبدأ الراتب الشهرى لصاحب المؤهل المتوسط بستين جنيهًا شهريًا (أى خمسة أضعاف زميله بالحكومة)، ولم يكن بالشركة من بين الموظفين حملة المؤهل العالى سوى أربعة من المهندسين، أما الإداريون فكانوا من حملة دبلومات التجارة والصنايع، وكانت هناك شريحة أخرى من الموظفين تُعامل بالأجر اليومى، فكانت بداية تعيين حملة المؤهلات المتوسطة من هذه الفئة جنيهان يوميًا عن كل يوم عمل، فلا يحتسب الأجر عن أيام الراحة الأسبوعية والعطلات الرسمية».

(٢)

وهو يلخص على نحو دقيق كيف جاءت به الصدفة هو وزملاءه إلى هذه الشركة، وكيف حسبت مرتباتهم ووظائفهم مع ما فى هذا التلخيص من تصوير جيد للخطوات

البيروقراطية التى تتخذها الحكومات فى مثل هذه الإجراءات العمومية التى تحرص على المساواة العامة دون أن تشغل بالها بالتفصيلات الكفيلة بتنظيم أدق وأجدى، مع هذا فإنه يتحدث عن حسن حظه مقارنة بوضع الآخرين، وإن كان يتحدث عن تسكين أصحاب المؤهلات العليا فى وظائف الشركة وأقسامها المختلفة حديثا ساخرا:

«... هبط على الشركة، نتيجة القانون الجمهورى بتعيين الخريجين، أربعة موظفين جدد دفعة واحدة تسلموا العمل فى فبراير ١٩٦٢، منهم ثلاثة من خريجى الآداب فلسفة (١٩٥٧)، وجغرافيا (١٩٥٧)، وتاريخ (١٩٦١)، وخريج حقوق (١٩٥٨). كان صاحبنا أحدث الخريجين المعينين بالشركة، وعد زملاءه الثلاثة من المحظوظين، فقد تقلب ثلاثتهم بين مختلف الأعمال، فكان خريج الفلسفة يعمل كاتبا باليومية بشركة مياه غازية من مارس إلى أكتوبر، ويعانى البطالة من نوفمبر حتى فبراير، وحصل خريج الجغرافيا بعد بطالة دامت عامين على إحدى وظائف المؤهلات المتوسطة عن طريق ديوان الموظفين فكان كاتبًا بمصلحة الآثار، أما خريج الحقوق فقد أنهى فترة التدريب بمكتب أحد المحامين لم يتقاض عنها أجرًا، وسجل اسمه فى جدول المحامين، وكان أحسن الأربعة حالاً، لم يعان الفاقة مثلهم لأن والدته الثرية كانت تنفق عليه ببذخ لكونه وحيدها».

«لم يتضمن القرار الصادر من المؤسسة للشركة أى إشارة إلى الراتب الذى يتقاضاه كل من هؤلاء «الدخلاء» الأربعة (هكذا كان يُنظر إليهم)، فلم يكن هناك كادر محدد للشركة أو غيرها من الشركات، وإنما كان تحديد الراتب متروكا لتقدير رئيس مجلس الإدارة الذى قرر أن يكون الراتب ٢١ جنيها شهريا، وكان هذا مبلغا محترما، لأن مَنْ عينوا بالحكومة حصلوا على خمسة عشر جنيها، ولكنه كان يعادل ثلث الراتب الذى كان يحصل عليه مَنْ يعين بمؤهل متوسط قبل التأميم».

«بقيت مشكلة أخرى هى تحديد وظائف أولئك «الدخلاء»، فلا علاقة بين مؤهلاتهم ومجال العمل بالشركة الذى يتطلب الهندسة والعلوم والتجارة، فتم اختيار حجرة كانت مخصصة لمراقب الشحن والتفريغ، وضعت فيها أربع طاولات وأربعة كراسى كانوا يجلسون فيها معًا من الثامنة حتى الثالثة بعد الظهر دون عمل، يتندرون

على ما يصل إلى أسماعهم من أحاديث العمال بشأنهم: «دول بتوع الحكومة بعتاهم يراقبوا البوظان اللى فى الشركة»، أو «دول تبع المباحث جابهم حنطور لجل يلجم العمال»، إلى غير ذلك من تخمينات، ولا يدرى أولئك العمال التعساء أن هؤلاء «الأفندية» لا يقلون عنهم من حيث قلة الحيلة، وأن التحاقهم بالعمل بالشركة جاء بعد طول معاناة».

بعد مرور أسبوعين تحددت وظيفة خريج الحقوق فأصبح محققًا بإدارة شئون العاملين، وبعد أسبوع آخر تحددت مواقع خريجى الآداب فأصبح الفيلسوف موظفًا بقلم الأجور بنفس الإدارة، والجغرافى مساعدًا للخواجة ينى (اليونانى الجنسية) المتخصص فى استيراد الكبريت، وأصبح صاحبنا مراجعا بالإدارة المالية، وهى الوظيفة التى شغلها ٦٢ شهرًا حتى استقال من الشركة فى أبريل عام ١٩٦٧».

(٣)

ويتحدث رءوف عباس عن طبيعة وظيفته فى قسم المراجعة المالية حديثًا دقيقًا ومنصفًا وكفيلاً بأن يدلنا على أن الجدية والأمانة وحدهما تكفيان تماما لأن يقوم أى جامعى بوظيفته على نحو أمثل لو كانت الوظيفة بعيدة ظاهريًا عن تخصصه الدقيق:

«... كان قسم المراجعة مختصًا بمراجعة المستندات المالية قبل الصرف، ومراجعة سجلات الأجور، ومستندات المخازن والمشتريات، وكلها أمور لا علاقة بها بالتاريخ، ولكن لا علاقة لها أيضًا بأى تخصص آخر، فيما عدا المراجعة الحسابية، ولم تكن تشكل صعوبة كبيرة مع وجود الآلة الحاسبة (وكانت يدوية). امتنع الفيلسوف عن العمل لمدة أسبوع طالبًا أن يكون رئيس القسم، وانضم إليه المحامى الذى طلب أن يكون رئيسًا للشئون القانونية، أما الجغرافى فارتاح إلى العمل مع الخواجة ينى الذى لم يتجاوز إعداد المحررات العربية التى تُرسل للمؤسسة وغيرها من الجهات الرقابية بشأن ما تستورده الشركة من مستلزمات الإنتاج، وكانت تلك المحررات محدودة، أما صاحبنا فكان حريصًا على أن يثبت أقدامه فى عمله الجديد، وأن يمارسه بطريقة سليمة، ولذلك عكف على دراسة كل الإجراءات الإدارية والمالية التى عليه أن يتولى مراجعتها، ولم يمض شهر واحد حتى كان قد ألم بكل أصول الصنعة التى لا تتطلب ممن يقوم بها سوى حسن البديهة».

«كان قسم المراجعة يضم رئيسًا (دبلوم تجارة) من الفئة المتميزة من الموظفين، يعمل معه اثنان أحدهما شاب (دبلوم تجارة)، والآخر لاعب كرة معتزل (ابتدائية قديمة)، وهما من عمال اليومية، فكان صاحبنا الموظف الثانى بالقسم من حيث الترتيب الإدارى، لكنه جاء فى الترتيب الثالث من حيث الأجر الشهرى، فقد كان اللاعب المعتزل يحصل على ما يزيد قليلاً (على) ضعف أجره، وكان الزملاء الثلاثة على مستوى راق فى تعاملهم معه، خاصة أن رئيس القسم كان مرشحًا لعضوية مجلس الإدارة عن الموظفين متحالفًا مع عامل نقابى ضد رئيس للمخازن، وعامل آخر كان مرشحًا رئيسًا لمجلس الإدارة، فكان رئيس القسم بذلك يتمى للمعارضة، وشديد الإعجاب بعبد الناصر».

(٤)

ويروى رءوف عباس قصة الظروف التى هيأت له الاتصال بالحركة العمالية، مما كان له أثر بعيد فى تخصصه الأكاديمى نفسه فيما بعد، ومن الإنصاف أن نبدى إعجابنا بأن هذا المؤرخ صور بداية هذه العلاقة على أنها نشأت نتيجة رغبته فى توفير النفقات، حيث أراد أن يفيد من امتياز الوجبات التى كان مطعم الشركة يقدمها للعمال، وقد كان فى وسع هذا المؤرخ العظيم أن يبدأ القصة بداية أخرى، لكنه آثر الأمانة والتواضع اللذين لا يصدران إلا عن ثقة بالنفس:

«. . . كان بالشركة مطعم يقدم وجبة غداء مدعمة مكونة من اللحم أو الدجاج والأرز والسلطة وثمرة فاكهة، مقابل اشتراك شهرى قدره ٧٥ قرشا، فاشترك صاحبنا وذهب إلى المطعم لأول مرة ليلاحظ وجود مكان خاص للموظفين فى طرف قاعة المطعم بعيدًا عن العمال، رغم أن الوجبة واحدة، فاختار أن يتجه بالصينية الخاصة به إلى مكان العمال وجلس وسطهم، فلاحظ توقفهم عن الحديث والتزامهم الصمت وتبادلهم النظرات، فقدم لهم نفسه وقال لهم: إن جده كان عاملاً، وأبوه لايزال عاملاً، وأنه يحس «بالونس» بينهم، فلماذا يتهيبون منه؟ فردوا بالاعتذار والترحيب لأنهم لم يتعودوا أن يجلس بينهم موظف (لله فى لله)، فلا يحدث ذلك عادة إلا إذا كانت الإدارة تدبر لهم أمرًا. قال لهم صاحبنا: إن الشركة الآن ملك الشعب، فهم من

أصحابها، وأن الإدارة لا تستطيع أن تفعل بهم ما كانت تفعله فى الماضى، وشيئًا فشيئًا ذاب الجليد بينه وبينهم، وبدأ يتعرف على ما كان يدور فى الشركة من خلالهم. قص عليه أحدهم ما عاناه العمال من ضعف الأجور، وغياب الرعاية الصحية، وإجراءات الأمن الصناعى، فالكثير منهم يعانى من الربو، ويتعرضون للحروق المميتة عندما ينفجر أنبوب فى وحدة إنتاج حامض الكبريتيك القديمة، وأنهم يريدون تحسين ظروف العمل، وعندما سألهم عن دور نقابة العمال فى ذلك كله قالوا له: إن النقابة الموجودة من صنع أصحاب الشركات قبل التأميم بالاتفاق مع الشئون الاجتماعية والداخلية، وأسر إليه أحدهم أنهم بدأوا يجمعون التوقيعات لإسقاط مجلس النقابة القديم، ودعاه لحضور اجتماع بهذا الخصوص فى إحدى المقاهى التى تقع على أطراف البلدة».

«حضر صاحبنا الاجتماع، كان الحضور خمسة من العمال الفنيين (الأسطوات)، واثنين من رؤساء الورديات (حملة دبلوم الصنايع)، أما رواد المقهى فكانوا من الفلاحين الذين يأتون إلى كفر الزيات لقضاء مصالحهم، وينتظرون وسيلة مواصلات تحملهم إلى قراهم. عرض الحضور نص عريضة المطالبة بإسقاط مجلس إدارة النقابة، فأعمل صاحبنا قلمه فى النص يصلح من صياغته، وارتاحوا للنص الجديد، وطالبوه أن يساعدهم فى صياغة العرائض التى سيقدمونها للسلطات المعنية، فرحب بذلك، ولكنه اعترض على الطابع السرى للاجتماعات، واقترح عليهم أن يتخذوا من مقر النقابة مركزًا لنشاطهم، لأن مجلس الإدارة لا يملك المقر، فهو ملك لجميع الأعضاء، ويمكن اللجوء للسلطات إذا منعهم مجلس النقابة من ذلك».

(٥)

هكذا نرى رءوف عباس، على ما يرويه، وقد أصبح مشاركًا وإن لم يكن عضوًا مشاركًا، فى هذا النشاط النقابى الذى بدأ يمارس ثورة عمالية على نطاق محلى، وها هو حس المثقف فى رءوف عباس يقود العمال إلى خطوات أكثر ثقة فى ثورتهم المحلية، وهكذا تتسارع أيضا خطواته إلى الاصطدام مع سلطة الإدارة متمثلة فى رئيس مجلس الإدارة ومعاونيه:

«... أعجبتهم الفكرة، وعقد اجتماع أوسع بساحة النقابة التى كانت تحتل شقة

واسعة تمثل الدور الأرضى بإحدى بنايات وسط المدينة، بها فناء يتسع لحوالى ثلاثين مقعدًا، وحضر صاحبنا الاجتماع، ويهره ذلك القدر من الوعى الذى لمسه عند المتحدثين من العمال البسطاء، وتم نسخ عشرات الصور لنص العريضة، كتب عشرا منها بخطة، وتم جمع التوقيعات عليها خلال نوبات العمل (الورادى)، ثم عُقد اجتماع آخر تم فيه فرز العرائض (وكانت من صورتين)، فحرر صاحبنا خطابًا موجهًا للرئيس جمال عبد الناصر، وآخر موجهًا لوزير العمل، ووضعت كل صورة فى مظروف وتم تسجيلها للجهة الموجهة إليها، ولم يحدث ـ حتى ذلك الحين ـ أى احتكاك بين للمجلس القديم وبين مَنْ تزعموا هذه الحركة والعمال الذين شاركوا فيها».

(٦)

وسرعان ما تتطور الأمور ويتدخل الأمن فى الموضوع، ونحن نلاحظ أن رءوف عباس يصور تدخل الأمن فى إطار الحفاظ على الأوضاع القائمة، وحماية مكاسب الإدارة لا العمال:

«. . . بعد صدور ذلك القرار بأسبوع، تلقى اتصالاً من ضابط المباحث العامة بمركز كفر الزيات يدعوه للالتقاء به فى نادى الموظفين الذى يقع على فرع رشيد أمام المركز مساء للتعرف عليه، فالتقاه هناك ليجد معه رئيس الوردية الذى كان حاضرًا اجتماع المقهى مع زميل آخر له، وقال الضابط: إنه نُقل حديثًا إلى كفر الزيات وأنه يريد التعرف على الموظفين الشباب، وأن ذلك الشخص اقترح عليه التعرف عليه لأنه يحب إقامة روابط الصداقة مع المثقفين، وباسم التعارف وجه حزمة من الأسئلة إلى صاحبنا الذى ضاق ذرعًا بها وسأله عن مغزى كل تلك الأسئلة، وهل هى أسئلة للتعارف أم أسئلة تحر وتحقيق؟ فضحك وتعلل «بحكم» المهنة، وفى نهاية اللقاء قال الضابط: أرجو أن نظل أصدقاء، وألا يحدث ما يشوب هذه الصداقة».

«وصمت برهة ثم قال: ياريت تبعد عن الجماعة إياهم، أنت مش قد البهدلة».

ولكن صاحب المذكرات رغم هذه النصيحة الواضحة (!!) يرحب بالصراع مع الإدارة على حد قوله، ويلقى القفاز فى وجه الإدارة وأجهزة الأمن معًا، ومن حسن حظه أن تأتى الرياح بما يشتهيه، وتتدخل وزارة العمل لمصلحة العمال:

«. . . وبعد أيام معدودة قال زميله الجغرافى الذى يعمل مع ينى (وكان يشاركه السكن) إنه علم من الخواجة ينى أن شفيق بك حنطور (رئيس مجلس الإدارة) سينقله إلى المناجم بالسباعية عندما يرى آخرة «الهوجة» التى شارك فيها، وقال: إن الخواجة ينى مستعد لترتيب مقابلة مع البك ليعتذر لهِ، عندئذ يصرف النظر عن نقله إلى المناجم».

«كان صاحبنا قد بادر مساء نفس اليوم الذى التقى فيه ضابط المباحث العامة، بزيارة الأسطى عبد النبى (أحد قادة حركة جمع التوقيعات) فى بيته ليخبره باختصار بما دار بينه وبين الضابط، ويحذره من رئيس الوردية عميل الإدارة والمباحث، وفى اليوم التالى كان العمال جميعًا قد علموا بحقيقة رئيس الوردية، وعاملوه معاملة المنبوذ، وعزلوه تمامًا عن كل ما اتصل بنشاطهم، ولذلك فهم صاحبنا الرسالة التى حملها زميله من ينى على أنها تصعيد للتهديد، بعدما أحس رئيس مجلس الإدارة بعدم جدوى تهديد ضابط المباحث العامة، بعدما قاطع العمال جاسوسه واحتقروه».

«ولكن لم تمر بضعة أيام حتى وصل مسئول كبير من وزارة العمل التقى بالعمال وزعمائهم بمقر نقابتهم، واستمع إلى مبررات طلبهم إسقاط مجلس الإدارة القديم، وبعد أسبوع واحد صدر قرار حل مجلس النقابة، وتعيين لجنة إدارية لإدارة أعمال النقابة لحين تحديد موعد ونظام انتخابات التشكيل النقابى على مستوى الجمهورية، وكان أعضاء اللجنة الإدارية من بين التسعة الذين وردت أسماؤهم فى العرائض التى وقع عليها العمال، وجاءت بعدها انتخابات عضو مجلس الإدارة عن العمال والموظفين، ففاز فيها الأسطى عبد النبى عن العمال، وفاز محمد إسلام (رئيس المراجعة) عن الموظفين».

(٨)

ثم يروى رءوف عباس أنه مضى خطوة أوسع فى طريق عداوته للإدارة فتمكن من خلال موقعه الوظيفى من تسجيل خطأ ارتكبه رئيس مجلس الإدارة نفسه، وهكذا يبدأ معركة كان يعرف أنها غير متكافئة مع رئيس مجلس الإدارة، لكنه يبدؤها وكله أمل فى الانتصار:

«. . . علم (أى صاحب المذكرات) من بعض العمال أن ثلاثة أوناش صغيرة اشترتها الشركة ذهبت إلى عزبة البك، وبعدها بأيام عُرضت عليه أوراق العملية لمراجعتها: محضر الشراء بالممارسة من أحد تجار وكالة البلح، محضر الاستلام، وإذن إضافة المخزن للأوناش كعهدة، والفاتورة بالقيمة، والأوراق على هذا النحو سليمة وكاملة، ولكنه لم يكتف بها، بل راجع أذون الصرف الخاصة بالمخازن ليكتشف أنها صرفت فى نفس يوم الإضافة لحساب «عملية دمنهور»، ولم يكن هناك عملية بهذا الاسم، فأعد صاحبنا مذكرة وافية بالموضوع طالبًا التأكد من جهة الصرف، لأنه يرجح أن عملية الشراء كانت وهمية مما يعرض أموال الشركة للضياع، وأقنع رئيسه (عضو مجلس الإدارة المنتخب) برفع الأمر إلى رئيس الشركة».

«وفى اليوم التالى استدعاه رئيس الشركة وسأله: أنت اللى كتبت المذكرة دى؟ فرد بالإيجاب، فقال الرجل: أنت قدامك مستندات سليمة، إيه دخلك فى خطة التشغيل؟ فرد عليه قائلا: ماليش دخل إزاى، دانا صاحب مصلحة، فتعجب الرئيس وسأله: مصلحتك إيه بقى إن شاء الله؟! فقال: الشركة ملك الشعب، وأنا واحد من الشعب، ومن حقى أن أحافظ على مصلحة الشعب. هنا ثار الرئيس قائلا: يابنى أنتم بتصدقوا الكلام الفارغ اللى بيقوله عبد الناصر؟ دا عاوز بس يضحك على الناس، امشى شوف شغلك وخليك فى حالك».

«عاد صاحبنا إلى المكتب ليجد وجه رئيسه محتقنا، كان من الواضح أنه لقى الكثير من التأنيب، وأبلغه أن مراجعة فواتير المشتريات أصبحت من اختصاص زميل آخر، فغلى الدم فى عروقه، وسارع بكتابة شكوى إلى جمال عبد الناصر ذكر فيها الموضوع باختصار، وركز على ما قاله رئيس مجلس الإدارة عن عبد الناصر».

هكذا يواجه رءوف عباس بما يسبب له الإحباط لكنه لا يقع فى قبضة الإحباط، وهو لذلك يواصل حديثه إلينا عما رآه من الفساد، ويحدثنا عن أن هذا الفساد الذى رآه كان، فيما بعد قليل، بمثابة الدافع الذى حال بينه وبين قبول فكرة الانضواء فى تنظيمات السلطة وبخاصة منظمة الشباب الاشتراكى:

«... وبعد حوالى ثلاثة أسابيع استدعاه رئيس مجلس الإدارة، رفع فى يده المذكرة التى أرسلها للرئيس عبد الناصر بعينها، وسأله: خطك ده؟ فرد بالإيجاب، قال: عرفت أن عبد الناصر بيضحك على المغفلين اللى زيك؟ إحنا ردينا بأن الشكوى كيدية لأنك موظف مهمل، وعلى فكرة مخصوم منك خمسة أيام وعندك حرمان من العلاوة الدورية، ابقى خلى عبد الناصر ينفعك!».

«ما كان يجهله صاحبنا أن محمد شفيق حنطور (رئيس مجلس الإدارة) كان من أخوال شمس بدران، وأنه كان مسنودا، وكان ذلك النموذج المؤسف بارزًا فى القطاع العام، فتحولت معظم شركاته إلى «عزب» لرؤسائها».

«رأى صاحبنا رأى العين الرشى (يقصد: الرشاوى) المادية والعينية التى تقدم لمفتشى مؤسسة الصناعات الكيماوية، ومفتشى أجهزة الرقابة الأخرى، ومأمور وضباط مركز كفر الزيات، وكيف كانت تتم تغطية ذلك كله بمستندات صورية أو تحت بند «الإكراميات»، ورغم التوسعات التى شهدتها الشركة على يد القطاع العام، وتأسيس مصنع آخر بأسيوط، إلا أن الفساد الإدارى على مستوى المؤسسة، وغياب الرقابة الشعبية بتحجيم دور الحركة القيادية، كان بمثابة السوس الذى ينخر فى عظام القطاع العام».

«ولعل ذلك كان من أسباب نفور صاحبنا من «منظمة الشباب» واعتذاره مرتين عن عدم حضور دورة تدريبية بحجة انشغاله بالدراسات العليا، فقد كان يرى البون شاسعًا بين الشعارات المرفوعة، وما يراه ماثلاً أمامه على أرض الواقع. فبعد عام واحد من حل اللجنة النقابية القديمة بدأت انتخابات التنظيم النقابى فتم توقيع العزل السياسى على العناصر النشطة الواعية من النقابيين الناصريين، وتُرك الحبل على الغارب للعناصر الانتهازية التى سيطرت على التنظيم السياسى والتنظيم النقابى معا!».

هكذا نرى رجلا قدر له أن يعمل فى القطاع العام لكنه لا يستسيغ هذا العمل فى ظل ما رآه من فساد، وهو لا ينفر من القطاع العام وحده، لكنه ينفر من كل التنظيمات السياسية للثورة !! وقد كان من الطبيعى لشاب نابه مثله أن يتجه إلى إخراج طاقته فى الدراسات العليا، وهو ما حدث بالفعل.

ونحن نقرأ بإعجاب ما يسجله رءوف عباس من حديث عن اختياره لموضوع رسالته فى الماجستير، ونراه يعترف بأن تجربته التى عاشها فى كفر الزيات كانت بمثابة الزاد الذى جعله يفكر فى موضوع رسالته، بل نحو ما سجله بالفعل، وهو يحدثنا أن أساتذته «الأحباب» كانوا يتوجسون من مثل هذا الموضوع، لكنهم سرعان ما تخلوا عن هذا التوجس:

«. . . وحسمت التجربة التى عاشها بين عمال كفر الزيات اختياره، فقد لاحظ أن أولئك العمال الذين نجحوا فى إسقاط اللجنة النقابية، وراءهم خبرة نضالية لم تأت من فراغ، وراح يبحث عن كتاب فى تاريخ الحركة النقابية فى مصر، فلم يجد سوى كتابات لا تغنى ولا تسمن، ووجد عشرات الكتب الإنجليزية عن الحركة العمالية فى أوروبا عامة، وبريطانيا خاصة، فعقد العزم على دراسة الحركة العمالية منذ نشأتها حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢».

«استشار أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى فرحب بالموضوع، لكنه اعتذر عن عدم الإشراف (رغم أنه كان قد أصبح أستاذا مساعدا)، وفضل أن يعرض صاحبنا الموضوع على أحمد عزت عبد الكريم، فإذا قبله ورأى إسناد الإشراف إليه كان بها، وإذا تولى هو نفسه الإشراف فإنه يتوقع من أحمد عبد الرحيم مصطفى كل عون ممكن».

«عرض صاحبنا الموضوع على أحمد عزت عبد الكريم فى سمناره العتيد فى أكتوبر ١٩٦٣ فطلب منه الحضور إلى منزله بمنشية البكرى فى العاشرة من صباح الجمعة، فذهب فى الوقت المحدد وسأله الأستاذ عن دوافع اختياره لهذا الموضوع بالذات، فشرح له كيف كانت تجربته بكفر الزيات وراء الاختيار، وسأله الأستاذ مرة أخرى

سؤالاً مباشراً عما إذا كان هناك اتجاه سياسى معين وراء الاختيار، فنفى الطالب ذلك، وأكد أن دوافعه علمية صرفة، وعندما سأله عن مصادر الدراسة الوثائقية قال للأستاذ: سوف أبحث عنها حتى أجدها، فقال الرجل: على بركة الله، ووقع على الأوراق بالموافقة».

«وبعد التسجيل بعدة شهور بدأ أمين عز الدين ينشر بالطليعة سلسلة مقالاته الشهيرة عن فجر الحركة النقابية فى مصر، فاطمأن الأستاذ إلى سلامة الاختيار».

(١١)

وقد أتاحت الدراسة العلمية لرءوف عباس أكثر من لقاء بعدد من الشخصيات المتميزة فى محيط الحركة النقابية العمالى والسياسى، وهو يحدثنا بإفاضة عن تجاربه فى مثل هذه اللقاءات التى كانت جديدة عليه، ويحرص على تقديم ماهو طريف فى هذه اللقاءات، وهو يحكى قصة لقائه بالأمير عباس حليم على نحو طريف ومؤثر:

«. . . كان لابد من التقاط طرف الخيط الذى يوصل إلى المصادر، وعلم من بعض قراءاته الأولية أن النبيل عباس حليم كان له دور فى الحركة النقابية، وتحرى عن مكان وجوده فعلم أنه مقيم بالإسكندرية، ورجع إلى دليل تليفون الإسكندرية ليقع على رقم عباس حليم، فاتصل به فإذا بلكنة المتحدث تبدو أجنبية، وحدد له موعدا الثامنة صباح الجمعة، فسافر صاحبنا إلى الإسكندرية مساء الخميس حيث استضافه أحد أصدقائه من موظفى شركة المبيدات بكفر الزيات، ووصل إلى شوتس برمل الإسكندرية فى السابعة والنصف صباحا ليبحث عن البيت، فوجد أمام محطة الترام قصراً قديماً يحمل الرقم الذى يبحث عنه فجلس على مقعد المحطة نحو ربع الساعة ثم قرر استكشاف المكان».

«كان القصر قديمًا كالحًا، والحديقة جرداء إلا من بعض الأشجار المعمرة، وبوابة القصر مفتوحة على مصراعيها لا يحرسها أحد، تلفت صاحبنا ذات اليمين وذات الشمال وهو يتقدم عبر البوابة فى اتجاه القصر، فوجد كلبًا ضخمًا يرقد تحت إحدى الأشجار، هده الكبر، رفع رأسه ليرمق الزائر الغريب بنظرة ثم أغمض عينيه من جديد، وكأنه رأى أن المسألة لا تستحق النباح، فمضى صاحبنا فى طريقه باتجاه

القصر، فإذا برجل عجوز يطل من نافذة زجاجية بالدور الأول يناديه: عباس أفندى؟ فرد بالإيجاب، فقال الرجل: تفضل، فصعد الدرج حتى باب السلاملك لتفتح الباب له خادمة عجوز ردت على تحية الصباح، الرد المحبب إليه: «يسعد صباحك»، قادته إلى المكتب حيث كان أفندينا النبيل عباس حليم يقف أمام المكتب، وبعد تبادل التحية قال له: قبل أن نتكلم سويا أريد أن أريك أولا ما فعله (المعرصين) بالعمال، ووضع أمامه عدد «المصور» الذى غطى إعدام البقرى وخميس، وحكم بالسجن على عدد من عمال كفر الدوار فى الشهور الأولى للثورة، وسأله رأيه فى هذا المشهد، فأجاب: إنها نقطة سوداء فى تاريخ النظام ما فى ذلك شك، قال أفندينا الذى كان يتحدث العربية على طريقة الخواجات: هل تحب أن تتحدث بالإنجليزية أم الفرنسية؟ فاختار صاحبنا الإنجليزية».

«كان النبيل عباس حليم يحتفظ بألبومات ضخمة تضم قصاصات الصحف التى تحمل أخباره وأخبار النشاط العمالى، جُمعت بعناية، وألصقت بالألبومات وفق تسلسلها الزمنى، ولما علم أن صاحبنا موظف بكفر الزيات وافق أن يعيره فى كل أسبوع ثلاثة ألبومات، فكان يلتقيه كل أسبوع على مدى شهرين يناقشه فيما قرأ، ويعيد ما استعاره ويحمل معه الدفعة التالية حتى تجمعت لديه فى النهاية مادة كانت تحتاج إلى ما يزيد على العام لو جمعها بنفسه من الدوريات المودعة بدار الكتب المصرية.

(١٢)

وإذا كان فى قصة النبيل عباس حليم طرافة الحديث عن نبيل من أفراد الأسرة المالكة، فإن رءوف عباس لا يبخل علينا بتفصيلات القصة التى دفعته إلى البحث عن الزعيم العمالى محمد حسن عمارة والإفادة من السجلات التى كان يحتفظ بها للحركة العمالية، ومن الطريف أن نتأمل طبيعة المفارقة فى رواية الأحداث، فعلى حين صب عباس حليم اللعنات على محمد عمارة لأنه لص سرق جميع أوراق الاتحاد، فإن المؤرخ بحاسته وفهمه يرى لقاء هذا الرجل (اللص) على أكبر درجة من الأهمية للسبب نفسه، وهو أنه أصبح يملك هذه الأوراق.

وكالعادة فى البحث العلمى فإن كل خيط يقوده إلى أخيه، وهكذا عرف صاحبنا

سيد قنديل رئيس نقابة عمال الطباعة، كما عرف النقابيين الماركسيين محمد يوسف المدرك، ومحمود العسكرى، وأحمد طه من طريق آخر:

«تردد اسم محمد حسن عمارة سكرتير عام اتحاد نقابات عمال القطر المصرى، الذى رأسه عباس حليم، وكان الرجل فى نفس الوقت رئيسًا لنقابة الحلاقين، وعندما سأل عباس حليم عنه صب عليه اللعنات واتهمه بسرقة جميع أوراق الاتحاد، فأصبح العثور على الرجل على درجة بالغة من الأهمية، فاتجه صاحبنا إلى شارع كلوت بك حيث كان قد لاحظ وجود صالون حلاقة قديم عُلقت على بابه برطمانات دود العلق، فذهب إلى هناك، وسأل صاحب المحل عن عم الأسطى محمد حسن عمارة، فإجاب الرجل: عاوزه ليه ياأفندى؟ رد بقوله: أصله كان زوج المرحومة عمتى وعاوزه علشان مسألة عائلية، وفكر الرجل مليا ثم طلب من الأفندى أن يعود إليه بعد صلاة المغرب».

«وقد كان.. وجد أمامه محمد حسن عمارة كما رآه فى الصور التى شاهدها عند النبيل عباس حليم، ولكن بعد إضافة عوامل الزمن، استطاع أن يرتب معه لقاءات أيام الجمعة بمقر إقامته بالمطرية، وعندما كسب ثقته جر من تحت السرير حقيبة سفر جلدية قديمة كانت تضم مجموعة هامة من وثائق اتحاد العمال وغيره من التنظيمات النقابية التى شارك فيها محمد حسن عمارة، فاشتغل صاحبنا بنسخ ما وجده مهمًا لدراسته».

«وعن طريق محمد حسن عمارة سمع عن سيد قنديل رئيس نقابة عمال الطباعة فى الثلاثينيات والأربعينيات، واستطاع العثور عليه عن طريق بعض المطابع القديمة التى كانت تقع حول حديقة الأزبكية، وحصل منه على سجل محاضر حزب العمال الاشتراكى، كما استطاع الاتصال بالنقابيين الماركسيين: محمد يوسف المدرك، ومحمود العسكرى، وأحمد طه، عن طريق زميله وصديقه سعد صمويل الفيشاوى، وحصل منهم ومن غيرهم على بعض الأوراق الهامة، والدوريات العمالية المجهولة، واستعان بخطيبته فى تجميع بعض ما احتاجه البحث من مادة الدوريات من دار الكتب المصرية، وبذلك اكتملت المادة التى أعد منها رسالته التى نوقشت فى نوفمبر ١٩٦٦».

(١٣)

هكذا أصبحت وظيفة هذا الباحث العلمى قريبة من ميدان التاريخ الاجتماعى والوطنى، وهكذا أصبح مجال بحثه العلمى قريبا من مجال السياسة، وهكذا أصبح

صاحبنا مسلحا بالوعى السياسى الناشئ من الوعى التاريخى، وها هو هذا الوعى يحدد موقفه من الثورة حيث نراه يحدثنا عن بعض ما أصابه من الاكتشاف المبكر لأخلاق ممارسة السياسة فى عصر الثورة، وهو يصف (بسخرية بالغة، وتحسر حقيقى) طريقة تنظيم المظاهرات الطلابية لمصلحة الثورة، وما كان يحيط بهذا التنظيم من تعطيل الدراسة، وإغلاق المكتبة، وتضييع وقت الطلاب، وتعويدهم على الفساد المبكر:

«. . . كان الاتحاد القومى (التنظيم السياسى للثورة) ينظم مظاهرات طلابية فى بعض المناسبات، فيجمع الفراشون سيارات التاكسى سعة الخمسة راكب من شارع شبرا، وتقدم إدارة رعاية الطلاب ٢٥ قرشًا لكل خمسة من الطلاب بعد ركوبهم التاكسى، على أن يتوجه الجميع إلى ميدان التحرير حيث تبدأ المظاهرة، فكان الطلاب عادة يدفعون لسائق التاكسى خمسة قروش بعد الخروج من الكلية ببضعة أمتار، ويقتسمون الباقى فيما بينهم، أو يصرفونه فى المقهى، أما الكلية فكانت تعطل الدراسة فيها تمامًا، وتغلق المكتبة أبوابها فى مثل هذا اليوم».

(١٤)

لهذا كله فإن رءوف عباس يصف توجهاته السياسية بدقة شديدة، لكنه، فى الواقع، يبدو مشمئزا من الأوضاع أكثر من قابليته للأمانى، ويبدو هذا فى نصه الذى يميل إلى النفى بأكثر من ميله إلى الإثبات، وهو يصنف نفسه فى النهاية على أنه واحد من الأغلبية الصامتة، وليس هذا بالأمر الغريب على توجه أمثاله فى هذه الحقبة، وانظر إليه وهو يقول:

«. . . فلم يكن الرجل من ذوى السلطان، ولم يتصل بأهله يومًا ما من قريب أو بعيد، ولم يكن فى موقع ما فى أى حزب سياسى بما فى ذلك التنظيم السياسى فى عصر الثورة، والأحزاب التى خرجت من عباءته، أو قامت على أطرافه، ولم يكن عضواً بأى من التنظيمات السياسية التى تعدها السلطة «خارجة عن إطار الشرعية»، بل كان الرجل مستقلاً، وإن كان بحكم انتمائه الفكرى أقرب إلى يسار الحركة السياسية، مؤمنًا إيمانًا لا يتزعزع بالقومية العربية، ولكن شتان بين مَنْ كان له دور فعال فى الحركة

السياسية، ومَنْ عاش على هامش لا تتجاوز مشاركته فيها حدود ما كان متاحًا لغيره من المواطنين ممن ينتمون إلى الأغلبية الصامتة».

(١٥)

ربما جاز لنا أن ننتقل الآن من معاناة صاحب المذكرات فى محيط الوطن إلى معاناته فى محيط الأسرة الصغيرة ولنتأمل فى حياة هذا الرجل وتكوينه، ولعلنا نبدأ هذا الحديث بطرفة من الطرائف العديدة التى تحتويها هذه المذكرات، وهو ما نراه من حرص رءوف عباس فى مقدمتها على أن يتندر بالتوافق الذى حدث فى تواريخ ميلاده وميلاد والده وميلاد ابنه ويقول:

«ولد صاحبنا فى الرابع والعشرين من أغسطس ١٩٣٩».

. . . .

«وشاء القدر أن يولد صاحبنا فى هذا الموقع بالذات فى ظروف أزمة دولية أشعلت نار الحرب العالمية الثانية، وعندما أصبح شابًا كان يتندر بهذا التوافق الغريب بين مولده وقيام الحرب العالمية الثانية، ومولد والده فى أغسطس ١٩١٤ وقيام الحرب العالمية الأولى، وكثيراً ما كان يبدى إشفاقا على العالم من أن يتسبب زواجه وإنجابه فى وقوع الحرب العالمية الثالثة، وعندما رُزق بولده الوحيد فى ٢٤ من أكتوبر ١٩٦٦ ظل يعرب فى سخرية عن قلقه على مصير العالم، ولم تمض نحو سبعة أشهر حتى وقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧، ولا يعنى ذلك أن عائلته كانت حقًا نذير شؤم على العالم ومصر، فلا علاقة بين مولد طفل برىء ووقوع حادث جلل بهذا الحجم المفزع، لكنه يعبر عن حالة نفسية مزاجية تلخص معاناة السنوات الخمس والعشرين الأولى من عمره».

(١٦)

ويتحدث الدكتور رءوف عباس بألم حقيقى ومتواصل عن معاناته من الجوانب القاسية وغير الإنسانية فى تربية جدته له، وهو يعجب من أن يكون هذا الذى لقيه فى بداية حياته هو مصيره فى سنوات الطفولة الأولى على الرغم من وجود والديه على قيد الحياة.

هو يقدم حديثه عن هذه المعاناة فى مواضع متعددة تصور المراحل المتوالية لهذه المعاناة.

وسوف نورد هذه الفقرات المتتابعة من حديثه فى مواضع متفرقة لتكون للقارئ صورة واضحة عن الانطباع القاسى الذى يتولد فى بعض هذه التجارب التى يبتعد فيها الطفل عن والديه، ويفتقد حنانهما كما يفتقد فى الوقت ذاته الحنان الطبيعى الذى يكون فى العادة مضاعفا عند كبار السن، وبخاصة إذا ما كانوا هم الأجداد والجدات، وربما يصعب علينا أن نتهم رءوف عباس بالمبالغة فى نقد سلوك جدته فى ضوء ما قدمه من صورة متكاملة لهذه المعاناة، وفى ضوء تصويره الدقيق لدوافع جدته فى هذا السلوك.

. . . .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن رءوف عباس قد أفاد من خبراته الأكاديمية كأستاذ للتاريخ فى التعبير الدقيق عن هذه الدوافع تعبيراً يكفل له من القارئ تصديق الوقائع المترتبة على الدوافع على الرغم من قسوتها:

«. . . فمنذ أواخر عام ١٩٤٣ عاش بالقاهرة مع جدته لأبيه، كان الأب يحس بالذنب تجاهها لتركه (أى الأب) لها (لوالدة الأب التى هى الجدة) (رغم ما عاناه من زوجها)، وخاصة أن طلاقها من زوجها الثانى جعلها فى حاجة إلى رعاية ولدها الوحيد لها، فقد كانت تكسب عيشها من الاشتغال بالخياطة لجيرانها من سكان المنطقة الشعبية التى كانت تقطنها بشبرا».

«رفضت الجدة أن تترك القاهرة وتعيش مع أسرة ابنها، فقد كانت تكره زوجته (أم صاحبنا) لأنها كانت من اختيار طليقها (والد الأب)، فخصص لها نجلها ربع دخله المحدود، وأصرت على أن تحتفظ بصاحبنا (رءوف عباس) معها ليلتحق بكتاب مشهور بشبرا بأرض الدراوى التى تقع مقابل مدرسة التوفيقية على شارع شبرا، وكانت فاتحة الإقامة مع الجدة سقوط صاحبنا (الطفل) من الطابق الثانى من فوق درج البيت (الذى كان بلا سياج) ليهوى على رأسه فى صحن البيت، وظل صوت ارتطام رأسه بالأرض

يدوى فى أذنيه عدة سنوات، وظل لمدة سنتين (بعد الحادث) يهب من نومه مذعورا يبكى لساعات، ويذكر أن الجدة وجيرانها ترددوا به على عدد من المشايخ، كان آخرهم بمشتهر، صنع له حجابًا ظل معلقًا فى رقبته نحو عامين، ولم يعد يستيقظ بعدها فى منتصف الليل مذعوراً، وذات يوم دفعه الفضول لمعرفة ما يحتويه الحجاب، فمزق غلافه من القماش ليجد بداخل الكيس ورقة مطوية عدة طيات فيها حروف متفرقة، ورسم كهيئة السير، وسيف غُطى نصله بالكتابة، فمزق الورقة، وادعى لجدته أن الحجاب سقط منه دون أن يدرى».

«ولم يكن الاستيقاظ فى منتصف الليل فى حالة هلع وذعر شديد هو كل ما ترتب على الحادث المروع من نتائج، فقد أصيب صاحبنا بكسر فى الفك الأيسر لم يتنبه إليه أحد إلا بعد نحو خمس سنوات من الحادث، ترتب عليه عدم استطاعته فتح فمه باتساع يزيد (على) نحو واحد ونصف سنتيمتر، وأورثته هذه العاهة (التى لازمته حتى اليوم وستصحبه إلى قبره) متاعب نفسية شديدة فى فترة المراهقة على وجه التحديد، فكان لا يتناول طعامًا أمام غرباء عنه حتى لا يثير فضولهم السؤال عن سبب تناوله الطعام بطريقة غريبة عن المألوف، بل جعلته هذه العاهة يحرص على أن يكون آخر مَنْ يدخل مطعم المدرسة الابتدائية، ويتلكأ فى تناول وجبته حتى ينصرف مَنْ حوله على المائدة، عندئذ يسرع بالتهام الطعام، وأورثته تلك العاهة، وحياته بعيداً عن أسرته وأخوته الذين كان يزورهم يوم الخميس بعد انتهاء اليوم الدراسى، ويعود من عندهم مساء الجمعة، أورثته الميل إلى الانطواء، وحذرا شديدا فى الاختلاط مع أقرانه، وحرصا شديدا فى اختيار مَنْ يتخذه صديقًا، وصاحبته الكثير من أعراض هذه الحالة النفسية حتى التحاقه بالجامعة، بدأ يتخلص تدريجيا منها، فلم يبق منها إلا الحرص الشديد فى انتقاء الأصدقاء».

(١٧)

وحين يروى رءوف عباس قصة قبوله فى إحدى المدارس الابتدائية فإنه يجعلنا نشعر بمزيج من التعاطف معه من ناحية، ومن احترام النظام السائد فى ذلك الوقت مهما كان قاسيا فى مظهره:

«. . . وقدم أوراق ابنه لمدرسة السيدة حنيفة السلحدار الابتدائية التى تقع بشارع زنانيرى أمام المحكمة الشرعية بأول شارع شبرا، وجاء اختياره لهذه المدرسة، وليس مدرسة شبرا الابتدائية الأقرب موقعًا من عزبة هرميس حيث يقيم مع الجدة، أن لمدرسة السيدة حنيفة السلحدار وقفا خاصا للإنفاق على المدرسة التى خصصتها صاحبة الوقف لتعليم أبناء فقراء المسلمين، فكان الاختيار مرتبطا بما توفره هذه المدرسة من ميزة تحمل الوقف الخاص بالمدرسة لثلثى رسوم الدراسة».

«أدى صاحبنا امتحان القبول فى الحساب والإملاء، وذهب إلى المدرسة برفقة والده لاستطلاع النتيجة عند سكرتير المدرسة، فعلم منه أن النجاح كان من نصيبه وأنه قبل بالمدرسة، ولكن القبول لا يعد نهائيا إلا إذا أحضر «كارت» توصية من أحد «البكوات» موجها إلى حضرة صاحب العزة محمد بك الكاشف ناظر المدرسة».

(١٨)

وهذا هو بعض حديث صاحب المذكرات عن قسوة والده عليه وعلى طموحاته المشروعة:

«خرج الوالد من المدرسة مكتئبًا، يائسًا، يصب جام غضبه طوال الطريق إلى باب الحديد، وطوال رحلة القطار إلى أوسيم، علق والده المسكين قائلا: أدى آخرة كلام عمك أبوزيد، فاكرك بنى آدم، ماله الكتاب.. ده من توبنا.. لكن تقول إيه للخيبة.. تقدر تقوللى أجيب لك كارت (بك) إزاى؟! لازم ترجع الكتاب وتحفظ القرآن فى سنة واحدة، أو أبعتك ورشة تتعلم صنعة مادمت فقرى».

«هذه الجمل، وتقاسيم أخرى تتصل بسياقها كانت سهامًا تدمى فؤاد الطفل البائس الحائر ابن السابعة الذى نجح فى امتحان القبول ويبقى التحاقه بالمدرسة المناسبة لوضعه الاجتماعى مرهونًا بعملية «الفرز» الاجتماعى التى قد تتيح لأبناء العمال تجاوز حدودهم الطبقية، أو تحول بينهم وبين ذلك. كان صاحبنا مطأطئ الرأس طوال الوقت، ينتابه إحساس عميق بالظلم من والده جعل الدموع تحتبس فى مآقيه، وعندما وصل صحبة والده إلى محطة أوسيم، كان من واجب الوالد صرف تذاكر السفر

للركاب، أجلسه معه بمكتب التذاكر، وراح يتسلى بتوبيخه بما لا يخرج عن السياق سالف الذكر، وهو يبيع التذاكر للجمهور، ودخل المكتب فجأة شيخ معمم مهيب الطلعة، استقبله الأب بالترحاب، كان الشيخ عمدة قرية سقيل القريبة من محطة أوسيم على خط المناشى (مديرية التحرير الآن)، وعاد الأب إلى معزوفة التوبيخ فى حضرة العمدة، فسأله الرجل عن السبب، وعندما علم أن «كارت» توصية من بك يحل المشكلة، نصح الأب بحسن معاملة ولده وسأل عن اسم الولد واسم ناظر المدرسة. كان العمدة فى طريقه لمقابلة البك صاحب العزبة فى قريته، ورغم أنه لم يذكر لوالد صاحبنا عندما سمع منه القصة كاملة، عاد مساء اليوم نفسه حاملاً كارت التوصية، وبذلك وجد صاحبنا نفسه تلميذًا فى مدرسة السيدة حنيفة السلحدار، وبدأ النحس الذى لازمه منذ الرابعة من عمره ينقشع، وتحول الكتاب وقسوة الشيخ وساديته فى تعذيب التلاميذ إلى مصاف الذكريات الحزينة».

(١٩)

ويقدم رءوف عباس فى هذا الكتاب لوحة نفسية نادرة يتحدث فيها فيما يبدو عن مدى قسوة جدته لأبيه عليه، وعن السبب الغريب الذى دفع إلى هذه القسوة، وهو كراهيتها لوالدته التى لم توافق على اختيارها زوجة لابنها، ومع أن مظاهر هذه القسوة لا تحتمل وتدفعنا إلى التعاطف مع مَنْ وقعت عليه وهو صاحب المذكرات، فإننا نرى انتصاره على القسوة أمرا حتميا فى ظل ما نعرفه عنه من إصرار على «التحقق» بعيدا عن «التمتع» أو «الراحة»:

«. . . فمنذ وعى كان يسمع جدته تختتم صلواتها (التى تحرص عليها) بالدعاء على أمه سائلة الله أن يحرق قلبها على أولادها، وكانت تعامله بجفاء شديد، تمنعه من الخروج من الغرفة محدودة المساحة إلى الشارع، ولم يستطع أن يتمتع بما يتمتع به أترابه من حرية اللعب إلا بعد التحاقه بالمدرسة، فكان لا يعود إلى البيت كل يوم إلا قبيل الغروب، يتوقف فى أثناء العودة بملاعب التوفيقية الثانوية للفرجة على تدريبات الملاكمة والمصارعة والجمباز، ثم يتوقف فى فناء كنيسة مار جرجس».

«وحرصت الجدة على أن تكلفه بأمور لا تفسير لها سوى إرهاقه انتقامًا من أمه فى

شخصه، فلا ترتاح إلا إذا أرسلته إلى حقول منية السيرج ليقطع المسافة فى ساعتين ذهابًا وإيابًا ليشترى من هناك بخمسة مليمات الملوخية والطماطم، ويحصل على الفجل والجرجير (فوق البيعة)، حتى إذا عاد من تلك الرحلة المضنية صبت عليه وعلى أمه اللعنات لأنه تأخر فى مشوار هو مجرد «فركة كعب».

«وإذا احتاجت لشراء الخبز أرسلته إلى مخبز يقع على مسيرة ساعة ذهابًا وإيابًا برغم توفر الخبز عند بقال الحى، وكانت ترى أن وجبة العشاء مضرة ولا تنفعه لأنه صغير وتناول العشاء قبل النوم يؤثر على قدرته على الفهم، وتتناول وحدها العشاء وهو يرقبها حتى تعود على ذلك، فحذف من قاموسه مصطلح العشاء».

« وإذا طبخت لحما أكلته وحدها (لأنها مريضة والحكيم وصفه لها)، وعندما تجرأ وأكل - سرًا - قطعة من اللحم ظنًا منه أنها لن تكتشف الأمر، اتضح أنها تحمل معها محضر الجرد) فاكتشفت السرقة ولعنته وأمه لأنه (مفجوع) مثلها، وتوعدته أن ينال من الله جزاء السارق، فيصلى نارًا موقدة».

« أما الإفطار فلا مكان له سوى أيام الكتاب، أما بعد الالتحاق بالمدرسة فلم تعد هناك حاجة إليه لأن المدرسة تقدم وجبة ساخنة أيام السبت والأحد والثلاثاء والأربعاء، ووجبة جافة يومى الاثنين والخميس، وتناول وجبة الإفطار يؤثر على قدرته على التحصيل، فكان عليه أن يذهب إلى المدرسة فى الصباح سيرًا على الأقدام لمدة ساعة يوميًا، دون أن يتناول طعامًا منذ ظهر اليوم السابق».

. . . .

(٢٠)

وهو يتحدث عن معاناة والدته من الظروف التى فرضت عليها وعلى ابنها:

«. . . ولم تجرؤ (الضمير يعود على والدته) على البوح بما يتعرض له ولدها من سوء المعاملة إلا عندما رسب بالفرقة الأولى الثانوية، وفكر الأب فى إنهاء تعليمه عند هذا الحد، فيلحقه بعمل حتى يبلغ الثامنة عشرة، عندئذ يسعى لتعيينه بالسكة الحديد بوظيفة كتابية، فانفجر غضب الأم الصبورة المطيعة دومًا، وحكت للأب كل ما يعانيه

ابنه، وتعرض الولد لاستجواب طويل من جانب الأب الذى كان يجهل تمامًا حقيقة ما يجرى لولده، وعلى ضوء ذلك قرر نقله إلى مدرسة طوخ الثانوية (حيث كان يعمل هناك)، فأحس صاحبنا لأول مرة بدفء الحياة الأسرية، وتعرف على اخوته واندمج بينهم، وفتحت بذلك صفحة جديدة من حياته، كان لها أثرها فى تكوينه النفسى، فتلاشى الشعور بالاضطهاد الذى لازمه طوال حياته بعزبة هرميس، وتخلص تدريجيا من الانطواء، وتحسن أداؤه الدراسى كثيراً، كما تحسنت أحواله الصحية، لكنه لم يتخلص من كراهيته للجدة رغم اضطراره لزيارتها مرة كل أسبوع، تنفيذا لأوامر أبيه، ويحرص على العودة فى نفس اليوم بعدما تُسمعه معزوفتها المعتادة فى نقائص أمه، وتنعى عليه ما أصابه من زيادة الوزن مما يدل على أن أمه (تحشر) له الطعام، فيؤدى ذلك إلى (تخن) مخه وخيبته فى الدراسة (بإذن واحد أحد)».

«لم يعد الفتى يلقى بالاً لهذا الهراء، طالما كانت الزيارة قصيرة روتينية، وعندما طلب منه والده أن يقضى إجازة الصيف مع جدته بعزبة هرميس، جرؤ - لأول مرة - على رفض طلب أبيه، ولكنه برر ذلك برغبته فى العيش مع اخوته لأنه يشعر أنه يعامل معاملة (المنبوذ) دون مبرر، واكتفى الأب بتسديد نظرة قاسية نحوه، وقد كست ملامح الغضب وجهه، ولكنه لزم الصمت، وانتهى الأمر عند هذا الحد».

. . . .

«كان لابد له من قضاء العام الدراسى الأول بعزبة هرميس عند جدته، ولكنه اتخذ من المكان مهجعًا فكان يظل بمكتبة الكلية حتى موعد إغلاقها فى السادسة مساء، أو يقضى اليوم بدار الكتب المصرية بباب الخلق، ويكتفى من الطعام بما يقيم الأود».

«وكان اضطراره للإقامة مع الجدة مرة أخرى يعود إلى صعوبة الوصول إلى القاهرة يوميا قبل الظهر، مما يعنى حرمانه من المحاضرات الصباحية، وكان عليه (فى حالة السفر يوميًا) مغادرة القاهرة الساعة الثالثة بعد الظهر، مما يعنى حرمانه من المحاضرات المسائية».

«وهيأ القدر لضيقه بهذا الوضع مخرجًا فنُقل الوالد - ومعه الأسرة - فى العام التالى إلى محطة الحامول منوفية، فاستطاع السفر يوميًا».

نأتى إلى بعض الأوصاف الدقيقة والذكية لبعض الأحوال الاجتماعية التى أجاد الدكتور رءوف عباس تقديمها لمن يريدون كتابة التاريخ الاجتماعى لمصر المعاصرة.

نبدأ بما يرويه رءوف عباس عن المظاهر العميقة والعفوية للوحدة الوطنية حين يقدم تصويراً رائعًا للعلاقة الحميمة بين المسلمين والمسيحيين من سكان عزبة هرميس، التى قدر له أن يقضى فيها فترة طفولته، وهو تصوير ليس بغريب عن الصورة الذهنية التى يعرفها سكان القاهرة ممن قدر لهم أن يحتكوا بأهل هذا الحى، وأن يدركوا عراقة الصلة بين أهله، وتأصل الوحدة الوطنية فى نفوسهم وسلوكهم، وتعمق حب الجيران والوفاء لهم:

«. . . وكان سكان العزبة موزعين توزيعًا متساويًا بين الإسلام والمسيحية فى بعض البيوت، ولعل تجمع الأقباط المنياويين الفقراء فى هذا المكان يعود إلى قربه من كنيسة مارى جرجس التى تقع فى نهاية شارع الجيوشى، وكان فناء الكنيسة مرتعًا لأطفال العزبة من المسلمين والأقباط، فيذكر صاحبنا تلك الأيام التى شارك فيها أترابه اللعب فى فناء جارة جدته التى كانت تناديها «يا أمى»، وكانت تخاطب والد صاحبنا عند زيارته لأمه «يا أخويا»، وظل صاحبنا حتى بلغ الثامنة من عمره، يعتقد أن «عمته» أم جرجس شقيقة لوالده وابنة لجدته، وخاصة أن أبا جرجس كان ينادى الجدة «يا حماتى»، وعندما كان يحدث سوء تفاهم بين آباء جرجس كانت الجدة تعنف الزوج، فيسترضيها ويقبل رأسها».

«لذلك كانت عزبة هرميس «مصر الصغرى»، عاش سكانها معًا وكأنهم أسرة واحدة، يأكلون معًا من طبق واحد، فرغم فقرهم الشديد كانوا يتبادلون أطباق الطعام والحلوى، ولم تكن أيام صيام الأقباط العديدة عائقًا أمام استمرار هذه العادة، بل كان الجميع مسلمون وأقباط صائمين معظم العام بالمفهوم القبطى للصيام، لا تعرف «طباليهم» اللحوم إلا فى المواسم والأعياد، وكانت النسوة المسلمات والقبطيات يتبادلن إرضاع أطفال بعضهن البعض، بل ورعاية أطفال بعضهن البعض إذا اضطرت إحدى الأمهات إلى السفر إلى قريتها فجأة لأمر طارئ، والجميع لا يفوته واجب عيادة المرضى، وتقديم التهانى فى الأفراح، والتعازى فى الأتراح».

(٢٢)

فإذا ما انتقلنا من حياة رءوف عباس فى بيته إلى حياته فى مدرسته وجدناه ينتقل بنا من وصف المعاناة الشديدة إلى وصف سعادة حقيقية ذلك أنه يصف النشاط المدرسى فى مدرسته الابتدائية وصفًا دقيقًا يجعلنا نتحسر على ما آل إليه حال التعليم فى مصر، ويجعلنا نبحث أيضًا فى الوسائل التى قد تعيننا على العودة إلى هذا العصر الذهبى الذى كان موجودًا بالفعل قبل أن تقودنا سياسات متعاقبة إلى تفريغ التربية والتعليم من محتواهما:

«. . . وشملت برامج الدراسة بالإضافة إلى اللغة العربية والحساب والتاريخ والجغرافيا والعلوم للفرقتين الأولى والثانية يضاف إليها الإنجليزية للفرقتين الثالثة والرابعة، شملت برامج الدراسة الرسم حيث ينتقل الفصل إلى حجرة الرسم، فيشرح المدرس قواعد الرسم، ويمر على التلاميذ ليوجههم ويصحح أخطاءهم، ويولى اهتمامًا بمَنْ يلمس لديه بعض الاستعداد فينمى موهبته».

«وجرت العادة على إقامة معرض فى نهاية العام لرسوم التلاميذ، ويحدث نفس الشىء فى حصة الأشغال فيتعلم التلاميذ تشكيل الطين الصلصال، والزخرفة بمواد مختلفة، والأعمال الخشبية».

«ويهتم المدرس أيضًا بذوى المواهب الخاصة من التلاميذ ليزدان بإنتاجهم معرض نهاية العام، أما حصة الألعاب فكانت تربية بدنية بحق، وكانت حجرة الموسيقى بها بيانو وآلات وترية وطبول، وكان التلاميذ يُدربون على النوتة الموسيقية تدريبًا جديًا، ويختار من بين الطلاب الموهوبين فريق الموسيقى الذى يعزف فى طابور الصباح أثناء إلقاء النشيد الوطنى، وكذلك فى الحفل السنوى فى ختام العام الدراسى».

(٢٣)

هكذا كانت التربية المدرسية كفيلة له بأن يتغلب على سلبيات التربية المنزلية، وهو على سبيل المثال يتحدث عن سماح والده له بممارسة السياسة:

«. . . عاد صاحبنا من قلب القاهرة إلى عزبة هرميس سيرًا على الأقدام ليصل إلى هناك بعد الغروب، فتستقبله جدته باللعنات لأنه يسير فى طريق الضياع باشتراكه فى

المظاهرات مع «العيال البطالين»، وتتوعده بإبلاغ أبيه، وكان حاضراً ذات مرة وهى تقص على الأب ما حدث من ولده، فاستمع الأب للقصة ثم قال لولده: «أهم حاجة عندى انك تأخذ الابتدائية، وبعدها كله بأمر الله»، فاعتبر هذا تصريحًا من والده بالموافقة (ضمنًا) على اشتراكه فى المظاهرات، وخاصة أن الأب كان وفديًا حتى النخاع، ويرى أن النحاس باشا «زعيم الأمة» بلا منازع، ويعتز بمصافحته للزعيم على رصيف محطة بورسعيدعام ١٩٣٦، وحضوره بعض المناسبات التى خطب فيها».

(٢٤)

كذلك فإننا نرى مظهرا مهما من مظاهر التاريخ الاجتماعى فيما يصوره الدكتور رءوف عباس فى دقة شديدة وشغف محبب إلى النفس كفاحه من أجل التعليم الجامعى، وهو يروى أن هذا الكفاح كان يلقى معارضة شديدة من والده، لكن هذه المعارضة توقفت عند حدود المعارضة الشفوية، كما يروى كيف ساعدته الصدفة والروح العامة فى المجتمع والدولة على تحقيق هدفه فى النجاح فى هذا المسعى النبيل:

«... وفى صباح اليوم التالى طلب من أمه أن تخبر أباه اعتزامه السفر إلى القاهرة (وكان يحمل أبونيه مجانى يُصرف لأبناء العاملين بالسكة الحديد)، فقد جرت العادة أن يقاطع الأب مَنْ يغضب عليه عدة أيام، فلم يرد الأب بما يفيد الرفض أو الموافقة، بل نظر إليها ولزم الصمت، واعتبر صاحبنا أن هذا السكوت لا يعنى الرفض على أقل تقدير، فسافر توًا إلى القاهرة وراح يبحث عمن يقرضه من أقاربه حتى يجمع المبلغ المطلوب لرسوم الدراسة فلم يجد ترحيبًا من أحد، حتى مَنْ كان باستطاعتهم مساعدته منهم امتنع بحجة عدم جدوى ذلك لأن أمامه مرحلة طويلة، والبلد حالتها الاقتصادية سيئة، والبطالة تتزايد، فلا أمل لمن يتعاون معه فى استرداد ما دفع، سيدة واحدة هى ابنة خالة أبيه قدمت له خمسة جنيهات كاملة، وطلبت أن يبقى الأمر سرًا بينهما لأن تلك الجنيهات من مبلغ ادخرته للزمن لا يعرف عنه أحد شيئًا، فكانت هذه مكرمة لم ينسها أبدًا لها حتى رحلت عن عالمنا فى أوائل التسعينيات».

وهو حريص على أن ينسب إلى ثورة ٢٣ يوليو الفضل الكامل فى التوسع فى منح المجانية، مقدما ما لم تقدمه الدولة الناصرية نفسها من أسانيد تؤيد فكرته التى يريد بها أن يصور الدولة على هذا النحو، ومن الحق أن نذكر أن هذه السياسات كانت قد بدأت منذ ما قبل ذلك فى وزارات الوفد، لكن كثيرين من قبيل رءوف عباس والأجيال التالية (حتى وإن كانوا من أساتذة التاريخ) يستسهلون عن حسن نية أن ينسبوها إلى عهد الثورة:

«. . . وعندما أعلنت نتيجة القبول وجد اسمه الثالث بين المقبولين بآداب عين شمس، وجاء اختياره لجامعة عين شمس مرتبطًا بظروفه الشخصية، فكلية الآداب كانت فى شبرا، وبذلك يستطيع السفر يوميًا إلى الجامعة بالأبونيه المجانى، ويصل إلى الكلية سيرًا على الأقدام حتى لا يضطر إلى الإقامة مع جدته مرة أخرى، لذلك كانت سعادته بالغة عندما قُبل بآداب عين شمس».

«وعندما ذهب إلى الكلية لأول مرة فوجئ بأن من حق مَنْ يحصل على ٦٠٪ فما فوق من غير القادرين على سداد المصروفات أن يتقدم بطلب للحصول على المجانية مشفوعًا ببحث اجتماعى عن حالته من وحدة الشئون الاجتماعية التابعة لمحل إقامته، فقام بإعداد الأوراق المطلوبة وتقديمها، وأعلنت كشوف أسماء مَنْ حصلوا على المجانية بعد ثلاثة أسابيع فلم يدفع سوى ٣٦٠ قرشًا رسومًا للقيد بدلاً من المصروفات التى كانت تبلغ ثمانية عشر ونصف (جنيه) فيما يذكر، ولم تكن مجانية التعليم قد امتدت إلى التعليم العالى إلا فى يوليو ١٩٦٣، ورغم ذلك بنت حكومة الثورة سياستها على التوسع فى منح المجانية لمن يطلبها، وكان المستند الوحيد الذى يبرر الإعفاء (البحث الاجتماعى) يتم بمجرد تقديم الطلب، فيسأل الطالب عن وظيفة أبيه، وراتبه الشهرى، وعدد أفراد الأسرة، دون مطالبته بأى مستندات دالة على صحة البيانات، ويتم تحرير البحث الاجتماعى وتسليمه لطالبه بعد ختمه بخاتم الدولة، وأغلب الظن أن أولئك الموظفين بالشئون الاجتماعية كانت لديهم تعليمات بالتساهل مع طلاب المجانية، فكان عدد مَنْ يُعفون من المصروفات بالكلية سنويًا يزيد قليلاً (على) نصف جملة عدد الطلاب، وكان الاحتفاظ بالمجانية يقتضى الحصول على

تقدير «جيد» على الأقل كل عام، وهو ما حصل عليه صاحبنا، واستطاع عن طريقه متابعة الدراسة حتى التخرج بفضل القواعد التى وضعتها ثورة يوليو للقبول بالجامعات التى ركزت على التحصيل الدراسى، وأسقطت من اعتبارها الخلفية الاجتماعية للطالب، وبفضل التوسع فى منح المجانية لغير القادرين على سداد المصروفات، ففتحت باب التعليم الجامعى أمام فئات اجتماعية لم تكن تحلم فى عهد الملكية بالوقوف أمام باب الجامعة، فضلاً عن الالتحاق بها، وكان صاحبنا من ضمن هؤلاء».

(٢٦)

ومن حسن حظنا أن رءوف عباس يصور بدقة وإمتاع شديدين ملامح النظام الجامعى فى العصر الذى درس فيه، وما كان يتطلبه من تفرغ الطالب للبحث والعلم من خلال محاور دراسية متعددة وهو نظام كان فى حد ذاته كفيلاً بأن يدفع الطلاب إلى الاجتهاد والالتزام طيلة العام، بعيدًا عن اللجوء إلى حيل أخرى لإبعاد الطلاب عن ممارسة السياسة من قبيل نظام التيرم، ولسنا ندرى لماذا لا تعود جامعاتنا إلى الأخذ بمثل هذا النظام القادر على أن يمكن خريجى الجامعة من القدرة على الكتابة والتعبير، وهى القدرة التى يفتقدونها الآن بشدة:

«. . . وكان الاهتمام كبيرًا بالجانب التطبيقى، فعلى الطالب أن يعد ما لا يقل عن بحثين فى الفصل الدراسى الواحد على يد مَنْ يتولى تدريس «مادة البحث»، وكانت تلك المادة تؤخذ من جانب الأساتذة مأخذ الجد، فهناك متابعة أسبوعية لمدى تقدم الطالب من إعداد المقال العلمى الذى كلفه به الأستاذ، وهناك تصحيح دقيق لكل مقال، وإلزام الطالب بإعادة كتابته إذا لم يكن مناسبًا، وهناك حد زمنى معين على الطالب الالتزم به وعدم تجاوزه لتقديم المقال، ومعنى ذلك أن الطالب يُدرب على كتابة مقال علمى فى تخصص معين (عصر محدد) أربع مرات فى العام الدراسى الواحد، وكانت نتيجة «أعمال السنة» تعلن قبل موعد الامتحان التحريرى بأسبوعين، ويحرم الراسب فيها من دخول امتحان الفصل الدراسى، فكان الرسوب فيها يعنى الرسوب فى أربع مواد، مما يعنى وضع مصيره فى كف القدر، فإذا لم يحصل على درجات مناسبة فى الفصل الدراسى الآخر تؤهله للحصول على تقدير «ضعيف»، فُصل من

الجامعة، لأن اللائحة كانت تنص على فصل كل مَنْ يحصل على تقدير «ضعيف جدًا»، أما مَنْ يحصل على تقدير «ضعيف» فله حق الإعادة فيما رسب فيه».

(٢٧)

ويستطرد الدكتور رءوف عباس إلى الحديث عن بعض الآثار الحميدة لهذا النظام، وهو إقبال الطلبة على قاعات مكتبة الكلية وقاعات دار الكتب المصرية نفسها، كما أنه لا يفوته أن يتحدث عن حظ طلاب الانتساب من الجدية فى هذا النظام:

«وهكذا كانت مكتبة الكلية مكتظة بالطلاب طوال اليوم من التاسعة صباحًا إلى السادسة مساء، وانتشر طلبة آداب عين شمس فى قاعات دار الكتب المصرية، أما طلاب الانتساب فكانوا يكلفون بدراسة موضوع معين فى كل فصل دراسى يحدد له أربعة مراجع على الأقل، يؤدون فيه امتحانًا تحريريًا قبل موعد الفصل الدراسى بشهر، فإذا لم ينجح الطالب المنتسب فى تلك المادة حُرم من دخول امتحان الفصل الدراسى، وتعرض لما يتعرض له الطالب المنتظم من مخاطر».

(٢٨)

ويصل رءوف عباس فى ذكائه وإخلاصه إلى أن يصور عن طريق الأرقام مدى نجاح هذا النظام التعليمى الجاد فى تكوين كوادر متميزة أفاد منها الوطن بوضوح:

«ولا عجب أن تجد طلاب الفرقة الأولى عام ١٩٥٧ (الذين كان من بينهم صاحبنا) يبلغون نحو ٢٧٥ طالبًا (٢٠٠ منتظم + ٧٥ متنسبا)، تتم تصفيتهم ليصبح عدد خريجى قسم التاريخ عام ١٩٦١ (الدفعة العاشرة التى ينتمى إليها صاحبنا) ٨٦ خريجًا فقط، مما يعكس مدى جدية الدراسة، ودقة تقويم أداء الطلاب، ونوعية تكوين الخريج، ويكفى للدلالة على ذلك كله أن أربعة من بين خريجى هذه الدفعة تابعوا دراستهم العليا حتى حصلوا على الدكتوراه واحتلوا مكانهم ضمن هيئة التدريس بالجامعات، كان صاحبنا واحدًا منهم».

(٢٩)

هكذا ننتقل فى هذه المذكرات بين كثير من الآفاق التى نجح أستاذ التاريخ الاجتماعى

أن يصور بها طبيعة العصر الذى عاش فيه، وقد لجأ إلى زوايا عديدة مكنته من أن يقدم لنا صورة نادرة فى صدقها وتعبيرها عن العصر وعن ظروف العصر وشخصيات العصر.

ومع هذا فإن أهم ما فى هذه المذكرات، فى رأيى، ليس هو حديثها عن صاحبها، ولا عمن انتقدهم، وإنما هو حديثها الذكى النبيل عمن رأى فيهم قدرة ومثلاً وقيمة تستحق التنويه، والحق أن رءوف عباس قدم لنا أساتذته تقديما جميلا يستعصى على غيره من محبى العلم والثقافة والمنهج الأكاديمى، وهو على سبيل المثال يتحدث عن أستاذه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى فيقول:

«مدرس شاب أثر تأثيرًا بالغًا فى صاحبنا هو الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى، ابن سوهاج، الذى كان عائدًا لتوه من البعثة التى حصل بها على الدكتوراه من جامعة لندن، درس عليه مناهج البحث بالفرقة الأولى، ولم يدرس عليه مرة أخرى سوى فى الفرقة الثالثة، ولكنه ارتبط به منذ المحاضرة الأولى التى سمعها منه، فهذا المدرس الشاب كان يحث التلاميذ على التفكير، ونبذ المسلّمات ما لم يقم الدليل العقلى على صحتها، وأن الحقيقة التاريخية ليست كاملة، وأن الموضوعية مسألة نسبية. كان هذا الكلام جديدًا على صاحبنا لا فى موضوعه فحسب، بل وفى طريقة طرحه، وأسلوب عرضه، وبعد المحاضرة سار صاحبنا بجوار أستاذه الشاب يناقشه فى بعض ما سمعه منه، وطرح عليه سؤالاً معينًا، فإذا به يفاجأ بالرجل يقول له إنه ليس متأكدًا تمامًا من الإجابة، واقترح على التلميذ أن يبحث عن الإجابة فى كتاب معين، وأن يلتقى به إذا وجد نفسه فى حاجة إلى الإيضاح».

(٣٠)

وفى موضع آخر يتحدث بالإعزاز نفسه عن أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى الذى جعله قدوة له فى إنسانيته، وأستاذيته، وعمله، وفكره فيقول:

«وعندما جلس إلى أحمد عبد الرحيم مصطفى وجد فيه القدوة التى ينشدها، واتخذه مثلاً أعلى له، وتمنى (بينه وبين نفسه) أن يصبح مثله، ومنذ ذلك اليوم حدد

هدفه الأساسى فى الحياة، وهو العمل على أن يتخصص فى التاريخ الحديث، وأن يتعلم على يد هذا الرجل».

«كان الأساتذة يحرصون على ترك مسافة واسعة بينهم وبين الطلاب، حفاظًا على «هيبة» الأستاذ، القليل منهم يسمح للطلاب بمناقشته فى أضيق الحدود، وغالبيتهم لا يسمحون بذلك، ويضيقون ذرعًا بمن يطرح سؤالاً أثناء المحاضرة، أما أحمد عبد الرحيم مصطفى فكان إنسانًا عظيمًا، ومربيًا عبقريًا، قبل أن يكون أستاذًا. التحم بتلاميذه، ولم يترك مسافة بينه وبينهم، ذهب صاحبنا يومًا للقائه بحجرة الأساتذة بالكلية، وكانت قاعة واسعة بها مكتبه ومكاتب كل من عبد المنعم ماجد، وزينب عصمت راشد، وحسن حبشى، وأحمد عزت عبد الكريم، وكانت هذه الغرفة أشبه ما تكون بقدس الأقداس فى المعبد الفرعونى، لا يدخلها إلا أعضاء هيئة التدريس، ولذلك عندما صرح له أحمد عبد الرحيم مصطفى بالحضور إلى المكتب متى شاء إذا احتاج لسؤاله عن شىء، أحس بالرهبة وتردد قليلاً ثم طرق باب الغرفة، وفُتح الباب فإذا بعبد المنعم ماجد ينهره، ويطلب منه إغلاق الباب، فتراجع خطوة إلى الوراء ليسمع صوت أحمد عبد الرحيم مصطفى يأمره بالدخول ويجلسه على كرسى بجوار مكتبه، ويستمع إليه، ويتناقش معه دون اعتبار لضيق ماجد وزينب عصمت راشد (اللذين) تصادف وجودهما، بما يُقدم عليه هذا المدرس من خرق للتقاليد».

«وعن طريق أحمد عبد الرحيم مصطفى عرف الطريق إلى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فيما بعد، فكان يلتقيه (بعد التخرج) هناك، أو فى نادى أعضاء هيئة التدريس، أو فى منزله بشبرا، وكانت مكتبة هذا الأستاذ متاحة له، يعيره صاحبها المراجع الإنجليزية التى لا يجدها فى مكتبة الجامعة، ويفيض عليه بعلمه الغزير، فيفتح له آفاقًا معرفية جديدة، فتبعه كما يتبع المريد شيخه».

(٣١)

ويتحدث رءوف عباس عن أستاذه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم حديثا يحفل بالإعجاب بشخصية وطريقة أدائه، وهو يحدثنا عن نمو إعجاب أستاذه به بطريقة تدريجية كفيلة بأن تعلم الطلاب المجتهدين كيف يستحوذون على حب أساتذتهم، كما

أنه يرجع الفضل فى جذبه لانتباه أستاذه الكبير إلى ما علمه له أستاذه الشاب أحمد عبد الرحيم مصطفى من عناية بمادته قبل أن يحضرها على أستاذه فى المدرج الكبير :

« . . . كان أحمد عزت عبد الكريم محاضراً متميزاً يستقرئ المادة التى يقدمها فى صورة تساؤلات منها الإجابات المحتملة، جاعلاً من موضوع المحاضرة قضية يتفحص شواهدها مع طلابه، ويبحث معهم عن دلالاتها، يسمح بالمناقشات فى حدود إذا كان السائل يطرح سؤالاً وجيهًا يعكس درجة استيعابه لما سمعه من الأستاذ، ولكنه كان يحرص على اتساع المسافة بينه وبين طلاب مرحلة الليسانس، وبدأ الأستاذ ينتبه إلى صاحبنا من أسئلته خلال الدرس، فقد وعى جيداً نصائح أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى، فكان يعد نفسه للمحاضرات قبل حضورها بقراءات مركزة فى المراجع الهامة ويجهز أسئلته، وبعدما يستمع للمحاضرة يبحث عن إجابة للتساؤلات التى لم تجب عليها المحاضرة، أو يسأل الأستاذ رأيه فيما قدمه الآخرون من تفسير لبعض النقاط، وعندما درس على أحمد عزت عبد الكريم مادة «نصوص تاريخية بالإنجليزية» بدأ الأستاذ درسه الأول بتكليف أحد الطلاب قراءة النص، فهاله حجم الأخطاء فى النطق الصحيح لمخارج الألفاظ، وأسكت القارئ بأسلوب جارح غاضب، وطلب من غيره ممن يجيد القراءة فتقدم صاحبنا وقرأ النص قراءة صحيحة، فكلفه الأستاذ بأن يقرأ النص فى كل محاضرة حتى نهاية الفصل الدراسى» .

(٣٢)

وفى موضع آخر يتحدث رءوف عباس عن أستاذية أحمد عزت عبد الكريم ناسبا الفضل إلى أستاذه الشاب الذى صور للأستاذ الكبير مدى حرص رءوف عباس على التفرغ للدراسة، وهو ينتقل إلى الحديث عن أبوية ذلك الأستاذ الكبير، وهى أبوية من طابع الأبوة الناضجة الحانية المخلصة فى جيله المتميز :

« . . . وعندما التقى أستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى بعد بضعة أيام، فوجئ عندما علم منه أن الدكتور أحمد عزت عبد الكريم معجب بحرصه على التفرغ للدراسة إلى حد التضحية بوظيفة تدر دخلاً يزيد على المنحة بمقدار النصف تقريبًا، رغم أنه متزوج وأب لطفل لازال فى الشهور الأولى من عمره، وأن الأستاذ الجليل قدر للطالب عدم ارتكانه التام إلى المنحة الدراسية» .

«كان أحمد عزت عبد الكريم يتعامل مع طلابه بأسلوب جيل الآباء فى ذلك الزمان، فهم لا يكشفون حقيقة مشاعرهم تجاه الأبناء، حتى لا تفسدهم عبارات الإطراء والمديح، ويذكر صاحبنا أثناء إعداده الماجستير، وتقديمه الفصول التى يكتبها للأستاذ لمراجعتها (أنه كان) ينتظر قلقًا لسماع رأيه وتوجيهاته، ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى وهو فى الطريق إلى لقاء أستاذه لمعرفة رأيه فيما كتب، كان يتلقى بعض الملاحظات الشكلية منه، فإذا سأله عن تقديره لما كتب رد الأستاذ بقوله: «نصف العمى.. أهو والسلام.. على قد حالك»، فيفزع صاحبنا ويسأل الأستاذ عن موطن التقصير وكيفية علاجه، فيقول له: «أكمل للآخر وبعدين نشوف شغلك ينفع ولا لأ»، يشعر صاحبنا بالإحباط، ويضرب أخماسًا فى أسداس حتى يلتقى بأستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى فيفاجأ بقوله: «عمك (يقصد الدكتور أحمد عزت عبد الكريم) مبسوط منك خالص، ومعجب بمنهجك وأسلوبك فى معالجة الموضوع، وبيقول الولد ده حيطلع مؤرخ متميز»، وعندما يروى له التلميذ ما سمعه من الأستاذ الجليل يرد أحمد عبد الرحيم مصطفى بقوله: «كان دايمًا يقول لى كده وأكتر.. هو بيخاف لو عبّر عن ارتياحه لشغل الطالب أن يركبه الغرور.. ويرى أن هذا الأسلوب يحفز الطالب على بذل أقصى طاقته لتقديم أفضل ما عنده».

(٣٣)

وفى موضع ثالث يقدم رءوف عباس أسمى أنواع المديح فى شخصية الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم، مشيرا إلى دوره التأسيسى والتطبيقى الذى لم يصل إلى مثله أحد من جيله:

... «ورغم أهمية واتساع نطاق دور أحمد عبد الرحيم مصطفى فى تكوين صاحبنا، فإن دور أحمد عزت عبد الكريم كان تأسيسيًا تطبيقيًا، فإذا كان قد تعلم المنهج من عبد الرحيم وأنيس، فقد تعلم أصول الكتابة، وفن تحرير الأعمال العلمية المشتركة، وتنظيم الندوات العلمية وإدارتها، وأصول الترجمة، تعلم ذلك كله على يد أحمد عزت عبد الكريم، وظل يتعلم منه حتى قبيل رحيله عندما ساعده فى تحرير الكتاب الذى ضم بحوث ندوة «البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة المعاصرة» الذى قُدم للمطبعة قبل وفاة الأستاذ الجليل بأسبوع واحد، وصدر عقب وفاته».

«وما تعلمه صاحبنا من منهج ومهارات علمية على يد أولئك الأساتذة العمالقة الثلاثة، كان بمثابة العمد الأساسية التى قام عليها بناء قدراته العلمية، وحياته الأكاديمية، والكثير من القيم الخلقية الأكاديمية التى التزم بها، تعود إلى تأثير أحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى فى تكوينه».

(٣٤)

وفى موضع رابع يتحدث عن فضل أستاذه أحمد عزت عبد الكريم فى حمايته من بطش النظام الناصرى عندما فكر رجال المباحث فى الإيقاع به بسبب لقاءاته بمحمد يوسف المدرك الذى كان واحدا من قيادات الحركة العمالية الدولية، وكان شيوعيا تراقبه أجهزة المباحث العامة.

ومع أن رءوف عباس يجيد تصوير لقاءاته بضباط أمن الدولة المشهورين (أحمد إدريس وحسن المصيلحى) فإنه يغمرنا بحديثه الممتن لأستاذه عزت عبد الكريم وأبوته وإنسانيته:

«. . . ولعزت عبد الكريم مكرمة لا تُنسى يدين له بها صاحبنا، عندما نصب رجال المباحث العامة شباكهم حوله وهو فى مفرق الطرق عشية حصوله على المنحة الدراسية، فقد كان محمد يوسف المدرك من بين المصادر التى اعتمد عليها أثناء إعداده رسالة الماجستير عن الحركة العمالية فى مصر، وكان نقابيًا شيوعيًا، وقياديًا على مستوى الحركة العمالية الدولية، تم اختياره عام ١٩٤٦ عضواً بمجلس إدارة اتحاد النقابات الدولى، وقد التقاه صاحبنا عشية خروجه من المعتقل بعد خمس سنوات ونصف قضاها بسجن أوردى أبو زعبل ومعتقل الواحات، وقدم لصاحبنا مادة هامة، وبعد انتقال صاحبنا للإقامة بالقاهرة عام ١٩٦٦ فى أعقاب حصوله على الماجستير استمر على صلة بمحمد يوسف المدرك، فكان المدرك يزوره كل يوم جمعة بمنزله بحدائق شبرا، ويقضى سحابة اليوم معه، يصليان الجمعة سويًا، ويتناول الغذاء مع أسرته الصغيرة، وينصرف حوالى الخامسة أو السادسة مساء، وكان هذا الوقت يُقسم بين مناقشة تدور حول الحركة الشيوعية، ودور العمال فيها، وحول ذكرياته التى كان يصوغها صاحبنا فى سلسلة من المقالات تُنشر بنشرة الثقافة العمالية باسم المدرك لقاء خمسة جنيهات عن كل مقال من

obeikandl.com

المقالات (التى) بلغت عشرة مقالات، لم يُنشر منها إلا حوالى خمسة، حصل المدرك نظيرها على ٢٥ جنيهًا فى وقت لم يكن يملك فيه قوت يومه، وكان لعاصم الدسوقى (صديق عمره) فضل المساعدة على نشر المقالات، التى ربما جاء توقف نشرة الثقافة العمالية عن نشرها لأسباب تتصل بما تعرض له صاحبنا».

«كان المدرك تحت رقابة المباحث العامة (التى) رصدت تردده على بيت صاحبنا، وتلقى الأخير استدعاء من المباحث لمقابلة النقيب أحمد إدريس فى السادسة من مساء اليوم التالى، فذهب إلى هناك ليلتقى ذلك الضابط الصغير المغرور الذى «لطعه» ساعتين قبل أن يستقبله ليبدأ معه ما كان شبيهًا بالتحقيق بحضور كاتب يسجل كل كلمة، وبعد نحو الساعة من الأسئلة الغريبة عن تاريخ حياته وعلاقاته وأقاربه وأصدقائه، سأله أحمد إدريس عن اسم لم يرد فى إجاباته هو محمد يوسف المدرك، ورد عليه صاحبنا بقوله: «ياه.. كل الهيصة دى عشان المدرك.. ده حطام إنسان.. لو كان فى بلد ثانية لنال ما يستحق من تكريم.. يتعمل له تمثال»، فأصاب السعار أحمد إدريس وطلب من الكاتب تسجيل كل تلك الكلمات، وانتهى التحقيق حوالى التاسعة مساء، طالبًا منه ألا يذكر هذا اللقاء لأحد، وأن يبقيه سرًا حرصًا على مصلحته».

(٣٥)

وها هو يتحدث عما دار بينه وبين حسن المصيلحى، مركزا على موضوع محمد يوسف المدرك:

«وبعد أسبوعين تلقى استدعاء آخر لمقابلة الضابط حسن المصيلحى (رئيس قسم مكافحة الشيوعية) فى السادسة مساء اليوم التالى، ولم يستبقه المصيلحى سوى نصف ساعة قابله بعدها، ودار معه حديث حول المدرك بدأه المصيلحى بقراءة العبارات السابقة التى ذكرها صاحبنا فى التحقيق الذى أجراه أحمد إدريس معه، واتجه صاحبنا فى تبرير استمرار صلته بالمدرك بالعطف على رجل فى حاجة للمساعدة، مؤكدًا أن الوقت الطويل الذى يمضيه فى بيته يتحدث فيه عن ذكرياته، واحتج على طريق الاستدعاء التى تجعله موضع الشبهات عند جيرانه، وعرض على المصيلحى أن يبقى

عندهم حتى يتأكدوا من سلامة موقفه، فضحك المصيلحى قائلا: «دا احنا ضيافتنا صعبة، ربنا يكفيك شرها»، وبعد أن تصفح نسخة من رسالة الماجستير المنسوخة على الآلة الكاتبة (ولم يكن الكتاب قد ظهر بعد) وأبدى بعض الملاحظات حول ما وقعت عليه عينه من معلومات، واحتفظ بالنسخة لديه، وطلب من صاحبنا أن يتصل به تليفونيا (وأعطاه الرقم) بعد أسبوعين ليحدد له موعداً يتناقش معه فيه حول ما جاء برسالته، وانتهى اللقاء حوالى الساعة الثامنة والنصف مساء».

«ولما كان صاحبنا قد ذكر للمصيلحى أن موضوع الماجستير من اختيار الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، فقد حرص على إبلاغ ذلك لأستاذه حتى يكون على علم بما ذكره بهذا الخصوص، فاتصل به تليفونيا فور خروجه من المباحث العامة بلاظوغلى، وطلب مقابلة عاجلة معه، فسأله عن المكان الذى يتحدث منه فقال له: «لاظوغلى»، فطلب منه الحضور على الفور، ووصل إلى منشية البكرى حوالى العاشرة مساء، ووجد الأستاذ الجليل فى انتظاره فى شرفة منزله، وأطلعه على جلية الأمر، فاستحسن ما ذكره للمصيلحى من نسبه اختيار الموضوع إليه، ونصح تلميذه بقطع علاقته بالمدرك، وطلب منه أن تتولى زوجته الاتصال بالأستاذ تليفونيا إذا تعرض للاعتقال فى أى وقت مساء اليوم نفسه أو بعده، وطلب منه الحضور إلى مكتبه بالجامعة العاشرة صباحا».

(٣٦)

ثم هو يزعجنا بما يرويه عن الأثر النفسى الذى تركته زيارته للمباحث وقسم مكافحة الشيوعية:

«. . . . قضى صاحبنا ليلة قلقة لم يذق فيها طعم النوم إلا عند الفجر، وهرع فى الصباح إلى مكتب مدير الجامعة بقصر الزعفران حيث التقى أستاذه فى العاشرة، فقال له ألا يذهب إلى لقاء أحد من ضباط المباحث العامة إذا استدعوه، وأن يتصل به فور تلقيه أى استدعاء، وأكد له أن الموضوع انتهى ولكن عليه قطع صلته بالمدرك، وكان ذلك أشق الأمور على نفسه، ولكنه استجاب لطلب أستاذه الذى أنقذه من التعرض لمتاعب لا قبل له بها، وكان أبسطها الاعتراض على تعيينه بالجامعة الذى تم بعد أربعة شهور من هذه الواقعة، فكان موقف أحمد عزت عبد الكريم أبويًا نبيلاً وشجاعًا».

(٣٧)

وفى موضع خامس: يتحدث رءوف عباس باعتزاز عن المكانة السامقة التى بلغتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى عهد رياسة أستاذه أحمد عزت عبد الكريم لها فيقول:

«. . . وبلغ النشاط الثقافى والعلمى ذروته فى عهد رئاسة أحمد عزت عبد الكريم (١٩٦٦ـ١٩٧٦)، فاتسع حجم النشاط، وزاد الإقبال على المحاضرات فكان الوقوف ضعف عدد الجلوس فى بعض المناسبات، وأصبحت الجمعية تعقد ندوات كل عام بالاشتراك مع المجلس الأعلى للفنون والآداب (الذى أصبح فيما بعد المجلس الأعلى للثقافة)، تناولت كبار مؤرخى العرب من ابن عبد الحكم، إلى على مبارك، نُشر معظمها فى كتب».

«وشهدت انتخابات مجلس الإدارة إقبالاً شديداً فى عهد عزت عبد الكريم، وبدأ الشباب من الأعضاء يتسربون إلى المجلس الذى كان احتكاراً لكبار الأساتذة، ويرجع ذلك إلى غلبة الشباب فى القاعدة العريضة من أعضاء الجمعية العمومية».

(٣٨)

أما الدكتور محمد أنيس فقد كانت علاقته بصاحب المذكرات علاقة درامية: لم تكن صافية تماما، ولا ودودة دائما، وإنما اعتراها ما يعترى العلاقات الدرامية من أحداث تجعل أحد طرفيها مستاء من الطرف الآخر دون أن يغير هذا الاستياء من نفسية الطرف الأصغر المحب لأستاذه.

وهو يعترف لمحمد أنيس بكثير من الفضل فى تكوينه الفكرى، وبخاصة ما تعلمه منه من تحليل وتأصيل للمواقف السياسية بالاستناد إلى العلم بالتاريخ:

«. . . كان صاحبنا حريصًا على ملازمة الدكتور أنيس يوم وجوده بالكلية، وكان لا يحضر سوى يوم الخميس لإلقاء محاضرته على طلبة الليسانس، حيث كان مشغولاً بمهام موقعه فى الاتحاد الاشتراكى بأمانة الدعوة والفكر، بالتدريس بمعهد الدراسات الاشتراكية، وحيثما وُجد أنيس بالكلية أحاط به الأصدقاء والمريدون: صحفيون، بعض أساتذة الجامعة، وغيرهم، فكانت حجرة التاريخ الحديث تزدحم بهم يوم

الخميس، وتصبح قاعًا صفصفًا بقية أيام الأسبوع، وكان صاحبنا يحضر منذ التاسعة صباحًا، لأن الأستاذ يلقى محاضرته فى الثامنة وينهيها فى التاسعة (بدلاً من العاشرة)، ثم يقضى الوقت حتى الواحدة أو الثانية بعد الظهر فى أحاديث تتناول الشأن العام، يطرح فيها على زواره تحليله للمواقف السياسية، ويردها إلى أصولها التاريخية بأسلوب منهجى أخاذ، وكانت مواظبة صاحبنا على حضور تلك الجلسة (رغم تجاهل أنيس له لمدة ثلاثة أو أربعة شهور على الأقل)، ومشاركته فى المناقشات، وطرح رأيه فيما يتم النقاش حوله، سببًا فى إذابة الجليد وجسر الفجوة التى حرص الدكتور أنيس على وجودها خلال فترة التجاهل، وتحولت العلاقة إلى ود وصداقة كادت تصل إلى مستوى علاقته بأستاذه أحمد عبد الرحيم مصطفى».

«وفى مجلس أنيس تعرف صاحبنا على أحمد عباس صالح، وسعد زهران، وإبراهيم صقر، وحسام عيسى، وحلمى شعراوى، وجلال السيد، وعرف عن طريقه كامل زهيرى، ومحمود العالم، وغيرهم، فكان لهذه الجلسات دورها الأساسى فى تكوينه الفكرى والمنهجى».

(٣٩)

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإننا لابد أن نروى أن صاحب المذكرات يعترف لأستاذه محمد أنيس بالفضل فى إتاحة الذيوع النسبى لاسمه من خلال الفرصة التى أتاحها له النشر الصحفى:

« . . . ورغم ذلك يبقى فضل محمد أنيس على صاحبنا عميمًا، فقد تعلم منه الكثير رغم أنه لم يكن تلميذًا مباشرًا له، وكان له فضل إتاحة الفرصة أمامه لنشر رسالته للماجستير التى استُقبلت استقبالاً حسنًا من الوسط الثقافى، وحظيت بثلاثة عروض فى مصر وعرض بسوريا وآخر بالمغرب، فى أهم الدوريات الثقافية والسياسية، فإذا أضفنا إلى ذلك فرصة النشر فى «الكاتب» وفى «الجمهورية» أيام قسم الأبحاث أدركنا أن الذيوع النسبى لاسم صاحبنا فى الوسط الثقافى الوطنى على نحو لم يتحقق لمن برز من أقرانه إلا بعد عدة سنوات، يعود الفضل فيه لمحمد أنيس دون أدنى شك،».

ويتحدث رءوف عباس عن عمله فى قسم «الأبحاث» فى جريدة «الجمهورية» تحت إشراف أستاذه محمد أنيس مقدما إشارات خاطفة إلى ما كانت الرقابة على الصحف تفعله بالأبحاث التى يقدمها المركز، وهو على غير عادة الكتابات المتاحة يحرص على اتهام فتحى غانم بأنه كان مثله كمثل الرقابة يحذف فقرات مما يكتبه الباحثون، ومن العجيب أنه عمل مع فتحى غانم ولم يؤثر ترك القسم عندما تركه أستاذه محمد أنيس:

«كما أتاح محمد أنيس له فرصة الكتابة بمجلة «الكاتب» (وكان عضواً بمجلس تحريرها)، كما أشركه فى «قسم الأبحاث» الذى أقامته جريدة «الجمهورية» رداً على إقامة جريدة «الأهرام» لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية (وكان التنافس على أشده عندئذ بين دار التحرير والأهرام)، فكان أنيس مشرفًا على القسم، يعمل معه جلال السيد، وفتحى عبد الفتاح، وأميمة أبو النصر (من محررى الجمهورية)، إلى جانب بعض المتخصصين من الخارج يذكر منهم جمال نوير، وآخرون من المتخصصين فى الاقتصاد والتخطيط والعلوم السياسية، انتقاهم الدكتور أنيس من بين تلاميذه بالمعهد الاشتراكى، إضافة إلى صاحبنا الذى انضم للقسم كخبير بشئون العمل والعمال والنقابات، واتجه جل نشاط القسم إلى معالجة قضايا التنمية بمختلف أبعادها: الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والبحث فى أسس تهيئة المناخ لنجاح التجربة الاشتراكية، وكانت البحوث تُنشر على صفحة كاملة من «الجمهورية» بعدد الخميس (الأسبوعى)، ولكن بعد أن تخرج من تحت يد الرقيب، ويذكر صاحبنا أنه قدم دراسة عن أوضاع العمال فى القطاع العام لينشر على صفحة كاملة، «فحولها الرقيب إلى ربع صفحة، لا يستطيع القارئ، مهما بلغ من الذكاء، أن يفهم منها شيئا، فقد حذفت فقرات كاملة متتالية، هنا وهناك، ثم أعيد صف ما بقى من فقرات وراء بعضها البعض، دون أن تُعاد صياغتها، وترك أنيس قسم الأبحاث بعد خلاف مع فتحى غانم (رئيس التحرير عندئذ) وأصبح فتحى عبد الفتاح مشرفًا على القسم، فاشترك صاحبنا معه فى المجموعة التى تدرس أوضاع القطاع العام فى صياغة ما بقى من حلقات الدراسة، وجاء النشر مهينًا لكل مَنْ يحرص على سمعته، بعدما أطاح

مقص الرقيب أو قلم رئيس التحرير بمعظم الفقرات التى تكشف السلبيات المترتبة على أسلوب إدارة القطاع العام، فآثر ترك القسم».

(٤١)

ونأتى إلى خلاف رءوف عباس البارز مع أستاذه محمد أنيس، وهو حريص على أن يشير إلى أنه صارح أستاذه بموقفه دون أن يشرك طرفا ثالثا، لكن أستاذه أصر على موقفه وعلى وصفه بأنه عميل للمباحث !!:

«كذلك أشرك الدكتور أنيس صاحبنا معه فى «مركز تاريخ مصر المعاصر» التابع لدار الكتب والوثائق المصرية منذ تأسيسه على يديه حتى قبيل تنحيه عن الإشراف عليه، فعمل صاحبنا معه مشرفًا على الباحثين إلى جانب بعض أعضاء هيئة التدريس، وشهدت فترة العمل بالمركز فتور العلاقة ثم توترها لأسباب تتعلق بشخصية صاحبنا، وحساسيته الشديدة لما يرى فيه استغلالاً ماسًا بكرامته، ورغم أنه واجه الأستاذ القدير بموقفه صراحة، وجهًا لوجه دون أن يشرك فى ذلك طرفًا ثالثًا، لم يقبل الأستاذ بذلك وبالغ فى موقفه، فكان يصف صاحبنا، كلما سمع اسمه، بأنه كان «عميلاً للمباحث» دس عليه دسًا».

(٤٢)

وفى موضع أخير يترحم رءوف عباس على أستاذه محمد أنيس متمنيا، بعد فوات الأوان، لو كان أنيس قد توفى وهو راض عنه:

«. . . وانتقل أنيس إلى رحاب الله عام ١٩٨٦ دون أن تتاح لصاحبنا فرصة إقناع الرجل بسلامة موقفه، ولعل أحدًا لم يحزن على الرحيل المبكر لهذا الأستاذ الكبير مثلما حزن هو، فألقى محاضرة بنادى أعضاء هيئة التدريس بالجامعة بيّن فيها فضله على الدراسات التاريخية فى مصر، وعلى صاحب المحاضرة وأبناء جيله، كما كان فى مقدمة المتحدثين فى الحفل التأبينى الذى أقامته كلية الإعلام تكريمًا لذكراه وذكرى خليل صابات، مبرزًا دور الفقيد فى تكوين بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الإعلام، منوهًا بما له من فضل عليه، وتم تكوين مجموعة من تلاميذه لإعداد كتاب ينشر على

شرف الفقيد إحياء لذكراه، وأُسند التحرير إلى محمد جمال الدين المسدى، فلم يكن الاختيار موفقًا، لأنه لم ينجز ما أُسند إليه رغم إصراره على القيام به».

. . . .

. . . .

هكذا يحرص الدكتور رءوف عباس فى هذا الكتاب على تكرار ما ذكر أنه ذكره فى كل مناسبة عامة أو خاصة من تأكيد على أنه «مدين فى تكوينه العلمى لثلاثة من أعظم أساتذة التاريخ الحديث فى مصر والوطن العربى هم: أحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى، ومحمد أحمد أنيس، وسيظل هذا موقفه إلى أن يلقاهم جميعًا فى رحاب الله، عندما تفرغ كأس الأجل».

(٤٣)

فإذا ما انتقلنا إلى حديث رءوف عباس عن أساتذته الآخرين الذين قدر له أن يتأثر بهم فإننا نراه يخص ثلاثة منهم بالذكر، وهو يتحدث بإعجاب وانبهار عن أستاذ التاريخ الفرعونى أحمد فخرى ومدى ما كان يتغلغل فى نفسية ذلك الأستاذ العظيم من حب لتخصصه، ورغبة عارمة فى تحبيب تلاميذه فيه، ونشر الوعى بآثارنا وحضارتنا، ودور مصر القديمة فى الحضارة الإنسانية، فضلا عن دماثة خلقه، ورقة حاشيته:

« . . . كان أحمد فخرى هو الأستاذ الوحيد الذى عرفه صاحبنا قبل أن يجلس إليه جلسة التلميذ من الأستاذ، فقد بهرته كشوفه الأثرية التى كانت تتحدث عنها الصحف عندما كان تلميذًا بالمدرسة الثانوية، وقُدر له أن يراه عن قرب، ويتعلم على يديه، كان كتابه «مصر الفرعونية» بسيطًا بديعًا، ولكنه حذر الطلاب من الاعتماد عليه وحده وحثهم على قراءة العديد من المراجع، وكان أسلوبه فى المحاضرة تقديم الشواهد الأثرية، وبناء تصوره للحدث التاريخى استنادًا إليها بعدما يفند آراء غيره من العلماء، فيرجح رأيًا معللاً لأسباب هذا الترجيح، ويستبعد رأيًا آخر عارضًا أسباب الاستبعاد، ولكن حديثه يشى دائمًا بعشق نادر لمصر القديمة، واعتزاز بمساهمتها فى الحضارة الإنسانية، وخاصة فى الفكر الدينى، ورغم مكانته العلمية الرفيعة لم يتردد

فى الموافقة على اصطحاب طلاب الفرقة الرابعة فى زيارة لمنطقة سقارة، وبمجرد وصول الطلاب إلى هناك ووجوده بينهم، هرع تلاميذه من مفتشى الآثار مرحبين به، عاتبين لأنه لم يبلغهم «بتشريفه»، وعرضوا أن يتولوا عنه الشرح للطلاب، فرفض وصرفهم إلى أعمالهم، وحظى الطلاب بأندر وأعظم شرح لآثار المنطقة على يد هذا العالم الجليل».

«غاب أحمد فخرى عن محاضرته الأسبوعية على غير عادته، وتكرر غيابه فى الأسبوع التالى، سألوا إدارة الكلية عن سبب الغياب، فقيل لهم إن الأستاذ مريض، فقرر أربعة منهم (كان صاحبنا أحدهم) التوجه إلى بيت الأستاذ حاملين معهم باقة ورد صغيرة اشتروها بقروش معدودة، وذهبوا هكذا دون موعد أو اتصال تليفونى، شأنهم فى ذلك شأن القرويين البسطاء من آبائهم، وطرقوا باب الشقة التى تقع فى عمارة على شارع النيل بالجيزة بالقرب من كوبرى الجامعة، ففتحت الباب سيدة أجنبية طويلة القامة فسألوها عن الأستاذ، فاقتادتهم إلى حجرة المكتب، حيث كان العالم الجليل مسترخيًا على أريكة، يقرأ كتابًا، رحب الأستاذ بتلاميذه بأبوة حانية، وقدم لهم زوجته الألمانية، وشكرهم على حرصهم على زيارته، وجاءت الزوجة بالشاى والكعك، وأفاض الأستاذ فى حديث ممتع عن تجاربه فى الحفائر الأثرية التى سببت له حساسية فى الصدر تحولت إلى الربو الذى يلزمه البيت من حين لآخر، وامتد الحديث إلى نحو الساعتين، كلما استأذن الطلاب فى الانصراف استبقاهم، مؤكدًا أنه شُفى تمامًا عندما رآهم، وعند انصرافهم اعتذر لهم عن عدم قدرته على توديعهم، وصحبتهم زوجته إلى الباب مكررة الشكر».

«خرج الطلاب الأربعة مبهورين بأبوة الرجل وإنسانيته».

(٤٤)

وإذا كان هناك من مثل لعلاقة متطورة من علاقات التلميذ بأستاذه فى هذه المذكرات فإنها علاقة رءوف عباس بأستاذه إبراهيم نصحى، الذى قدر له أن يكون سببا فى عدم حصوله على تقدير جيد جدا عند تخرجه، ثم قدر له أن يعرفه بعد تخرجه بسنوات، ثم قدر له أن يعمل تحت رئاسته فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ثم قدر له أيضا

أن يخلفه فى رئاسة هذه الجمعية، وفى حديث رءوف عباس عن هذه المراحل تصوير جيد للمراحل نفسها، وتصوير جيد بل متميز لنفسية رءوف عباس وإدراكه للتطور الذى مرت به آراء أستاذه إبراهيم نصحى وشخصيته، ولهذا فإننا سنكتفى بأن نقتطف للقارئ من المذكرات ما يصور كل هذا التطور على نحو دقيق:

«اجتذبت جامعة عين شمس من أساتذة التاريخ القديم الدكتور إبراهيم نصحى بك، الذى كان أول عميد لكلية الآداب، وقد عزلته الثورة من العمادة بسبب صلاته بالقصر الملكى، فقد كان أخوه حسن حسنى باشا سكرتيرا للملك فاروق، وظل رئيسا لقسم التاريخ والآثار حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٦٦، وظل يدرس بالجامعة حتى وفاته عام ٢٠٠٤ عن عمر يناهز الثامنة والتسعين».

. . . .

. . . .

«. . . كان إبراهيم نصحى يعامل الطلاب بتأفف واشمئناط (!!) يبدأ محاضرته فى التاسعة صباحا بنظرة يمسح بها وجوه الحضور ذات اليمين وذات اليسار، ثم يرسم على وجهه علامات التقزز، ويقول: «الجامعة برطشت»، ويبدأ بعد ذلك الدرس، مراسم تتكرر فى كل محاضرة، وكأنها مقدمة للعرض، والويل لمن يجرؤ على طرح سؤال على الأستاذ الذى يسرف فى توبيخه، ويمسح الأرض بكرامته».

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

«حدثت واحدة من تلك المظاهرات الساذجة يوم محاضرة إبراهيم نصحى فى خريف عام ١٩٦٠، وخشى الطلاب من مغبة غضب الأستاذ إذا جاء ولم يجد أحدا، فقد يترتب على ذلك ترسيب الدفعة كلها فى مادتيه، وكانت تُروى قصص عنه من هذا القبيل، لذلك حرص الطلاب، وكان عددهم حوالى الأربعين، على الانتظار فى فناء الكلية عند المكان المخصص لوقوف سيارة نصحى بك الشيفروليه الفارهة، وبعد بضع

دقائق وصل الرجل وأوقف السيارة فى مكانها، ولاحظ تجمع الطلاب هناك، وكان صاحبنا يقف (مصادفة) أمام شباك الباب الأيمن الذى فتحه الأستاذ أوتوماتيكيا (وكانت هذه بدعة جديدة لا يعرفها من برطشوا الجامعة بتسللهم إليها)، وقال الأستاذ للطلاب باشمئزاز: «مالكم عفين على العربية كده» (أى أنهم كالذباب الذى يعف على الشيء)، فقال له صاحبنا: إن الطلاب خرجوا فى مظاهرة، وإنهم ينتظرونه هنا لأن قاعات الدرس مغلقة، ليأمر بفتح إحداها لإلقاء درسه، فأغلق شباك السيارة واتجه إلى باب الخروج دون أن يقول شيئا لقطيع «الذباب» الذى كان بانتظاره!».

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

(٤٥)

وانظر بعد هذا إلى هذه المقارنة بين أحمد فخرى وإبراهيم نصحى:

«قارن بين حفاوة أحمد فخرى بهم فى بيته الذى قرعوا بابه دون استئذان، وكيف عاملهم معاملة إنسانية أبوية نبيلة، وبين مَنْ عاملهم دائما باشمئزاز واحتقار، وعدهم من فصيلة «الحشرات»، ولا يرجع ذلك إلى موقفه من نظام ثورة يوليو الذى ألغى الرتب المدنية، وأزاحه من عمادة الكلية، وفتح أبواب الجامعة أمام مَنْ كانوا (فى نظره) من أولاد «الرعاع»، بقدر ما يرجع إلى أصوله التركية، وترفعه على «أبناء الفلاحين»، فقد كان يعامل طلابه بازدراء أيضا عندما كان بجامعة القاهرة».

. . . .

. . . .

«وفى سن السبعين تغير إبراهيم نصحى تماما، فأصبح يمزح مع الطلاب، ويقبل بأن تناديه الطالبات بـ «جدو إبراهيم»، وبعد أن ظل يوصد باب الدراسات العليا فى تخصصه ما يزيد على العشرين عاما، فتحه على مصراعيه أمام كل مَنْ هب ودب، وسبحان مغير الأحوال»

(٤٦)

وعلى المستوى الشخصى يحدثنا الدكتور رءوف عباس عن أنه لم يحظ فى نتيجة امتحان الليسانس بتقدير أكثر من تقدير جيد، وأن هذا التقدير كان أعلى تقدير فى ذلك الوقت، وهو يرجع السبب فى هذا إلى تقتير الدكتور إبراهيم نصحى فى منح الدرجات للطلاب أجمعين:

«... انتهى العام الدراسى الرابع، وانتهت بانتهائه بالنسبة لصاحبنا سنوات التوتر والشقاء (أو هكذا ظن)، وأُعلنت نتيجة الليسانس، فلم يتجاوز عدد مَنْ حصلوا على تقدير جيد خمسة طلاب، كان ترتيبه الثالث بينهم وعلى الدفعة كلها، وحصل نحو الأربعين طالبًا على تقدير «مقبول»، وتوزع الباقون بين مَنْ رسب فى مادتين وله حق دخول دور يناير ١٩٦٢، ومَنْ بقى للإعادة لحصوله على تقدير «ضعيف».

«استاء صاحبنا من هذه النتيجة، وخاصة أنه بذل جهدًا مضاعفًا فى إعداد مواده واستيعابها، وعندما اطلع على النتيجة اتضح أنه حصل على جيد جدًا فى ثلاث مواد، وجيد فى باقى المواد، ومقبول فى مادتى إبراهيم نصحى (تاريخ البطالمة، وتاريخ الرومان)، وعجب لذلك، فقد بذل فى المادتين جهدًا كبيرًا، واستخدم عددا من المراجع الهامة فى إعداد مادته واستوعبها جيدًا، ولكن تبين له أن أحدًا لم يحصل فى المادتين عما يزيد على «مقبول»، وأن نسبة النجاح فى المادتين لم تجاوز ٥٠٪، وأن عشرة طلاب على الأقل نجحوا فى إحدى المادتين بالتعويض (حسب قواعد الرأفة)، وأن الرسوب تركز فى المادتين، وفى بعض المواد الأخرى، أما صاحبنا فقد حصل على عشر درجات فقط (من عشرين درجة) فى تاريخ البطالمة، و١١ درجة فى تاريخ الرومان، وألقى نظرة على كشف النتيجة ليجد أن الدرجات التى وضعها الأستاذ لمن رأى فى إجابتهم ما يبرر نجاحهم، لم تزد (على) ١٠ أو ١١ درجة».

(٤٧)

ويتحدث رءوف عباس عن أستاذه عبد اللطيف أحمد على أستاذ التاريخ القديم حديثا منصفا، ولعل هذا الحديث هو الحديث الوحيد عن هذا الأستاذ فى مثل هذه المذكرات فيقول:

«. . . كان محاضراً رائعًا، يشرح الدرس بأسلوب مسرحى، فيجعل الطالب يكون صورة ذهنية درامية للأحداث التى يعرضها الأستاذ، فيسمع قعقعة السلاح، وتنابذ الخطباء، ويرى مجتمع أثينا ومناقشات مواطنيه، ويشهد غبار المعارك يخيم على الجيوش. فالأستاذ يقدم وصفًا لا يقتصر على الكلمات، بل يلوح بيديه، ويعبر عن الحدث بقسمات وجهه، يبتسم عندما يقع طرف فى فخ نصبه له الآخر، ويقطب جبينه وهو يتحدث عن حيرة طرف من كيفية التعامل مع طرف آخر، ويظل الطلاب مشدودين إليه، يستمعون بانتباه دون ملل مدة ساعتين كاملتين، وبهذه الطريقة الفريدة يستطيع الطالب النابه أن يستفيد كثيراً من شرح الأستاذ، ومناقشته لآراء المؤرخين، ونقده لها، أما الطالب الذى يركز على حركة الأستاذ جيئة وذهابًا وحركات ذراعيه وتعابير وجهه متسليًا بها فيخرج صفر اليدين».

(٤٨)

ولا تخلو ذكريات رءوف عباس من إشارات ذات معنى إلى آرائه فى بعض المؤرخين الأجانب المتميزين، وهو على سبيل المثال يميل إلى تأييد رأى الدكتور محمد أنيس فى منع دعوة المؤرخ البريطانى برنارد لويس بسبب مشايعته للصهيونية:

«كما شهدت اجتماعات الجمعية العمومية نقاشًا جادًا حول النشاط العلمى والثقافى للجمعية، لعل أهمه ما أثاره محمد أنيس فى الجمعية العمومية للعام ١٩٦٩ من اعتراض على دعوة برنارد لويس لإلقاء محاضرة بالجمعية، وإشادة مَنْ ترأس جلسة المحاضرة (سعيد عاشور) به وبفضله على العالم العربى، وعد ذلك «انحرافًا» خطيراً وخروجًا على إجماع الأمة على مقاطعة الصهيونية، نظراً لما عُرف عن برنارد لويس من مشايعة للصهيونية، ومناصرة الكيان الصهيونى، واستهانة بالثقافة العربية، وأيد محمد أنيس عبد الكريم أحمد، ورد عزت عبد الكريم بأن لويس كان مدعواً من الدولة للمشاركة فى الاحتفالية بألفية القاهرة، فإذا كانت الدولة قد دعته، والتقى به عبد الناصر، فلا يضير الجمعية أن توجه الدعوة إليه، وعرض عزت عبد الكريم على الجمعية العمومية اقتراحًا بحق رئيس الجمعية فى توجيه الدعوة لمن يشاء لإلقاء محاضرة بالجمعية دون حاجة إلى الرجوع لمجلس الإدارة، فوافقت الأغلبية على القرار، وغضب محمد أنيس وعبد الكريم أحمد وغادرا الاجتماع».

ويجيد رءوف عباس تصوير المرحلة الفاصلة بين تخرجه فى الجامعة ودخوله إلى سوق العمل، وهى فترة مهمة من فترات عهد الرئيس عبد الناصر، ونحن نفهم مما يرويه رءوف عباس ما لم يذكره غيره عما كانت الأحوال الاقتصادية قد آلت إليه فى ظل قلة الوظائف والاستثمارات، مع كثرة الخريجين، لكن رءوف عباس مع هذا ينظر إلى الأمر من زاوية ظروفه الخاصة التى لم تكن لتسمح له بتحقيق ما حققه:

«... على كل.. كان ما استطاع تحقيقه يفوق توقعاته، فلم يكن يضمن استمراره فى الدراسة، ويتحسب لما قد يعترض طريقه من عقبات، فإذا به يصل إلى نهاية المرحلة الجامعية الأولى، ويصبح خريجًا حاملاً درجة الليسانس فى الآداب، ولكن المئات غيره من الخريجين كانوا يعانون البطالة منذ العام ١٩٥٧، وازداد حال الأسرة بؤسًا فى وقت أصبح ينتظر فيه أن يلعب دورًا إيجابيًا لمساعدتها».

«تلطم (هكذا بالنص.. وكان من الممكن له أن يقول تقلب لكنه يبدو أن فعل التقلب لا يكفى للتعبير عن إحساسه بالمعاناة فى هذه الفترة) صاحبنا فى بعض الأعمال البسيطة التى أصبحت شحيحة بسبب وفرة أعداد طالبى العمل، كانت المدارس الخاصة تدفع للمدرس من خريجى الجامعة راتبا لا يتجاوز خمسة جنيهات شهريًا، وتقدم صاحبنا لمسابقة القبول بكلية التربية للحصول على درجة الدبلوم العامة فى التربية، وكانت الكلية لا تقبل سوى العدد الذى تحتاجه وزارة التربية والتعليم من المدرسين، لذلك كان الحصول على تقدير «جيد» شرطًا للتقدم إلى كلية التربية، وبلغ عدد المتقدمين بقسم العلوم الاجتماعية عام ١٩٦١/ ١٩٦٢ (التاريخ، والجغرافيا، والفلسفة، والاجتماع) نحو ٢٧٠ متقدمًا، تمت تصفيتهم فى امتحان شفوى رأسه الدكتور صلاح قطب عميد الكلية، فتم قبول عشرة طلاب من كل تخصص، كان صاحبنا واحدًا منهم، وانتظم فى الدراسة فى الفصل الأول قدر الطاقة، حتى أعلن فجأة عن تعيين جميع الخريجين، وكانت الطلبات تقدم إلى مكتب بوزارة التربية والتعليم، وعندما أعلنت النتيجة كانت سعادته بالغة عندما وجد أمامه اسم «المؤسسة العامة للصناعات الكيماوية»، وعندما استلم خطاب التعيين اتضح أن مكان المؤسسة بشارع قصر النيل بالقاهرة، فتوجه إليها

لاستلام العمل، وبعد فترة انتظار حوالى الساعة تسلم خطابا لاستلام العمل فورا بالشركة المالية والصناعية المصرية بكفر الزيات».

«وإذا كان هذا التعيين قد فتح صفحة جديدة فى حياته، وبعث عنده وأسرته الأمل، فقد زوده العمل فى شركة صناعية من الشركات التى تم تأميمها فى يوليو عام ١٩٦١ بتجارب وخبرات جديدة، كان لها أثرها فى تكوينه، بل وفى تحديد حقل دراسته العليا (التى بدأها عام ١٩٦٢/ ١٩٦٣).

(٥٠)

ونتنقل بعد كل هذا إلى ما يعتز به صاحب المذكرات من مشاركته فى بعض الإسهامات البارزة فى الحياة التربوية والجامعية فى بلاده، ونجتزئ من هذه المساهمات بما يحكيه عن نجاحه أو إسهامه فى إنشاء قسم للغة اليابانية فى كلية آداب القاهرة حين كان يقضى بعض الوقت لإجراء الأبحاث العلمية فى اليابان على نحو دقيق ويقول:

« . . . كان الخبر الذى قرأه صاحبنا عن طلب جامعة تل أبيب إنشاء قسم للغة اليابانية والثقافة اليابانية تاليا لقراءته لكتاب بن دعسان المزعوم، وسابقا على مقاله الذى نُشر باليابانية فى «الشئون الدولية».

«غلى الدم فى عروق صاحبنا عندما قرأ الخبر، واتصل بصديقه إيتاجاكى (الذى كان قريبًا من الخارجية اليابانية) وطلب منه ضرورة تدبير مقابلة له مع رئيس مؤسسة اليابان فى أقرب وقت ممكن، وذكر له السبب باختصار، فرتب له الرجل لقاء مع السفير وأنى بوتشى رئيس المؤسسة فى اليوم التالى، على أن يكون مفهومًا أن اللقاء ودى، وغير رسمى، وفى الثالثة مساء وقت استراحة تناول الشاى، عندما التقاه قال له: إن إنشاء قسم ثان للغة اليابانية بإسرائيل لن يخدم المصالح الحيوية للشعب اليابانى التى تتطلب مد جسور التفاهم مع الشعوب العربية، وأن الثقافة هى للمجال الأرحب لفهم الشعوب لبعضها البعض، وأن إنشاء القسم المطلوب بتل أبيب لن يفيد سوى حفنة من طلاب إسرائيل، بينما لو أُنشئ القسم بالقاهرة لكان مفتوحًا أمام جميع الطلاب العرب، ولأصبح نافذة يطل منها العرب على الثقافة اليابانية».

«ورد السفير وانى دوتشى على صاحبنا بتذكيره مرة أخرى أن هذا اللقاء ودى وغير رسمى، لأنه بحكم كونه مدرسًا بجامعة القاهرة لا يملك حق الحديث نيابة عن الجامعة، وعن حكومة بلاده، واستطرد قائلا: إنه شخصيًا مقتنع بوجهة نظره التى طرحها أمامه، ولكن القرارات فى اليابان لا يصنعها شخص واحد كما هو الحال فى مصر، ولكن تصنعها مؤسسة، وكل ما يستطيع أن يفعله تأخير الرد على الطلب الإسرائيلى مدة شهر، فإذا وصله طلب مماثل من الحكومة المصرية تم النظر فى الطلبين معًا وترجيح ما ترى فيه المؤسسة مصلحة اليابان. وذكره بأنه إذا تسرب خبر هذا اللقاء فسيعلن أنه لم يره ولم يسمع شيئًا عن الموضوع، وأنه لا يستطيع أصلاً أن يقابل شخصًا غير ذى صفة رسمية، فطمأنه صاحبنا إلى أن «السر فى بير» ووعده بأن يعمل على وصول طلب جامعة القاهرة قبل نهاية الشهر، وكان الزمن المحدد للمقابلة ربع ساعة فاستغرق نصف ساعة».

«كان وانى بوتشى صديقًا شخصيًا لايتاجاكى، عمل مستشارًا بالسفارة اليابانية بالقاهرة، وكان قبل توليه رئاسة «مؤسسة اليابان» سفيرًا فى ليبيا، ولذلك كان على معرفة طيبة بمصر والمنطقة، وأهم من ذلك كان يعلم بطء إيقاع صنع القرار فى مصر، ولذلك قال لصاحبنا وهو يودعه «الله معك» (قالها بالعربية)».

(٥١)

وهو يتحدث عن لقائه بالسفير المصرى فى اليابان على غير موعد، ومدى ما كان هذا السفير يتمتع به من وطنية وقدرة:

«وفى التاسعة من صباح اليوم التالى توجه صاحبنا للسفارة المصرية (لأول مرة) طالبًا مقابلة السفير، وحاول الموظفون معرفة سبب اللقاء فرفض، وطلب منهم إبلاغه أن المذكور يريد لقاءه لمسألة تتعلق بالمصالح العليا للبلاد، وبعد نحو ربع ساعة قاده السكرتير الثانى (وكان يدعى أبو الغيط، وهو غير أحمد أبو الغيط وزير الخارجية) إلى مكتب السفير، كان السفير مصريًا نبيلاً يدعى حسن ولا يذكر صاحبنا اسمه بعد تلك السنين، وكانت حرمه من عائلة «لاما» التى كان لها باع طويل فى صناعة السينما المصرية، وكان الرجل واسع الأفق، استمع له باهتمام وهو يعرض أمامه فكرة تقدمه نيابة عن الحكومة

المصرية بالطلب إلى «مؤسسة اليابان»، فرد الرجل بأنه يدرك تمامًا أهمية إنشاء هذا القسم فى مصر وفى جامعة القاهرة، ولكنه لا يملك التقدم بأى طلب إلا إذا كان ذلك بناء على توجيه وتعليمات الخارجية، تنفيذًا لطلب الجهة المعنية، وهى هنا وزارة التعليم العالى، وذكره بأنه لاشك يعرف أن وزارة التعليم العالى لا تتقدم للخارجية بطلب إلا بناء على قرار الجامعة، وأن قرار الجامعة يستغرق شهرين على الأقل، وأن الوقت الذى قد يستغرقه وصول الطلب إلى السفارة قد يصل إلى شهرين أيضا».

«وهنا أبلغه صاحبنا بمقابلة الأمس مع السفير وانى بوتشى، وأن المقابلة كانت ودية بتوسط صديق أستاذ يابانى، وأن الرجل وعد بتأخير الطلب الإسرائيلى شهرا واحدا، فإذا وصله الطلب المصرى خلال الشهر تم النظر فى الطلبين معًا. . إلخ».

«دهش السفير حسن من جرأة صاحبنا، ولكنه امتدح (بصدق) وطنيته، وبُعد نظره، وقال له إنه تقديرا له مستعد أن يتقدم بطلب رسمى إلى مؤسسة اليابان إذا وصله خطاب رسمى من عميد آداب القاهرة يفيد طلب الكلية إنشاء قسم للغة اليابانية وآدابها، وسأل صاحبنا: هل علاقتك جيدة بعميد الكلية حتى يستجيب لك ويرسل مثل هذا الخطاب دون الرجوع للجامعة؟ إن الأمر يحتاج إلى عميد شجاع فهل الرجل لديه الشجاعة الكافية؟ ورد صاحبنا شاكرًا السفير على حسن الاستجابة متهربًا من الإجابة، وعاد إلى المعهد ليكتب خطابًا إلى الدكتور السيد يعقوب بكر عميد الكلية، ولم يكن الرجل يعرفه معرفة شخصية، ولكنه التقاه مرة واحدة أثناء شغله لمنصب الوكيل، ولا يظن أن الرجل قد يتذكر حتى اسمه. كان عزاءه الوحيد أن السيد يعقوب بكر من علماء فقه اللغات السامية البارزين، وأنه قد يكون أكثر من غيره تقديرًا لأهمية الموضوع».

(٥٢)

ثم يشير رءوف عباس بفخر إلى رد فعل العميد العظيم الدكتور السيد يعقوب بكر:

«كتب صاحبنا الخطاب للعميد بالتفصيل الكافى شارحًا له كل أبعاد الموضوع، ملمحًا إلى أن أحد رجال الخارجية قد يساعد فى دفع الموضوع بتوصية من أستاذ يابانى كبير، ونقل له حرفيًا ما دار بينه وبين السفير المصرى، وطال الخطاب حتى وصل إلى

ثلاث صفحات، وأرسله صاحبنا فى الحال إلى العميد، وهو يتمنى على الله أن يتسع صدر الرجل لقراءة هذه الرسالة الطويلة، وأن يهتم بالرد عليها، ولو بالرفض».

«وبعد عشرة أيام تلقى صاحبنا خطابًا بديعًا من العالم الوطنى السيد يعقوب بكر عميد كلية الآداب وصفه فيه بعبارات جعلته يكاد يذوب خجلا، ومع الخطاب الشخصى المكتوب بخط اليد، خطاب آخر رسمى على المحررات الرسمية للكلية موجه إلى سفير جمهورية مصر العربية بطوكيو، يحيطه علمًا بأن مجلس كلية الآداب اتخذ قرارًا بإنشاء قسم اللغة اليابانية وآدابها، وأنه يرجوه أن يبذل مساعيه لدى الحكومة اليابانية لتقديم العون العلمى والمادى اللازم لإنشاء القسم، وكان الخطاب ممهورًا بخاتم كلية الآداب الرسمى».

«لا يدرى صاحبنا كيف وصل بالخطاب إلى السفير، فقد أعمته دموع الفرح وهو ينتقل من مواصلة إلى أخرى حتى وصل إلى السفارة، وقابله السفير على الفور، واستلم منه الرسالة، وطلب تحديد موعد لمقابلة رئيس مؤسسة اليابان (السفير وانى بوتشى) فتحدد الموعد بعد يومين، وذهب الرجل حاملاً طلبًا رسميًا بموافقة جامعة القاهرة على إنشاء قسم للغة اليابانية وآدابها، ولم يفته الإشارة إلى أن وجود القسم بجامعة القاهرة يجعله فى خدمة طلاب جميع بلاد الجامعة العربية».

«وبعد شهر تقريبًا اتخذت مؤسسة اليابان قرارًا بإنشاء قسم للغة اليابانية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة (من حيث المبدأ)، على أن يسبق ذلك دراسة حرة للغة اليابانية للتأكد من مدى الإقبال على دراسة هذه اللغة، ومن جدوى إنشاء القسم».

(٥٣)

ولا يفوت للدكتور رءوف عباس الفرصة للحديث عن المفارقة التى تتمثل فى إهمال دعوته للاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيس القسم:

«وعندما تم الاحتفال بمرور ربع قرن على إنشاء القسم دُعى كل مَنْ هب ودب للمشاركة فى الاحتفال، ولم توجه الدعوة لصاحبنا، ولم يُلب طلب أستاذ يابانى جامعى جاء من بلاده لحضور الاحتفال عندما سأل عميد الكلية عن صاحبنا، والتمس مساعدته فى الاتصال به، فعاد الرجل دون أن يتمكن من لقاء صاحبنا».

«ولم يشعر صاحبنا بالمرارة من هذا النكران، فهو عندما ساهم هذه المساهمة المتواضعة فى حرمان جامعة تل أبيب من إنشاء القسم، كان يؤدى لبلاده خدمة لم ينتظر مقابلها شيئا، بل كان البطل الحقيقى هو السفير المصرى الذى دفعته وطنيته إلى تحطيم الروتين وتحمل مسئولية تقديم الطلب الرسمى دون التقيد بالقنوات الدبلوماسية الرسمية. هذا البطل الحقيقى كان الأجدر بالتكريم فى تلك المناسبة إذا كان حيًا، وكانت ذكراه جديرة بالتكريم. كذلك كان السيد يعقوب بكر (رحمه الله) عملاقًا شجاعًا، ووطنيًا بحق، فلولاه لضاعت الفرصة على مصر، ولكن أحدًا لم يذكره بمناسبة الاحتفال ولو بكلمة واحدة، ولاشك أن الله جعل هذا العمل فى ميزان حسناته، فهو لا يضيع أجر من أحسن عملا».

(٥٤)

ويحرص صاحب هذه المذكرات على أن يشيد بما يسميه «مكرمة الشيخ سلطان على الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» التى قدر له أن يرأسها خلفا للأستاذ إبراهيم نصحى، وقد بدأ يواجه مشكلاتها المتمثلة فى نقص التمويل بما اعتقد أنه السبيل إلى حل هذه المشكلة، فإذا به يلقى بعض العون من هنا وهناك، لكن مكرمة الشيخ سلطان القاسمى تأتى لتتوج كل ما قدم للجمعية:

«... كما اقترح (الضمير يعود على رءوف عباس) أن تلجأ الجمعية إلى الشخصيات المعروفة برعاية الثقافة فى العالم العربى لبناء مقر خاص للجمعية، أو التبرع للجمعية بمبالغ تكفى لإقامة مقر خاص، أو شراء مقر خاص، حتى لا تقع الجمعية فى مأزق مطاردة ملاك العقارات. واقترح الكتابة إلى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، والسلطان قابوس، والشيخ سلطان بن محمد القاسمى أمير الشارقة الذى تبرع لجامعة القاهرة ببناء مكتبة لكلية الزراعة تكلفت ١٢ مليونا من الجنيهات، وأعد صيغة للخطاب قرأها على الأعضاء فوافقوا عليها فيما عدا إبراهيم نصحى، الذى هاله أن تلجأ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية إلى «أولئك البدو» تطلب عونهم ومصر هى التى كانت تفيض عليهم بخيراتها، ورأى فى تنفيذ هذا الاقتراح «إهانة لا تغتفر» تدل على عدم تقدير القيمة الأدبية للجمعية، وغادر الاجتماع غاضبا، ولم يحضر غيره من اجتماعات مجلس الإدارة التالية له، بعدما امتدت رئاسته للجمعية ٣٢ عاما (١٩٦٧-١٩٩٩)».

«ولما كانت غالبية أعضاء المجلس قد وافقت على إرسال الخطابات الثلاثة، فقد تم إرسالها مساء اليوم نفسه بالبريد المسجل من مكتب البريد الأهلى أسفل نفس المبنى، ولم يفكر أحد فى اللجوء إلى القنوات الدبلوماسية، أى سفارات دول من وجه النداء إليهم، تجنبا للشبهات، وإبقاء الموضوع فى حدوده الخاصة».

«ولا يعنى ذلك أن مجلس الإدارة راهن تماما على مساعدة أحد رعاة الثقافة، أو علق الآمال على أن يكون للجمعية يوما مقر ملك لها، ولكنها كانت محاولات مبعثها اليأس والقلق على مصير الجمعية، وركز المجلس فى الوقت نفسه على طلب العون من الشخصيات المحلية من رجال الأعمال بفضل الجهود التى بذلها يونان لبيب مع زملائه فى مجلس الشورى من رجال الأعمال، فحصل على تبرع بعشرة آلاف جنيه من محمد فريد خميس، وخمسة آلاف من كل من لويس بشارة، وإحدى شركات الأدوية «آمون»، كما أقنع سعد فخرى عبد النور بالتبرع بسداد إيجار الجمعية، فظل يدفعه كل ستة شهور لمدة سنتين، كذلك حصل يونان لبيب من الأمير طلال بن عبد العزيز على وعد بالتبرع سنويا للجمعية بمبلغ ٣٦ ألف جنيه مصرى لمدة خمس سنوات، وتم الوفاء بهذا الوعد».

«مضى نحو الشهر على إرسال الخطابات الثلاثة إلى مسقط وأبوظبى والشارقة، وذات مساء اتصل سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة بالجمعية طالبا الحديث مع رئيس الجمعية، فزوده موظف الجمعية برقم تليفون منزل صاحبنا الذى فوجئ بالاتصال».

(٥٥)

وهو يروى تفصيلات حديثه مع الشيخ سلطان، وعناصر مكرمته، مثنيا على الرجل العظيم فى كل جزئية من حديثه:

«بدأ الرجل العظيم حديثه بالاعتذار لصاحبنا، لأن الرسالة وصلت قبل ثلاثة أسابيع، وأنه لم يطلع عليها إلا يومها، نظرا لوجوده خارج بلاده، وأبدى قلقه على ما تعانيه الجمعية، وشرح له صاحبنا المشكلة، وتصور مجلس الإدارة لحلها باقتناء مقر يتبرع به أحد رعاة الثقافة العربية، أو يتعاون عدد من الرعاة فى تمويله، وأن التصور هو

شراء فيلا مساحة مبانيها لا تقل عن ٥٠٠ متر لسكنى الجمعية ومكتبتها، فاعترض سمو الشيخ على هذه المساحة، وقال: إنه يعلم أن بالجمعية مكتبة قيمة، وأنها وحدها تحتاج لمثل هذه المساحة لو لم يوضع التوسع فى الاعتبار، لكنه أبدى استعداده لشراء المقر وإعداده لسكنى الجمعية وتأثيثه، ثم تقديمه للجمعية على سبيل الهبة، وزود صاحبنا بأرقام هاتفه الخاص، والفاكس الخاص، وطلب إليه أن يراعى فى اختيار المكان القُرب من المواصلات، وسهولة الوصول إليه من أى مكان بالقاهرة، لأنه يعلم أن طلاب الدراسات العليا يستخدمون مكتبة الجمعية، وقال سموه: إنه لا يجب ترك الجمعية دون مساعدة حتى يتم تدبير المقر، وتساءل عما إذا كان بإمكانه المساعدة بمبلغ بسيط فى حدود مائة ألف درهم؟».

«شكره صاحبنا، وأثنى على ما يقدمه من عطاء لمصر، ذاكرا تبرعه لجامعة القاهرة بمكتبة كلية الزراعة (التى تخرج فيها الشيخ)، فاستنكر الرجل وصف ذلك بالفضل، وقال: إن فضل مصر على العرب كبير، وإنه يسأل الله تعالى أن يعينه على أداء بعض ما لمصر من دين، وعندما أشار صاحبنا إلى هذا الحديث فى الكلمة المرتجلة التى ألقاها فى حفل افتتاح المقر الجديد بمدينة نصر (٢٣ مايو ٢٠٠١)، بحضور الشيخ ووزير التعليم العالى وكبار رجال وزارة الثقافة، لاحظ عند اطلاعه على شريط الفيديو بعد الاحتفال أن عينى الشيخ اغرورقتا بالدموع عندما وصل صاحبنا فى حديثه إلى ذكر هذه العبارات المخلصة النادرة التى تكشف عن أصالة هذا الرجل العظيم، وعمق تقديره لمصر والمصريين».

«وبعد أن تم العثور على ثلاث فيلات بمدينة نصر أخطر سمو الشيخ بذلك لتكليف مَنْ يمثله بالقاهرة لفحصها واختيار ما يراه منها صالحها لسكنى الجمعية، وإعداده وتأثيثه، لكن ممثل سموه وجد أن شراء أى فيلا وتجهيزها ساوى من حيث التكلفة شراء قطعة أرض وتصميمها بما يتفق مع متطلبات الجمعية ليصبح مقرا لائقا بها، وبالفعل تم شراء الأرض بمعرفة ممثل الشيخ، وصدر تصريح البناء باسمه، وتم افتتاح المبنى فى ٢٣ مايو ٢٠٠١ فى نفس الأسبوع الذى تم فيه افتتاح مكتبة كلية الزراعة».

«ولكن مكرمة سمو الشيخ سلطان القاسمى لم تتوقف عند هذا الحد، فقد تلقت الجمعية منه تبرعا بمبلغ ٩٢ ألف جنيه (بما يعادل ١٠٠ ألف درهم) بعد أسبوع من

مكالمته مع صاحبنا (أبريل ١٩٩٩)، كما تبرع بعد ذلك بعام (يوليو ٢٠٠٠) بمبلغ ٩٠ ألف جنيه مصرى، فقام مجلس الإدارة بتجميع هذه التبرعات مع ما تلقته الجمعية من الأمير طلال بن عبد العزيز (٧٢ ألف جنيه على عامين)، وقام بربط وديعة مصرفية بربع مليون جنيه يُصرف منها على نشاط الجمعية، وفى يناير ٢٠٠٤ تبرع سمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمى بمبلغ نصف مليون درهم لتتحول إلى وديعة قدرها مليون وحوالى ٢٠٠ ألف من الجنيهات تدر ريعا سنويا يتراوح بين ٨٠ و٨٥ ألف جنيه (حسب سعر الفائدة)، وبذلك استقرت الأحوال المالية للجمعية فى حدود المصروفات الفعلية بأسعار عام ٢٠٠٤».

. . . .

«وهكذا كانت استجابة سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى لنداء مجلس إدارة الجمعية، وتشييده لمبنى المقر الجديد بمدينة نصر الذى أقيم بتكلفة قدرها ٣,٥ مليون جنيه مصرى دفعها من ماله الخاص، كانت بمثابة ميلاد جديد للجمعية المصرية للدراسات التاريخية من الناحية المادية».

(٥٦)

وفى مقابل هذا الحديث عن أريحية الشيخ سلطان القاسمى يأتى حديث آخر عن مناورات محمد حسنين هيكل، ووعوده التى لم تتجاوز حدود التلويح، وهى سلوكيات ليست جديدة على مَنْ يعرفون تاريخه دون أن ينخدعوا فى الأشراك التى لا يكف عن نصبها، والقصة التى يرويها رءوف عباس أبلغ من أن تحتاج إلى أى تعليق

«وبعد افتتاح المقر الجديد بشهر (تقريبا) رتب أحمد الجمال، الكاتب المعروف وعضو الجمعية، لقاء لأربعة من أعضاء مجلس الإدارة مع الأستاذ محمد حسنين هيكل بناء على طلبه، وتم اللقاء بمكتبه الخاص على شارع النيل، وحضر مع صاحبنا عاصم الدسوقى، وجمال زكريا، ومحمد صابر عرب، وأيمن أحمد الجمال، وفى هذا اللقاء أبدى الأستاذ اهتمامه برسالة الجمعية، وقال: إن الشيخ سلطان القاسمى يُشكر على مكرمته، ولكن رعاية الجمعية ماديا يجب أن تكون من واجب المصريين،

وبعد أن اطلع على تصور مجلس إدارة الجمعية الذى كان يتجه على تكوين وديعة فى حدود المليون جنيه يتم تجميعها من تبرعات أثرياء المصريين، وقال: إن هذا التصور لا يضع فى اعتباره التضخم، وإن الوديعة يجب أن تصل إلى خمسة ملايين على الأقل، ولما كان الحصول على مليون أو أكثر من التبرعات من الصعوبة بمكان نظرا للركود الاقتصادى الذى تعانيه البلاد، رأى الأستاذ أن تكون هناك مجموعة من الرعاة المصريين فى حدود العشرة أفراد، يتبرع كل منهم للجمعية بمبلغ عشرين ألفا من الجنيهات سنويا، ولمدة خمس سنوات، حتى تعطى الجمعية دفعة قوية لخدمة تاريخ مصر، ووعد بأن يتولى بنفسه مجموعة من الرعاة، وأن يكون أول المتبرعين».

«سعد القوم باقتراح الأستاذ، وشكروه بحرارة، وطلبوا منه أن يلقى محاضرة فى الموسم الثقافى القادم (أكتوبر ٢٠٠٢ - مايو ٢٠٠٣) فى موضوع يختاره، فأبدى موافقته من حيث المبدأ، محذرا من أن ذلك قد يجر المتاعب على الجمعية، فطمأنوه إلى أن الجمعية هيئة علمية أهلية مستقلة، وهى حريصة تماما على استقلال قرارها وإدارتها، وعندما فتح الأستاذ موضوع الوثائق التاريخية التى يحتفظ بنسخ منها، ويريد إيداعها هيئة خاصة يطمئن إليها، أبدى ممثلو الجمعية استعدادهم لقبول تخصيص مكان لها بمكتبة الجمعية، بعدما تُشرف الجمعية بزيارته ليطمئن بنفسه على صلاحية الجمعية لهذا الغرض».

«وفى اليوم التالى للمقابلة حمل صاحبنا مجموعة من مطبوعات الجمعية وخطاب شكر لهيكل على المقابلة، سجل فيه كل ما تم الاتفاق عليه، وختمه بطلب تحديد الموعد الملائم للأستاذ لإلقاء محاضرته بالجمعية، وموضوع المحاضرة، وسلم الرسالة والكتب المهداة (بنفسه) لسكرتير هيكل».

«وبعد نحو الأسبوع تلقى صاحبنا مكالمة تليفونية من هيكل شكره فيها على الكتب المهداة، وقال: إن لدى سؤالا (مهم) حول الجمعية، قد يبدو تافها، لكنه مهم بالنسبة له: هل لمن يسمى عبد العظيم رمضان علاقة بالجمعية؟ فقال له صاحبنا: إن رمضان كان عضوا بالجمعية منذ سنوات، ولكن سقطت عضويته لانقطاعه عن سداد اشتراكات العضوية، وذلك منذ رسب مرتين فى انتخابات مجلس الإدارة، وإنه لا هم له إلا

الهجوم على الجمعية، خاصة صاحبنا، فقال هيكل: «يعنى مش سايب حد.. على العموم شكرا، دى معلومة مهمة بالنسبة لى»، وانتهت المكالمة عند هذا الحد».

«وظل صاحبنا يتصل بمكتب هيكل على فترات متباعدة (يوليو - سبتمبر ٢٠٠١)، فكان يتلقى ردا بأن الأستاذ غير موجود، أو أنه نبه إلى عدم إزعاجه، وفى كل مرة كان صاحبنا يترك اسمه وأرقام تليفوناته، ورسالة مؤداها أن الجمعية بانتظار رده (الكريم) على دعوتها، ولكن يبدو أن الرجل لم يكن جادا فيما وعد به من رعاية، أو أنه أعاد حساباته فوجد أن من مصلحته أن ينأى بنفسه عن الوقوع فى هذه «الورطة».

. . . .

على هذا النحو يسخر رءوف عباس من هذا الذى خدعه وضيع وقته.

(٥٧)

وإذا كان لنا أن نختم مدارستنا لهذه المذكرات بشىء يستحق أن يكون ختاما لهذه المدارسة، فإننا نؤثر أن يكون هذا الشىء هو تقييم هذا المؤرخ المرموق لتجربة الزعيم جمال عبد الناصر فيبدأ بأن يتحدث عن نفسه بأن شأنه شأن غيره من السواد الأعظم من الشعب المصرى من الفلاحين والعمال، كان صنيعة ثورة يوليو، ومن أصحاب المصلحة الحقيقية فى نجاح برنامجها، ولكنه لم يكن من «دراويش» الثورة الذين ينخرطون فى «أذكار» المناقب، بل كان ممن ينظرون نظرة نقد إلى الممارسات السياسية، فيقدر ما كان إيجابيًا منها، وتوجس خيفة على إنجازات الثورة، والاستفتاءات التى حولت هذه الآلية الديمقراطية إلى مهزلة حقيقية، وتعاظم دور الأجهزة الأمنية وتعددها، وكبت كل صوت ناقد باعتباره معارضًا خارجًا على النظام، والزج بالفصائل السياسية المعارضة فى المعتقلات، حيث تهدر آدميتهم، وتشرد عائلاتهم.

والشاهد أن رءوف عباس يبدى رأيه فى صراحة ووضوح منتقدا فهم عبد الناصر للحرية السياسية، وتضحيته بالفرص المتاحة لإشراك الشعب فى المسئولية مكتفيا بشعبيته هو وحده، حذرا من الاعتماد السياسى على الجماهير:

«ورغم ما كان يكنه من إعزاز وتقدير لعبد الناصر كزعيم وطنى، ومناضل عظيم

ضد الاستعمار، وبطلاً للتحرر الوطنى، هاله مفهوم عبد الناصر للحرية السياسية، والذى طرحه فى خطابه الذى ألقاه بمناسبة المظاهرات الطلابية والعمالية التى قامت احتجاجًا على أحكام الطيران، ونادت بالحرية السياسية «عاوزين حكومة حرة.. العيشة بقت مرة»، وذلك بعد أقل من عام على مظاهرات ٩ و١٠ يونيو التى خرجت فيها نفس الجماهير تعلن تمسكها بعبد الناصر، فقد استنكر الزعيم فى خطابه المطالبة بالحرية، واعتبر أن الحرية تعنى تكافؤ الفرص، وإتاحة فرصة التعليم والعمل والسكن أمام المواطنين، أى أن ليس من شأن الجماهير مناقشة أى قرار سياسى، فضلا عن أن يكون لهم حق المشاركة فيه، وكان صاحبنا يرى أن عبد الناصر أهدر ظرفًا تاريخيًا جلبته الهزيمة كان باستطاعته الاستفادة منه بإجراء إصلاح سياسى حقيقى تتخلص فيه البلاد من فساد التنظيم السياسى، والمؤسسات البيروقراطية، وتوحش أجهزة الأمن، ويصحح مسار التجربة كلها».

«لقد كان عبد الناصر منحازًا انحيازًا تامًا للفقراء، وقدم لهم من المنجزات ما لم يتحقق فى تاريخ مصر من قبل ومن بعد، ولكنه كان شديد الحذر من الاعتماد السياسى على الجماهير، وتنظيمها سياسيًا، ومشاركتها فى صنع القرار، مكتفيًا بما له من شعبية عندهم، وهى وحدها لا تكفى لحماية النظام وقت الخطر، وهى نفسها الثغرة التى نفذ منها السادات لتصفية ثورة يوليو وإهدار إنجازاتها التنموية، وإثارة مناخ التعصب الدينى الناجم عن إفساح الساحة أمام التيار الإسلامى السلفى الرجعى الذى عرض الوحدة الوطنية للخطر، وأهدر أو كاد ما حققته الوحدة الوطنية من منجزات منذ ثورة ١٩١٩».

«ورغم انتماء صاحبنا إلى ثورة يوليو قلبا وقالبا، وإلى الطبقة الاجتماعية التى ردت لها الثورة اعتبارها، وحفظت كرامتها، وفتحت أمامها أبواب الحراك الاجتماعى، إلا أنه عزف عن الانتماء إلى تنظيماتها السياسية من «هيئة التحرير»، مرورا «بالاتحاد القومى»، إلى «الاتحاد الاشتراكى العربى»، فقد رأى رأى العين العناصر الوطنية الشريفة التى كانت على أتم استعداد للتضحية بحياتها دفاعًا عن الثورة تتعرض للعزل السياسى، وتفقد حقوقها فى المشاركة فى العمل السياسى والنقابى بسبب التقارير التى

كان يكتبها الانتهازيون الذين لبسوا لباس حماة الثورة، وكانوا فى حقيقة الأمر معاول هدم لها، وهكذا غلب على التنظيم السياسى مواكبة النفاق والانتهازية من القاعدة إلى القمة، ولا أدل على ذلك من اشتراك هذه العناصر ذاتها فى تصفية منجزات الثورة على مر العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين».

(٥٨)

وخلاصة القول، بعد هذا، وقبله، أن رءوف عباس كان ينصف نفسه فى إحجامه عن ممارسة العمل السياسى على نحو أو آخر بأن كان يصنف نفسه على أنه كان واحدا من الأغلبية الصامتة، وإن نسب لنفسه بعض الفضل الضئيل فيما كان يفضى به فى محاضراته أو كتاباته أو مشاركته المحدودة فى تأسيس جمعية الوحدة الوطنية:

«. . . وهكذا كان صاحبنا يتخذ لنفسه مكانًا بين «الأغلبية الصامتة»، ولكنه يخرج عن صمته فى محاضراته إلى تلاميذه، وفى بعض المقالات التى كان يكتبها هنا وهناك، ناقدًا لسياسة القطاع العام، أو معبرا عن رأيه فى القضايا العامة، أو محذرًا من المساس بالوحدة الوطنية، القاعدة الصلبة للشخصية المصرية، والضمان القوى لتماسك المجتمع المصرى، وكان له شرف الاشتراك مع نخبة من كبار المثقفين فى تأسيس «الجمعية المصرية للوحدة الوطنية» فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين».

. . . .

هكذا لخص رءف عباس حياته السياسية على نحو ما لخص حياته كلها على نحو فريد لم يحظ بالقبول الكامل وإن كان قد حظى بالإعجاب فيما صادف توافقًا مع بعض التوجهات المعروفة. . وهو إعجاب قصر نفسه على ما أعجبه من دون أن ينظر إلى ما نظرنا إليه من بانوراما جميلة تضمنتها هذه المذكرات الفريدة.

***

الباب السابع

«عمر فى العاصفة»
مذكرات أحمد عباس صالح

obeikan.com

(١)

أحمد عباس صالح اسم من الأسماء الكبيرة فى التاريخ الثقافى واليسارى فى عصر الثورة، قدر له أن يقدم كثيرا من أفكار اليسار إلى جمهوره من خلال رئاسته لتحرير مجلة «الكاتب»، وقد لا يعرف الناس أن حظه شاء أن تصطدم به الثورة منذ بداية عهدها بسبب ما ظن أن سيرضى الثورة، أو يحقق هدفها، لكن جرعة الثورة فى العمل الفنى الذى قدمه كانت كافية لتخيف قادة الثورة أنفسهم، بمن فى ذلك عبد الناصر، وصلاح سالم وغيرهما، وهكذا كان هذا العمل الإذاعى «مصاصو الدماء» بمثابة العقبة التى بذرت بذور الشك فى نفوس رجال الحكم تجاه صاحب هذه المذكرات على نحو ما سنستعرضه مما رواه بالتفصيل فى الفصل الثانى عشر من مذكراته، بل لقد استمر هذا الخوف، ودفع أحمد عباس صالح نفسه ثمنه حين فقد كثيرا من مواقعه الوظيفية، أو المدرة للرزق.

والواقع أننا نكاد نحس أن هذه الواقعة الفظيعة (التى عقد لها مجلس قيادة الثورة ما يشبه جلسة محاكمة لهذا المؤلف) ظلت تنذر أحمد عباس صالح وتحذره من الخطوات «المتقدمة» فى التعامل مع السلطة فى أوطاننا العربية، وهكذا فإنه ترك مصر حين وجد أن الرزق قد ضاق فيها، وأن الأمل يمكن أن يبزغ خارجها، وهكذا تعامل بإرادته أيضا مع الأجنحة المختلفة فى أنظمة العراق وليبيا قبل أن يصيبه الأذى. . وهكذا قدر له أن ينجو من السجن والاعتقال، لكنه فى المقابل عاش الغربة والاغتراب، وإن كان حظه فيهما خيرا من حظ غيره.

(٢)

وتدلنا مذكرات أحمد عباس صالح عن فترة غربته على مدى ما يمكن لشرقى مثله

أن يحسه فى مرحلة انتقال إلى المجتمع الغربى بكل ما فيه من اختلاف، وبكل ما فيه من مزايا ظل يفتقدها ويتمناها فى المجتمع الذى نشأ فيه، والواقع أن مذكرات أحمد عباس صالح تجيد تصوير شعور الشرقى الناضج وهو يتأمل حياته فى ظل نظم ليبرالية تحفظ حقوق الإنسان، وبخاصة حقه فى العلاج، والعمل، وتحافظ على هذه الحقوق من دون ضجة كبيرة، وتمنح المهاجر الجديد من طبقة أحمد عباس صالح فرصة الأمن الذى افتقده، وقد افتقده بقسوة، وعاش القسوة بسبب هذا الافتقاد، وليس أدل على هذا من الفصل السابع والثلاثين «إعدام صديق» الذى وصف فيه تفصيلات نفسية مذهلة عن تصفية صدام حسين لزملائه الذين قادهم حظهم العاثر فى إحدى المناقشات إلى أن يحبذوا الوحدة مع سوريا، ومع صدق نوايا هؤلاء فى رأى أحمد عباس صالح فإن صدام لم يكن على استعداد لقبول فكرتهم فى إمكان التضحية بمنصبه (مثلا) من أجل قيام دولة عربية قوية على أساس الفكر البعثى.

لهذا فإننا نستطيع أن نفهم مدى الإعجاب الحقيقى الذى يظهره أحمد عباس صالح ويعبر به عن تجربته فى الحياة فى لندن وقد خصص لها (الفصل الخامس والثلاثين من مذكراته)، وفصلا ثانيا جعل عنوانه يعبر عن هذا الإعجاب: مدينة لها جاذبية خاصة، وهو حريص على أن يوظف معارفه النظرية التى نمتها قراءاته الأولى فى محاولة فهم مجتمع الإسلاميين فى بريطانيا أو فى لندن على وجه التحديد، وهو يقدم فى هذا الإطار تحليلات سريعة تعنى بوصف الواقع الذى يفوق كل تحليل، وكل قدرة على التحليل.

(٣)

وتقدم هذه المذكرات بقدر من التحفظ المصرح (إن جاز هذا التعبير) انطباعات صاحبها المبكرة عن معرفته بميشيل عفلق فى أثناء إقامتهما فى العراق، وربما كانت هذه المذكرات من أولى الأدبيات التى أطلعتنا على المعاناة التى كان يعيش فيها هذا الرجل الرمز فى الوطن العربى الذى كان يصوره للناس قائدا موجها، بينما هو فى حالة أقرب ما تكون إلى تحديد الإقامة.

وقد أجاد المؤلف التعبير عن مشاعره مع تجارب المرض التى مر بها وهو فى خارج

وطنه فى العراق، وفى ليبيا، وفى بريطانيا، بيد أن هذا التعبير كان فى مجمله تعبيرا آليا ميكانيكيا لا يكاد يقارن بمشاعره الصادقة والدافئة فى مواقف أخرى، كذلك فإنه يروى تجربة زوجته التى عاشت المرض ثم الشفاء، ثم المرض مرة أخرى، وقد تنقل معها وبها فى معاهد العلم والعلاج التى قدمت لها أفضل ما كان ممكنا من رعاية كانت تستحقها هذه السيدة العظيمة التى شاركته عن حب وإخلاص حياته الحافلة بالصعاب.

(٤)

وطيلة صفحات هذا الكتاب يبدى صاحب هذه المذكرات أحمد عباس صالح اعتزازا لا حدود له بكتابه «اليمين واليسار فى الإسلام»، وهو يكاد يوحى لنا أنه كان يتمنى أن يقدم نفسه لكل مجتمع بهذا الكتاب، على الرغم من اعتزازه بتاريخه الأدبى فى القصة القصيرة، ثم فى العمل الدرامى الإذاعى، والتمثيليات الإذاعية، وما إليها، ثم عمله أيضا فى الكتابة للسينما.

وربما دلنا اعتزاز صاحب المذكرات بكتابه «اليمين واليسار فى الإسلام» على ما كان يؤمن به أحمد عباس صالح من فكرة التقدم وضرورتها الملحة أو الحتمية لمجتمعه ووطنه، ومع أنه كان بحكم تكوينه الفكرى، والمجتمع الذى بدأ حياته فيه، يظن التلازم حتما بين الحداثة والتقدم والوطنية والعروبة والعدالة الاجتماعية، فإن رحلته التى تصورها سطور المذكرات وفقراتها وفصولها تكاد تجعلنا نفقد الأمل فى إمكان تحقيق بعض ذلك التلازم، وربما معظمه، لكن حياة الرجل نفسه تطمئننا على أن الأمل فى القيم العليا لا يخذل صاحبه، وأن عدالة السماء تكفل له تعويضا آخر من حيث لا يدرى، وربما من حيث لا يحتسب.

(٥)

ومع كل هذا التأمل للحياة المعاصرة فإن أحمد عباس صالح لا يزال معتزا بالمحطات الفكرية المؤثرة فى حياته الأولى، وهو يتحدث عن عمله فى بداية حياته مع واحد من رواد العلم فى الأزهر، الذين مارسوا الإصلاح الاجتماعى وهو الشيخ محمود أبو العيون، وهو كما سنرى فى مدارستنا لهذا الكتاب يثنى عليه الثناء كله، ويدلنا على جوانب رائعة فى فكر هذا الرجل، وأدائه، وسلوكياته.

كما يدلنا على جوانب مضيئة فى سلوك الأستاذ العقاد، وأبوته، وإنسانيته.

وفى مقابل هذا الإعزاز والتقدير نجد أن حديثه عن رجال الثورة مشوب بكثير من التحفظ، فهو يروى كيف عرف السادات قبل الثورة، وكيف أنه كان هو الذى تولى كتابة استقالة عبد الحكيم عامر الشهيرة فى بداية الستينيات، وكيف أتيح له أن يعرف صلاح سالم ونشاطه فى السودان.

(٦)

ويميل أحمد عباس صالح إلى المجاهرة بالقول بأن التأميم والتوجه الاشتراكى الذى بدأه عبد الناصر كان ضربة لجماعات المشير عبد الحكيم عامر فى ظل صراع الرجلين على السلطة، ومن العجيب أن يكون هذا هو توصيف واحد من اليساريين لهذه الخطوة الجبارة على طريق التحول الاشتراكى.

ومع هذا فإنه يعترف أنه ويوسف إدريس وقفا وهما لا يكادان يصدقان عندما سمعا عبد الناصر يعلن أول قرارات التأميم:

«. . . وكنت قلقا بالطبع من هذا الصراع بين الرجلين الذى وصل إلى درجة التفكير فى إزاحة عبد الناصر. على أن الخطبة التى ألقاها عبد الناصر فى ٢٢ يوليو لمناسبة الاحتفال بعيد الثورة، كانت مفاجأة كبرى، وكان يوسف إدريس عندى فى البيت ونحن نسمع خطاب عبد الناصر، وإذا به يعلن أول قرارات التأميم. نهضنا واقفين ونحن لا نكاد نصدق. ولكننا أدركنا على الفور أن هذه ضربة قاصمة لجماعات المشير. وأن مشروع أى انقلاب ضد عبد الناصر سوف يؤول على الفور بأنه عمل رجعى مضاد للثورة "الشعبية"، وسوف يكون من العسير، إن لم يكن من المستحيل القيام بأى عمل ضد عبد الناصر بعد هذه القرارات، التى هيجت الشارع المصرى فى جميع أنحاء الجمهورية. وفى العام التالى صدرت جميع قرارات التأميم الأخرى وقانون الإصلاح الزراعى الأخير، والذى أنزل حق ملكية الأرض الزراعية إلى خمسين فدانا، وكانت هذه بداية المنحى الاشتراكى، وبداية الاعتماد على الاتحاد السوفيتى فى بناء السد العالى ثم فى السلاح بطبيعة الحال».

(٧)

ويفاجئنا أحمد عباس صالح بالحديث عن موقف السيدة زوجته من مبادرة السلام، وكان كلاهما فى العراق، وهو الموقف الذى نبهه إلى جانب مهم من الحقيقة، وجعله يعيد التفكير فى كثير من المسلمات:

«. . . عند واقعة ذهاب السادات إلى إسرائيل نشطت أجهزة الإعلام العراقية لاستطلاع آراء المصريين فى العراق فامتلأ بيتى بكاميرات التليفزيون لتسجيل أقوالى وكانت (أى الأقوال) ضد الزيارة بطبيعة الحال . على أن مقدم البرنامج اتجه إلى زوجتى فسألها عن رأيها فإذا بها تقول : "إننى أوافق عليها وأوافق على الصلح . أنا ضد الحرب وعندى خمسة أولاد ولا أريد أن أفقدهم فى الحرب» .

«أدهشتنى الإجابة لكنها نبهتنى إلى الجانب الآخر من الموضوع . فها هى حروب ثلاث أفقدت الكثير من الأمهات والآباء أولادهم دون أن يطرأ أى تحسن على حالتهم ودون أن يستفاد من الأخطاء التى أدت إلى خسارة الأرواح والأموال ودون أن يظفر المواطن المصرى بحقه فى الاحترام والرعاية من جانب الدولة . لم تكن هناك أحزاب ولا مؤسسات اجتماعية تحمى الأفراد، وكانت تلك السلطات مع ذلك تطالبهم بهذه التضحيات الكبرى بلا مقابل على الإطلاق» .

. . . .

. . . .

وهو يصل فى النهاية إلى تقرير حقيقة مهمة طالما كابر فيها الكثيرون:

«وكان من الطبيعى أن يسكت الشارع على انقلابات «السادات» وعلى زيارته لإسرائيل حتى يسترد أنفاسه بأمل أن تنصلح الأمور فى الداخل» .

(٨)

كذلك فإن أحمد عباس صالح يدلنا على أنه فى أثناء غربته كان قد بدأ يواجه الأمر الواقع فى العلاقات الدولية فيما يتعلق بالصراع العربى ـ الإسرائيلى، وهو يفاجئنا بالحديث عن إحباطه حين حضر مؤتمرا دوليا فى كوبا، ووجد بعض الشيوعيين اليهود

يميلون إلى حذف النص على التوصية بإدانة إسرائيل، كما يحدثنا عن اضطراره هو وزملاؤه المصريون إلى لقاء كبار المسئولين فى الحزب الكوبى، والرئيس الكوبى فيدل كاسترو من أجل المحافظة على زخم «إدانة إسرائيل»، وهو يشير إلى ما لم يشر إليه غيره من ضيق الرئيس الكوبى بهزيمة العرب أمام إسرائيل، ولومه لهم على هذه الهزيمة:

«. . . لم يكن الأمر سهلا، إذ استُدعينا لمقابلة مسئول كبير فى الحزب لنناقش نفس الموضوع، فصممنا على موقفنا. ولم تستطع لجنة الصياغة، وكنا ممثلين فيها أن تستبعد قرار الإدانة. وبالفعل صدر البيان وفيه الفقرة التى صغناها وكان انتصارا كبيرا للوفد المصرى».

«وفى المساء وفى الحفل الختامى على ما أعتقد، كان الرئيس كاسترو يتوسط قاعة الاحتفال، فذهب إليه زميلنا نبيل زكى ليعاتبه على الإشكالية التى حدثت أثناء إعداد الصياغة النهائية للبيان الختامى، فرد عليه غاضبا: وهل نحن الذين انهزمنا وانسحبنا أمام الجيوش الإسرائيلية ؟».

«كنت أراقب المشهد من قريب، واحتد النقاش قليلا، ولكن كاسترو عاد فخفف من وطأة الحديث. بينما لاحظت عينى نبيل زكى وهما تغرورقان بالدموع».

(٩)

ومن الطريف أن أحمد عباس صالح فى أثناء حديثه عن هذه الواقعة يحرص على أن ينتقد موقف اثنين من اليساريين الأجانب اللذين عرفا على أنهما صديقان للحق العربى والشعوب العربية، وهما الصحفى الفرنسى الشهير إيريك رولو، ورئيس الوزراء السوفيتى السابق بريماكوف:

«. . . مهما يكن من أمر، فان كوبا لم ترفض طلبنا وتجاوبت معنا، وكذلك لجنة الصياغة. ولكن الذى أثار دهشتنا هو حماسة إيريك رولو الذى لم نره أو نكلمه بعد ذلك. ولم يكن موقفه فى الحقيقة بأسوأ من موقف بريماكوف. إذ كانت فكرته عن السلام بين إسرائيل والعالم العربى متشابهة، أى التسليم الكامل بقيام الدولة

الإسرائيلية على الأسس العنصرية، وليس على حق المواطنة، بصرف النظر عن العرق أو الدين . وقد ظل رولـو يعمل فى صحيفة «لو موند» إلى أن عين سفيرا لفرنسا فى تونس على ما أذكر . ومازال يعتبر خبيرا فى الشئون العربية يظهر فى الفضائيات العربية بين وقت وآخر».

(١٠)

ونقتطف من حديث أحمد عباس صالح الطويل عن تكوينه فيما قبل الثورة بعض الفقرات التى يحاول هو نفسه من خلالها أن يصور الملامح التى أثرت فى شخصيته، أو التى ساعدته فيما بعد:

فمن حديثه عن ملامح التدين المبكر فى حياته ننقل قوله:

«. . . كنت أحضر مبكرا لأجلس إلى جوار المقعد العالى الذى يتربع عليه الشيخ رفعت حتى أكون قريبا إلى الصوت . . وحينما يصل الشيخ تحدث حركة خفيفة فى الصفوف الخلفية فأقوم أنا ومن حولى من الناس صبية وشبانا لنقبل يد الشيخ الذى ألفنا من طول الاعتياد وأصبح يعرف أسماءنا ويعرف آباءنا ومدارسنا على الرغم من أن المقام لا يسمح بمبادلتنا الحديث لأكثر من لحظات وفى همس شديد».

«. . . وعندما كنت أقبل يد «الشيخ رفعت» كنت أعطى فكرة تبجيل اليد مغزاها الدينى ومبررها الروحى، وعندما كان يرتفع صوت الشيخ رفعت تدريجًا فى صحن الجامع وهو يقرأ سورة «الكهف» وما حدث بين سيدنا الخضر وتلميذه النبى موسى كنت أرتجف من روعة الصوت ومن أحداث القصة ذاتها».

«وكان علىّ وأنا أصغى بانتباه فى المسجد للصوت المجلجل الرائع، الذى كنت أتصوره قادما من السماء مباشرة، أن أدرك عظمة وضرورة التسليم بما يقدم لى من أوامر ونواه دينية دون أى سؤال، وكان على أن أكون أكثر تعقلا من النبى موسى!».

(١١)

ويفعل أحمد عباس صالح الشىء نفسه فى حديثه عن بعض ملامح تكوينه السياسى، وانظر ،على سبيل المثال، إلى هذه الفقرة التى تصور حيرته بين الانتماءات

المختلفة، ولسنا ندرى لماذا لم يحسم اختياره فى اتجاه الوفد إلا أن يكون الأمر رغبة فى التميز، ومع هذا فإننا نسارع إلى التنبيه إلى ما ذكره أحمد عباس صالح نفسه (فيما بعد) فى واقعية عمله بالإذاعة من أنه لم يكن على استعداد لخيانة الوفد والحديث عن ٤ فبراير بالطريقة التى كان رجال الثورة يحبذونها:

«. . . ذهبت إلى النادى السعدى، وهو نادى حزب الوفد القديم، فى صحبة صديقى الكاتب المسرحى نعمان عاشور وجلسنا فى صالون كبير، لم نكن وفديين ولكننا كنا نبحث عن مؤسسة تحمينا، عن تجمع ديمقراطى ننتمى إليه، كنا نريد هذا بغير وعى».

(١٢)

لكن أحمد عباس صالح فى المقابل يتحدث باعتزاز عن لحظات وقوعه فى أسر الشيوعية وحبها:

«جاءنا مسئولنا ومعه محاضرات مكتوبة على الآلة الكاتبة عرفت بعد ذلك أنها مترجمة عن الدروس التى كتبها "بوليتزير" ـ وهو أحد الشُّراح الفرنسيين للماركسية ـ كدروس للعمال فى الحزب الشيوعى الفرنسى، وكانت تتناول النظرية الماركسية فى الفلسفة والاقتصاد والتاريخ وكانت صدمة بالنسبة لى. شعرت بعد عدد من المحاضرات أننى وقعت على ضالتى وأننى أصبحت أخيرا أعرف أسرار الدنيا، وبدأت أتعرف على شىء من التفصيل أكثر».

(١٣)

ومن ملامح النشاط اليسارى يؤثر أحمد عباس صالح أن يتحدث عن شخصية شبه عمالية مغمورة، لكن فهمها كان سابقا على نشاط المثقفين والمتعلمين:

«وفى الفترة التى كنت أتحدث عنها ـ أى فى حوالى سنة ١٩٤٨ ـ صرنا أعضاء فى لجنة منطقة شبرا الخيمة فى تنظيم «حدتو» وكانت هذه اللجنة تجتمع فى شبرا الخيمة بعد أن ننهى اجتماعاتنا مع الخلايا المسئولين عنها، وكانت فى أغلبها مشكلة من قيادات العمال فى هذه البلدة العمالية المليئة بالنشاط الصناعى. وكنا بالفعل نملك قوة تأثير كبيرة».

«وكنت مسئولا عن خلية تضم ألمع القيادات العمالية . وكنا نجتمع فى بيت واحد منهم لا أذكر إلا الاسم الأول من اسمه الآن وهو محمد، وكان شابا فى الثلاثين من عمره بينما لم أكن قد تجاوزت الثانية والعشرين . وكان رجلا أسمر اللون يرتدى عادة جلبابا أبيض بالغ النظافة، وكان يقابلنى فى شارع معين لنتجه إلى بيته فنمر على المقاهى والدكاكين فيقرأ على الجالسين السلام فأجد حماسة فائقة منهم حتى أنهم كانوا يقفون إجلالا له وردا على تحيته».

«وكان رجلا متواضعا وبالغ التهذيب حتى أن مشيته تضطرب خجلا وهو يتلقى هذه الردود التبجيلية والمحبة . أما بيته فكان حجرة فوق سطوح منزل يشبه غيره من البيوت فى هذه المدينة العمالية التى لم تخل من الطابع الريفى، أما بقية السطوح، والذى لم يكن مبلطا، فكان مكنوسا ومرشوشا ونظيفا، وكنت ترى صينية نحاسية لامعة وعليها قلل الماء المغطاة بأغطية نحاسية تبرق كالذهب من فرط العناية . وكانت امرأته شابة وسيمة التقاطيع إلى حد الجمال اللافت للنظر، وكانت هى المسئولة عن كل هذه النظافة والعناية، وكان من الواضح أنها امرأة قوية تمثل أجمل ما فى المنظومة الأخلاقية السائدة فى هذا المجتمع العمالى مثل روح التضامن والأخوة الصادقة وتحمل المشاق . كانت كريمة حتى بشىء من الاندفاع، وكانت شديدة الفطنة والذكاء فضلا عن إحساسها باللياقة فى أعلى درجاتها . كنا نجتمع فى هذه الحجرة الصغيرة نفترش الأرض على حصير نظيف وشلت منجدة بشكل جيد، والبعض يجلس على السرير الوحيد فى الغرفة . كانت تخرج وتتركنا وحين تعد الشاى تطرق الباب ثم تدخل لنا صينية الشاى وتنصرف».

«شغلتنى هذه الأسرة الجميلة فى هذه البقعة المليئة بالبؤس والمخاطر . وقد عجبت للأسلوب الراقى الذى يتعامل به محمد مع زوجته، فهو أبعد ما يكون عن سى السيد فى ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة «بين القصرين» وعلى الرغم من احتشامها إلا أنها كانت تحادث ضيوف زوجها كأخوة لها وليسوا رجالا أغرابا ودون خجل مدعى أو محاولة لتغطية الوجه أو الاختباء، وكان واضحا جدا أن بين الرجل وزوجته حبا غير عادى يصل إلى درجة فناء كل منهما فى الآخر، وكنت أرى ذلك فى عيون رفاق الخلية

obeikan.com

الذين كانوا جميعا من زعماء العمال فى هذه البلدة . وقد عرفت فيما بعد أن هذا الرجل كان يقتسم أجره مع من يتعطل من زملائه أو يصيبه المرض، فضلا عن بذل الجهد من أجل إعادة هذا العامل أو ذاك إلى عمله أو الصلح بينه وبين رئيسه فى أمر من الأمور الجارية عادة بين العمال فى مكان عملهم . وربما كان يُلجأ إليه فى حل المشاكل العائلية بين العمال وزوجاتهم أو أولادهم، وكانت زوجته تلعب دورا فى هذا المجال، وكانت لها ـ على صغر سنها ـ كلمة مسموعة فى البلد» .

(١٤)

ثم يتحدث أحمد عباس صالح عن اختلاف هذا الزعيم العمالى مع القيادات المركزية، مع أنه كان على الحق حسبما يتصور صاحب هذه المذكرات، ومن العجيب أن أحمد عباس صالح يستطرد من هذا الموقف مباشرة إلى انتقاد الزعيم المؤسس لحركتهم الشيوعية، وإلى الحديث عن نهايته، مضفرا هذا بحديثه هو عن انفصاله عن هذه الحركة منذ ذلك الحين :

« . . . انتصر محمد إذ كان جميع أعضاء الخلية من رأيه وقد انضممت بالفعل إلى هذا الرأى أنا الآخر . وعندما عدت إلى لجنة المنطقة التى كنت عضوا فيها وافقونى على ذلك . وكان من الطبيعى أن نراجع اللجنة المركزية بواسطة المندوب المشارك لنا فى لجنة المنطقة، ولكننا تعرضنا لمجادلات عقيمة مما شككنا فى جدية الحركة وفى تأويلاتها للماركسية» .

«وكان من حقنا أن نتساءل عن معنى أن يكون زعيم المنظمة رجلا يهوديا بالذات، ولعلى فكرت : لو كان الرجل جادا ومخلصا للمبادئ الاشتراكية لخلع نفسه من الزعامة وتركها لرجل من المصريين، ولكنه لم يفعل ذلك أبدا إلى أن اضطر مرغما أن يهاجر إلى إيطاليا أولا، وأن ينخرط فى الحزب الشيوعى الإيطالى، والذى لم يلبث أن اختلف معه وسافر إلى فرنسا ممارسا نشاطه حول قضايا الشرق الأوسط حتى اغتاله شخص ما أو جماعة ما وهو متجه ليركب المصعد إلى شقته فى باريس . وقد صدر عن اغتياله وحياته كتابان أحدهما لمؤلف مصرى والآخر لمؤلف فرنسى، وقد قرأت الكتابين بعد مجادلات شبرا الخيمة بأكثر من أربعين سنة فلم تتبدد شكوكى التى خالجتنى فى تلك الأيام» .

«بالطبع قدمنا جميعا استقالتنا بما فى ذلك تنظيم شبرا الخيمة كله وانقطعت صلاتى عن الجميع».

(١٥)

وإذا كان حديث كل مؤلف عمن عرفهم فى شبابه من رجال السياسة معبرا بطريقة أو أخرى عن رؤيته هو لملامح تكوينه السياسى المبكر، فإننا نجد نموذجا معبرا فى روايات أحمد عباس صالح المتناثرة فى مذكراته عن الشخصيات السياسية التى قدر له أن يعرفها، وهو على سبيل المثال يتحدث عن الفرصة المبكرة التى أتيحت له كى يعرف الرئيس السادات عن قرب:

«... بالطبع لمع اسم السادات قبل ذلك مع حادثة اغتيال أمين عثمان واتهامه بالاشتراك فيها، ومع أننى قابلته بعد ذلك فى مقهى عبد الله فى الجيزة، حيث كان يعمل فى سيارات النقل الكبيرة بعد أن فصل من الجيش، وكان ينزل أحيانا ضيفا على زكريا الحجاوى، الذى كان يسكن قريبا من المقهى. وكان يأتى إلى المقهى فى سنة ١٩٤٦ مبكرا قبل أن يصل الجُلاَّس من كبار الأدباء وأساتذة الجامعة الذين أتيت من أجلهم، فأجلس إليه وأتحدث معه وهو يشرب الشاى بصوت مسموع ويدخن سيجارة ويلمع حذاءه، وكان هو الذى يتحدث - على الأغلب - عن رؤيته السياسية التى كانت خليطا من برنامج الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل وحركات الاغتيالات السياسية مثل اليد السوداء. وكان فى حديثه العادى أقرب ما يكون إلى الخطابية والانفعالية، وكنت أجد متعة ما فى الاستماع إليه على الرغم من اختلافى تماما مع الكثير من آرائه».

(١٦)

كذلك فإن أحمد عباس صالح يتحدث عن معرفته المبكرة بفتحى الرملى:

«على أن الذى لفت نظرى هو رجل يلبس (أوفر أول) ويجول فى الشوارع وهو يحدث الناس عن مصالح العمال وعن الاشتراكية. وكان يرفع على مدخل بيته، الذى كان يقع على ناصية شارع مجلس النواب وعماد الدين من ناحية الناصرية، لافتة باسم

فتحى الرملى . . مرشح العمال والاشتراكية، وكان يعقد اجتماعاته الدعائية فى حوش بيته الواسع».

(١٧)

كذلك تحفل هذه المذكرات بما لايزال صاحبها يذكره عن بعض نجوم الفن فى الهيئة التى قدر له أن يراهم فيها دون أن يتجاوز هذه الذكريات إلى حديث عن القيمة أو الأثر الوجدانى :

«. . . والقصبجى، الذى كنت أراه فى الصباح ببدلته السوداء الكاملة وهو يحمل طبقا فارغا ليشترى الفول المدمس لإفطار الصباح».

(١٨)

ويشير أحمد عباس صالح بالطريقة نفسها إلى كثير من ذكرياته عن الأدب والثقافة والصحافة، فيتحدث عن أول لقاء جمعه بمحمد عودة بادئا مرحلة من الصداقة التى استمرت حتى كتابته لمذكراته :

«. . . كنت أقرأ قصصى لشكرى عياد بصفة خاصة، وعندما قرأت عليه آخر قصة طلبها منى ليقدمها لمجلة «مسامرات الجيب» وواعدته أن ألتقى به فى المجلة، وبالفعل ذهبت إلى هناك فوجدته يجلس فى حجرة مع شخص آخر كان هو سكرتير تحرير المجلة، الذى قدمنى إليه باعتبارى مؤلف القصة التى أعطاها له منذ قليل . لم أكن جاوزت الثانية والعشرين بعد، وكنت متهيبًا ومترددًا رغم اعتيادى النسبى على الذهاب إلى مقار الصحف والمجلات، على أنى كنت أذهب لأن لى صديقا هناك أحتمى به، ولكن سكرتير التحرير ما إن سمع اسمى حتى صاح : هذا عمل رائع أنت "أندرييف" المصرى».

«وكان استقبالا خطيرا أثلج صدرى، وأذهب خوفى وحذرى، وسرعان ما ربطت بينى وبين هذا الرجل صداقة عميقة استمرت إلى اليوم . وكان هذا الرجل هو محمد عودة الكاتب الواسع الشهرة الآن أمد الله فى عمره».

(١٩)

ويشير أحمد عباس صالح إشارة واضحة إلى دور الأستاذ أنور المعداوى فى مجلة «الرسالة»، وهو الدور الذى لايزال بحاجة إلى تقدير :

«. . . وكان الناقد أنور المعداوى الذى يكتب مقالا أسبوعيا فى مجلة «الرسالة» رائدا يوميا للمقهى ويجمع حواليه الكثير من الكتاب، وكان أقرب ما يكون إلى المحافظة فى التفكير، وكان فيه شيء من الخشونة والاعتداد بالرأى ويبدو أن أحمد حسن الزيات كان مرتاحا له إذ لاحظت أن له سيطرة ما على ما ينشر فى المجلة ذات الشهرة الثقافية الواسعة ليس على المستوى المصرى فقط، بل على مستوى العالم العربى كله».

(٢٠)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن كبار الأدباء الذين عرفهم على مستوى التجمعات الأدبية الحرة :

«. . . كنت مستمعا فقط فى هذه الندوة الحرة فى أغلب الأحوال، فهنا رأيت الكتاب الذين كنت أعجب بهم وأسعى إلى متابعة مقالاتهم مثل محمد مندور ثم وجدت أن لويس عوض يرتاد المقهى أيضا والشاعر محمود حسن إسماعيل والكاتب السورى سامى الدروبى، الذى لمع بعد ذلك وصار سفيرا لسوريا فى القاهرة، ثم وزيرا على ما أعتقد وكان قد ترجم الأعمال الكاملة للكاتب الروسى العظيم " فيدور دستويفسكى " والتى نشرتها هيئة الكتاب المصرية، وكذلك شاهدت على أدهم الذى كانت له كتب رائعة خاصة فى سيرة الشخصيات التاريخية، ولعلى كنت قد أنهيت قراءة كتابه عن الخليفة المنصور وانبهرت به».

«هذا على الرغم من أن هؤلاء الكتاب كانوا ذوى نزعات يمينية، وكانت أفكارهم فى الشئون الأخرى تصدمنى، وكان اليمين المطروح ليس راجعا لخلفية واحدة فسامى الدروبى مثلا كان قادما من أفكار القومية العربية التى كانت فى بدايات ظهورها معادية تماما لليسار، وربما كان من مؤسسى حزب البعث العربى فى سوريا، وكذلك الأمر بالنسبة لأنور المعداوى، الذى كان يبغض التفكير الاشتراكى وكان من محبى عباس العقاد، الذى كان قد أصبح أكبر محارب للأفكار الاشتراكية من باب تقديسه لفكرة الحرية الفردية، التى بلورها الفكر اليمينى باعتبارها محور الليبرالية».

(٢١)

على أن أروع الذكريات الأدبية لا تأتينا فى هذ الكتاب إلا عندما يتحدث أحمد عباس صالح عن لقائه الأول بالشاعر إبراهيم ناجى، وكيف أحس تجاه هذا الرجل العظيم بانبهار حقيقى لا حدود له، وبتقدير عميق، وبإعجاب شديد بروحه الإنسانية، وبشخصيته الحافلة بالإنسانية والحكمة:

«. . . وكانت هذه الجريدة «صوت الأمة» تصدر من بيت فى المنيرة قريب أيضا من النادى السعدى مقر الحزب . وكانت الجريدة قد قررت أن تصدر مجلة للقصة وأسمتها بالفعل مجلة «القصة»، واختارت لرئاسة تحريرها الشاعر الشهير إبراهيم ناجى، الذى كان طبيبا فى نفس الوقت . كنا نحب شعر ناجى ونعرفه نحن المبتدئين، ولكنى لم أكن أعرف أنه ناقد كبير إلا بعد ذلك بسنوات طويلة، حيث قرأت له دراسات نقدية بالغة العمق وتنطوى على معرفة واسعة بالأدب ونظرياته».

«وكانت الدار الصحفية قد اختارت له حجرة جانبية فى حوش واسع داخلها، وكنت قد أنهيت قصة قصيرة منذ قليل وقررت أن آخذها وأذهب إلى الدكتور إبراهيم ناجى، وبالفعل دخلت من بوابة البيت القديم ولا أذكر أنه كان هناك بواب أو حارس وأرشدنى شخص ما إلى حجرة الشاعر فطرقت بابها وسمعت صوت الإذن بالدخول، ففتحت الباب ورأيت رجلا قصيرا أصلع شعر الرأس تماما يجلس إلى مكتب ويتطلع إلىّ، لم يلبث أن دعانى للدخول بشىء من الترحاب أذهب الكثير من اضطرابى، وأشار إلى كرسى إلى جانب المكتب فجلست وهو ينظر إلىّ متطلعا، فقدمت إليه القصة وبدلا من أن يضعها فى درج مكتبه ويعدنى بقراءتها فيما بعد إذ به يفض الأوراق ويشرع فى القراءة، وهو يسألنى عن نوع القهوة التى أشربها ويضغط على جرس فوق مكتبه فأجبته وعيناه على الأوراق، ولم يلبث أن استغرق فى القراءة، وقد تملكنى الاضطراب والخوف فهأنذا أدخل امتحانا قاسيا ووجها لوجه . ولعله لاحظ اضطرابى إذ أنه، وقد خلع طربوشه ووضعه إلى جانبه على المكتب، راح بين وقت وآخر يمسح على رأسه بكفه علامة على الإعجاب، وأظنه لم يفعل ذلك إلا ليطمئننى ويهدئ روعى، على أنه لم يكد ينهى القراءة حتى قام وخرج من وراء مكتبه وهو يعانقنى ويصيح بفرحة : إنى أعطى على القصة جنيها كمكافأة ولكننى سأعطيك ثلاثة جنيهات».

«تنفست بارتياح شديد ورحت أتأمل الرجل وهو يحادثنى شارحا أسباب إعجابه بالقصة . كان واسع العينين يتفجر بالحماسة والطيبة، وعلى الرغم من أن الثقافة الماركسية، ربما فى بلاد العالم الثالث، كانت تمنح المتعرف إليها ثقة بالنفس بسبب ما تفتحه أمام دارسيها من مغاليق، وربما كان الانضمام لتنظيم سرى وما فى السرية من معنى الترفع والكتمان على الآخرين، خاصة إذا كان الإنسان فى مقتبل العمر، كل هذا كان ينعكس فى شكل شىء من التعالى وأحيانا الغرور، ولكنك أمام الشاعر العظيم الممتلىء بالعلم والمحبة تصبح سريعا مجرد مريد . وهذا ما حدث لى بالضبط وكنت محبا للشعر حبا شديدا وأصبحنا بالفعل صديقين» .

(٢٢)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن تطور علاقته بالشاعر إبراهيم ناجى حديثا ممتعا لا يخلو من تصوير جميل للواقع الثقافى فى ذلك العهد الذى شهد نمو مثل هذه العلاقات الراقية، ويكفى أن يصور لنا أن الشاعر اشترى له هدية قيمة لا لشىء إلا لأنه يحب الشعر:

«كنت أذهب إلى المجلة لأخرج معه بعد أن ينهى عمله بصرف النظر عما إذا كانت لى قصة أم لا . وكنا نخرج من المنيرة إلى شارع قصر العينى الذى كان مظلما وفارغا تماما من العابرين لأن أغلب مبانيه كانت حكومية، وكانت الإضاءة فيه ضعيفة، فيتلو آخر ما يكتبه من شعر، وفى هذا الطريق شبه المظلم كنت أصغى إلى صوته وهو يتلو شعره راقصا تقريبا مع وزن الشعر وإيقاعاته، وقد استمعت بصفة خاصة إلى قصيدة «الأطلال» التى غنت أم كلثوم مقاطع منها بعد ذلك بزمن طويل» .

«كنت مبهورا وكان الشعر بالغ الجمال، وأظن أنه لم ينه النظم مرة واحدة إذ كان يقرأ المقاطع التى انتهى منها، وفى اليوم التالى استمع إلى الجزء التالى حتى إذا أنهى القصيدة . كنا قد خرجنا من شارع قصر العينى المظلم إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير) المتوهج بأنوار النيون الباهرة، التى تلمع بالإعلانات المختلفة فوق عمارات الميدان العالية» .

«كان سعيدا جدا وكنت قد بلغت الذروة فى الاستمتاع بجمال الفن وبالتجربة الرائعة البالغة الحساسية التى ترويها هذه القصيدة، حتى انعقد لسانى وعجزت عن الكلام . وكان على رأس الميدان محل للألبان والأيس كريم يدعى «استرا» وبجواره محل ساطع الإضاءة يبيع السجاير والشوكولاتة وهدايا مختلفة . توقف إبراهيم ناجى أمام هذا المحل لحظة وكأنه يفكر ثم استأذننى ليدخل . وقفت وأنا مازلت تحت تأثير التجربة الشعرية الرائعة حتى أننى بالكاد تنبهت إلى عودته وإذا به يقدم لى علبة فلما ترددت قال : خذها إننى اشتريتها لك» .

«كانت علبة أنيقة مبطنة بالقطيفة الزرقاء الجميلة وكان فيها قلم حبر «باركر» الذى كان ثمينا بالنسبة لى . وقال ليشجعنى أو يطمئننى : إنك تستحقه لأنك تحب الشعر» .

(٢٣)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن أستاذية إبراهيم ناجى لطلاب الطب الثلاثة الذين اشتهروا بالأدب بعد ذلك، وهى أستاذية غير مشهورة فى ظل ماوصلوا إليه من شهرة فى عهد كان يحبذ إنكار دور الأساتذة والبدء من الصفر :

« . . . وفى هذا الشارع، كان عدد من العمارات مبنية على الأسلوب الإيطالى غالبا، وكان إبراهيم ناجى قد استأجر غرفة واسعة فى أحد هذه المبانى لتكون مقرا لجمعية ثقافية أنشأها ضمت مجموعة من تلاميذه ومحبيه من المهتمين بالأدب والفن، وفيها التقيت أول مرة بعدد من الكتاب والشعراء الجدد منهم صلاح حافظ، الذى كان يكتب الشعر فى ذلك الوقت، والذى أصبح كاتبا صحفيا شهيرا بعد ذلك، ومحمد يسرى أحمد وكان يكتب القصة القصيرة، وكان معهما أيضا يوسف إدريس الذى نشر قصة أو قصتين فى مجلة «القصة» .

«لاحظت بالطبع أن كل هؤلاء كانوا طلبة فى كلية الطب وكان من الطبيعى أن يلتفوا حول الشاعر الشهير ناجى الطبيب أيضا» .

(٢٤)

ولا يبخل أحمد عباس صالح علينا بحديث عن دوره فى إصدار مجلة «الأديب

obeikan.com

المصرى» تحت قيادة الأستاذ محمد مفيد الشوباشى، لكنه سرعان ما يتخذ من هذا الحديث مدخلا للحديث عن قراره الذى اتخذه بإكمال دراسته على نحو يتيح له أن يكون صاحب شهادة، وهو يعترف أن توجهه نحو استكمال تعليمه على هذا النحو كان شيئا من العبث، بل إنه يصل إلى وصفه بالمصارعة الطفولية، والمباهاة الساذجة :

«قد صرت فى الثالثة والعشرين من عمرى، وكنت قد اشتركت مع مجموعة الأصدقاء فى إصدار مجلة اخترنا لها عنوان «الأديب المصرى»، حتى تتميز عن الاسم الشهير لمجلة «الكاتب المصرى» التى كان يصدرها طه حسين، وربما كانت المجلة الأخيرة قد اختفت . وقد قاد هذه المجموعة من الكتاب كاتب وشاعر مخضرم هو محمد مفيد الشوباشى إلى جانب عدد من الكتاب المرموقين، مثل لويس عوض ومحمد مندور ثم زكريا الحجاوى ونعمان عاشور وأنا وآخرون . وكنا عادة نعقد اجتماعا للتحرير ثم نتفق على مجمل مواد العدد القادم . وكان من التكليفات التى كلفت بها أن أكتب عن أدب الشباب فى مقابل كاتب آخر سوف يكتب عن أدب الشيوخ . وبالفعل عندما بدأت أفكر فى الموضوع وجدت أن هذا تصنيف غير دقيق فإذا كان المقصود بأدب الشباب هو الجدة والحداثة فإن هناك الكثير من الأدباء الشباب الذين يكتبون أدبا رجعيا ويفكرون بشكل متحجر، بينما أدباء شيوخ يعبرون عن أفكار حديثة ويمتلئون بالحيوية . ورحت أقارن بين النوعين، وضربت مثلا بالناقد والكاتب أنور المعداوى كنموذج على الكتابة المحافظة والجامدة وسلامة موسى الذى كان مليئا بالحيوية» .

«ومضى المقال بعد ذلك لتحديد سمات أدب الشباب وأدب الشيوخ وإبعاد عامل السن كعامل وحيد يحدد نوع الكتابة . وكان من عادتنا أن نجتمع ونقرأ مقالات العدد ونقيمها وعندما انتهيت من قراءة مقالى هب الكاتب الآخر الذى كلف بالكتابة عن أدب الشيوخ وهاجم المقال هجوما عنيفا، أولا لأنه ناقش الموضوع من زاوية مختلفة عن الزاوية التى عالجه بها هو، وثانيا لأنه كان صديقا لأنور المعداوى، الذى كان صديقا لى أيضا، ولكن الكاتب كان غارقا فى اليمينية وربما أذاه رأيى ففقد أعصابه وصاح قائلا : كيف يقيم معايير الكتاب شخص ليس معه إلا الشهادة الابتدائية ؟ ورد

عليه زكريا الحجاوى بشىء من السخرية : لا تنس شهادته من المعهد البريطانى فهى من كمبردج».

«وقد تأملت هذا الحوار وأوجعنى خاصة إشارة الحجاوى التى تحتمل السخرية أيضا وإن كانت فى صورة الدفاع عنى».

«فى هذه الليلة لم أنم حقيقة لا مجازا . وكنت لا أحب العقاد ولكنى كنت أسمع همسا من خصومه باتهامه بالجهل وأنه غير متعلم فى الواقع، مع أننى كنت أعتبره مفكرا كبيرا، وقلت لنفسى إنك مازلت فى البداية ومن الواضح أنك متجه إلى مصادمات كثيرة وزمانك غير زمان العقاد وسوف تعايَر كثيراً من ناحية الشهادة وعليك أن تحصل على شهادة».

«عندما أتذكر هذا الآن، أرى كم كان فيه من عبث ومعاندة شخصية وتفاهة سواء من الشخص الذى هاجمنى أو منى (أنا) الذى أخذت الأمر بشكل جدى، فلقد قلبت حياتى رأسا على عقب من أجل شىء عابث ومصارعة طفولية ومباهاة بالغة السذاجة. وبالفعل، ومع أنه لم يكن باقيا على انتهاء السنة الدراسية إلا أربعة شهور، حتى ذهبت إلى مدرسة ليلية، وعرفت أنه من الممكن لطالب المنزل أن يدخل امتحان السنوات الأربع لمرحلة الثقافة العامة التى تقتضيها الدراسة المنظمة فى سنة واحدة، وكان علىّ بالفعل أن أعرف بالضبط برنامج الامتحان بشكل كامل».

(٢٥)

وربما تجعلنا هذه الذكريات نعود إلى ذكريات صاحبها عن جوهر التعليم الذى حظى به، حيث يتحدث أحمد عباس صالح فى سرعة بالغة عن بعض ملامح تعليمه الذى كان أبرز ما فيه دراسته فى المعهد البريطانى حيث أتقن الإنجليزية :

«. . . وهكذا نُصحت بأن أنضم إلى المعهد البريطانى، الذى أنشأه المجلس البريطانى فى الكثير من مدن البلاد الواقعة تحت الاحتلال الإنجليزى أو داخلة فى الـ «كومنويلث»، وكان المعهد يشترط معرفة سابقة باللغة الإنجليزية ولو بدرجة بسيطة . وبالفعل أمضيت حوالى أربع سنوات أدرس اللغة الإنجليزية وآدابها، وهناك التقيت بـ

«جونسون ديفز»، الذى كان يدرس لنا الإنجليزية، وكان يعرف شيئا من العربية ومهتما بأدب القصة العربية، وكان يترجم إلى اللغة الإنجليزية بعض هذه القصص . ومرت السنون وإذا بى أعرف أن الرجل قد استقر أخيرا فى مصر وتزوج من مصرية».

(٢٦)

وعلى نحو ما فعل صاحب هذه المذكرات فى حديثه عن تكوينه الثقافى والتعليمى فإنه لا يبخل علينا بأحاديث مطولة عن تجاربه شبه الثرية فى الوظائف التى قدر له أن يعمل بها فى المرحلة الأولى من حياته حيث أتيحت له خبرات تراكمت حتى كونت شخصيته على النحو الذى تطالعنا به المذكرات، وهو على سبيل المثال حريص على أن يذكر تجاربه المبكرة فى العمل الحر :

«. . . واقترح على أبى أن يأخذنى إلى مكتب المحاماة الذى يعمل فيه ليعلمنى الكتابة على الآلة الكاتبة، وأنى سأحصل على مبلغ جيد . وبالفعل أخذنى إلى مكتب المحامى عبد الرحمن البيلى، الذى كان فى هذا الوقت من كبار المحامين وعضوا فى مجلس النواب ثم صار وزيرا للمالية بعد ذلك، وهناك تدربت على الكتابة على الآلة الكاتبة حتى أجدتها بالفعل، وأظن أنى أعطيت ثلاثة جنيهات مرتبا شهريا . وفى هذا المكتب، شاهدت المشاهير من رجال السياسة ورحت أقلب فى كتب القانون ولكنى أذكر أن اهتمامى تركز على محاضر جلسات مجلس النواب، إذ كنت أتسلى بها عندما يتركوننى وحدى فى المكتب نهارا».

. . . .

. . . .

«بدأت أتقلب فى عدة وظائف هنا وهناك حتى عملت أخيرا فى شركة للتأمين فى سنة ١٩٤٧ ، غالبا مساعدا لمحام أجنبى، كان عليه أن يحرر عقود الرهن التأمينى لزبائن هذه الشركة . وكان نظام الشهر العقارى أو التسجيل قد انتقل من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وفقا لمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى تنص على تعريب كل شىء . وكان على أن أتفهم تفاصيل الموضوع وشروط الرهن وأصوغ العقد باللغة العربية قياسا على

نموذج منقول عن الفرنسية . وكان مرتبى قد قفز إلى خمسة وعشرين جنيها، وهو مبلغ كبير جدا بالقياس إلى هذا الوقت».

(٢٧)

ونأتى الآن إلى أهم فقرات هذا الكتاب من حيث التجربة الإنسانية الحقة، وهى حديث أحمد عباس صالح عن الشخصية المحورية التى أثرت فى تكوينه حين بدأ يعى أثر عناصر التكوين فى صياغة الشخصية، ومن المذهل أن يكون صاحب هذه الشخصية هو الشيخ الأزهرى الشهير محمود أبو العيون :

« . . . عندما تم تعيينى فى إدارة الجامع الأزهر، كان قريبى الكبير مديرا للمستخدمين حسب التسمية الجارية حينذاك، ولكن بالصدفة كان لى قريب آخر وهو زوج ابنة عمى مديرا لمكتب شيخ الأزهر الذى كان الشيخ الشناوى، وكان أبى عندما عرف رغبتى فى الانتقال إلى وظيفة حكومية لأتمكن من بعض الوقت لمتابعة الدراسة قد خاطب قريبنا هذا لأسباب لا أعرفها مما أثار غضب زوج ابنة عمى، والذى كان قريبا جدا لنا أيضا، على أنه لم يعرقل تعيينى بحكم وضعه البالغ الأهمية كمدير لمكتب شيخ الأزهر بل اختارنى لأكون السكرتير الصحفى للشيخ . وبالفعل صار لى مكتب ملحق بمكتب شيخ الأزهر، وكانت الصحف تأتى إلىّ كل صباح وكان علىّ أن أقص كل ما يخص الأزهر وأضعه فى ملف وأعرضه على الشيخ عندما يحضر . وكثيرا ما كنت أعلق على هذا الخبر أو ذاك عندما يسألنى . وصارت القرارات الصادرة عن الأزهر تأتينا لأمليها على الصحفيين الذين يأتون من أجل هذا الغرض . وربما كنت أعيد صياغتها بما يناسب النشر فى الصحف».

«قضيت ستة أشهر عندما دخل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر والذى كان نجما شهيرا تتابعه أغلب الصحف إذ كان يقود حملة لتحريم بيوت الدعارة المرخصة رسميا، وكثيرا ما كانت الصحف تصوره وهو يعظ الفتيات على البلاج وهن يلبسن المايوهات، أو يتحدث عن الآثار الضارة اجتماعيا بسبب إباحة الدعارة واستباحة العرى، على أنه كان أحد زعماء ثورة سنة ١٩١٩ الكبار الذين طالما هيجوا الشارع المصرى والطلبة مشتركا فى الخطابة مع القسس المصريين ومؤثرا تأثيرا بالغا على

المجتمع المصرى، وكان فى الرجل ميل للدعابة المرحة ولكن المهذبة، ولم أكن أعلم أنه من أسرة صوفية لها شهرة فى الصعيد كبيرة، وجدهم على ما أظن يعتبر وليا من أولياء الله ومسجده فى البلد مزار للناس».

«دخل الشيخ أبو العيون مهرولا إلى مكتب شيخ الأزهر ماراً بى وهو يحيينى وفتح باب الشيخ ثم أشار إلىّ بأن آتى وعندما أصبحت أمام الشيخ وأمامه قال : "أنا عاوز الواد ده" مشيرا علىّ . ضحك الشيخ الشناوى ولم يزد فعاد الشيخ أبو العيون يقول : لقد عين الشيخ. . . . . ـ لا أذكر الاسم ـ مدرسا وأصبح مكانه خاليا وأنا محتاج لهذا الولد . ضحكت بالطبع إذ كان يقول هذا بأسلوب ظريف وفيه شىء من الألفة والتقدير . كل هذا وأنا بالكاد بدأت أفهم أنه يريدنى للعمل معه فى مكتبه، ونظر إلى الشيخ وسألنى : ما رأيك يا أحمد ؟ فقلت : موافق . فضحك الشيخ وقال : بهذه السرعة ودون أن تفكر فينا على الإطلاق».

«كنت فى الحق قد سئمت هذا العمل الروتينى البليد وإن كنت أحتاج للوقت الذى أوفره للمذاكرة . على أننى استدركت وقلت : هذا إذا أردت أنت يا مولانا . وضحك الرجلان وخرجنا معا أنا والشيخ أبو العيون وهو يمسك بيدى إلى أن وصلنا إلى مكتبه ونظرات الموجودين تتابعنا باستغراب، ومنهم قريبى مدير المكتب الذى يبدو أنه كان لديه علم مسبق بما حدث . وجدت حجرة سكرتير الشيخ أبى العيون السابق، والتى أصبحت حجرتى، نظيفة ومرتبة ولها شباك واسع يطل على الشارع أشبه بالمشربية الجميلة المشغولة بالأرابيسك تتفق مع الطراز العربى الجميل . وكان المبنى مازال أقرب إلى أن يكون جديدا».

(٢٨)

ويتنقل أحمد عباس صالح إلى الحديث عن الدور الوظيفى الذى قدر له أن يقوم به إلى جوار الشيخ محمود أبو العيون، وكيف أتيحت له الفرصة المبكرة ليؤدى عملا محوريا فى مجلة ذائعة الصيت هى مجلة «الأزهر»:

«أجلسنى الشيخ أمامه وراح يعدد لى اختصاصاتى وعملى معه . وكان عمل

السكرتير كثيرا جدا، من الإشراف على الامتحانات، إلى تعيين المدرسين والأساتذة، إلى الترقيات، ومهمات أخرى كثيرة لا أكاد أتذكرها الآن، على أن أهم ما لفت نظرى هو مسئولية الشيخ عن مجلة الأزهر، التى كان يرأس تحريرها محمد فريد وجدى الذى كان من أساتذة الكتاب الإسلاميين، لعله من أصل شامى ويمت بصلة ما إلى الشيخ رشيد رضا الذى كان تلميذا للشيخ محمد عبده ويعتبر جناحه المحافظ الذى خرج من تحت عباءته . وكان الرجل قد قارب التسعين ولكن إدارة الأزهر لم تلغ عقده إجلالا له وكل ما فعلته أنها أسندت إدارة المجلة إلى الشيخ أبى العيون لسمعته الثقافية فيما يبدو».

«وكانت مجلة الأزهر أكاديمية على مستوى العالم كله وكان النشر فيها مماثلا للنشر فى المجلات العلمية من حيث القيمة العلمية . وكانت تطبع جزءا منها باللغة الإنجليزية فى الصفحات الأخيرة . وبالطبع راحت مواد المجلة تأتينى لأعرضها على الشيخ لإجازتها للنشر . وكان للمجلة سكرتير للتحرير غير أزهرى متخرج فى كلية الآداب قسم الفلسفة، وله إلمام جيد بالفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية بشكل عام، وبسرعة أصبحنا صديقين».

. . . .

ربما نتوقف هنا لنعجب من أن يهمل الأستاذ أحمد عباس صالح اسم هذا الرجل على هذا النحو، وربما أنه نسيه، وربما أنه لا يريد ذكر اسمه.

. . . .

«فى هذا الوقت كان الأزهر حافلا بالمثقفين الممتازين والمفكرين من طراز عال، بعضهم نشأ فى رحاب الأزهر، والبعض جاء إلى الأزهر من جامعات أخرى مدرسا للفلسفة أو اللغات أو التاريخ . وهناك تعرفت بأساتذة كبار مثل الدكتور محمد يوسف موسى والشيخ محمود شلتوت والدكتور عبد الله دراز، وهو غير وكيل الجامع الأزهر حينذاك الشيخ عبد اللطيف دراز ودارسين طوال النفس، مثل الشيخ محمود الشرقاوى الذى قام بدراسة ممتازة عن سيرة حياة الشيخ الجبرتى المؤرخ الشهير والذى دعوته بعد ذلك بأكثر من خمسة عشر عاما ليكتب فى مجلة «الكاتب».

ثم ينتقل أحمد عباس صالح إلى ذكرياته عن أهم مقال كتبه فى حياته، وهو المقال الذى نال إعجاب الشيخ أبى العيون، حتى إنه تطوع بأن أسنده إلى نفسه كى يعطيه القوة المطلوبة، وهو أيضا المقال الذى كان نواة فيما بعد لأشهر كتب أحمد عباس صالح وهو كتابه «اليمين واليسار فى الإسلام»، ولست أنكر أن القارئ لمذكرات أحمد عباس صالح يكاد يحس أن فضل الشيخ أبى العيون فى هذا المقال يفوق فضل أحمد عباس صالح نفسه الذى كان من الممكن له أن ينتهى من علاقته بالمقال كأى مقال آخر دون أن يعنى به أو يعى قيمته! :

« . . . وبدأت أكتب للمجلة إلى جانب سكرتير التحرير الذى كان كاتبا جيدا بعد أن أقرأ الموضوع على الشيخ أبى العيون بطبيعة الحال».

«وفى إحدى المرات كتبت مقالا طويلا عن الاشتراكية والإسلام، وربما كان هذا أول محاولة لفكرة اليمين واليسار فى الإسلام، التى ظهرت بعد ذلك فى مجلة «الكاتب» بأكثر من خمس عشرة سنة . وكنت أقرأ المقالة على الشيخ قبل أن أدفعها للمطبعة، وكان يصغى بانتباه ثم بدأ يبدى إعجابه وموافقته ثم تحمس جدا وراح يردد : هذا صحيح .. هذا صحيح . وما إن فرغت حتى هب واقفا وقال : ضع اسمى عليها، يقصد المقالة».

«كنت سعيدا لحماسه وأربكنى هذا الحماس حتى لم أفهم ما الذى يقصده بقوله : ضع اسمى عليها . على أننى بعد أن عدت لمكتبى والتقطت أنفاسى ورحت أتأمل الموقف وجدت أنه نظر إلى الموضوع نظرة أخرى تماما».

«كان هو العالم الأزهرى المرموق والمرجع الدينى بغير شك، وكان التفسير الاشتراكى للإسلام بالصورة التى وضعتها ليس أمرا مسلما به فى الأوساط الدينية، وكان يريد أن يهب المقالة اعتماده وموافقته الصريحة . وهذا هو معنى «ضع اسمى عليها» وكان يفعل ذلك وكأنه يتحدى المعترضين الذين سوف يعترضون . ويقرر أن هذا الرأى المستخلص من هذه المقالة هو رأى معتمد رسميا من الشيخ أبى العيون،

وليس السكرتير العام للأزهر فقط بل العالم الشهير المسلم المؤتمن على الإسلام. وهكذا نشرت المقالة باسم الشيخ بالفعل . ومن الناحية الواقعية صارت جزءا من الاجتهادات المقررة فى الثقافة الإسلامية».

(٣٠)

ويجيد أحمد عباس صالح تصوير ملامح حياة هذا الشيخ العظيم فى الوظيفة فى صباح كل يوم من أيام العمل:

« . . . وقد ظللت أعمل مع الشيخ أبى العيون وأتأمل دون أن أقصد كيف يتصرف الرجل الذى كان قد جاوز السبعين من عمره حينذاك . كان يسكن فى مصر الجديدة ويأتى كل يوم فى المترو ثم يأخذ تاكسى إلى مقر الإدارة . كان رجلا نظيفا يرتدى الجبة والكاكولا ، وعندما يصل إلى غرفته يخلع حذاءه ويتربع على كنبة فى مكتبه ويخلع عمته ليكشف عن شعر مقصوص نمرة واحد ويشرع فى قراءة جزء من القرآن ، وعندما ينتهى يطلب من الفراش أن يستدعينى ، ولعله كان يشرب عندئذ فنجانا من الشاى ، وحين أدخل أجد مكانا نظيفا ذا رائحة طيبة فيحادثنى عما لدينا من عمل فى هذا اليوم» .

«وكنت قد أخذت رأيه فى نوع الدراسة التى أتوجه إليها فى الجامعة ، قال لى بشكل حازم : ادخل الحقوق» .

(٣١)

ونأتى إلى حديث أحمد عباس صالح عن الأستاذ عباس محمود العقاد ، الذى كان بمثابة صاحب ثانى أكبر تأثير فى تكوينه الفكرى والإنسانى بعد الشيخ محمود أبو العيون ، ونقتطف من حديثه عن لقائه الأول به هذه الفقرة التى تصور العقاد من وجهة نظره :

« . . . كنت أتكلم معه بحرية تامة ، وكنت أواجهه بالاتهامات التى كان اليسار يهاجمه بها ، وكنت على طبيعتى تماما لا أتكلف أو أحذر من شىء حتى تلك التهم الجارحة أحيانا ، والغريب أنه كان يحتملنى . وعندما انتهت جلستنا كنا قد أمضينا

حوالى ثلاث ساعات نتكلم وكنت قد رأيت رجلا جديدا، واسع المعرفة ملما بأدق تفاصيل الدراسات الفلسفية ونظرياتها سواء فى اليمين أو فى اليسار، وكان مفكرا عقلانيا ويعلم الكثير عن التاريخ الإسلامى والأفكار الأساسية فيه».

(٣٢)

ويصل أحمد عباس صالح فى تلخيصه لعلاقته بالأستاذ العقاد فى السنوات العشر الأخيرة من حياته إلى قوله:

«. . . ومنذ سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٤ أى حوالى عشر سنوات، كانت علاقتى بالعقاد شبه مستمرة، وكانت له عادة أن يمر على مكتبة الأنجلو بشارع عماد الدين مرة أو مرتين ـ لا أذكر ـ كل أسبوع . وكان صاحب المكتبة يعامل العقاد كما لو كان مريدا له، وكان العقاد يعطى بعض مواعيده فى المكتبة . كنت دائم السؤال عنه بالطبع، ولكنه كان أحيانا عندما يغادر بيته فى مصر الجديدة إلى المكتبة فى عماد الدين يتصل بى تليفونيًا ويبلغنى بأنه ذاهب إلى المكتبة ويدعونى إلى مقابلته - إن كان لدى وقت - وكان دائما لدى وقت لمقابلة العقاد».

(٣٣)

وعلى المستوى العائلى يتحدث أحمد عباس صالح عن حبه لزوجته حديثا صادقا موحيا باعثا على تقديرها وتقديره أيضا فيقول:

«. . . الآن هاهى ذى مسجاة على الفراش تعانى من مرض عضال وهأنذا إلى جانبها أفعل المستحيل من أجل إنقاذها . كنت دائما أجلها واحترمها إلى جانب حبى الطاغى لها، ولكنها كانت دائما تريد أن تسمع منى كلمات الحب والاحترام والإجلال، وفى يوم من أيام صحوها التفتت إلى وأمسكت يدى بحنان شديد وقالت بعينين مغرورقتين : لم أكن أعلم أنك تحبنى إلى هذه الدرجة».

«عندما تزوجنا كان هذا شيئا خارقا، إذ أننى فى الواقع لم أكن مخططا للزواج بسبب مسئولياتى العائلية، ولكنى كنت أكتشف كل يوم أنها ليست مجرد امرأة جميلة أو حتى صديقة وفية بل قوة وسند لى وكان من المستحيل أن أكمل مشوار حياتى بدونها

. بالطبع طالت خطبتنا لكنها أفادتنا كثيرا لاكتشاف أنفسنا وأننا نكمل بعضنا تماما، وبعد أن فقدتها استمعت بالصدفة إلى أغنية قد تبدو ساذجة تغنيها وردة الجزائرية تقول : روحى وروحك حبايب من قبل دا العالم والله. لقد اغرورقت عيناى بالدموع، وشعرت بعمق أن هذا قد يكون صحيحا بالنسبة لى ولها، وأنه من الممكن فى عالم الميتافيزيقا الغريب وهذا الكون الذى لا نفهمه شيء أقوى من تلك الحياة البيولوجية ترتبط فيه الروح حتى ذروة السعادة، وإلا فما هذا الشعور الغريب الذى ربطنا حتى الاندماج الكامل وفنائنا كل منا فى الآخر ؟».

«أتذكر أيامنا الجميلة ولا أستطيع أن أحكم بالضبط أينا كان أكثر سعادة من الآخر، ولعلى اكتشفت وعلى الرغم من كل العلاقات العظيمة كالأمومة والأبوة والأخوة أن العلاقة بين زوجين محبين أقوى من أية علاقة أخرى. كان الحب يجددنا كل يوم، كنت أنزل إلى الشارع متجها إلى عملى مشرق الوجه منشرح الصدر واثقا من الحياة، وعندما أعود إلى البيت كنت أشعر أننى أعود إلى جنتى. وعلى الفور راح أولادنا يجيئون وكانت لا تضع وليدها إلا إذا كنت واقفا بالباب، ومع ذلك مررنا مثل أى زوجين بالخلافات وكانت حادة أحيانا والحق أنها لم تكن السبب فيها بل أنا إذ كانت شديدة الغيرة، على أننى ومهما تكن الهفوات كنت أعتبرها دائما مركز حياتى».

«عندما تسلمنا الجثمان أزحنا الغطاء عن وجهها وقفت مشدوها. كان وجهها باسما بل ضاحكا يكشف عن أسنانها البيضاء مرتاحا وكان بالغ الجمال ولعلى تذكرت حالتى عند الأزمة القلبية التى داهمتنى وأنا فى ليبيا، عندما بدأ الوجع القاتل يذهب عنى وأشعر براحة شديدة تصل إلى درجة السعادة وأنا أدخل فى الغيبوبة. هل هذا هو ما حدث لها ؟ أرجو ذلك».

(٣٤)

ونأتى إلى انطباعات أحمد عباس صالح عن فترات الغربة، وربما كان من المهم أن نبدأ بتلخيص موقفه الناقد للنظام العراقى فى عهد صدام حسين، وهو على سبيل المثال يلخص التعبير عن الإحباط الذى أصابه وأصاب أنداده عندما اكتشفوا حقيقة نظام صدام حسين والطريق الذى يسير إليه هذا النظام قائلا :

«. . . كانت هذه الأحداث الكابوسية قد أنهت كل الآمال لدينا وأذكر أننى كنت أجلس مع صديقى محمد أنيس نستعرض أحوالنا بحزن وانكسار، وإذا به يقول لى واقفا وكأنه يريد أن ينصرف : كيف قضى علينا أن نعيش تجربتين فاشلتين؟» . .

(٣٥)

وبالإضافة إلى هذا فإن أحمد عباس صالح يلخص موقفه ورأيه من حرب العراق على الكويت فى مواضع متعددة، وبخاصة فى الفصل الحادى والأربعين حيث يقول :

«. . . وكان العراق قد أعلن الحرب على الكويت وكنت أرى أن هذه الحرب المقصود بها الهرب من الاستجابة لطلبات الشعب العراقى من أجل الديمقراطية والتى وعدت بها السلطة العراقية بعد انتهاء الحرب مع إيران» .

(٣٦)

وربما أن حديثه عن العراق لا يخرج عن هذا الإطار الذى يتحدث به شخص عرف طابع الإنسانية والليبرالية وحقوق الإنسان، وهو ما يتجلى بوضوح فى طريقة حديثه عن أكثر من موقف قدر له أن يشهده، أو أن يلم بأطرافه فى أثناء إقامته فى ذلك الوطن العربى، وهو على سبيل المثال يروى ذكرياته اللاحقة عن قصة إعدام مجموعة من خيار المثقفين العراقيين :

«. . . عندما عدت من إجازتى الصيفية التى كنت أقضيها خارج العراق، وكانت حادثة الاعتقال والإعدام قد عرفت وأنا فى الخارج، وجدت دعوة من وزارة الإعلام العراقية لأشهد المحاكمة التى أجراها صدام حسين، حتى أصدق أن أصدقائى هؤلاء كانوا يستحقون الإعدام بالفعل، بسبب خيانتهم الظاهرة . وبالفعل ذهبت إلى مقر اتحاد الصحفيين، أو مكان آخر تابع لوزارة الإعلام . أداروا لى شريط المحاكمة أمام التليفزيون . فإذا بى أجد اجتماعا كبيرا لحزب البعث فى إحدى القاعات الكبرى امتلأت مقاعدها بأعضاء الحزب، بينما جلس صدام حسين وراء منصة، وإلى جانبه رجل راح يروى واقفا كيف وقعت الخيانة، وأنها كانت بتدبير من سوريا . كان هذا الرجل رئيس ديوان صدام حسين . وكان قد اعتقل بتهمة الاشتراك فى الانقلاب ضد

صدام . وشرح كيف اشترت سوريا بيضعة دولارات ولاء هؤلاء السياسيين العراقيين . وكان مما ذكره الرجل أن سوريا رشت غانم عبد الجليل بمبلغ خمسين ألف دولار، وكان هذا مبلغا تافها، لا يعقل أن غانم عبد الجليل يكون قد قبله كرشوة للانقلاب ضد صديقه صدام حسين . والواقع أن الذى ضم الرجل إلى حزب البعث، كان هو غانم عبد الجليل نفسه . وكان صدام يغدق على معاونيه مبالغ مثيرة للدهشة وكثيرا ما كان يحدثنى غانم عن هذه المنح فى الأحاديث العابرة كدليل على رعاية الدولة لكبار مسئوليها ربما لإبعادهم عن أى إغراء . أستطيع القول، بسبب معرفتى الجيدة - فيما أعتقد - بغانم عبد الجليل، أن هذا اتهام مضحك ومثير للسخرية لرجل بلغ أعلى المناصب فى الدولة» .

«وكان ذلك الشاهد الذى يتلو شهادته أمام جمهور الحزب، بجانب صدام حسين الجالس، عندما يذكر اسما من الأسماء، ويبدأ الشهادة ضده، يشير صدام حسين إلى أشخاص يحيطون بالجالسين أن يقبضوا عليه، فينقض هؤلاء "الزبانية" عليه ويسحبونه سحبا أمام زملائه، وهو يعلم أنه مُنقاد إلى الموت . بالفعل عرفت معنى كلمة الزبانية من هذا المنظر البشع لقوم لا ملمح لأية شفقة أو إنسانية فى عيونهم أو أجسامهم أو حركاتهم المليئة بالوحشية . وقد اختير هؤلاء بعناية فهم قوم غلاظ الأجسام والملامح يمثلون بمجرد شكلهم أسوأ ما فى الإنسان من غرائز وانحطاط» .

«رأيتهم يسحبون الضحية سحبا كالخراف المساقة إلى الذبح ورأيت كيف يكون حال الرجل وهو يساق بهذه الطريقة إلى ذلك المصير الرهيب» .

«تضطرب القاعة لحظة ثم يتابع الشاهد شهادته الغريبة ليأتى اسم آخر . ولك أن تتصور حال الجالسين فى القاعة وكل واحد منهم ينتظر أن يسمع اسمه ليساق إلى هذه المذبحة . والغريب أن صدام حسين كان يصغى للشهادة وعندما يبدأ الشاهد الحديث عن اسم المتهم تتسع عينا صدام حسين ثم إذا بهما تغرورقان بالدموع . فيخرج منديلا من جيبه فيجفف دموعه أمام أنصاره الذين لابد أن دموعهم قد جرت هى الأخرى تعبيرا عن هذا الإحساس الأليم بخيانة الأصدقاء وأقرب المقربين» .

«هذا المشهد الغريب، رجل واحد يتحدث عن آخرين بأنهم تواطئوا مع النظام السورى من أجل الانقلاب على النظام العراقى وخانوا الأمانة وتكفى هذه الشهادة ودون أية مناقشة ودفاع كى يساق المتهم إلى الإعدام فورا» .

«كنت أتأمل ذلك الشاهد الغريب الذى كان فى شهادته اعتراف بالمؤامرة . كيف أقنعوه بأن يقف هذه الوقفة ويلقى بهذه الاعترافات المختلقة فى اعتقادى وهو يعلم بأن الموت يتربص بهم جميعا . كيف كان حجم العذاب الذى تعرض له ؟ وكيف أصبح فريسة هينة فى أيدى الخوف والرعب ؟ حتى أنه لم يعد يدرى أنه هو نفسه سوف يعدم . انتظرت أن يحدث جدل أو استجواب أو شهادة أخرى أو دفاع أو أى شكل من أشكال المحاكمة فلم أجد وانتهت هذه الشهادة التى استغرقت أكثر من ساعة . وكان هذا هو كل شيء وتلك كانت إجراءات المحاكمة التى أعدم فيها أكثر من ٣٠ شخصاً من أحسن كوادر حزب البعث العراقى ومن أحسن الشباب العرب الذين صادفتهم فى مختلف البلاد العربية» .

«وبالطبع ، أُعدم هذا الشاهد فيمن أعدموا» .

(٣٧)

ويصل أحمد عباس صالح إلى ذروة مشاعره تجاه نظام صدام حسين فى نهاية الفصل الأربعين حيث يقول :

«جاءنى خطاب من إدارة ثقافية تابعة لوزارة الإعلام بأن أسهم بتأليف كتاب عن عبقرية الرئيس صدام كمفكر من خلال كتاباته حول القومية العربية . بالطبع أدركت أن هذا هو الثمن الذى علىّ أن أدفعه . وفى ذلك المناخ الجنونى من القلق كتبت موافقا ، وجاءنى خطاب بتحديد مواعيد الانتهاء من تأليف الكتاب . ولكن عندما جلست أخطط لتأليف هذا الكتاب وجدتنى عاجزا تماما عن أن أكتب حرفا واحدا ، ولعلى احتقرت نفسى تماما» .

(٣٨)

أما حديث أحمد عباس صالح عن الحياة فى لندن فى مواضع عديدة من مذكراته فإنه فى المقابل ينطق بوضوح بالتقدير الحقيقى للحضارة الغربية والإدارة البريطانية :

« . . . للحياة فى بريطانيا وفى مدينة مثل لندن جاذبية خاصة . كان لمن يعمل فى الإذاعة على سبيل المثال مرتب مضمون ليس بالكثير وليس بالقليل . وكان يستطيع أن

يمتلك بيتا صغيرا يدفع له أقساطًا قليلة . وكان ينعم بالعلاج المجانى فى نظام طبى متقدم يأتيه الناس للعلاج من كل فجاج الأرض ، فضلا عن تعليم حكومى بالمجان حتى انتهاء المرحلة الثانوية إلى جانب إعانة للبطالة لو حدث أن تعطل عن العمل ، كما كان التعيين فى الوظائف لا يحتاج إلى أية وساطة ، وكانت بريطانيا ، والعاصمة لندن بصفة خاصة ، مكانا عريقا فى التعامل مع كل الجنسيات دون حرج كبير» .

(٣٩)

كذلك يتحدث أحمد عباس صالح أيضا عن الحياة فى الولايات المتحدة بقدر مواز من الإعجاب ، ويبدأ هذا الإعجاب من مستوى عال من التقدير عندما يروى فى سعادة الشعور الذى انتابه حين اكتشف سهولة الحصول على الفيزا الأمريكية على الرغم من تخوفه من أن يكون لموقعه السابق من المخابرات الأمريكية وكشفه تمويلها لمجلة «حوار» :

«فى البدء ظننت أن السفارة الأمريكية فى بغداد لن تعطينى الفيزا بسهولة ، وكان يزاملنا فى أكاديمية الفنون أستاذ عراقى قضى حوالى عشرة أعوام فى الولايات المتحدة وربما كان حاصلا على الجنسية الأمريكية فأخذته معى إلى السفارة ليضمننى أو ليوصى بى . شرحنا الأمر لموظف بالسفارة وبعد أن استمع إلينا ذهب ليقابل القنصل الذى لم يلبث أن خرج لنا وحيانى بترحاب أثار دهشتى ، ودعانى إلى الدخول إلى مكتبه دون أن يدعو زميلى معى . عرف منى القصة وأنى أريد زيارة أخوى اللذين يعملان فى ولاية كاليفورنيا . وأثناء الحديث جاءت القهوة ثم أصدر القنصل أوامره ولم أكد أنهى القهوة ونحن نتحدث حديثا هينا لينا فى مادة المسرح التى كنت أقوم بتدريسها فى الأكاديمية العراقية حتى جاء جوازى مختوما وفيه فيزا لزيارة الولايات المتحدة لمدة خمسة أعوام ودون رسوم . صافحت الرجل بحرارة وشكرته وأنا مندهش لهذه المعاملة الطيبة التى لم أتوقعها» .

«خرجت لأجد زميلى جالسا ينتظرنى . أوصلنى القنصل إلى الباب وودعنى ومعى زميلى دون أن يقول له كلمة واحدة . لعلى عبرت عن دهشتى لزميلى لهذه المعاملة الطيبة وكنت أظن أنى غير مرغوب فىّ فى الولايات المتحدة وأنا الذى كنت أكتب

بحرارة ضد سياسات أمريكا . وكانت مجلة «الكاتب» حريصة على أن تفضح السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط».

(٤٠)

ويستطرد أحمد عباس صالح من هذا الحديث إلى رواية قصة الدور الذى لعبه زملاؤه الثلاثة عبد الجليل حسن، ونبيل زكى، وجلال السيد فى كشف علاقة مجلة «حوار» بالمخابرات الأمريكية، وفى هذا المقام فإنه يحرص على نفى صحة ما ردده لويس عوض مستندا إلى النيويورك تايمز من أن المخابرات المصرية هى التى كشفت هذه العلاقة:

«وكنا نحن الذين فضحنا المؤسسة الثقافية الأمريكية التى كانت تصدر عددا من المجلات الفكرية والثقافية فى عدة بلاد منها لبنان، التى كانت تصدر مجلة "حوار"، ومنها بريطانيا، التى كانت تصدر فيها مجلة "انكاونتر"، التى كان يرأس تحريرها الشاعر البريطانى الشهير ستيفن اسبندر، والذى كان يحسب على اليسار البريطانى. وأثبتنا أن هذه المجلات تمول من جهاز للمخابرات الأمريكية الـ (سى آى إيه). كان من إنجازات مجلة "الكاتب" الكبرى، هذه الفضيحة والتى كشفها المنطق البسيط، إذ تولى زملائى فى "الكاتب" المرحوم عبد الجليل حسن والمرحوم جلال السيد ونبيل زكى فحص هذه المجلات ومصادر تمويلها حتى توصلوا إلى تبعيتها الكاملة لل "سى آى إيه"، وأحدثت التحقيقات التى قمنا بها هزة كبرى فى عالم الثقافة، إذ نقلت صحف العالم نتائج هذا التحقيق على نطاق واسع واضطر رؤساء التحرير فى أكثر من بلد حيث تصدر مطبوعات هذه المؤسسة المريبة إلى الاستقالة واستقال ستيفن سبندر من رئاسة التحرير، معلنا أنه لم يكن يعلم بأن التمويل يأتى من هذه المؤسسة الاستخباراتية، وأرسل إلينا خطابا يوضح فيه ذلك ويعتذر. وكذلك أغلقت مجلة "حوار" وغيرها من المجلات الأخرى. ثم قرأ لويس عوض صفحة كاملة فى جريدة النيويورك تايمز فترجمها فى نفس المساحة فى جريدة الأهرام، حيث نسبت الجريدة الأمريكية معلوماتنا هذه إلى المخابرات المصرية التى زودتنا بها، ولكن الحقيقة -وها قد مضى على هذه الحادثة أكثر من أربعين عاما- أن الزملاء الثلاثة كانت لديهم القدرة

على البحث والاستقصاء والاستنتاج الصحيح، ولم يكن لأى منا أية صلة بهذه الأجهزة المصرية المنسوب إليها هذه المعلومات . وأذكر أن هذه التحقيقات نشرت تباعا فى أكثر من عدد من أعداد مجلة «الكاتب» .

(٤١)

ويستطرد أحمد عباس صالح مرة ثانية ليروى بالتفصيل قصة جائزة مجلة «حوار» التى خصصتها لأعظم كاتب قصة عربى، وكيف اعتذر نجيب محفوظ من قبولها بينما تشبث بها يوسف إدريس، وكيف اختلف هو نفسه مع صديقه يوسف إدريس فى هذا الموقف، مما جعله يتبنى التوجه الذى رفع به اسم يوسف إدريس من مجلس تحرير مجلة «حوار»، وكيف أن يوسف إدريس عاد واعتذر عن قبول الجائزة، وكيف أن كمال رفعت هو الذى روى القصة للرئيس جمال عبد الناصر لتبدأ بعد هذا تفصيلات القصة المشهورة عن اعتذار يوسف إدريس عن الجائزة، وقرار الرئيس عبد الناصر بتعويضه عنها على النحو المزعج الذى ذكره .

(٤٢)

لكن أحمد عباس صالح ينفرد بعد هذا كله برواية موقف يوسف إدريس «المضطرب» بين الخجل والمهانة حين دعى إلى مكتب سامى شرف ليناوله ظرف بقيمة الجائزة، مما جعله يفكر فى الاعتذار عن قبول هذا المبلغ :

« . . . قبيل هذا الكشف الذى قمنا به، رصدت مجلة حوار جائزة لأعظم كاتب قصة عربى، واختارت لجنة من كبار الأدباء المصريين والعرب، أذكر منهم لويس عوض ومحمد مندور، وقد رشحا فى ذلك الوقت نجيب محفوظ لنيل هذه الجائزة . وكان المبلغ المرصود للجائزة هو ألفان وخمسمائة جنيه وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت قادر على أن يشترى سيارة محترمة على الزيرو . ولما رفض نجيب محفوظ هذه الجائزة بسبب ما كان يثار حولها من شكوك، عادت اللجنة فرشحت يوسف إدريس، الذى كان عضوا فى مجلس تحرير مجلة «الكاتب» . وقبل أن يحدثنى يوسف إدريس عن هذا الترشيح للجائزة أخبرنى نجيب محفوظ فى مناسبة عابرة أنهم اتصلوا به وعرضوا عليه الجائزة فرفضها . قلت هذا ليوسف إدريس الذى كان قد أعطى موافقته وربما كان

الذى اتصل به واحدا من الأستاذين المصريين لويس عوض أو مندور وأعقبه المسئول عن المجلة والجائزة، وتجادلنا طويلا . كان يوسف إدريس مرحبا بالجائزة فإلى هذا الوقت لم تكن الدولة المصرية قد منحته أى جائزة . وكان اشتراك هذين الناقدين الكبيرين فى لجنة الجائزة يعنى اعترافا ذا قيمة أدبية كبيرة بأدب يوسف إدريس بالإضافة إلى الأعضاء العرب الآخرين الذين كانت لهم أيضا سمعة أدبية جيدة . بالطبع كانت القيمة المالية لا يستهان بها . لم تكن مبلغا كبيرا جدا لكنها لم تكن شيئا هينا».

«جادلنى يوسف إدريس بقوة وأصررت على أن يعتذر عن الجائزة . وكنت أفعل ذلك وأنا مدرك لكل أبعاد الموضوع بالنسبة له . وكان من الواضح أن المسألة متعلقة بالمبادئ الأساسية التى كنا ندافع عنها . ولعلى لم أستطع إقناع يوسف بالاعتذار، فدعوت مجلس التحرير وعرضت عليه الموقف فقرر رفع اسم يوسف إدريس من مجلس التحرير . لست أذكر ما إذا كان يوسف قد حضر هذه الجلسة، أم أننى الذى بلغته بالقرار آسفا . على أنه فى نفس اليوم عاد فاتصل بى وقال لى أنه اعتذر عن قبول الجائزة أرسل للجنة الجائزة برقية بالاعتذار وأطلعنى على صورتها . اجتمعنا مرة أخرى وقررنا إلغاء قرارنا السابق وعادت الأمور كما كانت . وكان كمال رفعت عضوا فى مجلس التحرير وكان هو صلتنا المباشرة بالرئيس جمال عبد الناصر فضلا عن أنه كان من كتاب المجلة ومن الطبيعى أن يروى رفعت القصة لعبد الناصر الذى ما إن استمع إليها حتى أمر سكرتيره سامى شرف بأن يدعو يوسف إدريس ويعطيه قيمة الجائزة».

«بعد أيام قليلة تلقى يوسف إدريس مكالمة تليفونية من سكرتير عبد الناصر لمقابلته فى الرئاسة . وبالفعل ذهب إلى هناك فاستقبله سامى شرف وقدم له فنجانا من القهوة ثم فتح بعد قليل درج مكتبه وأخرج له ظرفا مغلقا وأعطاه له وتساءل يوسف عن محتوى هذا الظرف فقال له السكرتير بكل بساطة : إنه مبلغ الجائزة التى رفضتها وقد أمر الرئيس بأن نعطيه لك».

«روى لى يوسف إدريس عن مشاعره وعن الخجل الذى اعتراه والمهانة التى أحس بها وقرر رفض المبلغ ولكن السكرتير استهول هذا الرفض، إذ كيف يرفض إنسان هبة تأتيه من الرئيس . ولعله ألح إلحاحا شديدا على يوسف وفى شىء يشبه التهديد حسب روايته لى فأخذ المبلغ وهو يكاد يتعثر فى خطاه».

(٤٣)

وربما أن الأوان قد جاء لنتأمل فى تطور علاقة أحمد عباس صالح بثورة يوليو، ورأيه فى سياساتها ومسارها، ونحن نرى أحمد عباس صالح يصل فى الفصل التاسع من مذكراته إلى أن يبدى رأيا مبكرا فى ثورة ١٩٥٢، وهو رأى يميل إلى القول القائل بأن حركة الجيش هذه أجهضت ثورة اشتراكية كانت على الأبواب:

«. . . كان لدينا استرابة فى هذا الانقلاب العسكرى. كنا نسميه كذلك فى هذا الوقت. فقد جاء بعد حريق القاهرة بشهور ستة فقط، وبعد اضطراب فى نظام الحكم إذ قامت عدة وزارات لم تكد تستمر فى الحكم إلا شهرا أو بعض شهر، وكنا نحس أن الحريق ثم الانقلاب قطعا المسيرة الشعبية التى بدأها حزب الوفد حين ألغى المعاهدة، وكانت الشروط التى نفذت من معاهدة سنة ١٩٣٦ فى سنة ١٩٤٨ قد «مصرت» مصر، وكان المصريون بالفعل يتسلمون سلطات عديدة، وكانت المقاومة الشعبية تزعج معسكرات الجيش البريطانى فى القناة. وكان الاتجاه الإصلاحى الاجتماعى يمضى قدما، إذ جاء طه حسين فجعل التعليم مجانيا حتى المرحلة الثانوية، كما جرت إصلاحات فى قوانين العمال، وكان من الواضح لكل القوى أن تغييرا ثوريا قادم فى اتجاه الاشتراكية الديمقراطية بشكل ما. فعلى الرغم من القوى المحافظة التى كانت فى حزب الوفد، إلا أن حركة الشباب الوفدى التقدمية كانت قوية إلى جانب نشاط القوى الاشتراكية الأخرى».

(٤٤)

ولا يكتفى أحمد عباس صالح بمثل هذا الحديث فى موضعه، لكنه فى نهاية الفصل الحادى عشر يعود فيؤكد هذا المعنى بطريقة أخرى فيقول:

«. . . الحق أن مصر بالفعل كانت حبلى بالثورة، وكان التغيير قد أصبح مطلبا أساسيا، عليه إجماع من غالبية القوى السياسية، وكان هذا حال ضباط الثورة أو الانقلاب. ويبدو أن الرجل الذى كان أكثرهم مرونة وطواعية لمقتضيات الواقع هو جمال عبد الناصر، الذى كان كثيرا ما يتحدث عن الديمقراطية ويهدد بالانسحاب من التنظيم عندما يطالب زملاؤه بالحكم السلطوى "لدواع أمنية أو ثورية"، ولكنه كان

أكثرهم اعتمادا لمبدأ القوة . هكذا تم إعدام عمال كفر الدوار الذين أضربوا عن العمل فى بداية الثورة لإرهاب الآخرين، وكان هو الذى يأمر باعتقال الشيوعيين والوفديين قبل أن تسوء علاقته بالإخوان . وفى مذكرات عبد اللطيف البغدادى لم يستغرق الحديث عن إعدام عاملى المحلة وكفر الدوار إلا سطورا قليلة ودون أى إحساس بالقلق» .

(٤٥)

وعلى مدى فصول المذكرات يمضى أحمد عباس صالح فى إثبات صحة رؤيته هذه من خلال ما تنامى إليه من معلومات وقرارات، وهو على سبيل المثال يروى فى الفصل الحادى عشر ما حدث به أستاذ طب بارز لم يشتهر بالعمل بالسياسة فيما بعد ذلك، وهو الدكتور حليم دوس، حين تناقش هو ويوسف إدريس معه عن علاقة ضباط الثورة بالأمريكيين فأخرج لهم الرجل من جيبه كتابه «لعبة الأم» فى طبعته الإنجليزية قبل أن تحذف بعض صفحاتها فى الترجمة العربية :

« . . . كنت ألتقى مع صديقى يوسف إدريس وأصدقاء آخرين فى كافيتريا فندق سميراميس القديم الذى كانت له شرفة واسعة مطلة على النيل . وفى ذلك اليوم كنا وحدنا، أنا ويوسف إدريس ولم يلبث أن انضم إلينا الدكتور حليم دوس، الذى كان شقيقا لصديقتنا ليلى دوس، الأستاذة فى الجامعة الأمريكية آنذاك، وكان هو الطبيب الخاص للسفارة الأمريكية . وكنا نعرف العلاقة بين الثورة والسفير الأمريكى كافرى. وكانت الصحف الأجنبية تسمى ضباط الثورة بأولاد كافرى، لكننا لم نكن نعرف طبيعة هذه العلاقة» .

«كان المعارضون وخاصة من المضارين من قانون الإصلاح الزراعى والأحزاب القديمة بشكل عام يتهمونهم بأنهم أتباع لأمريكا . وكان اليساريون يتهمونهم بأنهم أقرب إلى فكر الإخوان المسلمين، ولم يستبعدوا بالتالى علاقتهم بالولايات المتحدة. وكان الحديث الذى دار بيننا وبين حليم دوس عن هذه التبعية الأمريكية بالطبع . لم نكن متأكدين وكنا نجادل الطبيب المصرى ولكنه أخرج من جيبه كتابا صغيرا باللغة الإنجليزية هو كتاب «لعبة الأم» الذى أصبح شهيرا بعد ذلك، وكان من تأليف " مايلز

كوبلاند» ، الذى كان ملحقا بالسفارة الأمريكية فى القاهرة ممثلا للمخابرات، وفيه شرح للصلة بين بعض رجال الثورة والسفارة التى بدأت من سنوات قليلة قبل الثورة. وزعم هذا الكاتب أن تدبير الثورة كان بالاتفاق ومساعدة الولايات المتحدة».

«ومع أن هذا الكتاب ترجم بعد ذلك بسنوات إلى اللغة العربية إلا أن الصفحات الخمس التى أطلعنا عليها الدكتور حليم دوس لم تكن موجودة فى الترجمة».

(٤٦)

ويتحدث أحمد عباس صالح بشىء من «الفضفضة الممتزجة ببعض التشويش» عن لقاءاته المبكرة مع أنور السادات ورجال الثورة، والدور الذى قدر له أن يؤديه فى مجلة «التحرير» ضمن مجموعة يسارية خلفت مجموعة يسارية أخرى:

«. . . وكنت فى الإذاعة عندما جاءنى سامى داود الذى كان كبيرا للمذيعين وكاتبا معروفا، وقال لى: تعال معى، إن السادات يريدنا».

«فهمت فى الطريق أن السادات أصبح مسئولا عن مجلة «التحرير» بعد أن تخلت عنها المجموعة اليسارية، وأنه يريد أن يحافظ على هذا الاتجاه، ولذلك أرادنا أن نحل محلهم وقد اختارنا لذلك. وكان السادات ينتظرنا فى مبنى دار الهلال الذى كانت المجلة تصدر منه. وهناك وجدناه فشرح لنا مهمتنا وعرفنا أنه أصبح رئيس التحرير، وأن سامى داود سيكون مدير التحرير، وأننى سأكون سكرتير التحرير».

(٤٧)

وينفرد أحمد عباس صالح برواية تفصيلات احتفال الثورة بالزعيم محمد فريد، ودوره هو نفسه فى تنظيم هذا الاحتفال الصحفى، وفى أثناء هذا ينفرد أيضا بحديث منصف عن الدكتور خليل مدكور الذى قدر له أيضا أن يعرفه، وقدر له أن يهيئ لاحتفال الثورة أن تفيد من تاريخه مع الزعيم محمد فريد:

«. . . وأظن أن أنور السادات هو الذى اقترح على رجال الثورة أن يحتفلوا بذكرى وفاته (الضمير يعود على الزعيم محمد فريد) إذ تقرر بالفعل أن يقام «صوان» كبير لهذا الاحتفال يحضره رجال السياسة المتعاطفون مع الثورة أو مع الحزب الوطنى».

«وانتهز أنور السادات الفرصة وقرر أن تصدر نسخة تجريبية من مشروع جريدة «الجمهورية» تحتوى على دراسة لتاريخ هذا الرجل على أن توزع أثناء الاحتفال كنموذج لما ستكون عليه «الجمهورية» عند صدورها بالفعل ووجدت السادات يطلب منى كتابة هذه الدراسة».

«فى أثناء عملى بلجنة نشر الثقافة الإسلامية فى الخارج كان يزاملنى فى اللجنة أستاذ للغة الفرنسية هو الدكتور خليل مدكور، وكنا نجلس معا، وكان رجلا فى عمر أبى له شمائل بالغة الندرة فهو متواضع إلى أقصى درجة، وطنى إلى درجة البذل بالحياة وكان من مريدى محمد فريد طوال أيام منفاه، كان يدرس هناك للحصول على الدكتوراه وتعلق بالزعيم حتى أصبح أقرب المقربين إليه وصار يقوم بكل أعماله حبا وتطوعا، وكنا نجلس طوال اليوم فيحدثنى عن الزعيم وعن المصريين المناضلين فى الخارج، وكان قد قضى حوالى تسع سنوات كاملة ما بين فرنسا وسويسرا فى صحبة محمد فريد منغمسا فى كل النشاطات السياسية، ومع أنه اتصل بكل الأفكار التى كانت سائدة فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها، إلا أن فكرته الأساسية ظلت تدور حول استقلال مصر، وحول الاستعمار البريطانى وخفايا سياساته بالنسبة لـ «مصر» وكم حاولت أن أتعرف على رأيه فى الماركسية وغيرها من التيارات السياسية التى كانت منتشرة فى أوروبا فى هذا الوقت، إلا أن هواه كان مصر واستقلالها لدرجة أنه مع انتباهه لهذه الأفكار وربما إعجابه بها لم يجد لها مكانا راسخا فى قلبه، وربما كان زعيمه محمد فريد أكثر تنبها منه».

«وكان الرجل (الضمير يعود على الدكتور خليل مدكور) ذا إيمان دينى راسخ وكان يؤدى الفروض ولكنه مع ذلك كان عصريا فى الكثير من مظاهر الحياة».

«أعتقد أننى قضيت وقتا طيبا مع الأستاذ خليل مدكور، وتعلمت منه أشياء كثيرة وكان من المستحيل مجاراته فى إنكار ذاتـه وتواضعه، وكذلك فى صدقه وزهده أو قناعته».

«ولذلك عندما كلفنى السادات بكتابة ملخص لسيرة حياة محمد فريد، اتجه ذهنى فورا إلى الدكتور خليل مدكور، فذهبت إليه وفاتحته فى الموضوع فأمدنى بصور

فوتوغرافية ورسائل متبادلة تغطى غالبية سنوات المنفى، وحين كانت توجد ثغرة كان يشير على أن أسترشد بأشخاص آخرين كانوا على اتصال به أثناء غيابه هو، وبالفعل اتصلت بهم واستكملت غالبية الثغرات وأصبح لدى أخيرا تصور جيد عن حياة هذا الرجل، مع أن الكثير من الوثائق المتصلة بتاريخه لم تكن قد نشرت بعد».

«بالطبع استعنت بكتاب المؤرخ عبد الرحمن الرافعى عن حياة الزعيم، ولكن المعلومات التى حصلت عليها من بقايا الأحياء الذين صاحبوا محمد فريد كانت جديدة تماما وأذكر أنى كتبت الموضوع بشىء من العاطفة، رغم تنبهى لضرورة النظرة الحيادية ولعلى ركزت على مظاهر النزعة الاشتراكية باعتبارها اكتشافا ما فى حياة هذا الزعيم».

(٤٨)

ونصل إلى قصة أزمته «الحاكمة» مع عهد الثورة، وهى أزمة مبكرة صاغت مواقفه كلها فيما بعد، على نحو ما أشرنا فى مقدمة مدارستنا هذه، ودفعت بهذا الموقف إلى نهايته الطبيعية فى الاغتراب الآمن بعيدا عن مناخ غير مستقر على نحو ما نرى فى قصة حياته:

«. . . كان اهتمام الثورة بالإذاعة سابقا لكل اهتمام بسائر وسائل الإعلام، ومنها الصحف، وسرعان ما أنشئت إذاعة صوت العرب، التى كانت موجهة إلى البلاد العربية، وكانت صوتا جديدا بالنسبة للإذاعات، واستطاع أحمد سعيد، وهو إذاعى شاب موهوب، أن يجعلها صوتا مسموعا . حقا كان يشرف عليها رجل مخابرات كبير هو فتحى الديب، الذى كان ضابطا من الضباط الأحرار فى نفس الوقت، ولكن موهبة أحمد سعيد كانت السبب المباشر فى نجاح هذه الإذاعة».

«وكنت أعرف أحمد سعيد، ولعلى اشتركت فى كتابة التمثيليات بناء على طلبه. وأذكر أنه استدعانى ذات يوم، وطلب منى أن أكتب تمثيلية قوية ضد الاستعمار البريطانى بغرض تعبئة الجماهير العربية ضدهم».

«وبسبب عدم ثقتى، سألته عن مدى الحرية فى كتابة مثل هذه التمثيلية، فقرأ علىّ تعليقا إذاعيا له بالغ القوة . وبالفعل كان صديق لى هو عبد العزيز فهمى الذى، كان

مديرا للأخبار فى الإذاعة قد وضع كتابا بعنوان "الاستعمار عدو الشعوب" وكان قد أهدانى نسخة منه قبل وقت قليل . وكنت قد قرأته . وكانت فكرته الأساسية هى إثبات أن الظاهرة الاستعمارية ليست لاستغلال الشعوب المستعمرة فقط، بل إنها تستغل حتى شعبها نفسه . وأن النهب الاستعمارى لا تستفيد منه إلا الطبقة الرأسمالية، بينما يعانى الشعب من الاستغلال الداخلى . وضرب أمثلة على ذلك عمليات الإضراب العمالية التى كان يقوم بها العمال الإنجليز فى بلادهم».

«وعندما عرضت فكرة اعتمادى على هذا الكتاب فى كتابة التمثيلية على أحمد سعيد وافق متحمسا . ويبدو أنه أثناء المفاوضات الجارية بين حكومة الثورة والحكومة البريطانية بشأن الجلاء عن مصر، كان المصريون يفكرون فى حصار الإنجليز بحملة دعائية قوية فى كل أنحاء العالم العربى، وهو الأمر الذى بلغ لأحمد سعيد ورأى أن يستعين بى».

. . . .

. . . .

(٤٩)

وينتقل أحمد عباس صالح فى سرعة إلى الحديث عن الظروف أو الصدفة التى هيأت له أن يقدم فكرة هذا العمل بديلا عن عمل آخر كان قد اقترحه عليه الفنان السيد بدير الذى كان، على حد وصفه، يراهن الثورة على قدراته، على حين لم يكن أحمد عباس صالح على استعداد لخيانة «الوفد»:

«. . . كان السيد بدير يريد أن يقول لقيادة الثورة أنه يفهم تماما ما يريدونه من الإذاعة ومن الفن، وأنه قادر على تحقيقه . ولذلك استدعانى وطلب منى تمثيلية "قوية" عن حادثة ٤ فبراير . وقال لى أنه سيذيع هذه التمثيلية فى ٤ فبراير سنة ١٩٥٤ الذى يصادف يوم خميس، والذى ستغنى فيه أم كلثوم لأول مرة فى عهد الثورة، بعد رجوعها من رحلة غياب طويلة للعلاج من مشكلات "الجويتر" (تضخم الغدة الدرقية) ومضاعفاته، وأن رجال الثورة سوف يحضرون جميعا هذا الاحتفال فى سينما ريفولى . واستطرد موضحا أن نشرة الأخبار تنتهى فى التاسعة والنصف لتدخل

obeikan.com

التمثيلية مباشرة ليعقبها على الفور صوت أم كلثوم، الذى تجمعت له كل الأسر المصرية بجوار الراديو، وكأن مصر كلها سوف تستمع إلى هذه التمثيلية. لكننى لم أكن مقتنعا بخيانة حزب الوفد».

«ولذلك اعتذرت للسيد بدير دون أن أشرح له الأسباب، إذ كنت أعتقد أن اعتذارى سيجرنى إلى جدل معه لا طائل من ورائه».

«وكان طلب السيد بدير كتابة هذه التمثيلية قبل موعد الإذاعة بأسبوعين، وبالفعل كان من الصعب علىّ أن أنجزها فى هذا الوقت القصير، وأظن أن ذلك كان عذرى للسيد بدير، ولكنه لم يتملكه اليأس، وسألنى عما إذا كان لدى أى عمل إذاعى جاهز له طابع سياسى، فقلت له إننى كتبت تمثيلية سياسية ضد الاستعمار الإنجليزى لإذاعة صوت العرب وأنهم لم ينفذوها بعد، وأنها لدى أحمد سعيد، ويستطيع أن يطلبها منه».

«ويبدو أن الرجل كان يعتقد أنه بعرضه تمثيلية سياسية فى هذا اليوم المشهود لأم كلثوم سوف يثّبت وضعه لدى رجال الثورة، الذين يظنون أنه مجرد فنان لا علاقة له بالسياسة. وبالفعل ذهب إلى أحمد سعيد وطلب منه التمثيلية ثم دفعها إلى مخرج قادر على الإثارة هو يوسف الحطاب، الذى كان صديقا لى أيضا، والذى أبلغنى على الفور بأنه سيشرع فى إخراجها واقترح علىّ اسما بالغ الإثارة هو "مصاصو الدماء"، ولم أعترض رغم كراهيتى الطبيعية للمبالغة، ولكن يبدو أن الحطاب وربما السيد بدير أيضا كانا سعيدين جدا بهذا العنوان».

«أبلغنى الحطاب بموعد البروفة الأولى، وكان علىّ أن أحضر لأشترك مع الممثلين فى تصحيح النسخ المكتوبة على الآلة الكاتبة، والتى كانت دائما مليئة بالأغلاط. ذهبت إلى الإذاعة بشارع الشريفين، ودخلت غرفة البروفات ففوجئت بالحاضرين. لم تكن التمثيلية من ذلك النوع الذى يتشكل من "شخصيات" أو ذات طابع أدبى خالص، إنما كانت الشخصيات التى أظهرتها فيها يشار إليها بصوت (١) أو (٢) وبالتالى ليست فى حاجة إلى ممثل كبير، ولكننى وجدت يوسف وهبى ومنسىّ فهمى وأمينة رزق وغيرهم من كبار الممثلين الذين لا تناسبهم مثل هذه البرامج ذات الطابع الإعلامى والسياسى».

«وقفت مذهولا حتى نبهونى بأن أجلس وأتابع القراءة للتصحيح . وسرحت بطبيعة الحال فى هذا الاحتشاد الهائل لتمثيلية، مهما تكن فهى مجرد تحويل كتاب سياسى خالص إلى عمل درامى إذاعى . على أننى قلت لنفسى : «لا دخل لك، هما (يقصد : السيد بدير، ويوسف الحطاب) أرادا ذلك»، أعنى المخرج ومدير التمثيليات، وربما كانت لديهما وجهة نظر ما».

«وفى يوم الإذاعة اصطحبت صديقا لى كان من زملاء التنظيم السياسى اليسارى قبل أن أعتزله ليسمع التمثيلية ويقول لى رأيه فيها».

(٥٠)

وقبل أن يسرد علينا أحمد عباس صالح انطباع الثورة والحكومة عن عمله هذا، يمهد لهذا الانطباع «القاتل» بالحديث عن رأى صديقه اليسارى القديم، وعن رأى والده هو نفسه، ثم إذا هو يفاجئنا بما لم يكن هو ولا غيره يتوقعونه من رد فعل قاتل(!!)

وربما أن تصوير أحمد عباس صالح لهذا الذى حدث فى ذلك اليوم لا يحتمل تعقيبا ولا تعليقا:

«. . . وأذيعت التمثيلية فى هذا الجو الصاخب من عودة أم كلثوم واهتمام الناس جميعا بهذه المناسبة . وما إن انتهت حتى رأيت وجوما على وجوه الجميع، إذ كنا نستمع إليها فى بيتى، وقال صديقى الذى كان مدرسا للغة الإنجليزية فى المدارس الثانوية : «كيف وافقوا على هذه التمثيلية ؟!» وقبل أن أجيب وجدت أبى يخرج من حجرة أخرى ويقول لى : «كيف تكتب فى الإذاعة الحكومية مثل هذا الكلام الشيوعى الصارخ ؟!»».

«وعلى الرغم من قلقى خاصة بعد سماع التمثيلية التى برع يوسف الحطاب فى إخراجها البالغ الإثارة، فقد قلت لهم : إنكم تظلمون الثورة، إنهم تقدميون حقيقيون».

«خرجنا من البيت أنا وصديقى، الذى صار عليه أن يراجع موقفه من الثورة بعد سماع التمثيلية فلابد أن تكون الحكومة موافقة على هذه الآراء وإلا كيف أذيعت على الناس فى هذا اليوم الباهر ؟».

«كنا عادة ما نذهب إلى الإذاعة فى اليوم التالى لإذاعة البرامج التى نكتبها لنقبض مكافأة التأليف . وكان على الداخل إلى مبنى الإذاعة أن يهبط درجتين حيث يوجد مصعدان على الجانبين يجلس بينهما عادة رجل أمن من موظفى الإذاعة، وكان من عادتى أن أحيى هذا الرجل أو زميله وأنا أتجه إلى المصعد، وكان الرجل سمح الوجه لطيفا، وعلى الرغم من أنه لم يجر بينى وبينه أى حديث طوال السنتين الماضيتين، أى منذ الثورة، إلا أن شيئا من الارتياح النفسى كان قائما بينى وبينه، ولعله كان يتابع تمثيلياتى ويشعر بشىء من الرضا عنها . وكالمعتاد حييت رجل الأمن وأنا أتجه إلى المصعد حيث اتجهت إلى الحسابات لأحصل على إذن صرف المكافأة، وكانت مزدحمة بالمتعاملين مع الإذاعة، فوقفت أنتظر دورى . وبعد قليل وجدت شخصا يهمس فى أذنى من ورائى قائلا : «لا تنظر خلفك . إن اثنين من المخبرين جاءا من أجلك وقد أشرت لهما عليك . . خذ بالك» . وشعرت بالهامس وهو يبتعد ولم أملك إلا أن أختلس إليه نظرة سريعة وأنا أشعر أنى مراقب، فوجدت هذا الرجل الطيب، رجل أمن الإذاعة» .

«لم أضيع وقتى فتركت إذن المكافأة وصعدت إلى مكاتب الموظفين لألتقى بـ "أركان حرب الإذاعة" ، وكان هذا هو لقبه، إذ كان يرأس الإذاعة صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الإرشاد القومى، ويديرها «أركان حرب»، وكان هذا الرجل (عبد المنعم السباعى) ضابطا فى الجيش محبا للصحافة والشعر قبل أن تندلع الثورة، وكنت أعرفه من خلال عملى فى الصحافة وخاصة مجلة «روز اليوسف» التى كان يكتب فيها . كان ممتلئ البدن خشن المظهر، لكنه ذو قلب رقيق، وكتب بالفعل أغانى جميلة بالغة الرقة فى الحب والحياة، غناها عبد الوهاب وأم كلثوم . وكنت أمر عليه فى غرفته فأشرب معه فنجانا من القهوة ونتحدث قليلا فى أمور حياتنا حتى أصبح بالفعل صديقا لى . قررت أن أذهب إليه مباشرة وأعرف منه

ماذا حدث بالضبط . كان من عادتى أن أفتح بابه دون المرور على سكرتيره، الذى كان أيضا «صولا» من الجيش . وما إن اقتربت من باب مكتبه حتى قفز هذا الصول واعترضنى قائلاً إن «البك» لديه اجتماع».

«وقفت مذهولا وصور كثيرة تتداعى على ذهنى، ولعلى كنت أفكر فيمن يجب أن أذهب إليه لأعرف حقيقة ما حدث وخطر على بالى بالطبع يوسف الحطاب، مخرج التمثيلية وشريكى فى «الجريمة»، وكان لمخرجى الإذاعة غرفة تضم عددا من المكاتب، فذهبت إليها على الفور، وما إن فتحت الباب حتى وجدت يوسف الحطاب ممدداً فوق مكتبين ضما إلى بعضهما البعض ليتسعا لجسده الممدد، وكانت المذيعة آمال فهمى تهوِّى على وجهه بورقة ووقفت إلى جانبها المذيعة فضيلة توفيق، فى محاولة للترويح عن زميلهما المخرج فاقد الوعى أو المضطرب . حييتهم تحية الصباح بصوت غير سوى فإذا بيوسف الحطاب يهب جالسا ويصيح فى وجهى : وديتنا فى داهية يا . . .».

«وجدتنى أقمعه بعنف ربما بسبب خوفى واضطراب أعصابى، وأظنه جلس فوق المكتب وراح يجيب على أسئلتى فيما يشبه الهلوسة . وفهمت أن هناك اتهاما خطيرا بالمشاركة فى مؤامرة ضد الثورة».

«كنت أعرف رقم التليفون الداخلى لعبد المنعم السباعى - أركان حرب الإذاعة - فجلست إلى مكتب من هذه المكاتب الفارغة وطلبته فأجاب على قائلا فى استعطاف : «أرجوك أبعدنى عن هذا الموضوع، إنه موضوع خطير وليس لى دخل به».

«كان من الواضح أن الخوف قد استولى على الجميع، وكان لابد أن أذهب إلى مكان آخر . كنت أعمل بجريدة الجمهورية وكذلك يوسف الحطاب، الذى كان يزودنا بأخبار الإذاعة وببعض التعليقات على أعمالها، وكان رئيس التحرير هو حسين فهمى، الذى كانت تربطه برجال الثورة علاقة ما قد يكون لها خلفية عائلية، وكان قبل الثورة رئيسًا لتحرير جريدة «الزمان»، التى كان يصدرها صحفى من أصل لبنانى متمصر هو إدجار جلاد . وكان مهنيا جيدا وإنسانا جيدا أيضا فطلبته فى التليفون فما إن سمع صوتى حتى صاح : «أنت فين ؟ تعال فورا، أنت ويوسف الحطاب»».

«عندما وصلنا إلى مبنى الجريدة رأينا نظرات الاسترابة فى عيون رجال الأمن المسئولين عن استقبال الداخلين سواء من العاملين أو من غيرهم . وفى حجرة حسين فهمى عرفنا الموضوع» .

(٥١)

ونأتى إلى جوهر الأزمة على حسب ما تصورته الثورة، وعلى حسبما تم «سرده» «سردا» واقعيا على نحو سريع لم يكن أحمد عباس صالح نفسه يتوقعه :

«كُتب تقرير عن التمثيلية يقول إن هناك مؤامرة دبرها اليساريون بانتهاز فرصة اليوم الذى يحتشد فيه المصريون لسماع أم كلثوم فتذاع هذه التمثيلية التى تشجع إضراب العمال وتحضهم على التظاهر، خصوصا عمال كفر الدوار، الذين أعدم منهم عاملان هما خميس والبقرى منذ فترة قصيرة، فتشتعل كفر الدوار ثم تنتقل المظاهرات إلى المدن العمالية الأخرى وتنضم إليها الحشود الشعبية ويعمل المدبرون على إسقاط الحكومة» .

«ولكن كيف أذيعت التمثيلية مع وجود رقابة حاسمة على كل كلمة تذاع من الإذاعة ؟ فقيل إننا خدعنا المسئولين ومررنا التمثيلية دون أن يلتفت إلى خطورتها أحد منهم» .

«واتضح بعد ذلك أن التمثيلية لم يقرأها أحد، لا السيد بدير ولا أركان حرب الإذاعة ولا أى مسئول آخر . أما يوسف الحطاب، المخرج، فربما كان متواطئا هو الآخر . ولم يتم القبض علىّ ولا على يوسف الحطاب ريثما يرجعون إلى صلاح سالم الوزير المسئول ليعرف تفاصيل الموضوع بالضبط، وبناء على ذلك يتم التعامل معنا» .

(٥٢)

وها هو مجلس قيادة الثورة بكامل أعضائه يتولى التحقيق مع صاحب المذكرات الذى لم يكن يعرف عبد الناصر ولا غيره، وإن كان يعرف صلاح سالم من صوره، كما كان بالطبع يعرف أنور السادات الذى اجتمع أعضاء مجلس الثورة فى مكتبه فى مبنى جريدة «الجمهورية» :

« . . . كان ضباط الثورة يلتقون ليلا فى مبنى جريدة الجمهورية فى حجرة أنور السادات، الذى كان رئيسًا لمجلس إدارة الدار . وبقيت منتظرا وأنا أحسب ألف حساب

لهذه الكارثة، ولسوء الفهم العجيب الذى يحيط بى . وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل استدعيت لأمثل أمام صلاح سالم ورفاقه فى حجرة السادات . كان مكتب السادات فى صدر الغرفة من ناحية الباب، بينما كان هناك كنب يغطى كل الحائط المجاور للباب وكذلك الحائط المتفرع منه، وفى مواجهة الداخل يوجد مقعدان كان يجلس على الأول منها أنور السادات وعلى الثانى صلاح سالم . فى هذا الوقت لم يكن مثلى يعرف محمد نجيب إلا من صوره ومن ظهوره للجمهور بين وقت وآخر، وكنت بالطبع أعرف أنور السادات وصلاح سالم الذى كان يلعب دور المتحدث الرسمى باسم الضباط . أما الباقون فلم أكن أعرف منهم أحدا».

«عندما دخلت إلى الغرفة، تلفت يمينا وشمالا فشاهدت عددا كبيرا من الضباط فى زيهم العسكرى ولم يشذ أحد . . حتى صلاح سالم وأنور السادات، كانا فى ثيابهما العسكرية أيضًا، على أنى التفت فوجدت حسين فهمى واقفا خلف المكتب يتطلع إلىّ مشفقا».

(٥٣)

ويجيد أحمد عباس صالح وصف حالته النفسية التى حضر بها هذه للمحاكمة الفريدة التى واجهها على حين فجأة، ومن الحق أن نشير إلى أن تصويره الهادئ لهذه اللحظات يحفل بكل ما هو معجز من الصدق، ودقة التعبير، وهو يقارن بين خشونة صلاح سالم التى لا نهاية لها، وبين عطف أنور السادات الذى كان بمثابة الشىء الوحيد المطمئن فى الساحة الحافلة بالتوتر، وفى خضم هذا قدر له أن يعرف عبد الناصر معرفة أوقفت شعر رأسه على حد تعبيره!! :

«كنت منهكا إلى حد السقوط، فهأنا منذ الصباح وحتى الآن أعانى من توترات المصير المشئوم الذى راحت تهددنى به التنبؤات المختلفة التى كانت تأتى طوال الليل. وهأنذا أقف أمام هؤلاء العسكر الذين يملكون السلطة الكاملة على الدولة، والذين تصدر قراراتهم بلا مراجعة من أية سلطة أخرى . وأحسست أننى فرد وحيد أمام سلطة مطلقة لا رادع لها . لم تحمنى نقابة أو صحافة أو حزب أو رأى عام . وحيد تماما ربما لم

أعرف هذا النوع من الوحدة والضياع من قبل . وأدركت مدى بشاعة الظلم الذى يشعر به الإنسان فى مثل هذه الظروف» .

«كان صلاح سالم خشنا إلى درجة غير عادية وابتدرنى قائلا بشكل عدائى : قل لى من معك فى هـذه المؤامـرة؟ قل وإلا سوف ترى الويل» .

«الحق أننى أحسست إلى جانب الشعور بالوحدة والظلم، أن الموقف كله عبثى ولأمر ما تملكتنى شجاعة تأتى من اليأس فى العدل، وأننى لم أرتكب فى الحقيقة أى خطأ فرحت أحكى لصلاح سالم كيف كتبت التمثيلية لصوت العرب، وأن الذى أخذها دون أن يقرأها هو السيد بدير والآخرون المسئولون عن القراءة، وأن سياسة صوت العرب مختلفة عن سياسة البرنامج العام . ولكنه كان يقاطعنى ويزعم أنه سأل أحمد سعيد فأنكر هذه القصة، فطالبته بأن يأتى بأحمد سعيد ويواجهنى . وكنت بين لحظة وأخرى ألقى نظرة سريعة بين سؤال وجواب على هؤلاء العسكر، فأشعر بجو عدائى يحيط بى من كل جانب، ولكن السادات كان يعقب على أقوالى قائلا بصوته المميز : "صح" وكان هذا هو الشىء الوحيد المطمئن بين تلك المساحة المليئة بالتوتر والتحفز» .

«لست أذكر بالضبط كم استغرق هذا الاستجواب، ربما خيل إلىّ أنه استغرق ساعات، لكنه لم يستغرق فى الغالب أكثر من عشرين دقيقة . وأثناء جدالى ودفاعى عن نفسى، وأنا أواجه صلاح سالم، شعرت بأن خطرا يتهددنى خلف رأسى، حتى أننى شعرت بأن شعر رأسى يقف وأن علىّ أن أنظر خلفى سريعا حتى أقفز بعيدا عن هذا الخطر . وهنا رأيت الرجل الذى يجلس على حافة الكنبة خلفى ويتكئ بذراعه على جانب الكنبة، كان مائلا إلى الأمام يصغى بانتباه، وكان ذا عينين لهما لون غريب بين الأصفر والرمادى، وعندما واجهت عيناى عينيه انصرف عنى ولوح بيده لصلاح سالم الذى قال لى : تفضل . . امش . . » .

«وقفت ثوانى مترددا ثم استدرت خارجا وخرج فى إثرى حسين فهمى، الذى كان فرحا بالنتيجة وقال لى إن الموضوع قد انتهى، وهنأنى على ذلك . ولكنى سألته عن هذا الرجل الجالس ورائى، والذى أعطى الأمر بإنهاء التحقيق، فقال إنه جمال عبد الناصر» .

. . . .

. . . .

وهو يصل بعد هذا كله إلى قوله :

«كنت فى العشرينات من عمرى، ولا أملك أى شىء من أسباب القوة، ولذلك كان غضبى شديدا وشعورى بالظلم والإهانة كان طاغيا ولعلى عرفت فى تلك الليلة بشكل مباشر الوجه البشع للسلطات المطلقة».

«عندما أويت إلى فراشى قررت أن أمسح مشاهد اليوم من ذاكرتى ومن حياتى، على أننى عندما ذهبت إلى الجريدة فى ظهر اليوم التالى، جاءنى سكرتير رئيس التحرير ليعطينى خطاب فصلى من العمل . وفى نفس اليوم علمت أن لافتة كبيرة وضعت على الباب الخارجى لمبنى الإذاعة بمنعى من الدخول».

(٥٤)

ويصور أحمد عباس صالح السبب الذى جعله ينجو من الاعتقال مع اليساريين ١٩٥٩، وهو يذكر هذه التفاصيل فى الفصل السادس عشر من مذكراته، وذلك بعد أن يتحدث عن صداقته لمحمد أبو نار، وعن صفات ذلك الصديق ومزاياه، ومن الطريف أنه لم يكن وحده، حسب روايته، صاحب هذا الحظ السعيد، لكنه كان واحدا من مجموعة من مشاهير اليسار :

« . . . كان محمد أبو نار (هو لمن لا يعرفه واحد من الضباط الأحرار) ميالا إلى معاشرة الكتاب والمثقفين بشكل عام . وقد عرفته بأصدقائى المقربين فى هذا الوقت مثل محمد عوده وكامل زهيرى ويوسف إدريس وغيرهم . وكثيراً ما كنا نلتقى فى مناسبات عديدة فى مجالس الحديث الممتعة، التى كانت أسلوبا من أساليب الحياة المصرية وتقاليدها الراسخة . وقد نفعت هذه العلاقة فى حادثة صغيرة ولكن لها دلالة كبيرة. ففى سنة ١٩٥٩ خاصم جمال عبد الناصر الاتحاد السوفييتى، فقرر اعتقال جميع الشيوعيين، بل اليساريين بشكل عام . وكانت وزارة الداخلية بناء على أمر من جمال عبد الناصر تعد كشوف الاعتقال . وكان الوزير فى هذا الوقت هو عباس رضوان،

الذى كان صديقا حميما لمحمد أبى نار، وكان هذا الأخير فى زيارة له فى مكتبه وكانت هذه الكشوف أمامه على المكتب وامتدت يد أبى نار فأمسكت بالكشوف وراح يقرأ الأسماء فإذا به يجد اسمى واسم يوسف إدريس ومحمد عوده وكامل زهيرى ونعمان عاشور، ولعله فكر قليلا وتذكر أننى ـ بصفة خاصة ـ العائل الوحيد لأسرتى الكبيرة، ولعلنى كنت قد تزوجت فى هذه السنة، فقال للوزير: ألا يمكن شطب هذه الأسماء؟ إنهم أصدقائى الحميمون، وسوف يكون موقفى محرجا لو تم القبض عليهم؟».

«وكان عباس رضوان شخصا طيبا، وقد عرفته عن قرب بعد ذلك بسنوات قليلة. تردد قليلا ثم قال لأبى نار سوف أغير الكشف وأشطب أسماءهم. ولكن من عادة عبد الناصر أن يقرأ الكشوف اسما اسمًا، وأحيانا يشطب اسمًا، وأحيانا أخرى يضيف اسمًا، فإذا أضاف أسماء هؤلاء لن أستطيع أن أفعل شيئا. وبالفعل أعيدت كتابة الصفحة التى تحتوى على أسمائنا وذهبت الكشوف ولم يتذكر عبد الناصر أى اسم منا وهكذا نجونا من اعتقالات سنة ١٩٥٩».

(٥٥)

وعقب هذا التصوير «الذكى» لما يصوره عبثا يؤكد أحمد عباس صالح فكرته فيقول:

«... هكذا كانت الحياة السياسية فى مصر بكل بساطة. لم تكن هناك جريمة معينة أو موقف سياسى خطير معاد يسعى أو يقدر على قلب السلطة. وكان اعتقال الناس رسالة رمزية لا أكثر ولا أقل فى بعض الأحيان. ولكونك يساريا بشكل ما، كان عليك أن تحذر الفصل من العمل أو الاعتقال حسب الأحوال المزاجية أحيانا. ويبدو أن عملية الاعتقال لم تكن شيئا مقلقا بالنسبة لمصدر القرار.

طبعا لم أعرف هذه القصة إلا بعد زمن طويل من حدوثها، وبعد أن أصبح أبو نار آمنا ليرويها لى».

(٥٦)

وقبل هذا فإن أحمد عباس صالح يروى فى الفصل الرابع عشر من مذكراته كيف

قدر له هو نفسه أن يسهم فى نجاة يوسف إدريس من الاعتقال الذى كان قد تعرض له مع الشيوعيين، وفيما يبدو فإن هناك تعارضا فى الروايتين، وبخاصة فيما يتعلق باسم يوسف إدريس، إلا أن تكون المصادفة تكررت مع اسم يوسف إدريس مرتين، ونحن نعرف بالطبع أن اعتقالات ١٩٥٩ (أو اليوم الأخير من ١٩٥٨) قد جاءت بعد أن استقل السودان فى أول يناير ١٩٥٦ (!!) ونحن بالتالى نتحفظ على بعض ما فى هذه الرواية!!:

« . . . كانت الثورة قد اعتقلت عدداً من الشيوعيين وأودعتهم السجون، ولعلى قلت لصلاح سالم إنكم تعتقلون الشيوعيين، فكيف تريدهم أن يساعدوكم، فقال متحمسا : قل لى من هم أصحاب التأثير الأكبر على الشيوعيين السودانيين، فقلت إننى لا أعرف . وكنت لا أعرف بالطبع، وربما قلت له إن على أن أسأل . وأذكر أننى لجأت إلى الشاعر كمال عبد الحليم، الذى كان مسئولا كبيراً فى حركة حدتو الشهيرة وعرفته بمحمد أبى نار، فرشح له مجموعة من الشيوعيين المعتقلين على أنهم كانوا مسئولين فى التنظيمات الشيوعية عن المسئولين السودانيين الحاليين، وأعطاه بعض الأسماء، منها أخوه الكاتب إبراهيم عبد الحليم . وهنا أدركت أن المسألة كلها اجتهاد من كمال عبد الحليم للإفراج عن المقربين إليه، فقلت فى نفسى لماذا لا أستفيد أنا من هذه الفرصة فأضع اسم صديقى يوسف إدريس، الذى كان معتقلا منذ أكثر من عام ونصف عام . فقلت لأبى نار أن يضع اسم يوسف إدريس من بين الذين ينبغى الإفراج عنهم للمساعدة فى إقناع السودانيين بصواب الدعوة إلى الوحدة . وبالفعل وضع الاسم وتم الإفراج عن الأربعة أو الخمسة المختارين» .

«وفى يوم الإفراج انتظرت فى مبنى قصر عابدين لأرى صديقى يوسف إدريس. وبالفعل، جىء بهم إلى ذلك القصر المهيب، الذى كنا نراه من خارج الأسوار فقط، والذى كان يطل علينا من شرفته الخارجية الملك فاروق فى سالف الأزمان . ظهر الرجال الخمسة فى ثياب شبه متسخة وممزقة وهم فى حالة ذهول» .

«وعندما استقبلت يوسف إدريس بالأحضان، كان منهولا ولم يكن يعرف كيف أفرج عنه ولماذا . والأعجب من كل ذلك، ما علاقتى أنا بالموضوع، وما الذى جاء بى

إلى هذا المكان ؟! وربما لم يكن يعرف علاقتى الشخصية بمحمد أبى نار تلك العلاقة التى نشأت - فى الغالب - ويوسف إدريس فى المعتقل . وكانت الأمور كلها مشتبها بها . فنحن نسمع بين وقت وآخر عن علاقة زميل أو آخر بالسلطة، وهى علاقة مشبوهة لصلتها بالأمن والتجسس، فهل أنا صديقه الموثوق من هذا النوع من الناس؟».

«على أنه كان فى حاجة إلى أن يخلع عنه وعثاء السجن ويستحم بدنا ونفسا قبل أن يعيد التفكير فى أى شىء . ربما ذهبت إليه فى اليوم التالى ورويت له تفاصيل القصة. وكان موضوع السفر إلى السودان قد بهت شيئا ما، إذ كان صلاح سالم يلعب أوراقه الأخيرة وكان الوقت قد فات لتدخل المثقفين المصريين اليساريين لإقناع زملائهم السودانيين بفضائل الوحدة».

وهنا ينتهز أحمد عباس صالح الفرصة للتعليق فيقول:

«. . . ويبدو من هذه القصة أن كل فرد من قيادات الثورة كانت له صلاحيات واسعة فيما يخص موقعه . إذ أن الإفراج عن هؤلاء المعتقلين تم بناء على أمر منه للمسئولين عن الاعتقالات . فعندما كنت أقترح عليه الأسماء قال لى أنه سيصرف لكل شخص مبلغ مائتى جنيه كمعونة سريعة لترتيب أحوالهم بعد السجن، ولكننى طلبت خيرا من ذلك أن يعينوا فى الصحف، إذ كانوا كتّابًا ورسام كاريكاتير واحد هو زهدى . فقال لى إنه لا يملك تعيينهم إلا فى مجلة الإذاعة التى كانت تتبعه كوزير للإرشاد القومى».

(٥٧)

وإذا كان هذا التصوير الذى أجاده أحمد عباس صالح لكرامة الإنسان غير المستقرة على يد نظام الحكم فى عهد الثورة مردودا عليه بأنه يتحدث عن تجربته هو أو عن تجربة صديق مقرب كيوسف إدريس، فإنه يحدثنا حديثا آخر يدل دلالة قاطعة على مدى ما يلعبه الحظ فى إنقاذ كثيرين من مصائرهم الثورية!! بفضل صدف عابرة، وهو ما يتبدى بوضوح مما يقصه علينا أحمد عباس صالح قصة درامية تتعلق بإنقاذ حمدى غيث من التشرد بفضل مسلسل «أبى ذر الغفارى»:

«. . . اقترحت . . . أن أكتب للإذاعة سيرة الصحابى أبى ذر الغفارى، والذى كانت له ميول اشتراكية بالغة الوضوح . وكنت أحب هذه الشخصية منذ قراءات الطفولة . ورحت أجمع المواد، وهى نادرة إلى حد ما بسبب هيمنة الاتجاهات السلطوية على التاريخ الإسلامى . وكتبت السيرة فى شكلها الدرامى الإذاعى وأنا شبه متبتل. وعندما سلمتها لأحمد سعيد رشحنا معا الإذاعى الشاب - فى ذلك الوقت - أمين بسيونى الذى جلست معه لاختيار الممثلين، ورأيت أن اصلح من يؤدى الدور هو الفنان حمدى غيث . ولكن هذا الممثل كان موقوفا عن العمل بأى منبر من منابر الفن، لأنه شارك فى مؤتمر للسلام فى إحدى الدول الأوروبية، واتهم بتوجهاته الاشتراكية أو اليسارية بشكل عام . ولعله كان مفصولا من كل وظائفه بما فى ذلك عضويته بفرقة المسرح القومى . على أننى صممت على أن الوحيد الذى يصلح للدور هو حمدى غيث . ولذلك كان على أحمد سعيد أن يتصل بالدكتور عبد القادر حاتم ويستصدر منه قرارا بعودته للعمل . حدث كل هذا والدولة تتجه إلى الاشتراكية وتعيش تطبيقاتها وتسعى للدفاع عنها إعلاميا . ونجح أحمد سعيد فى أن يستصدر قرارا بالغ الغرابة والقسوة . فقد وافق الدكتور حاتم على أن يعمل حمدى غيث فى هذا البرنامج فقط وبعد ذلك يمنع من أى عمل آخر فى أجهزة الدولة التى كانت تملك كل شىء متعلق بالميديا أو الفنون الدرامية» .

«وبدأنا العمل فى التمثيلية وأدى غيث الدور وكأنه بالفعل أبو ذر الغفارى . وأذيع البرنامج فى توقيت غريب أيضًا، أظنه كان فى الثانية عشرة مساء . وكان من عادة عبد الناصر أن يقلب فى الإذاعات يستمع إلى الأخبار أو البرامج قبل أن ينام . وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل جاءت يده على محطة صوت العرب فسمع حوارا يتكلم فيه أبو ذر فشده وظل يستمع إلى أن انتهت التمثيلية وكانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحا، إذ كانت التمثيلية معدة لسهرة كاملة تطول إلى ساعتين، وهو توقيت أية مسرحية طويلة . وعندئذ طلب الدكتور حاتم فى التليفون ليهنئه على التمثيلية، وأبدى إعجابه الشديد بأداء حمدى غيث وسأل أين هو فقال له حاتم إنه موقوف أو مفصول من العمل، فصاح عبد الناصر مندهشا، ثم أمر وزيره بأن يستدعيه ويعيده إلى العمل، بل يختاره لأحد مناصب الوزارة الكبرى، ثم أوصاه بأن يستدعينى لأكتب هذه السيرة فى فيلم سينمائى» .

«كان حمدى غيث يعيش متخوفا من أجهزة هذه السلطة، التى اعتبرته معاديا وطردته من وظائفه».

و«لست أدرى ما الذى حدث بالضبط وجعل الدكتور حاتم يكلف أجهزة الشرطة بأن تبعث فى طلب حمدى غيث. هل حاولوا الاتصال به بالتليفون أو بالوسائل الأخرى فلم يفلحوا؟ أحس غيث بأن سيارة شرطة تسأل عنه فراح يتهرب منها، ولكن بعد ثلاثة أيام أمكن «القبض» عليه وأخذوه أخذا إلى مكتب الدكتور حاتم. حكى لى غيث كيف ركبه الرعب وهم يسوقونه إلى الوزير، ولكن عندما دخل المكتب وجد الوزير يخرج من خلف مكتبه ليستقبله بالأحضان. وروى له القصة كلها وتم تعيينه وكيلا لوزارة الإعلام لشئون مسرح التليفزيون».

«خرج غيث من هذه التجربة المذهلة بأن الذى حدث مجاوز للعقل والمنطق، ولابد أنه متصل بالقوى العليا، وأنها إرادة إلهية هى التى غيرت كل شىء بسبب أدائه الصادق المعبر عن إيمان حقيقى لدور هذا الصحابى العظيم. وبالفعل راح يصلى الفرائض ويغرق فى التدين».

. . . .

. . . .

ربما جاز لنا أن نشير هنا إلى أن هذه المرحلة من حياة حمدى غيث ليست مشهورة، وربما أنها ليست معروفة.

(٥٨)

هكذا لا يكف أحمد عباس صالح عن رواية كثير من المواقف الفارقة التى تكشف بوضوح عن طبيعة الشمولية وما يشوبها من القهر والخوف اللذين كانا بمثابة نتيجة طبيعية لهذا النمط من الحكم، ولنقرأ على سبيل المثال ما يتحدث به عن تجربة لطفى واكد، وعن انطباعات ذلك الرجل حين زاره أحمد عباس صالح بعد خروجه من السجن:

«... كان رئيسا لمجلس إدارة جريدة الشعب، وهو الذى استقبلنى استقبالا حارا عندما انضممت إلى هذه الجريدة. وكان رجلا محبا للثقافة. وكان خاله المفكر أحمد

لطفى السيد، الذى لعب دورا كبيرا فى تاريخ مصر الحديث الثقافى والسياسى . وكان من الضباط الأحرار وأظنه من أوائل الذين اشتغلوا فى مكتب جمال عبد الناصر . وكان من المكانة فى تنظيم الضباط الأحرار بحيث تناقش فى موضوع تنصيب لطفى السيد رئيسا للجمهورية فى بداية الثورة » .

و«كان نموذجا جيدا لأبناء الطبقة الوسطى العليا فى مصر إذ كان لأسرته شىء من الملكية الزراعية المتوسطة، ولكن اهتماماته السياسية كانت الاهتمامات الشائعة فى الشرائح المختلفة لهذه الطبقة. ولم يكن ضد الفكر الاشتراكى فهو فى النهاية أصبح نائب رئيس حزب التجمع "الاشتراكى" الذى أسسه صديقه الحميم خالد محيى الدين . فقد ألقى القبض عليه بتهمة كتابة منشورات وتوزيعها ضد سلطة عبد الناصر» .

«ولا أظن أننى ناقشته فى تفاصيل هذه الواقعة أو لعلى نسيت هذه التفاصيل، فالذى أريد أن أرويه هنا شىء آخر . إذ عندما أفرج عنه بعد أن قضى فى السجن حوالى سنتين من حكم بالسجن لمدة خمسة عشر عاما قررت بالطبع أن أزوره فى بيته لأهنئه وأريه أننى لم أجد فيما اتهم به شيئا يشينه وأن مودتى له كاملة» .

«عندما فتح لنا الباب وقف محملقا فينا ثم تعانقنا . وجلسنا فترة ما وانصرفنا على أن ينضم إلينا فى مجلة الكاتب وبالفعل بدأ يقضى أغلب وقته معنا فى مقر للمجلة إذ لم يكن له أى عمل حينذاك . وذات يوم حكى لى أنه استغرب كثيرا عندما فتح باب شقته ورآنا، إذ كان جميع معارفه ينصرفون عنه إذا تصادف وقابلهم وأن أحد أقاربه رآه وهو يسير فى أحد الشوارع فانتقل إلى الرصيف المقابل حتى يتجنب الحديث إليه» .

ويعقب أحمد عباس صالح على هذه القصة بقوله :

«وهكذا زرع الخوف فى قلوب الناس حتى امتنعت المروءة، ومن المؤكد أن هذه المشاعر الخائفة انتشرت فى صفوف جميع الناس بمن فى ذلك الجنود والضباط وهو ما يفسر الأداء السيئ فى تلك الحروب» .

(٥٩)

ويبدو أن أحمد عباس صالح كان مرتاحا إلى تشخيصات يوسف إدريس فى وصف الثورة، حتى إنه كان يكررها كلما وجد إلى ذلك سبيلا، وانظر إلى قوله :

«. . . كان صديقى «يوسف إدريس» يقول: أنه حدث إخصاء للشعب المصرى وهو يقصد أن الرجولة قد استؤصلت من نفوسنا، وكنت حين استمعت إليه وهو يستخرج هذه العبارة من أعماق صدره أصدقه وأنا أنظر حولى كما لو كنت أعيد فحص وجوهنا . ولعلى اكتشفت أهمية السلطة فى تكوين سلوكيات الناس الذين تحكمهم».

وفى الفصل الأخير (الثامن والأربعين) يستعيد أحمد عباس صالح بعض ما قاله يوسف إدريس:

«. . . وكم تذكرت قول يوسف إدريس ذات مرة إن الحرية المتاحة فى مصر لا تكفى لتنجب نصف كاتب، ولعلى لم أفهم مدلول الحرية إلا بعد الكثير من تأمل الحياة التى نحياها».

(٦٠)

ونصل الآن إلى الحديث عن الشخصيات التى قدر لأحمد عباس صالح أن يفيد منها ومن خبرتها، فى أثناء عمله الوظيفى، ومن هؤلاء السيدة روز اليوسف التى يتحدث عنها فى هذه المذكرات بحب وتقدير شديدين، منفردا برواية موقف غير مشهور لها مع رجال الثورة:

«. . . كانت (الضمير يعود على روز اليوسف) شديدة الذكاء، قوية الملاحظة، لديها إحساس طاغ بأنوثتها حتى فى هذه السن . ولست أدرى كيف اكتسبت هذه القوة فى مقاومة الأحداث وأعتى الرجال وكان لديها إحساس قوى بذاتها وبكرامتها . وفى هذا الوقت لم يكن لديها مشاكل مالية، وكانت تدير المجلة بكفاءة عالية، واختيارها لأحمد بهاء الدين لسد فراغ ابنها المحبوس، دليل على كفاءتها فى الاختيار، وبالفعل كانت تفاجئنى بآرائها البالغة النضوج فى كتابات الكتاب الذين يكتبون فى المجلة، أو فى غيرها من الصحف».

«وكانت تعيش حياة مطمئنة - بشكل ما - مع زوجها الذى ينحدر من صلب ذلك الرجل الذى دعا إلى تحرير المرأة فى السنوات الأولى من القرن العشرين، تسكن فى

شقة جميلة فى الدقى على ما أذكر وتدعو إلى بيتها أحيانا بعض العاملين معها أو الأصدقاء . وكانت ماهرة فى الطهو أيضا وشغوفة بالحياة، وكانت تملك سيارة أقرب ما تكون إلى الفخامة يقودها سائق قديم» .

«لا أذكر اليوم الذى أفرج فيه عن إحسان عبد القدوس، ولعله كان فى سنة ١٩٥٥. وعندما عاد إلى العمل كان يوما عظيما بالنسبة لها، وأظن أنه بعد يوم أو اثنين، جاءها خبر بأن وفدا من مجلس قيادة الثورة جاء ليزورها ويهنئها بالإفراج عن ابنها علامة على المصالحة، وعودة إلى الصداقة القديمة التى كانت تربط بين إحسان والكثيرين من قادة الثورة، وكان الوفد على ما أذكر مكونا من جمال سالم وعبد اللطيف البغدادى وربما شخص آخر» .

« كنت واقفا فى حجرتها ونحن نترقب وصول هذا الوفد، وكان لديها "بوف" تضع عليه ساقيها عندما يتعبها الجلوس، وفى هذه اللحظة دخل ساعى مكتبها مسرعا ليقول لها إن الضباط قد وصلوا وأنهم يصعدون السلم الآن، فأشارت إليه بسرعة أن يقرب «البوف»، وما إن فعل حتى مدت ساقيها عليه، ودخل الضباط ليسلموا عليها فمدت يدها إليهم معتذرة بعدم قدرتها على الوقوف على قدميها بسبب آلام فى ساقيها، وتقبل الجميع هذه الحجة ولعلهم انحنوا على يدها فقبلوها . وجلسوا جميعا قليلا ريثما شربوا شيئا من القهوة أو العصائر وراقبتها وهى تتصرف كامرأة عظيمة دون أن تهتز لها شعرة، وكانت تعطى انطباعا بأنها غاضبة لما حدث لابنها ولكنها تتقبل الاعتذار ولا تقدم الشكر على الإفراج عنه».

«عندما انصرفوا، كنت واقفا فى الحجرة أنظر إليها بإعجاب شديد، فقامت واقفة ونظرت إلىّ وكأنها تقول : هل أعجبك هذا يا ولد؟».

(٦١)

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فمن واجبنا أن نذكر بعض انطباعات أحمد عباس صالح عن بعض الشخصيات الفنية التى آثر الحديث عنها باعتزاز شديد، وهو يثنى على السيدة الفنانة نادية لطفى فى فقرات متعددة من مذكراته، مشيرا باعتزاز إلى صالونها وعلاقاتها الاجتماعية الدافئة :

«. . . وكانت نادية لطفى سيدة مضيافة بالغة الرقة تحسن التعامل مع ضيوفها الذين كانوا يقدرونها حق قدرها . وأعتقد أننى استفدت كثيرا معرفيا من هذه الجلسات . وجاء علىّ وقت اعتقدت فيه أن سياسة مصر تدار فى مثل هذه الصالونات، بما فى ذلك سياستها العربية أو الخارجية أيضا».

«وكانت هذه السيدة الجميلة المحبة للثقافة قد اكتسبت خبرات عديدة رغم صغر سنها فى ذلك الوقت، لعل أبرزها رغبتها الصادقة فى عون أصدقائها مهما تكن الظروف».

. . . .

. . . .

وبعد فقرات يستأنف أحمد عباس صالح مديحها فيقول:

«. . . وكانت إلى جانب كل هذه الفضائل تمتاز بالجرأة وشجاعة الاقتحام ربما بسبب جمالها المستفز وما يثيره حولها من زوابع».

«وكانت بالطبع مثل سائر جيلها من فتيات الطبقة الوسطى المصرية مهتمة جدا بما يدور فى الحقل السياسى فى بلادها وكانت تعتبر أن عملها كممثلة له دور أساسى فى تحقيق المشروع القومى».

(٦٢)

ويتحدث أحمد عباس صالح حديثا طريفا عن اثنين من كبار الأطباء المصريين فى لندن، وتأتى طرافة هذا الحديث من أن صاحبه كان مريضا يتعامل مع كبار الأطباء، ومن أنه هو نفسه أصبح أبا لأطباء متميزين يعملون فى الخارج أيضا، ونبدأ بحديثه عن الدكتور مجدى يعقوب:

«. . . قابلنى الطبيب مجدى يعقوب، الذى كان الأوسع شهرة بين جراحى القلب فى بريطانيا، وقد اضطررنا أن ننتظره حتى يعود من مؤتمر طبى فى الولايات المتحدة . وأذكر أننى أعطيت موعدا فى الثامنة مساء ولكننى ظللت جالسا فى قاعة الانتظار حوالى خمس ساعات، إلى أن جاء الطبيب وأدخلت عليه».

«كان مصريا ظريفا وفيه شيء من المبالغة فى الثقة بالنفس، تأتيه من نجاحه غير المسبوق كجراح عالمى، وكان قليل الكلام، وهو نفسه يحكى أنه ظل فى طفولته لا يتكلم حتى بلغ الثالثة أو الرابعة من عمره . كشف علىّ بالسماعة فيما لا يزيد عن نصف دقيقة ثم راح يملى تقريرا سريعا لسكرتيرته الإنجليزية بتحويلى إلى القسطرة وبعض الفحوص الأخرى . وربما تحدث إلىّ ببعض جمل قصيرة».

«كانت قاعة الانتظار مليئة بالمرضى المنتظرين، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، عندما غادرت مقر عيادته فى شارع مواز لـ «هارلى ستريت»، شارع الأطباء فى لندن . وكانت هذه المواعيد «المضروبة» موضوع تندر من الأطباء الإنجليز الذين كانوا يحسدونه بغير شك بسبب تفوقه غير المنكور، والذى انتهى بأن عين بعد ذلك رئيسا لمنظمة أو جمعية رسمية لأطباء القلب فى كل بريطانيا، ومنح لقب «سير» الفخيم فى هذه البلاد».

«فى الزيارة الثانية، وكنت قد أجريت الفحوص المطلوبة، قال لى فى اقتضاب أن الشريان الرئيسى مسدود بنسبة ٨٠٪ وأنه سيغيره بشريان يقتطع من شريان ساقى وأنه يبشرنى بخبر مفرح وهو أنه سيجرى لى العملية وأظن أنه قال بابتسامة شحيحة : مبروك . سأجرى لك العملية».

«ولعلى لم أفهم حينذاك أنه يقصد تبشيرى بأن حالتى تسمح بإجراء الجراحة لأن ذلك يتعلق بحالة عضلة القلب . فقد أخذت له بعد ذلك بعدة سنوات صديقا لى عانى من أزمة قلبية فلما كشف عليه قال أن عضلة القلب ضعيفة والجراحة قد لا تفيده كثيرا وامتنع عن إجراء العملية».

(٦٣)

كذلك فإن حديث أحمد عباس صالح عن الدكتور فايز بطرس يحفل بالتقدير، وإن لم يخل من انتقاد إهماله لضبط الوقت فى مواعيده، ويصل نقد صاحب المذكرات له بسبب هذه الجزئية إلى أن يصفه بأنه «هليهلى»:

«كان هناك طبيب مصرى آخر هو الدكتور «فايز بطرس» مهمته متابعة المرضى بعد إجراء العملية طوال فترة النقاهة . وكان رجلا بالغ التهذيب ومصريًا حتى النخاع على

الرغم من أنه يعيش حياته كلها ومنذ وقت طويل فى بريطانيا وقد تزوج من امرأة إنجليزية . وكان مثل صديقه مجدى يعقوب رجلا "هليهليا" لا تشكل المواعيد عنده مشكلة كبرى وعندما أرسلت له صديقا لى مصريا كان يعمل فى الإذاعة البريطانية ليعالجه من مرض ألمّ به، تأخر عليه لأكثر من ساعة، مما اغضب صديقى وعاتبه عتابا شديدا وخرج ولم يقبل أن يعالج عنده».

«كان صديقى هذا يحسب على الأدب، إذ كان قد درس فى كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة الإنجليزية ثم جاء إلى إنجلترا ليحصل على الدكتوراه فى المسرح الإنجليزى فى فترة من فترات تاريخه الطويل . كان بالطبع معجبا جدا بالحياة الإنجليزية وعاش حياته فى إنجلترا دون أن يرجع إلى مصر قابلا أن يعمل بالترجمة فى الإذاعة دون أن يفكر فى أن يكون أستاذا للأدب الإنجليزى فى إحدى الجامعات المصرية، وهو شىء كان شبه مضمون بسبب دراساته المتخصصة؟».

(٦٤)

وفى هذه المذكرات فقرة مشعة بالدفء يتحدث فيها أحمد عباس صالح عن الأيام الأخيرة فى حياة زميله الأستاذ موسى صبرى فيقول:

«. . . وفى واشنطن علمت أن زميلى وصديقى موسى صبرى الذى كان مقربا إلى الرئيس السادات وكان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم ورئيسا للتحرير، يعالج من السرطان فى مستشفى بواشنطن فذهبت لزيارته . كان شخصا آخر غير الذى أعرفه، ولكننى استطعت أن أستخرج من هذا الجسم البالغ النحول والمبتعد سريعا عن الحياة، الرجل الذى أعرفه . كان يمسك كتابا يقرأه لعله كان قصة ليحيى حقى . كان ممسكا بالكتاب بذراع بالغ النحول حتى أن ساعة يده المعلقة فى هذا الذراع كانت تنزلق حتى تبلغ كوعه . تحادثنا طويلا عن حياتنا هذه الغريبة وعن ذكرياتنا الصاخبة . كانت آراؤنا مختلفة وربما كانت متناقضة ولكننا لأمر ما كانت تربطنا مودة ما، لعلها بسبب البيئة التى أتينا منها والثقافة نفسها، فقد تخرج أيضا فى كلية الحقوق من نفس الجامعة التى تخرجت فيها وشارك فى الحياة السياسية منذ باكورة شبابه، ولم يكن على أية حال رجلا متعصبا، وكان فى الحقيقة مهنيا ناجحا وأكثر اهتماما بالمهنة من التعصب لتيار

سياسى ما . وكان حبه للسادات صادقا وقويا، وعندما توفاه الله لم يترك شيئا من المال لأولاده. كان نقيا فى هذه الناحية . وأذكر أننا كنا نسير فى شوارع القاهرة فى أيام شبابنا نحلم بالمستقبل فقال لى : ياسلام لو أصبح مرتب الواحد مائة جنيه فى الشهر!».

(٦٥)

ويكاد أحمد عباس صالح ينفرد بالحديث الصريح عن النهاية الدرامية لحياة الشاعر الفنان إسماعيل الحبروك، وعن السبب المباشر فى هذه النهاية من وجهة نظره هو، وهو يقول:

«. . . ولم أكن ألتقى بصلاح سالم إلا فى اجتماعات موسعة . وكان قد ضم عددا من الصحفيين، وعين بعضهم رؤساء للتحرير، فقد كان للجمهورية عدد من رؤساء التحرير منهم إسماعيل الحبروك، الذى كان شاعرا غنائيا وكاتبا لقصص رومانسية، وكانت تربطه بصلاح سالم علاقة ما . وكان إسماعيل شابا مرحا بسيطا فيه كل سمات شاعر الأغانى من رقة وسماحة . ودون أن نعرف السبب وجدنا اسم إسماعيل الحبروك قد اختفى من قائمة رؤساء التحرير».

«كان إسماعيل صديقا لى من أيام روز اليوسف، وعندما رفع اسمه من الجريدة، رأيت أن علىّ أن أذهب إليه وأن أجعله يتقبل هذا الوضع بصدر رحب، وكان مكتبه إلى جوار مكتبى . عندما دخلت عليه كان متوترا جدا . حدثته بالطبع عن أنه كاتب، والكاتب أكبر من أى منصب، وأنه شاعر مرموق وكاتب جيد، ولعل هذه فرصة ليتفرغ لإصدار الكتب . وبدا أنه يصغى لى وهو سارح، وفجأة انتصب واقفا وخلع قميصه وقال : أنظر هل هناك شىء فى ظهرى ؟ كان ظهره ممتلئا ببقع حمراء، ونصحته بأن يخرج من هنا ويذهب إلى الطبيب . وعندما عدت إلى بيتى رحت أتأمل تلك الظروف التى نعيشها فهذا هو إسماعيل الحبروك الذى كنت أظنه فى وضع آمن . إذ لم تكن له اهتمامات سياسية إلا فى حدود فكرة الوطنية بما يجعله بعيدا عن الخصومات السياسية أو التدخل فى المجالات الصعبة . ولكن هاهو ذا تطوله اليد العصبية التى تتلاعب بالكتاب وبكل شىء فى حياتنا الاجتماعية الجديدة».

«كنت فى المساء أذهب إلى مقهى إنديانا، التى انتقلت مجموعة الأدباء وأساتذة جامعة القاهرة، التى ترتاد مقهى عبد الله بالجيزة إليها . وكان يوسف إدريس قد تزوج أخت زوجة إسماعيل الحبروك، وإذا بشخص يأتى للمقهى ليسر فى أذن يوسف بشىء ما فنهض مضطربا ولما سألته عما حدث قال لى إن إسماعيل الحبروك نقل إلى المستشفى مصابا بنزيف فى الدماغ . ذهبت معه إلى المستشفى ولكن الإصابة كانت خطيرة ولم يستغرق الأمر إلا ثلاثة أيام حتى فارق الحبروك الحياة» .

(٦٦)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن الحوار الذى دار بينه وبين صلاح سالم حول مسئولية هذا الأخير عن نهاية حياة إسماعيل الحبروك على هذا النحو المؤسف فيقول :

« . . . لم تتحسن علاقتى بصلاح سالم وكان هو يعانى من مشاكل فى الكلى . وكنا إذا التقينا داخل الجريدة لسبب أو لآخر، نتبادل تحية مقتضبة بل لعلها باردة من ناحيته. وفى اليوم التالى لوفاة إسماعيل الحبروك اجتمعنا فى حجرة أحد رؤساء التحرير لعله كان موسى صبرى، وكان الغرض من الاجتماع هو التشاور فى إجراءات الجنازة التى تقرر أن تحدث أولا فى القاهرة، ثم فى دمنهور بلده، حيث سيدفن هناك . جلست صامتا حتى قال صلاح سالم : «الحمد الله لقد مات راضيا عنى . لقد صالحته»» .

«لست أدرى ما الذى دفعنى لأنفى هذا الزعم، إذ قلت على الفور ودون أن أحسب حسابا لتأثير ذلك النفى، ورويت لقائى بالحبروك فى مكتبه وحديثى معه، والبقع الحمراء التى أرانيها على ظهره فى نفس اليوم الذى أصيب فيه بنزيف الدماغ» .

«خرج منى هذا النفى القاطع دون تحسب، واكتشفت ذلك حتى وأنا أكمل حديثى، وأصررت على المضى فيه».

«صمت الجميع لعدة ثوان وإذا بصلاح سالم يشحب وجهه ثم يتجه إلى فيما يشبه الاستجداء : «إذن قل لى ماذا ينبغى أن نفعل ؟» ثم استطرد : «سوف أضع اسمه على الجريدة فى قائمة رؤساء التحرير» . ولكنى كنت أهتم بشئون المعيشة أكثر من أى شىء آخر، ربما بسبب ظروفى ومسئولياتى المادية إذ قلت : لا بأس لكن الأهم من ذلك هو

أن تقرر له معاشا استثنائيا يمكن زوجته وأولاده من المعيشة الكريمة . ولعلى شرحت أننا - نحن الكتاب - لا نكاد نملك شيئا إلا مرتباتنا وعائداتنا البسيطة من الكتابة فى هذا المجال أو ذاك» .

«التفت صلاح سالم إلى مدير مكتبه وراح يملى عليه القرارات وأنا أقترح عليه اقتراحات أخرى متعلقة بتكريم إسماعيل الحبروك» .

«تحولت علاقتى بصلاح سالم بعد هذه الحادثة تحولا انقلابيا تماما، فأصبح فى الكثير من أمور الجريدة يستدعينى ليأخذ رأيى أو حتى ليدردش معى . ولكن حالته الصحية راحت تسوء إلى أن توفاه الله»

(٦٧)

ويتحدث أحمد عباس صالح عن الدكتور محمد البهى حديثا مهما، وإن لم يكن متشبعا بالحب فيقول :

«ومثل أى أصحاب رسالة أو أيديولوجية، كان فريق الشيخ عبد المجيد سليم يحارب من أجل هيمنة فكرته على للمجتمع المصرى والمجتمعات الإسلامية . وربما كان البهى أكثرهم تحمسا أو قل تعصبا، وكانت فكرته الأساسية أن على الإسلام أن يدحر الفكر الاشتراكى، ليس من باب الفلسفة فقط والجانب الإلحادى فى الفكر الماركسى، بل فى كل شىء بما فى ذلك نظم الملكية والنظام الاشتراكى بصفة خاصة . وكثيرا ما كنت أعتقد أن تحمسه للنظام الرأسمالى كان يجعله ذا حساسية خاصة تصل إلى درجة الاشمئزاز من فكرة العدالة الاجتماعية . والغريب أننى لم أصطدم معه كما أنه من جانبه كان يعاملنى بشكل جيد» .

(٦٨)

ويتحدث أحمد عباس صالح أيضا عن الأستاذ إسماعيل مظهر بما هو غير مشهور عنه :

«وكان إسماعيل مظهر شيخا وسيما مرحا وعصريا إلى أقصى درجة وكان يعرف أنه يدربنا على أن ننفتح على الحياة العصرية فيصحبنا إلى المحال ذات الطابع الأوروبى،

كما يستقبل بناته الشابات حين يمررن عليه ويعرفنا بهن، وكنّ على جمال رائع وكياسة وقوة شخصية، وكانت تربيتهن أوروبية بشكل كامل».

(٦٩)

بقى أن أشير فى نهاية مدارستى لهذه المذكرات إلى حقيقة أنها لن تحظى بكثير من عناية النقاد والمؤرخين، ذلك أن صاحبها كتبها على هذا النحو الذى يكون به سبحات غير متجانسة من دون أن يخضعها لتجربة واحدة، أو لمسار واحد، وربما أنه هو نفسه عبر عن هذا المعنى فى مقام آخر حين ذكر بكل وضوح أنه لم يكن واعيا بأهمية التاريخ والمذكرات الشخصية فى ظل اهتمامه بالأدب، وهو ما حدث على سبيل المثال حين فرّط فى جمع مذكرات رشيد عالى الكيلانى فى كتاب، بعدما كان قد تولى كتابتها فى مجلة «صباح الخير»:

«. . . استمر عملى فى صباح الخير، ولعلى كتبت مذكرات رشيد عالى الكيلانى، الزعيم العراقى الذى قام بانقلاب عسكرى ضد الاحتلال الإنجليزى أثناء الحرب العالمية الثانية، واتهم بأنه كان متفقا مع الحزب النازى. كان الرجل قد لجأ إلى مصر وأعطى سكنا فى مصر الجديدة. كنت أذهب إليه وأستمع له، ثم أكتب هذه المذكرات التى كانت أول كتابة لمذكرات هذا الرجل، لكننى لم أجمعها فى كتاب على أهميتها، وربما كان هذا بسبب اهتمامى فقط بما هو أدب».

. . . .

. . . .

والواقع أن الرجل قد قدم لنا معروفا كبيرا بنشره لهذه المذكرات على هذا النحو الذى نشرها به، وقد أدركها قبل أن تدركه الوفاة بقليل، وربما أنه لو تباطأ فى تقديم ما قدم ما كان لنا حظ فى أن نقرأ هذا الذى قدمه.

وقد عنيت الهيئة المصرية العامة للكتاب بنشر المذكرات على نحو جميل أتاح لها حجما مقبولا وانتشارا واسعا.

الباب الثامن

«من ذكريات معتقل سياسى»
مذكرات صليب إبراهيم

---

obeikan.com

obeikan.com

(١)

هذا كتاب ولد عزيزا على صاحبه، وقد أحس مؤلفه بالواجب تجاهه، وأحس بأنه قصر في تأليفه ونشره، فآثر أن ينشره على نفقته وأن يعنى به ما وسعته العناية، ومع أن موضوع الكتاب كان من الموضوعات المطروقة في كتابات كثيرين من كتابنا الذين عانوا مما عانى منه المؤلف؛ فإن الأستاذ صليب إبراهيم نجح في أن يقدم كتابًا ذا مذاق مختلف ـ وإن لم يكن في حاجة إلى هذا الاختلاف ـ لكنه بحكم نضجه كان قد أصبح واعيًا للوقائع التي يتناولها ودلالاتها المختلفة، وربما أن وعيه هذا يفوق وعي كثيرين من الكتاب المحترفين الذين تناولوا التجربة ذاتها من قبل.

والواقع أن صاحب هذه المذكرات لم يكتب ما كتب من أجل أن ينال به مجدًا أو ماضيًا أو أن يسجل به بطولة أو كفاحًا مع أن هذا وارد وليس بحاجة إلى نفي، لكن صاحبنا وجد أن من واجبه تجاه ذريته أن يسجل لهم هذه التجربة التي لم يقدر لهم أن يحيوها وهم أطفال، وهو فخور أمام نفسه بهذه التجربة، وفخور أمامهم بأنه كان من المجاهدين بفكرهم، وفخور أمامنا بأنه كان من زمرة هؤلاء الوطنيين الذين قاسوا الأمرّين على يد نظام الرئيس عبد الناصر.

نعرف من بدايات هذا الكتاب أن صاحبه انتمى إلى اليسار، وأن هذا الانتماء قاده قبيل الثورة إلى الاعتقال السياسي عقب حريق القاهرة، لكننا لا نعثر في الكتاب كله على ما يدل على تحول صاحبه إلى اليسار ولا على انجذابه إليه، ولا حتى على تشبعه به، وكأنما استيقظ صاحبنا فوجد نفسه يساريًا، أو وجد نفسه مصنفًا على أنه يساري .. وهكذا نجد أنفسنا نشاهد الفيلم من وسطه من دون أن تعود بنا الكاميرات

إلى ما قبل هذه اللحظة التى بدأت العمل عليها . . وكأنما هذا الكتاب جزء ثان من كتاب سابق يتناول حياة صاحبه قبل أن تندفع به الأحداث إلى المعتقلات .

(٢)

ومع هذا فقد نجح المؤلف فى أن يلخص حياته على هذا النحو الذكى الذى أوحى به عنوان مذكراته، وهو عنوان متواضع فى كل كلمة منه، حتى وإن أوحت بعض كلماته بغير التواضع، فالكلمة الأولى (من) تشير بوضوح إلى دقة التواضع وتواضع المعرفة. والكلمة الثانية (ذكريات) تشير إلى الاحتراز الطبيعى من أن تصور الذكريات على أنها مذكرات . والكلمتان الثالثة والرابعة تختزلان تاريخ صاحبهما فى صفة لم تدم إلا طيلة مدة الاعتقال، ومع هذا فإنها ألقت بظلها على حياته فيما بعد ذلك .

وكما أن الأستاذ صليب إبراهيم لا يحدثنا عن ماضيه فى اليسار ولا فى الانتماء إليه، فإنه لا يحدثنا عن السبب الذى دفع باسمه إلى كشوف المعتقلين، ولا على النشاط الذى جعله مطلوبًا مرة واثنين . . إنما هو معنى فحسب بالحديث عما حدث بعد اللحظة لا عما حدث قبلها .

(٣)

ولا يفتأ الأستاذ صليب إبراهيم يحدثنا فى نعومة وتواضع وسلاسة عن معتقداته فى ثورة يوليو بداية وعهدًا ونهاية، وهو يجاهر بما لا يجاهر به غيره من إيمانه بسيطرة الفاشية على فكر رجال الثورة، وهو يقول فى هذا المعنى :

«ولم يتنبه الشيوعيون وقتذاك إلى الهوية الفاشية للثورة، وهى هوية تكره الشيوعيين أكثر مما تكره الاستعمار» .

وهو يدلل على فكرته بما عبر عنه عبد الناصر نفسه فى خطبته يوم ٢٣ ديسمبر فى بورسعيد، عندما شن على الشيوعيين ـ الذين كانوا يدافعون عن بورسعيد قبل ١٩٥٨ عامين أثناء العدوان الثلاثى ـ أبشع حملة استعان فيها بكل التهم الباطلة والنعوت التى لم يسبق أن صدرت من قائد وطنى فى مصر، ثم لحق به الكاتب محمد حسنين هيكل

الذى أعلن فى مقاله بالأهرام أنه يتوجب على الشيوعيين أن يغلقوا أفواههم ويضعوا عليها أقفالاً من حديد وإلا . . (وكانت بعد ذلك هذه ال . . إلا)، وهو يمضى فيقول :

« . . . وسرعان ما ضرب عبد الناصر ضربته فى أول يناير ١٩٥٩ التى فاجأت الشيوعيين، ففى اليوم السابق فقط كان الدكتور عبد العظيم أنيس يتوقع أن يسود العقل فى النهاية، وأن الثورة سوف تدرك أنه لامصلحة لأحد فى استمرار هذا الشقاق بين القوى الوطنية . ومن هنا عندما بدأت المحاكمة الكبرى للشيوعيين التى قدمت فيها الثورة ٦٤ معتقلا إلى المحكمة العسكرية التى عقدت بالإسكندرية فى أكتوبر ١٩٥٩، لم يكن لدى الشيوعيين إدراك كامل بحقيقة العداء الذى كان يكنه عبد الناصر، وكانوا يتصورون أنهم يستطيعون أن يحققوا عليه انتصاراً فى ساحة العدل ونسوا أن العدل كان آخر ما يشغل ذهن عبد الناصر، فقد كان كل ما يملأ رأسه هو كرسى الحكم».

«وتم فعلا وبعدها بأسبوع واحد ما هدد به الأستاذ هيكل كل القوى الوطنية وبدلا من غلق أفواههم فقط، أغلقت عليهم أبواب الزنازين بالمعتقلات والسجون ». وبعد ١٤ صفحة يعبر صليب إبراهيم عن المعنى ذاته فيقول : «ماهذا ؟ هل هذه هى الدولة الثورية (الأحرارية) الوطنية الاشتراكية الديمقراطية . . أم أننا كنا نعيش مع محرقة هولوكوست وجستابو مصرى ليتم إبادة كل مفكرى هذا البلد وحتى لايعلو أى صوت على صوتهم . . صوت نيرون . . ثم يبررون ذلك، بأن الحاكم لم يكن يعلم . . ياسلام . . ألم يعلم بالقتل والإبادة وكما قال الشاعر إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم».

(٤)

ومع هذا فإن صليب إبراهيم يتعاطف تعاطفًا غير خفى مع الفلسطينيين الذين زجت بهم الثورة فى المعتقلات مشيراً إلى تجربته فى مزاملة معين بسيسو، وعبد القادر ياسين، وغيرهم من معتقلى غزة الذين قدر له أن يزاملهم حين امتد النظام الناصرى باعتقالاته إلى الفلسطينيين فى غزة حين كانت واقعة تحت الإدارة المصرية :

«وانخرط الرفاق الفلسطينيون معنا فى الحياة لهم ما لنا وعليهم ما علينا وكلنا فى

المهانة سواسية . وكان للشاعر الفلسطينى الكبير تواجده ليلاً . . عندما تغلق الزنازين ويعم الظلام وينطلق الشاعر من خلف الأبواب ببعض قصائده . . التى أشعلت الحماس . وبدأ التنافس بين الشعراء ، يرد عليه محسن الخياط وفؤاد حداد وغيرهم بما تجود به قرائح الغير» .

«وقد تبين أن معين بسيسو اعتقل مع خطيبته ، وقبض أيضًا على إخوته الثلاثة ، فبكت الأم لهول ما أصابها فى بنيها ، وقال لها معين بشعره :

لك الجماهير أبناء بلا عدد

فلست وحدك يا أمى بلا ولد

ومن أقواله المأثورة التى قيلت :

أنت إن سكت مت

أنت إن نطقت مت

فقلـــــها ، ومت

ورد عليه البلبل فؤاد حداد بقصيدته :

الموت طليق الناب

يفـــرق الأحباب

الموت على الأبواب

ســادد علينا الدرب

الشرد والزمهرير والدوامات توب لى

عديت صحارى وليالى مهلكة تبــلى

وسوس فى صدرى شيطان الراحة قال تب لى

م الغــربة بعد الشقا . . أنا قلت يا شــيطان

دا الحــب أوطان . . وكأن الحــب مكتوب لى»

(٥)

ويحرص صليب إبراهيم على الإشارة إلى أن معين بسيسو كان يرفض (وهو فى المعتقل) أن يقرأ للمعتقلين قصائده التى أشاد فيها بالتجربة الناصرية قبل أن يقع أسيراً للاعتقال السياسى الظالم.

«ولقد حاول الزملاء من تنظيم (حدتو) أن يسمعوا من معين بسيسو بعض قصائده التى كانت تتحدث عن أمجاد عبد الناصر، ولكنه رفض ذلك، وكيف والبصمات على جسده توضح نهاية هذه البطولات!!».

(٦)

كذلك فإن صليب إبراهيم يبدى رأيه الواضح فى إعدام خميس والبقرى فى بداية عهد الثورة، وهو يقرن هذا الرأى برأى مماثل فى الإهانة التى حرص العهد الجديد على أن يلحقها بعدلى لملوم كرمز من رموز الإقطاع أو العائلات الكبيرة .

ويبدو صليب إبراهيم متأثرًا كل التأثر بالمصير الذى لقيه فرج الله الحلو، سكرتير الحزب اللبنانى، الذى أذيب جسده فى الأحماض، وهو يرى أن النظام الناصرى لجأ بعد ذلك إلى عملية الإذابة المعنوية والجسدية البطيئة حتى لا تفوح رائحة الجريمة:

«ومع هذا فإن المصادفات القدرية (أوعلى حد تعبير صليب إبراهيم : الرياح التى تأتى بما تشتهى السفن) جعلت «دماء شهدى عطية العطرة» تسيطر على يوغسلافيا وتوقف مخطط إبادة اليساريين».

«ولم يكن البطل شهدى هو أول من اغتيل ضربًا وقتلاً، بل كان قد سبقه الشهيد محمد عثمان والشهيد الدكتور فريد حداد . قتل شهدى عطية فى ١٥ يونيو ١٩٦٠، وعندما تناثرت الأنباء ووصلت إلى أسرته بنشر نعى وفاته بجريدة الأهرام فى ٢٠ يونيو ١٩٦٠ فى نعى عجيب أثار انتباه كل قراء الأهرام (وكيف مر النعى على الرقابة فى صفحات الوفيات!!)، يتصدر النعى التالى:

«شهدى عطية الشافعى»

«عطية الشافعى وأسرته ينعون بعد أن واروا عزيزهم فخر الشباب الأستاذ شهدى عطية الشافعى مقره الأخير ويقولون لمن واساهم : لن نشكركم فالشكر لكم فى هذا الموقف نكران لوفائكم . وشهدى وذكراه ملك لكم وأمانة فى ضمائركم . . أما أنت يا عزيزنا الغائب فإننا نرثيك بهذا :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر

تردى ثياب الموت حمراً فى دجى ... لها الليل ألا وهى من سندس أخضر

وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

(وهى من قصيدة للشاعر أبى تمام)

«وتناقلت وكالات الأنباء برقيات أسرته ووصلت أخبارها إلى (بريونى) بيوغسلافيا حيث كان عبدالناصر يشهد مع الرئيس تيتو جلسة لمجلس النواب اليوغسلافى وفوجئ بالمجلس يقف حداداً على استشهاد شهدى عطية الشافعى، واحتج أحد النواب اليوغسلاف وقال: مصر تتحدث عن الاشتراكية والديمقراطية وهم يقتلون رموز الاشتراكية والديمقراطية ! !».

«ورد عبدالناصر : لم نقتل أحداً . وقدمت له برقيات وكالات الأنباء العالمية، والتى تعلن عن مقتل شهدى عطية من جراء التعذيب على باب أوردى ليمان أبو زعبل فى مصر . وكانت مفاجأة قاسية لعبد الناصر على مستوى عالمى، فأخطر القاهرة ووزير الداخلية بوقف التعذيب وإجراء التحقيق فى ذلك . ومن هنا توقف التعذيب وكان دم الشهيد ضوء أمل وطمأنينة لكل سجناء الرأى وكان الثمن باهظًا للغاية».

(٧)

لهذا السبب نرى صليب إبراهيم حريصًا على أن يضمن مذكراته ذلك النص الذى يعتز به وبالبحث عنه و بعثوره عليه، وهو نص قصيدة « الشهيد » للشاعر محمد مهدى الجواهرى بكل ما تتضمنه هذه القصيدة من المعانى السامية والقيم الثورية . .

وقد فعل الشيء نفسه حين نقل للقارئ صورة من نعى الأسرة الذى نشر فى الأهرام عقب استشهاد شهدى عطية الشافعى متعجبًا ومذهولاً، كما ذكرنا، من غفلة الأهرام عن الانتباه إلى ما تضمنه هذا النعى من دلالات ومن أبيات للشاعر العربى العظيم أبى تمام.

(٨)

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب كله يجد القارئ نفسه فى مواجهة كاتب وطنى قادر على الحكم على الأمور وعلى التمسك بصواب حكمه على الأمور، وعلى دفع ثمن هذا الحكم من نفسه وبدنه وعلاقاته، وهو يبدأ سلسلة أحكامه التى ربما تقترب به من الحرص على أن يكون واحدًا من ملاك الحقيقة المطلقة !! منذ الصفحة الأولى للكتاب حين يضع جملتين بتوقيعه، يقول فى الأولى: «٢٦ يناير ١٩٥٢ حرق الملك فاروق القاهرة». ويقول فى الثانية: «أول يناير ١٩٥٩ أحرق النظام كل قوى التقدم واليسار»..

هكذا يقول صليب إبراهيم وكأنه يبخل على عبد الناصر بالمسئولية عما يراه مسئولاً عنه!! وعما أنفق ساعات كتابه فى إثباته.

(٩)

ومع أن صليب إبراهيم يعادى سلوكيات ثورة ٢٣ يوليو تجاه الشيوعيين، فإن صليب إبراهيم لا يقف متحفظًا على علاقة الثورة بالإخوان، وإنما هو حريص فى كل مناسبة على إدانة الطرفين بما يستحقان (فى نظره) وبما لا يستحقان (فى فكره كذلك). وهو يقف مذهولا (من داع للذهول) أمام تحول بعض رموز اليسار إلى فكر الإسلام السياسى وكأن التحول الفكرى أمر غير وارد على الإطلاق.

(١٠)

ويحفل كتاب الأستاذ صليب إبراهيم بحديث ممتع عن شخصيات قدر له أن يعرفها وأن يزاملها، ولعل أهم هذه الأحاديث هو تعريفه الجميل والوافى بشخصية صديقه شوقى عبد الحكيم الذى يصفه فى بداية الكتاب بأنه شخصية نادرة مملوءة بالحب

والسياسة والثقافة، وقرب نهاية الكتاب يقدم صورته بقدر كبير من التفصيل، فيقول ضمن ما يقول :

«وكان أول كتاب له (أدب الفلاحين) كتب مقدمته الدكتور مصطفى مشرفة . وكانت من أجمل دراساته فى صباه أيضًا، والتى عاصرت كتابتها وهو فى مقتبل عمره، عن العوالم وأهل المزازيك والفن الشعبى فى محافظة الفيوم . فقد سجل حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم فى دراسة واقعية فنية تبين أحوال قطاع من حياة فئة بعض المهمشين فى الدنيا».

«وقد سار على الدرب الفكرى والبحثى، فكتب وبحث ودقق، وكانت حصيلة كتبه أكثر من أربعين كتابًا طبعت بمصر وبيروت، وتحوى موسوعة الفلكلور والأساطير العربية . وكتب أيضًا ١٨ مسرحية مستلهمة من التراث الشعبى، منها : شفيقة ومتولى، المستخبى، حسن ونعيمة، خوفو، الشبابيك، الأعيان، مولد ملك عجوز، أوكازيون، رمسيس، وغيرها . . وصدر له العديد من الروايات، مثل : أحزان نوح، دم بنى يعقوب، الموت والتفاهة، الضحك والدمامة، إستراكون عربية أو هجائيات عربية».

«ترجم له عملان إلى الإنجليزية هما : الأميرة ذات الهمة وبيروت البكاء ليلاً. أعد أول باليه شعبى من ثلاثة فصول لفرقة رضا للفنون الشعبية، وبدأ شوقى عبدالحكيم العمل عام ١٩٦٢ محررًا أدبيًا بجريدة الأهرام ونشر بها بعض النصوص المسرحية التى عثر عليها فى محافظة الفيوم من مآسى و مرتجلات، ثم التحق بجريدة الأخبار عام ١٩٦٤».

«فى عام ١٩٧٨ سافر إلى لبنان ومكث بها خمس سنوات، وشاهد الاجتياح الإسرائيلى لبيروت، وكانت قصته الرائعة «بيروت البكاء ليلاً» ».

«انتقل إلى لندن بعد ذلك واستمر هناك حتى عام ١٩٨٩، وعمل أثناءها فى الصحف العربية، وقام بتحقيق دراسة عن كثير من الملاحم والسير الشعبية مثل، الزير السالم، سيرة بنى هلال، وعنترة، والأميرة ذات الهمة . واعتمد فى تحقيقه على

مخطوطة بالمتحف البريطانى تقع فى ٨ أجزاء، وتصل صفحاتها إلى أكثر من ٢٠ ألف صفحة».

«وفى السنوات الأخيرة بدأ ينشر مقالاته فى صحيفة الأهرام كل يوم أحد وتحت عنوان (تراث ومأثورات)، ويخصص كل مقال فيها لجزء من دراسات الأدب والفلكلور، وجزء ثان فى نفس المقال عن مشاكل الحياة اليومية ويتابع فيها ما يحدث من تطورات فى المجتمع».

«ومن مسرحياته التى عرضت على خشبة المسرح، مسرحية شفيقة ومتولى، من إخراج كمال عيد للموسم المسرحى ١٩٦٤/ ١٩٦٣ بمسرح الجيب، ومسرحية حسن ونعيمة، من إخراج كرم مطاوع، موسم ١٩٦٦/ ١٩٦٥ بمسرح الجيب، ومسرحية الملك معروف، إخراج سمير العصفورى، موسم ١٩٧٥/ ١٩٧٤، ومسرحية أوكازيون، إخراج المخرجة الرائعة الدكتورة ليلى أبوسيف أستاذة المسرح، موسم ١٩٧٧/ ١٩٧٦ للمسرح الكوميدى، وتمت إعادة مسرحية شفيقة ومتولى، إخراج أشرف زكى، موسم / ١٩٩٧ ١٩٩٨ مسرح الغد . وكانت آخر مسرحياته التى عرضت على مسرح الطليعة عام ٢٠٠٣ مسرحية «بمالى أفعل مابدالى».

« تم تكريمه فى الدورة الوحيدة التى أقيمت فى مصر تحت عنوان «الملتقى العربى». كما تم تكريمه فى الدورة الخامسة لمهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى .

ومن مدوناته عن «الجمل» رمز الصبر والمشاق .

«جمل المحامل»:

جمل المحامل برك — وكان حاله الأعود وسند
يقولو يابدر خدنى معاك — وأنا أكتب لك حجاب وسند
يقوللو لفيت الكون — ملقتش صدر حنين وسند
يفوت الأعود على الجمل — يقوللو يامامهابيل تقول وطول
شى من سو بخت الجمل — جلله الأعود وسند

«خطابى» :

لو كــان ليــه جــمـــل		فى فن الشيـل خطـابـى
ما كــان غــراب اليـــن		حــاربنــى و خطــابـــى
يا فـــــادى قلبـــى		أثنــــين خطـــابـــى
سايق عليـك النبى يارب		يا خالــق الــلبن فى الــبز
تقوم البكـر مثـل عـاداته		بحسنه راحت ليالى الهـنا
وآدى ليــالـــى الغلــب		ســـد خـــطـــابـــى

«ومن المواويل»

أنا دخــلت جـوة البلد سـراً أريد النـــاس
لقيت ابن العـلالى وطى والندل فـوق الناس
أنا عـاشرت كل الملل حـتى الغـجـر يا نـاس
إحنـــا سـمـعـــنا مثـل من كـبــار النـــاس
النـــاس بالنـــاس كـــرهونـــى ولاد أمـــى
يا دنيـــا الشـــوم يكفـيــك هزل بزيـــادة
وإن خس مــالــى حــدايــا أحــبــاب بزيــادة
نزلت سوق الدلالة بشترى صبر وزيـادة
ورضـيــت بحكمك علىَّ يــارب بزيــادة »

(١١)

وهو يثنى كثيراً على بعض زملائه فى المعتقل وفى مقدمتهم المحامى يوسف حلمى، وهو يذكرله حبه لسيد درويش، ويثنى كثيراً على الشاعر فؤاد حداد، ويورد له كثيراً من نصوصه، ويثنى على الدكتورحمزة البسيونى، الطبيب الإنسان، وهو فى فقرات متباعدة يذكر بالثناء كلا من ألفريد فرج، وحسن فؤاد، وعبدالستار الطويلة، ومحمد حمام، وزهدى، وصلاح حافظ، ومهندس الديكور مصطفى كامل .

وهو حريص أيضًا على الإشارة إلى نشاطه الصحفى فى المعتقل من خلال جريدة «عنبرإلى الأبد» التى صدرمنها عددان، وهى صحيفة حائط، كما أنه حريص على أن يضمن كتابه صورًا للحوارات التى أجراها فى المجلة التى قام بتحريرها للشركة التى قدر له أن يعمل فيها بعد فترة من خروجه من الاعتقال .

وهو فى هذا المجال حريص على أن يشير إلى سبقه الصحفى، حين سجل حادثة انتحار فى السجن لمسئول كبير، وأنه بعث بما سجله إلى الكاتب حلمى سلام، فنشر رسالته فى بريد المصور، وأبرزها بما يليق بها . . ومع هذا فإنه يعترف بأنه لايذكر اسم المنتحر!!

كذلك فإن الحاسة الصحفية الغالبة على صليب إبراهيم، تجعله حريصًا على أن يلتقط الأحداث الدرامية فى فترة الاعتقال، وأن يشير إليها حتى لو كانت إشاراته سريعة، ومن هذه الحوادث قصة هروب إبراهيم هرارى من الواحات بطائرة إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا، وهو يرويها على النحو التالى :

« وكان الزميل مندوب توزيع الخبز شخصية متفردة له سحنة أجنبية، لكنه مصرى، وهو الدكتور (إبراهيم أرنست هرارى)، دكتوراه فى القانون الدولى وصاحب مكاتب محاماة عالمية فى مصر وفرنسا، ممشوق القوام، متوسط العمر، لايتحدث كثيرًا مع أحد ولايشترك فى مناقشة ما أو إبداء رأى أو حديث سياسى بوجهة نظر مختلفة».

«وفجأة اختفى الزميل الدكتور هرارى ومعه صديق له من السجن، واكتشف اختفاؤه بمعرفة الإدارة فى ثالث يوم، وتبين أن سيارة مريبة انتظرته على بعد مسافة طويلة من السجن وأخذته إلى مطار الواحات ليركب طائرة تقله إلى ميناء الإسكندرية ويستقل باخرة إلى فرنسا ومن هناك أعلن وصوله».

«ورغم مرور أكثر من ربع قرن من الزمان لم يعرف وحتى الآن كيف تم ذلك وبمعونة من؟! وما هى الخطة المحكمة التى رسمت للتنفيذ؟ . وكتب الكثير من الزملاء عشرات الكتب ذاكرين هذه الحادثة، ولم يصل منهم أحد إلى رأى أو معلومة تكشف حل هذا اللغز».

(١٣)

وفى هذا السياق نفسه يروى صليب إبراهيم موقف أحد ضباط السجن المشهورين من رفض القيام بالتوقيع على خروج المعتقلين بعد تجربة سابقة له .

« . . . وأصدر (همت) أوامره بالتحرك فى انتظام كطابور العبيد إلى العمل حفاة . . عراة . . منكسى الرءوس . وعند الباب الخارجي لسجن الواحات، أصدر همت أوامره لمأمور السجن بالتوقيع على خروج المعتقلين من الباب الرئيسى كإجراء روتينى، وقام المأمور بإصدار الأمر للضابط عبدالعال سلومة بالتوقيع فى دفتر الأحوال . . وكانت المفاجأة برفض الضابط التوقيع على ذلك . . وهنا بدأ القلق الفعلى فى عقولنا هل هذا الطريق سيؤدى إلى مجزرة بشرية أخافت الضابط من التوقيع . أو ماذا يراد بنا؟!» .

«وسمعنا تمتمة الضابط بأنه لن يكرر ما حدث منه سابقًا فى عام ١٩٥٦؟ عندما كان زكريا محيى الدين وزيرًا للداخلية، وأصدر أمرًا شفويًا بالاعتداء على أعضاء جماعة الإخوان المسلمين فى أوردى ليمان أبو زعبل، وفى هذا الاعتداء قتل بعضهم إلى جانب تكسير عظام العديد منهم، وكان قائد هذه المعركة الضابط عبدالعال سلومة، وعندما بدأ التحقيق فى هذه المجزرة، تنصل كل مسئول عنها، وتم توقيع الجزاء على هذا الضابط، لأنه لايحمل أمرًا كتابيًا بالتنفيذ . . وتم نقله إلى الصعيد، وكان درسًا له بأن النظام قد يستغنى عن معاونيه بعد أن يمتهنهم، وأنه لن يكرر هذا الخطأ . وطلب همت من المأمور التوقيع بدلأمنه، ووقع» .

(١٤)

ويروى صليب إبراهيم تجربة أسرته الصغيرة فى محاولة معرفة مصيره، بعد ما أعلن راديو وارسو وفاته فى المعتقل .

«أذاع راديو وارسو اسمى ضمن الذين قتلوا بالصحراء أثناء العمل، وأذاع خبر وفاتى خارج السجن، حتى وصل إلى زوجتى السيدة العظيمة ببلدتنا بمدينة الفيوم . فكتبت شكوى موقعة باسم أكبر أبنائى جهاد خمس سنوات وقتذاك، رسالة مملوءة بألم الطفل نحو شوقه لرؤية والده » .

«وأرسلت الرسالة شخصياً إلى السيدة حرم رئيس الجمهورية».

«وبعد فترة (كما علمت بعد خروجى) وصل إلى منزل الأسرة صول من بندر الفيوم لاستدعاء الشكوى، وكانت السخرية بأن صاحب الشكوى طفل صغير .. وصحبته أمه إلى مكتب مأمور البندر ليخطرها بالرد .. وهو .. لم يستدل على عنوان المعتقل المذكور وطلب توقيعها بالعلم !!»

ويستطرد صليب إبراهيم، فيقول :

«ويبدو أن هذا أثار بعض المياه الراكدة بطلب توقيع الكشف الطبى على صحتى. وهل أنا عايش أم لا ؟!»

«واستدعيت للعيادة الرسمية بالسجن لأرى السيد طبيب السجن. وهو لايختلف كثيراً عن بعض السجانين غلاظ القلب. وطلب وزنى الذى وصل إلى ٤٠ كيلو جراماً فقط بالتمام والكمال، وعندما عاد إلى سجل النزلاء لحظة حضورى والذى يثبت فيه وزن كل منا، للمحافظة على صحتنا خوف زيادة أو نقص الوزن، وجد أمام خانة اسمى أن وزنى كان ٦٠ كيلو، أى بانخفاض ٢٠ كيلو فى فترة محدودة».

«واحتار النطاسى البارع ماذا يصرف لى من علاج، حيث لاعلاج لديه غير الشاش والميكروكروم لزوم الجروح والإصابات، أو بعض أقراص الأسبرين. وتفتق ذهن الطبيب الرسمى عن روشتة عجيبة تصرف من للخبز وليس من الصيدلية (يصرف للمعتقل رغيف واحد لمدة أسبوع)، وخلال الأسبوع كنا نسعد بهذا الرغيف، فهو ثروة رائعة أشاع البهجة فى الغرفة التى تحوى حوالى 15زميلاً، كنت أوزع لقمة صغيرة وبمقياس محدد للزميل الذى يرغب، وكان من نصيب الزميل الدكتور شكرى عازر، والدكتور محمود القويسنى(رحمه الله) نصيب أكبر قليلاً، لأننا نفترش البرش سوياً، ونتسامر ليلاً أثناء القلق».

(١٥)

أما التجارب الإنسانية فى هذا الكتاب فثرية بالتعبير الدقيق عن ملامحها حتى إن توارت مع الإحساس بوطأة التعذيب وقسوته، وعلى سبيل المثال نرى المؤلف يعبر عن خوفه من النوم على السرير بعد خروجه من المعتقل :

«وفى الليل وضحت مشكلة طريفة لقد حاولت النوم على سريرى للاسترخاء والراحة، ولكنى فوجئت بعدم استطاعتى ذلك، أحسست أثناء غفوتى بالسقوط من السرير للأرض فأصحو مذعوراً، لأنه طيلة السنوات السابقة كنت أنام أرضًا، ويبدو أن الإحساس بالجاذبية الأرضية من الأماكن المرتفعة عن الأرض ولفترة طويلة كان الإحساس بالخوف من السقوط يلازم الإنسان، ورغم التصاقى بالحائط عند النوم ووضع وسائد بجوارى خوفًا من السقوط، لكن كان الجسد قد تعود على النوم أرضًا. ومشكلة طريفة أخرى . . أن طفلى الصغير (ماجد) ثلاث سنوات - والذى ولد بعد اعتقالى بشهور - قد التصق بوالدته فى نومها وقال ببراءة محببة: أنا أنام فى حضن ماما، إنت صغير زيى وعاوز ماما، ماما بتاعتى أنا بس . .

أما أطفالى الآخرون (جهاد) ٦ سنوات و(أمل) ٥ سنوات، فقد تقبلانى ببساطة، لأن والدتهم الزوجة العظيمة كانت دائمًا تحدثهما عنى، وكانت تريهما ملابسى فى دولابى يتحسسونها ويشمونها ويعبثون بها . . هدوم بابا، وحاجات بابا، ودولاب بابا، وصور بابا، الذى سيعود من سفره قريبًا . .».

(١٦)

وهو يثنى الثناء كله على زوجته، وكفاحها، ووطنيتها : «استدعاها لأكثر من مرة الضابط عبد العزيز شاكر رئيس المباحث العامة بالفيوم وحذرها، ثم هددها بوقف نشاطها والاتصال بعائلات المعتقلين وفرض رقابة بوليسية على تحركاتها، وحملت بصلابة وشجاعة وشرف ووفاء عبء غياب الزوج وتعرضت لأزمات كثيرة، فكانت فعلاً الزوجة والمرأة الفاضلة وبمحبتها وتدينها العميق».

«قامت بدور كبير ومميز أثناء عدوان ١٩٥٦ على الوطن واشتركت وساهمت بجهد ملحوظ فى التعبئة السياسية والوطنية بمحافظة الفيوم».

«رحلت فجأة من الحياة فى سلام وطمأنينة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٤ تاركة سيرة عطرة، وحقًا السيرة الطيبة أطول من العمر».

كما يحرص صليب إبراهيم على أن يسجل أسماء السيدات السياسيات اللاتى

اعتقلن فى سجن القناطر : «وكان سجن النساء يحوى حوالى ٣٥ سيدة وآنسة من فضليات النساء وزوجات بعض المعتقلين السياسيين . . مدام ثريا زوجة المعتقل فوزى الحبشى، سعاد الطويل خطيبة الدكتور شكرى عازر، السيدة أسماء حليم زوجة الزميل أسعد حليم، والسيدة ثريا أدهم زوجة الزميل حلمى يس، وسميرة الصاوى زوجة الزميل أحمد طه، وليلى شعيب خطيبة الزميل رجاء طنطاوى، والرسامة إنجى أفلاطون خطيبة الدكتور فوزى منصور، وأخريات لا تسعفنى الذاكرة العجوز بأسمائهن، وأعتقد أن هذه أول مرة فى تاريخ مصر يتم اعتقال سيدات سياسيات فيها».

(١٧)

ونحن نجد صليب إبراهيم حريصًا أشد الحرص على رواية قصة محاكمة مصطفى طيبة، الذى حكمت عليه الثورة بالسجن، لمحاولة قلب النظام الملكى !!، وهو يجعل عنوان الفصل الذى أورد فيه هذه القصة "طرائف أم عجائب أم غرائب"، و هو يروى القصة بطريقة مؤثرة:

«تم القبض عليه قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأسبوع تقريبًا وفى عهد الملك فاروق، وبتهمة إدارة تنظيم للحزب الشيوعى المصرى والعمل على قلب نظام الحكم بالقوة . . . إلخ، وكان من المفروض أن الثورة أنهت العهد الملكى بطرد الملك فاروق من مصر، وبذلك تلغى التهمة محل القضية المذكورة، لأن رجال الثورة قاموا فعلاً(بعدل) نظام الحكم بدلاً من قلبه، ولكنه استمر فى سجنه لنظر قضيته وللاستمرار فى سريانها » . .

«وصدر قرار خاص بأن من لم يفرج عنه عليه أن يقدم تظلمًا بذلك، وتشكلت محكمة خاصة، وبعد عدة جلسات رفضت هذه المحكمة الإفراج عن مصطفى طيبة وزملائه فى القضية، ووضحت فى حيثيات الحكم الذى صدر منها أن الشيوعيين ليسوا سياسيين وإنما هم اقتصاديون !! وأنهم يصبحون سياسيين فى حالة واحدة».

«واستمرت المحاكمة مدة شهرين جلسات صباحية ومسائية، وقبل أن تصل إجراءات المحاكمة إلى نهايتها بأيام، تم القبض على رئيس المحكمة القائمقام أحمد شوقى عبدالرحمن، وتم القبض على محامى المتهم الأستاذ سليمان غنام !».

«وأعتقد أنه لاسابقة تاريخية لمثل هذا الحدث، أن يقبض على رئيس المحكمة، والمحامى، والمتهم !! وإلى السجن مصيرهم جميعًا، وتوقفت المحاكمة قليلاً إلى أن يتم تشكيل هيئة محكمة أخرى تنفذ ما يطلب منها، وفى أكتوبر ١٩٥٤ تشكلت هيئة المحكمة برئاسة اللواء الدجوى، وهو ـ لمن لم تسعفه الذاكرة ـ كان حاكم غزة أثناء نكسة ١٩٦٧، وقام بتسليم قطاع غزة للإسرائيليين مستسلمًا ووقع على الهواء مباشرة مراسم التسليم، فيا حسرتاه».

«وفى شهر يناير ١٩٥٤ أعلنت الأحكام بالسجن على مصطفى طيبة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة بتهمة قلب نظام الحكم الملكى، وهى التهمة التى قبض عليه من أجلها فى عهد الملك فاروق قبل الثورة».

«وأمضى مصطفى طيبة مدة حكمه بالتمام والكمال، وبدلاً من أن يفرج عنه بعد انتهاء فترة العقوبة، انتقل بقوة قرار الاعتقالات التى يصدرها النظام من سجين إلى معتقل ـ والفرق كبير ـ صحيح أنه قد استبدل ملابس السجن من اللون الأزرق إلى ملابس المعتقل باللون الأبيض، وخسر كل المكاسب التى كان يتمتع بها السجين، لازيارات، لاخطابات، لاطرود، لاتعامل مع الكانتين إلا فى حدود مبلغ خمسين قرشًا في الشهر».

(١٨)

وفى المقابل، فإن صليب إبراهيم يحرص على أن يثبت انتقاداته لرموز الطغيان الذى عانى منه، وفى مقدمة هؤلاء، اللواء إسماعيل همت ضابط مصلحة السجون الشهير، الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد ؛ فإذا بصليب إبراهيم ينفر منه ويحرص على أن يعبر له عن احتقاره !!

. . . .

ولست أظننى أجد ختامًا لحديثى عن هذه المذكرات بأفضل من هذا السلوك الذى سلكه صليب إبراهيم حين أتاحت له حريته أن يعبر بصدق عن مشاعره الحقيقية تجاه جلاديه.

ببليوجرافيا المذكرات التى تناولناها فى هذا الكتاب

الباب الأول : ذكريات وراء القضبان، ألفريد فرج، تحرير وتقديم نبيل فرج رؤية للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٧ .

الباب الثانى : مجرد ذكريات، د. رفعت السعيد ٤٦٨ ـ الناشر دار المدى للثقافة والنشر ـ دمشق ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٩٩٩ .

الباب الثالث : مجرد ذكريات ـ د. رفعت السعيد ـ الجزء الثانى، الناشر دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠ .

الباب الرابع : مسيرة حياتى حتى ١٩٦٤ ، محمد يوسف الجندى، دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠ .

الباب الخامس : مسيرة حياتى الجزء الثانى ـ محمد يوسف الجندى، دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠١ .

الباب السادس : مشيناها خطى . . سيرة ذاتية، د. رءوف عباس ، دار الهلال، ٢٠٠٤ .

الباب السابع : عمر فى العاصفة، أحمد عباس صالح الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ .

الباب الثامن : من ذكريات معتقل سياسى ـ صليب إبراهيم، على نفقة المؤلف، ٢٠٠٧ .

قائمة ببليوجرافية بالمذكرات التى تناولناها
فى مجموعة كتب هذه السلسلة

١ ـ مذكرات وزراء الثورة
دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤ ـ رقم الإيداع ١١٣٤٦ / ١٩٩٤ ISBN:977-09-0253-5

- **كمال حسن على (الفريق أول)**

مشاوير العمر، دار الشروق،

- **سيد مرعى (المهندس)**

أوراق سياسية، ٣ أجزاء، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٨.

- **عبد الجليل العمرى**

ذكريات اقتصادية وإصلاح المسار الاقتصادى، دار الشروق، ١٩٨٦.

- **ثروت عكاشة (الدكتور)**

مذكراتى فى السياسة والثقافة، مكتبة مدبولى، ١٩٨٧.

طبع بعد ذلك فى دار الهلال، وفى دار الشروق.

- **إسماعيل فهمى**

التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط، مكتبة مدبولى، ١٩٨٦.

- **عثمان أحمد عثمان (المهندس)**

صفحات من تجربتى، الطبعة الثالثة، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨١.

- **ضياء الدين داوود**

سنوات مع عبد الناصر، دار الموقف العربى، ١٩٨٤.

طبع بعد ذلك ضمن كتاب مذكرات ضياء الدين داود «سنوات عبد الناصر وأيام السادات»، دار الخيال، ١٩٩٧.

- **ضياء الدين داوود**

ما بعد عبد الناصر، دار الموقف العربى، ١٩٨٦.

طبع بعد ذلك ضمن كتاب مذكرات ضياء الدين داود «سنوات عبد الناصر وأيام السادات»، دار الخيال، ١٩٩٧.

● أحمد خليفة (الدكتور)

الرأى والرأى الآخر كلمات وراء الأحداث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ .

● عبد الوهاب البرلسى (الدكتور)

كنت وزيرا مع عبد الناصر، دار المستقبل العربى، ١٩٩٢ .

● حسن أبو باشا (اللواء)

فى الأمن والسياسة، دار الهلال، ١٩٩٠ .

٢ـ مذكرات المرأة المصرية

دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٥ ـ رقم الإيداع ١٠٥٥١/ ١٩٩٥ ISBN:977-09-0311-6

● د عائشة عبد الرحمن الدكتورة بنت الشاطئ

على الجسر، الأعمال الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ .

● جيهان السادات

سيدة من مصر، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٧ .

● لطيفة الزيات (الدكتورة)

حملة تفتيش أوراق ذاتية، كتاب الهلال، العدد ٥٠٢، دار الهلال، أكتوبر ١٩٩٢ .

● زينب الغزالى

أيام من حياتى، دار الشروق، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٩٥ .

● إنجى أفلاطون

مذكرات إنجى أفلاطون، تحرير وتقديم سعيد خيال، دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ .

● احتدال ممتاز

مذكرات رقيبة سينما عاما، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ .

● إقبال بركة

يوميات امرأة عاملة، سلسلة اقرأ، العدد٥٨١، دار المعارف، ١٩٩٣ .

● نوال السعداوى (الدكتورة)

مذكرات طبيبة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، ١٩٦٥ .

● سلوى العنانى

بعض أوراقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧ .

● ثريا رشدى

رشاد رشدى بالاشتراك مع آخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ .

٣ـ الثورة والحرية مذكرات المرأة المصرية

وهى طبعة موسعة من الكتاب السابق شملت جميع أبوابه

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٤ـ رقم الإيداع ١٨٦٨/ ٢٠٠٤ -ISBN:977-5979-0253-39

٤ـ مذكرات الضباط الأحرار

دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦ـ رقم الإيداع ٧٥٤٠/ ١٩٩٦ ISBN:977-09-0337-X

- **محمد نجيب**

كنت رئيسا لمصر ـ مذكرات محمد نجيب، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٤

- **عبد اللطيف البغدادى**

مذكرات عبداللطيف البغدادى، المكتب المصرى الحديث، ١٩٧٧ .

- **خالد محيى الدين**

والآن أتكلم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٢ .

- **عبد المنعم عبد الرءوف**

أرغمت «فاروق» على التنازل عن العرش، الزهراء للإعلام العربى، ١٩٨٨ .

- **جمال منصور**

فى الثورة والدبلوماسية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٩ .

- **محمد عبد الفتاح أبو الفضل**

كنت نائبا لرئيس المخابرات، (كتاب الحرية ١١)، دار الحرية، ١٩٨٦ .

- **حسين محمد أحمد حمودة**

أسرار . . . حركة الضباط والإخوان المسلمون، صفحات من تاريخ مصر الفترة من ٤ فبراير ١٩٤٢ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، الزهراء للإعلام العربى، ط ١ ، القاهرة، ١٩٨٥ ، ط٣، ١٩٨٩ .

٥ـ نحو حكم الفرد: الثورة فوق الديمقراطية

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٣ـ رقم الإيداع ١٠٠٣٥/ ٢٠٠٢ ISBN:977-7959-29-3

طبعة موسعة من الكتاب السابق شملت جميع أبوابه ما عدا الباب الثانى الذى تم تناوله بتوسع فى كتابنا «عبد اللطيف البغدادى . . شهيد النزاهة الثورية»

٦ـ مذكرات الهواة والمحترفين.. فن كتابة التجربة الذاتية

دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧ـ رقم الإيداع ٨٤٨٥/ ١٩٩٧ ISBN:977-09-0389-2

- **جمال ماضى أبو العزايم (الدكتور)**

مواقف مع الطب النفسى فى مصر ١٩٤٣ ـ ١٩٩٦ ، مؤسسة دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦

- **حامد طاهر (الدكتور)**

ديوان حامد طاهر، تجربتى مع الشعر، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨٤ .

- **سمير حنا صادق (الدكتور)**

رحيق السنين ، كتاب الأهالى، رقم ٥٥، يناير ١٩٩٦ .

- **عبد الله عبد البارى**

خواطر فى بلاط صاحبة الجلالة، المكتب المصرى الحديث، القاهرة، ١٩٨٤ .

obeikan.com

● علاء الديب

وقفة قبل المنحدر، من أوراق مثقف مصرى، للمركز المصرى العربى، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

● محمد أحمد فرغلى (باشا)

عشت حياتى بين هؤلاء، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٨٤.

● محمود الربيعى (الدكتور)

فى الخمسين عرفت طريقى، سيرة ذاتية، مطبعة المستقبل، الطبعة الأولى، ١٩٩١.

● ميلاد حنا (الدكتور)

ذكريات سبتمبرية، دار المستقبل العربى، ١٩٨٦.

٧ ـ محاكمة ثورة يوليو مذكرات رجال القانون والقضاء

دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٩ـ رقم الإيداع ١٩٩٩/٥٣٩٧.

● محمد عصام الدين حسونة المستشار عصام حسونة

شهادتى.. ٢٣ يوليو وعبد الناصر، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

● ممتاز نصار (المستشار)

معركة العدالة فى مصر، دار الشروق، الصفحة الأولى، نوفمبر ١٩٧٤.

● محمد عبد السلام (المستشار)

سنوات عصيبة ذكريات نائب عام، دار الشرق، القاهرة، الطبعة الثانية، مايو ١٩٧٥.

● جمال الدين العطيفى (الدكتور)

آراء فى الشرعية وفى الحرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.

● جمال الدين العطيفى (الدكتور)

من منصة الاتهام، دار المعارف، ١٩٦٨.

● محمد عبد السلام الزيات

مصر إلى أين قراءات وخواطر فى الدستور الدائم ١٩٧١، دار المستقبل العربى، ١٩٨٥.

● محمد عبد السلام الزيات

السادات الحقيقة والقناع، كتاب الأهالى، رقم ١٨، فبراير ١٩٨٩.

● ماهر برسوم (المستشار)

مذكرات مستشار مصرى، دار العرب البستانى، ١٩٨٥.

● حسن عبد الغفار (المستشار)

ذكريات مستشار، دار الفكر العربى، بدون تاريخ.

٨ ـ الأمن القومى لمصر مذكرات قادة المخابرات والمباحث

دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٩ـ رقم الإيداع ١٩٩٩/١٣١٢٨

● محمد حافظ إسماعيل

أمن مصر القومى فى عصر التحديات، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

● **صلاح نصر**

ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير، الجزء الأول الأصول، مؤسسة الاتحاد للطباعة والنشر، أبوظبي، ١٩٨٦.

● **أمين هويدى**

عبدالناصر، دار المستقبل العربى، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.

● **أحمد كامل**

من أوراق رئيس المخابرات العامة.. أحمد كامل يتذكر، دار الهلال، ١٩٩٠، تحرير أحمد عز الدين.

● **حسن طلعت (اللواء)**

فى خدمة الأمن السياسى مايو ١٩٤٩ـ مايو ١٩٧١، دار الوطن العربى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

● **فؤاد علام (اللواء)**

الاخوان وأنا.. من المنشية إلى المنصة، المكتب المصرى الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

٩ ـ من أجل السلام: معارك التفاوض.. مذكرات قادة الدبلوماسية المصرية

دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٩ـ رقم الإيداع ١٦٥٥٥/ ١٩٩٩ ISBN:977-5979-04-8

● **أحمد عصمت عبد المجيد (الدكتور)**

زمن الانكسار والانتصار، مذكرات دبلوماسى عن أحداث مصرية وعربية ودولية، نصف قرن من التحولات الكبرى، دار الشروق، ودار النهار، الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٨٨.

● **محمود رياض**

مذكرات محمود رياض (١٩٤٨ـ١٩٧٨) البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٥.

● **محمد إبراهيم كامل**

السلام الضائع فى كامب ديفيد، كتاب الأهالى (١٢)، ١٩٨٧.

● **حسين ذو الفقار صبرى**

يانفسى لا تراعى، تقديم يحيى حقى، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

● **محمد عبد الوهاب العشماوى (الدكتور)**

شرخ فى جدار الجامعة العربية، المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٧.

● **جمال بركات (السفير)**

طرائف دبلوماسية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧.

١٠ـ الطريق إلى النكسة مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٠ـ رقم الإيداع ٢٣٨٧/ ٢٠٠٠ ISBN:977-5979-11-0

● **عبد الحميد الدغيدى (اللواء)**

جريدة الأيام، ٥ يونيو ١٩٨٨، ١٢ يونيو، ١٩ يونيو، ٢٦ يونيو، ٣ يوليو، ١٠ يوليو، ١٧ يوليو تولى تحرير المذكرات أحمد الجابرى

مجلة أكتوبر، العدد ٨٧٠: ٢٧ يونيو ١٩٩٣.

- **عبد المحسن كامل مرتجى (الفريق أول)**

الفريق مرتجى يروى الحقائق، قائد جبهة سيناء فى حرب ١٩٦٧، دار الوطن العربى.

- **أنور القاضى (الفريق)**

مذكرات، آخر ساعة، حوار مع محمد وجدى قنديل بمناسبة مرور ٢١ عاما على حرب يونيو ١٩٦٧، آخر ساعة، ٨/ ٦/ ١٩٨٨.

- **صلاح الحديدى (الفريق)**

شاهد على حرب ١٩٦٧، مطبعة مدبولى، ١٩٧٤.

- **صلاح الحديدى (الفريق)**

شاهد على حرب اليمن، مطبعة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.

- **محمد فوزى (الفريق أول)**

حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧ - ١٩٧٠، دار المستقبل العربى، ١٩٩٠.

١١- النصر الوحيد مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٠- رقم الإيداع ٤٧٢٣/ ٢٠٠٠ ISBN:977-5979-12-9

- **محمد عبد الغنى الجمسى (المشير)**

مذكرات الجمسى، حرب أكتوبر ١٩٧٣، المنشورات الشرقية، باريس، ط ١، ١٩٨٩.

- **سعد الشاذلى (الفريق)**

حرب أكتوبر، مذكرات الشاذلى، الجزء الأول ٦٨ - ١٩٧٣ حرب أكتوبر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، وذكر فى الكتاب أنه من منشورات مؤسسة الوطن العربى للطباعة والنشر، باريس، بالتعاون مع دار المحرر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

- **عبد المنعم خليل (اللواء)**

فى قلب المعركة، المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٥.

نشرت بعض فصول من المذكرات قبل ذلك فى كتاب «حروب مصر فى أوراق قائد ميدانى» عن دار المستقبل العربى، وفى جريدة «الأنباء» الكويتية، أغسطس ١٩٨٩.

- **يوسف عفيفى (الفريق)**

أبطال الفرقة ١٩، مقاتلون فوق العادة، دار الصفوة، الغردقة.

- **عادل يسرى**

رحلة الساق المعلقة ١٩ من رأس العش إلى رأس الكوبرى، دار المعارف، ١٩٧٤.

١٢- فى أعقاب النكسة

مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ١٩٧٢

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠٠- رقم الإيداع ١٦٧٦٧/ ٢٠٠٠ ISBN:977-5979-17-X

- **مدكور أبو العز (الفريق)**

مذكرات الفريق مدكور أبو العز، نشرت على ٣٥ حلقة فى جريدة الوفد، أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، ١٩٨٧.

● **محمد أحمد صادق (الفريق أول)**

لم تنشر المذكرات كاملة حتى الآن، إلا أن أجزاء متعددة منها نشرت فى :

* جريدة الشعب، مايو ١٩٨٢ .
* جريدة الشرق الأوسط، يونيو ١٩٨٧ .
* حديث مطول مع الأستاذ أحمد حسن عبدون، مجلة الشباب، مايو ١٩٩١ .
* ذكريات للفريق صادق أدلى بها لجريدة الأحرار .

● **محمد صدقى محمود (الفريق أول)**

لم تنشر المذكرات كاملة حتى الآن، إلا أن أجزاء متعددة منها نشرت فى :

* جريدة الأحرار، ٣ يناير ١٩٨٣ .
* مجلة الحرس الوطنى السعودية، ١٩٨٥ شهور ذى الحجة والمحرم وصفر .
* الأنباء الكويتية، مايو ١٩٨٦ : الرجل الأول والأول مكرر فى مصر .
* جريدة الشرق الأوسط ، ٨ يونيو ١٩٨٧ .

● **محمد فوزى (الفريق أول)**

استراتيجية المصالحة، دار المستقبل العربى، ١٩٨٦ .

● **صلاح الحديدى (الفريق)**

حوار مع الأستاذ هشام عبد الغفار، مجلة الشباب، أكتوبر ١٩٩١ .

١٣ ـ على مشارف الثورة: مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢)

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠١ ـ رقم الإيداع ١٨٧٣٢/ ٢٠٠٠ ISBN:977-5979-19-6

● **أحمد مرتضى المراغى (باشا)**

مجلة أكتوبر، ٢٣ حلقة بدءا من ٢٦ يناير ١٩٨٦ وحتى ٢٢ يونيو ١٩٨٦ .

● **كريم ثابت (باشا)**

* عشر سنوات مع فاروق ١٩٤٢ ـ ١٩٥٢ ، نهاية الملكية، مذكرات كريم ثابت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ .
* فاروق كما عرفته، ملك النهاية، مذكرات كريم ثابت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ .

● **إبراهيم فرج (باشا)**

ذكرياتى السياسية، حوار مع حسنين كروم، الناشر مكتبة الحياة، القاهرة، ١٩٨٤ .

● **صليب سامى (باشا)**

مذكرات صليب سامى ١٨٩١ ـ ٤٧٥ ـ ١٩٥٢ ، نقد وتحليل د سامى أبو النور، مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ .

نشرت هذه المذكرات فى طبعة سابقة قبل ذلك، لكنها غير متاحة .

● **عبد الرحمن الرافعى (بك)**

مذكراتى ١٨٨٩ ـ ١٩٥١ ، الطبعة الثانية، كتاب اليوم، العدد ٢٩٨ ، سبتمبر ١٩٨٩ فيه إشارة إلى أن هذه الطبعة مطابقة تماما للطبعة الأولى التى صدرت عن دار الهلال، ١٩٥٢ .

١٤ـ فى خدمة السلطة: مذكرات الصحفيين

دار الخيال، القاهرة، ٢٠٠١ـ رقم الإيداع ٩٨٠٠/ ٢٠٠٠ ISBN:977-5979-15-3

- **موسى صبرى**

٥٠ عاما فى قطار الصحافة، مذكرات موسى صبرى، دار الشروق، ١٩٩٢ .

- **أحمد بهاء الدين**

محاوراتى مع السادات، دار الهلال، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ .

- **عبد الستار الطويلة**

السادات الذى عرفته، هيئة الكتاب، ١٩٩٢ .

- **فتحى غانم**

معركة بين الدولة والمثقفين، كتاب اليوم، عدد سبتمبر ١٩٩٥ ، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٩٥ .

- **حلمى سلام**

أنا وثوار يوليو، ط ٢، دار ثابت، ، ١٩٨٦ .

- **حلمى سلام**

ضمن كتاب: ثورة يوليو والصحافة، بقلم رشاد كامل، الفصل التاسع، الجداوى للنشر، الطبعة الأولى ١٩٧٩ .

- **جلال الدين الحمامصى**

حوار وراء الأسوار، المكتب المصرى الحديث، الطبعة الأولى، يناير ١٩٧٦ .

١٥ ـ تكوين العقل العربى: مذكرات المفكرين والتربويين

دار الخيال ، القاهرة، ٢٠٠٣ـ رقم الإيداع ٢١٠٧٨/ ٢٠٠٢ ISBN:977-5979-31-5

- **شوقى ضيف (الدكتور)**

معى، الجزء الأول، سلسلة اقرأ، عدد ١٥ فبراير ١٩٨٥ ، دار المعارف، القاهرة.

- **عبد الرحمن بدوى (الدكتور)**

سيرة حياتى، الموسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠ .

- **محمد عبد الله عنان**

مصر فى عيون أبنائها ثلثا قرن من الزمن، مذكرات عبد الله عنان، دار الهلال، كتاب الهلال ٤٤٥ ، يناير ١٩٨٨ .

- **محمد على العريان (الدكتور)**

العريان والزمان، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ .

- **أحمد عبد السلام الكردانى (الدكتور)**

حقبة من الزمان، كتاب الهلال، عدد نوفمبر ١٩٨٠ .

- **نادية رضوان (الدكتورة)**

رحلتى إلى عالم الجن والعلاج الروحانى، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ .

obeikan.com

١٦ ـ الثورة والإحباط: مذكرات الأدباء وأساتذة الأدب

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ ـ رقم الإيداع ٢٠٨١١/ ٢٠٠٤ ISBN:977-01-9404-2

● **أحمد هيكل (الدكتور)**

سنوات وذكريات، سيرة ذاتية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧ .

● **على الحديدى (الدكتور)**

رحلة مع الأيام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢ .

● **جليلة رضا**

صفحات من حياتى، كتاب الهلال، العدد ٤٢٧، يوليو ١٩٨٦ ، دار الهلال، ١٩٨٦ .

● **صالح مرسى**

هم وأنا، سيرة ذاتية نجيب محفوظ، يحيى حقى، يوسف إدريس، يوسف السباعى، توفيق الحكيم، مكتبة مدبولى الصغير، ١٩٩٥ .

● **فتحى أبو الفضل**

رحلتى مع الرواية، سلسلة كتابك، دار المعارف، ١٩٧٩ .

● **عايدة الشريف**

شاهدة ربع قرن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ .

● **أمانى فريد**

أيام وذكريات، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ .

١٧ ـ عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ٢٠٠٥ـ رقم الإيداع ٤٩١٣/ ٢٠٠٥ ISBN:977-01-9521-9

● **سمير فاضل (الدكتور)**

كنت قاضيا لحادث المنصة مذكرات قاض عسكرى من حرب اليمن إلى اغتيال السادات، سفنكس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٣ .

● **أحمد طعيمة**

شاهد حق: صراع السلطة نجيب، عبد الناصر، عامر، السادات، مطابع الأهرام التجارية، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ١٩٩٩ .

● **مصطفى بهجت بدوى**

حكايات سبتمبر ٤٢ : على هامش عهود فاروق وعبد الناصر والسادات، الأهرام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٠ .

● **حلمى السعيد**

شهادتى للأجيال، دار المستقبل العربى، ١٩٩٩ .

● **رياض سامى**

شاهد على عصر الرئيس محمد نجيب، إعداد محمد ثروت، المكتب المصرى الحديث .

١٨ـ أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥ـ رقم الإيداع ٧٢٥٦/ ٢٠٠٥ ISBN:977-01-9542-1

- **زكى سويدان (الدكتور)**

مشوار حياتى، أهم حوادث القرن، دار الوزان للطباعة والنشر المعادى، ٦٦٤ صفحة، ١٩٩١.

- **مصطفى الرفاعى (الدكتور)**

خواطر طبيب، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٩٥.

- **مصطفى الديوانى (الدكتور)**

قصة حياتى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.

- **دمرداش أحمد (الدكتور)**

يوميات طبيب فى الأرياف، سلسلة كتابك، الكتاب ٣٨، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

- **أرنست سليمان شلبى (الدكتور)**

أقاصيص وأقاصيص، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

١٩ـ بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦ـ رقم الإيداع ١٣٨٥٩/ ٢٠٠٦ ISBN:977-419-175-7

- **سليمان حزين (الدكتور)**

مستقبل الثقافة فى مصر، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

- **سمحة الخولى (الدكتورة)**

من حياتى مع الموسيقى، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

- **عبد الحليم منتصر (الدكتور)**

ذكريات عطرة وخواطر عابرة هؤلاء علمونى، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

- **عبد الكريم درويش (الدكتور)**

حصاد السنين، مطابع الشرطة، القاهرة، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٣.

٢٠ ـ فى كواليس الملكية: مذكرات رجال الحاشية فى العصر الملكى

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧ـ رقم الإيداع ٣٨٧٠/ ٢٠٠٧ ISBN:977-419-613-9

- **حسن يوسف**

القصر ودوره فى السياسة المصرية ١٩٢٢ـ١٩٥٢ مذكرات حسن يوسف، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٢.

- **حسين حسنى (الدكتور)**

السكرتير الخاص للملك فاروق سنوات مع الملك فاروق شهادة للحقيقة والتاريخ، الطبعة الأولى، دار الشروق، ٢٠٠١.

obeikan.com

● صلاح الشاهد

ذكرياتى فى عهدين، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، الجزء الأول عهد الملكية.

● الغريب الحسينى

سنوات فى البلاد الملكى مذكرات الغريب الحسينى، الحارس الخاص للملك فاروق، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، ١٩٩٨.

٢١ـ فى رحاب العدالة: مذكرات المحامين فى عصر مصر الحديثة

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧ـ رقم الإيداع ٥٧٥٧/ ٢٠٠٧ ISBN:977-49-669-4

● عبد الفتاح حسن (باشا)

ذكريات سياسية للوزير السابق عبد الفتاح حسن المحامى، دار الشعب، ١٩٧٤.

● فتحى رضوان

شهراً مع عبد الناصر، كتاب الحرية، الطبعة الثالثة، ملحق صور، ١٩٨٧. مثبت على الغلاف أنها الطبعة الثانية فصلان جديدان، صدرت الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

● يوسف نحاس (الدكتور)

ذكريات.. سعد عبد العزيز.. ماهر ورفاقه فى ثورة سنة ١٩٨٤،.. تصرفات حكومية، دار النيل للطباعة، ١٩٥٢.

● محمود كامل (الدكتور)

يوميات محام، كتاب اليوم، عدد شهر يوليو ١٩٨٤، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٨٤.

٢٢ ـ يساريون فى عصر اليمين: مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧ـ رقم الإيداع ١٤٥٤٥/ ٢٠٠٧ ISBN:977-419-777-1

● محمد مراد غالب (الدكتور)

مع عبد الناصر والسادات سنوات الانتصار وأيام المحن، مذكرات مراد غالب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠١

● حامد عمار (الدكتور)

خطى اجتزناها بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة، سيرة ذاتية، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦.

● رشدى سعيد (الدكتور)

رحلة عمر، ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٠.

● عبد العظيم أنيس (الدكتور)

ذكريات من حياتى، كتاب الهلال، العدد ٦١٨، يونيو ٢٠٠٢، دار الهلال، ٢٠٠٢.

٢٣ـ فى حدائق الجامعة: مذكرات خريجى جامعة القاهرة فى عقدها الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧ ISBN-978-977-240-063-2

- **عبد العزيز كامل (الدكتور)**

في نهر الحياة، المكتب المصري الحديث، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ .

- **شكري عياد (الدكتور)**

العيش على الحافة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣

- **إبراهيم عبده (الدكتور)**

الناس معادن، مكتبة الآداب بالجماميز وسجل العرب، ١٩٦٠ .

- **سعيد جودة السحار**

مواقف في حياتي، مكتبة نصر، الطبعة الثانية، منقحة مهذبة، مزيدة، بدون تاريخ .

٢٤ـ في ضوء القمر مذكرات قادة العمل الوطني والاغتيالات السياسية

مكتبة الشروق الدولية، رقم الإيداع ٢٠٠٨/٣١٢٩م ISBN-978-977-6278-12-7

- **عبد العزيز علي**

الثائر الصامت ، دار المعارف ،

- **عبد الفتاح عنايت**

قصة كفاح ، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون تاريخ .

- **أحمد رمضان**

نشرت في مجلة المصور على حلقات .

٢٥ـ العمل السري في ثورة ١٩١٩، مذكرات الشبان الوفديين

مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٩ . رقم الإيداع ٢٠٠٩/٤٧٩٣ ISBN-978-977-6278-66-0

- **سيد محمد باشا (الدكتور)**

حياتي : بقلم فدائي في ثورة ١٩١٩، دار البستاني، ٢٠٠٣ .

- **محمد مظهر سعيد**

سجين ثورة ١٩١٩، سلسلة اقرأ، دار المعارف، ١٩٦٩ .

- **إبراهيم عبد الهادي (باشا)**

ذكريات منشورة على حلقات في مجلة روز اليوسف . القاهرة، ١٩٨٢ .

- **عريان يوسف سعد**

مذكرات عريان يوسف سعد، دار الشروق ٢٠٠٧ .

٢٦ـ تحت الأرض وفوق الأرض، ضربة اليسار المصري

مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٠، رقم الإيداع ٢٠١٠/٥٨٦٨ . ISBN-978-977-701-008-5

- **ألفريد فرج**

ذكريات وراء القضبان، تحرير وتقديم نبيل فرج، رؤية للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٧ .

● **رفعت السعيد (الدكتور)**

مجرد ذكريات، الناشر دار المدى للثقافة والنشر ـ دمشق ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٩٩٩ .

● **رفعت السعيد (الدكتور)**

مجرد ذكريات ـ الجزء الثانى ـ الناشر دار المدى للثقافة والنشر ـ دمشق ـ ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ .

● **محمد يوسف الجندى**

مسيرة حياتى حتى ١٩٦٤، دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠ .

● **محمد يوسف الجندى**

مسيرة حياتى الجزء الثانى ـ دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة الطبعة الأولى، ٢٠٠١ .

● **رءوف عباس (الدكتور)**

مشيناها خطى . . سيرة ذاتية، دار الهلال ، ٢٠٠٤ .

● **أحمد عباس صالح**

عمر فى العاصفة، الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ .

● **صليب إبراهيم**

ذكريات معتقل سياسى ـ على نفقة المؤلف، ٢٠٠٧ .

٢٧ ـ ثلاثية السياسة والصناعة والفن: مذكرات أساتذة الهندسة

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١ . رقم الإيداع . . . . / ٢٠١١ ISBN-978-977-701-......-0

● **حسن فهمى**

عينى على الدنيا، دار الشروق، ١٩٧٦ .

● **عبد المنعم هيكل**

رحلة حياة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ .

● **مصطفى الرفاعى (الدكتور)**

عبور الفجوة التكنولوجية . . قصة عمل وطنى معاصر . مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧ .

● **عادل جزارين (المهندس)**

أربعون عامًا من الصناعة فى مصر، مطابع الأهرام التجارية، ٢٠٠٦ .

كشاف الأعلام الواردة

فى كتاب «تحت الأرض وفوق الأرض: غربة اليسار المصرى»(*)

(أ)

آرثر ميللر ١/ ٣٣، ٣٤

آمال فهمى ٧/ ٥٠

آمون ٦/ ٥٤

إبراهيم (أحد أعضاء نقابة للنسيج) ١/ ٤

إبراهيم (الأمير) ٢/ ٤٤

إبراهيم أرنست هرارى ٨/ ١٢

إبراهيم خلاف ٤/ ٥

إبراهيم سعد الدين ٣/ ٩

إبراهيم سعدة ٥/ ٩

إبراهيم صقر ٦/ ٣٨

إبراهيم عبد الحليم ٤/ ٤١، ٥٤، ٥٨، ٦٠؛ ٥/ ٨؛ ٧/ ٥٦ .

إبراهيم مطر ١/ ٢٣ .

إبراهيم المنياوى ٢/ ٧٢ .

إبراهيم ناجى ٧/ ٢١-٢٣ .

إبراهيم نصحى ٦/ ٤٤-٤٦، ٥٤ .

إبراهيم هلال ٢/ ٧٢ .

إحسان عبد القدوس ٥/ ٩، ١٠؛ ٧/ ٦٠ .

أحمد إدريس ٦/ ٣٤، ٣٥ .

أحمد أركو ٢/ ٣١ .

أحمد بهاء الدين ٥/ ٢٩؛ ٧/ ٦٠ .

أحمد الجمال ٦/ ٥٦ .

أحمد حجازى ٢/ ٤ .

أحمد حسن الزيات ٧/ ١٩ .

أحمد حمروش ١/ ٦؛ ٣/ ٩، ٢٣، ٢٧ .

أحمد حنيطر ٢/ ٣٤ .

أحمد درويش ٤/ ٣ .

أحمد رشدى صالح ١/ ٨؛ ٤/ ٣، ٥ .

أحمد الرفاعى ٤/ ٣، ٥٥؛ ٥/ ٥ .

أحمد سعيد ٧/ ٤٨، ٥٣، ٥٧ .

أحمد شكرى سالم ٤/ ٢١ .

أحمد شوقى ١/ ٣١ .

أحمد شوقى عبد الرحمن ٨/ ١٧ .

أحمد صادق سعد ٤/ ٣، ٢٠ .

أحمد طه ٣/ ١١؛ ٤/ ٢٧؛ ٦/ ١٢؛ ٨/ ١٦ .

أحمد عباس صالح م؛ ١/ ٢٢؛ ٦/ ٣٨؛ (هذا فضلاً عن الباب السابع كله).

أحمد عبد الرحيم مصطفى ٦/ ١٠، ٢٩-٣٣، ٣٨، ٤٢ .

أحمد عزت عبد الكريم ٦/ ١٠، ٣٠-٣٧، ٤٢، ٤٨ .

(*) م فى هذا الكشاف تعنى ورود العلم بمقدمة الكتاب، أما فيما عدا ذلك فالرقم الأول يدل على الأبواب، والرقم الثانى بعد الشرطة المائلة يختص بالفقرات وليس الصفحات.

ويشمل هذا الكشاف الأعلام الذين ورد ذكرهم مرتبطًا بمعالم منسوبة إلى أسمائهم مثل: حى الحسين، وميدان السيدة زينب، وقصر العينى؛ وذلك من باب التيسير على الباحث عن أحداث مرتبطة بهذه الأماكن.

obeikan.com

أحمد فخرى ٦/ ٤٣، ٤٥ .
أحمد فؤاد ٤/ ٧؛ ٥/ ٥ .
أحمد لطفى السيد ٧/ ٥٨ .
أحمد ماهر ٤/ ١٧ .
أحـمـد يوسف الجندى ٤/ ١٠، ١٢ـ١٤، ١٦، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٩، ٤٩؛ ٥/ ٢، ٨، ٢٣ . إخناتون ١/ ٨، ٢٢ .
إدجار جلاد ٧/ ٥٠ .
إدوار الخراط ١/ ٦ .
إريك رولو ٢/ ٣٧؛ ٣/ ٢٠؛ ٤/ ٦٥؛ ٧/ ٩ .
أسعد حليم ٢/ ٥٦؛ ٤/ ٣، ٢٠؛ ٨/ ١٦ .
أسماء حليم ٨/ ١٦ .
إسماعيل (الخديو) ٤/ ١٤ .
إسماعيل أباظة ٤/ ٥٧؛ ٥/ ٢ .
إسماعيل الحبروك ٧/ ٦٥، ٦٦ .
إسماعيل صبرى عبد الله ٣/ ٩؛ ٤/ ٥، ٥٨؛ ٥/ ٧ .
إسماعيل صدقى م؛ ٢/ ١٦؛ ٤/ ٩، ٦٩
إسماعيل فريد ٢/ ٣٩ .
إسماعيل مظهر ٢/ ٣٩؛ ٧/ ٦٨ .
إسماعيل همت ٤/ ٦٠؛ ٨/ ١٣، ١٨ .
إسماعيل يونس ٢/ ٦٤ .
أشرف زكى ٨/ ١٠ .
ألبير كامى ١/ ٣٤ .
ألفريد فرج م؛ ٨/ ١١ هذا فضلاً عن الباب الأول كله
إليوت ١/ ٣٤ .
أم جرجس ٦/ ٢١ .
أم كلثوم ٧/ ٢٢، ٤٩ـ٥١ .
إمبلار ٤/ ٣٧، ٣٩، ٤٠ .
أمل صليب إبراهيم ٨/ ١٥ .
الأمير العطار ٢/ ٦٤ .
إميل بيرنز ٤/ ٤ .
أميمة أبو النصر ٦/ ٤٠ .
أمين بك (زميل رفعت السعيد) ٢/ ٢٢ .
أمين بسيونى ٧/ ٥٧ .
أمين عثمان ٧/ ١٥ .
أمين عز الدين ٦/ ١٠ .
أمين يحيى ٦/ ١ .
أمينة رزق ٧/ ٤٩ .
أناستاسيا محمد يوسف الجندى ٥/ ١٩، ٢١، ٢٣، ٣١
إنجى أفلاطون ٨/ ١٦ .
إنجى رشدى ٣/ ٣ .
أنجيلا ديفيز ٣/ ١٢ .
أندربيف ٧/ ١٨ .
إنديانا ٧/ ٦٥ .
أنطون الجميل ٤/ ١٨ .
أنور عبد الملك ٤/ ٢٠، ٢١ .
أنور المعداوى ٧/ ١٩، ٢٠، ٢٤ .
أنور مقار ٤/ ٤٥ .
أنور وحش ٤/ ١٥، ٢٥، ٥٤، ٦١ .
أنيس عبيد ٤/ ٥٤ .
أنيس منصور ٥/ ٩ .
أوديب ١/ ٩ .
أوفاديا سالم (زعيم الصهيونية فى مصر) ٢/ ٢٤ .
أبو إياد ٣/ ٤ .
إيتا جاكى ٦/ ٥٠ .
إيلى مينيون ٤/ ٤٠ .
أيمن أحمد الجمال ٦/ ٥٦ .

(ب)

باخ ٥/ ٢٧ .
بالما ٤/ ٤٦ .
البدراوى (أحد الرأسماليين) ٦/ ١ .
البدراوى عاشور ٢/ ٤٤ .
برنارد لويس ٦/ ٤٨ .
بريجنيف ٥/ ١٠ .
بريستد ١/ ٨ .
بريماكوف ٧/ ٩ .
بشر ٤/ ١٦ .
بليخانوف ٣/ ٨ .
بن دعسام ٦/ ٥٠ .
البقرى (عامل كفر الدوار) ٧/ ٥١؛ ٨/ ٦ .
بهاء فهمى ٤/ ٧ .
بهى الدين الرشيدى ٤/ ٤ .
بهيج نصار ٤/ ٦٠ .
بوليتزير ٧/ ١٢ .

obeikan.com

بو مارشيه ١/ ٦ .

(ت)

بيتهوفن ٥/ ٢٧ .
التبريزى ١/ ٩ .
تحسين بشير ٥/ ٢٩ .
تشايكوفسكى ٥/ ٢٧ .
تشيكوف ١/ ٢٠، ٢٤ .
أبو تمام ١/ ١٥؛ ٨/ ٦، ٧ .
تنيسى ويليامز ١/ ٣٣، ٣٤ .
توفيق الحكيم ١/ ٢، ٣٠-٣٢ .
تولستوى ١/ ١٥ .
تيتو ٨/ ٦ .

(ث)

ثريا (زوجة فوزى الحبشى) ٨/ ١٦ .
ثريا أدهم (زوجة حلمى يس) ٨/ ١٦ .

(ج)

جاكو دى كومب ٤/ ٣ .
جان أنوى ١/ ٣٤ .
جان بول سارتر ١/ ٣٤ .
جان فيلار ١/ ٣٤ .
جان لوى بارو ١/ ٣٤ .
الجبرتى ٧/ ٢٨ .
أبو جرجس ٦/ ٢١ .
جريس كيلى ٢/ ٧٠ .
جلال السيد ٦/ ٣٨، ٤٠؛ ٧/ ٤٠ .
جلود ٣/ ٢٩ .
جمال بدوى ٢/ ٦٤ .
جمال بركات ٣/ ٥ .
جمال زكريا قاسم ٦/ ٥٦ .
جمال سالم ٧/ ٦٠ .
جمال عبد الناصر؛ ١/ ٨، ٢٢، ٣٦؛ ٢/ ٣، ٤، ٧، ٨، ١٠، ٢٦، ٢٧، ٣٣-٣٥، ٣٧-٣٩، ٤١-٤٥، ٤٨-٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٧-٥٩، ٦٣، ٦٦-٦٨، ٧٤-٧٦؛ ٣/ ١٠، ٢١، ٢٢، ٢٤-٢٦؛ ٤/ ١، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٦٥، ٦٧؛ ٥/ ٥-٧، ١١؛ ٦/ ٨، ٩، ٤٨، ٤٩، ٥٧؛ ٧/ ١، ٦، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٥٢-٥٤، ٥٧، ٥٨؛ ٨/ ١، ٣، ٥، ٦، ٨ .
جمال العطيفى ٤/ ٢، ٥، ١٤، ١٥، ١٩-٢٢، ٢٤، ٥٨؛ ٥/ ٨ .
جمال غالى ٤/ ٢١، ٦٠ .
جمال نوير ٦/ ٤٠ .
جمعة (شاويش التعذيب) ٢/ ٣٠ .
جنيدى خلف الله ٢/ ٥٤ .
جهاد صليب إبراهيم ٨/ ١٤ .
جورج بوميدو ٥/ ١٠ .
جونسون ديفز ٧/ ٢٥ .
جويس بلاو ٤/ ٥٢ .
الجيوشى (شارع فى شبرا) ٦/ ٢١ .

(ح)

حافظ عفيفى ٢/ ٢٥ .
حافظ غانم (= د. محمد حافظ غانم) ٣/ ٥ .
حامد زيدان ٢/ ٦٤ .
حسام عيسى ٦/ ٣٨ .
حسان حتحوت ٤/ ٥ .
حسن (بطل قصة حسن ونعيمة) ٨/ ١٠ .
حسن (سفير مصرى فى اليابان) ٦/ ٥١ .
حسن حبشى ٦/ ٣٠ .
حسن حسنى ٦/ ٤٤ .
حسن دوح ٢/ ٤٥ .
حسن طلعت ٤/ ٥٧ .
حسن علام ٤/ ٤ .
حسن فؤاد ١/ ١٦؛ ٣/ ٩؛ ٤/ ٥٤، ٥٧؛ ٥/ ٥؛ ٨/ ١١
حسن المصيلحى ١/ ١٩، ٢٠؛ ٦/ ٣٤، ٣٥ .
حسن يوسف الجندى ٤/ ١٠، ٢٩، ٥٦ .
حسين الشافعى ٢/ ٥٣ .
حسين طنطاوى ٤/ ٥٨ .
حسين فهمى ٣/ ٩؛ ٧/ ٥٠، ٥٢، ٥٣ .
الحلوانى (مأمور سجن الحضرة) ٤/ ٦ , ٠
حلمى شعروى ٦/ ٣٨ .
حلمى يس ٨/ ١٦ .
حليم دوس ٧/ ٤٥ .
حليم طوسون ٤/ ٦٣ .
حمدى عبد الجواد ٤/ ٣، ٧، ٣٠ .
حمدى غيث ١/ ٨، ٢٢، ٣٣، ٣٤؛ ٧/ ٥٧ .

obeikan.com

الحمزاوى ٢/ ٢٥ .
حمزة البسيونى (الطبيب) ٨/ ١١ .
حنفى سليمان ٢/ ٥٣ .
حنيفة السلحدار ٦/ ١٧، ١٨ .

(خ)

أبو خالد ٣/ ٤ .
خالد بكداش ٤/ ٤١ .
خالد محمد خالد ٤/ ٤٨ .
خالد محيى الدين ٢/ ١، ٤٠، ٤٥، ٥٤-٦٠، ٦٣-٦٩؛ ٣/ ٢، ٣، ٥-٧، ٩، ١١، ٢٧؛ ٤/ ٥٠، ٥١؛ ٥/ ٥؛ ٧/ ٥٨ .
خروشوف ٢/ ٢٦؛ ٤/ ٦٥ .
الخضر (عليه السلام) ٧/ ١٠ .
خليل صابات ٦/ ٤٢ .
خليل مدكور ٧/ ٤٧ .
خميس (عامل كفر الدوار) ٧/ ٥١؛ ٨/ ٦ .
خوفو ٨/ ١٠ .
خيرت ٢/ ٤ .

(د)

الدجوى (اللواء) ٨/ ١٧ .
الدراوى ٤٨٥ (اسم أرض تكّون حيًا فى شبرا) ٦/ ١٦ .
دستوفيسكى ٧/ ٢٠ .
الدوغرى (علية الدوغرى: اسم مسرحية لنعمان عاشور) ١/ ٢٤ .
دويدار (زوجة عثمان فوزى) ٤/ ٢٩ .
ديستوفسكى ١/ ١٥ .
دينا فورتى ٣/ ٥ .

(ذ)

ذات الهمة ٨/ ١٠ .
أبو ذر الغفارى ١/ ٢٢؛ ٧/ ٥٧ .

(ر)

راتمان ٣/ ٢٨، ٢٩ .
راسين ١/ ٢٤ .
راشد البراوى ٢/ ٧٣ .
رءوف عباس م؛ (هذا فضلا عن الباب السادس كله) .
رجاء طنطاوى ٨/ ١٦ .
رشيد عالى الكيلانى ٧/ ٦٩ .
رضا ٨/ ١٠ .
رفعت السعيد م؛ ٤/ ١؛ ٥/ ٥، ٧ . (هذا فضلاً عن البابين الثانى والثالث كلهما) .
رفعت طنطاوى ٢/ ٥٣ .
رمسيس ٤/ ١١؛ ٨/ ١٠ .
روبير ستون ٤/ ٤٠ .
روز اليوسف ٣/ ٩؛ ٤/ ٥٧؛ ٧/ ٥٠، ٦٠، ٦٥ .
روميش ٣/ ٢ .
ريمون دويك ٤/ ٢٠ .

(ز)

زايد بن سلطان آل نهيان ٦/ ٥٤ .
زرادشت ٤/ ١٣ .
أبو زعبل ١/ ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ٣٢؛ ٢/ ٧٦؛ ٤/ ٥٨، ٦٠، ٦٢؛ ٦/ ٣٤؛ ٨/ ٦، ١٣ .
زكريا الحجاوى ٧/ ١٥، ٢٤ .
زكريا محيى الدين ٢/ ٤٩؛ ٨/ ١٣ .
زكى عبد المتعال ٤/ ١٩ .
زكى عكاشة ١/ ٨٦ .
زكى مراد ٢/ ٤٢؛ ٣/ ٩؛ ٤/ ٦٣؛ ٥/ ٣ .
زكى هاشم ٤/ ١٩ .
زكية محمد زهدى ٤/ ١١ .
زنانيرى ٦/ ١٧ .
زهدى (رسام الكاريكاتير) ٧/ ٥٦؛ ٨/ ١١ .
زياد عبد الفتاح ٣/ ٧ .
أبو زيد (عم رءوف عباس) ٦/ ١٨ .
الزير سالم ٨/ ١٠ .
زينب (السيدة) ٢/ ٧، ٨؛ ٤/ ٢٤ .
زينب عصمت راشد ٦/ ٣٠ .
زينة النساء ١/ ٢٥، ٢٨ .

(س)

سامى (أحد ضباط التعذيب) ٢/ ٢٩ .
سامى داود ٧/ ٤٦ .
سامى الدروبى ٧/ ٢٠ .
سامى شرف ٢/ ٦٣؛ ٥/ ٥، ٨؛ ٧/ ٤٢ .
ستالين ١/ ٢٠، ٤/ ٤٤، ٤٨ .
ستيفن اسبندر ٧/ ٤٠ .
سراج الدين ٦/ ١ .

obeikan.com

سعاد الطويل ٨/ ١٦ .
سعاد يوسف الجندى ٤/ ١٠، ٢٩، ٥٤؛ ٥/ ٢ .
سعد أردش ١/ ٢٤ .
سعد التائه ٢/ ٦٨ .
سعد خيال ٤/ ٣ .
سعد الدين وهبه ١/ ٢٤ .
سعد رحمى ٢/ ١٢؛ ٤/ ٥٥ .
سعد زغلول م؛ ٢/ ١٧ .
سعد زهران ٦/ ٣٨ .
سعد صمويل الفيشاوى ٦/ ١٢ .
سعد فخرى عبد النور ٦/ ٥٤ .
سعد كامل ٣/ ٩ .
سعيد حبيب ٢/ ٦٤ .
سعيد خيال ٤/ ٥، ١٩، ٢٠ .
سعيد السعيد ٢/ ٦، ٧ .
سعيد سنبل ٥/ ٩ .
سعيد عبد الفتاح عاشور ٦/ ٤٨ .
سلامة موسى ٧/ ٢٤ .
سلطان بن محمد القاسمى ٦/ ٥٤ـ٥٦ .
سليمان الطماوى ٢/ ٤٦ .
سليمان غنام = محمود سليمان غنام ٨/ ١٧ .
سمير العصفورى ٨/ ١٠ .
سميراميس ٧/ ٤٥ .
سمير ناجى ٤/ ٥٨ .
سميرة الصاوى ٨/ ١٦ .
سيد (الحاج) ٢/ ٤٣ .
السيد بدير ٧/ ٤٩، ٥١، ٥٣ .
سيد حجاب ٥/ ١٥ .
سيد حسن عبده ٢/ ٧٧ .
سيد درويش ٤/ ٦٧؛ ٨/ ١١ .
سيد سليمان الرفاعى ٤/ ٦٣ .
سيد شكرى ٤/ ١٠ .
سيد قنيل ٦/ ١٢ .
سيد مكاوى ٤/ ٥٦؛ ٥/ ١٥ .
السيد يعقوب بكر ٦/ ٥١ـ٥٣ .
سيرانيان ٥/ ١٣ .
سيزا نبراوى ٤/ ٤٥ .

سيسكو ٣/ ٢٠ .
أبو سيف يوسف ٣/ ٩؛ ٤/ ٥٨ .
سينوت حنا ٢/ ١٦ .

(ش)

الشاطر حسن ١/ ١٨ .
شحاتة هارون ٥/ ٢٣ .
شريف حتاتة ٢/ ٤٢؛ ٤/ ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٦٣ .
شفيقة (بطلة قصة شفيقة ومتولى) ٨/ ١٠ .
شكرى عازر ٨/ ١٤، ١٦ .
شكرى عياد ٧/ ١٨ .
شكسبير ١/ ٢٤ .
شمس بدران ٦/ ٩ .
الشناوى = الشيخ محمد مأمون الشناوى (شيخ الأزهر) ٧/ ٢٧ .
شهدى عطية الشافعى ١/ ١٥، ٧٤، ٧٦؛ ٣/ ٦؛ ٤/ ٢، ٢١، ٢٤، ٥٨، ٦٠، ٦١؛ ٨/ ٦ .
شوبنهاور ٤/ ٥ .
شوقى عبد الحكيم ٨/ ١٠ .
شوك (رقيب ألمانى) ١/ ٩ .

(ص)

صبحى زغلول ٤/ ٧ .
صبرى أبو علم = محمد صبرى أبو علم ٤/ ١٦ .
صدام حسين ٧/ ٢، ٣٤، ٣٦، ٣٧ .
صلاح جاهين ١/ ١٩؛ ٤/ ٥٤، ٥٦؛ ٥/ ١٥ .
صلاح حافظ ٣/ ٩؛ ٤/ ٦٣؛ ٧/ ٢٣؛ ٨/ ١١ .
صلاح سالم ٧/ ١، ٥، ٥٠ـ٥٣، ٥٦، ٦٥، ٦٦ .
صلاح عبد الصبور ١/ ٦ .
صلاح قطب ٦/ ٤٩ .
صلاح القلش ٤/ ٢٧ .
صلاح نصار ٤/ ٤، ٥٧ .
صلاح يوسف الجندى ٤/ ١٠، ٢٩ .
صليب إبراهيم م؛ هذا فضلاً عن الباب الثامن كله .
صنع الله إبراهيم ٥/ ٤، ١٢ .
صوفى أبو طالب ٤/ ١٤ .

(ض)

ضياء بدر ٣/ ٢١ .

(ط)

طاهر القاضى ٢/ ٤٦ .
طلال سلمان ٣/ ٤ .
طلال بن عبد العزيز ٦/ ٥٤، ٥٥ .
طلعت حرب ١/ ٢٣ .
طه حسين ٧/ ٢٤، ٤٣ .

(ظ)

ظريف عبد الملك ٤/ ٢١ .

(ع)

عابدين ٧/ ٥٦ .
عادل أمين ٤/ ٥ .
عادل حسين ٤/ ٥٨، ٦٠ .
عادل كامل ١/ ٨ .
عاصم الدسوقى ٦/ ٣٤، ٥٦ .
عايدة محمد يوسف الجندى ٤/ ١٠، ١٦، ٥٤؛ ٥/ ٢، ٢٣ .
عائشة (السيدة) ٣/ ٢١ .
عباس حليم ٢/ ٧١؛ ٦/ ١١، ١٢ .
عباس رضوان ٧/ ٥٤ .
عباس محمود العقاد ٧/ ٥، ٢٠، ٢٤، ٣١، ٣٢ .
عبد الجابر خلاف ٤/ ٦٣ .
عبد الجليل حسن ٧/ ٤٠ .
عبد الحفيظ أبو ستيت ٢/ ٢٤ .
ابن عبد الحكم ٦/ ٣٧ .
عبد الحكيم الرفاعى ٤/ ١٩ .
عبد الحكيم عامر ٢/ ٥٨، ٧٤؛ ٣/ ٢٥، ٢٦؛ ٧/ ٥، ٦
عبد الحميد عبد الحق ٤/ ٢١ .
عبد الرازق حسن ٤/ ٥٧ .
عبد الرحمن البيلى ٧/ ٢٦ .
عبد الرحمن الخميسى ٣/ ٢١، ٢٢ .
عبد الرحمن الرافعى ٧/ ٤٧ .
عبد الرحمن الشرقاوى ١/ ٦؛ ٣/ ٩؛ ٤/ ٢٠، ٥٤ .
عبد الرحمن مكى ٣/ ٢٥ .
عبد الرحمن الناصر ٤/ ٢١ .
عبد الرحيم الزرقانى ١/ ٢٤ .
عبد الستار الطويلة ٥/ ١٥؛ ٨/ ١١ .
عبد الستار ميرغنى ٣/ ٩ .
عبد العال سلومة ٨/ ١٣ .
عبد العزيز الجندى ٤/ ٦٩ .
عبد العزيز شاكر ٨/ ١٦ .
عبد العزيز فهمى ٧/ ٤٨ .
عبد العظيم أنيس ٤/ ٦٢؛ ٨/ ٣ .
عبد العظيم رمضان ٦/ ٥٦ .
عبد الفتاح أبو الفضل ٢/ ٤٠ .
عبد القادر (اسم شارع فى المنصورة: سيدى عبد القادر) ٢/ ٤٤ .
عبد القادر التلمسانى ٤/ ٥٤ .
عبد القادر الجندى ٤/ ٨، ٢٢ .
عبد القادر حاتم ١/ ٢٢؛ ٥/ ٤؛ ٧/ ٥٧ .
عبد القادر يس ٨/ ٤ .
عبد القيوم (صديق لمحمد يوسف الجندى) ٤/ ٤٧ .
عبد الكريم أحمد ٦/ ٤٨ .
عبد الكريم قاسم ٢/ ٢٦ .
عبد اللطيف أحمد على ٦/ ٤٧ .
عبد اللطيف البغدادى ٧/ ٤٤، ٦٠ .
عبد اللطيف دراز ٧/ ٢٨ .
عبد اللطيف رشدى (أحد ضباط التعذيب) ٢/ ٣١ .
عبد الله (صاحب مقهى بالجيزة) ٧/ ١٥ .
عبد الله دراز ٧/ ٢٨ .
عبد المجيد سليم ٧/ ٦٧ .
عبد المجيد نعمان ٢/ ٤٩ .
عبد المحسن حمودة ٤/ ٥ .
عبد المعبود الجبيلى ٤/ ٢١ .
عبد الملك خليل ٥/ ٢٩ .
عبد المنعم إبراهيم ١/ ٢٣، ٢٥-٢٧ .
عبد المنعم السباعى ٧/ ٥٠ .
عبد المنعم شتلة ٤/ ٥٥ .
عبد المنعم عبيد ١/ ٢٩ .
عبد المنعم القصاص ٣/ ١١ .
عبد المنعم ماجد ٦/ ٣٠ .
عبد الناصر حسين (والد الرئيس جمال عبد الناصر) ٢/ ٣٤ .
عبد النبى (الأسطى) ٦/ ٧ .
عبد الهادى يعقوب ٣/ ٩ .

عثمان فوزی ٤/ ٢٩، ٣٢ .
عدلى (شارع فى وسط القاهرة) ٢/ ٤ .
عدلى برسوم ١/ ٢٩ .
عدلى لملوم ٨/ ٦ .
عز الدين رفعت ٤/ ٢١ .
عز الدين فودة ٤/ ٥ .
عز العرب أمين ٤/ ٥ .
عزيز أباظة ١/ ٣١ .
عصمت سيف الدولة ٤/ ١٤، ٥٤؛ ٥/ ٨ .
عطية إسماعيل ٤/ ٦٩ .
عقيل إسماعيل مظهر ٢/ ٣٩ .
على أحمد باكثير ١/ ٣١ .
على أدهم ٧/ ٢٠ .
على أمين ٢/ ٥٨، ٦٧ .
على حنيطر ٢/ ٣٤ .
على الشلقانى ٢/ ٦٨، ٦٩ .
على طلخان ٣/ ١٠ .
على الكسار ١/ ٣٢ .
على مبارك ٦/ ٣٧ .
علية توفيق (زوجة يوسف صديق) ٢/ ٥١؛ ٣/ ٢٣، ٢٤، ٢٦ .
عماد الدين ٧/ ١٦، ٣٢ .
عنترة ٨/ ١٠ .
عوض الجندى ٤/ ١٥ .
عوض سلامة ٢/ ١٦ .
العينى ٤/ ١٩، ٥٤؛ ٥/ ٢؛ ٧/ ٢٢ .

(غ)

غانم عبد الجليل ٧/ ٣٦ .
أبو الغيط ٦/ ٥١ .

(ف)

فاروق (الملك) ٤/ ١٧؛ ٦/ ٤٤؛ ٧/ ٥٦؛ ٨/ ٨، ١٧ .
فاروق ثابت ٢/ ٤، ٥١، ٥٤-٥٧؛ ٥/ ٣٢ .
فاطمة زكى ٤/ ٢١ .
فايز بطرس ٧/ ٦٣ .
فتحى رضوان ٤/ ٦٧ .
فتحى الرملى ٧/ ١٦ .
فتحى عبد الفتاح ٦/ ٤٠ .
فتحى غانم ١/ ٦؛ ٤/ ٥، ٢١؛ ٦/ ٤٠ .
فرج الله الحلو ٨/ ٦ .
فرعون ١/ ٦-٨، ٢١، ٢٢، ٣٢؛ ٣/ ٢٦ .
فريد حداد ٤/ ٦٠؛ ٨/ ٦ .
أبو الفضول ١/ ٢٥ .
فضيلة توفيق ٧/ ٥٠ .
الفلكى ٢/ ٤ .
فهمى سيد أحمد ٢/ ٢٥ .
فؤاد (الملك) ٢/ ٤٥ .
فؤاد حبشى ٤/ ٢٧ .
فؤاد حداد ١/ ١٨؛ ٤/ ٥٤؛ ٨/ ٤، ١١ .
فؤاد عبد الحليم ٤/ ٣، ٥، ٧ .
فؤاد قنديل ٢/ ٤٨ .
فؤاد مرسى ٣/ ٩؛ ٤/ ٣، ٥٨؛ ٥/ ٧ .
فودور استفان ٣/ ٣ .
فوزى الحبشى ٨/ ١٦ .
فوزى منصور ٨/ ١٦ .
فيديل كاسترو ٧/ ٨ .
الفيشاوى (مقهى فى القاهرة) ١/ ٣٣ .

(ق)

قابوس بن سعيد ٦/ ٥٤ .
قاسم فرحات ٢/ ٥٧ .
قبارى عبد الله ٣/ ١١ .
قدرى شعراوى ٢/ ١٨ .
قفة (التابع فى قصة على جناح التبريزى) ١/ ٩ .

(ك)

كافرى ٧/ ٤٥ .
كافكا ١/ ١٠ .
كامل زهيرى ٤/ ٥؛ ٦/ ٣٨؛ ٧/ ٥٤ .
كامل الشناوى ١/ ٦ .
كرامازوف ١/ ١٥ .
كرم مطاوع ١/ ٢٤؛ ٨/ ١٠ .
كريمة (زوجة محمد حجازى) ٢/ ٤ .
كريمة (زوجة محمد الزعفرانى) ٢/ ٦، ١٨ .
كلوت بك ٦/ ١٢ .
كمال أحمد ٣/ ١٠، ١١ .
كمال رفعت ٣/ ٩، ١٠؛ ٤/ ٥٥؛ ٧/ ٤١، ٤٢ .

كمال عبد الحليم ٢/ ٥، ٤٧؛ ٤/ ٥، ٧، ٢٨، ٣٢، ٤٨، ٥٤، ٥٥، ٥٨؛ ٧/ ٥٦ .
كمال عبد الرءوف ٥/ ١١ .
كمال عيد ٨/ ١٠ .
كمال القلش ٤/ ٢٧ .

(ل)

ل (رمز لأحد الصحفيين اليساريين) ٢/ ٦٥
لاظوغلى ١/ ١٩؛ ٦/ ٣٦ .
لاما ٦/ ٥١ .
لطفى الخولى ٣/ ٣، ٩؛ ٥/ ٧، ٨ .
لطفى واكد ٣/ ٩؛ ٧/ ٥٨ .
لطيفة الزيات ٤/ ٤، ٢١، ٣٠ .
لويس بشارة ٦/ ٥٤ .
لويس عوض ٤/ ٥٧؛ ٧/ ٢٠، ٢٤، ٤٠، ٤٢ .
ليلى (عضوة لجنة العائلات) ٢/ ١٨ .
ليلى (زوجة محمد يوسف الجندى الأولى) ٥/ ٢، ١٤، ١٥، ١٨، ١٩ .
ليلى دوس ٧/ ٤٥ .
ليلى أبو سيف ٨/ ١٠ .
ليلى عويس ٤/ ٥٦، ٥٧ .
لينين ١/ ٢٠؛ ٣/ ٨؛ ٤/ ٤٨ .
ليون فاكس ٤/ ٤٠ .

(م)

م (رمز لأحد الصحفيين اليساريين) ٢/ ٦٥ .
م. س (رمز لأحد الصحفيين اليساريين) ٢/ ٦١، ٦٥ .
م. ع (رز لأحد اليساريين) ٢/ ١١ .
ماجد صليب إبراهيم ٨/ ١٥ .
مار جرجس ٦/ ١٩، ٢١ .
مارى بابادوبلو ٢/ ١٨ .
ماكسيم جوركى ٤/ ٥٤ .
ماوتسى تونج ٤/ ٣١ .
مايكو فسكى ٤/ ٤٨ .
مايلز كوبلاند ٧/ ٤٥ .
مبارك ٢/ ٤ .
مبارك عبده فضل ٤/ ٥٨، ٦٠ .
المتنبى ١/ ١٥ .
متولى (بطل قصة شفيقة ومتولى) ٨/ ١٠ .
مجدى (اسم حركى لرفعت السعيد) ٢/ ٤٨ .
مجدى حسنين ٥/ ٥ .
مجدى يعقوب ٧/ ٦٢، ٦٣ .
محسن إبراهيم ٣/ ٧ .
محسّن الخياط ٨/ ٤ .
محسن محمد ٥/ ٩ .
محمد (ﷺ) ٤/ ٢٣ .
محمد ٢/ ٥ .
محمد (ابن أخت محمد يوسف الجندى) ٥/ ٢٦ .
محمد (زميل ألفريد فرج فى المعتقل) ١/ ١٦ .
محمد (قيادى عمالى فى شبرا) ٧/ ١٣، ١٤ .
محمد إبراهيم نقد ٤/ ٤٥ .
محمد أحمد خلف الله ٣/ ٩ .
محمد إسلام ٦/ ٧ .
محمد أنور السادات م؛ ٢/ ٢، ٣، ٦٥، ٧٣؛ ٣/ ٤، ٥، ٧، ٢٤؛ ٦/ ٥٧؛ ٧/ ٥، ٧، ١٥، ٤٦، ٤٧، ٥٢، ٥٣، ٦٤ .
محمد أنيس ٦/ ٣٣، ٣٨-٤٢، ٤٨؛ ٧/ ٣٤ .
محمد البهى ٧/ ٦٧ .
محمد تبارك ٥/ ٩ .
محمد توفيق ٣/ ٢٣ .
محمد توكل ٢/ ٤٨ .
محمد جمال الدين المسدى ٦/ ٤٢ .
محمد جميل الدين ٤/ ٤ .
محمد حسن عمارة ٦/ ١٢ .
محمد حسنى مبارك م؛ ٣/ ٣، ٨؛ ٤/ ٦٩ .
محمد حسنين هيكل ٢/ ٥٤-٥٦، ٥٨-٦٢، ٦٤، ٦٦، ٦٩؛ ٣/ ٣؛ ٥/ ٧، ٨؛ ٦/ ٥٦؛ ٨/ ٣ .
محمد حلاوة ٢/ ٥٠ .
محمد حمام ٨/ ١١ .
محمد خليل قاسم ٤/ ٦٣ .
محمد رشيد رضا ٧/ ٢٨ .
محمد رفعت ٧/ ١٠ .
محمد زهدى ٤/ ١١ .
محمد سيد أحمد ٥/ ٨ .
محمد شطا ٤/ ٦٣ .
محمد شفيق حنطور ٦/ ١، ٢، ٧، ٩ .
محمد صابر عرب ٦/ ٥٦ .

محمد صبرى أبو علم ٤/ ١٦ . (انظر أيضًا صبرى أبو علم)
محمد صلاح الدين ١/ ٣٥ .
محمد الطوخى ١/ ٢٢ .
محمد حجازى ٢/ ٣ .
محمد الخفيف ١/ ١٠ .
محمد شطا ٢/ ٤٢ .
محمد عباس فهمى ٣/ ١١؛ ٤/ ٦٠ .
محمد عبد السميع ٣/ ١٠ .
محمد عبد الوهاب ٧/ ٥٠ .
محمد عبده ٧/ ٢٨ .
محمد عثمان ٨/ ٦ .
محمد عصفور ٤/ ٢ .
محمد على ١/ ١٩، ٢١ .
محمد على الخياط ٤/ ٥٧ .
محمد عمارة ٤/ ٦٣؛ ٥/ ١٥ .
محمد عودة ٧/ ١٨، ٥٤ .
محمد فريد ٣/ ٦؛ ٧/ ٤٧ .
محمد فريد خميس ٦/ ٥٤ .
محمد فريد شهدى (اسم مستعار لرفعت السعيد) ٣/ ٦ .
محمد فريد وجدى ٧/ ٢٨ .
محمد فهمى عبد اللطيف ٢/ ٥٣ .
محمد فهيم ٤/ ٤ .
محمد القصبجى ٧/ ١٧ .
محمد الكاشف ٦/ ١٧ .
محمد كامل ٤/ ٥ .
محمد كامل القاويش ٤/ ٥٨ .
محمد لبيب شقير ٤/ ٤ .
محمد محمود ٤/ ١٨ .
محمد المسيرى ١/ ٣٢ .
محمد مفيد الشوباشى ٧/ ٢٤ .
محمد مندور ٧/ ٢٠، ٢٤، ٤٢ .
محمد مهدى الجواهرى ٨/ ٧ .
محمد أبو نار ٧/ ٥٤ـ٥٦ .
محمد نجيب ٢/ ٥٠؛ ٣/ ٢٥؛ ٧/ ٥٢ .
محمد يسرى أحمد ٧/ ٢٣ .
محمد يوسف الجندى م؛ (هذا فضلاً عن البابين الرابع والخامس كلهما) .
محمد يوسف المدرك ٦/ ١٢، ٣٤ـ٣٦ .
محمد يوسف موسى ٧/ ٢٨ .
محمود (رئيس إحدى نقابات مصانع النسيج) ١/ ٤ .
محمود أمين العالم ٢/ ٦٦؛ ٤/ ٥٤، ٥٨، ٦٢؛ ٥/ ٥، ٧؛ ٦/ ٣٨ .
محمود بسيونى ٤/ ١٨ .
محمود توفيق ٣/ ٩ .
محمود حسن إسماعيل ٧/ ٢٠ .
محمود السعدنى ١/ ٢١ .
محمود شحاته ٢/ ٤٤ .
محمود الشرقاوى ٧/ ٢٨ .
محمود شلتوت ٧/ ٢٨ .
محمود صاحب ٢/ ٧٧ .
محمود العسكرى ٦/ ١٢ .
محمود عيد ٣/ ١٠ .
محمود أبو العيون ٧/ ٥، ٢٧ـ٣١ .
محمود فهمى النقراشى ٤/ ١٧ .
محمود القويسنى ٨/ ١٤ .
محمود ناموق ٢/ ٧٠ .
مصطفى أمين ٢/ ٥٨، ٦٧ .
مصطفى بهيج نصار ٤/ ٥٨ .
مصطفى درويش ٤/ ٤، ٦ .
مصطفى طيبة ٨/ ١٧ .
مصطفى كامل ٤/ ١١؛ ٧/ ١٥ .
مصطفى كامل (المهندس) ٨/ ١١ .
مصطفى كامل منيب ٤/ ٢٠ .
مصطفى كمال صدقى ٢/ ٧٣ .
مصطفى مشرفة ٨/ ١٠ .
مصطفى موسى ٤/ ٥ .
مصطفى النحاس ٢/ ١٦؛ ٤/ ١٧، ٣٩؛ ٦/ ٢٣ .
مصطفى هيكل ٤/ ٣ .
المصيلحى (ضابط أمن الدولة = حسن المصيلحى) ٤/ ٥٨ .
مطاوع (صول بمصلحة السجون) ٤/ ٦٠ .
معروف ٨/ ١٠ .
معين بسيسو ٨/ ٤، ٥ .

مكرم عبيد ٤/ ١٧ .
مكسيم جوركى ١/ ٢٠ .
ملك ٢/ ٧٢ .
منسى فهمى ٧/ ٤٩ .
منصور إسماعيل ٤/ ٦٩ .
مور = محمد عبد الوهاب مورو (رئيس جامعة القاهرة) ٢/ ٤٥ .
موسى (عليه السلام) ٣/ ١٨ ؛ ٧/ ١٠ .
موسى صبرى ٢/ ٥٤، ٦٩ ؛ ٥/ ٩ ؛ ٧/ ٦٤، ٦٦ .
ميشيل عفلق ٧/ ٣ .

(ن)

نادية (ابنة محمد يوسف الجندى) ٥/ ١٤، ١٦، ١٨، ٢٦
نادية (ناديجدا ميخايلوفنا، زوجة محمد يوسف الجندى) ٥/ ١٧-١٩، ٢١-٢٣ .
نادية لطفى ٧/ ٦١ .
ناهد رشاد ٢/ ٧٣ .
نايف حواتمة ٣/ ٨ .
نبيل زكى ٧/ ٨، ٤٠ .
نبيل فرج ١/ ٢ .
نبيل الهلالى ٥/ ٨ .
نجيب الريحانى ١/ ٣٢ .
نجيب سرور ٢/ ٤٧ .
نجيب محفوظ ٧/ ١٣، ٤١، ٤٢ .
نسل شاه ٢/ ٧٠ .
نعمان عاشور ١/ ٦، ٢٤ ؛ ٤/ ٢٠ ؛ ٧/ ١١، ٢٤، ٥٤ .
نعيمة (بطلة قصة حسن ونعيمة) ٨/ ١٠ .
نهيد ابو زهرة ٤/ ٥ .
نوبار باشا ١/ ١٩ ؛ ٤/ ٢٠، ٢٤ .
نوح ٨/ ١٠ .
نور الدين سليمان ٤/ ٦٠، ٦٢ .
نيتشة ٤/ ٥، ١٣ .
نيرون ٨/ ٣ .
نيكسون ٥/ ٢٨ .

(هـ)

هارلى ٧/ ٦٢ .
هتلر ١/ ٨، ٤٧ .
بنو هلال ٨/ ١٠ .
هلال عبد الله هلال ٢/ ٧٤ ؛ ٤/ ٥٨ .
هنرى كورييل ٤/ ٣٥، ٤١، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٦٨ .
أبو الهول ١/ ٩ .
هيرميس (اسم عزبة فى شبرا) ٦/ ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٣ .

(و)

واصل فيصل ٤/ ٤١ .
وانى بوتشى ٦/ ٥٠-٥٢ .
وحيد رمضان ٣/ ٢٥ .
ويجال (المؤرخ الألمانى) ١/ ٨ .

(ى)

ياسر عبد ربه ٣/ ٨ .
ياسر عرفات ٣/ ٧ ؛ ٤/ ٦٨ .
يحيى الجمل ٣/ ٩ .
يحيى حقى ٧/ ٦٤ .
يحيى السمالوطى (اسم مستعار لمحمد يوسف الجندى) ٤/ ٥٤ .
يحيى عبد الرشيد ٢/ ٤٨ .
يسوع ٢/ ٧٢ .
بنو يعقوب ٨/ ١٠ .
ينى (الخواجة) ٦/ ٢، ٣، ٧ .
يودكا ٤/ ٤٣، ٤٤، ٤٥ .
يوساب (الأنبا) ٢/ ٧٢ .
يوسف إدريس ١/ ٢٤ ؛ ٤/ ٢٦ ؛ ٧/ ٦، ٢٣، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٥ .
يوسف صباغ ٣/ ٢٢ .
يوسف الجندى ٤/ ٩ .
يوسف حزان ٤/ ٣٤، ٤٠، ٦٨ .
يوسف الحطاب ١/ ٢٢ ؛ ٧/ ٤٩-٥١ .
يوسف حلمى ٤/ ٨، ٤٥، ٥٠، ٥١، ٦٧ ؛ ٨/ ١١ .
يوسف درويش ٤/ ٣ .
يوسف رشاد ٢/ ٧٣ .
يوسف السباعى ١/ ٦ .
يوسف صديق ٢/ ٤٩-٥٢ ؛ ٣/ ٢٢-٢٦ .
يوسف فيصل ٤/ ٤١ .
يوسف وهبى ١/ ٦ ؛ ٧/ ٤٩ .
يوسف محمد يوسف الجندى ٤/ ٦٤ ؛ ٥/ ٢، ١٤، ١٥، ١٨، ٢٦ .
يونان لبيب رزق ٦/ ٥٤ .

oberkan.com

كتب للمؤلف

الكتب المسبوقة بدوائر سوداء ● متاحة لدى الناشرين المذكورين وموزعيهم
الكتب المسبوقة بمربعات بيضاء □ نفدت ولن يعاد طبعها لوجود طبعات جديدة أوفى منها
الكتب المسبوقة بمربعات سوداء ■ نفدت ونرجو الله أن يوفقنا لإعادة طبعها عن قريب

فى تراجم العلماء والأدباء

● **الدكتور محمد كامل حسين عالمًا ومفكرًا وأديبًا**

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

تضم الطبعة الثانية أبوابًا وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.

□ **الدكتور محمد كامل حسين عالمًا ومفكرًا وأديبًا**

الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨،

● **سيرة حياة على مصطفى مشرّفة**

الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

تضم الطبعة الثانية أبوابًا وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.

□ **مشرّفة بين الذرة والذروة**

الطبعه الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠.

● **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣.

تضم الطبعة الثانية أبوابًا وفصولاً مختلفة لم تضمها الطبعة الأولى.

□ **أحمد زكى حياته وفكره وأدبه**

الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

obeikan.com

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦ .

● **عاشق العلم أحمد مستجير**

المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨ .

■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨ .

● **أستاذ الجيل فى السعودية، محمد طاهر الدباغ**

سيرة حياته وفكرة التربوى وإنجازاته التربوية .

● **الحكيم الجراح**

سيرة حياة د. محمد عبد اللطيف، دار الخيال، ٢٠٠٩ .

فى تراجم علماء الدين:

● **الظواهرى والإصلاح الأزهرى**

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨

● **أصحاب المشيختين، سيرة حياة خمسة علماء جمعوا بين مشيختى الأزهر والإفتاء**

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩

● **إمام الاستنارة الأستاذ الشيخ محمد عبده**

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩ .

فى تراجم السياسيين

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩ .

● **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح**

مكتبة مدبولى، ١٩٩٩ .

● **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية**

مكتبة مدبولى، ٢٠٠٤ .

● **على ماهر ونهاية عصر الليبرالية**

دار الشروق، ٢٠٠٩ .

obeikan.com

فى تراجم العسكريين

● **عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية**

دار الخيال، ٢٠٠٦.

● **صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)**

دار جهاد، ثلاث طبعات : ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٥.

□ **(مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل)**

دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)**

دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

فى التراجم المجمعة

■ **مصريون معاصرون**

طبعتان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ٢٠٠٥ .

● **كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ووثائق**

الطبعة الأولى : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

■ **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

دار الأطباء، ١٩٨٤ .

■ **تسعة عشر أستاذا وصديقا**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ .

فى التاريخ العسكرى لمصر المعاصرة

□ **الطريق إلى النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧**

عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى.

طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

● **النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣**

محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى.

طبعتان ، دار الخيال، ٢٠٠٠ .

- **فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ - ١٩٧٢**

مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، وصلاح الحديدى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

فى الأمن القومى والسياسى

- **الأمن القومى لمصر، مذكرات قادة المخابرات والمباحث**

صلاح نصر، ومحمد حافظ إسماعيل، وأمين هويدى، وأحمد كامل، وحسن طلعت، وفؤاد علام.

طبعتان، دار الخيال، ١٩٩٩ .

- **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ - ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

طبعتان، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩,

فى تاريخ عهد الثورة

- **أهل الثقة وأهل الخبرة. مذكرات وزراء الثورة**

كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبو باشا.

الطبعة الثانية، ٢٠٠٨ .

- ☐ **مذكرات وزراء الثورة**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «أهل الثقة وأهل الخبرة».

دار الشروق، ١٩٩٤ .

- **الثورة والحرية، مذكرات المرأة المصرية**

بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

- ☐ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية».

دار الشروق، ١٩٩٥ .

- **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

محمد نجيب، خالد محيى الدين، عبد المنعم عبد الرؤوف، جمال منصور، عبد الفتاح أبو الفضل، حسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

□ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضًا بابًا عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.

دار الشروق، ١٩٩٦ .

فى تاريخ مصر قبل الثورة

- **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢**

أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

- **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.

الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ .

فى تاريخ الحركات الوطنية والعمل السرى

- **فى ضوء القمر : مذكرات قادة العمل السرى والاغتيالات السياسية**

عبد العزيز على ، وعبد الفتاح عنايت ، وأحمد رمضان زيان

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧ .

- **العمل السرى فى ثورة ١٩١٩ : مذكرات الشبان الوفديين**

إبراهيم عبد الهادى ، وسيد باشا ، وعريان يوسف سعد ، ومحمد مظهر سعيد

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩ .

فى تاريخ اليسار المصرى

- **يساريون فى زمن اليمين : مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى**

د. مراد غالب ، د. حامد عمار ، د. رشدى سعيد ، د. عبد العظيم أنيس

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦ .

- **تحت الأرض وفوق الأرض: غربة اليسار المصرى**

ألفريد فرج، رفعت السعيد، محمد يوسف الجندى، رءوف عباس ، أحمد عباس صالح، صليب إبراهيم، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩ .

obeikan.com

في تاريخ الطوائف المهنية في مصر المعاصرة

- **محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء**

محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار.

دار الخيال، ١٩٩٩ .

- **في رحاب العدالة : مذكرات المحامين**

عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧ .

- **من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

عصمت عبد المجيد، محمود رياض ، محمد إبراهيم كامل ، حسين ذو الفقار صبرى ، عبد الوهاب العشماوى ، جمال بركات .

دار الخيال، ١٩٩٩ .

- **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط في غير الحرب**

سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى .

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

- **ثلاثية السياسة والصناعة والفن: مذكرات أساتذة الهندسة**

حسن فهمى، وعبد المنعم هيكل، مصطفى الرفاعى، عادل جزارين

مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩ .

في تاريخ التعليم الطبي والطب

- **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى .

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

- **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبي الحديث**

الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧ .

فى تاريخ الفكر التربوى والحياة العقلية

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

● **مستقبل الجامعة المصرية**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

● **تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين**

شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

● **الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الأدب والأدباء**

أحمد هيكل، وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤ .

● **بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون**

سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦ .

● **فى حدائق الجامعة : مذكرات خريجى جامعة القاهرة فى عقدها الأول (١٩٣٠-١٩٤٠):**

عبدالعزيز كامل ، إبراهيم عبده ، شكرى عياد ، سعيد جودة السحار

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧ .

فى تاريخ الصحافة

● **مجلة الثقافة (١٩٣٩ - ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .

● **فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين**

موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الحمامصى.

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

فى الفكر التنموى

● **القاهرة تبحث عن مستقبلها**

دار المعارف، ٢٠٠٠ .

● **التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الازدهار**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ .

● **مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية**

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

● **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

□ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .

دراسات أدبية ولغوية

● **فن كتابة التجربة الذاتية: مذكرات الهواة والمحترفين**

دار الشروق، ١٩٩٧ .

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دار جهاد، ٢٠٠٣ .

● **على هوامش الأدب**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢ .

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**

دار جهاد، ٢٠٠٣ .

□ **من بين سطور حياتنا الأدبية**

دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

● **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤ .

● **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤ ، دار الشروق، ١٩٩٧ .

وجـدانيات

● **أوراق القلب (رسائل وجدانية)**

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤ .

obeikan.com

- **أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى**

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية ، أغسطس ١٩٩٩ .

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٧ .

الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩ .

فى أدب الرحلات

- **رحلات شاب مسلم**

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧ ، دار الشروق ١٩٩٥ ، دار جهاد ٢٠٠٣ .

- **شمس الأصيل فى أمريكا**

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ودار جهاد، ٢٠٠٣ .

فى الفكر السياسى

- **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

دار الخيال، ٢٠٠٢ .

- **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

- **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

تحقيق

- **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ ـ يوليو ١٩١٨**

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣ .

موسوعة تاريخ النظام السياسى المصرى المعاصر

- **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)**

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

- **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ ـ ٢٠٠٠)**

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

obeikan.com

□ **البنيان الوزارى فى مصر (١٩٥٢ـ١٩٩٦)**

دار الشروق ، ١٩٩٦ .

- **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

□ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ ـ ١٩٨١)**

الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

- المحافظون . . قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠ـ٢٠٠٠)

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١ .

□ **المحافظون**

الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦ .

أعمال موسوعية

- **القاموس الطبى نوبل فى ٢ أجزاء (بالاشتراك مع أ.د. محمد عبداللطيف)**

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨ .

فى طب القلب باللغة العربية

- **أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١**

دار المعارف، ٢٠٠١ .

- **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢**

دار المعارف، ٢٠٠١ .

ببليوجرافيات

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١ .

- **علي مصطفى مشرفة**

السلسلة الثقافية لطلائع مصر ، العدد ٣٧، المجلس القومي للشباب، القاهرة ، ٢٠٠٧ .

- **علي باشا إبراهيم**

المجلس القومي للشباب، ومجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة ، ٢٠٠٨ .

- **المشير أحمد إسماعيل**

المجلس القومي للشباب، ٢٠٠٩.

obeikan.com